I B R A H I M   A L - K O N I

سيرة سيرة
AUTOBIOGRAPHY

Twitter: @alqareah
12.4.2015

إبراهيم الكوني

عُدوسُ السُّرى
رُوحُ أممٍ في نزيفِ ذاكِرة

الجزءُ الثالِث

@ketab_n





إبراهيم الكوني

عدوس السرى

روح أمم في نزيف ذاكرة

الجزء الثالث



Twitter: @alqareah



Twitter: @alqareah

عدوس السرى (روح أمم في نزيف ذاكرة) (**3**) / سيرة ذاتيّة
إبراهيم الكوني / مؤلف من ليبيا
الطبعة الأولى ، **2014**
حقوق الطبع محفوظة



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب :5460-11 ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : 752308 / 751438
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب : 9157 ، هاتف : 5605432 ، هاتفاكس : 5685501
e-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ: www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي : رشاد برس

خطوط الغلاف : زهير أبو شايب / عمّان
الصفّ الضوئي : رشاد برس
التنفيذ الطباعيّ : رشاد برس / بيروت ، لبنان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without .prior permission in writing of the publisher

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات ، أونقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن مسبق من الناشر.
(ردمك)ISBN 978-614-419-417-1

Twitter: @alqareah

«أنا أحمل خشبتي على كتفي منذ خمسين سنة، لست أجد أحداً يصلبني عليها».

(دعبل الخزاعي)

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

القسم الأول

العَسْعَس

«الهبوط بالعرفان إلى أعماق الجحيم وحده يمهّد السبيل نحو التألّه».

(هامان)

* * *

وطارقِ ليلٍ زارنا بعد هجعةٍ ... من الليل إلاّ ما تحدّث سامرُ

فقلتُ لعبد الله ما طارقٌ أتى؟ ... فقال امرؤٌ سبقت إليه المقادرُ

قريناه صفو الزاد حين رأيته ... وقد جاء خفّاق الحشا وهو سادرُ

جميل المحيّا والرضا فإذا أَبَى ... حمته من الضيم الرماح الشواجرُ

ولستَ تراه واضعاً لسلاحه ... مدى الدهر موتوراً ولا هو واترُ

(محمد بن أبي محمّد)

شاعر عربي قديم

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

1

حيّرني دوماً أن يُجمع الحكماء على استحالة الجمع بين الحبّ والإكبار، فلم أملك إلاّ أن أتساءل: لماذا نخفق في أن نحبّ مَنْ أحسسنا نحوه بإكبار، كما نفشل في أن نُكبر من أحسسنا نحوه بحبّ؟ هل لأننا نذهب إلى الحبّ بالقلب، في حين نذهب إلى الإكبار بالعقل؟ هل المحبّة توقٌ إلى الملكيّة بصفتها هبة وجدان، ولهذا السبب هي القيمة التي لا يُعوَّل عليها لأنها أدنى مرتبة، في وقتٍ تبدو فيه مشاعر الإحترام طقساً لا يختلف عن مراسم الصلوات بما هي طبيعة علوية تستنزل على موضوع الإكبار مسوحاً ألوهية؟ لا أدري. ولكن اليقين أنّي وجدت نفسي أخالف سَدَنَة الحكمة في شأن هذه الوصيّة لأني أحببتُ أناساً حبّاً لم أكن لأختبر معدنه لو لم يكن مشفوعاً بنصيبٍ من إكبار. بل جرّبت أنّ لا حبّ حقيقي في الواقع ما لم يشفع له الإكبار سواء أكان موضوع هذا الحب رجلاً أو امرأة. بل حبّ المرأة في الواقع لا يكتسب هويّةً سماويةً ما لم يتدخّل جناب الإكبار ليكون له في الدخول إلى بوّابة الملكوت رسولاً.

هل قلت بوّابة الملكوت؟

هنا تكمن في يقيني كلمة السرّ المؤهّلة لاستجلاء اللغز.

Twitter: @alqareah

فالعبرة ليست في الحرف، ولكن في **الرهان**. وما نراهن عليه في الحبّ هو ما نراهن عليه في الإكبار. فالحبّ الحقيقي ليس العاطفة الأنانية الفانية، ولكن البُعْد الوجودي في هذا الإحساس النبيل. والبُعْد الوجودي ينفي عن الحبّ المبدأ الدنيوي لأنه تطلّع إلى بُعْدٍ أبعد في السفر المقدّس المشدود إلى ما وراء الأفق، أي المجال الذي كان دوماً مقياساً لكلّ عمق، ولكل توق، ولكل إيمان، ولكلّ شوق، ولكلّ حنين، وهو: الغيب، وبالإصحّ، ليس الغيب في حدّ ذاته، ولكن في ما يتخفّى وراء قناع الغيب وهو: الحقيقة!

ولهذا فالحبّ الذي لا يستعير مسوحاً قدسية في هذه الرحلة نحو الأبدية، هو حبٌّ لا يستهدف الحقيقة. والحبّ الذي لا يستهدف الحقيقة في سفره الملحمي ليس حباً حقيقيّاً. وألاّ يكون حبّاً حقيقياً يعني أنه ليس حبّاً عظيماً. وألاّ يكون حبّاً عظيماً يعني أنه ليس حبّاً خالداً!

في هذا البُعْد البعيد ينتصب القاسم المشترك الأعظم بين الحبّ وقرينه الإكبار. فنحن لا نُكبر أحداً محدّداً من دون الناس جميعاً استجابةً لهوى، أو اعترافاً بإحسان، أو نيّةً في اغتنام نفعٍ دنيوي، ولكن مديحاً لروح، وتغنّياً بالمعنى، واستجلاءً لإيماء، ومعاندةً لغموض، وتلبيةً لنداء: نداء الواجب.

إنه ممارسة لوجدٍ، وتلاوةٌ للصلاة في حدودها القصوى المجاورة للموت القرين للطلب: طلب الحقيقة التي لا حضور لها أخيراً إلاّ في النهاية.. في الموت!

Twitter: @alqareah

فكيف لا يتعانق الحبّ مع قرينٍ أراده له الحكماء خصماً في هذا المقام القدسي الذي يجبُّ كلّ بهتان ويحيل كل ما سواه باطل أباطيل؟

من هذا المنطلق لا نستطيع، بل لا نملك الحقّ في أن نتخيّل حبّاً بدون إكبار، لأنه يتحوّل هنا احتقاراً، كما لا نملك الحقّ في أن نتخيّل إكباراً بدون حبّ لأنه بغياب هذه الهِبة سوف يبدو استهتاراً وليس إكباراً.

لم يكن لعدوس سُرَى أن يخالف وصايا معبودة الأجيال ذات الأعمدة السبعة (الحكمة) لو لم تتدخّل هنا الروح الصحراوية، أو فلنقل، الطبيعة الصحراوية التي تنحني أمام التقليد دوماً، ويروقها أن تتعبّد في محراب كل إرثٍ مستعارٍ من معاجم الأوائل. ويبدو أن هذه الطبيعة هي التي قادتني يوماً إلى إنسانٍ مسكونٍ بالروح ذاتها في زمنٍ غاب فيه الأوائل، فاغتربت بغيابهم القيم الروحية الصحراوية التي انتمى إليها أيضاً كما انتميتُ لها، ومجبولٌ بالطينة ذاتها التي جُبلتُ عليها أيضاً، وأحسب أنه يدين بالديانة ذاتها التي ترفض أن ترى في المحبّة خصماً لجلالة الإكبار، لأنه لم ينتمِ لهذا العالم، ولا لأزمنة هذا العالم، ولكن إلى أزمنة تستقطع من الماضي البعيد القرون والقرون، كما اعترف لي يوماً؛ تماماً كما أحسست دوماً في شأن الإنتماء إلى الأزمنة التي لا سلطان للذاكرة عليها. هذا الإنسان هو:

أبو زيد عمر دوردة!

عرفتُ أبازيد لأول مرة عام 1970 أثناء إنعقاد «ندوة الفكر

Twitter: @alqareah

الثوري»، وتواصلنا مراراً عند تولّيه لمنصب وزير الثقافة، وعند زيارته لموسكو عام 1975 عند تولّيه لحقيبة الخارجية بالإنابة عن وزيرٍ لم يتبوّأ هذا المنصب سوى بالإسم، لأن تعيينه تزامن مع محاولة المحيشي الإنقلابية، وكان أحد ممّن أُتُّهِمَ بالضلوع فيها، فهرب أثناء قيامه بمهمّة رسمية بالخارج، ولم يعد إلى البلاد إلى هذا اليوم، وهو عضو مجلس الثورة عبد المنعم الهوني، ولم يكن تعيينه وكيلاً بالخارجية إلاّ للحظّ من شأنه نزولاً عند مشيئة الرئيس المصري أنور السادات الذي اشترط عزل أبي زيد عن ساحة الثقافة والإعلام عقاباً له على دوره في الحملة الإعلامية ضدّ موقفه من الوحدة ليكون أبوزيد كبش الفداء في صفقة حسن النيّة كمقدّمة لتحسين العلاقة بين البلدين؛ ليكون هذا في رصيد الرجل دليلاً على صدقٍ ترفضه السياسة التي لم تعترف في تاريخها بغير الأكذوبة ديناً. وهو طبع أخلاقي يحيا عميقاً في روح هذا الإنسان، وكان عليه أن يدفع ثمنه باهظاً طوال تجربة الأربعين عاماً التي تنقّل فيها بين الوزارات، وتبوّأ أرفع المناصب، دون أن يخون ضميره، ودون أن يخسر جوهره الأخلاقي، ليكون بهذا المسلك «**العدوّ**» الذي لم يفلح النظام في أن يتخلّص منه، و«**الصديق**» الذي أخفق النظام في أن يستوعبه، أو يدجّنه ليتبنّى روح النظام كما تبنّاها الأغيار الذين تبوّأوا مختلف المناصب.

وأحسب أنّنا لن نفلح في استجلاء حقيقة الأحجية ما لم ينجدنا التحليل في فهم الشخصية المبهمة التي كانت لهذه المفارقة سبباً. فالسيّد معمّر أبومنيار طبيعة نفسيّة مركّبة بالأصل ظلّتْ بالأرومة

Twitter: @alqareah

مجهولة ولا تزال مجبولة بالغموض برغم كل المحاولات التي بُذلَتْ في استكشاف هويّتها العرقية، فكيف بالهوية النفسية؟ فبدل أن ينيرنا اللقب القبلي المضاف لهذا الإسم استنزل على البحث ستور الشكوك، لأن كلّنا يعلم أن اللجوء لانتحال لقب القبيلة واستبداله باللقب العائلي هو في العُرف السائد حيلة علّتها إمّا الإغتراب الطويل عن وطن القبيلة، وهو لذلك تعبير وجداني عن حنين قبل أن يكون تأكيداً للهوية؛ وإمّا أن يكون محواً لشكّ في النسب، وهو لهذا إدّعاء لن يملك الأغيار سبيلاً للتّحقّق من أصالته في وطن الأغراب. ولهذا فانتحال ألقاب قبليّة مثل: «الزنتاني» أو «الفزّاني»، أو «القذّافي»، أسلوب شاع في المجتمعات القبليّة منذ القدم دون أن يكون سبباً لفخر، بل كثيراً ما كان حُجّةً تبرّر الشكوك في النسب. فإذا كان اللقب القبلي تعويضاً نفسياً للمنتحل يترجم عقدة نقص، فإنّ صاحبه لن يعدم بسمات السخرية في أرض الغرباء لأن لسان حال باطنهم إنّما يستبدل اللقب العائلي الجليل بلقب مُهين هو: «**اللقيط!**».

فهل كان بوسع هذا السبب أن يكون مكوّناً أوّل في الأبجديّة المكوّنة لسيكولوجية الرجل؟ لا أدري. ولكن اليقين أن الإنتماء القبلي (حتى لو كان إدّعاءً) لعب دوراً في تكوين الرجل النفسي فيما إذا نوّهنا بالسليقة الروحية (أو بالأصحّ الدينية) لقبيلة القذاذفة التي ترجع بأصولها التاريخية إلى دراويش الطرق الصوفية كما يؤكّد دي أوغستيني في مؤلّفه المرجعي عن سكّان ليبيا الصادر بالإيطالية منذ مائة عام والمترجَم من قِبَل التليسي عام 1974، والمُصادَر من قبل السلطات فور صدوره لأسباب سياسية!

Twitter: @alqareah

فالسلف الملقّب بـ «قذّاف الدمّ» هو أحد المريدين في الطريقة التي احترف أفرادها تقيّؤ الدم أثناء حفلات الحضرة استجابةً لنداء الوجد، وبرهاناً على الحضور في الرؤيا. والدمّ هنا بمثابة رسالة موجّهة للعامّة للتدليل على حدوث الإعجاز الذي يؤكد **الإصطفاء**. هذا الإصطفاء الذي يميّز أمّة المرابطين عن غيرها من السِّوَى. وهو تلك الطريقة التي ازدهرت في المغرب الأقصى، وبلغت ذروتها بتأسيس دولة المرابطين في مراكش التي كان لها ملثّمو الصحراء زاداً، ثمّ اعتنقتها مختلف الطوائف الدينية في شمال إفريقيا لتطبع العقيدة الدينية الإسلامية في هذه الأوطان بختمٍ طقسيّ مستعار من **الديانة الطبيعية** التي كانت سائدة بالمنطقة قبل الغزو. فليس عسيراً على المتأمّل لسيرة «قذّاف الدمّ» أن يدرك أن هذا الفعل ترجمة لمراسم دينية ذات طبيعة **شامانية** ترجع إلى المراحل التي كان فيها السحر ممارسة دينية سابقة على ديانات التوحيد. وعلّ إكبار الأضرحة، وتقديم التقدمات لهم كتجربة دينية ما زالت شائعة في شمال إفريقيا إلى اليوم ما هو إلاّ عبادة الأسلاف في مقابرهم التي تحدّث عنها هيرودوت في تاريخه عن قدماء الليبيّين. وهو ما يؤكّد نظريتنا عن الديانة بوصفها العنقاء التي لا تموت إلاّ لتُبعث من رمادها حيّةً لا حرفاً بالطبع، ولكن ضمناً، أي كممارسة تتستّر تحت قناع الديانة الغازية. وها هو سليل أبي منيار يؤكّد هويّته كصاحب رباط في اعترافاته المكرورة عن أصوله التي ترجع إلى الساقية الحمراء، برغم أنّه لا يجد حرجاً في أن يكرّر تصريحات أخرى يعود

Twitter: @alqareah

فيها بالنسب إلى قبائل بني سليم، قبل أن يتباهى بالإنتماء إلى سلالات الأشراف في العراق. وهي بلبلة لا بدّ أن تعبّر عن خللٍ في العقل، أو اضطرابٍ في النفس قبل أن تكون دافعاً يستثير في نفوس الأغيار شكوكاً في حقيقة النسب!

أمّا كلمة «مرابط» فاشتقاقٌ من **الرباط** نسبةً إلى المكان الذي يرابط فيه شيخ الطريقة ليحجّ إلى رحابه المريدون. وقد إستعار إسماً آخر هو **الزاوية** التي يختلي فيها الأشياخ إلى الله، ويستقبلون فيها أهل الإيمان أيضاً. ومن الطبيعي أن تتطوّر مثل هذه الأمكنة لتغدو مدناً حقيقية مع مرور الزمن كما حدث مع مدينة كـ **الرباط** حاضرة مملكة المغرب، أو مدينة **الزاوية** المجاورة للحاضرة الليبية كثاني أكبر مدينة في غرب البلاد من حيث العمران وكثافة السكّان.

ولكن ظاهرة كانتحال النسب كانت إلى وقتٍ قريبٍ بليّة أهل الصحراء الكبرى الذين أجاروا في مضاربهم عبر التاريخ أفواج هذه الملّة الدعيّة. فيكفي أن يتسلّح السليل الشقيّ ببعض الآيات القرآنية المشفوعة بنصيبٍ متواضعٍ من الأوراد كي ينال في نظر البسطاء الحقّ في استلاب لقب جليل كـ «المرابط» أو لقب آخر أجلّ وهو «الشريف» الدّال في العرف السائد على الإنتماء إلى سلالة الرسول. واللقبَان مؤهّل كافٍ تماماً للتبطّل مدى الحياة، وامتصاص دماء المساكين الذين يرتجفون فزعاً من صُحبان اللّقبَين خوفاً من أن تلحقهم تلك اللعنة الملقّبة في معاجم الدهماء بـ«الدعوة» التي ستُصيب كلّ من سوّلت لهم النفس الإساءة إلى حاملي أحد هاذَين

Twitter: @alqareah

اللقبين، أو تجاسر على التهاون في إستضافتهم، أو منعهم حاجة من حوائجهم!

إنها حصانة مجانيّة تجير من الشرور، وتميمة نافذة المفعول تقضي كل حاجة دنيوية. وقد إستغلّ الأدعياء هذا التصريح المطلق بحرف العرف أبشع استغلال، فلم يكتفوا على سبيل المثال بالعيش عالة على أناسٍ هم أساساً أفقر أهل الأرض قاطبة، ولكنّهم إبتزّوا القبائل بسلطة الأوراد المشبوهة، ومارسوا الإرهاب النفسي على الأجيال بالأنساب المزعومة، لينالوا ما شاءوا أن ينالوا وهم يلوّحون بسلاح معجزاتهم الإلهية المزوّرة مثل «تقيُّؤ الدمّ»، أو طعن الجسد بالسكّين، أو بصق قطع البخور لحظات الوجْد الجنوني. والويل ثم الويل لمن كذّب الإعجاز، أو شكّك في الأعجوبة، لأن اللعنة سوف تُلاحقه إلى اللّحد؛ في حين لا تختلف «معجزات» هؤلاء عن حِيَل سحرة ما قبل التاريخ، بل تفوق الأخيرة مفعولاً، لأن نفخ الروح في العصا لتتحوّل حيّةً تسعى معجزة أقوى حجّة من بصق الدمّ أو قطع البخور كما في سيرة المتون المقدّسة عن عصر «الباب العالي» كترجمة لإسم الفرعون.

ولكن الجود بفنون العجب، أو احتراف البطش بالجسد، ليس بدعةً وثنيّة دائماً، لأن إرادة الإيمان في قفّاز التحدّي الذي كثيراً ما ألقى به الأخيار في وجه الطبيعة ليزلزلوا ناموسها على ذلك النحو الذي وهبنا تلك البراهين المتمثّلة في ما اعتدنا أن نسمّيه «كرامات الأولياء». وهي تقنية قاسية سبقنا إليها برهمنات الهند القديمة؛ هذه

Twitter: @alqareah

الهند نفسها التي أنجبت الفريق الآخر، القرين للأدعياء، الذي عرفناه في إسم: الحواة! وبرغم هذا اليقين بيد أننا لا يجب أن ننفي خصلة مريبة في مسلك المرابطين حتى لو كانوا شرفاء حقيقيّين، أو أولياء، وليسوا أدعياء كالأغلبية الغالبة. وهذه الخصلة هي: الشقوة. إنه مسٌّ من شيطان ميّز دوماً أكثرهم وقاراً وأصدقهم ولايةً. أي أنهم مُوَسْوِسُون، هذا إن لم نقل ممسوسون! والوسوسة عتبة عليا في سلّم المسّ، والمسّ درجة أعلى في سلّم الوسوسة، والوسوسة مرحلة عليا في سلّم الجنون! والجنون هو اللوثة التي رُجم بها إبن أبي منيار ولم يكلّف نفسه عناء نفيها لا ليبرهن على انتمائه إلى سلالة المرابطين كما يبدو، ولكن لأنها إذا تحلّت بالعفوية فهي السفير إلى بلاطٍ معبودٍ لا يختلف عن الإعجاز وهو: العبقرية! وهي عبقرية إذا كانت قد خذلته في تسيير شئون الدولة، بيد أنها لم تخذله في ذلك الشأن الجسيم الذي لم يحدث أن استقام لأحد بدون مواهب إستثنائية وهو: الإحتفاظ بالسلطة. بل ربّما لم تكن الروح العبثية في تسيير شئون الدولة إلاّ تقنية أخرى سخّرها أيضاً لارتهان هذه المعبودة العصيّة كلّ هذا الزمن الذي لم يحقّق وحسب نبوءة الأجيال التي تحدّثت عن الراعي الذي سيأتي يوماً ليحكم الوطن لأمدٍ كان في الأدبيّات المتداولة دوماً أمداً أسطورياً وهو الأربعين عاماً، ولكنه سخر من الغيوب أيضاً عندما إنتزع من القَدَر سنتين كاملتين زيادةً على الرقم المحدّد بالنبوءة المتوارثة متفوّقاً بذلك على أدهى كهنة

Twitter: @alqareah

الزمن الضائع «سُطَيح» الذي اكتشف عندما استخار الغيب أنه اختلس من القدر بضعة أسابيع دون وجه حقّ فتدثّر بلحافه وهجع ليموت!

ولكن سليل أبي منيار لم يقنع بالأربعين حِجّةً من سلطانٍ لم يُنازل فيه سادة هذا العالم وحسب، ولكنّه نازع فيه الآلهة، وظلّ على ضلاله في الظمأ إلى المزيد. وها هو ينال هذا المزيد، ولكن ليس بدون ثمن. ليس بدون قصاص. لأن العبرة إذا كانت بالنتيجة، أو إذا كان الإنسان لا يستطيع أن يحكم عمّا إذا كان قد عاش سعيداً إلاّ في اليوم الذي يواجه فيه شبح الموت (حسب وصية إمام الحكماء السبعة صولون)، فإن الموقف الأخير إنّما دلّل على تماهي الذات مع الموضوع، تزاوج المريد مع معبودة المريد على نحوٍ إستوجب سلخ جلد المريد لتحرير المعبودة المترجم في روايتنا «الورم» التي تعالج الدّاء ذاته والصادرة قبل القيّامة بثلاثة أعوام لتُعتَبر في وسائل الإعلام الأوروبية النصّ الأدبي الذي تنبّأ بما سمّي بـ«الربيع العربي».

ويبدو أن اختزال الدولة في شخص وليّ الأمر (على طريقة لويس الرابع عشر) بتلك الروح العبثية لم يكن مجرّد نزوة جنونية كما صوّرته وسائل الإعلام أو خيال العامّة، ولكنه فصلٌ آخر من الخطّة العبقرية الموضوعة سلفاً لتحصين المعبودة من مريديها الكثيرين على نحوٍ يذكّر بأسلوب صاحب مقولة: «أنا الدولة والدولة أنا» الذي يبدو أن سليل أبي منيار (الذي درس التاريخ بجامعة بنغازي انتساباً) قد تأمّل سيرة هذا العاهل الجبّار الغريب الأطوار إلى حدٍّ قرّر فيه أن يتقمّص شخصيّته، برغم استهانته المعروفة بالقراءة عموماً، قراءة

Twitter: @alqareah

الكتب خصوصاً. ولكن كل من أسعدته الحظوظ ووجد السبيل لقراءة المجلّدات السخيّة (عدداً ومضموناً) التي سطّرها «سان سيمون» عن شخصيّة هذا الإمبراطور سوف يجزم أن بطل مسرحية الأربعة عقود ما هو إلاّ بعثٌ للسيرة القديمة مع تعديلٍ عوّدَنا عليه الزمان كلّما تقدّم إلى أمام، لأن النسخ ليس تغريباً للأصل وحسب، ولكنّه تحويرٌ للنسخ!

فالعبقرية ليست دوماً هبة ألوهية، ولكنها لا تستعير روحاً شيطانية كما تستعيرها عندما يتعلّق الأمر بالمعبودة التي لا تشرك بنفسها أحداً (كالألوهة تماماً)، ولا تترك عشّاقها إلاّ أمواتاً (عكس الألوهة تماماً) كالسلطة. فإذا تسامحنا في شأن النَّسَب العائلي واستبداله بالإسم القبَلي، فلا شكّ أن استبدال إسم مثل «طاهر» بإسم آخر مثل «معمّر» (كما يروي الرواة) أمرٌ لا يستثير فينا فضولاً بقدر ما يستثير ارتياباً مشروعاً سيّما إذا ترادف مع الإسم العائلي المنحول. فهل هو فرارٌ من لعنة أم نيّة مبيّتة في التنكّر؟ هل هو فرارٌ من روح اللقيط الذي تتحدّث عنه الشائعات، أم رفضٌ لروح اللقيط في **بُعْده الوجودي**؟

فنحن كلّنا عبيد في معبد التغيير. كلنا يسعى بطريقته لتلبية نداء الآية القرآنية العبقرية: «إنّ الله لا يغيّر ما بقومٍ حتّى يغيّروا ما بأنفسهم». وتغيير ما بالنفس هو ما يعجزنا. تغيير ما بنا هو نقطة ضعفنا الأبدية. كلّنا يريد أن يكون ما لم يكُنه. كلنا يهفو لأن يتنصّل من الكائن الذي يسكنه ليستبدله بالكائن الذي يجب أن يكونه. كلّنا يريد أن يتحرّر من نفسه ليولد بالروح من جديد. كلنا يهفو لأن يتمرّد على قمقم الطبيعة الأمّ فيحقّق معجزة الميلاد الثاني. والمأساة تبدأ

Twitter: @alqareah

عندما نحاول ان نحقّق هذا التغيير بالأفق لا بالعمق، أي باستبدال المكان، وتزوير الوثائق، وانتحال أسماء أخرى على طريقة بطل رائعة أنطونيوني «المهنة صحفي»؛ لأن المنقلب على هذه الحال سينتهي تراجيدياً بسبب الطبيعة الوجودية للحلم. ويبدو أن مريد المعبودة الأبدية قد جرّب هذا السبيل في بداية مسيرته الدنيوية وآمن مبكّراً بعدم جدواه، ولكنه بدل أن يذهب في طريق العمق، اكتفى باستبدال القناع. فالإنسان المجبول بالأحلام الذي أعجزه أن يجد لغة مشتركة مع الله، لابدّ أن ينتهي به المطاف إلى ساحة الإغواء الأولى: السلطة! فليس أمامنا إلاّ الإرتماء في أحضان السلطة عندما نعدم الطريق إلى الحقيقة. ولكن السلطة لا تلبث أن تنقلب مجرّد غنيمة عديمة المعنى فيما إذا جرّدناها من المثال: هذا المثال الذي لا تستطيع أن تكونه في ذاتها. وهو ما لا يهبنا الحقّ في أن نشكّك في حُسن نوايا الرجل الذي قاد المظاهرات الإحتجاجية في مرحلته الطلاّبية ضدّ نظامٍ دأب على تزوير إرادة الأمّة في الإنتخابات البرلمانية، وسار في طريق بناء مؤسسة بوليسية قمعية، وغيّب العدالة الإجتماعية، وتساهل في وضع حدّ لفساد الذمّة المالية. وها هو يدين الوساطة ثم المحسوبية في البيان الأوّل الذي قرأه بصوته يوم نجاح حركته الإنقلابية.

ولكن العدالة هي الحسناء التي نستجير بها في سعينا، ولكننا لا نلبث أن نكتم أنفاسها بأيدينا عندما تستغيث استنكاراً لما فعلناه بها، لأنها المبدأ الذي لا يحتمل المِلْكية، مثلها في ذلك مثل الحرية!

ولذا فإن تبرير السلطة لا بدّ أن يؤدّي إلى النتيجة التي أدّى إليها

Twitter: @alqareah

وهي ذلك التناقض الذي اشتُهر به الرجل طوال سنوات حكمه، سيّما في حالٍ يجاهد فيه مريد هذه المعبودة الإلتزام بناموس العدالة ولو في حدودها الدنيا. ولتنفيذ هذه النيّة (نيّة الإستيلاء على السلطة) لم يكُن شعار (حرّية ـ إشتراكية ـ وحدة) ليشفي غليل الناس طويلاً، لأن التجربة برهنت أن الشعار الأيديولوجي ما هو إلاّ سُعارٌ عاطفي قدَره أن يتبخّر بتبخّر الحماس، فلا يملك السواد الأعظم إلاّ أن يعود للمطالبة بالفردوس الأبدي الموعود ما أن يفتر الحماس. من هنا تأتي ضرورة ذلك الفعل ذي الحضور في الواقع الذي دأبت وسائل الإعلام الرسمي على نعته بـ الإنجاز بوصفه حجر الزاوية في هرم العدالة!

ولكن تحقيق الإنجاز يستوجب إنفاق أموال طائلة لم تكن معدّلات العوائد النفطية (كمصدر إقتصادي وحيد في البلاد) لتسمح بها في ظلّ سعرٍ زهيد، بل مضحك، لبرميلٍ من هذا الكنز وهو التسعين سنتاً. وكان الحلم بزحزحة مؤشر السعر نحو الأعلى عملاً مستحيلاً أعجز دهاة الأمم المنتجة لهذا الكنز، وتجربة مصدّق في إيران مع بداية الخمسينات كانت ماتزال بعبعاً رادعاً لكلّ الباحثين عن خلاص من استبداد تنّين الشركات الإحتكارية النفطية العالمية. وإذا كان سليل الرعاة ابن أبي منيار قد أفلح في زعزعة تنّين طيبة هذا بأحجيته المجهولة، فذلك كان عملاً تاريخياً جديراً بأن يُحسَب لإبن السبعة والعشرين عاماً شهد به له الغرب في مصطلح «التحدّيات الليبية» الشهير الذي رفع أسعار النفط بأكثر من الضّعف بضربة

Twitter: @alqareah

واحدة. وقد اعترف دهاة هذه الإمبراطوريات النفطية مراراً في وسائل الإعلام العالمية كيف خدعهم الرجل الذي استهانوا به في هذه المفاوضات، برغم أن العمالقة لم ينتحروا خجلاً كما فعل عملاق الملاحم هوميروس عندما خُدِع بالطريقة نفسها على يد حفنةٍ من الصيادين، لأننا إذا كنا لا نحيا إلاّ بما نخاف، فإننا لا نهلك إلاّ بما نستخفّ!

بعوائد هذه القفزة في أسعار النفط بدأت مسيرة بناء البنية التحتية بالإنفاق اللامحدود على المشاريع الزراعية، والخطط الإسكانية، والصحة، والتعليم، ليبلغ هذا الطموح الذروة بعد القفزة الثانية (خُرافية هذه المرة) لأسعار النفط بعد حرب أكتوبر 1973. ولكن الطفرة الإقتصادية التي تتنكّر لطبيعتها بالتحوّل ثروة لا تكتفي بتغريب القيَم، ولكنها تأبى إلاّ أن تستزرع الجنون أينما حلّت! وها هي اللعنة تكتسح الواقع الليبي سياسياً واجتماعياً واقتصادياً ونفسياً ليغرق المجتمع في مستنقع انحراف لن يصحو من غيبوبته إلاّ بعد فوات الأوان؛ أي مع نزول النازلة وحدوث الصدمة، بل الصدمتين أفرز أولاهما نسف سلطة السوق بتنفيذ حملات التأميم الشاملة عام 1978، وأفرزت ثانيتهما هبوط أسعار النفط إلى الحضيض متزامناً مع قرار أمريكا بإيقاف استيراد النفط الليبي عقاباً للنظام على سياسته العدائية في 1982.

وهكذا كبَا الجواد الذي راهن عليه النظام في تنفيذ «حلم النهضة» الذي تغنّى به في وسائل الإعلام بالروح الدونكيشوتية المبتذلة ذاتها

Twitter: @alqareah

التي استخدمها في الدعوة إلى الوحدة العربية ليكسب عداء العرب، وبروح الأيديولوجيا المعادية للإمبريالية ليحصد عداوة الغرب.

هذه الجعجعة الهزلية رافقتها حملة، بل حملتان إستنزفتا العوائد النفطية استنزافاً موجعاً، تمثّلت الأولى في تجييش الليبيين كافة استعداداً لبناء القوّة الحربية الضاربة التي ستغزو العالم (!)، وتمثّلت الحملة الثانية في فتح الأبواب أمام حركات التمرّد في كل الأرض لتتلقّى التدريب في معسكرات افتُتحت خصّيصاً لهذا السبب بنيّة واحدة هي نصرة الشعوب المغلوبة على أمرها في سبيل استعادة حريتها. وهي الحملة التي أدرجت ليبيا على رأس قائمة الدول الداعمة للإرهاب ليجد المواطن الليبي نفسه متّهماً بلا تهمة، ومنبوذاً مسبقاً أينما حلّ، ليستمرّ هذا الكابوس طويلاً جدّاً ليبلغ الذروة باستنزال الكلمة الأخيرة في ملحمة القصاص باستصدار القرار القاضي بالحصار الشامل الصادر عن محفل الأمم عام 1992م لتتضاعف معاناة هذا المواطن الشقيّ لا لذنبٍ اقترفه، ولكن لأنه وُلد في أرضٍ سخيّةٍ أُبتُليَت بملّة سخّرت هذا السخاء في إرتكاب تلك الفنون من **الشقاوة** التي كانت سجيّةً في روح كل من راقه أن يتباهى بالنسب إلى سلالات أولئك الحواة الذين ينتحلون إسم **المرابطين!**

وهكذا تبخّرت الهبة الخطرة التي لم يكن استخدامها بهدف إقامة «نهضة» حقيقية بالأصل، ولكن لتشييد صرح لمظهر هذه النهضة إذا سمحنا لأنفسنا بأن نطلق هذه التسمية الجسيمة على تلك الزوبعة التي ما لبثت أن تبخّرت أيضاً في أول اختبار جدّي، فإذا بالمشاريع

Twitter: @alqareah

الزراعية تتيبّس بتأثير البيروقراطية الإدارية الحكومية الناجمة أيضاً عن تضعضع الدعم المالي، والمصانع تتوقّف لأسبابٍ أهمّها انعدام الموارد الأولية، والصحّة تنتكس مفتقدةً لأبسط العوامل الضرورية لتحقيق الإستشفاء كالأدوية، والخطط التعليمية تتزلزل بفعل العبث بالمناهج الموبوءة منذ الآن فصاعداً بسمّ الأيديولوجيا التي بدأت تهيمن كبديل للمعرفة. وهكذا تفقد الحركة الإنقلابية حجّة وجودها لأن الواقع أعجزها في أن تلبّي أبسط مبدأ يبرّر قيامها. وكان حتميّاً أن تبدأ رحلة من جنس آخر: رحلة تتمّ فيها التضحية بالمضمون في سبيل إعلاء شأن الشكل بدل أن يحدث العكس. وكان بالوسع إحتمال حتى هذا الجور لو لم يتمّ الإنتصار للمظهر على حساب الجوهر على هذا النحو من الإبتذال.

فتخيّلوا معي بأيّ حيلة يستطيع إنسان إعترف له كل من عرفه بالنبل والعفاف والنزاهة كـ أبي زيد عمر دوردة أن يعمل عندما يجد نفسه في واقعٍ كهذا!

Twitter: @alqareah

2

إنسان كهذا قدره الإغتراب.

إنسان كهذا سوف يجد نفسه مغلولاً روحاً وجسداً، لا لأنه لن يُفهَم فقط، ولا لأنه بلا حول ولا قوّة ولا عون، ولكن لأنه الإنسان الذي وُلد في زمانٍ غير زمانه، وفي مكانٍ غير مكانه، ليتعامل مع خليقة ليست من طينته، ومع رأسٍ للخليقة ممسوس بالأهواء، وتتنازعه الأطوار. وكي نقف على حقيقة المأزق من المناسب أن نتأمّل طبيعة هذه الشخصية التي تسكن روح هذا الرأس: فالسماحة في السيماء (على سبيل المثال) ليست برأس المال الذي يمكن أن يعوّل عليه لأنها كثيراً ما كانت العدّة المفضّلة في عمل إبليس، في حين سيختلف الأمر ما أن تتدخّل البراءة؛ لأنها حجّة الروح ما أن يشهد لها شهود العيان. وها هم رفقاء الرجل الذين عرفوه مبكّراً يجمعون على صدقٍ له في المسلك، واستقامة في الخُلُق. أم أن ذلك كان خطأ من زملاء الصّبا في القراءة ناتج عن براعة في إتقان الدور، والقناع لم يكشف عن السيماء المخفيّة إلاّ بعد الفوز بالعرش؟ جلّ هؤلاء الذين شهدوا للرجل بحسن السيرة والسلوك في الماضي ما لبثوا أن اعترفوا بخطيئتهم. وكي يكفّروا عنها انقلبوا عليه!

Twitter: @alqareah

ومحاولة المحيشي كانت ذروة هذه المحاولات، ولكنها لم تكن الأولى. لأن محاولات أخرى سبقتها قام ببعضها صغار الضبّاط، كان أبرزها محاولة الحوّاز وزير الدفاع، وموسى أحمد وزير الداخلية إبّان الشهور الأولى. ولكن كل هذا لا يهبنا الحقّ في الحكم على تجربة الرجل دون استبعاد الحكم المسبق، لأن الهوَس بفكرة مّا وحده برهان على وجود قضيّة، على وجود رسالة حقيقية حتّى لو تضمّنت هذه الرسالة نصّاً مشبوهاً يمكن أن يُعتبر بنداً (أو بنوداً) خفيّاً في صفقة مع ميفستوفلس. فالعدالة التي نتغنّى بها كلّنا هي التي تلزمنا بأن نُتيح للمتّهم فرصة للدفاع عن النفس حتى لو كان هذا المتّهم هو الذي أمات يوماً تلك العدالة التي خرج قديماً لينتصر لها. وسوف يقول في حيثيّات مرافعته بالطبع بأن الزجّ بالوزيرين الإنقلابيين في السجون كان دفاعاً عن النفس. وكذا الأمر بالنسبة لفرسان الإنقلابات المتتالية الأخرى. وسوف يقول أنه لم يلجأ لسفح دمّ الرفاق إلاّ عندما بلغ السيل الزبى، وصار بمكيدتهم على بعد شبر واحد من الموت غيلةً. وسوف تكون عبارة «الدفاع عن النفس» التعويذة القوية في حيثيات المرافعة طوال التجارب الدموية التالية حيث سوف يعلو لحن جديد في المعزوفة هو «الخيانة العظمى» المقرّرة بحرف القانون والمحرّمة به أيضاً لا لأنها جرم في حقّ شخصه، ولكن لأنها جريمة في حقّ وطن يسعى لتحقيق الأحلام المنصوص عنها في الشعارات التي تتغنّى بها وسائل الإعلام الرسمي لتبرير القمع المرتكب في كل شأن له علاقة بحقوق المواطنة أيضاً. هنا تبدأ العدالة في التخلّي عن

Twitter: @alqareah

العدالة لتخلي الساحة لجهاز الشرطة، بل والأسوأ ألف مرة من جهاز الشرطة وهو جهاز المباحث السرّية للتتوارَى هذه الشقية خجلاً، لأن حجّة الدفاع عن النفس تفقد في المرافعة صدقيّتها لسبب بسيط وهو أن المغالاة في الدفاع عن النفس ما هو في منطق الأشياء إلاّ خطوة أولى في طريق التنصّل من المسئولية الأخلاقية الذي لن يكون هنا سوى عدوان سافر. في هذه النقطة تغترب المفاهيم فيصير الخلاف في الرأي (مجرّد خلاف) معارضة سياسية بدل أن يكون جدلاً وجودياً إشترطته الطبيعة، والمعارضة السياسية تتحوّل في هذه الأيديولوجيا الخطرة عداوة علنيّة بدل أن تكون ضماناً لحفظ التوازن في أيّ نظام سياسي وعلى كل مستوى. هنا تحتفر المسيرة لنفسها المنعطف الذي لا يعود فيه المتّهم يملك لتبريره حجّة تصلح ترجماناً في الدفاع عن النفس. لماذا؟ لأن ما حدث إنّما بشّر بغياب العدالة. بشّر بتغييب صوت ذلك الملكوت الهشّ الذي نحتكم إلى ساحته كي ينصفنا، ولكنه يخذلنا ما أن نمتلكه لأن قدره الحرية مثله مثل الحقيقة التي نتشدّق بها لنحتكرها، ولا ندري أنها ترفضنا لأنها المبدأ الذي لا يُشرك بنفسه أحداً كالربوبية!

في هذا المنعطف يبدأ المنحدر نحو الهاوية لأن الشعار سوف يكون منذ الآن: كل شيء مباح حتى ارتكاب الجيمة، لأن السلطة جرثومة سرطان تسري في الدمّ، وصاحب الصولجان هو وليّ أمر على خليفة الله في الأرض، ممّا يعني في المعادلة أنه هو لا سواه الوليّ بالولاية لا راعي الرعيّة، وصلاحيّات ربّ السماوات والأرض من اختصاصه، وهو المخوّل منذ اليوم بتحقيق العدالة بتفويضٍ من

Twitter: @alqareah

ربّ الأرباب المنصوص عنه في المتون المقدّسة، فله أن يحيي ما شاء أن يحيي، ويُميت ما شاء أن يُميت!

هذه مسيرة تتكامل تدريجيّاً بالطبع، وتلعب في تكوينها كعقيدة أيديولوجية (اعتدنا أن نسمّيها استبداداً) ظروف نفسية وقناعات روحية وتجارب دموية لا تزيد المريد سوى الإيمان بالإصطفاء الرسالي (الذي نسمّيه في ثقافتنا الدنيوية بـ كاريزما نستطيع أن نترجمها في كلمة «تفوّق»)؛ هذا الإصطفاء الذي ستهرع الروح الشعبية لتُسهم في صنع أسطورته بتكريس كل التفاصيل في سيرة البطل الدنيوية لتبدع الكلمة الأخيرة في النصّ الملحمي كأنْ تسلّط الضوء على البُعْد المجهول في الهوية لينقلب مبدأ إغترابي (يبدو في العرف الإجتماعي لا أخلاقياً مثل «اللقيط») إستعارةً ميتافيزيائية تخلع على النسب مسوحاً لاهوتيّة ليغدو البطل سليلاً للملاك وليس إبناً لإنسانٍ من لحمٍ ودمّ على غرار تجربة الإسكندر المقدوني المنسوب بالسلالة إلى الإله الليبي آمون؛ أو يصبح قذف الدم ثم البقاء على قيد الحياة حجّة للإعجاز الإلهي المنوط بهذا الإنسان دون بقية الفانين جميعاً، إستلهاماً لتفوّقٍ مستعارٍ من تجربة إمبيدوقليس في اليونان القديمة؛ أو تغدو نبوءة حكم الأربعين عاماً ذريعة أخرى لاصطفاء يستنزل اليأس في قلوب الطامعين بالخلاص، ويهب صاحب الصولجان حصانة غيبية، فإذا اجتاز الرجل هذا البرزخ بسنة أو سنتين (كما حدث بالفعل) فهذا لن يكون دليلاً على زيف النبوءة، بل يُستغلّ كسببٍ آخر لوجود قدرة خارقة (ألوهية بالطبع) تمتلك القدرة على إحداث

Twitter: @alqareah

الخلل بحسابات قدرٍ لم تمتلك عليه السلطان حتى الآلهة كما يعترف إله معبد دلفى جواباً على سؤال ملك ليديا (كما يروي هيرودوت)، فلا يُعدّ هذا الحدث تجديفاً في حقّ الربوبية يستوجب التوبة كما فعل كاهن الأجيال «سُطَيح» ولكن يُتّخذ حجّة أخرى في اغتصاب عتبة أخرى في السلّم المنكر نحو معجزة حلول الله في جسد المخلوق الفاني!

فهل هذا كل شيء؟

كلاّ بالطبع. فثمّ استثمار لأبسط المصادفات في حياة كل أولئك الذين قرّروا أن يكونوا عبر التاريخ لا أخلافاً لله في الأرض، ولكن أرباباً من دون الله في الأرض. وأحسب أن هذا المصير ليس آية أو امتيازاً يُصطفى به هؤلاء، ولكنه أكبر قصاص يمكن أن تستنزله الأقدار بحقّ مخلوق على الأرض!

معنى هذا أن الرحلة التي انطلقت بحثاً عن مثال، أو عن معنى حقيقي إنتهت إلى الإستهانة بأي شيء حقيقي، لأن الحلم بالمجد لغم كفيل بنسف كيان النيّة مهما كانت في البداية حسنة، نشهد كيف تتبدّد البراءة بغياب الغائية لينتصب شبح تلك الوسيلة المخيفة، بل والمميتة، ما أن تتحوّل غاية والتي فضّل الحكيم الصيني القديم أن يرمي بنفسه في نهر «لو» على أن يقبل بها قدراً وهي السلطة. فبالإستسلام لهذه المعشوقة (التي لا تترك عشاقها إلاّ أمواتاً كما يروقني أن أكرّر) يحدث الإنقلاب التراجيدي الذي لم يكن المريد ليقرأ له حساباً: إنقلاب يتحوّل فيه المريد ضحيّة، والغنيمة جلاّداً!

Twitter: @alqareah

التعامل مع رجل من هذا الجنس على أساس وجوده منذ الآن كضحيّة (ضحية حقيقية بكلّ المقاييس وبلا أدنى اعتبار لاستعارة) هو السبيل الوحيد لفهم المرحلة التالية الحافلة بصنوف الشطح، وبنوبات الجنون، وبمسلك أخلاقي يقطع دابر آخر شعرة يمكن أن تربط إنساناً كان إلى وقت قريب يتباهى بلقب مهيب كـ الثائر بالإنسان الذي كانه، ليستعير منذ الآن روحاً أخرى أنسب وصف يمكن أن يطلق عليها هو: **روح المسخ!**

Twitter: @alqareah

3

فالضحية وحدها لن تستحي أن تختزل الدولة بأسرها في شخصها استنساخاً لتجربة لويس الرابع عشر وافتتاناً بوصيّة البلهاء: «أنا الدولة، والدولة هي أنا!». وهي سيرة شقّت لنفسها طريقاً على مستويين: عامّ، وخاصّ. ولتحقيق المأمول لابدّ من التميّز على المستويين. ولمّا كان التميّز رهين الإبداع، والإبداع رهين روح عبقرية حقيقية وليست دعيّة، فبالوسع استبدال المظهر على حساب الجوهر، والضرب عرض الجدار بكل تقليد إعترفت به أجيال الإنسانية في مسيرتها الطويلة في سبيل الإنتقال من الكينونة الطبيعية إلى الكينونة الثقافية. وليس مهمّاً في سبيل تحقيق هذا الإنجاز إقتراف ما يراه عبيد التقاليد حمقاً أو حتى عاراً ما دام لا وجود لشيء حقيقي، وما ظلّ باطل الأباطيل هو عملة التعامل السائدة. بلى! بلى! العبث في حقّ المألوف بأي ثمن، لأن ما يدهش وحده يستثير الإنتباه، ويوقظ في النفوس الميّتة فضيلة الفضول. فالإكتفاء بالبقاء وراء جدران الصومعة قبول مجّاني بالحكم على الذات بالسجن الأبدي حتى لو كانت هذه الصومعة محصّنة بسلطان المعبودة الخالدة (السلطة)، لأن هذه السلطة لا تختلف عن الثروة التي لن تجدي نفعاً

Twitter: @alqareah

إن لم ننثرها في وجوه الناس كما ينثر الفلاّح الفضلات الحيوانية لتسميد الأرض.

ولذا فالبحث عن الصيت مبدأ مشروط بالإستمتاع بالمعشوقة، والصيت رهين الإستخفاف بقوانين اللعبة البشرية حتى لو كان هذا الإستخفاف في العبث بأتفه تفاهة **كالقيافة** مثلاً، أو بالشذوذ عن أي عرف كالإبتذال في مغامرة عاطفية!

وكي نفهم سيرة البطل في دور الضحيّة من المهم تحليل النموذج من واقعٍ مترجمٍ في الواقع. فالقصاص الأقسى أحياناً ليس الإخفاق في تحقيقٍ الأحلام، ولكن في تحقيق الأحلام. والدليل ما يقوله الحكماء عن الثالوث الرهيب المتمثّل في السلطة والثروة والمرأة الذي لا يجب أن نتمنّاه لخلّ، ولكن لعدوّ. لأن هذا الثالوث سوف يفعل بمريده من الشرور ما لن يفعله به أكثر الأعداء عداوةً وسلطاناً. والأدهى من كل شيء أن يفلح الطاغوت الذي يسكن هذا الثالوث في أن يصيب المريد بشروره في زمنٍ أقصر ممّا قد نتخيّل. فإذا تمدّد امتلاك الثالوث زمناً أطول ممّا ينبغي فإن النتيجة ستكون بليّة أعظم شأناً ممّا قد نتخيّل وممّا قد يتخيّل صاحب الشأن. إمتلاك هذا الثالوث في يقيني هو الذي يصنع الجنون، كما لا يسعى لنيله إلاّ مجنون لأنه تلك الأمانة الغيبيّة التي لن يقبلها إلاّ مسكونٌ بجنون!

فإذا أضفنا إلى هذه الغنيمة (والأخطر من كل الغنائم) نصيباً من مسٍّ مستعار أصلاً من الإحساس الوجودي (بل والسُّلالي) بعقدة النقص الناجمة عن هوية اللقيط (ببُعدَيها الإستعاري والحرفي)

Twitter: @alqareah

المجبولة بالإنتماء إلى مِلَل الدروشة كتعويض نفسي، فإننا لا نستطيع أن نجزم بأن سليل أبي منيار قد فعل بنفسه ما لن يستطيع أن يفعله به أعتى عدوّ. وها نحن نراه يذهب حثيثاً، طوعاً لا إجباراً، ليحرّر نفسه من مبدأ ربوبي صار في رقبته غلاّ وهو الحياء، ليكون هذا التجديف سبباً في إغترابٍ كان له القبول بروح المِسخ تتويجاً يبدو معه تنصيب نفسه ملكاً على ملوكٍ لا وجود لهم مجرّد نمنمة إضافية في فسيفساء التاج!

فعمليّة التنازل المُهين عن جناب الروح المنصوص عنها في العهد المبرم مع الطاغوت لا تحدث فجأةً، ولكنها تسلك سبيل التدريج لإبطال مفعول الضمير، لأن الإحتيال على هذه الوديعة الغامضة ليس نزهة هيّنة ولكنه نزاع تتخلّله محاولات مستميتة للتنصّل من العقد على غرار ما حدث عام 1972 عند فشل محاولات الوحدة الإندماجية مع مصر، فإذا بالمُريد يعبّر عن خيبة الأمل بإعلان الرغبة في الإنسحاب. ولكن الحيلة لم تكن لتنطلي على إمام الحيَل، لأن القبول بمبدأ الشريك ليس باليسير الذي يبيح الخروج من اللعبة المميتة بالصَّبْيَنة المبثوثة في نصّ الإستقالة المضحكة!

وها هو الرجل يعود إلى الساحة بحماسة أقوى من كلّ وقتٍ مضى ليبرّر هذه الشطحة الزهدية المزيّفة بعد سنوات بعبارة ترجمت من التحدّي بقدر ما كشفتْ من بهتان: «غبيٌّ مَنْ يقوم بثورة ثمّ يتنازل عنها للأغيار!». وكان بالإمكان أن نتسامح بشأن فحوى الرسالة فيما لو كان موضوع العبارة هو استقالة عام 1972، ولكن المثير حقّاً

Twitter: @alqareah

هو أن تكون المناسبة هي العروة التي راهن عليها لتغدو قدس أقداس الحبكة وهي ما أسماه بـ«سلطة الشعب» التي حققت له التخلّص من شركاء الغنيمة مثل أعضاء المجلس، والضبّاط الأحرار، والحكومة برمّتها التي لم تعد حكومة منذ ذلك اليوم. ولهذا تبدو العبارة اعترافاً خطيراً في محفلٍ كذاك وفي زمنٍ سلخ من عمر هذه التجربة ما يربو على الخمسة أعوام. أي في تلك المرحلة التي شهدت إعترافاً آخر لا يقلّ خطورة كان لابدّ أن يبدو في نظر العقلاء لا استهانةً بالناموس الأخلاقي وحسب، ولكن تجديفاً في حقّ المقدّس مترجَماً في ثقة بالنفس وبالإطمئنان إلى دوام حالٍ لم يدُمْ يوماً لأحد من خلال تصريحه في أحد المحافل قائلاً: «ليس لمن لا يروقه ما أفعل إلاّ أن يمتشق السلاح ويقوم بثورة!». وهو اعترافٌ لم ينمّ عن استخفاف بالأمّة بقدر ما سفّه مشجباً آخر عوّل عليه في تسويق برنامج الصفقة المعبّر عنه بشعار: «السلطة والثرة والسلاح بيد الشعب»؛ لأن الإيماء في العبارة يفضح سخرية مستبطنة بواقع الحال الذي حرّم على الناس امتلاك أي سلاح حتى لو كان بندقية لإقتناص العصافير، وصادر من بين أيديهم أبسط سلطة على الإطلاق وهي حقّ الإدلاء بالصوت في الإنتخابات، واختلس من جيوبهم آخر ملّيم ليجعل منهم أفقر أمّة بين الأمم، برغم أنّهم في الموارد أغنى أمّة بين الأمم!

مثل تلك التصريحات كانت الشهادة على الشوط البعيد الذي قطعه صاحب الثالوث في طريق إستبدال الروح.

Twitter: @alqareah

4

المجد الذي نشتريه بتزوير الروح يستوجب تقنية أيضاً. بل يشترطها أكثر من المجد الآخر، الحقيقي، الذي نشتريه عادةً بالزهد في المجد. فبعد الفشل في نيله بالمحاولات الجنونية في تحقيق وحدة عربية إندماجية سواء مع جيران الشرق أو جيران الغرب، أو حتى جيران الجنوب، وبعد الفشل في نيله على المستوى الدولي بسياسة تبنّي منظّمات التطرّف العالمية، كان لابدّ من الإلتفات إلى الوطن، لا لأنه وطن، ولا لأنه الأحقّ، ولكن لأنه النقطة الأضعف التي احتملت منه الصرعة تلو الصرعة، والشطحة ثمّ الشطحة، واللوثة ثمّ اللوثة، ولم تكتفِ بأن تحتمل، ولكنها تسامحت إزاء كل إساءة، وغفرت للرجل حتى الإستهانة التي لم يستحِ أن يعبّر عنها بمناسبة أو بلا مناسبة منذ البداية باحتقار كل ما متّ لهذا الوطن بصلة سواء أكان أناساً من ذوي المواهب كالمثقّفين أو المبدعين أو الصحفيين، أو بسطاء (ولكنهم حكماء) مثل أشياخ القبائل أو الرموز الوطنية كالمحاربين القدماء وأبطال الإستقلال: هذا الإستقلال الذي لم ينجُ أيضاً من حرابه لأنه في نظره زائف لا لشيء إلاّ لوجود قاعدتين أجنبيّتين على ترابه المروي بدم الشهداء، ولا يدري أنه لم

Twitter: @alqareah

يكن ليتلقّى علماً أهَّلَه لأن يفعل ما فعل لولا عوائد هاتين القاعدتين في وقتٍ رفض فيه معبود الرجل القومي عبد الناصر إقراض الملك إدريس مليون جنيه مصري مساوماً بالتنازل له عن الجغبوب مقابل هذا المبلغ، وهي الرواية التي تناولناها بالتفصيل في الجزء الأول من هذا البيان.

وبدل أن يتحلّى الرجل بالإمتنان للوطن جزاء هذا التسامح، كفر بالنعمة لينكّل بالوطن وبأهل الوطن وبتاريخ الوطن وبكل رمزٍ أنجبه الوطن، ليمارس ضدّه فنون الإذلال حتى صارت هويّة هذا الوطن تهمة حقيقية منكرة تستوجب معاقبة حاملها أينما حلّ!

وقد عبّر أبو زيد دوردة عندما تولّى حقيبة الإعلام والثقافة عن دهشته من موقف الرجل المعادي من وسائل الإعلام لا لشيء، إلاّ لأن التناقض المخجل في مواقف أبي منيار السياسية أعجز هذه الوسائل في تبريرها، كما أعجزها أن تجاري فيه تقلّب المزاج. وهي رذائل لا تُغتفر في ناموس الأخلاق، فكيف بناموس السياسة؟ كما تندّر أبو زيد أيضاً بالمنعطف الذي حدث في موقف صاحب الغنيمة ما أن بدأت بعض الوسائل الإعلامية في الثناء على مواقفه السياسية سيّما الحملة على موقف السادات من الوحدة الإندماجية. وهو ما كشف تالياً عن مفارقة دفع أبو زيد ثمنها كوزير للإعلام مقابل تقارب بين البلدين لم يستمرّ طويلاً.

الثناء إذاً حرفٌ أول في أبجدية التقنية المؤدية إلى أعتاب المجد المأمول. تليه تقنية لإتقان القناع. وهي شطيرة بنصفين: نصفٌ يستقيم

Twitter: @alqareah

بالخفاء، ونصف آخر مستنزل على السيماء. فإذا كان تحقيق النصف الأول رهين التخلّي عن **الحضور في المتناول**، أو استبدال المظهر اليومي كالإستغناء عن السائق في قيادة سيارة «الفولكس» في شوارع المدينة، أو التمشي في الأسواق العامّة، والإكتفاء بالإختباء وراء أسوار معسكر باب العزيزية، فإن النصف الثاني من الشقّ إستوجب تدابير أخرى لتحقيق المظهر. وهو عملٌ إستدعى وجود مواهب أخرى يأتي **روح التمثيل** على رأسها. وعلّ غياب هذه الموهبة هو ما حوّل محاولة تشييد المظهر إلى **تظاهر**، أي إلى افتعال مبتذل رافقه إلى النهاية ليكون له شهادة على فشلٍ ذريعٍ في التمثيل!

في هذه المرحلة كان الشعار الغير معلَن والقائل: «إذا لم أقتُل فسوف أُقتَل!» قد تنامَى ليبرّر تشديد الإجراءات الأمنيّة لا على مستوى الدولة فقط، ولكن على المستوى الشخصي أيضاً. وقد تطوّرت هذه النزعة بتطوّر تماهي الدولة مع الشخص تماهياً كلّياً لتُسخّر كل الأموال وكلّ التقنيات الأمنية لتأمين أمن صاحب الشأن. فبعد محاولة المحيشي صدر الأمر بتحريم إمتشاق السلاح في حضرته لا على أعضاء المجلس أو الضبّاط الأحرار، أو غيرهم من قادة الجيش وحسب، ولكن على أقرب الأقرباء أيضاً. وغياب الموهبة هذا لابدّ أن يكون حجر الزاوية في الحقد على المواهب. هذا الحقد الذي بلغ الذروة بتأسيس قسم خاص بجهاز الأمن تحت إسم «**طمس النجوم**»!. وغياب الموهبة لا ينفي بالطبع حضور ذلك الدهاء المستخدم في الإحتفاظ بالسلطة، لأن الأنسب أن نسمّي هذا

Twitter: @alqareah

الجنس من الدهاء خبثاً، لا موهبةً. ويبدو أن غياباً من هذا القبيل هو الذي ولّد الخوف من كل ذي موهبة ليُصبح افتقاد هذه الخصلة مؤهّلاً كافياً لتبوّء أرفع المناصب في الدولة، أو بالأصحّ، في مَسخ الدولة، لأن الدولة الحقيقية كانت قد اغتربت منذ اندسّت في جبّة صاحب الشأن ليصير الوزراء ظلالاً لهذا الإسم المهيب، والرفقاء وقادة الجيش وكلّ منصب ذي شأن مجرّد أشباح في المنظومة الهزلية الجديدة. ولكن.. هل قلت «وزراء»؟

الواقع أن الخشية من الموهبة ومن كل إسم أو مبدأ إكتسب في العرف السائد شأناً هي ما أدّى إلى اجتثاث الفحوى من الأسماء، ومن الأشياء، لغاية واحدة هي: الحطّ من القيمة في الأسماء، وفي الأشياء المعبّر عنها بالأسماء. وهو ما لن يحدث بدون افتضاض بكارة اللغة لإجبارها على الجود بمفردات تتنفّس أهويةً تحقيرية مشبعة بروح الخدم تمهيداً لتسويق الأيديولوجيا الوحيدة التي تعترف بها السلطة الشمولية: العبودية!

من هنا استوجب انتهاك حرمة اللغة باستنزال لقب مهيب مثل «وزير» من عرشه في الأعالي واستبداله بلقب «أمين» لا لتحصين المنصب القيادي من إساءة استخدام المنصب المعبّر عنه بالأمانة كملفوظة ذات بُعْدٍ ديني، ولكن بنيّة إختزال الصلاحية القيادية التقليدية الكامنة في صفة «وزير» بنفي الروح القيادية عنها أولاً وتحقيق السخرية الباطنة المنصوص عنها في إسم ألوهي كـ«الأمانة» ثانياً، لأن التجربة برهنت أن هؤلاء الأمناء هم مَنْ حطّم الرقم القياسي في فساد الذمّة المالية، وكذلك الأخلاقية!

Twitter: @alqareah

وتتويجاً لهذه السياسة تمّ إلغاء كلّ الأسماء الدالّة في اللغة العربية على إكبار المخلوق الذي لم يبخل عليه الربّ بتنصيبه خليفةً له على الأرض ومحوها من المعجم المتداول مثل وزير، أو مدير، أو رئيس واستبدالها بأسماء تحطّ من شأن الإنسان كقيمة بدعوى الإنتصار للروح الشعبية التي لن تكون منذ الآن سوى الترجمة المهينة للروح العبودية، برغم كل الحجج التي دأب ضحيّة المعبودة الأبدية على الترويج لها في كل مناسبة وفي رحاب كل محفل تنفيذاً لرسالة كرّس وجوده من أجلها وهي: **عبادة الشعب** وتنصيب هذا الشعب على العرش معبوداً بديلاً للمعبود على الأرض.

ولكن هل الأمر إستجابة للهوس بروح الشعب، أم أنه تلبية لنداءٍ أقوى يسكن النفس الإنسانية عميقاً وهو: **التغيير**؟ وهل يبيح الهوس بالتغيير (كأب شرعي لكل ثورة) أن يتحرّر من الواقع، ومن العقل، ومن المنطق في سبيل إستعادة الفردوس المفقود إلى الحدّ الذي يستدعي تجريد التاريخ من صفته الهجرية وحقنه بالروح العدمية باستبداله بيوم وفاة الرسول كأنّ الهجرة لم تكُن رمزاً لانتصار الدعوة المحمّدية؟ لماذا تنتحل الأيديولوجيا لنفسها العقيدة الشرّيرة التي تأبى إلاّ أن تبتذل الأشياء في حمّى انهمامها بالروح الشعبية لتمارس سفسافاً دلّلت تجارب البشرية على عبثيّته في مراحل مسيرتها الطويلة والموجعة؟ لماذا تصرّ الروح الشعبوية على قتل الأحلام، وتسويق الأوهام كسلعة بديلة للأحلام؟

هل جئتُ على ذكر الأحلام؟

Twitter: @alqareah

الواقع أن إماتة هذا اللغز الجسيم في نفوس الرعايا كان خطيئة الخطايا التي تحوّل بموجبها المريد من ضحية إلى ضحية الضحايا. فالإرتياب في أمر الموهبة ولّدَ في المريد عداوةً خفيّة لكل استثناء يمكن أن يرتقي إلى مستوى الموهبة. وها هو يقوم باختيار الأعوان والوزراء (الذين لم يعودوا وزراء) وكل ذي منصب أو وظيفة تنفيذية إنطلاقاً من هذا المبدأ لتغدو الدولة مسرحاً يتولى أمره السفهاء وكل ذي نفسٍ وضيعة. هذا دفع إلى اعتماد الجهالة كعملة للسوق، بل واعتبارها مؤهّلاً مفضّلاً له قصب السبق في كل حال. هذه السياسة لم تضطهد العلم أو أهل العلم وحسب، ولكنها قنّنت الجهل مستعينةً في ذلك بالضربات الأليمة التي وُجّهت للمناهج التعليمية بتسييسها تسييساً غرّبَ فيها لا المعارف فقط، أو حتى تاريخ الأمس القريب، ولكنها طعنت في وجدان الجيل **عبقريّة الحلم**. والبطش بالحلم لن يعني موت الحاضر وحده، ولكنه شهادة وفاة في حقّ المستقبل أيضاً. ألم يُجمع الدهاة منذ الأزل على حقيقة الحياة كمجرّد حلم؟!

فإذا آمنّا بأن الوقوع في غرام السلطة يقلب العاشق ضحيةً لأنه خطيئة، فإن ممارسة قتل الأحلام (الناتجة عن الإستسلام لهذه المعبودة المُميتة) هو ما يحوّل الضحيّة هنا إلى ضحية مركّبة؛ أي هو ما يهبها بُعْد **ضحية الضحايا**! فالمُحزن أن يشهد الكل مصرع أريحيّة السنوات الأولى التي تميّزت بالبساطة في مسلك إنسانٍ رآه السواد الأعظم منقذاً، والمحزن أكثر أن يكون العقلاء شهود عيان على

Twitter: @alqareah

إحتضار عفويةٍ راهنوا عليها في البدايات كدليلٍ على صدقٍ بدأ يلفظ أنفاس النزع الأخير تدريجيّاً حتى إنقلب إفتعالاً جليّاً. وها هي الجموع تفقد الثقة في زعيمها فتدير له ظهرها. وها هي تظاهرات التأييد تخرج حسب خطّة مسبقة هي أشبه بالمكيدة بعد أن كانت إستجابةً تلقائية. وها هو النشاط (أي نشاط جمعي) يخضع لإخراجٍ رذيلٍ ليرسم حدثاً مسرحياً تتّسم فصوله بالركاكة والهزل والزيف. يحدث هذا لأن بطل الملهاة قرّر أن ينتقم بسبب خسارته لكل المعارك التي خاضها سواء على مستوى الداخل أو على مستوى الخارج، مستعيراً تجربة «بويندیا» بطل «مائة عام من العزلة» لـ ماركيز الذي خسر خمساً وثلاثين معركة دون أن يستسلم، أو بالأصحّ، دون أن يسلّم بهزيمته (!)

فهل هو ذروة المأساة، أم أنه ذروة المهزلة، أن يخسر البطل عشرات المعارك دون أن يُهزم أو يسلم بهزائمه؟ في ظنّي أن خسارة البطل للمعارك المتتالية دون وجه حقّ مأساة في حال واتته الشجاعة فسلّم بهزيمته، أمّا إذا خسر المعركة ثم المعركة ثم رفض الإعتراف بهزائمه فتلك هي المهزلة! النموذج الأول كان قدر الروماني كاتون، والنموذج الثاني صار قدر دونكيشوت!

ولا أدري عمّا إذا كانت روح السخرية هي التي اختارت لسليل أبي منيار قدره، أم أن القدر هو الذي قرّر أن يسخر منه فاختار له النموذج الثاني!

Twitter: @alqareah

5

ولكن هيهات أن نفهم ما آلى إليه المآل دون تأويل روح الصَّبْيَنة كمقدّمة لهيمنة العبث تالياً. فنحن كلّنا مسكونون بطفولتين لا طفولة واحدة: طفولة البراءة وطفولة الشقاوة. أي أنهما فينا طبيعة غالباً ما تغلب فينا إحداهما إن لم تهرع لنجدتنا التربية فتلجم فينا الأخيرة انتصاراً للسجيّة الفطرية الأولى. والتربية هنا ليست بمفهومها التعليمي الأسري أو المدرسي، ولكن في بُعْدها الثقافي الناتج عن هوية هي عضو في مجتمع، ثم في بعدها الوجودي الناجم عن مسلك إنسان يخضع في حياته الدنيوية لا للقوانين الإنسانية وحسب، ولكن لقوانين غيبية معبَّر عنها بخطابٍ مطلسمٍ هو الضمير. والفساد في الطبيعة التي تسكننا يتسلّل من شقٍّ متمثّلٍ في غياب الردع، فلا يملك الطفل إلاّ أن ينقلب مارداً أفلت من قمقم فلا يكتفي بتفكيك الدمية بين يديه، ولكنه يتمادى فيعمل على تفتيت الدمية بروح عدميّة. ونزعة العدم هذه تزداد شراهةً كلّما كانت الدمية أكثر هشاشةً. وليس هناك أكثر هشاشة من الدمية التي وقعت بين يدي سليل أبي منيار عام 1969م، لأن المجتمع الليبي كان قد خرج من عصور الظلمات للتوّ لينزل ضيفاً على العصر آنذاك. وهو ما يعني غياب التقاليد في رحابه

Twitter: @alqareah

سواء أكانت سياسية أو حزبية أو قانونية، لأن الأعراف القبلية السائدة قبل الإستقلال لم يكن ليعوَّل عليها في واقعٍ جديد هو الدولة الحديثة. وحداثة العهد بمنفى كالوجود في الدنيا يعني أن المجتمع نزيل مهْد. وأن يكون نزيل مهْد يعني غياب الحول والقوّة. وغياب الحول والقوّة يعني غياب الردع. وغياب الردع هو ما من شانه أن ييسّر ضروب التنكيل التي تعرّض لها هذا الشقيّ على يد الفطرة التي إذا أعجزها أن تغيّر ما بالنفس سحقت كل ما اعترض سبيلها سحقاً، ولو لم تكن النفس كذلك لما وصفها التنزيل الكريم بـ «الأمّارة بالسوء»!

وإذا كانت هشاشة المهد سبباً كافياً لاستكمال شرط الضحية، فإن غياب الردع بالمقابل سببٌ مناسبٌ لميلاد الجلاّد أيضاً. والتنكيل بالضحية من قبل طفل هيراقليط الذي يروقه أن يلهو بالجماجم كما يلهو بالنرد هو ما يبدع هنا النموذج: النموذج الشرير للصبيَنَة التي إذا لم يوجد من يوقفها عند حدّها فإنها تمضي في سبيل اللعب إلى النهاية التي لا تجد معها حرجاً في أن تحوّل الذات ذاتها موضوعاً للعب. في هذا المقام لا يعود معيباً أن تنزل بنفسها إلى الحضيض لتلعب دور البهلوان في المهزلة. وهو درجة أخرى في سلّم إنحطاطٍ مجبولٍ بتجديف، لأن بفقدان الإيمان يُستباح الناموس وترتفع راية العبث في سماء الوطن عالياً، ويُصبح الزلل عملة التداول في القول والفعل، وتعمّ الفوضى طلول ما تبقّى من أجهزة الدولة الزائلة، وتعتمد كيقين حجّة راسكولنيكوف القائلة: «لماذا يحقّ لنابليون أن

Twitter: @alqareah

يقتل الملايين ولا يحقّ لي أن أقتل مرابيةً عجوز؟»، ليُستَبدَل هذا الشعار اللاأخلاقي بلسان حالٍ أكثر لا أخلاقيّةً يقول: «لماذا يحقّ لنيرون أن يحرق عاصمة الزمان روما ولا يحقّ لي أن أحرق الأراضي التي كانت لروما مجرّد مقاطعة؟» أو يُستعار مسلك كاليجولا في استباحة الأعراض والتنكيل بالعباد لأتفه سبب أو بلا أيّ سبب. لماذا لا يغدو غياب الإيمان مبرّراً للإرتواء من أنهار الدم على طريقة صولاّ؟ ولماذا لا تسرح روح الصبيَنة في الواقع وتمرح في ظلّ عدم وجود الله فتُبيح نزوة بذيئة مثل قطع برامج البثّ في التلفزيون وتوجيه بطن الحذاء في وجه ملايين المشاهدين تلبيةً لنداء العبث واستهانةً بكل قيمة دينية أو أخلاقية؟ ولماذا لا يشيّع هذا الحذاء المنكِر بعدها في وجه ضيفٍ رفيعٍ كان في كلّ الأعراف بمثابة رسول كما حدث مع توني بلير؟

إحتراف مثل هذا العبث لابدّ أن يؤدّي مع التكرار إلى الإبتذال الذي لا يدري صاحب الشأن أنه يشكّل إهانةً له كفاعل قبل أن يكون إهانةً للمفعول به. هذا الخلل في الروح هو ما يخيف كل ذي موهبة أو دهاء أو ذكاء إلى الحدّ الذي يدعو إلى تأسيس جهاز طمس النجوم خصيصاً لقتل المواهب وإماتة كل إبداعٍ في النفوس. أي أن التفوّق طابو حتّى لو كان تفوّقاً في طول القامة، ووفاة إنسانٍ تميّز بعلم أو خصلة أو حتى مسلك مناسبة جديرة بالإحتفاء واحتساء الأنخاب على طريقة لويس الرابع عشر.

اللامعقول في الأفعال صاحبه لا معقول لا يقلّ شأناً في الأقوال

Twitter: @alqareah

أيضاً. وهذا اللامعقول الأخير هو سرّ التناقض المنقطع النظير في مجال كان محكوماً دوماً بقونين صارمة كالسياسة، ولو لم يكن الأمر كذلك لما سُمّيَت السياسة سياسةً!

لا يغدو مسلك هذا الشبح (لويس الرابع عشر) ملهماً آخر في ملحمة العبث بحيث تُعتمد وصيّة تجديفية منكرة مثل «أنا الدولة، والدولة أنا» مبدأً نافذ المفعول لا على مستوى حياة الناس اليومية في الداخل وحسب، ولكن على مستوى العلاقات الدولية أيضاً؟

والمفارقة الأكثر مرارة تمثّلت في تجربة ما سمّي بـ«سلطة الشعب» عام 1977 التي تمّ بموجبها تعويم (أو **تعميم**) السلطة (الذي لن يعني فعلياً سوى تغريب السلطة) بدعوى توزيع عنقاء مغرب هذه (التي لم يحدث في تاريخها أن قبلت شراكةً) على الكلّ. هذا **الكلّ** الذي لا وجود له، لأنه عندما يُستجار به فإنما يعني الإرتضاء بالعدم مجيراً. فالسلطة الموزّعة على الجميع هي سلطة لا وجود لها عند أحد. والأنسب البحث عنها في أي مكانٍ آخر خارج هذه التخوم. وليس مصادفةً أن نجد كل الأنظمة الشمولية تعتنق الأيديولوجيا ذاتها عندما تقرّر **الإستئثار** بالسلطة فتدّعيها للشعب من باب التمويه وتضييع ذلك الأثر المؤدّي إلى مالكها الحقيقي. يحدث هذا في بلدٍ هشّ الثقافة السياسية استنارةً بمدوّنة تقريرية أُختير لها اللون الأخضر هويّةً أيديولوجيّةً لتبلغ سخرية القدر ذروتها يوم كشف الواقع عن المفارقة المحزنة الأخرى في هذا الشأن: فلم يشهد الوطن في تاريخه غياباً لأخضر كما شهده في عهد هذه الراية التي تتغنّى باللون الأخضر!

Twitter: @alqareah

حدث ذلك لا بالمعنى الإستعاري وحسب (أي على مستوى القيَم)، ولكن بالمعنى الحرفي أيضاً. والمعنى الحرفي هنا لن يكون سوى المعنى البيئيّ حيث تعرّضت الطبيعة لحملة تخريبية مدبّرة وشاملة أصابتها بجراح لن تقلّ في وحشيّتها عن الجِراح التي أصابت روح الوطن. وكيف لا إذا كانت الطبيعة هي جسد الوطن، كما كان الضمير الأخلاقي هو روح الوطن؟

لقد تعمّدتُ استعمال فعل «يُبيح» طوال السرد لسببٍ هام له علاقة حميمة بالدلالة الدينية للإباحة. فأن نُجيز لأنفسنا شيئاً يعني في اللغة السماح لأنفسنا بممارسة ذات مفهومٍ دنيوي. والإجازة هنا تجاوز. أي خرق لقانونٍ ذي هويّة وضعيّة. والهوية الوضعية للقانون تعني أنه مُختلف. وأن يكون مختلفاً يعني أنّه بشريّ. ونتيجة الفعل حدثٌ دنيوي يسمّى في هذا اللسان جُرماً. والجزاء المستحقّ على نتيجة هذا الفعل يسمّى عقاباً. أمّا فعل «يبيح» فيكتسب هوية **دينية** ذات صلة بالضمير. أي أنه فعلٌ مسبوقٌ بالتحرّر من الإيمان والإنحراف عن الصراط. ولهذا يُعبّر عن نتيجة هذا الفعل بكلمة «خطيئة»، أو «إثم»، لأنه ذنب لا في حقّ الأرض وحدها، ولكن في حقّ السماء. إنّه خرقٌ للناموس الألوهي، والجزاء الناجم عن هذه النتيجة نستطيع أن نسمّيه **القصاص**، وليس مجرّد عقاب.

واقتراف الخطيئة لا يحدث بدون حججٍ أيضاً. وعلّ الخطيئة الأولى الواردة في المتون المقدّسة كمبرّر لطرد آدم من الفردوس أكبر دليل على ذلك، برغم أن المتون لا ترويها صراحةً، ولكن ليس

Twitter: @alqareah

عسيراً علينا أن نفكّك الطلسمان في معرفة السبب. فالحنين الغيبيّ إلى التغيير الذي نسمّيه ظمأ للحرية لابدّ أن يعلن عن نفسه هنا رمزاً. ولهذا صارت الحرية أعظم حتمية وجودية على الإطلاق لا تناسباً مع القصاص المترجَم في حرف المنفى، ولكن تناسباً مع الخطيئة كعصيانٍ لأمر الربّ. هذا يعني أنّ الشرّ يأبى أيضاً إلاّ أن يطالعنا بالذريعة، فيجادلنا ببرهانٍ نبخل به عليه دوماً. وفي حال إنسانٍ إستلب صلاحيّات الربّ لا ليكون له خليفةً على الأرض ليعدل بين الناس، ولكن ليمتلك العباد بالإنابة عن ربّ السماوات والأرض، فهو لابدّ أن يعطي نفسه الحقّ في أن يحيي ويميت بالإنابة عن الربّ أيضاً. والحجّة؟ الحجّة هي **الدفاع عن النفس**. وتصفية الخصوم عبر التاريخ جسدياً كانت مستعارةً من هذا المبدأ. مبدأٌ يبدو مباحاً في كلّ الأعراف ولكن بشرط لا يخلو من غموض. ذلك أن مفهوم هذا الدفاع رجراجٌ إلى حدٍّ يسهل معه تحويل الدفاع إلى عدوانٍ صريح. كيف يحدث هذا؟ يحدث هذا **بالمغالاة**. فضحية العدوان قد يتحوّل جلاّداً في لحظة عندما يستخدم هذا الحقّ ضدّ الخصم بلا حدود. وعلّ مبدأ: «إذا لم أقتل فسوف أُقتَل» المتداول في الأنظمة المطلقَة لهو أكبر دليل على ذلك. وهو حيلة موفّقة لإسكات صوت الضمير في الواقع، وليس لإقرار عدالة. والدليل الآخر أنه يصير ذريعةً لنفي **مبدأ الخلاف** بخنق صوت الآخر بدعوى العداء. والعداء في عرف هذا المنطق شروعٌ في فعل العدوان حتى لو كان الخصم (أو مَنْ يبدو خصماً) يدلي بمجرّد رأي. أي أن مفهوم العدالة نفسه يخضع

Twitter: @alqareah

للتعديل على النحو الذي يخلق المبرّر السيكولوجي في ارتكاب جريمة لا تعود منذ الآن جريمة، ولكنّها تستعير بُعْد الخطيئة. لماذا؟ لأن العبث بالقوانين الوضعيّة ببُعدها الدنيوي يتحوّل تجديفاً في حقّ الناموس الديني من قبَل إنسانٍ يتوهّم إمتلاك الحقيقة. والإحساس بامتلاك الحقيقة هو ما يُجير من الإحساس بالإثم. في هذا البُعْد يستعير الشرّ حجّته.

Twitter: @alqareah

6

وجود الشرفاء في ظلّ الأنظمة الجائرة ظاهرة جديرة بالدراسة في تاريخ المجتمع البشري، برغم ندرتها. إنها تلك العنقاء التي تبذر جرثومة الدراما في رحم تاريخ الإنسان في علاقته المعقّدة بأخيه الإنسان. إنهم موضوع دراما لا لأنهم هوية مأساة يجسّدها وضعهم كضحايا، ولكن لأنهم مجبولون بتلك الروح الغيبيّة التي تغذّي شرايين الشرّ فلا تكتفي بإطالة عمره فقط، ولكنّها تأبى بعملها إلاّ أن تُبقيه على قيد الحياة. إنه البعد الميتافيزيقي، البعد المجهول، للتضحية الذي عبّر عنه دوستويفسكي في الموقف الذي يقوم فيه القدّيس زوسيما بالركوع تحت قدمَيء قاتل الأب ديمتري كارامازوف! إنها النزعة اللاّمفهومة، بل واللامغفورة في ناموسها، التي تنصّب وجود الشرّ في دنيانا ضرورةً!

ولكن هل هو حقّا تقويمٌ للنفس كقربانٍ مجّاني؟ هنا لابدّ أن ينهض مبدأ الواجب ليترافع عن الضحايا. يتقمّص الوطن قناع الواجب ليقف لا كشاهد على المقصلة، ولكن ليقف طَرَفاً آخر في ملحمة ثالوث العشق الأبدي الذي يلعب النظام في فصوله دور الجلاّد، والوطن معشوقةً، وذاك الجنس من الضحايا دور المريد

Twitter: @alqareah

المنافس في عشق المعشوقة، لأن التجربة أثبتت أن المعشوقة (الوطن) كانت ستلفظ أنفاس النزع الأخير بين يدَيْ الجلاّد فيما لو غاب أمثال هؤلاء من الساحة.

فهل كانت روما القديمة ستكون روما القديمة لو غاب من المسرح كاتون الأكبر في ذلك الزمن الذي لم يشهد تتابع أنظمة الجور وحسب، ولكن الحديث العهد بالمرحلة الهمجيّة أيضاً؟ وهل كانت روما زمن الحروب الأهليّة وهيمنة الأنظمة الإستبدادية عقب قرون من عصر كاتون الأكبر ستظلّ روح العالم ومركز الكون فيما خلا واقعها من كاتون الأصغر؟ وهل كانت دولة الخلافة الإسلاميّة ستُبقي على روح الإسلام في عهد عثمان فيما لو خلَتْ من مريد حقيقة كأبي ذرّ الغفاري الذي أصاب صديقي القديم مظفّر النوّاب عندما وسّمه بالبيت الشعري الرائع الذي يقول:

(مازالت شورى التجّارِ ترى عثمان خليفتها وتراك زعيم السوقيّة
لو جئت اليوم لحاربك الداعون إليك وسمّوك شيوعيّة)؟

فكم من مرّة صرخ سليل أبي منيار في وجه صاحب العفاف أبي زيد دوردة بالعبارة ذاتها التي صرخ بها عثمان بن عفّان في وجه أبي ذرّ تبرّماً من مواقفه الشجاعة والملخّصة في عبارة مبتسرة، ولكنّها دالّة وهي: «إليك عنّي! إليك عنّي!».

لم يفرّ أبو ذرّ إلى البحرين أو إلى أي نقطة مجهولة ليقول كلمته عن بُعْد، كما لم يلجأ أبو زيد إلى ما وراء البحار ليُدلي بشهادته في خطايا النظام، لأن الشجاعة يترجمها حرف المواجهة في عين

Twitter: @alqareah

المكان، وليس التغنّي بالمعارضة بعد أن يكون صاحب الشأن قد عبر البحر وضمن في أوطان الأغراب الأمان على عادة أبطال هذا الزمان. فالناموس هو الذي سنّ الشرع الذي جسّده أحمد شوقي في مرثيّته لإمام شهدائنا عمر المختار:

«إن البطولة أن تموت من الظمأ

ليس البطولة أن تعبّ الماء!».

فتخيّلوا معي لو ذهب عمر المختار ليُجاهد الغزاة من خارج الوطن! هل كنّا سنقنع به حينها أسطورة مقاومة، أو بطل وطن، أو إمام جهاد؟ كلاّ بالطبع!

Twitter: @alqareah

7

هذا الرجل الذي آثر أن يستجير بالوطن لا لينهش غنيمة من الوطن على طريقة أغيارٍ كانوا بليّة وطن ذاك الزمان، ولكن ليعمل شيئاً من أجل الوطن، بل ليسخّر حياته من أجل إعلاء راية ذلك المفهوم الموروث عن السلف للغزٍ يمثّله الوطن: مفهومٌ يرى في الوطن معبوداً لا مجرّد وطن. لمَ لا إذا كانت اللغة نفسها قد زكّت هذا المفهوم عندما استعارت كلمة «وطن» من مفردة تحمل ذات الدلالة الدينية الكامنة في «وثن»؟ روح الأسلاف التي تباهى بها أبو زيد دوماً هي التي برهنت على مبدأ القيمة في مفهوم الوطن بتلك التجربة الدموية التي أفنت أهل الوطن في كفاحهم الطويل دفاعاً عن تراب الوطن في زمنٍ كان فيه هذا التراب مجرّد تراب، أي قبل أن ينقلب تبراً إبريزاً لا مجرّد تراب! والمفارقة أن يكون هذا التراب في يقين الأسلاف قدس أقداس لم يبخلوا عليه بنزيف الدم برغم هويّته كتراب، في حين يستهين به الأخلاف حتّى بعد أن تحوّل تبراً، لا مجرّد تراب!

أبو زيد إعتنق في العلاقة مع الوطن دين الأوائل، ولهذا شهد له الجميع بحقيقة كونه الإنسان الوحيد الذي تقلّد عديد المناصب في

Twitter: @alqareah

تلك المرحلة ليخرج من المنصب في كلّ مرّة بضميرٍ نقيّ. ونقاوة الضمير هنا لا تقف عند حدود براءة الذمّة المالية، ولكن تتجاوز إلى براءة الذمّة الأخلاقيّة. هذه الذمّة التي لن تعني سوى الإخلاص في العمل برغم هيمنة روح العبث التي تكافح في تسفيه أيّ جهدٍ جدّي! ولولا روح القربان، ولولا حضور روح السلف بقوّة لما أفلح الرجل في أن يتسامح مع فصول الهزَل وضروب الإستخفاف التي دأب النظام على مكافاته بها في كلّ حقل تولّى أمره خصيصاً لإفشاله والحطّ من عمله، لأن التفوّق عملة مرفوضة سلفاً في واقع تلك الأيام، وصاحبها جديرٌ بالقصاص بدل آي الإكبار كما يحتّم المنطق. وهو قصاصٌ أُستُنزِلَ عليه مراراً، برغم أنه احتمل الإنكار في كلّ مرّة تلبيةً لنداء ذلك الوفاء الذي تغنّى به دوماً والمترجَم في العبارة الشعبية الشائعة: «أنا صاحب صاحبي» التي تبدو غامضةً في الحرف برغم عمقها لو تأمّلناها قليلاً. فوفاء الخلّ لقرينه الخلّ مستحيل كما تؤكّد الوصيّة المستعارة من معجم الأمثال الموروثة للأجيال. بل الصحيح أن الخلّ في العلاقة مع قرينه الخلّ عدوٌّ مبين. عدوّ كلّ ما هنالك أنّه مؤجّل إلى حين. إنّه عدوٌّ مقنّع ينتظر اللحظة التي سيكشف فيها عن سليقته الظامئة للإنتقام. وهو ما يعني أنه عدوٌّ مستتر. والعدوّ المستتر أشرّ من عدوّ العلَن. ولذا فإن اعتناق مبدأ «صاحب الصاحب» محاولة باسلة لنفي التهمة الرذيلة عن الخلّ. وتأكيد على تجريد المفهوم من روح القناع، ومن نوايا السوء؛ أي أنه تعبيرٌ عن وجود وفاء. أي **الوفاء كاستثناء**. إستثناء في الصفقة التقليدية الخاسرة

Twitter: @alqareah

في علاقة الخلّ بقرينه الخلّ. وهو يقينٌ لم يخنه أبو زيد أبداً. لم يخنه لا مع الأخلّة، ولا مع النظام، أو مع رأس النظام الذي حسبه خلاً. وهو ما سيشهد به كل من عرف هذا الرجل، لا من صادقه وحسب. ولكن هذه الخصلة إذا كانت فضيلة في العلاقات الشخصيّة، فإنها حوّلته على مستوى العلاقة السياسية **ضحيّةً حقيقيّة**. كان ضحيّةً منذ البداية، واستمرّ حاملاً صليب الضحيّة عبر العقود، بل وواصل حمل هذا الصليب إلى ما بعد النهاية. أي حتّى بعد هبّة ردّ الإعتبار التي أسقطت النظام بحيث يبدو موقف الرجل من **هبّة بعث الأحلام القتيلة** أمراً غامضاً وهو الذي لم يجنِ من ذلك النظام سوى الآلام. فهل هو تعبيرٌ عن تسامح مع نظامٍ كان فيه **معارضاً دوماً**، أم أنه ترجمة لرؤية تماهى فيها الوفاء للوطن بالوفاء للشخص، أم أنه ضربٌ من شهامة تستدعي نصرة الأخ ظالماً أم مظلوماً، أم أنها تضحية أخيرة تضاف إلى قائمة التضحيات السالفة إعلاءً لشأن مبدأٍ مجهولٍ لا نعلمه؟

إنها حزمة الأسئلة التي سيُجيب عليها الزمن، لأنه وحده المخوّل بكشف الحقيقة في سيرة مثل هذا النموذج التراجيدي، كما عوّدنا منذ الأزل. ولا أحسب أن هذا الإنسان (الذي شهد له كل من عرفه سواء من الليبيين، أو العرب أو الأجانب) بصحوة الضمير سيكون في حاجة لشهادة براءة من صديق هو صاحب هذا النزيف، سيّما أن التاريخ يشهد له بأنه هو بالذّات لا سواه من اختارته الأقدار ليلعب دور الضمير الحيّ في ظلّ السلطة الساعية نحو الشمول في مختلف

Twitter: @alqareah

أطوار رحلتها في سلّم هذا الشمول، لأن التجربة في علم النفس برهنَت مراراً حاجة الخُطاة الكبار لنموذج من هذه الطينة للتكفير عن الخطايا. وهو الدور الذي لعبه بوفيلييه في سلطة لويس الرابع عشر، كما لعبه توماس مور في بلاط هنري قبلها بقرون، وكان شيشرون نموذجاً آخر في إمبراطورية يوليوس قيصر قبل عصر توماس مور بستّة عشر قرناً. أي أنه **الضحية الأبديّة** التي يرفض الطغاة أن يعترفوا بها، فينكّلوا بها، ولكنّهم لا يجرؤون أيضاً على التخلّص منها لسببٍ غيبيٍّ مملوٍّ بالغموض الناجم عن لغزٍ ميّز الإنسان عن أي كائن آخر في الوجود وهو: **الضمير!**

Twitter: @alqareah

8

بساحة هذا الإنسان إستجرت يوم أحكم النظام سدّ الأبواب في وجهي لأكتشف بعد سنوات أنه الإنسان الأول (وهو أيضاً الأخير) الذي كُتب لي أن أعمل معه طوال عهد حركة 1969 عندما كان يتولّى حقيبة الحكم المحلّي التي تغيّر إسمها آنذاك ليكون «البلديّات» لتكون المحطّة الثالثة في رحلة تنقّله الطويل بين الحقائب الوزارية أو ما في حكمها من المناصب السيادية آنذاك.

لم يتمتّع أبو زيد بخصالٍ أخلاقية وحسب إذا قورن بزملائه من وزراء ذلك العصر، ولكن فاقهم في خصالهم الثقافية أيضاً. فهو قاريء نهم في زمنٍ لفظ فيه هذا النهم أنفاس النزع الأخير بتشجيعٍ من روح الأيديولوجيا: هذه الخبيثة التي هيمنتْ على الواقع الثقافي آنئذٍ لتسفّه كل مبدأٍ نبيل، وتسطّح كل مفهومٍ أصيل. إنها ثقافة الحرف الميّت الذي تحدّث عنه القدّيس بولس في مقابل ثقافة الروح التي تُحيي كما حثّ في وصيتة النبوية. وعلينا أن نتخيّل مدى اغتراب ذلك الإنسان المجبول بروح الحكمة الموروثة عن الأسلاف في ظلّ واقع ثقافي مسيّس حتى النخاع بحيث يصير التبصّر أو التأويل أو التجلّي تهمةً سياسية تؤهّل للدخول إلى السجن. ولن يبدو هذا غريباً

Twitter: @alqareah

في مرحلة شهدت لا منع الكتاب وحسب، ولكن منع المطبوعة حتى لو كان منشوراً مستنسخاً من آلة إستنساخ. وهو ما أدّى على تجريم إقتناء مثل هذه الآلات الناسخة ومنع إستيرادها من الخارج. وهو قانونٌ إستمرّ سارياً إلى وقتٍ قريب.

في مناخٍ من هذا القبيل يصبح الإنسان الذي حافظ على إدمان الكتاب المهرّب من الخارج حالة إستثنائية برغم إنشغاله بتيسير عملٍ وزاري ذي صلة بالجمهور يستغرق آناء الليل وأطراف النهار. وأصدقاء أبي زيد من أهل المشرق شهود في هذا المجال أمثال طلال سلمان أو وليد الحسيني أو أمين الأعور الذين لا يحلّون على البلاد أضيافاً إلاّ محمّلين بتلك الكنوز الفكرية الصادرة بعاصمة الكتاب العربي بيروت لتكون للرجل أنفس هدية.

أقول هذا لأن الظمأ إلى الكتاب ليس خصلة ثقافية وحسب، ولكنّه إمتيازٌ أخلاقيٌ أيضاً. فكما لا نستطيع أن نأمن إنساناً يستحي أن يراه الناس باكياً، كذلك لا نستطيع أن نأمن إنساناً يستهين بتلك اللقية النفيسة التي شرّفتها الربوبية عندما نصّبتها قريناً للقداسة مترجمةً في لفظة «كتاب» الدالّة على الفرقان، بل وعلى كل متن ذي طبيعة دينية. إنها عبقرية اللغة نفسها التي زاوجت في المفهوم بين **الأخلاق والإبداع** في لفظة «أدب»!

وكان أبو زيد قد أُختير رئيساً لجمعية الصداقة الليبية البولندية إلى جانب عمله الوزاري تمشّياً مع سياسة تعتنق النزعة الشعبوية في العلاقة مع أمم ذلك الزمان. وهو منصبٌ فخريّ أكثر منه سياسي،

Twitter: @alqareah

كما أنه ثقافي أكثر منه سياسي أيضاً. وهو ما شجّع جمعيّات أخرى كا(لروسية مثلاً) على تبادل المندوبين للإشراف على النشاطات الثقافية بين البلدين. ولم أكن لأقترح على الرجل القيام بمهمّة المندوب لولا وجود أسباب كشفت عنها تجربة معايشتي لواقع غياب لا الحضور الإعلامي العربي في شرق أوروبا (وهو غياب كان عقدةً تلك الأيام) وحسب، ولكن غياب الحضور الثقافي العربي الأخطر من غياب الحضور الإعلامي، لأن الإعلام يجب أن يكون الناطق بإسم الثقافة، لا أن تكون الثقافة خادماً في حضرة الإعلام، وهي النزعة المعتمدة في واقع تلك الأيام، بل ومازال هذا الواقع قائماً إلى اليوم، والدليل هو ورود كلمة ثقافة مسبوقةً بكلمة إعلام في إسم كل وزارة معنيّة بهذين الشأنين لا في ليبيا وحدها، ولكن في جلّ الدول العربية؛ وهو يترجم حكماً نفسياً يبرهن على أسبقيّة الإعلام على الثقافة. والمسألة التي تعمّدتُ التركيز عليها في ذلك اللقاء ذات أهمّية إستثنائية لها علاقة بالخطاب: فالأوساط السياسية وكذلك الثقافية العربية التي كانت تشكو الأمرّين من هذا الغياب لا تلبث أن تقترف خطيئة أكبر في حقّ نفسها عندما كانت تعمَد إلى مخاطبة العالم بلغتها هي لا بلغات العالم، فتموّل صحفاً ووسائل إعلام ناطقة بالعربية بدل لغات التواصل الحيّة كاللغات الأوروبية، كأنها توجّه خطابها لمغتربيها أو أبناء شتاتها لا إلى أصحاب الشأن! والمفارقة الثانية أن العلاقات السياسية العربية بقدر ما كانت حميمةً مع دول المنظومة الإشتراكية بقدر ما كانت بعيدةً ومجهولةً بالنسبة لشعوب

Twitter: @alqareah

تلك المنظومة. وما ضاعف من دراميّة هذه الجهالة المتبادلة (إلى جانب الغياب الثقافي والإعلامي) هو الستار الحديدي بالطبع. الستار الحديدي لا على التنقّل وحسب، ولكن على المعلومات أيضاً، سيّما في ذلك الزمن الذي لم يشهد بَعْد ثورة التقنية باختراع الفضائيات التلفزيونية، أو الهواتف المحمولة، أو شبكة المعلومات الدولية.

ولكن لماذا بولندا وليس أي دولة أخرى من دول المنظومة؟

خيار بولندا كان الأنسب لسببين: أولهما لأنها مقرّ حلف وارسو، ولهذا فهي كعبة المعسكر من حيث الوزن السياسي، وكذلك التأثير الثقافي. وثانيهما: بولندا المجتمع الأكثر مرونةً سياسياً، والأكثر إنفتاحاً ثقافياً. وهي لذلك الأقلّ تحجّراً فكرياً، والأكثر تسامحاً أيديولوجياً.

وهو ما يعني أنها النقطة الأضعف أيضاً، والدليل أن الغرب لم يتسلّل تالياً لينفّذ برنامجه في نسف المنظومة إلاّ من خلال إستغلال هذه النقطة بالذات. وكلّها مزايا كفيلة بجعل وارسو منطلقاً لعملٍ ثقافيٍّ رسالي في زمن هيمنة ستار أيديولوجي حديدي مازال يتلقّى الوصايا من ستالين النائم في قبره متمثّلاً في شبح تلميذه سوسلوف سادن العقيدة الشيوعية العتيد!

تلك بالطبع كانت مجرّد رؤية. وتحويل الرؤية إلى واقع في تلك الأعوام هو ما يستوجب التحلّي بالشجاعة لسببٍ بيّن هو الزلزلة التي حلّت بالإدارة منذ عام 1973، أي الحركة الجنونية التي أطلقت سراح

Twitter: @alqareah

غول الفوضى ليسري كالسرطان في شرايين جهاز الدولة الإداري بإسم «الثورة الثقافية» ليصير مع عام 1978 بعبع الواقع اليومي. فتنفيذ أي فكرة في واقعٍ عبثي كذاك غدا مغامرة حقيقية تتطلّب خططاً حربية حقيقية حسابات الخسارة فيها أكبر حظّاً من حسابات الفوز. ولذا فإن فضيلة إنسانٍ كأبي زيد كانت في قدرته على مواجهة الروتين المميت الناجم عن إحتضار الدولة من خلال تفسّخ الآلة الإدارية، وتحلّل جهازها التسييري على نحوٍ درامي فضح النوايا المبيّتة في تفكيك الدولة ذاتها تمهيداً لاختزال كل المقاليد ووضعها بيد الفرد كما دلّلت التجربة تالياً. ولم أكن لأحتكم إلى شخصه في أمرٍ كهذا لو لم أدرك فيه هذه الخصلة التي عرفها فيه كلّ من عرفه آنذاك، وعرفها فيه من لم يعرفه أيضاً. وها هو يبرهن على هذه الشجيّة العملية فيأمر باستصدار قرار الندب من معهد الإنماء العربي إلى وزارته، ثمّ يلحقه بقرار الإنتداب للعمل بالخارج كمندوب لجمعية الصداقة ببولندا.

كنّا قد توصّلنا إلى ضرورة تنظيم أسبوع ثقافي ليبي بعاصمة الحلف وارسو على أن أتولّى التحضير لبرنامج الأسبوع في شقّه الثقافي، على أن يتولّى بقيّة أعضاء مجلس إدارة الجمعية شقّه الإداري. وقد رأيت أن أستعين في شأن هذا البرنامج بصديقي النبيل نوري الحميدي المقيم آنذاك بالمدينة السياحية إثر عودته من مصر، بعد نجاته من «متاهة مينوس» الأسطورية المتمثّلة في سجون السادات التي أمضى في غياهبها أعواماً كاملة. ومن الطبيعي أن يختلي بنفسه في المدينة السياحية بعد هذه التجربة القاسية ليعاني مخاض ميلاده

Twitter: @alqareah

الثاني. بعيداً عن بلبال المجتمع. كان نبأ صدور القرار قد إنتشر في الأوساط السياسية قبل الأوساط الثقافية ليغدو موضوعاً للجدل في واقعٍ بدأ يعاني من مرض هو الجمود، فلا يجد العزاء في غير الفضول. وها هم البعض يشيعون أن القرار ما هو إلاّ تذكرة سفر إلى المنفى. هذا في حين أيقظ في نفوس ضعاف النفوس شروراً مبيّتة فيتنادوا ليبعثوا الحياة في الكيد القديم القائل بأن المكان المناسب لأمثالي ليس الإنتداب للعمل في الخارج، ولكن الإنتداب لدخول «الحصان الأسود» كناية عن السجن. وطبيعي أن يمثّل هؤلاء زبانية اللجان الثورية من جانب، ومافيا الخارجية الليبية كطرفٍ ثانٍ، وأشباح مكتب الإتصال الخارجي كركنٍ ثالث في الحلف الذي تنادى في الحال ليضع اللغم الكفيل بنسف القرار من أساسه كما سيأتي بعد قليل. أمّا الفئة الموالية لنهج أبي زيد فلم تخفِ تعاطفها مع القرار ضمناً، وإن تحفّظ البعض بياناً كما هو الحال مع سعد مجبر الذي تندّر قائلاً أنني الوحيد في تاريخ البلاد الذي استطاع أن يُنشيء لنفسه وظيفة لا وجود لها في ملاك الدولة الوظيفي. وهو شرفٌ لم يكن ليخطر لي على بال لو لم ينبّهني إليه هذا الرجل. فالقانون الإداري هو الذي سنّ شريعة مدهشة تقرّ **بأسبقيّة وجود الوظيفة على وجود الإنسان المخوّل بشغل هذه الوظيفة(!)** كأن الوظيفة هي المؤهّلة لإختيار الإنسان الذي سيشغلها، وليس العكس. وهو ما يعني أن المهمّ في المنطق الإداري ليس الإنسان، ولكن الوظيفة التي سيشغلها هذا الإنسان. إنه ليس تضحية بالمضمون في سبيل الشكل

Twitter: @alqareah

وحسب، ولكنه تغريب لهويّة الإنسان كإنسان، وتغليب لوظيفة لم تكن لتعني شيئاً بغياب الإنسان. وإذا كنت قد قلبت هذا المفهوم رأساً على عقب دون أن أدري، فإنّي قد إستطعت أن أعيد الإعتبار للإنسان دون أن أدري. ليس إعادةً لإعتبار وحسب، ولكنه تذكيرٌ آخر بالوصيّة الدهرية القديمة القائلة بأن الإنسان لا سواه مقياس كل الأشياء. ليس هذا وحسب، ولكن تذكير آخر بوصية أخرى أخطر تقول فحواها أن كلّ الأشياء في دنيا الأنام ما هي إلاّ وسيلة، ولكن **الإنسان وحده هو الغاية!**

والمأساة أن هذا الشرع الأبله لم يظلّ حبيس الملاك الإداري العالمي، ولكنه إنتقل إلى النفوس كوباء. وعلّ **عبادة المنصب** تعبيرٌ أمينٌ عن هذه الروح. فقيمة الإنسان لا تتحدّد بموجب ناموسٍ أخلاقي يرى في الإنسان قيمةً في ذاته، ولكنه قيمة بقدر حجم المنصب الذي يتولاّه في السلّم الوظيفي. إنه تلبيةً لنداء السلطة الآثم، وتسفيه لروح القداسة التي تسكن لغزاً إسمه الإنسان.

تلك الوظيفة التي لم تخترني، ولكني اخترتها، كانت مكافأة الأقدار كما يبدو، لأنها كانت الوظيفة الوحيدة التي تقلّدتُها في ذلك العهد كلّه، ولم أنتقل لأتقلّد سواها يوم تكأكأت قوى الظلمات لتكتم أنفاس الحلم الهشّ عام 1987 لأتحرّر من كلّ ما له علاقة بالوطن الشقيّ، لأجد نفسي من جديد أقطع شوطاً أبعد في عسعس السُّرَى الطويل!

Twitter: @alqareah

9

هل كان ذلك محاولة لترويض جنون فرس «الهمّ الكينوني»؟

هل كان قرارالنزول إلى ساحة النشاط العملي إنحيازاً مستبطناً لخيار العشق على حساب خيار اسبينوزا الذي يتحدّث عنه توماس إليوت في المقولة القائلة بأن لا وجود لخلاص بالنسبة لإنسان العصر إلاّ ممارسة العشق، أو قراءة أسبينوزا؟

فبالنسبة لإنسانٍ صار طريد فردوس الزمان (الأيديولوجيا) مبكّراً ليحيا في عالمٍ مسيّس حتى العظم، لا خيار سوى الإرتماء في أحضان **الهمّ الكينوني** كتجربة عدميّة عسيرٌ أن تعترف حتى بأسبينوزا كترياق.

والمأزق ليس في استبدال الأقنعة. ليس في التضحية بمكسيم غوركي مقابل إعتناق مباديء كيريلوف تقمّصاً لروح دوستويفسكي، ولكن في **أصالة الإيمان**: أصالة الإيمان التي ستبدو مجازفة حقيقية في زمن هيمنة الإبتذال. إبتذالٌ ناتجٌ عن روح الإصطناع. وهو ما يجعل رائحة النزيف تفوح من كلّ معتقد، بل ومن اللاّمعتقد، إستجابةً لطاغوت سوّقته الأيديولوجيا لتنصّبه ناموساً على الحياة بسلطان سلطتها على العصر وعلى نفوس أبناء العصر. والأصالة في

Twitter: @alqareah

الإرادة تتبلبل في واقعٍ عملة السوق فيه هي: **التقليع**. هذا يؤدّي حتماً إلى اغتراب الحرية، لأن الحقيقة لم تكن يوماً وجبةً جاهزةً. إنها رهينة النصيب الذي ننزفه من الدمّ: الذي يُنزَف بالإستعارة. فالحقيقة، كالحرية، تجربة غير قابلة للإستنساخ، في حين كانت بليّة جيلنا هي: التلقين. أي إعتناق التجارب بدل ممارسة التجارب. إنه الوباء المعدي المفروض بأنصال الأيديولوجيا. ومناخ الجيل كان حتى ذلك الوقت مازال يتنفّس برئة الأيديولوجيا أهوية ملوّثة، سيّما في واقع العالم، الذي كان ظلاّ للعالم، وهو العالم الثالث!

ففي واقعٍ يهيمن عليه شبح الملل (الملَل الناجم عن إغتراب القيَم بفضل إنتصاب أعمدة إحتكار الحقيقة) يغدو النشاط العملي السبب الوحيد للبقاء على قيد الحياة. إنه ضربٌ من هروبٍ من الواقع بالإرتماء في أحضان ذلك الواقع المغترب عن الواقع. وإنهيار كيان التقليد الذي كنّا له شهود عيان هو العنصر المعمّق لمتاهة التيه. والإستجارة بدوّامة الدنيا هي القشّة الباقية للدفاع عن النفس أمام الشبح القديم الذي كشّر في وجه العدوس يوم حاصرته العاصفة الثلجية الليلية بموسكو لتوقظ في دهليز الباطن التوق الأبدي الذي نحاول أن نتجاهله برغم أنه يحيا في أعماق كلّ منّا: **خيار كيريلوف!**

Twitter: @alqareah

10

ولكن السؤال هو: لماذا الثقافة؟

لماذا تغدو الثقافة بمثابة الحُجّة الأخيرة، أو حتى القشّة الأخيرة، الباقية في المتناول بالنسبة لإنسانٍ يلهث في غيهب الدنيا مغلولاً بأصفاد الإغتراب، طلباً للحقيقة التي لا حضور لها خارج البُعد المفقود كما قُدِّرَ له أن يكتشف في مرحلة تالية؟ هل هو استجابة لنداء اليقين القائل بأسبقيّة الثقافة على السياسة، أم أن الأمر مجرّد فرار من عالمٍ سُيِّسَ فيه كل شيء بفعل معبودة العصر الأيديولوجيا؟ وإذا كان الإنتصار لثقافة أضحت في حالة دفاع عن النفس هو الغاية من الهجرة بالمنابر خارجاً بعد أن لفظت هذه المنابر أنفاس النزع الأخير بالداخل، أفلن تكون الرسالة الثقافية هنا مخاطرة أخرى مهما تعلّلت بحمولة القيم الإنسانية المغتربة، سيّما في واقعٍ تهيمن عليه أيديولوجيا أخرى تبدو أكثر تحجّراً؟

السرّ يكمن في الروح الرومانسيّة التي تتغنّى بالبشارة. فغياب ثقافة أناسٍ يرون أنفسهم خير أمّة أُخرجت للناس في واقعٍ حضاري صار مثالاً لابدّ أن يربّي في حامل هوية هذه الثقافة إحساساً بالجور، بل وحتّى الإضطهاد. فسلطة الإرث، أو المكوّن الذي يسكن العقل

Twitter: @alqareah

الباطن، قوية إلى درجة يصير فيها من قبيل العبث إقناع هذا النموذج بسيرة موجعة كارتحال الحضارات، لأن لا شفاء لمريضٍ يرفض أن يعترف بمرضه. ومرضنا في تلك المرحلة هو إنكار واقع تخلّفنا عن الركب. وهو مرضٌ مازال مهيمناً حتى الساعة. وما حركات التطرّف (بشقّيها الديني والقومي) سوى إفرازٌ له. ولهذا لن نعترف في حقّ أنفسنا بحقيقة أنفسنا. وطبيعيّ بعد ذلك أن نترجم جهلنا بأنفسنا فلا نعترف بهزيمة عندما نُهزَم، ونستنكر الإنتماء إلى عالم لا مكان فعليّ لنا فيه لأن قلوبنا ما تزال تسكن القدمة. والدليل على كلٍّ هذا هو أننا كلّما طولبنا بالبرهان على تفوّقنا وحضور كلمتنا هرعنا إلى الوراء لنقدم للعالم ماضينا. وليتنا نتّفق على تقديم الجانب الأنبل في هذا الماضي، ولكنّنا كثيراً ما نصرّ على تقديم الجانب الأرذل في هذا الماضي. ولهذا يبدو القيام بتقديم القيَم الحقيقية في تاريخ أممنا (لأن الإعتراف بتعدّد الهويات الثقافية في هذه الثقافة هو فضيلة أخرى كثيراً ما ننكرها لنحطّ من شأن هذه الثقافة ونطعن في ثرائها وتسامحها) عملاً شجاعاً، ورسالة نبيلة برغم كل العراقيل.

فالـhomo sapiens لم يكتسب الهوية السياسية قبل المرور بالهوية الثقافية. فليس بوسع الكائن الطبيعي أن يقفز رأساً إلى المحفل الإجتماعي دون ممارسة طويلة وموجعة في استخدام الـ sapiens الذي كان له الفضل في تغريبه عن فردوسه الطبيعي والرمي به في جحيم العقل. وهو ما يعني أن التجربة الوجودية تجربة ثقافية قبل أن تتحوّل تجربة سياسية بالإلتئام في منظومة جماعية. وهو ما تنكره

Twitter: @alqareah

السياسة اليوم عندما تناصب العداء لكل ما له صلة بالثقافة كأنها تترجم بهذا مسلك العقوق في الإبن الضّال إزاء الأب فينفيه من الوجود إستجابةً لطبيعة الأشياء التي برهنت أنّنا لا نُميت في الواقع من نمقت، ولكن من نحبّ؛ ربّما يقيناً منّا بأنّنا لا نهلك إلاّ بما نحبّ، كما لا ننجو إلاّ بما نخاف!

Twitter: @alqareah

11

يعبّر الشعب الروسي عن ميتافيزيقا الخروج بعبارة تقول: «الإنتقال من المكان إلى مكانٍ آخر مرّة أسوأ من معايشة حريق ثلاث مرات!». فكيف إذا تعلّق الأمر بإنسانٍ كانت حياته إنتقالاً لا مرّة واحدة، ولكن في كلّ مرّة، أو فلنقل أن حياته إنتقالٌ من ألفها إلى يائها؟ وأحسب أن وصية الأمّة الروسية إنّما تعبّر عن تجربة الحرية كمحنة وجودية، وليست مجرّد تعبير عن ترحال، لأن خيار جسيم كالحرية وحده حريقٌ روحيّ مركّب. فاحتراف الأسفار هو العادة التي لا نستطيع أن نعتادها. أي أنه إحترافٌ لا يتحوّل حرفةً تؤهّله ليغدو فلسفة وجود دون دفع قرابين. لماذا؟ لأنه ببساطة بطولة لا تقلّ شأناً عن تحقيق البعث وممارسة تجربة دمويّة هي الميلاد الثاني. ولهذا يُقال باستحالة أن يفلح الإنسان الذي لا يحتمل فراق الأوطان، أو الخلاّن، أو الأزمان. ولهذا أيضاً صار البكاء على الطلول طقساً قدسياً سواء أكانت هذه الطلول لوطنٍ ضائع، أو لخلٍّ مفقود، أو لزمانٍ زال؛ لأن المرثيّة هنا شهادة على شجاعة التخلّي عن هذا الثالوث الوجودي الحميم. فالمأساة تكمن في السفر كحلم ذي هوية غيبية لابدّ أن تقود إلى حقيقة هي التوق إلى الحرية. بالمقابل يبدو تحقيق الحلم مستحيلاً لأن الإنسان

Twitter: @alqareah

مشدود إلى المكان بجذور. إنه هنا شجرة لا مجازياً وحسب، ولكن بمشيئة الطبيعة أيضاً. لأن الأمّ التي ولدته لم تنجبه من الفراغ، ولكنها أوجدته بقوانينها التي لا تعترف بغير الحسّ ناموساً. أي أنه لقية أرضية لها حضور في هذا المكان، لا في ذاك المكان. وهو ملفّق من هذه الطينة لا تلك الطينة: أي أنه مجبولٌ بخصال الأرض التي إستضافته لا في لون الجلدة وحسب، ولكن في الطبيعة المزاجية أيضاً. ولهذا فإن محاولة التنكّر لهذا القانون بالإنسلاخ عن جسد الأمّ هو جنسٌ من لعنة بقدر ما هو ضربٌ من بطولة. إنه تمرّدٌ حقيقيّ. إنه ثورة المخلوق الأولى في ملحمة بحثه عن الأب الضائع الذي لن يكون هنا سوى البحث عن الحرية. وهو ما لا يحدث بالطبع بدون التحرّر من الجذور الذي لن يعني فعليّاً في هذه الحال سوى الموت. ولهذا فإن مريد الأسفار يموت في كلّ مرّةٍ يتخلّى فيها عن المكان ليهاجر إلى مكانٍ آخر. من هنا إكتسب المهاجر خصال الشهيد الذي يسعى بيننا على قدمين. إنه حقّاً الشهيد على قيد الحياة. ولهذا حقّ لنا أن نقول في مكانٍ آخر من هذا النزيف أن المهاجر هو كفنٌ متنقّل. ولهذا السبب غدا المهاجر في كل الثقافات رديفاً للحرية في بُعْدها الغيبيّ الدّالّ على الموت، لا في بُعدها المبتذل الذي تحاول الأيديولوجيات الخبيثة أن تلقّنه للإجيال الحديثة مستخدمةً في عملها اللئيم عميلتها المنكرة: السياسة!

وها هو العدوس المعجون من طينة أسفار من هذا القبيل يتأهّب للإنسلاخ عن الجذور للمرّة السادسة طلباً للأب الأبدي الذي يسكن

Twitter: @alqareah

مملكة الغيب: الإنسلاخ الأوّل عن جذور الفردوس الضائع (الصحراء الكبرى)، والإنسلاخ الثاني بالخروج النهائي من الواحة للإقامة في أوّل مدينة بجنوب الوطن، والإنسلاخ الثالث من حاضرة الواحات هذه إلى حاضرة الوطن، ثمّ الإنسلاخ عن جذور القارّة كلّها والحلول في أبعد قارّة تتوسّد صدر القطب الشمالي في أقاصي الأرض، ثمّ قطع الجذور من جديد بالعودة الكئيبة إلى ربوع الوطن الجريح. وها هو ميعاد قطع الجذور الذي غدا للعدوس قدراً يحلّ من جديد فينزف القلب برافد دمٍ جديد يصبّ في نهر النزيف السخيّ الناتج عن القطع الموصول للجذور، لأن جرح الجذور وحده لا يندمل، ونزيفها في الوجدان لا يتوقّف أبداً؛ لأن إحتراف النزيف هو الدَّيْن الذي ندفعه ثمناً للهوَس بالحرية: لأن الحرية وحدها تجعل من الموت ميلاداً!

ولكن إجتثات الجذور عمل جراحي يستعسر في حال الإلتئام الذي ندعوه قِراناً، أو في حال الإنقسام الذي نسمّيه أولاداً. إنه فعلٌ بطولي مرتين عندما ينوء المريد تحت وزر ورطة إسمها العائلة. فالعدوس وحده لا يجب أن يخون ناموس العَدْو بالركون إلى سقف يأوي مخلوقاً، فكيف إذا كان هذا المخلوق أعدى أعداء الترحال كما هو الحال مع المرأة؟ فخطيئة الخطايا التي بوسع مَنْ صار له الرتحال معبوداً أن يرتكبها هي الإستسلام لسلطان التقليد وقبول شرع كلّ الناس، ناسياً أنه من طينةٍ ليست من طينة كلّ الناس، لأن فعلاً كهذا ليس تنازلاً عن حرية وحسب، ولكنه تجاهلٌ لطبيعةٍ لا يملك للتحرّر

Twitter: @alqareah

منها سبيلاً. إنها تلك الخطيئة الموجعة كتجربة دنيوية والتي يكلّف إصلاحها وجعاً أعمق من إقترافها، لأن وضع حدٍّ لها رهين دراما دوماً. وهو ما سيغيب عن بال العدوس، برغم يقينه بأنها ستنتهي بالفشل عاجلاً أم آجلاً.

وإذا كان العبء من رحلة موسكو مجرّد تثنية، فإن الإنقسام في الخروج الجديد أنتج الثالوث الذي سيضاعف محنة التنصّل من براثن الجذور.

Twitter: @alqareah

12

الخلاص من الكابوس المهيمن على الوطن الأمّ ولو لأمدٍ معلوم كان حرية كفيلة بأن تطلق سراح روح الشعر في نفوس أعضاء القافلة الثقافية العابرة للقارات في طريقها للمشاركة في فعاليات أول أسبوع ثقافي وطني في بلد أوروبّي ليغدو أنجح سفارة ثقافية نُظّمتْ بهذه القارّة بشهادة الكلّ، هذا إن لم يكن التظاهرة الثقافية الحقيقية لا الأولى وحسب، ولكن الأخيرة أيضاً في تاريخ العلاقة مع هذه القارة. وها هو مناخ هذه الداهية العبقرية (الحرية) يكشف عن مواهبه السحرية فيكسر في إنسانٍ غرّبته الدوغما مثل جمعة الفزّاني روح الأدلجة ليستعيد فردوسه المفقود في الحلم، فينقلب فجأة شاعراً رومانسياً رقيقاً، وإنساناً مجبولاً بعاطفة وجدانية. إنها سلطة ربّة الأسحار (الحرية) التي تحرّر من الأوهام، وتبعث فينا حقيقتنا المكتومة بفعل باطل الأباطيل. فما أن أقلعت الطائرة بكوكبة الفرسان (جمعة الفزاني وعبد الرحمن شلقم وفوزية شلابي ومحمد الزواوي وصاحب هذا النزيف) من مطار طرابلس في طريقها إلى فرانكفورت لقضاء ليلة هناك قبل التوجّه في صباح اليوم التالي إلى حاضرة بلاد الصقالبة، حتى تبدّد شبح البؤس لنجد أنفسنا نسترجع الأجواء التي

Twitter: @alqareah

إغتربنا عنها منذ سنوات: أجواء العفوية والفرح والتغني بالفنّ والحبّ والجمال. أجواء لا تعكّر صفوها الأيديولوجيا، ولا تدنّس محرابها خادمة الأيديولوجيا البشعة: السياسة! وقد رافقتنا هذه الروح التلقائية طوال رحلتنا، ولم تفارقنا إلاّ في اللحظة التي وضعنا فيها أقدامنا بأرض الوطن فلا نفقدها في ذلك اليوم وحسب، ولكن لنكتشف أن القدر قرر أن يقتصّ منّا جزاء هذه المكافأة التي إختلسناها منه في غفلة. كان في إنتظارنا نبأ قيام اللجان الثورية بحملة إعتقالات جديدة في صفوف فرسان القلم إنتمى جلّهم إلى الجيل الجديد كأن عليهم أن يرتادوا السجن لا لذنبٍ أو جناية حقيقية، ولكن لأداء مكوسٍ صارت في فلسفة النظام نوعاً من الواجب المستحقّ الذي أطلق عليه إسم «المستشفى السياسي». فالسجن صار ضريبةً لا تختلف عن ضريبة الدخل. إنها تلك اللعنة التي قال لي أحد زملائي بموسكو يوماً أنها قدري، والأنسب أن أقضيها في شبابي من أن أنتظر دفعها في شيخوختي! وهو ما أكّده لي زميلي فوزي البشتي أيضاً عندما دفع مكوسه المستوجبة في تجربة 1975م. إنها ضربٌ من حكم بالإعدام. والأسوأ من كونه حكماً بإعدام هو طبيعته كحكم مؤجّل. أي أنه إنتظارٌ لحكم إعدام. بل هو أنتظارٌ لتنفيذ حكم الإعدام. وهذا أسوأ ألف مرة من حكم بالإعدام قيد الإنجاز. فكما الأسوأ من الموت هو إنتظار الموت، كذلك الأسوأ من دخول السجن هو إنتظار دخول السجن. وعندما يستمرّ هذا الإنتظار الأعوام والأعوام (كما هو الحال بالنسبة لي) فإن الإحساس بالحضور في

Twitter: @alqareah

السجن يتضاعف. لقد كنت في الواقع السجين منذ عام 1969 وإن ظللت نظرياً إنساناً طليقاً. فالعدوس هنا يمارس الحرية بالعبور حاملاً في عبّه سجنين لا السجن الواحد: سجنٌ حضوره قيد الوجود، وسجنٌ حضوره في السجن الدنيوي المنتظر.

لقد قرّر القدر أن يسخر منّي وربّما ليعيدني إلى الأرض بعد أن حلّقت بعيداً في معراج حلمٍ كان لي فيه المعرّي دليلاً، كما كان فيرجيل دليل دانتي في معراجه؛ كما إرتدت رحاب الخيّام كملهمٍ وكدليل شاء توماس إليوت أن يكون له أيضاً دليلاً في رحلة أرضٍ يبابه. كان موضوع محاضرتي في جامعة وارسو إقتفاء آثار الأدب العربي الكلاسيكي في الأدب الأوروبي سرّ التجلّي الذي أنساني سجوني، ولكن سجوني لم تنسَني والدليل أني وجدتها في إنتظاري كما في كل مرّة ما أن وضعت قدمي على تراب وطني الشقيّ.

أذكر اليوم كيف تخلّفت عن الزملاء في العودة بسبب إستكمال بعض الإجراءات الإدارية مع جمعية الصداقة البولندية، وعندما غادرت في طريق العودة لاحقتنا لعنة النظام حتى في أوروبا لتضع في الطريق العراقيل كالعادة؛ كأنّ اللعنة التي نحملها في جيوبنا كهوية لم تكن كافية لتحقيق هذا الهدف. وها هو الحبل ينقطع بي في روما بسبب إلغاء رحلات الخطوط الليبية كافّة. والسبب؟ السبب هو توجيه كل الأسطول الجوّي الوطني لحمل الحجّاج إلى الأراضي المقدّسة بعد فشل الإتفاق مع شركة الخطوط البلغارية لأداء هذه المهمّة. وكان على شخصي أن يقضي في روما ما يزيد عن الأسبوع في

Twitter: @alqareah

إنتظار إستئناف الجمل الليبي لرحلاته الجوية على حدّ تعبير صادق النيهوم!

في روما عزّاني وجود الخلّ القديم بشير الهوني الذي هرع لاستقبالي وأحاطني بصنوف الرعاية كعادته. في بيته تعرّفت إلى شقيقه محمد بشير الهوني عميد دار الحقيقة ورائد الصحافة الليبية. وهو شخصية لا تقلّ ثراءً وحيويّةً وأريحيّة وبساطةً ومرحاً وأصالةً ومتعةً وطفولةً عن السنوسي نفسه. ومازالت الجلسات الشيقة التي قضيناها في حضرة عميد الأسرة الهونية الفذّة محفورةً في ذاكرتي حتّى الساعة. وبفضل روح هذا الرجل العظيم تبخّرت عشرة أيّام من إنتظاري للجمل الليبي كأنّها ساعات. وكان الشاعر محمد الفيتوري يحوم حولنا كالفراشة طوال مكوثي هناك مستجيباً في قلقه ومسلكه المزموم لشيطان أشعاره فلا يستطيب جلسةً، ولا يقرّ في مكانٍ زمناً يزيد عن العشر دقائق. كان يحلّ علينا كالطّيف، ويختفي من حولنا كالطيف في ذلك الزمن الذي عمل فيه مستشاراً بالسفارة الليبية بروما.

كان ذلك زمن القيمة بإمتياز، الزمن عندما كانت الروح العفوية الموروثة عن الأسلاف هي عملة التعامل مع العالم وليست عملة النفع أو الصفقة السائدة في عالم اليوم. فحيثما ذهبت كانت روح هذه القيمة تهرع لنجدتي وتتولاّني بالرعاية دون أن أتّخذ للأمر تدبيراً. إنها العناية الإلهية التي تسخّر لنا أناساً يتطوّعون للأخذ بيدنا كما سخّرت هذه العناية الملائكة ليخدموا المسيح يوم رفض عرض

Twitter: @alqareah

إبليس في الجبل. فالواجب يقتضي أن نعترف بإحسان هؤلاء لأن اعترافنا هنا هو إعترافٌ بوجود الله قبل أن يكون إعترافاً بفضل الله!

إنّه ليس جزءً لا يتجزّأ من معجزة الإيمان، ولكنّه هو الإيمان. فيوم حللت ضيفاً على لندن لأول مرّة لم تكن لندن لتكون لندن لو لم يستقبلني في رحابها إنسانٌ حميم ومبدعٌ كبير مثل أحمد إبراهيم الفقيه. وهو الذي قدّمني إلى الإنسان الرائع الذي صار لي في إغترابي الأبدي عزاءً آخر فيما بعد وهو خليفة بازيليا. ولم تكن لندن لتستكمل شروط حضورها لولا وجود سيّد قذّاف الدمّ في ذلك الربيع من عام 1975 أو 1976 م. كما لا أتخيّل موسكو عام 1970 لو لم يسبقني إليها محمد التاجوري، أو بيروت في 74 أو 1975 لو لم ينتظرني فيها صادق النيهوم أو سيّد قذّاف الدمّ أو السنوسي بشير الهوني. أو سويسرا في 85 أو 1993 لو خلَت من صادق النيهوم، أو الرباط في 1989 لولا وجود الفقيه.. إلخ.

وهو البرهان على حقيقة تقول أن حضور الإنسان هو ما يهب المعنى للمكان، لأن هذا اللغز (الإنسان) هو الهوية الحقيقيّة للأمكنة. فلا يعصف بنا الحنين للأمكنة عادةً دون الحنين لذخيرة هذه الأمكنة، أي الإنسان كروح غيبية تسكن ميتافيزيقا مكان.

Twitter: @alqareah

13

في اليوم التالي لعودتي إلى طرابلس ذهبت إلى مقهى فندق قصر ليبيا الذي كنّا نتردّد عليه مع بعض الزملاء لألتقي هناك إنساناً نبيلاً كان مريد أدباء برغم أنه لا يكتب أدباً هو نبيل رحّال الذي أخبرني بنبأ ما حلّ بالزملاء. نبيل رحّال لم يخفِ دهشته بوجودي طليقاً، لأن الشائعات ردّدت وجودي بينهم، وهو ما يعني في تجربتي أن على شخصي أن يتوارَى عن الأنظار بأسرع وقت. إنها اللعنة القديمة تتكرّر في كل مرة.

كان أحمد الشحّاتي المكلّف بمكتب الإتصال الخارجي قد إعترض على تعييني ببولندا رسمياً مدفوعاً بعددٍ من أعضاء اللجان الثورية بوصفي عنصراً دخيلاً على جمعيات الصداقة ولا أُدين بدين القائمين على أمرها. ولكن أبا زيد دوردة واجههم جميعاً بشهامته المعتادة وبصرامة، فأبطل لغماً جديداً كان من العيار الثقيل.

حدث هذا قبل مغادرتنا إلى وارسو بأمدٍ قصير. ولذا لم أجد مشكلة في إستصدار تأشيرة دخول إلى بولندا. أمّا تأشيرة الخروج من المعتقل الكبير فقد تولّى أمرها شقيقي فنايت مستخدماً نفوذه الشخصي كضابط طيّار بالشرطة.

Twitter: @alqareah

وهكذا وجدت نفسي أتسلل من مطار طرابلس المدجّج بالأجهزة الأمنية السرّية والعلنية بأعجوبة كما حدث مراراً في الماضي، ليظلّ نصيري في هذا العراك الأبدي هو العناية الإلهية وحدها، أو مَنْ سخّرتهم العناية الإلهية ليكونوا لها في المشيئة رسلاً.

كانت طائرة الخطوط الجوية الليبيّة متّجهةً إلى فرانكفورت. وكان من المقرّر أن أستقلّ الـ لوفتهانزا في اليوم التالي إلى وارسو لولا.. حدوث مفاجأة دبّرتها الطبيعة هذه المرّة، كأنها في حلفٍ هي الأخرى مع الأنظمة ومع أجهزة الأنظمة. فقد إجتاحت أوروبّا في أحد أيام شهر يناير من عام 1979 عواصف ثلجية عرقلت الطرق، وعطّلت المطارات لتتزامن ذروتها مع حلول الطائرة الليبية في أجواء ألمانيا.

لقد ناور قائد الطائرة كثيراً محاولاً الهبوط بمطار فرانكفورت، ولكن بلا جدوى. وكان أخشى ما أخشاه أن تعود الطائرة لتهبط في مطار طرابلس! هذا الوسواس يزداد مع كل محاولة فاشلة للهبوط حتى انقلب يقيناً. لحظتها أدركت مغبّة إستخدام الخطوط الوطنيّة في الرحلات إلى الخارج، ولكنه إستخدامٌ ملزم لكلّ مواطن مادامت نقطة الإنطلاق هي الداخل. لقد ظلّ هاجس الخطر وسوسةً تنتابني في كل مرة أغادر فيها مطارداً من أشباح الأجهزة مستخدماً الطيران الوطني، لأن إمكان العودة من منتصف الطريق كان سيفاً مسلّطاً على رقبتي طوال تجربة مقامي في موسكو حتى أن فكرة عبثية خطرت لي: فماذا سيكون ردّ فعل السلطات يا ترى لو ذهبت لزيارتهم معبّراً

Twitter: @alqareah

عن رغبتي في دفع الدَّيْن واستعدادي لدخول السجن، لأنه هو الخلاص؟ إنها فكرة جنونية تصلح موضوعاً روائياً حقّاً! ولكنّي لم أنفّذها لعبثيّتها بالذات، لأنهم يقيناً لن يصدّقوني، بل ربّما رأوا في إستعدادي حيلةً خفيّةً وراءها ما وراءها. فالإرتحال إذا كان حرّيةً، فإن الفرار معتقل. معتقل متنقّل. ولا خلاص من المعتقل سوى تسليم النفس للجلاّد طوعاً، برغم أنه خيارٌ خطر لأنه التحدّي للمشيئة الإلهية التي أجارتني حتّى لحظة كتابة هذا النزيف من أمرٍ ظنّه الجميع مكتوباً مسلّماً.

كنت أعاند وساوسي مستسلماً لأحلامٍ رؤيوية تترصّد عبقرية الأقدار في حبك فصول مسرحيّتها الأبدية عندما أعلن قائد الطائرة عن وجوب ربط أحزمة المقاعد إستعداداً للهبوط لا في مطار فرانكفورت بالطبع، ولكن في مطار ميونيخ أقصى جنوب ألمانيا. تعالت في الطائرة جعجعة المسافرين تعبيراً عن إحتجاج، في حين حمدت الله للمرّة الألف أن المطار هو مطار ميونيخ، وليس مطار طرابلس! فالإنسان الذي دلّلته الحضارة واعتاد وسائل الراحة، ينسى في حمّى الإسترخاء حضوره في الطبيعة التي لها الكلمة الفصل في الصفقة الوجوديّة. ولهذا يستنكر أبسط تطلّعاتها، ويرفض الإعتراف بكشوف حساباتها انسان ينسى أن الطبيعة كائنٌ حيّ، وهو جزءٌ من هذا الكائن الهائل الحيّ. وأن تكون الطبيعة كائناً حيّاً يعني أن تملك الحقّ في التعبير عن هويّتها، والمجاهرة برأيها، بل وقول كلمتها. وهي كلمة قد تكون وصيّةً، بل كثيراً ما تكون رسالةً، أو درساً. قد

Twitter: @alqareah

تكون الدرس القاسي بالتحديد. وهو ما لا يريد إنسان الحضارة المدلّل أن يعترف به بسبب إغترابه عن الطبيعة الأمّ. وهو ما يطرح خطورة الإنسلاخ عن هذا الحضن الأمومي الأصلي، وإستبداله بالحضن الثقافي الذي يهدهد، ولكنه يهدّد بُعْدنا الطبيعي، ويُميت فينا الحسّ الفطري. وهشاشتنا في مواجهة غضبة الطبيعة نتيجة لميتة الفطرة فينا، وليست سبباً.

في مطار ميونيخ تولّت الخطوط الألمانية إجراءات تحويل المسافرين إلى مختلف الأركان. وقد كنت يائساً من الوصول إلى وارسو بعد أن علمت في المطار أن الحكومة البولندية أعلنت رسمياً حلول الكارثة بسبب العواصف الثلجية، وأوقفت سفاراتها بالخارج منح التأشيرات للحيلولة دون دخول الأجانب. وكان على شخصي أن يحتمل قضاء ليلته على كرسي بالمطار الخاوي إنتظاراً لخلاصٍ قد يأتي به الغدّ. ولا يدري موظّف الخطوط الألمانية أن وجودي في هذا المطار وحده الخلاص. والجلوس على هذا الكرسي حتّى الصباح ليس قصاصاً، ولكنّه فردوس الوجود. أقول أنه خلاص لأنه بالمقارنة مع المصير الذي كان ينتظرني منذ قليل هو: **حرّية**. وهو ما يطرح الهوية النسبيّة لمفهوم الخلاص، أو الهويّة النسبية لهوية فلسفية ووجودية كالحرية.

لم أنمْ على الكرسي بالطبع على عادة المسافرين عبر القارّات أمثالي، لا بسبب إبتهاجي بالخلاص وحسب، ولكن بسبب عادة رافقتني منذ التكوين حتى صارت لي طبيعة ثانية وهي: **الإستنفار!**

Twitter: @alqareah

وعندما أقول التكوين فإنما أعني تلك التجربة الإغترابية زمن الطفولة المبكّرة التي غرست في وجداني نصلاً مطلسماً تقول ترجمته أن الوجود هو ما لا يُطمئن إليه، لأن الوجود هو الخطر المجسّد. والوجود في هذا الوجود يستوجب اليقظة الأبدية على طريقة الثعالب التي تنام بعينٍ مغمضة وأخرى مفتوحة تحسّباً لنزول النازلة التي لا ضمان في ألاّ تتنزّل في أيّة لحظة. إنها حكمة الغريزة التي دسّتها في جيناتي تجربة التيه الأولى. ولهذا السبب لم يحدث منذ ذلك التاريخ إلى هذا اليوم أن نعست ولا مرّة لا على كرسي، ولا في طائرة، ولا في قطار، ولا على متن باخرة، ولا في حافلة، حتّى مجرّد نعاس مهما طال بي السهر. ولهذا السبب كان الذهاب إلى النوم بالنسبة لي ليس نزهةً للراحة، ولكن ذهابٌ إلى المعبد لتأدية صلوات هي واجب. إنه طقس ديني بما هو ميتة صغرى لا نضمن أبداً بألاّ تتحوّل ميتة كبرى. وسوسة كهذه كفيلة بأن تبدع في حياتي بدعة إسمها الأرق كان عليّ أن أجد معها لغة مشتركة طوال حياتي إلى حدّ أني لا أذكر أنّي نعمت بنومة إستغرقت خمس ساعات متواصلة ولا مرّة. ولمّا كانت في قلبي ساعة صحراوية تقرع بناقوسها لتوقظني فجراً دوماً فليس على شخصي كي يتوافق مع النداء الطبيعي إلاّ أن ينام مبكّراً؛ لأنني إذا قرّرت أن أصحو الخامسة صباحاً فلابدّ أن أذهب إلى الفراش عند التاسعة مساءً أو العاشرة على أقلّ تقدير. ذلك أن الأرق سوف يستقطع من الغنيمة حصّته التي لن تقلّ عن الساعتين، في حين يجب مراعاة حساب الفجر الذي سيستقطع نصيبه أيضاً.

Twitter: @alqareah

ولهذا صار النوم في دنياي قصاصاً حقيقياً بدل أن يكون متعةً كما هو الحال بالنسبة للكلّ. وهو قصاصٌ ليس بدون تعويض في الواقع؛ لأن مشاهدة قبس الفجر متعة تشتري أوجاع الوجود قاطبةً، ولا تعادلها إلاّ متعة مشاهدة قرين الفجر: الغروب!

وها هو الفجر يأتي لي بالبشارة في جلسة تلك الليلة أيضاً. فعند الخامسة تقريباً تقدّم منّي موظّف الخطوط الألمانية ليخبرني بوجود طائرة «بان أمريكان» ستقلع إلى وارسو بعد قليل، وعليّ أن أباشر إجراءات الصعود إلى المتن.

في هذه الطائرة وجدت نفسي وحيداً. كأنّ الأقدار قرّرت أن تكافئني فخصّتني بطائرة أمريكية خاصّة لتقلّني إلى وارسو، برغم الهوية التهمة التي أحملها في جيبي! فعلاقة النظام آنئذٍ بالغرب عموماً، أمريكا تحديداً، كانت في أسوأ مراحلها. وبالطبع لم تكن الدول، ولا أجهزة الدول، تعترف بوجود فرق بين النظام السياسي الذي يحكم الأوطان، وبين الأوطان أو أبناء الأوطان؛ لأن حزمة الأوراق الغبيّة التي اخترعتها البشرية لتكون لها برهاناً على هوية بديلة عن هوية الإنسان الحقيقية والطبيعية كانت هي الوثيقة السائدة، وهي الناموس المتداول. فأن تحمل هوية ليبية يعني أنّك لست إنساناً، ولكنّك **إرهابي**. أنت لست بريئاً حتى تثبت إدانتك، ولكنّك مدانٌ حتى تثبت براءتك، وربّما ستظلّ مداناً، أو على الأقلّ **محلّ شكّ**، حتى لو ثبتت براءتك!

هذه هي عملة التعامل، والإعتراف بالورقة التي يحملها الإنسان، وليس بالأخلاق التي يتحلّى بها الإنسان. ومرارة الجور تتضاعف

Twitter: @alqareah

عندما يصاحبك الإحساس بأنّك متّهم مسبقاً بسبب هويّةٍ دنّسها نظام سياسي لا أخلاقي لتدفع أنت الثمن دون سواك. وهي تهمة تتحوّل مع الزمن، ومع التنقّل في أرض الله الواسعة، أيضاً سجناً في النهاية. إنه السجن الثاني الذي قُدِّر لنا أن نحمله معنا أينما حللنا! والدليل؟ ها أنا أقرأ الدليل مرسوماً على سيماء مضيفة الـ«بان أمريكان»: حذرٌ يكاد يرتقي إلى مستوى الفزع، تحاول أن تخفيه في بسماتها الشاحبة. وها هي تقف على رأسي كحرس خاصّ: حرس لا ليجيرني من شرّ، ولكن لتجير نفسها من شرّي. وها هي تغيب في مقصورة القيادة لتعود مقترحةً أن تسلبني سترتي بدعوى تعليقها في الدولاب لأتحرّر وأسترخي كما يليق بأميرٍ يستقلّ طائرةً خاصّة. وها هو قائد الطائرة يثرثر في مكبّر الصوت سارداً حكايات ونوادر مسلّية عن الرحلة وعن الأوطان التي نطير فوقها. يفعل ذلك يقياً لا ليسلّيني، ولكن لكي يلهيني عن نواياي الشرّيرة في التوجّه إلى مقصورة الطائرة لاختطافها، أو حتّى تفجيرها! تلك كانت هلوسات كل صاحب تهمة مسبقة، لأن غياب الثقة يحوّل حتى الإحسان إهانةً!

ويبدو أن هلوساتي في تلك الرحلة كانت نبوءةً ما لبثت أن تحقّقت بعد عشرة أعوام تقريباً عندما نفّذ النظام عمله الشرّير بتفجير طائرة هذه الشركة العريقة بالذات فوق بلدة لوكربي البريطانية لتحصد مئات الضحايا الأبرياء، واضعاً بذلك خاتمة لنشاط الـ«بان أمريكان» الأسطورية نهائياً، وليدفع الأبرياء في ليبيا فاتورة الجريمة حصاراً إستمرّ سبعة أعوام عجاف، قبل أن يدفعوا من قُوْتهم ثمناً قدره الثلاثة مليار دولارٍ كتعويض لأسر الضحايا.

Twitter: @alqareah

14

جئت إلى بلدٍ غارقٍ في الجليد بقلبٍ رومانسيٍّ مفعمٍ بالحماس في تشييد قنطرة صداقة تبدّد جليد العلاقات الرسمية المزيّفة بين الأمم، فإذا بي أجد نفسي في عالمٍ يعاملني فيه الجميع كعدو!

ذلك أنّ مبدأ «الصداقة بين الشعوب» إختراعٌ سوفييتّي بامتياز. أي أنه بدعة أيديولوجيّة لإخفاء النوايا اللاّأخلاقية في العلاقة مع الأمم الأخرى التي لا تدين بدين السوفييت، أو بالأصحّ، قناع زور لتحرير هذه النوايا وتسويقها بما يحقّق النفع لطرفٍ على حساب الطرف الآخر. إنه حجابٌ جماليّ ذي حسابٍ نفعيّ يستنزل مسوحاً من شأنها ترويج نغل الصفقة القبيح!

فالشيوعية (كدينٍ بديلٍ للدين) بعبعٌ غير مقبول عالمياً. والنظام السياسي السوفييتي هو الإبن الشرعي لهذا البعبع. أي أن الشيوعية هي هوية هذا النظام. وبما أنها أيديولوجيا مرفوضة عالمياً فقد أضرّت بمنافع الإمبراطورية الإقتصادية ضرراً بالغاً. وكان لزاماً على سدنة هذا المعبد أن يبحثوا عن مخرج من هذا المأزق بكل حيلة. ولهذا ابتدعوا سياسة غزو الأمم بسيرة «الصداقة بين الشعوب» هذه لتكون عوناً للنظام في الخروج من عزلته السياسية، وبالأخصّ الإقتصادية. وها

Twitter: @alqareah

هي الإمبراطورية تنشر ألوية هذه السياسة مع كل الأمم تقريباً لتوليها عناية إستثنائية، موجّهةً بهذا أقوى طعنة لأنبل مبدأ في علاقة الإنسان بأخيه الإنسان وهو: **الصداقة!**

وها هي السياسة توجّه الإهانة لهذه الهِبَة الإلهيّة بوحيٍ من ربّة نعمتها الأيديولوجيا فتسفّه أنبل قيمة في حياة الإنسان وتحيلها أكذوبةً. فهل في الوجود ما هو أسوأ من أن يجد الإنسان نفسه يمارس دوراً ظنّه حقيقةً، فإذا به يكتشف تالياً أنّه حتّى وإن كان بالإسم حقيقةً، فإنها تلك الحقيقة التي أريدَ بها باطل كما يُقال؟

وما زلزلني حقّاً ليس أن أكتشف كذباً تجود به جنّية الكذب السياسة، ولكن أن أكتشف أنّ الكلّ من حولي كانوا على علمٍ مسبق بحقيقة اللعبة، والغفلة من نصيبي وحدي!

الغفلة من نصيبي وحدي لا بسبب سذاجة، ولكن بسبب الصدق، أو بسبب تلك البراءة التي لا وجود لها في معجم السياسة أو في مفهوم ربّة نعمتها الأيديولوجيا. إنّه إغترابٌ آخر كان على العدوس أن يدفع ثمنه ليضيف رصيداً جديداً في حزمة الرذائل التي تلقّاها طوال الرحلة من السياسة التي لم يكفِها أن تطارده بالتّهَم المختلفة، ولكنّها تأبَى إلاّ أن تدسّ له جرثومة الوباء في إناء العمل ليتجرّعه كسمٍّ زعاف، سيّما إذا نبّهنا إلى حقيقة العمل كمبدأ قدسيّ ذي بعد دنيويّ. إنّ هذه السعلاة تكشف عن سليقتها الخالدة كغشٍّ مجسّد. سعلاة لا تلمس بيدها شيئاً إلاّ وتبثّ فيه بذار عدوى الدّاء المميت كأنها سيرة ميداس مقلوبةً. فبعد اللغم الذي دسّه زبانية هذه الحرفة الشيطانيّة في سبيلي قبل أن أبدأ الرحلة (والذي أبطله أبو زيد

Twitter: @alqareah

كما سبق القول) فإن ما انتظرني في وارسو من فنون الكيد لم أتخيّل أنّه مجرّد خطوة أولى في حضيض السرداب الطويل الجديد الذي استوجب أن أعبره كي أدرك برّ الربّ. وها هو المحفل الذي يسكن السفارة يعاملني منذ أول يوم لا كزميل يفترض تيسير مهامه طبقاً للوائح الإدارية الدبلوماسيّة المعتمدة، ولكنه يكشف عن سجيّته اللئيمة كمؤسسة تنتمي إلى عصابة إسمها الخارجية فيعاملني كدخيل، بل كعدوّ. وكان على شخصي أن يخوض حرباً جديدة في سبيل الإعتراف المتمثّل في الحصول على أبجديّة أبجديّات أي عمل وهو حقّ الإقامة التي ستمكّنني من أداء هذا العمل. فالدّسيسة تستعير جذورها من وكر الحيّات التي تقبع في الخارجية بالداخل، لأن اللوائح تقضي باستصدار قرار آخر من وزير الخارجية يزكّي قرار إنتداب أي موظّف بالدولة مستعارٌ من أي وزارة أخرى كالثقافة في حال تعيين الملحق الثقافي، أو المالية في حال تعيين الملحق المالي، أو الدفاع في حال تعيين الملحق العسكري، أو الإقتصادي في حال تعيين الملحق التجاري.. إلخ. وهو ما لم تكلّف الخارجية نفسها عناء القيام به في شأني. كلّ ما فعلته هو إستصدار جواز سفر خاصّ لي بدل جواز السفر الدبلوماسي، ومخاطبة السفارة بشأن عملي دون قرار يحدّد الصفة الوظيفية كما فعلت مع زميلي الذي عيّن مندوباً لجمعية الصداقة في موسكو. ولم أكن خبيراً قانونياً أو عالماً في شئون الإدارة أو داهيةً في مجاهل العمل الدبلوماسي على نحوٍ يخوّلني بالإفتاء لذوي الإختصاص بما يجب عمله أو ما لا يجب، كما لم يكن هؤلاء بالنزاهة التي تجعلهم يؤدّون واجبهم بحسن نيّة نحو الكلّ بدون استثناء. ولمّا كنت أفترض حسن النيّة

Twitter: @alqareah

دوماً فليس لي أن أستنكر قدر الضحيّة الذي كنته طوال تجربتي مع المؤسسات الرسمية سيّما الخارجية. وما اكتشفته تالياً هو أن جواز السفر الخاص هو وثيقة تمنح لأعضاء البعثة الإداريّين الذين يحتلّون السلّم الأدنى في درجة ما يسمّى بـ الملاك الوظيفي، ولا علاقة لها بالصفة المهنية التي يمارسها الموظّف المبعوث أو المنتدب. وهو ما يعني أن الوظيفة المهنيّة التي حقّ لي أن أتمتّع بها في السفارة ليست درجة الملحق، أو حتّى السكرتير الثالث، أو السكرتير الثاني، أو السكرتير الأوّل، ولكنّها درجة المستشار التي تعادل درجتي في الملاك الوظيفي التي هي الأولى حسب النظام القديم الموروث عن العهد الملكي قبل تعديل هذا النظام عام 1981 الذي قلب مستوى الدرجات رأساً على عقب تلبيةً لنداء العبث الذي صار سرطاناً يسري في كافّة مفاصل الدولة تمهيداً لنفي روح الدولة من الدولة!

وسرّ عدم صدور قرار وزير الخارجية إنّما يكمن في هذه النقطة. أي في الدرجة. أو بالأصحّ: **علوّ الدرجةَ!** وهو ما يعني البخل على شخصي بدرجة إدارية نلتها بخبرتي الوظيفية التي تعود إلى عام 1965، وإلى شهاداتي العلمية، لا إلى وساطة أو حظوة أو منحة سياسية كما هو الحال مع الأكثرية. وبصريح العبارة فإن السبب الحقيقي هو تلك العملة السائدة في كلّ الأوساط، ولكنّها في الخارجية بالذات ليست سائدة وحسب، بل معبودة، وهي: **الحسد!**

وما يؤجّج نار الحسد في مثل هذه المحافل المنغلقة على نفسها (كالخارجية) هو الصراع على الإمتيازات سواء المادّية أو المعنوية. وإذا خفتت حدّة هذه الصراعات في حال الوجود في الداخل، فإن

Twitter: @alqareah

سعارها يستشرس في حال الإنتداب إلى الخارج ليبلغ حدوده القصوى.

لقد صارحت السفير حسّونة عاشور قائلاً أني جئت لأعمل عمل ثقافي في نظري هو رسالة وليس وظيفة، ولا تهمّني صفة الإقامة في هذا البلد سواء أكانت دبلوماسية أم إدارية؛ لأن المقياس هو مستوى أداء الواجب، وليس الهوية التي أحملها في جيبي. وفي حال إنسانٍ مثلي فإن العمل إذا كان هو هويّتي الحقيقية التي لا يجب أن أتباهى بسواها، فإنّه لن يعيبني نوع الإقامة المدوّن في بطاقة التعريف.

كان هذا الرجل إنساناً نبيلاً ورث عن ماضيه كعقيد في الجيش الملكي لا الإنضباط العسكري وحسب، ولكن الإنضباط الأخلاقي أيضاً. وقد تخلّص منه النظام بتعيينه سفيراً ببولندا كما فعل مع ضبّاط آخرين لم يكن من السهل أن يتأقلموا مع صراعات النظام الجنونية فآثروا القبول بذلك الجنس من المنفى. لم أجد عسراً في إقناع الرجل كما لم أجد هذا العسر في إيجاد لغة مشتركة مع مَنْ جرّب الألم أو ذاق طعوم الجور. ولهذا وقف السيّد عاشور بصرامة في وجه أشراك نصبها صغار الموظّفين للحيلولة دون اعتمادي يتزعّمهم مستشار السفارة الذي لم يعد يحضرني إسمه الآن، برغم أن كيد الرجل لم يتوقّف عند هذا الحدّ.

ولكن.. هل قلت أن العمل هو مقياس الحضور في الخارج؟

الواقع أن العمل لا يجب أن يكون مقياس الوجود خارج الأوطان، ولكن العمل يجب أن يكون مقياس الوجود على

Twitter: @alqareah

الإطلاق؛ لأن الإنسان بلا عمل هو إنسانٌ بلا رسالة، والإنسان بلا رسالة إنسانٌ بلا روح. فإذا كان الإنسان كهويّة وطن رهين العمل، فإن هذا الإنسان ما هو إلاّ سفارة محمولة لبلاده ترافقه أينما حلّ، والإعتراف بها رهين جنس هذا العمل، أو فلنقل رهين قيمة هذا العمل. وهذا البعد في مفهوم العمل بالخارج هو ما لم تعترف به أفواج العاملين المبعوثين من الليبيين يوماً، لا لأنّهم لم يعيروا هذا العمل أدنى اهتمام طوال مكوثهم في ديار الأغراب فقط، ولكن لأنهم لم يعملوا إلاّ ما أساء أو ما أمكن أن يسيء لوطنهم في محافل الغرباء طوال العقود الماضية. لماذا يحدث هذا؟

يحدث هذا بسبب روح الغنيمة التي تتجلّى في مسلك هذه الفئة الشقيّة من جلّ الليبيّين الذين عرفتهم طوال سنوات وجودي بتلك الأوطان سواء في موسكو أو في وارسو أو في بيرن أو غيرها من أوطان أخرى لم أقطنها، ولكنّي دأبت على زيارتها.

ذلك أن الغاية من الخروج ليس طلب المعرفة أو نيل التجربة، ولكن الكسب. أي حطام الدنيا. والمدهش أن ينسحب هذا لا على روّاد الخارجية وحدها، ولكن على فرسان البعثات العلمية أيضاً وهم الذين تدفّقوا على الخارج منذ الإستقلال إلى هذا اليوم دون أن يتميّزوا بعلم، أو يتفوّقوا بإختراع، أو يبادروا بفتح، أو يساهموا في ما من شأنه أن يجير الوطن من جهالة، أو ينقذ أبناء الوطن من تخلّف كما هو الحال مع مبعوثيّ بقيّة البلدان.

والسبب غياب الروح الرسالية بفعل هيمنة **روح الغنيمة** التي ربّت

Twitter: @alqareah

في النفوس جيلاً خائباً خذل الأسلاف الذين صنعوا مجد ليبيا في الماضي، وسنّوا تقاليدها النبيلة التي استقامت في عرفٍ هو القيمة التي أبقت روح ليبيا حيّةً كما أنقذت روحها في الماضي برغم محن الداخل وبلايا غزوات الخارج. وأحسب أن نزعة التكسّب ليست العلّة الوحيدة في بلوَرة ملامح هذه الظاهرة، ولا غياب الروح الرسالية هو السبب الوحيد. ولكن موت **الإحساس بالإنتماء** هو سببٌ آخر. ويبدو أن تركيبة المجتمع الليبي العرقيّة هي ما لعب دوراً في هذا الضياع التراجيدي. فليبيا في الواقع ليست هوية ثقافية أو سلالية واحدة، ولكنها هويات بعضها دخيل على الهويات الأصلية، وجلّها أقبل من أوطانٍ مختلفة، في مراحل تاريخية مختلفة ليكوّن أجناساً عرقيةً مختلفة، وجدت نفسها مجتمعة في قطعة جغرافية محدّدة من قبيل الظلم أن نطلق عليها إسم الأمّة ذات الأرومة المشتركة المنتمية إلى ترسيمة ثقافية مشتركة لكي تستحقّ منّا لقب الوطن. فأهل البلاد الأصليين لم يدمنوا المقام على السواحل أبداً، بل تركوا مسافة الخمسين ميلاً دوماً بينهم وبين البحر ليستجيروا بجبل نفوسة في الغرب، وبما وراء الجبل الأخضر في الشرق، وبمفاوز الصحراء الكبرى في الجنوب، خوفاً من الأشباح التي يلفظها البحر على يابستهم دوماً. كانت تلك حصوناً طبيعية إتّقوا بها غزوات أهل الشمال عبر العصور. هذا الشمال الذي لم يكن ليؤسس مدناً في الغرب وأخرى في الشرق لو لم يطمئن إلى تقليد القبائل الليبية في الدفاع عن نفسها بالإنسحاب من أرضٍ تجاور البحر، والوقوف

Twitter: @alqareah

موقف المشاهد المستنفر الذي يدافع عن بُعْد. ثم تتابعت الغزوات، وتدافعت الأمم المقبلة من الشرق في مراحل تاريخيّة تالية لتضيف للترسيمة السلالية رافداً جديداً، بل روافد عديدة محمّلة بحمولات ثقافية جديدة، لتعقبها حملات أخرى من الشمال، لتليها أيضاً هجمات إستيطانية أخرى من الشرق.. إلى آخر فصول هذه الملحمة المعبّرة حرفياً عن شأن الإنتماء بالنسبة لإنسانٍ يحيا في واقعٍ إجتماعي أممي تتعدّد فيه الأعراق، كما تتبلبل في ألسنته الرطانات كأنه محاكاة أو إعادة إنتاج لأسطورة المحفل البابلي؟ أليس من المخجل أن يفشل الإنسان في تغليب الإحساس بالوطن على الإحساس بالإنتماء القبلي بعد كلّ هذا الكفاح الدموي في سبيل تكوين كيان؟

والواقع أن فرسان البعثات العلمية إذا كانوا قد أخفقوا منذ عقود في أن يكونوا رسلاً للوطن لدى الأمم التي احتضنتهم لتحقنهم بالعلوم، فإن فرسان البعثات الدبلوماسية لم يفشلوا فقط لكي يكونوا سفراء للوطن كما هو مرجوّ، ولكنّهم أفلحوا في تحقيق العكس: أي أنهم عملوا كل مستحيل لكي يكونوا نواة النموذج السلبي للإنسان الليبي في كل البلدان التي شهدت وجودهم بها. نموذج يرفرف بجناحين لا بجناح واحد: جناح ثقافي يمثّل الجهل، وجناح أخلاقي يعبّر عن سوء نيّة في المسلك. نموذج مزدوج الهوية تحوّل نمطيّاً حتى صار الدبلوماسي الليبي وصمة عار في جبين الوطن تدبّ في أرض الله الواسعة على قدمين!

Twitter: @alqareah

والمأساة هي أن فلسفة المبعوث في كل الأعراف الدبلوماسية المعتمدة في العالم هي التي جعلت من تحسين صورة الوطن رسالتها، وتقديم المثال الأنبل لسليل الوطن ناموساً أول في أبجدية الإعتماد لدى الأمم. والمفارقة أن تقلب خارجية ليبيا هذه الشريعة الضمنية رأساً على عقب من دون الأمم قاطبة!

فالمؤهّل للإنتساب إلى هذه المؤسسة ليس الكفاءة، ولكنه التفاهة. ليس الأصالة، ولكنه الإنحطاط الأخلاقي. ليس العلم، ولكنه الجهل. ليس حسن السيرة، ولكنه الإنحراف، ليس الخبرة، ولكن المحسوبية. ليس معرفة اللغات، ولكن الجهل حتى باللغة الأمّ. ليس الإستقامة، ولكن الدناءة. ليس المرونة، ولكن الخبث وكلّ خصلة خسيسة.

الخارجية في بلادي كانت وستبقى طويلاً مأوى للسفهاء، وملاذاً لكلّ من وجد في نفسه الكفاءة في ارتكاب الكبائر. وإذا كنّا لا نستطيع أن نبرّيء ذمّة خارجيات بقيّة العالم بسبب الطبيعة الشاذّة والإستثنائية لنشاط هذا المحفل المريب، بيد أن سعة الهوّة في المواصفات التي أهّلت العالم لسنّ تقاليد دبلوماسية أمرٌ يمكن أن يشفع لها لا أخلاقيتها بالمقارنة مع ما يحدث عندنا. وإذا سلّمنا بوجود استثناء للقاعدة السالفة فلن يكون في صالح الخارجية على أيّ حال، لأن العناصر ذات النزعة الإنسانية على قلّتها التي قد نلتقيها في الخارج مصادفةً، سوف لن تنتمي بالهوية إلى هذه الدائرة. إنها تلك الفئات المنتدبة إلى الخارجية دون أن تمرّ بمستنقعها فترتوي

Twitter: @alqareah

من آبارها المسمومة. فالإنسان السويّ ليس خرّيجاً من مدرسة الخارجية عادةً؛ وعلّ الحصانات التي تتباهى بها هذه المدرسة ليست الشهادة على براءة ساحتها، ولكنّها البرهان على ضلالها، ووثيقة الإدانة في حقّا.

والبليّة أن العصابة التي تبخل على أمثالي بالهوية الدبلوماسية لا تدري أن الإنتماء إلى ملّة هؤلاء هو ما لا يشرّف أحداً. وقد أدركت هذه الحقيقة مبكّراً، أي منذ عام 1970 عندما تسنّى لي أن أحتكّ ببعض أعضاء البعثة بموسكو سنوات الدراسة بمعهد غوركي للآداب الذي لا يبعد عن موقع السفارة سوى مسافة لا تزيد عن المائة متر. فكنت أمرّ على مقرّ البعثة بعد خروجي من المعهد للإطّلاع على الصحف الصادرة بالوطن لا نهماً لمعرفة أحداث سياسية هي باطل أباطيل، ولا فضولاً إلى الجديد تحت شمسٍ لم تعترف يوماً بجديد، ولكن حنيناً إلى لغة حرمنا منها المنفى لنزداد يقيناً، بل لنكتشف أنها ليست مجرّد لغة، ولكنها حقّاً كينونة. هذا برغم أن اللغة لا تلبث أن تخذلنا بسبب سفساف السخف الذي تحفل به الصحف، فلا يبقى لنا كي نشفي الغليل إلاّ أن نستجير بأبناء جلدتنا حتى لو لم يكونوا من طينتنا، لأن من قدّرَ له أن يحيا خلف الستار الحديدي تلك الأزمان وحده يستطيع أن يتخيّل مدى سخاء النزيف الذي يتدفّق في أمثالنا توقاً لأي شيء من شأنه أن يشعرنا بوجود شيء إسمه الوطن، فلا نملك إلاّ أن نتغنّى بوصيّة هوميروس عن الإنسان الذي لن يعني شيئاً في غياب الوطن! وكان عزائي الوحيد في تلك الأعوام وجود

Twitter: @alqareah

الإستثناء الذي يثبت صواب القاعدة في شخص علي مطاوع الذي عمل كملحق مالي بعد وصولنا في 1970 بروحه المرحة، وصفاء سريرته، ونبل أرومته. وكان عليه أن يدفع ثمن هذه الخصال بالطبع في أجواء موبوءة بروح الخارجية الشرّير فيغادر قبل الأوان بموجب فصول مكيدة بالطبع ليخلفه إنسان ليس أقلّ نبلاً لحسن الحظّ وهو عمران العزّابي. وفيما عدا هذين النموذجين الإستثنائيين فإن تجربة السبعة أعوام من الوجود في موسكو كانت في العلاقة مع السفارة لعنةً حقيقية لا بالنسبة لي وحدي، ولكن لبقيّة الزملاء المغتربين أيضاً. ولهذا لم يدهشني أن تتواصل فصولها في بداية تجربتي الجديدة في عاصمة الحلف وارسو. وكي أبرهن لنفسي لا لحفنة الأشرار التي طوّقتني عن قدرتي في الدفاع عن نفسي إضطررت أن أخوض حرباً جديدة في أوّل فرصة لأنتزع من براثن العصابة التي تتخفّى خلف جدران البنيان الرخامي الكريه المسمّى خارجيّةً تلك الوثيقة الدنيئة التي يرون في الحصول عليها دخولاً إلى رحاب الفردوس لأرمي بها في وجوه مبعوثيهم بوارسو. وكي أبرهن لهذه المؤسسة عن إحتقاري لما تراه إمتيازاً أو جنةً أرضية تنازلت عن هذه الغنيمة طائعاً ببولندا، ثم في موسكو تالياً، ثم في بيرن بسويسرا أخيراً، لألقّن هؤلاء السفهاء درساً يقول أن نوع الهوية ليس هو ما يصنع للإنسان شأناً أو يحقق له مجداً، ولكن ما حمله هذا الإنسان في قلبه لا في جيبه. فالدبلوماسي الحقيقي هو من استطاع أن يتحلّى بإنضباطٍ اخلاقي وثقافي وعملي. وهي خصال تستدعي بطولاتٍ

Twitter: @alqareah

هيهات أن تستجيب لمن كان مفلساً بالأصل، ولا غاية له سوى الغنيمة. لقد قرّرت أن أكون سفيراً لوطن لا لنظامٍ سياسيٍ زائل. وهو ما لا يتأتّى بدون عمل ما من شأنه أن يشرّف هذًا الوطن سواء على المستوى الأخلاقي أو العملي. فعلت ذلك برغم مؤامرات السفلة سواء بالداخل أو من قبل رسلهم بالخارج. كان ذلك الخيار الصعب بالطبع، ولكني أفلحت لسببٍ بسيطٍ وهو أني بلا عقد نقص تتشبّث بالسفساف كجنس الهوية التي نحملها كما هو الحال بالنسبة لزملاء الزور الذين صاروا لي أعداء ألدّاء طوال الوقت لهذا السبب أيضاً.

ولهذا فالعدوس لا يملك إلاّ أن يعبّر لهم عن امتنانه لأنه وحده يدري كم هو مدينٌ لهم بالتجربة المميتة التي يروقني أن أسمّيها بعثاً في مراحل بلغ فيها السيل الزّبى، ويستطيع كل مريد حقيقة أن يجد تجسيدها الإستعاري في شخصيّتين رمزيّتين في أعمالي الروائية المعبّرة عن ميلادي الثاني وهما: **أسوف** في «نزيف الحجر»، **وأوخيّد** في «التبر». وهما العملان القرينان اللذان كُتبا بنَفَسٍ واحد، وفي وقتٍ واحد، وفي أمدٍ واحد لم يستغرق في كلٍّ منهما الشهر الواحد. فالقاسم المشترك الأعظم بينهما واحدٌ أيضاً وهو: **القربان!**

وفي التأويل الفعلي، لا النقدي، فهما التعبير الدموي عن الإنسان عندما ينحر في نفسه إنساناً ليبعث في نفسه إنساناً آخر من دنيا العدم، ليس لأن لا خلاص إلاّ في الموت، ولكن لأن الموت لا يعود موتاً، لا يعود عدماً، ولكنّه ينقلب ميلاداً، ينقلب بعثاً، عندما تكون الغاية هي: **الحرية!**

Twitter: @alqareah

15

الزمان: شتاء 1979م.

المكان: وارسو. حيّ السفارات بـ«ساسكا كيمبا» المستلقية على ضفاف نهر رومانسي هو الفيستولا. جدران الأبنية ماتزال موسّمة بزخارف خلّفها رصاص معارك الشوارع زمن الحرب العالمية الثانية. الطبيعة مغتربة بفعل كفن جليدٍ إستثنائيّ كما هو حال ذلك العام. في الوجدان كفنٌ أيضاً، لأن الكآبة قدر الشمال. الشمال جحيم عدوس السُّرَى المستعاد، وليس فردوسه الموعود. فردوس العدوس دوماً موعود. ولا أمل في أن يستعاد. لأن العدوس سوف يكفّ عن أن يكون عدوساً فيما لو إستعاد فردوسه. الفردوس دوماً نهاية مطاف، وهولذلك أملٌ لا يجب أن يُنال. لأن مالا يُنال هو المثال. والمثال هو القدرة على العدو. وها هو العدوس يلتقي طريدته الخالدة بدل أن يحلّ في فردوس. ها هي وارسو تفتح له باباً على حميمه القديم: **المنفى**! رحلة إستبدالٍ لألمٍ بألم، لعزلةٍ بعزلة، لهجرةٍ بهجرة. الخلاصة: لا خلاص، ولا سبيل لإيقاف النزيف. إذا ترجّل الفارس عن جواده القديم، فالواجب إعداد العدّة لخوض تجربة الفرس الجديد بالسرج الجديد باللجام الجديد: واقعٌ جديد، ولسانٌ جديد.

Twitter: @alqareah

ملّةٌ جديدة في بيئةٍ جديدة. أي أنها كينونة جديدة في كونٍ جديد، ممّا يستوجب النزول إلى حضيض الجبل لمعاندة الصخرة من جديد. وهو عملٌ هنا ليس قصاصاً لـ سيزيف الأبدي، ولكنه العزاء. وأول حرف في أبجديّة العزاء هو تفكيك طلسمان اللسان الجديد لتحقيق الميلاد الجديد. أليس الإنسان لساناً كما علّمني كهنة صحرائي الكبرى، وسرّ الوجود هو اللغة كما أوصاني حكماء الأمم؟

في ذلك الأوان كان أثر حملتي الثقافية المحتفر في البلاد مازال طريّاً. ليس في ذاكرة أعضاء البعثة الذين يعيشون غياباً أبديّاً عن الوعي، ولكن في أذهان الأوساط الأكاديمية والصحفية والسياسية البولندية. فقد تعرّفت أثناء فعاليات الأسبوع الثقافي إلى عددٍ من الأكاديميين أمثال البروفيسور بيلافسكي عميد المستشرقين البولنديين، وتلميذه البروفيسور يانوش دانتسكي الذي سيخلفه بعد سنتين من ذلك التاريخ في منصب رئيس دائرة الإستشراق في جامعة وارسو. وكذلك البروفيسورتين كازلوفسكا التي دعتني بعد عودتي لإلقاء محاضرة على طلبتها عن دوستويفسكي، ثم زميلتها مينديتسكا التي تخصّصت تالياً في أعمالي الروائية وأسعدني أن ألتقيها في الندوة الدولية التي نظّمها الإتحاد الأوروبي عن أعمالي بجامعة السوربون بالإشتراك مع معهد العالم العربي عام 1997م مندوبةً عن جامعة وارسو. وقد ربطتني علاقة صداقة مع كلّ هؤلاء، ولم تنقطع حتى بعد مغادرتي بولندا بعد تسع سنوات من ذلك التاريخ. بل توطّدت بفضل مجلّة الصداقة التي صارت لهم ولغيرهم من الأكاديميين منبراً

Twitter: @alqareah

طوال سنوات صدورها قبل أن يقوم ضعاف النفوس المدجّجين بالحقد بكتم أنفاس هذا الصوت الحضاري الذي شيّد جسراً جريئاً بين الثقافات مستخدماً في الخطاب لغة أهل البلاد لأول مرة في تاريخ الثقافة العربية المغتربة؛ هؤلاء الأهل الذين كانوا يجهلون عن بلداننا كلّ شيء بإستثناء ركوب حيواناتٍ أسطوريّة منقرضة هي الجِمال، تسرح بنا في صحراء شاسعة تسبح على بحور النفط!

لقد عرّفني أبو زيد عند حضوره للمشاركة في فعاليات الأسبوع بالسيّدة ملتشارك وزيرة العمل والشئون الإجتماعية ورئيسة الجمعية البولندية للصداقة، ولم ينسَ أن يوصيها بي خيراً وهو الذي لم تُخفَ عليه أجواء العداوة التي إستقبلتني بها السفارة. وأشهد اليوم بأنها عملت كلّ ما بوسعها كي تيسّر لي عملي، وهي التي قدّمت لي السيّد جيتيك أمين عام جمعيات الصداقة بالحزب الحاكم، وكذلك أمين سرّ الجمعيّة الذي كان أحد مدراء إدارات وزارتها إن لم تخذلني الذاكرة، ليقوما معاً بالتنسيق معي في كلّ ما من شأنه أن يذلّل العقبات البيروقراطيّة: ذلك السرطان المشترك في كل الأنظمة الشمولية. هذان الإنسانان صارا لي صديقين أيضاً كما صاره لي أعضاء هيئة التدريس بجامعة وارسو، سيّما دانتسكي الذي لم تنقطع صلتي به إلى اليوم.

في جلساتي مع بعض رموز بولندا الثقافية كنّا نستعيد بعض وقائع الأسبوع الثقافي عندما عبّروا لي عن إعجابهم برسوم عبقريّة فنّ الكاريكاتير محمد الزواوي. هذا الفنان المؤهّل لأن يحقّق نجاحاً

Twitter: @alqareah

عالمياً لولم يولد في ليبيا. ولم يكن هؤلاء ليدروا بالطبع أني لم أصرّ على وجوب ضمّ الزواوي إلى الوفد الثقافي إلاّ إعترافاً بعبقريّته، وإيماناً بعالميّته قبل أن يكون السبب الوفاء لعلاقة ربطتني به منذ عام 1967 عندما زرته بمكتبه بمجلّة «ليبيا الحديثة» لأوّل مرة، فاستقبلني بروحه العفوية الناطقة بلسانٍ كان دائماً نقطة ضعفي وهو الطفولة قبل أن أتعلّم من الكتب أو من التجربة، أن هذه السيماء التي أسمّيها طفولةً إنّما هي المعيار لقياس المعدن الإنساني كما هي المقياس لرصد جوهر الإبداع في هذا الإنسان. ومن شاء أن يعرف روح الزواوي فلن يكون في حاجة لأن يفتّش بعيداً، وليس في حاجة لأن يعرف الزواوي شخصيّاً أيضاً، ولكنه سوف يجده حاضراً في خطوطه المجبولة بالسخرية وبالقدر نفسه من الشعر. إنها خطوط تبدو ثخينة، سخيّة الحبر، تشعرنا بالإمتلاء، وأيضاً بالكثافة وبالعمق وبالثراء، كأنّها أُختُطّت بقطعة فحم. إنها إحتفاء الطفولة بالجرم الملفّق من لونٍ هو السواد، كأنه الجسد الملفّق من الدمّ. كلمة الطفولة تسري نصّاً بل حبراً سحريّاً في خطوط الزواوي، لأن التجربة البكر تأبى إلاّ أن تقول كلمتها. تقول رسالة خلودها في نزيف وجدانها المبلبل بالفضول، والمعبّر عن فزعة هوسه في الخطّ المضطرب، المدوّن على الحجر أو الخشب أو الجدار ليطبع بصمته على قرطاس الغموض، على قرطاس الوجود.

هذه التجربة، هذه الطفولة، هي رؤية أهّلت الزواوي لأن يتماهى مع واقعه البيئي والإجتماعي ليقول في خطوطه كلمة البيئة وكلمة

Twitter: @alqareah

أهل البيئة بالإنابة. من هنا تجلّت الأصالة. الأصالة الناطقة بلسان وجدان الإنسان الليبي، وخصال هذا الإنسان الليبي التي لا نستطيع مهما إجتهدنا أن نراها في أنفسنا، والزواوي وحده الرسول المخوّل بقولها عنّا، لأنه يرانا من زاوية أخرى غيبيّة قطعاً، ولكنّها حقيقية إلى أبعد الحدود. يراها بهوية التماهي مع الطبيعة ممّا يؤهّلها لأن تتجاوز أبعاد التقنية لتتحوّل خاصّية مميّزة. ولهذا تستهوينا سخرية الزواوي بنا لأنها تكفّ عن أن تكون نقداً، بل هي أنشودةٌ وجدانيّةٌ نتقبّلها بروحٍ رياضية. نحن لا نستنكر أن نرى في مرآة الزواوي خطايانا لأن الزواوي يقول لنا أنها دعابة. دعابة مروية بلسان طفل. وهذا مجد الزواوي الذي لن يتكرّر.

وكما أسكن الزواوي روح الطفولة خطوطه، كذلك سكنت خطوط الزواوي روح الزواوي الإنسان. إنه نسخة طبق الأصل من فنّه. من خطوطه. من طفولته. من عبقريّة هذه الطفولة، لأنه على المستوى الأخلاقي كان أيضاً شاعراً كبيراً، وهو ما يشهد به كل من عرفه. فالزواوي فتحٌ مبين. وفتحه المبين يكمن في صنع **النموذج**. في **إبتكار** النموذج. النموذج النمطي في عقلية الإنسان الليبي في بُعْده كمواطن. في مسلك هذا المواطن. مفهوم المواطن المعبّر عنه في الكلمة الألمانية **Bürger** (نموذج المواطَنَة) التي لا تترجم حقيقة هذا النمط في أيّ لغة أوروبية أخرى باستثناء الألمانية. فهو إنسان الوطن البسيط الذي ينفث عرَقاً في كلّ مرّة لا للتعبير عن باطل الأباطيل، ولكن تغنّياً بالعمل كصلاة تهب للحياة المعنى. إنه بسالة المسعى

Twitter: @alqareah

المعبّر عنه في معبودة ريشة الزواوي المتمثّلة في التفاصيل كالحذاء المنخور دوماً من أسفل. إنه يثير التأمّل بقدر ما يستثير من سخرية، لأنه البرهان على المثابرة. البرهان على بطولة لا تقارن إلاّ ببطولة الفلاّح التي بثّها **فان غوغ** في صورة الحذاء المتهالك الذي إستفزّ إمام فلسفة القرن **هايدغر** فسطّر بشأنه الأساطير في دراسته المرجعيّة الذائعة الصيت.

إنّه يقول لنا ما نستحي أن نقوله بأنفسنا عن أنفسنا فنتلقّى الدرس ونحن نضحك، في حين لو قاله لنا أغيار لناصبناهم العداء! ولكي يكمل لنا الزواوي ملحمة وجودنا لابدّ أن يضيف إلى الملحمة ملزمة أخرى مترجمةً في فِرق الأطفال الذين هم رأس مال الإنسان الليبي. رأس مال الإنسان **كمواطن** بالذات. وهم في اللوحة، بل في كلّ لوحة، بالضرورة أشقياء. وهم أيضاً قطيعٌ بعدد الجراء! وكي تكتمل اللوحة لابدّ أن يضيف لهذه الخصال خصلة أخرى هي الإستهانة بالإنضباط، والهوس بالفوضى. هذا الهوس الذي يتجلّى في غزوات الإنسان الليبي إلى الطبيعة كي يستعيد متعة الحضور في هذه الأمّ. ولكنه لا يفلح في إستعادة العلاقة مع هذه الأمّ دون أن **يؤذيها**. فالزيارة إلى شاطيء البحر، أو التنزّه في رحاب حزام المدن الأخضر لابدّ أن تتخلّله مقابر النفايات، ومخلّفات الطعوم، ممّا يدلّ على أنّنا لا نحسن الإستجمام أيضاً دون أن نتسبّب في إهانة البيئة!

الزواوي لا يجسّد بريشته رسوماً ساخرة، ولكنه ينحت فلسفةً ساخرة.

Twitter: @alqareah

فهل هو قصاصٌ أن تسخر الأقدار من رسول السخرية على النحو الذي فعلته مع الزواوي؟

ففي الثمانينات، أثناء وجودي ببولندا، عاش الزواوي محنته الأولى متمثّلةً في مؤامرة اللجان الثورية التي إستغلّت فيه حسن النيّة (النابعة بديهياً من روح الطفل) لتحمّله حقيبةً ملغّمةً بقنبلة موقوته لتسليمها إلى أحدهم في تونس. وهو فعلٌ إعتاد أعضاء هذه المنظّمة إستخدامه في حربهم ضدّ ضحاياهم في تلك الأيام. وكان أن ألقت عليه السلطات التونسية القبض ليمكث في السجن أمداً كان من الممكن أن يطول لولا تدخّل الأخيار للبرهنة على براءته. أمّا التجربة الثانية فكانت في حياة هذا الملاك نصلاً أكثر دمويّةً نزفت بسببه روح الزواوي إلى أن لفظ أنفاس النزع الأخير.

فالإمتحان الثاني الذي إبتلته به الأقدار كان من جنس الأعداء الذين نحسبهم أخلافاً برغم أنّهم لم يأتوا يوماً إلى الوجود إلاّ لينفونا من خارطة الوجود. إنّهم الملّة التي نعوّل عليها ونسمّيها ذرّيةً. فقد تورّط سليل الزواوي في أحد التنظيمات الدينيّة السرّية فأُعتُقل ليودَع السجن مع فئة متطرّفة في عقد التسعينيّات. وعبثاً حاول الزواوي أن يشفع له ليحرّره من المعتقل. وقيل لي أن الإبن نازع الأب أيضاً في دينه بوحيٍ من نزعة التكفير التي إعتنقتها هذه الفئة الدينيّة. ولكن أب كالزواوي أَبَى إلاّ أن يغفر للإبن تهمة التكفير التي تشكّك في إيمانه، برغم أن الإبن لم يتسامح مع الأب في دينه. وهكذا واصل سعيه لتحرير الولد بلا جدوى. وكان موقف الأمّ شوكةً أخرى في قلب

Twitter: @alqareah

الرجل ضاعفت نزيفه كأب ظلّ يعاند الأجهزة الأمنيّة في سبيل تحقيق أمنية الحدّ الأدنى وهي السماح لعائلة السجين بزيارة سجينها، ولكن بلا جدوى أيضاً. كلّ ما استطاع الزواوي أن يحقّقه في هذا العراك هو السماح للإبن بمشاركة أبويه طقس المائدة الأسبوعيّة يوم الجمعة. إنه ضربٌ من طقسٍ ديني، أي عيدٌ مصغّر، مبثوث المتن في أجناس الطعوم التي تتفنّن الأمّهات في إعدادها تلبيةً لنداءٍ موروث عن الأسلاف. وهو سماحٌ مجبولٌ بروح العبث إذا علمنا أنه غيابيّ، وليس فعليّاً بأيّ حال، لأن بنود الصفقة تقضي أن يتمّ تسليم الطعام كلّ جمعة إلى الأحراس الذين يتولَّون مهمّة تسليم الوديعة إلى صاحبها بالإنابة. أي أنه طقسٌ يمارس عبر وسيط كأنّه سخرية من إنسان نصّب نفسه ملكاً على عرش السخرية! ونستطيع أيضاً أن نتخيّل ما الذي يمكن أن يعنيه هذا الطقس الأسبوعي لإنسانةٍ هي أمّ. إنه بالنسبة لها ليس طعاماً، ولكنّه خِطاب. ونستطيع أيضاً أن نتخيّل أيّ نوعٍ من الخطاب سيكون عندما يوجَّه لإبنٍ يقبع وراء حجاب. إنه يتحوّل خطاباً غيبيّاً بسبب طبيعته كخطابٍ غيابيّ. إنّه هنا رسالة وليس طعوماً. إنّه أيضاً وصيةٌ مجبولةٌ بحنينٍ ميتافيزيائي يقيناً. وهي تراجيديا سوف تضاعف نزيف الأب حتماً لأنه لا يستطيع أن يضع للأمر حدّاً. وسوف تكتسب المأساة بُعْداً كلاسيكيّاً، أي إغريقياً، عندما تكتمل الفصول في كلمة العبث بعد سنوات من هذه الصلاة الأسبوعيّة، لتعلم الأسرة في أحد الأيام أن الطعوم التي كانت الأمّ تدسّ فيها للإبن السجين قلبها الدامي لم تصل للإبن ولا مرّة! ولكنّها تسقط

Twitter: @alqareah

لقمةً سائغةً في بطون سجّانيه. والسبب؟ معرفة السبب كان قارعةً أسوأ من الجهل بالسبب، لأن السبب ببساطة كان **غياب** الإبن. غياب الإبن؟ أيّ غيابٍ يستطيع الإبن أن يغيبه أكثر من غيابه وراء القضبان؟ أيُّ غيابٍ يستطيع السجين أن يغِيبه يفوق غيابه عن أنظار الأبوين؟ بلى! بلَى! في جعبة القدر دوماً هاوية أخرى تستطيع أن تخفي حتى السجين وتغيّبه عن الأنظار! لقد غيّب القدر الإبن في الجبّ بعد أن غيّبه في غياهب السجن، كأنّ السجن ليس مثوىً كافياً لتغييب أمواتٍ نظنّهم على قيد الحياة. لقد شاءت الأقدار أن تحيي سجيناً في عداد الأموات فدفعت به إلى المنفى الوحيد الذي يجعل من السجناء طلقاء بتحويلهم من موقعهم كسجناء إلى موقعهم **كشهداء**. بلَى! إستشهد الإبن في أحداث سجن أبي سليم الذي راح ضحيّته مايربو على 1270 سجين في تمرّدٍ تكتّم عليه النظام أعواماً قبل أن تنكشف حقيقة هذه الجريمة. هذا النبأ الفاجع لم يكتفِ بأن يجعل من السجناء شهداءً، ولكنه ثنّى فجعل من أهل الضحايا أيضاً **شهداء**. وكان للزواوي شرف الإنضمام إلى هذه القافلة ليصير أيضاً شهيداً وإن ظلّ رمزيّاً على قيد الحياة. لِمَ لا إذا كان أنبل الشهداء قاطبة هم الشهداء على قيد الحياة؟

لقد عاش الزواوي بعد هذه البليّة حاملاً صليبه كشهادةٍ على حضوره في دنيانا بهوية الشهيد دون أن يتوقّف عن معاندة صليبه الثاني: الإبداع. تبتّل في محراب الإبداع دون أن يتخلّى عن هويّته الأخرى، الفطريّة: هويّة الطفولة ليبدو في هذا المحراب أكثر

Twitter: @alqareah

تراجيديّةً، لأن لا وجود لمشهدٍ أقسى من مشهد طفلٍ يحمل صليبه، كما لا وجود لمشهدٍ أقسى من مشهد شهيدٍ مزمومٍ بروح الطفولة. ولا أدري لماذا تجسّدت هذه الصورة في مخيّلتي كرؤيا يوم حدّثني زياد علي بسيرة صديقنا المشترك بعد أن فرّقت بيني وبينه أمراضي الدنيوية والجسدية لسنواتٍ طويلة تنقّلت فيها بين بولندا وروسيا وسويسرا، فاستعدت موقفاً دلّل على حضور الزواوي في عالم سجيّته الطفوليّة الأبديّة أكثر ممّا دلّل على حضور الهوية الطفولية فيه. ففي أحد أيام أسبوعنا الثقافي بوارسو قمت بدعوة الوفد الثقافي لتناول العشاء بغرفتي بفندق فيكتوريا الذي كان مقرّ إقامتنا. كانت جلسةً ممتعة يكفي أن يهيمن فيها التجلّي كي نستعير أجنحة تحلّق بنا بعيداً كما يليق بإجتماع أخلّة، وفوق ذلك ينتمون إلى جرثومة المسّ المسمّاة إبداعاً. إنهم لا يكونون سعداء إلاّ بالتجلّي، لأن التجلّي وحده رسول الأسحار الذي يحقّق غاية الكينونة وغاية الإبداع معاً وهي: **الحرية!** وها هو الزواوي يحقّق الحرية بفضل عفويّة تلك الجلسة إلى درجة أنه عاد إلى غرفته دون أن يكتشف أنه سار المسافة حافياً. لقد وجدت حذاء الرجل بعد مغادرته بالغرفة فاتصلت به لأخبره فجاءني لينتعل حذاءه ضاحكاً ليعلّق بلسان طفولته الأبدية قائلاً: «لقد أحسست بالراحة في مشيي، ولم يخطر ببالي أني أمشي حافياً». الراحة بمنطق الطفولة هي الحرية. الحرية التي تستنكر كلّ قيد حتى لو كان حذاءً، ولا تعترف حتى باللباس. والزواوي وحده إستطاع أن يعبّر عنها لا بلسانه وحسب، ولكن بمشيته الحافية أيضاً.

Twitter: @alqareah

لأن الإحساس بالحرية هو مقياس الأصالة في الكينونة. ولو لم يكن الأمر كذلك لما إستطاعت الحرية أن تكون الحُجّة التي تقلب الموت ميلاداً. والهَوَس بهذه المعبودة هو قاسمي السرّي المشترك مع الزواوي الذي قادني إليه عام 1967، ثمّ جمعنا عام 1969 يوم تولّى رسم لوحاته الرائعة لدراستي عن «ثورات الصحراء الكبرى» قبل أن تكتم الرقابة أنفاس الدراسة في صحيفة «العلم»، ليتوّج الغلاف بلوحة أخرى عندما صدرت الدراسة في كتاب عن دار «الفكر» عام 1970 لتكتم أنفاس الكتاب الرقابة مرةً أخرى. ولإرواء الظمأ إلى الزمان الضائع قادني صديقنا زياد إلى حرم الإنسان الذي لم ينتمِ يوماً إلى هذا العالم، ولا إلى أخلاقيّات هذا العالم، لنزوره في بيته في أحد أيام رمضان من عام 2009 دون أن أدرِ أن تلك الزيارة كانت للوداع، لأني لم أره إلى اليوم الذي بلغني فيه نبأ رحيله المفاجيء عن عالمنا في ال2012.

رحل الزواوي الرحيل الذي لم يندم عليه يقيناً وهو الذي عاش غريباً في عالمٍ لم يُخلَق لأمثاله، فعاش له مشاهداً من واقع الساخر منه، ولولا روح هذه السخرية لما إحتمل الوِجود فيه يوماً واحداً!

Twitter: @alqareah

ملحق 1

السخرية في فنّ الزواوي ليست مجرّد فلسفة، ولكنّها رسالة. فهو لا يسخر من نماذجه الدنيوية لكي ينفّر، أو لكي يكفّر، أو لكي يُدين، ولكن لكي ينبّه، كي يحذّر، لكي يقرع نواقيس الخطر. وهو عندما يفعل لا يفعل من موقف سلطة، سواء أكانت سياسية أو أخلاقية، ولكنّه يفعل من موقف **الحبّ**. يفعل كأنّه يشارك إنسانه الليبي سيّئاته. كأنّه يتضامن مع نموذجه في خطاياه الصغيرة. إنه في الواقع عندما يكشف لنا عن سلبيّاتنا إنّما يتعاطف معنا في سلبيّاتنا ويقول لنا أنه قرينٌ لنا في هذه الخطايا، بل أنه لا يحبّنا إلاّ لوجود هذه الخطايا فينا، لأن الإنسان لم يكن ليكون إنساناً لولم يعترف بالخطايا. الإنسان بلا خطايا ملاك وليس إنساناً. وهو لهذا يكاد يدعونا لكي **نتباهى** بهذه الخطايا، لأنها البرهان على إنسانيتنا. من هنا وُجدت نزعة الزواوي الإنسانية في كل ما يختطّ من فصول هي ليست بفصول ولكنّها في الواقع **وصايا**. ففي كلّ بصمة حبر يعلن هذا الكاهن عن إيماءة، وهو لا يتعمّد صنع النموذج إلاّ لتأكيد رؤيا: رؤيا دوماً وجودية إلى جانب بعدها الفلسفي. وهي العبقرية التي تضفي حميمية على الموقف الكاريكاتيري نستطيع أن نقول أنه فتح

Twitter: @alqareah

الزواوي المبين في تاريخ هذا الفنّ على مستوى العالم كسلاح أستُخدم دوماً لتنفيذ وخزة إذا لم تكن مباشرة فهي بالضرورة مستبطنة. ولكن السلاح يتحوّل بيد مريد الحبّ هذا مزحة يستجيب لها صاحبها بضحكة أيضاً بسبب الحبّ أولاً، ولسرّ **العفوية ثانياً**. هنا يتراجع بُعْد السخرية ليتحوّل سيرةً شعرية، لئلاّ يستعير هوية تربوية أو أمثولة أخلاقية. فالتلقين هو اليقين الذي يستنكره الزواوي، لأنه يضير بالروح الشعرية التي كانت حكراً على فنّه وحده بين كلّ من عرفنا من كهنة هذا المجال.

ولكن، ويا للعجب، تلك الروح الشعرية لم تولد عاريةً، ولكنها تنزّلت مجبولةً بروح **ملحمية**.

فما أَلِفناه في فنّ الكاريكاتير هو اللوحة التي تترجم **موقفاً** وحسب، ولكن ما فاجأنا به الزواوي هو اللوحة التي تعبّر عن **سيرة**. رواية كاملة متكاملة تحكي تجربة متعدّدة أفقيّاً في الجوانب، وعميقة وجودياً في المضمون. فلنحتكم إلى تلك اللوحات الأثيرة والنموذجية والأعزّ على نفس الزواوي التي يرصد فيها بروح العالم النفساني الذي ينوي أن يشخّص مرضاً في نماذجه المحبّبة التي يذهب فيها أبطاله للنزهة في رحاب الطبيعة. هنا لابدّ أن ننبهر بالتفاصيل التي كانت دوماً شعرة شمشون الزواوي. تفاصيل الغزوة الجماعية (ولا نقول الهمجيّة) للساحل بدعوى الإصطياف، أو بحجّة **التباهي** بإنتزاع الحقّ الذي يمارسه الكلّ في غزو البحر في الصيف!

وهي ليست نزهةً إذاً بقدر ما هي غزوة. بلى! هذه أوّل نبوءة في

Twitter: @alqareah

خطاب الزواوي: حشود لجيوش بشرية تتلبّس الشاطيء مدجّجةً بكلّ الأسلحة التي لا تخطر على بال. فنحن لا نتخيّل الذهاب لتأدية الصلاة في محراب طبيعةٍ كالبحر في حافلة من النوع المخصّص لشحن البضائع! ليس هذا وحسب، ولكنّها متوّجة بخيمة حقيقيّة لوقاية **فحواها** من الشمس. أمّا الفحوى فمفاجأة أخرى. ها هي تلفظ من جوفها أطفالاً بعدد الجراء ورجل تقرفص تحت عجلاتها ليلتهم بطيخةَ هائلة، ومواد غذائية تكفي لإطعام قبيلة، وحوائج تصلح لمرافقة عائلة ترتحل نهائياً إلى المجهول! فهل هذا كل شيء؟ كلاّ بالطبع! ففي داخل الخيمة المنصوبة في جوف الشاحنة يتبدّى شبح تقليدي في فلسفة الزواوي. إنها ربّة الأسرة التي لا يجب أن تتمرّد على قدرها كشبح فلا يتبدّى منها سوى جزء من جرم: يدٌ مغلولةٌ بالخلاخل، أو كومٌ يتخفّى وراء الرداء التقليدي المخطّط، إيماءً ماكراً لهوية إستسرارية حضورها الوجودي رمزيّ أكثر ممّا لو كان حقيقيّاً. أي أنها ظلّ لإنسان يلعب دور الخلفية في ديكور المسرحية حسب، برغم أنها لا تقف مكتوفة الأيدي، والدليل أنها تستنزل من وراء حجابها الأبدي المستغلق ذاك شأناً. تستنزل وعاءً فسيحاً تتوسّطه صلعة مهيبة سوف لن يصدّق من لم يولد في ربوع المجتمع الليبي أنها أكلة! بلى هذه القبّة الفاتنة التي تتوسّط الوعاء والعائمة في بحيرة السائل الرجراج هي أكلة شعبية ذات أصول بربرية إسمها «البازين» هي تعويذة أمّة الليبيين بحيث يرفضون التخلّي عنها حتّى في الرحلة إلى الطبيعة، كأنّها البرهان الوحيد الدّال على الهوية!

Twitter: @alqareah

وها هي اللقمة المستنزَلة في الأعلى تتضعضع في يد الوليد الذي يتولّى إستلامها في الأسافل فيندلق من الوعاء المرق ليهوي على رأس الأب المستغرق في معاندة البطيخة الفظيعة! فهل هذا كل ما في الوليمة؟ كلاّ بالطبع! فالداهية لا ينسى نوايا نموذجه الخبيئة. فالوليمة لن تكتمل بدون وجود تميمة ليبية تقليدية أخرى وهي: الخروف! وبرغم أن الفنان يحجم هنا بالذات عن موافاتنا بمسرح المذبحة رحمةً بمشاعرنا، ولكنه لا ينسى أن يُلقي في وجوهنا (عرَضاً) رأس هذا الحيوان الشقيّ كأنّه سقط من جوف الحافلة مصادفةً. إنه يَرِدُ هنا كـ **تفصيل**، لأن التفصيل هو تقنية هذا الكاهن العظيم للتدليل على صواب نظرية تاليران عن اللغة التي لم تُخلق لتعرية أفكارنا، ولكن لإخفاء الأفكار!

فالتفاصيل الجانبية تلعب في ملاحم هذا الفنان دور التورية. دور الإيماء، ولكنّه كثيراً ما ينتصب كرهان في اللوحة. ينتصب كحجّة لا غنى عنها لإستكمال الرسالة.

ففي الجوار تنتشر مظلاّت المصطافين بسخاء. المظلات تضيق بالبشر من رجال ونساء وأطفال. في الفراغ بين المظلات يتقاطع الخلق أيضاً. ولكن في كل هذه القيّامة يسترعي إنتباهنا أمرٌ واحد في غاية الأهمّية وهو: **الإحتفاء!** ليس الإحتفاء بالطبيعة التي نسي هؤلاء أنهم أتوا ليتلوا الصلوات في محرابها، ولكن الإحتفاء بالمعنى الحرفي. أي **الوليمة!** هذه الوليمة التي كان من الأنسب أن تمارَس في أيِّ مكانٍ بعيداً عن هذا المكان، ولكن الإنسان الليبي الذي لم

Twitter: @alqareah

يتعلّم بعد التعامل مع هذا المعبد كـ **جمال** يأبَى إلاّ أن يحمل هذه المعبودة الأبدية (الوليمة) معه إلى المكان اللاّمناسب. لأن في حضرة الجمال فقط يجب أن نحرم بالتجرّد من الطعوم كما يحرم الحاجّ إلى بيت الله من المخيط. وهو تأكيدٌ على الهوية **البدوية** للنموذج الليبي. الهوية التي لا تذهب إلى الطبيعة لتستمتع بالجمال، ولكنّها تحمل للطبيعة وباء الواقع الجديد المهووس بالقوت. ولهذا لا تسيء لنفسها وحسب بالنتيجة، ولكنّها توجّه إهانةً لطبيعةٍ هي أمّ.

اللوحة لا تكتمل بهذا المحفل، ولكنها تقتحم البحر لتجعل منه في المعركة شريكاً، أو خصماً. فالمظلات حملة تزحف حثيثاً حتى تتواصل في الغمر. هنا تنتشر القوارب على طول الساحل، وفي البحر تتبدّى السفن أيضاً. أمّا في القرب فنستطيع أن نتلذّذ برؤية النساء اللائي يسبحن بملابسهنّ ليكوّن رجالهنّ حولهنّ سدّا لا يأتيه الباطل لا من أمامٍ ولا من خلفٍ. في متناول الرؤية داخل الماء بالوسع أن نبصر رجلاً مغموراً في الماء متوّج الرأس بالطاقية التقليدية، يدفع أمامه قارباً مطّاطياً تتربع في قلبه إمرأة ملفوفة في اللحاف التقليدي، يجاورها طفل. إنها نزهة بحرية مثيرة للفضول، لأن الحدس وحده يحدّثنا بخطورة هذه المغامرة التي قد تكلّف هذا الفارس المجبول بروح دونكيشوتية حياته وحياة عائلته! والواقع أن الروح الدونكيشوتية هو ماشاء الزواوي أن يخبرنا بكل هذه اللوحة الملحمية. فالإنسان يريد أن يستعيد علاقته المفقودة مع فردوسه الضائع. ولكنه لا يفعل إلاّ لكي يلحق الضرر بهذا الفردوس. إنه لا

Twitter: @alqareah

يعدم حسن النيّة في رغبته تلك، ولكنه لا يضمن النتيجة أبداً. فحياته سيرةٌ معكوسةٌ من أمثولة «ميداس» برغم أن المحصّلة النهائية واحدة. **فما الفرق بين إنسانٍ لا يلمس شيئاً إلاّ إستحال ذهباً، وبين إنسانٍ لا يلمس ذهباً إلاّ إستحال هباءً؟**

ولكن الزواوي لا يجسّد لنا هذه المفارقة دون أن يشفع تجسيده بالحبّ. لا لأنه مزبور بحبر الشعر، ولكن لأنه مضفور بروح التعاطف أيضاً. إنه لا يستحي أن ينتحل لأبطاله الأعذار لا لشيء إلاّ لأنهم سلالة خطيئة. ليس هذا وحسب، ولكنه يضيف إعترافاً آخر وهو هويّته هو المستعارة من هويتهم، والمجبولة من روحهم، والمجلّلة بعلامة قابيل ذاتها. وهو تسامح عميق في زمن تراجيدي تغترب فيه أبسط القيَم الأخلاقية ليصير هو وحده عنقاء العصر التي تتجاسر على تبنّي هذا الصليب الجسيم.

والزواوي ليس ثريّاً في وسم رسومه وحسب، ولكنه ثريٌّ في موضوعه أيضاً. وهو موضوع يتكشّف في موهبة الملاحظة لكل نشاطٍ **نمطي** في مسلك نموذجه الليبي. فالهندام دوماً تقليدي: طاقية وثوب وفرملة ثم.. ثمّ الحذاء الذائع الصيت المثقوب من أسفل بالضرورة تعبيراً عن حثاثة السعي، وإصبع القدم الذي يبرز دوماً من الجورب!

ولكن ماذا عن السيماء؟ السيماء نموذجية أيضاً متوّجة بـ **عفوية** ورثها الزواوي عن أسلافه واحتفرها وساماً جلّل به وجه نموذجه الأبدي الذي يبدو حميماً ومحبوباً حتّى في تكشيرته، فكيف بإبتسامته؟

Twitter: @alqareah

إنها الحميميّة النابعة من روح الزواوي، والحبّ الذي يفيض به قلبه ليغمر به نموذجه.

وهو في سفره المهيب لا ينسى الصغار. لا ينسى الأطفال لا بوصفهم ذرّية هي رأس مال نموذجه التقليدي وحسب، ولكن لأنهم الجيل البديل أيضاً. وهم لهذا السبب محفل لا يبخل عليه الزواوي بالوفرة. إنهم قافلة، يسيرون دوماً في طابورٍ طويل وراء الأمّ الملفوفة في الرداء التقليدي. ولكن هؤلاء الأشقياء لا يلبثوا أن يتحوّلوا إلى فِرق شياطين ما أن يحلّوا في بيوت الأغيار أضيافاً! ولكن الشيطَنة لا تنفي عنهم هويّتهم كصغار. فالطفولة وحدها شفيع، لأنها الطفولة التي تسكن الزواوي نفسه. ولهذا فرسوم الزواوي لا تستدعي سخريتنا بقدر ما تستفزّ **تأمّلنا**. فهنا نتوقّف طويلاً لنتجلّى. أمام رسوم الزواوي نواجه أنفسنا لنستنطق ما غاب عنّا في مسلكنا. نواجه أنفسنا **لنعرف** أنفسنا. وهو ما يعني أن كاريكاتير الزواوي لا يكتفي بأن يسلّينا، ولكن ليدعونا كي **نعرف** أنفسنا.

والدعوة لمعرفة النفس هي الدعوة لمعرفة الربّ.

فكم هي جليلة تلك المتعة التي تستدرجنا للمثول في ملكوت الربّ!

Twitter: @alqareah

ملحق 2

كأنّي بالزواوي يجسّد شاهد المجهول الذي يراقب فصول المهزلة من وراء حجاب. فهو ليس كاهن المهزلة وحسب، ولكنه حكيم الزمان أيضاً. فمَن مِن جيلنا يستطيع أن ينسى شخصية مثل «كاوكي» أو الدمية الأمريكية الأخرى «لون نول»؟ إنّهما دميتان لهما حضور في حوليّات الزواوي المؤرّخ رغم غيابهما من ذاكرة جيل تلك الأعوام، فكيف بجيل هذه الأيام؟

فصاحب هذا البيان لم يكن ليستعيد ذكراهما اليوم لو لم تخلّدهما أسفار الزواوي في رسوم الأمس، لأنه شرّفها يوم سخر منهما! وهذه مفارقة لم يكونوا ليتخيّلوها في وجودهم السياسي المبتذل المصاب بعماء الأضواء يوم ظنّوا أنفسهم أبطال «العالم الحرّ» الذي يقاوم سرطان العصر الشيوعي الذي يكتسح جنوب شرق آسيا، تحديداً في فيتنام وكمبوديا. ولم يكن ليدري أيٌّ منهما أنهما سيجدان نفسيهما يوماً وقد غيّبهما النسيان لو لم يجدا الطريق إلى متن إنسانٍ كان مغموراً في دنياهما بموقفه النقدي منهما.

ففي منتصف الستينيات من القرن الماضي كانت الصفحة الأخيرة من جريدة «الميدان» بمثابة صحيفة الزواوي التي يعرّي فيها سيّئات

Twitter: @alqareah

العالم ويجسّد فيها رؤاه النقدية من موقع شاهد العيان على مسرحية الزمان التي لم تكن فصولها لتنال قبولاً لولا روح السخرية التي تناولها بها فرسان الوجدان الإنساني أمثال الزواوي.

وإذا كانت الذاكرة قد خذلتني كثيراً، ولكن مالم أنسه هو لوحته الكاريكاتيرية التاريخية عن الإمبراطور الليبي الذي تربّع يوماً على عرش العالم في روما القديمة سبتيموس سفيروس ليخلّد الزواوي حدثاً إستثنائياً في تاريخ ليبيا كان سيُنسى لولا ريشة هذا الفنان. كانت هزيمة 1967 قد أشعلت النار في طرابلس بفعل المظاهرات الغاضبة التي خرجت لتحتجّ على نبأ مختلَق مؤدّاه قيام طائرات حربية من قاعدتي «هويلس» و«العدم» بقصف الجيوش على الجبهة المصرية. وهي أكذوبة إعلامية لتبرير الهزيمة الموجعة فحسب كما إتضح فيما بعد. ولكن العوام إستجابوا للنداء فخرجوا ليشعلوا النيران في عاصمة بلادهم وليقطعوا من أرضهم دابر الملّة اليهودية التي لا ذنب لها إلاّ الإنتماء إلى هذا العرق. جموع الغوغاء لم تكتفِ بالإقتصاص من يهودٍ هم أصلاً مواطنون ليبيّون منذ ما قبل التاريخ، ولكنهم دمّروا المحلات التجارية المملوكة لليبيين أيضاً بعد أن أحرقوا ممتلكات اليهود بما في ذلك بيوتهم، بعد أن سقط منهم ضحايا كثيرة، ليبدأوا خروجهم الثاني الكبير بعد خروجهم الماقبل تاريخي من أرض مصر مع فرق جوهري وهو أن الخروج الأول للخلاص من العبودية، والخروج الثاني فرار إضطراري من الموت!

في تلك التجربة عرف المجتمع الليبي البسيط (الحديث العهد

Twitter: @alqareah

بأوبئة التقاليد العمرانية) معنى أن يتحرّر الإنسان من العقل لتُهيمن فيه الغريزة الحيوانية التي لا تقف عند الإساءة للأغيار، ولكنّها تلحق الضرر بنفسها أيضاً ما أن تغترب عن ناموس الحضارة لتستعيد روح القطيع. ولم يجد الليبيون العزّل ما يدافعون به عن أنفسهم لمواجهة هذه الروح الهمجية سوى النزول إلى الشوارع، لا لردع الغوغاء بقوّة سلاحٍ لا يملكونه، ولكن بالسبيل الوحيد المتاح لكي يعيدهم إلى صوابهم ويوقظ فيهم الإحساس بإنسانيّتهم: سبيل ترجمته عبارة صارت تقليدية في قيّامة تلك التجربة لن ينساها كل من عاش تلك الأيام وهي الكتابة على بوابات المحلات التجارية، وعلى أبواب البيوت السكنية عبارة: «**عربي مسلم**» ككلمة سرّ قادرة على قمع روح العدوان في نفوس الدهماء. إنها إستجارة بلهاء بالهوية العرقية أولاً، ثمّ بالهوية الدينية ثانياً، لتترجم روح شعبٍ مسالمٍ متسامحٍ متعدّد الأعراق تعرّض فجأة لهجمة همجيّة من تعصّب لا عهد له به قبل ذلك اليوم، دون أن نتخيّل أيضاً أن ما خفي بشأن هذا الورم كان أعظم، لأن ما ستجرّه هذه العقيدة الشوفينية على بُنْيَة هذا المجتمع الروحية بعد 1969 هو نزيف روحي سخيّ سيستدعي جراحة دموية طويلة الأجل كي يشفى منه!

فعقب تلك الأحداث الدامية زرت الحاضرة مراراً. كنت أسعى في شوارع طرابلس الأنيقة، وأتجوّل في الأزقّة الخلفية الحميمة المعطّرة دوماً بروائح التوابل والبنّ والطعوم الشعبية اللذيذة مشفوعةً بتلك الرائحة الغامضة المبثوثة في رطوبات بحرنا الرومانسي عندما

Twitter: @alqareah

تتغلغل في شرايين جدران المدينة القديمة الوفيّة لتقاليدها، والفخورة بإرث السلف، والجريحة بسبب نكبة الهجمة الأخيرة التي كانت بصمة «عربي مسلم» تسكن جدرانها كوصمة العار التي لا تريد أن تعترف بها، لأن التعصّب لم يكن يوماً من شيمها. وها هي ريشة حكيم الزمان تهرع لنجدتها فتُدين المُنكَر مستخدمةً سلاح السخرية. لقد إختطّ الزواوي لوحةً مازالت تحيا في ذاكرتي بعد مرور ما يقرب النصف قرن: لوحة عبّرت بعمق فلسفي مجبول بنَفَس تراجيدي كان دوماً نقطة القوّة في فنّ هذا الفنان. فمَن مِنْ جيلنا يستطيع أن ينسى كيف نزل إمبراطور العالم القديم سفيروس من عرشٍ نَصْبِه المنتصب في مدخل المدينة القديمة ليختطّ تميمة تلك الأيام المبثوثة في كلمتين إثنتين: «**عربي مسلم**» علّها تجيره من هوس الهمج؟

تجّار الأيديولوجيا يسمّون إنكار الرموز الوطنية يقظةً قومية بالطبع، ولكن صوت الحكمة الذي يسكن أمثال الزواوي سيسمّونه تعصّباً وعملاً همجيّاً وهم الذين إعتادوا أن يسبحوا ضدّ التيّار بتسمية الأشياء بأسمائها. فهل كان إستنزال رمز وطني قديم في مقام سبتيموس سفيروس من مقامه في الأعالي ليستجير بتعويذة تلك الأيام مبالغةً من عمل مخيال الشعراء؟

الأغلبية من جيل هذا الزمان لن تصدّق أن هذا الرمز الوطني بصيته الإنساني العالمي كاد يهلك بالفعل بأيدي الغوغاء في حملة من حملات تلك الأيام. ولولا تدخّل إنسانٍ بسيطٍ، ولكنّه مسكونٌ بقلبٍ عظيمٍ مصابٍ بداء حبّ الوطن، لزال من مدخل المدينة ذلك التمثال

Twitter: @alqareah

ـ الرمز ـ الذي ينتصب هنا كأنه الحارس لروح المدينة القديمة والمجسّد لمجد تاريخ هذا الوطن. فقد روى لي أحد شهود العيان في قيامة تلك الأيام كيف هجمت الجموع على التمثال بنيّة البطش به مدفوعةً بالجهل وبحمّى روح القطيع، لو لم يهرع مؤرّخ متواضع إسمه محمد مسعود فشيكة لنجدة الرمز صائحاً بأعلى صوت: «ليبي! ليبي! سبتيموس سفيروس ليبي وليس نصرانيا!». لم يكتفِ هذا البطل بندائه، ولكنّه ألقى بنفسه على النصب ليحتضن التمثال!

هذا الموقف البطولي ألهم الزواوي لوحته الخالدة عن إمبراطورٍ إستطاع أن يحكم العالم كلّه من موقعه في روما القديمة، ولكنه لم يجد ما يدافع به عن نفسه زمن إنفلات الغرائز من عقال العقل إلاّ الإستجارة بعبارة «عربي مسلم» وهو الذي إنتمى لهذا الوطن بهويّة وطنيّة ليبية في زمنٍ سبق وفود الهوية العروبية على وطنٍ تعدّدت فيه الملل، وسبق وفود الهوية الدينية الإسلامية على وطنٍ تعدّدت فيه النّحل.

لقد ترجم الفنّان محمد الزواوي موقف المؤرّخ المجهول محمد مسعود فشيكة في رسالة مشتركة زاوجت بين روحَيهما في كلمة الإدانة ضدّ روح التعصّب، إنتصاراً لروح التسامح في علاقة الإنسان بأخيه الإنسان كإنسان، وليس كعرق أو كدين، وهو ما حثّت عليه كلّ الديانات بما في ذلك الدين الإسلامي!

Twitter: @alqareah

ملحق 3

«الخالدون فانون، والفانون خالدون. بموت بعضهم البعض يحيون، وبحياة بعضهم البعض يموتون»

(هيراقليط)

سُئل يوليوس قيصر يوماً عن أفضل الميتات فأجاب: «ميتة الفجاءة». وكان له ما أراد، برغم أنّه لم يُرد للمِيْتة الهويّة الدمويّة المبثوثة في لسان السكّين!

هذا يعني أن الأفضل من أن نتمنّى هو ألاّ نتمنّى، لأن التجربة أثبتت أن القدر جاسوسٌ يترصّدنا منصتاً لصوت أمانينا التي يحقّقها لنا ليبتلينا لا ليكافئنا، في حين كان سيعفينا فيما لو تواضعنا وتمنّعنا. فالموت لا يختلس الأخيار وحسب (كما تقول الحكمة الشعبية السائدة)، ولكنه يأبى إلاّ أن يأخذهم على حين غرّة. ذلك أن القدر أحرص على الأخيار أكثر ممّا يظنّون هم أنفسهم، فيباغتهم فجاءةً كي يجيرهم ممّا هو أسوأ من الموت، ألا وهو: الخوف من الموت. إنها الدراما التي عبّر عنها دوستويفسكي كما لم يعبّر عنها حكيمٌ قبله من خلال شخصية نارية صارت إنجيلاً للفلسفة الوجودية برمّتها،

Twitter: @alqareah

وهي كيريلوف عندما يروي لنا كاهن الأزمنة هذا (دوستويفسكي) كيف استولت نوبة الجنون على هذا الداعية إلى الموت، والمروّج لفكرة الإنتحار، ولكن غريزة البقاء إستيقظت فيه على النحو المميت فخاض صراعاً جنونياً كي يضع حدّاً للمهزلة الدنيوية لم يكن ليتوّج بالنجاح لو لم يهرع لنجدته أحد الأقران، وهو القائل بأننا لا نخاف من الموت عندما نواجه الموت، ولكننا نخاف الألم الناتج عن سبب الموت. ولتأكيد نظريّته ضرب مثلاً بصخرة في حجم جبل تسقط على إنسانٍ بغتةً. نموذج كهذا لن يخاف الموت، لأن الصخرة لن تتيح له فرصة الإحساس بألم ينتج عن وضعٍ كذلك الوضع الذي يلفظ فيه هذا الإنسان أنفاس النزع الأخير وهو على فراش الموت. ولهذا فالأخيار وحدهم يُعِدُّ لهم القدر ميتة الفجاءة لا على نحوٍ دموي كما هو الحال مع ميتة يوليوس قيصر، ولكن على نحوٍ أدْهَى من ميتة قيصر، وأدهى أيضاً من مِيْتة الصخرة في نظرية كيريلوف.

إنها ميتة ذلك الفريق في القبيلة الإنسانية الذي يموت في سبيل قيمة أخلاقية، أو رسالة إنسانية نبيلة، ممّا إضطرّ الجنس البشري لأن ينحت لميتة هذا الفريق إسماً خاصّاً صار مع الوقت مصطلحاً عالمياً مبثوثاً في كل اللغات بحروفٍ من دم (ولكنّها مجبولةٌ بروح النور) وهو: **الإستشهاد!**

فميتة الإستشهاد وحدها تستنزل في سيماء الميّت إيماءً غامضاً يسمّيه أهل التقوى: **الرضى**، ويسمّيه أهل الباطل: **سعادة!**

لهذا الفريق لا ينتمي فقط أولئك الأبطال الذين يذهبون ليموتوا

Twitter: @alqareah

في سبيل الأوطان، أو أمثالهم الذين ينتفضون ضدّ الجور ليستعيدوا قيمة ضائعة لا وجود لها خارج العدالة، ولكن لهذا الفريق لابدّ أن تنتمي تلك الفئة التي إستنزفت في سبيل الإنتصار للحقيقة في واقع إغترب عن الحقيقة. والزواوي، في ظنّي، هو أحد فرسان هذه الفئة، كما كان حميمي الفقيد جيلاني طريبشان فارساً آخر. فالعناية الإلهية وحدها تعاند لتجير نموذجاً كهذا من ميتة تقليدية مرغوبة من قبل جموع السِّوَى لا لشيء إلاّ لأنها تضمن للمخلوق البشري أن يهجع بعد أن يكون قد بلغ من العمر **أرذله**، دون أن ينتبه هؤلاء لحقيقة مثل هذه الميتة المزرية الكامنة في كلمة شائعة نسوا معناها فاعتادوا ترديدها بحكم العادة وهي: «أرذله!». فما معنى أن تتنازل الأقدار عن كبريائها الكلاسيكية فتهرع لتلبية مشيئة إنسان يرى في طول العمر خيراً؟

تفعل الأقدار هذا لا لتجير هذا الإنسان وتكلّله بغار الفوز يقيناً، ولكن لتقتصّ منه مستخدمةً تلبية أمنيته بالذّات، لأن أي خير في أن يجرجر الإنسان بدناً متهالكاً، مزعزَعاً بالأوجاع والأمراض، ليثير شفقة الناس، هذا إن لم يستثر سخريتهم، بل وقد يتيح فرصة للأعداء أن يشمتوا أيضاً؟ فهل تكتفي سخرية القَدَر بهذا القدْر من السخرية؟ الواقع أنها قد تتمادى فتضيف الأسوأ بكل المقاييس وهو: تضعضع الذاكرة، أو بالأصح: **النسيان!**

فأي عمر نستطيع أن نتباهى به عندما نصاب بداء النسيان؟

الواقع أنّنا لن نستطيع أن نتباهى لسببٍ بسيطٍ وهو أن الإنسان لا

Twitter: @alqareah

يعود إنساناً بفقدان الذاكرة. إنه الجثّة على قيد الحياة. هنا تتجلّى حكمة الأقدار عندما تأخذ أحبّاءها إلى الغيوب مبكّراً، ولا تكتفي بهذه الهبة الإلهية، ولكنّها تضيف وتأخذهم خلسةً، أي **فجاءةً**. تفعل الأقدار هذا بأخيارها شفقةً على الرسل من شرّين: شرّ الألم الناجم عن المرض الطويل أو المميت. وشرّ الألم الناتج عن الحضور في الوجود.

من حقّنا أن نُفجَع في مَنْ أحببنا بسبب الفجاءة، ولكنّها فجيعة برغم قدسيّتها بيد أنها لا تخلو من عنصر أنانيّة من جانبنا. فأولئك الذين أحببنا يهجروننا شخصيّاً عندما يهجرون عالمنا. والإحساس بالهجر يضاعف عزلتنا في وجودٍ مجرّد حضورنا فيه هو بالأصل عزلة.

لقد ظننت أن من روّض نفسه على العزلة طويلاً أمثالي سوف يكون في مأمن من هذه الأنانيّة، ولكن هيهات! لقد كان يموت منّي شطرٌ في كلّ مرّة يبلغني فيها نبأ رحيل أحد أحبابي، فلا أجد ما أعزّي به نفسي سوى تخيّل ما سيئول إليه المآل في حال عاش أمثال هؤلاء حتى بلغوا من العمر **أرذله**. فإنسان كجيلاني طريبشان كان شهيداً منذ زمن سبق رحيله بكثير. إنه نموذج الشهيد على قيد الحياة، لأنه نزف طوال تجربته الدنيوية (وهي تجربة إغترابية بامتياز) حتّى تحوّل كلّه إلى روح. روح هشّة عميقة في هشاشتها إلى درجة أن هتافه الذي سبق إنقطاع حبل الصلة بالعالم في عبارة «آه يا قلب!» كان بمثابة الإستجابة لنداء القدر الذي أراد به خيراً عندما أجاره من

Twitter: @alqareah

الإستمرار في المهزلة التي عَيَّرَ بها سينيكا أمثالنا عندما صاح: «ألا تملّ أيُّها الإنسان من أن تكرّر الشيء نفسه كل يوم؟». وجيلاني كان شجاعاً في استيعاب الدرس الكامن في وصية الحكيم، وشجاعاً أكثر بتلبية نداء القدر.

واستشهاد الزواوي لم يختلف عن شهادة جيلاني. وهو شهيدٌ مرّتين لا مرّة واحدة: شهيدٌ مرّة لأنّه سخّر حياته لإصلاح شأن من شئون أبناء جلدته، أي انه صاحب رسالة إنسانية، وشهيد مرة أخرى لأنه هوى أرضاً أثناء تأديته لرسالته تلك.

هوى الزواوي وهو منكبّ يختطّ في اللوحة موقفاً إحترفه منذ الطفولة، ونفث فيه روحه كلّها ولا أقول نفث فيه من روحه، لأنه لم يكن ليهوي لو لم يستنزف روحه كلّها ليلفظ مع هذه الروح أنفاس النزع الأخير. فيا لها من ميتةٍ باسلةٍ تلك الميتة التي يهوي فيها الجسد الفاني وحده، ولكن الروح تتحرّر من حبوس قمقم محبوك من عجز الأيام وهمّ الدنيا.

تحرّر جيلاني ومن بعده الزواوي كما تحرّر خلاّن لي كُثُر ليكفّوا عن كونهم فانين، في حين تركوا لي ولكلّ مَن أحبّهم عزلةً مميتة و.. هويّة أخرى هي حكرٌ على الأحياء لا الأموات: **هويّة الفناء!**

Twitter: @alqareah

16

بِمَ تستطيع ذاكرة هي سفير الروح إلى العالم أن تسعفني في حضرة شمالٍ تأبى فيه الطبيعة إلا أن تعقد حلفاً مزبوراً بالقسوة مع واقع إجتماعي تهيمن عليه روح نظام سياسي شمولي؟

ها هي البيئة تستقبلني بسيماء مقنّعة بالكفن القديم الذي عرفته في موسكو لسنواتٍ طويلة واستزرع في الروح نصلاً لينزف دماً مريباً ومميتاً صار للعدوس تعويذة أسفار وهو الكآبة. فمن المدهش أن يكتشف مريد السُّرَى أن يكون غياب الشمس سبباً لغياب المعنى. غياب المعنى الناتج عن الإحساس التراجيدي بباطل الأباطيل. هذا الكوكب الذي لم يعره يوماً اهتماماً، بل لم يعترف له بالوجود إلاّ كقصاص خرج أسلافه الأوائل لمنازلته في الغزوة العبثية التي يروي هيرودوت سيرتها منذ ألوف الأعوام، كما نازلوا بعدها عدوّهم الأول الريح. والآن الشمس لم تعد كوكباً، ولكنها حلم. الآن الشمس تستعير هوية أعظم شأناً لتنقلب معبوداً كما كانت يوماً في ناموس الأوائل الذين سبقوا الأوائل. الآن تستعيد الشمس هويّتها كـ«رغ» أو في صيغتها المعدّلة كـ«رو»، أو «هرو» إله الآلهة في ديانة قسم الدياسبورا الصحراوية التي إستقرّت على ضفاف نهر النيل. تحديداً

Twitter: @alqareah

في ذلك الزمن الذي تمادى فيه ربّ الضياء في إستنزال سيوف القصاص على وطن التكوين الواقع إلى الغرب من عدن، وليس إلى شرق من عدن كما يرد في سفر التكوين سهواً أو ربّما عمداً! فالشمس التي تبدع فردوساً بجدرانٍ من عدم كالصحراء، فإن غيابها، أو بالأصحّ، إحتجابها هو ما يبدع الناووس بجدرانٍ من صلد. فالجليد هو ترجمة لمفهومٍ بدئيّ بذره إنسان التكوين في كلمة «قرس» الدالّة في اللسانين الليبي القديم (الذي مازال متداولاً في لغة الطوارق) وكذلك في اللسان المصري القديم على: الناووس. من كلمة «قرس» إستعارت العربية كلمة «قارص» كصفة طبيعية للجليد. وفي الليبية القديمة نجد كلمة «قرت» الدالّة على الموت ماهي إلاّ إستعارة من «قرس» لتبادلٍ شرعيٍّ شائع بين حرفَي التاء والسين في كل اللغات بسبب إشتراكها في مخرج الصوت. وهو ما يعني أن الجليد شهادة على الحضور في **الناووس**، وبالتالي الحضور في اللاّحضور، أي فيما يروقنا أن نسمّيه بلغة اليوم **موتاً**. وكي أقاوم الإكتئاب، وأبدّد جليد ذلك العام، جلست أمنّي نفسي بدفء العائلة. إنتظرت العائلة المقرّر وصولها بالقطار القادم من ما وراء الستار الحديدي الواقع بعقلية ذلك الزمان في ما وراء الواقع، أو بالأصحّ، الواقع في واقعٍ يقع ما وراء الطبيعة، وليس مجرّد الواقع. جلست أمنّي نفسي بحميمية الحضور في العائلة، مهدهداً أملاً في نيل ذلك الدفء الذي لم تأتِ به العائلة يوماً. إنه فردوس آخر ككلّ فردوس، برغم أنه موعودٌ أيضاً مثله مثل كل فردوس. فالإغتراب قصاصٌ أقوى

Twitter: @alqareah

من أن يسمح لصاحبه بأن يحيا لاهياً عملاً بوصية الحكيم. والمرأة كربّة في صفقة العائلة قد تصلح عنواناً للهو في صيغته المبتذلة، ولكن هيهات أن تصلح لهذه الرسالة بالرؤيا التي أرادها أفلاطون لسببٍ بسيطٍ وهو أنها قنبلة موقوتة في عبّ كلّ صاحب رسالة تخفي في جوفها قنبلة أخرى كأنها دمية «متروشكا» الروسية المتعدّدة القيعان!

فهل إنتظار الدفء العائلي الذي سيذيب جليد الطبيعة وجليد الروح هو رهان الخلاص حقّاً؟

ذلك كان الخطيئة التي لم يستطع العدوس أن يغتفرها لنفسه، سيّما في تلك المرحلة وفي ذلك الزمن. فالعائلة يمكن أن تكون خلاصاً لمن قرّر أن يلقي عصا الترحال ليسكن إلى طبيعةٍ هي أمّ مجسّدةً في إنسانةٍ هي خليفة الطبيعة الأمّ، لا لعدوسٍ يحترف العَدْو حاملاً بيته على ظهره. وإذا كان له أن ينسى فلن ينسى المنعطف يوم قال لنفسه: «لماذا لا أفعل ما يفعله الكل؟» ناسياً أن طينته لا تنتمي لطينة الكلّ، ومنطقه لا علاقة له بمنطق الكلّ، ودينه ليس دين الكلّ، لأن الفرار من وتد الجذور هو الجرثومة التي دسّتها الصحراء في ديدَنه قبل أن تكون هذه الدسيسة سجيّةً إستودعها الأسلاف في صلبه. وهو ما يعني أن القِران كان خيانةً للعهد، وعليه أن يدفع ثمن هذه الخيانة تالياً. وهكذا تحوّلت خرافة الدفء العائلي المنشود سدّاً من صلد في سبيل مريد السُّرَى، تماماً كما كانت هذه العائلة وهقاً كتم أنفاس «أوخيّد» بطل «التبر» لأن تجربة الأخير الدرامية لم تكن سوى ترجمة لتجربة مؤلّف «التبر» الدموية.

Twitter: @alqareah

فالإرتباط بسليلة من أوطان الأغراب صفقة يلعب فيها الرجل دور فاوست، في حين تلعب المرأة فيها دور ميفستوفل. أي أنها صفقة خاسرة بكل المقاييس، لأن المرأة كخليفة لأمّنا الطبيعة وتدٌ يشدّ إلى الأرض ويلعب دور الجذور. ولا تكتفي بهذا، ولكنها تتربّص لتختلس من الرجل الروح بعد أن إختلست من صلبه الولد أيضاً. ولو لم تكن كذلك لما حذّرت الحكمة (سفر الأمثال) من الإستسلام للمرأة الأجنبية. فإبن سليلة الأغراب إبن أمّه لا إبن أبيه، أي أنه عملٌ بهتانٌ لأنه ذرّية مفقودة. هل قلت مفقودة؟ الواقع أنه ذرّية معادية أيضاً، لأنه سوف لن يدين بدين أبيه في المفهوم الحرفي للدين، ولكنه سوف يدين بدين أمّه بالمفهوم المجازي أيضاً، أي بالمسلك الأخلاقي المجبول بطبع روح الأمومة كطبيعة. فإذا تحرّرنا من الأوهام وتأمّلنا البنوّة في بعدها الوجودي فسوف نكتشف أنها نتاج التماهي بين نقيضين: نتاج نقيضين غايته إنتاج شفرة تؤكّد وحدتهما، لا لتحقّق خلود هذين القطبين كما نعزّي أنفسنا، ولكن لتنفيهما كليهما! ولهذا لم يخطيء عباقرة الطبيعة البشرية منذ فجر الإبداع عندما جعلوا من هذه الحقيقة الغيبيّة موضوعاً لأعظم الأعمال الأدبية قاطبة (أوديب سوفوكليس، هاملت شكسبير، كارامازوف دوستويفسكي) من خلال جريمة قتل الأب، وقتل الأب بالذات لا الأمّ! ليس هذا وحسب، ولكن المخوّل بقتل الأب هو الإبن، لا الإبنة. أي أنه السليل الذي راهن عليه الأب لكي يكون له خليفةً في الأرض. والمبرّر لن يكون الإستيلاء على قطيع الإناث كما يذهب

Twitter: @alqareah

فرويد، ولكن المبرّر هو الإستيلاء على الخلافة. الإستيلاء على خلافةٍ لن تعني هنا سوى الإستيلاء على عرش الوجود. فالإبن لن يحقّق لنفسه وجوداً فعليّاً بدون نفي الأب من خارطة هذا الوجود. والكتب السماوية (القرآن الكريم) تعبّر بالنصّ عن هذه الدراما عندما تتحدّث عن روح العداوة المبيّتة في الأبناء ضدّ الآباء. ولهذا يتّخذ ناموس الصحراء تدبيراً لإتّقاء هذا الشرّ بتنصيب إبن الأخت خليفةً للأب ليس في الملك وحسب، ولكن في النسب أيضاً. إنه تجريدٌ لا يخلو من ذكاء لصلاحية يعتقد الأبناء أنها حقٌّ مكتسب من شأنه إبطال مفعول المكيدة الأبدية المبيّتة.

وإذا كان نيتشة قد توّج المرأة كلصّ همّه إختلاس الذرّية من الرجل، فإن فاياننغر قد نبّه في شأن نيّة المرأة الكامنة كلصّة همّها إختلاس الروح، أو ما يسمّيه إستعادة الروح الضائعة من الرجل. هذا يعني أنه إذا كان من حقّ المرأة إغتصاب الولد لأنها رسول الطبيعة المخوّل بالحفاظ على النوع حسب، فليس من حقّنا أن نغفر لهذا المخلوق الحقّ في الإستيلاء على الروح حتّى لو كان هذا العمل نوع من إستعادة للروح. فهل يعني هذا أن المرأة جسدٌ بلا روح؟ هوس المرأة بالفنون وبكلّ ما له صلة بعمل الروح هو برهانٌ آخر على صواب هذا التأويل. والبرهان الآخر هو عجز المرأة التقليدي عن إنجازٍ حقيقي (عبقري) في مجال الروح. والبرهان الأخير؟ البرهان الأخير هو كلمة «يانينا» في شأن قِرانٍ إستمرّ منذ عام 1972 المترجمة في اعترافها بغياب الأمل في إنسانٍ مثلي لأنه يتّخذ من دونها معبودة إسمها **الحريّة**!

Twitter: @alqareah

وما أدهشني ليس أن تكون على حقّ، ولكن في حدسها كإمرأة تأبى أن تشرك بنفسها أحداً كأنها في ذلك الربوبية ذاتها. صرّحت بهذا الإعتراف في وقتٍ لم أكتشف في نفسي هذا الهوس بالمعبودة التي أسمتها حرية بوضوحٍ بعدٍ، بسبب كونه في قيعان الباطن. وهو مايعني أن الرهان كان على هذه المعبودة. على إنتزاع هذه المعبودة من خفايا الوجدان. وهو ما ظلّ العدوس يترجمه في المسلك أكثر مما ترجمه في اللسان. وهو ما يعني أيضاً أن الضرّة الحقيقيّة هو ما يستحيل أن يُخفى على إمرأة. هذا حفّزني أن أواجه نفسي بمراجعة كشفت لي أنّ حمّى الفِرار التي تشتعل في بدني هي التوق الجنوني إلى الحرية. والإحساس باللذّة في الإنتحار في العاصفة الثلجية بحي «تيكستيلشيكي» بموسكو عام 1975 ما هو إلاّ إستجابة لهذا النداء في صيغته القصوى. والمفاجأة الأخرى هي إكتشاف حقيقة أعظم شأناً وهي إستحالة الجمع بين المرأة والحرية تحت سقفٍ واحد. فهل ما تحتاج إليه المرأة حقّاً هو العبد؟ بلى! الرجل الذي تعترف به المرأة حميماً مشروط بهوية العبد. ما الذي يمكن أن تعنيه هذه المعادلة؟

المعادلة تعني أن القرين الذي لا يتنازل عن الحرية لا يصلح للمرأة حميماً. ما معنى الحرية هنا؟ الحرية هنا تعني غنيمة الروح. بل الحرية هي الروح مجسّدةً. وعلى شخص عدوس السرى أن يقدّم الروح قرباناً على مذبح ما تسمّيه المرأة حبّاً. فالبليّة أن الإنسان المهووس بمعشوقة كالحرية لا يستطيع أن يستوف أهم شرط في أي علاقة عاطفية حقيقية وهو: التماهي. لماذا؟ لأن الحرية ترفض

Twitter: @alqareah

الإزدواج، وتستنكر التماهي. لأنها بالأساس: عزلة! والعزلة نقيض تلك الملكيّة التي تسكن مبدأ التماهي. ولهذا فالعزلة دين مقابل العلاقة العاطفية كملكية!

الإحتفاظ بقلب المرأة مشروطٌ بالتنازل عن الحرية، وبالتالي، إضاعة الروح؛ لأن أي روح تستطيع أن تتباهى بهذا اللقب الجليل بغياب الحرية التي هي جوهر الروح؟

ولو تأمّلنا مليّاً لاكتشفنا جذور المسألة بعيداً. فنحن لن نغالي إذا قلنا أن المرأة كلّها عاطفة. أو إذا قلنا أن المرأة كلها غريزة. أو إذا قلنا أن المرأة كلّها حسّ؛ لأن هذا الثالوث ما هو إلاّ أقنعة متعدّدة لوجهٍ واحد تستعير منه المرأة حُجَجها وهو: الطبيعة. فالمرأة يمكن أن تكون كاهنة، ولكن المرأة لم تكن يوماً نبيّة بشهادة التاريخ. لماذا؟ لأن النبوّة هبة الحرية، في حين كانت الكهانة منذ الأزل هبة الطبيعة. ففي مرحلة هيمنة الديانة الطبيعية كما في العالم القديم لم تكن المرأة سادنة المعبد وحسب، ولكنها كانت رسول ربّ المعبد. فهي التي تتمخّض وتتخبّط وتلفظ الزبَد قبل أن تلفظ مع هذا الزبد النبوءة تماماً كما تلفظ الجنين من بطنها كما هو الحال في معبد دلفى باليونان القديمة. والبركان الذي كان يعصف بالجسد هنا لتوليد النبوءة رديف للبركان الذي يعصف بجسد كل إمرأة تعاني مخاضاً يسبق ميلاد الجنين. فالنبوءة هنا بمثابة جنين أيضاً. جنين بالمعنى الحرفي لا الإستعاري. أي أنه ثمرة الحسّ، وليس الروح. أي أن الكاهنة هنا تؤدي وظيفة أمومية في استدرار النبوءة، كما تستدرّ حليب ثدييها

Twitter: @alqareah

لإطعام رضيعها. أي أن رسالة المرأة مزدوجة. هي أمّ العالم أنجبته من بطنها، وعلى عاتقها أيضاً يقع وزر إطعام الجنين بكلمة الألوهة. وهي ألوهة أرضية (طبيعية) وليست سماوية، لأن المبدأ السماوي للربوبية لم يولد إلاّ بميلاد نبوّة الوحي في مرحلة تاريخية أخرى هيمن فيها العصر الأبوي. ولهذا لم يشهد التاريخ وجود نبيّة وحي اللهمّ إلاّ إذا كانت نبية كاذبة كما هو الحال مع الدعيّة سجاح!

أمّا إذا عنّ لنا أن نقول أن المرأة كلّها عاطفة فليس لنا إلاّ أن نحتكم إلى ساحة التاريخ مرة أخرى والذي سيشهد بالدليل الكامن في غياب الموهبة في أيّ عقلية أنثوية. فهي يمكن أن تكون تحفة وجدانيّة في فنّ الرقص (الباليه)، أو بطلة في سيرة حبّ، ولكن لم يحدث أن كانت فيلسوفة!

هذه النتيجة تقودنا إلى موضوعة المرأة كـ حسّ. وهو أمر طبيعي بالنسبة لإنسان ينتمي إلى الطبيعة الأمّ، بل ويخلفها في الهيمنة على الأرض. فإذا كانت الوصية الهندية القديمة تؤكّد قدرة المرأة على أن تلتهم الطعوم ثماني أضعاف ما يستطيع أن يلتهمه الرجل، فإن الوصية اليونانية القديمة فتقول أن المرأة تتلذّذ جنسياً تسع أضعاف بالمقارنة مع الرجل كما برهنت تلك التجربة الميثامورفوزية التي تحوّل فيها الرجل إمرأةً، ثم عاد فانقلب رجلاً من جديد. هذه الثقافة لابدّ أن تنجب تلك العقلية التي ترى المرأة كلّها شرّ (كما عبّر بالآّد)، ولا تكون خيراً إلاّ مرتين: مرة في مخدع العشق، ومرة على فراش الموت!

Twitter: @alqareah

فإذا كانت نزعة الثقافة لا تعترف بالطبيعة إلاّ كشرّ، فمن حقّ الطبيعة أن ترفض الإعتراف بثقافة رأس مالها الحرية. ولهذا فإن موقف المرأة من هذه الحرية كهبة روح هو موقف دفاع عن الطبيعة، وبالتالي عن النفس! ولِمَ لا إذا كانت الطبيعة هي مدرسة المرأة ومعلمها الأول، وليس الكتب أو التجارب، كما هو الحال مع قرينها الرجل؟

Twitter: @alqareah

17

في جليد ذلك العام لم يبقَ لي إلاّ أن أحيا البيات الشتوي. ولا معين لحياة البيات الشتوي سوى الحلم. حلمت بسنوات الحياة في أرباع الإتحاد السوفييتي فإذا بما حسبناه جحيماً في تلك الأعوام ينقلب من وجهة نظر اليوم نعيماً مفقوداً. حقاً أن الفردوس لا يكون فردوساً ما لم يكن مفقوداً. السرّ في الفقد دوماً وليس في الهوية. ففي أصياف كل عام كانت السلطات السوفييتية تدلّلنا بتهيئة مصياف القوقاز على البحر الأسود لتكون لنا أرجوحة إصطياف مجانية. وكان جلّنا يتمنّع وينتحل الأعذار للفرار من جنان نُساق لها بالسلاسل. يفضّل البعض قضاء العطل الصيفية في أحضان «القرية الكبرى» كما يسمّي الخبثاء العاصمة موسكو. كما يفضّل بعض من أوتي القدرة على الفرار لزيارة الأوطان. وقد سلّمتُ مرة السلطات أمري فوجدت نفسي أميراً حقيقياً. وهي مراسم تبدأ حال الوصول إلى مطار «فنوكوفو» حيث إستقبلتني المضيفة لتقودني إلى جناح كبار الزوّار. من هناك أقبلت مضيفة أخرى لتقلّني في ركوبة خاصّة إلى الطائرة لأكون أول الركّاب. في مطار «سوتشي» بالقوقاز كانت في إستقبالي حسناء أخرى لتقلّني في جوف ركوبة خاصّة إلى ناحية بالمطار حيث

Twitter: @alqareah

كانت طائرة مروحية بانتظاري. مروحية خاصّة أيضاً لأنها أقلّتني وحيداً فوق سواحل البحر الأسود المحصّنة من جهة بحار القوقاز المكسوّة بغابات سخيّة، وشريط شواطيء تلثم أعتابها مياه البحر الأسود من الجانب الآخر وبعد ساعة من طيران كان نزهةً حقيقيةً في رحاب الطبيعة هبطت المروحية بساحة في قلب الأدغال. هناك وجدت بانتظاري سيارة بسائقها لأجد نفسي بعد نصف ساعة في منتزه هو فردوسي المنتظر. هناك قضيت ثلاثة أسابيع في أجواء كأنها الحلم. إقامة مجّانية في فندق أنيق على الشاطيء مع أربع وجبات يومية مجانية، وحفلات ترفيهية ليلية، وألعاب رياضية، وصالات رقص، و.. سواحل رملية تظلّلها شموس القوقاز الأبدية، مغسولةً بمياه البحر الأسود الدافئة. فماذا يمكن أن يكون عليه الفردوس فوق هذا كي يكتمل ليستعير هويّته الإلهية؟ هل هو غياب الحسناء؟ كلاّ بالطبع. فالحسان في المنتزه بعدد حبّات رمل الساحل، وبل لا يحجب رمل الساحل إلاّ أجساد الحسان العارية. الفرق أن حضور الحسناء في فردوس الربّ كان السبب في الخروج من الفردوس، في حين صار حضور الحسناء في فردوس القوقاز الأرضي السبب في الدخول إلى الفردوس!

لقد كانت روسيا السوفييتية فردوس الغرباء حقاً، برغم عدم إعتراف الغرباء بهذا الفردوس إلاّ في اليوم الذي فقدوا فيه هذا الفردوس، كأنّهم يريدون أن يقدّموا الدليل على أن الفردوس رهين الفقد، ولا إعتراف بفردوس بحضور الفردوس. فمن لهم حضورٌ

Twitter: @alqareah

بداخل هذا الفردوس يتذمّرون ولا يملّون الشكوى، ويمنّون أنفسهم بالخروج منه فإذا وجدوا أنفسهم خارجه، تباكوا وتشاكوا وتفجّعوا حنيناً لهذا الفردوس. وسوف يوافقني اليوم كلّ من قدّر له أن يحيا تلك المرحلة داخل الإمبراطورية السوفييتية كيف عمل السوفييت كل ما بالوسع، وأكثر ممّا بالوسع، كي يسعدونا، وكي يعزّونا في اغترابنا عن أوطاننا. بل لقد عملوا فوق ما يطيقون، وأكثر ممّا عملوا لأنفسهم، كي يسعدونا، ولكن المأساة أنهم فعلوا ما فعلوا كي يحسنوا للإنسان الذي لم يعترف يوماً بإحسان، بل الإنسان الذي لم يعترف بغير نكران الإحسان إحساناً!

ولهذا لم يبقَ لنا إلاّ أن نعترف اليوم بغياب الإتحاد السوفييتي من الوجود (كما اعترف أعداء هذا الإتحاد أنفسهم) بأن غيابه كان غياباً للحلم. كان غياباً للجانب الرومانسي في الوجود. كان فقداناً للقب الآخر في وجودٍ رأسماله الجدل. بل هو ضياعٌ لحجّة الروح في وجود العالم كجسد، مهما اختلفنا بشأن صواب هذه الحجّة، أو عدم صوابها.

غياب الإتحاد السوفييتي غيابٌ لفردوس حتى لو كان هذا الفردوس **ظلاً** لفردوس، وليس هو الفردوس؛ لأن انهياره كان انهياراً للحلم بالفردوس الذي لن يعني هنا سوى **موت الأمل في نيل الفردوس!**

كلّ ذنب الإتحاد السوفييتي أنه شاخ. شاخ ليقدّم الدليل على أن الفردوس أيضاً ليس معصوماً من الشيخوخة. من حقّ الفردوس أن يشيخ، لأن العدم وحده لا يشيخ!

Twitter: @alqareah

18

في مايو 1979 ذابت آخر قطعة جليد لأقسى شتاء لنشهد ربيعاً كان أمل بياتنا ذلك العام. ولكن الأمل كثيراً ما يفاجئنا بخيبة الأمل. وها هو يفجعني بنبأ غياب أعزّ الأنام قاطبة: **الأب!**

وسرّ الفجيعة ليس في أن نفقد من أحببنا، ولكن في أن نفقدهم فجأةً دون سابق إنذار. أي دون مرض عضال، أو علّة مزمنة، أو شيخوخة عتيّة، وكل ما من شأنه أن يهوّن علينا المصاب بإستلام شهادة الموت على أقساط. وهو إحساس لا يبرهن على أنانيّتنا فقط، ولكنه يخفي إحساسنا بالأمان: أمان أناس يؤمنون بأنهم سوف يحيون أبداً، وإذا كانوا سيحيون أبداً فأحبابهم خالدون فيها أبداً أيضاً. ولكن الموت يأبى إلاّ أن يلقّننا درساً لأنه وحده فارس الغدر الذي يضرب ضربته مستغلاّ غفلتنا عن أحقّ حقيقة في هذا الوجود وهي: حضور الموت. وأسوأ ما في الأمر أن هذا الإله ليس معنيّاً بما نطلق عليه في منطقنا الدنيوي المبتذل: **الوقت المناسب**. إنه يترصّدنا كعدوّ ليقول كلمته فينا في اللحظة التي لا يُكتب لنا التكهّن بها أو حسابها. فالأب لم يجتز عتبة الثالثة والسبعين حتى ذلك اليوم. وهو عمر ليس عتيّاً إذا قورن بأعمار أهل الصحراء الليبية الذين قال هيرودوت أنهم لا

Twitter: @alqareah

يموتون بالأمراض، ولكن بالشيخوخة وحدها. والدليل عمّ الأبّ فنايت زعيم آزجر الذي غاب بعد أن تجاوز المائة، وبرهان آ خر هو صديقه خليفة حاكم الذي عاش بعده إلى أن بلغ من الأعوام السبعة بعد المائة. كما لم يعانِ أمراضاً جدّية برغم بنيته الهزيلة التي حوّلته خيالاً يدبّ على قدمين بسبب نبذه للطعوم وصومه الدهر حتى صار مضرب مثل. ولكن يجب أن نعترف بأن إستنكارنا لميتة الفجاءة تجديفٌ لا في حقّ المشيئة الإلهية وحدها، ولكنه خطيئة في حقّ الأحبّة أنفسهم. فالأب نال الميتة التي إستحقّها عن جدارة، وليس هذا وحسب، ولكنها الميتة التي أجزم أنه تمنّاها. فأن نموت ميتة جميلة إنّما هو فضيلة مكمّلة لحياة جميلة. فهو عاش مهاجراً أبد الدهر. لا يسكن لمكان إلاّ وشدّ الرحال لمكانٍ آخر. وهو هوس بالحرية بالطبع قبل أن يكون مجرّد توق لارتياد الآفاق. وقد لعب هذا الهوس دوراً مركزياً في علاقته الملتبسة بالأمّ التي تفرض طبيعتها كامرأة حميمة الصلة بالطبيعة وجوب الركون إلى المكان. وأن يحيا الإنسان راحلاً يعني أن يحيا زاهداً أيضاً. وأن يحيا راحلاً يعني أن يحيا مغترباً في الحدود القصوى أيضاً. وأن يحيا مغترباً يعني أن يحيا للدنيا مشاهداً حتّى أنّه لا ينزل حضيضاً إلاّ عابراً كأنه يلبّي نداء فيتاغورس عن الدنيا كساحة السوق التي يرتادها البعض ليتباروا، ويلجأ إليها البعض الآخر لكي يتاجروا، ويزورها الفريق الثالث لكي يشاهد وحسب، وهم (المشاهدون) أسعد الفئات الثلاث. حياته كلّها كانت إحتفاءً بالقيم التي صارت اليوم طيّ الفناء. قِيَم ليس أعظمها

Twitter: @alqareah

حبّ الوطن الصحراوي الذي حمل السلاح في وجه الإيطاليين عندما جاء الغزاة من الشمال دفاعاً عنه، ثمّ حمله مرة أخرى ضدّ الفرنسيين عندما ساهم بتهريب الأسلحة لثوّار نوميديا زمن حرب التحرير، ولكن أعظمها التحلّي بالعدل الذي أُشتُهر به، وبشجاعة هي خصلة طبيعية للروح الزهدية. هذا إلى جانب الجود. جود الإنسان الذي يهب ما لا غنى له عنه. وكان يطيب لرفيقة رحلته أن تتغنّى بهذا الجود حتّى بعد أن إفترقا بزمن طويل فتروي كيف كان يحرّضها على أن تعطي الناس كلّ شيء سواء من ممتلكات البيت أو من ماشية المرعى بإستثناء السلاح والسرج!

إلى جانب كل هذا كان نموذج الإنسان البسيط الذي لا يقنع بغير العلاقة مع البسطاء، فبادله هؤلاء حبّاً بحبّ، لأن الحب هو ما لا يُنال بغير الحبّ. كان الرجل طيفاً برغم أنه أسطورة زمانه التي يضرب بها المثل في الشجاعة حتى أن أنداده يعترفون بأنهم لا يخلدون للنوم إذا حلّ في نجع إلاّ إذا اطمأنّوا أنه نام!

هذا الجرم الهزيل يبدو طيفاً لأنه كله روح. إنه برهان على وصيّة هيراقليط عن حضور الألوهة ذاتها في جرم اليبوسة. فهل بوسع روح الله إذا تنازلت وسكنت مريد الله أن تغفل عن ميعاد لقاء الله كما غفلنا ونغفل نحن؟

كلاّ بالطبع. ما كان لي صدمة فجاءة كان بالنسبة للأب العيد الذي قرأ له الحساب. فقد دلّلت العبارة التي قالها لي يوم ودّعني آخر مرة بطرابلس أنه كان عالماً علم اليقين بما ينتظره. كان عالماً بروح نبوّة

Twitter: @alqareah

هي سجيّة أخيار إصطفتهم المشيئة للصفاء. ولهذا يروقني أن أردّد دوماً: «**إذا شئت أن تتنبّأ فاصفُ!**».

قال لي يومها ما لم يقله لي يوماً وهو الذي لا يروقه القول أصلاً لا لإستكبارٍ هو طبيعة كل سليل صحراء، ولكن زهداً في القول ككل إنسان وحيد ويتيم في هذه الدنيا: «إذا جمعتنا الأقدار مرّةً أخرى فتلك نعمةٌ من الأقدار، إذا لم نجتمع فليس لنا إلاّ أن نسلّم بمشيئة الأقدار!». لقد كان مؤمناً إيمان الإنسان الوحيد، المعتزل، الزاهد، الذي نصّبه هيغل علامة الإنسان الدَّيِّن، لا إنسان الشعائر. تعجّبتُ للعبارة في ذلك اليوم، وما لم يخطر لي على بال أنها كلمة وداع. دليلٌ آخر على علمه بإقتراب يوم المغادرة. فقد قام بزيارة شقيقي الأكبر فنايت المقيم بطرابلس مع عائلته يوم علم بإنتدابه للعمل بمالطا. قضى في بيته ليلتين إثنتين، ولكنّه قرّر أن يغادر فجأة عندما علم بقرب موعد سفره بصحبة العائلة كتدبيرٍ إستباقيّ عرفناه فيه طبيعة كامنة دائماً كي يجتنب البقاء في مكان سيستحيل في عرفه أطلالاً ما أن يهجره الأحبّة. وقد رافقه إلى محطّة الحافلة شقيقي الأصغر آلة الذي روى لي تالياً كيف نسي أن يعطيه حاجةً بعد ان ودّعه فعاد إليه في جوف الحافلة ليجده بعينين مبلّلتَين. وهو ما لم يسمح به لنفسه أبداً لولا يقينه بأنّه يشيّع أبناءه إلى الأبد قبل أن يشيّعه الأبناء إلى مثواه الأخير. جاء ليلقي عليهم نظرة أخيرة وهو الذي لم يمكّنه توقه الأبدي إلى الأسفار من رؤيتهم والإستمتاع بالحضور بينهم مستجيباً لنداء الأبوّة التي لا حظّ لها في الدنيا سوى العيش بين

Twitter: @alqareah

الأبناء، ولكنّه خلافاً لكلّ الآباء ضحّى حتّى بهذه القشّة من السعادة يوم قدّمها قرباناً على مذبح أنبل مّا في الوجود: الحرية! لأن الحضور في الحرية وحده حضورٌ في الحقيقة. وهو لم يخُن هذه العقيدة لأن الأبناء إذا كانوا عنوان سعادة دنيا، فإن الله عنوان سعادة الأبديّة.

أليست سعادة قاسية تلك التي نستبدل فيها سعادة وجودنا الحرفي بسعادة وجودنا الرمزي؟

أجل. هي سعادة أقسى من قاسية، ولكن العزاء أنها سعادة الحكيم كما يصفها سينيكا.

لقد كان لي الأب إماماً في العدو الأقدس، ومثالاً في سُرَى ليل هذه الدنيا. وأعترف أنّي مدينٌ له بإحتراف الفرار الإلهيّ. كلّ ما هنالك أنه فعل ذلك في حدود صحراءٍ كبرى تختزل مساحة العالم تلبيةً لوصايا الأسلاف الذين حرّموا عبور المياه منذ الأزل، فظلّ أسلافهم سجناء هذه القارّة الإلهية العارية، في حين شققتُ عصا الطاعة على وصية التحريم بإجتياز تخوم المياه. ويبدو لهذا السبب حُرمت الحضور في حضرة الأب. أو فلنقل أنّي أكثر من حُرم من حميمية الحضور في محراب الأب من بين أبنائه، ولكن إغترابي هو ما يشفع لي عقوقي. لأن هذا الإغتراب إنّما هو إستعارة من إغترابه هو، وقاسمنا المشترك الأعظم هو لقاءٌ روحي بيننا كمريدين مكبّلَين بأصفاد السُّرى. لهذا السبب كان آخر أيامه يحدّث أقرانه من أشياخ القبيلة قائلاً: «إبراهيم هو أفضل أبنائي!»، كما روى لي أخي الأكبر

Twitter: @alqareah

من جهة الأب بكّدة بعد وفاته بأعوام. وها هو يقبل ليلقي علينا النظرة الأخيرة بدل أن نذهب نحن لنلقي عليه النظرة الأخيرة. أفلا تبدو هذه المفارقة إمتيازاً إصطفت به العناية الإلهية أخيارها من دون الناس جميعاً؟ الحدس بقرب الأجل ليس الإصطفاء الوحيد الذي تكافيء به الأقدار ملل السُّرَى، ولكن هناك الجائزة الأعظم شأناً من الإحساس بدنوّ الأجل. ففي حمّى تشبّثنا بالحياة الدنيا يستهوينا إمتداد العمر فننسى ما ينتظرنا من أهوال على بوّابة الشيخوخة. ولكن أهل الفرار وحدهم لا تنطلي عليهم الخدعة، لأن السؤال الجدير بأن نهدهده في قلوبنا ولا يغيب لنا عن بال هو: «هل الأفضل أن نحيا عمراً مديداً ينتظرنا فيه بطش جلاّد إسمه الشيخوخة، أم الأفضل أن نحيا عمراً أقصر لأنه مشروطٌ بإستبعاد شبح شيخوخة تسحل مريديها بفنون الأمراض، وصنوف الإذلال؟». الشجعان يفضّلون الخيار الأول بالطبع. وأن نقول الشجعان فذلك يعني أنهم الأحرار أيضاً. وأن نقول الأحرار فذلك يعني أنهم الحكماء أيضاً. فما جدوى أن نمدّد الأجل إذا كنّا سنقع أسرى مقابل هذه الصفقة؟ فالموت بالنسبة للروح الأبيّة هو ذلّ العجز الذي سنحتاج فيه لعون الأغيار، وليس المِيْتة الطبيعية. بل كثيراً ما تكون الميتة الطبيعية رحمةً، بل هي الحياة، عندما تضع حدّاً لهذا الذلّ. وهي حياة حقّاً لسببٍ وجيه وهو طبيعتها كحرية. ولو تساءلنا ماذا سيضيف لنا طول العمر لاكتشفنا أنه لا يضيف بقدر ما يخسف، يختطف، ويختلس. إنه يستعيد سرّاً ما وهب بالأمس علناً. القوّة تتضعضع، والذاكرة تضعف، والروح

Twitter: @alqareah

تتوثّب للفرار من القمقم. فما جدوى أن نعود على الأعقاب، وماذا ينتظرنا في المستقبل المأمول سوى أرذل أجناس العبودية؟

لقد واجه الأوائل هذه الدراما في الأزمنة التي يتحدّث عنها هيرودوت فيقول أنهم لا يهلكون إلاّ بالشيخوخة، فابتكروا ذلك الناموس الذي يبيح التخلّي عمّن تخلّى عنهم الموت في أخدود مشفوع بكلمة الوداع التقليدية الموجّهة لكلّ من إبتلي بالمرض الوحيد الذي لا شفاء منه إلاّ بالموت كالشيخوخة: «لستَ مريضاً حتى تبرأ، ولست صغيراً حتى تكبر!»، فيتقبّل الشيخ المرثيّة بشجاعة مَنْ ملّ عرقلة مسيرة القبيلة المرتحلة أبداً، وسئم السؤال الذي غدا بفعل التكرار تعويذة كل لسان: «كيف أصبح اليوم الشيخ؟».

لقد أقبل الأب علينا ليعزّينا في نفسه، لأنه كان شجاعاً بما يكفي، وخيّراً بما يكفي، ومصطفىً من الأقدار بما يكفي، كي يكون عارفاً بأجله، وهو ما يعني أنه كان مالكاً لقدره، ربّما مكافأةً له على إحسانه لأشقياء الصحراء كلّها، سيّما عجائز واحة غات اللائي كان يُلقي لهنّ بالمؤن من وراء الأبواب زمن الشجاعة، فيبتهلن إلى السماء كي تكفي المحسن المجهول شرّ الحاجة؛ فتستجيب السماء لدعاء كاهنات الصحراء كما إستجابت يوماً لدعاء كاهنة معبد اليونان التي حكّمت ربّ المعبد في أن يجود على ولدَيها البارَّين بأعظم هبة في ناموسه، لأنها تجهل ما هو أنفس شيء في عرف الربوبية، فوجدتهما عندما إستيقظت في الصباح في فراشهما ميّتَيْن! وهو ما يعني أننا إذا كنّا نرى في عرفنا الحياة الدنيا خيراً، فإن الألوهة ترى

Twitter: @alqareah

النقيض خيراً، لأن لا حرية حقيقية إلاّ بالموت. وقد عجّلت بخروج الأب لتحسن إليه مرّتين لا مرة واحدة: مرة لأنها أجارته من التنقّل بين أيدي الخلق عند الإبتلاء بالمرض، ومرّة ثانية لأنه تحرّر من المهزلة بأقلّ الخسائر، والضمير النقيّ هو الشهادة له على ذلك.

الإحساس بدنوّ الموت لا يربك سوى ضعاف النفوس، أمّا الأبطال الذين عرفناهم في الجيل الذي سبقنا فإنهم يرونه حجّة لتسوية لا شئون الدنيا وحسب، ولكن ديون الروح أيضاً. وها هو الاب يقدّم البرهان على ذلك في رحلته تلك. فبعد أن ألقى النظرة الأخيرة على الذرية هاهو يتسلّق جبل نفوسة ليؤدّي الواجب نحو حلفاء القبيلة القدامى كالزنتان وبعض قبائل الجبل الغربي إيماناً بقداسة العهد، ووفاءً لناموس الحلف. من هناك إنطلق لزيارة الأمكنة التي شهدت شبابه مثل غدامس ودرج وأطراف الحمادة الحمراء الشمالية. هناك جالس الأشياخ الذين قاسموه يوماً ذكريات الزمن الضائع. ذكريات الزمن التراجيدي ما أن يتنكّر لهويته ليستعير ماهية الضياع في الذاكرة.

جالسهم مخفيا عنهم الحقيقة التي جهلوها وكان بها وحده عليماً وهي أنه أتى ليهجرهم إلى الأبد هذه المرّة. وكان عليهم أن يبكوا المرثية لأنفسهم عندما سيبلغهم نبأ رحيله بعد أيام من ذلك التاريخ، لأن غياب من شاركونا وشاركناهم ذكرى الزمن الضائع هوغياب الشطر الأنبل فينا، بل والميتة تقرع أبوابنا، لأن غيابهم هو نداء لنا بوجوب التأهّب لممارسة دورنا.

Twitter: @alqareah

لم يقم الأب في تلك الرحلة بتأدية الواجب نحو أهل الأمكنة وحسب، ولكنه كإنسان رومانسي متوحّد بالطبيعة عايش الأمكنة أكثر ممّا عايش أهل الأمكنة، ليس له ألاّ أن يمثل في حرم قدس الأقداس هذا «الأمكنة»، لا ليملأ منه حدقة عين لن يُكتب لها أن ترى بعدها وحسب، ولكن لأنه داسها يوماً ظنّا منه أنه سيخرق الأرض أو يبلغ الجبال طولاً، بل ودنّس حرمها أيضاً مراراً ناسياً أنها الأمّ التي إحتضنته في المهد، والأمّ التي ستحتضنه في اللحد أيضاً. جاء ليستحلف الأرض البوح بلغز مسقط الرأس هذا، ليعترف في حضرتها بحيرته في أمرها الذي يجعل من ترابها القاسي سبباً لحنين مجهول دون أتربة الأوطان، ومن السماء التي تظللها فردوساً يختلف عن سماء بقية الأركان. أي أنها ملحمة شعرية مجسّدة ما كان له أن يجرؤ على فراقها غمضة لو لم يهجرها مجبراً بأداء الواجب نحو الوطن. وهي السيرة التي تناولناها في الجزء الأول من هذا البيان.

لقد حدّثتني إحدى قريباتنا اللائي تشبّثن بمسقط الرأس في واحة «آدري» (درج) كيف طاف الأب كل من عرف في تلك المرحلة، وإستعاد الذكريات مع من تبقّى من شيوخ الواحة. ليس هذا فحسب، ولكنه هام على وجهه في الأنحاء العليا من وادي «آوال» العظيم الذي ظلّ نهراً يجري إلى اليوم ليملأ عينيه من مكانٍ حميم صار جزءً منه، ولن يُقدّر له بعد اليوم أن يراه إلى الأبد. فأيّ بطولة، وأيّ قوّة تحيا في هذا البدن الهزيل كي يحتمل أن يواجه الموت طوال هذه الرحلة، ويموت في كل مرة يلتقي فيها خلاّ قديماً ليبثّه أشواقاً هي

Twitter: @alqareah

بمثابة أنفاس النزع الأخير في الواقع، ثم يطوف الطلول ليناجيها بلسان الوداع؟ لقد حدّثتني تلك المرأة بعد سنوات كيف خرجت لتحيّيه أثناء عودته من وادي الأسلاف الذي ضمّ رفات أجداده، ولكنه لم ينتبه لوجودها، لأنه كان مشدوداً إلى الوراء بالتفاتاتٍ مكرورة كأنّه يتفقّد جرماً ضائعاً. ولا تدري المسكينة أنه كان يتفقّد في الوادي قلبه. لقد سار غائباً لأنه إستنزف في المشوار روحه. لأني أعلم الناس كم كان هذا الإنسان هشّاً بقدر ما تبدّى للأغيار صارماً، وأعلم كم كان شاعراً بقدر ما كان للأغيار عابساً. لأنّي أعلم أخيراً كم كلّفه هذا الوداع الدموي من نزيف: نزيف روح لا يقارَن بنزيف الجسد. والدليل الآخر نقله شقيقي فنايت الذي مرّ بالواحة في إحدى رحلاته الدائمة إلى فردوس الحمادة الحمراء، حيث توقّف في المحطّة ليتزوّد بالوقود فإذا بشيخٍ طاعنٍ يقبل عليه ليتأمّله بفضول. تردّد طويلاً قبل أن يسأله عمّا إذا كان سليل الأب. وعندما أجاب أخي بالإيجاب إحتضنه الشيخ بذراعيه بعينين باكيتين، ثمّ شدّه من يده محاولاً أن يستدرجه إلى بيته الواقع بالجوار. حاول شقيقي أن يعتذر للرجل لإرتباطه بموعد في العاصمة، ولكن الشيخ إستمات ببسالة، ولم يفلت من بين يديه إلاّ بعد صراعٍ كاد يتحوّل عراكاً حقيقياً. ولكن ما لم يغفره شقيقي لنفسه إلى اليوم هو ما حدث بعد أن إستطاع الإفلات من قبضة الشيخ لينطلق بالسيارة. فقد إنهار الشيخ فجأة لينخرط في بكاءٍ مرير بأعلى صوت صارت ذكراه في ذاكرة الشقيق جرحاً مازال ينزف إلى اليوم. وهو موقفٌ يدلّ على ثراء

Twitter: @alqareah

النفس البشرية بقدر ما يدلّ على تراجيدية النفس البشرية، وعلى غموض النفس البشرية. فمحنة الشيخ ليست في التنصّل من الدعوة، ولكن في التنكّر للعهد المبرم بينه وبين الفقيد بالميثاق المنصوص عنه في الوصيّة الشعبية المتداولة التي تُعلي في أدبيّاتها شأن خلاّن الآباء على حساب خلاّن الأبناء. والتحرّر من الدعوة حرم الرجل حضوراً رمزياً للأنسان الذي أحبّ بحضور سليله في حضرته لأنه الوحيد الذي يعلم أن الزمن لن يمهله ثانيةً وهو الذي بلغ من العمر أرذله. وهو لا يعيش الزمن الأرذل وحسب، ولكنه يعيش أيضاً أهل الزمان الأرذل من الرذيل. ولهذا فإنّ الدعوة كانت بمثابة نداء. نداء إستغاثة من روحٍ إغتربت عن زمانها بغياب خلاّنها. نداء إستغاثة ترجو العزاء. ولهذا فبكاء الشيخ في ذلك الموقف هو مرثية. هو نواح إنسان ينعى للعالم نفسه!

أليست ميتة الشهادة أن يستشعر أولئك الذين أحببناهم وأحبّونا عزلةً بهذا العمق لأننا تركنا لهم برحيلنا فراغاً لا يعوّض؟ تلك بالطبع ميتة الشهادة الثانية بعد بطولة أن نطوف الدنيا لوداع الأخيار ونحن أعلم الناس بحضورنا في الموت. ولكن ذلك الإنسان لم يستشهد مرتين فقط، ولكن ما حدث بعد هذه الرحلة يؤكّد أنه إستشهد مرات أخرى. فما أن بلغ أوباري حتى بلغه نبأ رحيل أحد زعماء آزجر الشيخ غوما في شقّ آزجر الواقع في نوميديا بعد التقسيم الفرنسي الإجرامي في حقّ الأمّة الصحراوية الواحدة. وها هو الأبّ يشدّ الرحال على الفور لأداء واجب العزاء في أشخاصٍ لم يعودوا في

Twitter: @alqareah

زمن إغتراب القيم مجرّد زعماء قبائل، ولكنّهم صاروا بسبب ندرة معدنهم رموزاً لا لهوية ثقافية وحسب، ولكن رموزاً للهوية الإنسانية بأسرها. وهو ما عبّر عنه كلود ليفي ستروس عندما قال أن وفاة شيخ لقبيلة إفريقية (مثلاً) يعادل غياب أمّة كاملة. غادر طيف الجيل ذاك المكان الذي تولّى أمره كمدير ناحية منذ بدايات الإستقلال وهو العليم بأن الموت الذي يحمله في عبّه سوف لن يمهله لكي يعود ليلقي نظرة عليه ثانيةً. ولكنه لم يتزعزع بحمل صليبه إلى النهاية. عبر بالصليب الصحراء لأنه فضّل أن يغادر إلى ولاية «إليزي» برّاً عبر غات التي دفن فيها أسلافه وكانت له أرجوحة مهد، ثمّ إلى «جانت» الواقعة خلف تخوم الحدود المنكرة التي تقف سلسلة تاسيلي الأسطورية شاهداً على عبثيّتها ولا أخلاقيّة مهندسيها. هذه السلسلة الجبلية التي كانت فردوس أقدم حضارات البشرية قاطبة والتي عبرها مراراً سنوات تولّي عمّه إبراهيم بكّدة زعامة آزجر في المنطقة ذاتها التي خلفه فيها أمثال الرجل الذي سبقه الآن إلى المكان الوحيد الذي يستنكر الجنس البشري أن يفوز فيه بقصب السبق! ولكن روحه هو بالذات إنّما سكنت هناك منذ أمدٍ بعيد. سكنت هناك منذ زمن الحروب، وأيام مطاردة الفرنسيين زمن حرب تحرير نوميديا. سكنت هناك زمن الحروب القبلية أيضاً. سكنت هناك في الزمن الذي طاف فيه الصحراء كلّها بحثاً عن الموت، ولكن الموت كانت تفرّ منه في كلّ مرة كما حلا له أن يردّد دوماً. ولهذا ترجم بمسلكه من يقول أن

Twitter: @alqareah

نصفه حضورٌ في الدنيا، ونصفه الآخر حضورٌ في الموت؛ لأن كل عراكه قبل ذلك التاريخ كان ترويضاً للنفس على الموت!

فإذا كان الوعي بدنوّ الأجل على النحو الذي يدفع الإنسان لحمل صليبه ويطوف الأنحاء ليودّع الأمكنة وأهل الأمكنة برهانٌ على إستشهاد، وإذا كان الرحيل عن العالم ينقلب إحساساً بالخواء إلى الحدّ الذي يعترف فيه الإنسان بقدره كضحية كما الحال مع الشيخ الذي لم يجد حرجاً في أن ينعى للعالم نفسه، فماذا يمكن أن نسمّي إنساناً لا يقنع بكلّ هذا، ولكنه يتحامل على نفسه ليرتحل من جديد وهو أعلم الناس بأن السفر ما هو إلاّ ميتة صغرى بالمقارنة مع الميتة الكبرى ليتحوّل الموت مصيراً مركّباً من ميتاتٍ عديدة، لأن الميتة الكبرى بالنسبة لإنسانٍ مثله ليست سوى ختام ميتات أخرى، لأن الإرتحال الأبدي موت، والهوس بالعزلة موت، والزهد موت، وأن يحيا الإنسان نزيهاً في هذا العالم موت، وأن يحيا بين الناس طيفاً، ثم ضيفاً، موتٌ ثمّ موت! فهل هذا هو كلّ شيء في سفر الأسفار هذا؟ كلاّ! هناك شهادة أخرى على الإستشهاد الجديد. فأن ينطلق الإنسان ليموت راحلاً في منتصف الطريق إذا كان دليلاً على إستشهاد، فإن خروج الإنسان حاملاً في قلبه الموت تأديةً لواجب العزاء إكباراً للموت فهو شهادة أكبر على إستشهاد! فكم مرة يستطيع الإنسان أن يستعير هوية الشهيد قبل أن يلفظ أنفاس النزع الأخير ليصير في عرفنا في عداد الأموات؟ فكما برهنت التجربة كيف يعيش بيننا أناسٌ هم رسل وإن جهلنا أنهم رسل، كذلك برهنت التجربة كيف يحيا بيننا أناسٌ هم شهداء برغم جهلنا بحقيقتهم كشهداء!

Twitter: @alqareah

19

المسافة بين أوباري حتى غات ستمائة كيلو متر. ومن غات حتى جانت ثلاثمائة. ومن جانت حتى إليزي مالا يقلّ عن الثلاثمائة أخرى. إنها الصحراء الكبرى التي لا تقيم وزناً للمسافات. وعلينا أن نتخيّل كيف كان آباؤنا يقطعونها إلى وقتٍ قريب على ظهور الجمال ومشياً على الأقدام لا لممارسة حرفة محرّمة بحرف الناموس وهي التجارة، ولا لقضاء حوائج دنيوية، ولكن ليتزاوروا، ويجتمعوا، وليتبادلوا العزاء في بعضهم البعض كلّما فاز أحدهم بقصب السبق وحلّ في البُعْد الذي سيحلّ فيه الكلّ. وهي منطقة كانت حتى 1962 موحّدة يتنقّل فيها أهلها بحرّية. والمفارقة أن تنقسم بالحدود الظالمة لا في عهد الهيمنة الإستعمارية الفرنسية، ولكن بعد نيل نوميديا الإستقلال تحت إسم «الجزائر» ووصول أولئك الذين تشدّقوا بالتحرير إلى السلطة (أمثال بن بلّة وخليفته بومديَن) ليبدأ صراعهم على السلطة ويقيموا دكتاتورية بدل أن يحققوا للناس الحرية التي وعدوهم بها!

أمّا المسافات الأبعد إلى تامنغست، أو آضاغ (مالي حالياً)، أو إلى آير (النيجر حالياً)، فإنها تستغرق في الرحلة مايربو على العام

Twitter: @alqareah

لتختلس من أعمار أسلافنا الشطر الأكبر. وبرغم ذلك لم يشتكوا من فرار الزمن على طريقتنا، ولم يراهنوا على إمتداد العمر مثلنا لإيمانهم بحقيقته كباطل أباطيل حتّى لو تمدّد لألف عام. فالحياة في عقيدتهم ليست نزهةً تعِدُ بما نسمّيه سعادةً، ولكنه قنطرة يعبرونها إلى واحة تسكن الجانب الآخر. إنها قرينٌ حميم لرحلتهم الأبدية في صحرائهم الكبرى. والعزاء في إحتمالها ليس في هدهدة الأحلام، بل في ترويض الإحساس بالعدم؛ لأن الصحراء وطن. والوطن فردوسٌ حتى لو كان بجدرانٍ من عدم. وهم لذلك لا يكتئبون عندما يحلّون في التخوم، ولكنهم يتنفّسون الصُعداء ويتبسّمون لأنهم أدركو النقطة التي سعوا إليها طويلاً. وها هو الأب يبدأ الطقوس المستوجبة في تلبية النداء في **سيردلس** على مشارف واحة المهد **غات**. ف سيردلس هي بوابة حضارات آكوكاس الخرافية التي أربك إكتشافها في الخمسينيات حسابات علماء الآثار والسلالات، كأنّ الأب لم يقطع المسافات إلاّ لكي يحلّ في وطن الأسلاف الأسطوريّ لينضمّ إلى أجيال الأوائل الذين زالوا بأجسادهم، ولكن أرواحهم ماتزال تستوطن الأراضي الواقعة بين منفذ «تخرخوري» حتّى جبل «إيدينان» المسكون بخصومهم من قبائل الجنّ. في هذا المكان تزلزل البدن الهزيل بحمّى مفاجئة فاقترح رفقاء الرحلة أن يعودوا به من حيث أتوا، ولكنه رفض ليأمر بالمضيّ في الرحلة إلى النهاية. تراجعت الحمّى كأنّ الأقدار التي آلت على نفسها أن تستجيب لمشيئة ذوي الإرادة في العادة قرّرت أن تلبّي النداء هنا أيضاً وها هي تتنازل عن

Twitter: @alqareah

كبريائها فتمهل العابر الأبدي وقتاً إضافياً مستقطعاً من نصيب المستحيل كما فعلت مع الكاهن سطيح، أو مع ملك مملكة ليديا كريوز. أمهلت الأقدار البطل حتى نزول أرجوحة المهد، وأرض الميعاد: غات. هنا قالت كلمتها الأخيرة في حقّ المهاجر لتتوّج المريد **بالحرية** التي كانت له وسواس الزمان. الحرية في حدودها القصوى: الموت!

في مستشفى هذه الواحة المنسيّة ذات التاريخ الثريّ لفظ المهاجر الأبدي أنفاس النزع الأخير قبل أن تحطّ في المهبط الطائرة التي كان من المقرّر أن تقلّه إلى مستشفيات الحاضرة للعلاج من العلّة المجهولة، لأن علاج الحقّ كان أسبق من علاج الخلق، ولم يبقَ لذويه وأقاربه سوى أن ينحروا الديك الأبيض تيمّناً بوصفة الحكيم القديم، واحتفاءً بالشفاء الوحيد الذي لا مرض بعده: **الدنيا هي المرض، والترياق لها هو الموت!**

Twitter: @alqareah

20

القوم في أدبيّاتهم المعادية للإبتذال يتحاشون تسمية الأشياء بأسمائها فيقولون لإعلان وفاة: «**فلانٌ سبقنا**»، إحتقاراً للغة الحرف. فإذا كان الإنسان مريضاً ثم لفظ أنفاس النزع الأخير قالوا: «**فلانٌ شُفِيَ!**» تعبيراً مجازياً عن منيّةٍ يحملونها معهم في نسيج كينونتهم، فإذا آن الأوان الذي تعلن فيه عن نفسها فذاك ميعاد الخلاص المنتظر الذي سيضع الخاتمة للعناء. ولهذا حرّم الناموس التعبير عن هذا الحدث بالنواح، أو شقّ الخدود، أو أيّ فعلٍ من شأنه التجديف في حقّ موقفٍ هو حلولٌ في حرم الأبدية حيث تسود لغة السكون وحدها بديلاً عن لغة الكون. تلك فرصة أخرى لإعلاء شأن خطابٍ كان للصحراء لغة خلود وأورثته لأبنائها ليكون لهم بيان وجود وهو: **الصمت!** من هنا إنتعش الهوس بالرموز وصنوف الإيماء وضروب الإستعارة لتستحيل حياة القوم كلّها رحلة في أدغال المجاز. وهو ما أوجد تعفّفاً عن إستخدام اللسان يرتقي إلى مستوى الإحتقار، ومعاملة هذه العضلة اللئيمة كخطيئة حقيقية. ولِمَ لا إذا كان اللسان هو البرهان على الوجود، والوجود ما هو إلاّ النتيجة عن خطيئة؟ فاللغو ممارسة للدنس. والإفراط في إستعمال العضلة الخبيثة إفراطٌ

Twitter: @alqareah

في الدنس. والبديل هو الصمت. فإذا حتّمت الضرورة فهناك الإشارة. فإن لم تكن الإشارة فثمّة الإستعارة. فإن لم تكن الإستعارة فالأحجية. فإن لم تكن الأحجية فالشعر هو أنسب بديل. والعبارة دوماً هي الخيار الأخير. وهي اللغة السامية التي لم أكن لأطمع في تلقّيها من أناسٍ حرفيّين بقدر ما هم دنيويون كزملائي في وارسو يوم أسمعوني نبأ غياب الأب على ذلك النحو المبتذل الذي لا يُغتفر دون أن يكون ذلك سبباً لإدانتهم بالطبع، لأنه ترجمة لطبع، وليس ترجمة لسوءِ نيّة. فقد قرأت في سيمائهم وجوماً ما أن صعدت إلى الطابق العلوي. كانوا يرمقونني بإرتياب وهم يجوسون بين المكاتب في حركة غريبة كأنّهم يجتنبونني، أو يكتمونني سرّاً. ويبدو أنهم أجمعوا على تخويل السفير لكي يبلغني الخبر لا بصفته الرسمية وحسب، ولكن لأنه الأكبر سنّاً. فهل أصابوا في إختيارهم؟ لقد تقدّم منّي السيّد حسّونة عاشور في صباح ذلك اليوم لا ليستدعيني إلى مكتبه ليحدّثني على إنفراد، أو ليحتكم إلى الإيحاء كتقليد، ولكنه إنتصب أمامي في الممرّ ليقول لي بالحرف الفجّ أنّه تلقّى برقية من الخارجية تفيد بغياب أبي عن الدنيا، وقد إضطّر لتحمّل وزر إخباري لأن الكلّ تنصّل من هذه المسئولية. وأذكر الآن كيف خذلني بأسي فخنت الناموس عندما إستنكرت: «ولكنّه لم يكن مريضاً!» ناسياً أنه كان مريضاً بالفعل. ليس مريضاً بداءٍ بدنيّ، ولكنّه مريضٌ **كأيٍّ منّا**. كان مريضاً مثلنا لأننا كلّنا **بالوجود** مرضى. وهو مريضٌ وينتظر اليوم الذي سيحقق فيه هذا الشفاء، لا الشفاء المزيّف المتداول في عرفنا. فالإنسحاب وحده

Twitter: @alqareah

الشفاء الذي لن يأتيه الباطل. وهو آمنٌ الآن من كل الأمراض كما لم يكن يوماً.

نزلتُ الدَرَج وخرجت إلى الشارع. فتحت باب السيارة وجلست وراء المقوَد. لقد نال الأب الأمان، ولكن أمانه كان السبب الذي أفقدني الأمان. الإحساس بوجود الأب هو اليقين بوجود سدٍّ يصدّ عنّا الموت. وغياب الأب هو إنهيارٌ لهذا السدّ. فهل هذا هو سرّ اليُتم؟

لقد كان هذا الإنسان هو **البعد الغائب** في حياتنا. غائبٌ بسبب أسفاره الأبدية. غائبٌ بسبب زهده. غائبٌ بسبب صمته. غائبٌ بسبب غموضه. غائبٌ بسبب حزنه. كان حزمة غياب. والغياب هو رهان قداسة دوماً. والدليل هو غياب الربوبية. ولهذا إستنزل الأب بغيابه في نفوسنا هوية تتخفّى خلف مسوح قدسيّة. ولهذا السبب ظلّ بالنسبة لنا مجهولاً. ظلّ إلى لحظة الغياب في يقيننا لغزاً. ومازاد هذا اللغز إستغلاقاً هو عجزنا حتى ذلك الوقت عن قراءة رسالة الرجل المترجمة في مسلكه الأخلاقي. إذ كيف لنا أن نعلم شيئاً عن إنسانٍ **لا يتكلّم**؟ وهو لا يتكلّم لأنه يعلم، لأن من لا يعلم وحده يتكلّم كما تقول الوصية الطاوية. ولهذا كان له صديقه القديم خليفة حاكم مترجماً في مباحثاته مع القبائل الأخرى، وفي زياراتهم إلى قصر الخلد لمقابلة الملك إدريس. والترجمة هنا ليست بالمعنى الحرفي، ولكن بالمدلول المجازي.

كان الأب في حياتنا كأبناء حلماً، لا واقعاً. ويبدو لهذا السبب

Twitter: @alqareah

واصل التواصل معنا في منامنا كي يشدّ من أزرنا كلّما حلّ بأحدنا مصاب فتكون رؤيتنا له في الأحلام التميمة التي تبطل مفعول المصاب. ولم أكتشف شخصياً أن هذا الإنسان كان يسكنني إلاّ بعد تجربة البعث التي أطلقت عليها إسم الميلاد الثاني. فالإنسان إذا كان روحاً **كلّه** (كما كان الأب) فليس له أن يستنكر إذا صار **تيهاً** كلّه. هذا التّيه هو الوصية التي أورثها الأب في دمي لتغدو لي هاجس وجود قبل أن تغذّيها تجربة التيه الفعلية في عهد الطفولة المبكّرة برافدٍ تجريبي. إنها الهوية التي أخلصتُ لها ولم أخذلها إلى اليوم. وأحسب أن الأب سيكون لي ممتنّا على هذا، لأن إحتراف التيه سوف يعني الإلتزام بالحزمة المنصوص عنها في ناموس هذا الإغتراب والتي تتّخذ من الهَوَس بالحرية تاجاً.

لقد سكنتُ تيهي كما سكنني التيه بدليل أنّي لم أتلقَّ نبأ غياب الأب إلاّ أثناء حضوري في حرم التّيه. وهو ما حدث بالنسبة لنبأ غياب الأمّ أيضاً بالأمس القريب كما سيأتي فيما بعد. فالأمرُّ من المرارة حقّاً ليس أن يغيب الأب، أو أن تغيب أمّ الوجود، أو أن يغيب الأخلّة، أو أن تغيب الرموز الوطنية سواء الثقافية منها أو الروحية، ولكن أن يغيب كلّ هؤلاء ومريدهم **غائب**. مريدهم في غيابٍ لأن الحضور في التية وحده الغياب الذي يضاعف الإحساس بالفقد لأنه الغياب المركّب الذي لا يختلف عن الحضور في العدم. إنه الغياب الذي ينافس غياب هؤلاء ليجعل من التائه الأبدي جديراً بلقب الشهيد على قيد الحياة!

Twitter: @alqareah

21

الهجرة شهادة كافية على إستشهاد؛ لأن الهجرة لا تكون هجرة حقيقية إن لم تكن خروجاً للبحث عن الحقيقة. ولهذا إستحقّ الفريق الراحل من الجنس البشري منزلة «القبيلة الإلهيّة» في تصنيف القدّيس أوغسطين الوارد في إنجيله الذي صار إنجيلاً مكمّلاً للإنجيل وهو: «ملكوت الربّ». فالزمن هو اللغز الذي لم تعوّل عليه أمم الرحيل يوماً. والنزعة العدمية التي نجدها مترجمة في حرف الوصية القاسية: «ميدّيياغز؟» (التي سبق تناولها في الأجزاء السابقة) هي التي أنتجت الإستهانة بكلّ قيمة دنيوية، وبرّرت الناموس الذي سار عليه القوم منذ الأزل. وهي الجاني الذي أجرم في حقّ الأمّة في كلّ ما نالها من بلايا بدايةً من الحرمان من أبسط الحقوق المدنيّة كالمواطَنة، أو إكتساب المعارف، أو العمل، ونهايةً بشروط الإنتماء إلى الكيان. الروح العدميّة التي لا تثق بالزمن، وتتّقي شرّه بالتخلّي عن كلّ شيء، والإستعداد للجود بالنفس توّاً لم تكتفِ في النتيجة بأن تخلق من مريد العدوس هامشاً بلا متن، أو متفرّجاً على المهزلة الإنسانية عن بُعْد، ولكنّها جرّدته من كلّ أسلحته الثقافية لتحشره في خانة الكائن الطبيعي المحض. وهو خيارٌ يحقّق الحرية بالطبع. يحقّق

Twitter: @alqareah

الحرية في حدّها الأقصى حتّى أمست اللغة نفسها (كدليل كينونة حقيقية) إثماً في حقّ السكون الصحراوي المهيب. وأضحى الصمت هو اللغة البديلة. إنه التطرّف الذي ينقلب في عرف الحكمة درساً يفوق الدرس المستوحى من سيرة حكيم التلمود العابر الذي وجد صبيّة ترعى فوق البئر ليسألها قائلاً: «أين الطريق التي تقود إلى المدينة؟» فوبّخته بلسان كاهنة قائلةً أن عليه ألاّ يستخدم جملاً سخيّة في الحديث مع النساء. يكفي أن يقول: «الطريق!» حسب. نزعة عبادة الصمت وممارسته كصلاة أعظم شأناً من كلّ صلاة هو ما سلّطتْ عليه الضوء عبقرية أنطونيوني في رائعته السينمائية «المهنة صحفي» في مسلك إنسان الصحراء في تلك اللقطة الوجودية المجبولة بروح الشعر التي لا تُنسى برغم أنها قد تبدو عبثية وحتى غرائبية لكل من جهل واقع إنسان الصحراء. إنها المدرسة الإيطالية في هذا الفنّ التي جَنَتْ عليها إتفاقية التجارة الدولية الشقيّة عام 1993 م فصودرت بسببها روح العالم لتقع هذه الروح رهينة الهيمنة الأمريكية فتصبح الثقافة أول الضحايا كالعادة ليختفي من مسرح السينما كهنته الحقيقيون أمثال أنطونيوني أو بازوليني أو فلّليني أو دي سيكا أو برتيلوتشي.

فبرغم الوعي الصحراوي بحقيقة اللسان كبرهان على الوجود المعبّر عنه في العبارة التقليدية التي تجري على ألسنة القوم: «آلس إيلس» (الإنسان لسان)، بيد أن الزهد في القول يبقى فعلاً مستهجناً. ويبدو أن عزلة هذا الإنسان هي ما كفّر بإستعمال اللسان، لأن اللسان

Twitter: @alqareah

ليس لغةً وحسب، ولكنه غفلة. أي تجربة حسّية يلعب فيها عضو جسديّ دوراً معنوياً. والعضلة تتراخى وتضعف ويبطل مفعولها بعدم الإستعمال ككلّ عضوٍ في البدن.

أمّا الهوس بالعدم فهو علّة الإغتراب المجّاني، وسبب كلّ بلاء. فالدنيا في عرف القوم ليست سيرورة فناء وحسب، ولكنها المهلة التي لا إعتراف بها، بل هي الخيتعور الذي لا وجود فعليّ له. وسوف نحسن الظنّ بها فيما إذا آمنّا بها كـ **أيّامٍ ثلاثة** كما آمن حكيم العرب القدماء أكتم بن صيفي في وصيّته عندما أقبل على ملك العرب عمرو بن هند ليعزّيه في أخيه بالقول: «أيها الملك! إن أهل الدار **سفر لا يحلّون عقد الرحال** إلاّ في غيرها. وقد أتاك ما ليس بمردودٍ **عنك**. **وارتحل عنك** ما ليس براجعٍ إليك، وأقام معك من **سيظعن** عنك ويدعك. واعلم أن الدنيا أيامٌ ثلاثة: فأمسٌ عظةٌ وشاهدُ عدلٍ فجعك بنفسه، وأبقى لك عليه حكمك؛ واليومُ غنيمةٌ وصديق، أتاك ولم تأته، طالت عليك غيبته، وستُسرع عنك رحلته؛ وغدٌ لا تدري من أهله، وسيأتيك إن وجدك!». فلو تأمّلنا هذه الوصية لاكتشفنا تأكيدها للنزعة ذاتها التي تستخفّ بالزمن. الزمن كغياب يراهن على حضور. فما معنى أن نحيا في سفر لا نحلّ فيه عقد الرحال، وما معنى أن يرتحل عنّا ما ليس براجعٍ إلينا، وما معنى أن يظعن عنّا من أقام معنا، وما معنى أن تتباهى الدنيا بأيامٍ ثلاثة ثمّ تتراجع فتفجعنا بأمسنا لتُبقي لنا الحكم على هذا الأمس وحسب، وما معنى أن تهبنا اليوم كغنيمة لا نغتنمها لأنها ستسرع بالإرتحال

Twitter: @alqareah

عنّا، وما معنى أن نجهل أهل الغدّ الذي ننتظره دون أن نضمن أنه سيجدنا؟ ألا تترجم هذه الوصيّة الروح العدميّة ذاتها، فإن إحتكمنا إلى عقيدة إنسان الصحراء الكبرى الذي يتغنّى بالضياع كثالوث، أي في الهوية، ثمّ في الوطن، ثمّ في الناموس، حتّى كاد أن يتّخذ من الضياع معبوداَ، أفلن يكون معذوراً لو أنكر الزمان أيضاً ليؤمن به كأحجية ضائعة يستحيل في هذا البعد الوجود ذاته ماضٍ زال؟ في هذا البعد يستحيل الوجود كلّه جوهراً مفقوداً؛ لأن ضياع الزمان يؤكّد ضياع المكان. أي يستوجب عدم الإعتراف بالوطن كمكان. ليس هذا وحسب، ولكن الإيمان بالزمان كغيابٍ للزمان، سوف يجرّ غيوباً أخرى هي مقوّمات المكان. علّ أول هذه المقوّمات التي ستفقد مبرّر وجودها هي: الهوية. وغياب الهوية سيبطل مفعول حضور الناموس الذي لم يكن ليكون ناموساً لو لم يكن روح هذه الهوية.

هذا هو دين الحرية الذي إعتنقه إنسان الصحراء. الحرية في بُعْدها الذي يسكن الموت. وهو رهانٌ قاسٍ بالطبع، ولكنّه واقع: إنسان الصحراء **ليس على يقين من وجوده قيد الوجود!**

Twitter: @alqareah

22

يُقال أن الأب وحده يعني أكثر ممّا قد يعنيه مائة معلم.

الواجب يقضي اليوم أن أعترف بأني تعلّمت من الأب ما لم أتعلّمه من كل العلوم. وهو بهذا ينافس الصحراء، أو ربما ينيب عنها، في احتلال الدرجة الأولى في السلّم، لأن ما تعلّمته منه إنّما كان في الواقع مستعاراً على هذا النحو أو ذاك من ربّة العلوم قاطبة: الصحراء!

وأحسب أن كل تلك النماذج الحاملة للقيم الأخلاقية السامية كالهوس بالحرية، أو الشجاعة، أو النبل، أو العدل، أو الروح الزهدية، التي تحفل بها أعمالي الروائية إنما استعرتها من شخصيّة الأب. وهو مايعني أن قيمة الإنسان ليس في ما نال، ولكن في ما نزف. لأن ما يُنال هو هبة الحظوظ، ولكن ما ننزف هو وصيّة الروح. وهو خالدٌ في ذاكرة الأجيال بقدر دموية هذه الوصية، أو أصالتها بالأصحّ. والنموذج الذي يبرهن على هذا هو سقراط الذي كان كلّه سيرةً أخلاقيّة أمست رمزاً كونيّاً برغم أن هذا الحكيم لم يسطّر في التعبير عن سيرته حرفاً واحداً؛ بل سيرته هي التي ألّفت في حقّه ملحمة خالدة مازالت مدرسة الأجيال منذ ألفي وخمسمائة عام.

Twitter: @alqareah

فكيف استطاع الأب الفقيد أن يكون أمثولةً تُحتذى برغم غيابٍ كان له هويّة؟

لم يكن غائباً بغيابه وحسب، ولكنه كان غائباً في حضوره أيضاً. فالصمت غيابٌ آخر. والغموض غيبةٌ أخرى. أي أنه إذا كان كتاباً مفقوداً بغيابه، فإنه كتابٌ مجازي مستغلق، كتابٌ هو أحجية بحضوره أيضاً. إنه يستعصي على القراءة بسبب التورية. بسبب الطلسمة. ولهذا فهو يغوي أكثر. فإذا كان نموذج كهذا سبباً لإشعال حنين بالغياب، فإنه يصير سبباً لإستفزاز الحلم بحضوره. واللغز هو ما يستهوي حقّاً. إنه ليس غياباً، ولكنه حضور الغياب. حضور الغياب هو ماينفي هوية البعبع عن الغائب ليستحضر فيه هوية المعبود. فالألوهة إحساس بحضور القداسة دون أن يكون تجسيد الحضور للإحساس شرطاً. فالحضور هنا تجربة روحية بإمتياز ولا تستلزم تدخّل الحسّ، بل هي تتغلغل عمقاً باستبعاد الحسّ لتستنجد بالعروة الوثقى: بالمثال. وهو ما لا يتحقق هنا بدون وجود عمق في موضوع الغياب. عمق بلا قاع ربّما لعب فيه يُتم الأبوين دور البطولة. ولكن يتم الأبوين لم يكن ليحقّق إنجازاً روحيا لو لم يهرع لنجدته يُتمٌ آخر: **اليُتم الوجودي**.

إنه اليُتْم الذي كان حافزاً دوماً لعمل جسيم هو: البحث عن الحقيقة.

ففي سيماء الأب سطع هذا الهمّ. وفي مسلكه قرأت أعراض هذه الحمّى. الحمّى التي لم تفارقه إلى النهاية. وهي الحمّى المسئولة عن تلك الشفافية الروحية التي جعلت منه رئياً يستطيع أن يتكهّن بيوم

Twitter: @alqareah

الممات. ولكن مأساة الفقيد أنه لم يستطع أن يعبّر عن مصابه. وهو ما ضاعف من هذا المصاب وهو الذي لم يحسن الخطاب يوماً، لا بلغة الأمّ، فكيف بلغة مكتسبة؟ فإتقان البيان هنا ليس برهاناً على حضور في رحاب الوجود فقط، ولكنه جنس هذا الوجود، لأن من لا يحسن الكلم إنسانٌ لا يحسن الحياة كما يقال. فإذا كانت الحقيقة أحجية خبيئة خارج قمقم أي بيان، فكيف لا تتعقّد المسألة لتغدو بُنْية مركّبة بالنسبة للإنسان الذي لا يتقن حتّى الإستخدام المتداول للسان في اللغة الأمّ؟

ولكن هوية الأبوّة تجعله معلّماً حتّى لو لم يعلّم. لأنه بالغياب حضور في البعد المفقود. حضور في البعد المفقود سواء بغيابه الحسي، سواء بغيابه كخطاب وجودي، سواء بغيابه الرمزي. إنه يكتسب خصالاً غيبيّة تؤهّله لتحقيق الهيمنة الروحيّة. أي سجيّة القداسة بوصفه خليفة الجوهر الضائع في حجم مصغّر في المعادلة الهيراقليطيّة الجريئة: الإنسان ربٌّ فانٍ بقدر مالرّبُّ إنسانٌ خالدٌ. ولهذا يوصف الأبّ في جلّ اللغات بإسم: «الربّ» في عبارة «ربّ العائلة»، أو «ربّ البيت» من باب إستعارة تخفي إيماءً مبطّناً يترجم سيرة الأبوّة في الصفقة الوجودية، بالمقارنة مع أمومة لها حضور حرفي كخليفة للطبيعة، مقابل خلافة البعد المفقود التي تلعب فيها الأبوّة دور البطولة.

فلماذا يتنازل هذا الأب الصارم، الغامض، الكتوم، المكابر، عن كبريائه ليعترف لبعض أقرانه من عقلاء القبيلة بأن صاحب هذا النزيف هو أفضل أبنائه في آخر أيامه كما أخبرني أحد الأشقّاء نقلاً عن أحد

Twitter: @alqareah

الأشياخ؟ لست في حاجة لأن أتأمّل طويلاً كي أدرك سرّ هذا الوسام. ذلك أنه لم يكن في الواقع تشريفاً بقدر ما كان تتويجاً بِوِزْرٍ لم يخطر لي على بال. فما لم يغب عن الأبّ كرئيّ هو روح العصر التي قضت بضرورة إستبدال فروسية بفروسيّة أخرى. إستبدال فروسية السيف بفروسيّة الخطاب. الخطاب لا كبيان للتعبير عن نوايا، ولكنه خطاب الرؤيا المخوّلة بمنازلة الأحجية الخبيئة في قمقم اللغة. أي الخطاب كمعرفة. كأنّ تيهنا عن ملكوت البعد المفقود الذي بدأ بالمعرفة هو ما ألزم بإستخدام هذه المعرفة في سبيل إستعادة هذا الملكوت من جديد. لقد فوّضني بذلك الإعتراف بأن أقول عنه بالإنابة ما أعجزه القول أن يقوله بنفسه. وهذه مسئولية وجودية أكثر منها أخلاقية. إنها وصية غير معلنة. وهو ما يهبها هويةً قدسية. إنها هنا نوع من عهد. يلزمني بأن أستنطق الجينات أيضاً لتنجدني بما سكت عنه هذا الشهيد المجهول. لقد أورثني متناً وحيداً مشفّراً هو سيرته الذاتية. وواجبي أن أجتهد لا في قراءته، ولكن في تفكيك رموز المتن. وكان بالوسع أن يكون عملاً كهذا رسالة أيسر منالاً فيما لو إقتصر الأمر على تأويل سيرة إنسان هو في الواقع شطيرة وجود، إلياذة، دراما كونيّة مصغّرة، ملحمة حقيقية؛ ولكن الوصية فحوى أعظم شأناً، لأن سيرة إنسان كهذا هي نموذج يختزل قيم الإنسانية الزائلة. إنها الخسارة التي لا تعوّض.

إغتراب القيَم مسمارٌ في نعش اللغة!

وأن يكون إغتراب القيم مسماراً في نعش اللغة، يعني أن يكون مسماراً في نعش الوجود.

Twitter: @alqareah

23

أيليق بالعدوس أن يتسكّع في عَدْوِهِ؟ لا بالطبع. ولكن العقبة في الصراط الذي يسلكه العدوس وليس في طبع العدوس. ذلك أن الطرق إذا كانت كلّها تؤدّي إلى روما، فإن الصراط الذي يؤدّي إلى الحقيقة لا يسير في خطٍّ مستقيم، إنه يتلوّى على النحو اللاّمتخيّل. إنه مطوّق بلعنة لا تختلف عن لعنة ميداس الذي لا يمسّ شيئاً إلاّ وتحوّل بين يديه إلى ذهب قصاصاً له على حبّ الذهب. فالعدوس لا يطمع في الفوز بما نسمّيه «أقصر طريق»، لأنه إذا سلك هذا الطريق فلابدّ أن يتمدّد ويتعرّج ويتلوّى من باب التمويه كأنّ الأمر نكاية. ففي ذلك اليوم الذي سخّرت فيه السفارة كل حِيَل العمالة المحلّية في الحصول على أقصر طريق للوصول بي إلى طرابلس لأداء الواجب في وداع الأب إلى مثواه الأخير، هرع الشبح الأبدي ليكنس من طريقي كل وسيلة، فلا أبلغ العاصمة إلاّ بعد المرور بعدّة محطّات إنتظار كلّفتني المبيت ليلتين في عواصم أوروبّا قبل أن أهبط بمطار الحاضرة، ومنها إلى مطار عاصمة الواحات سبها ومن سبها برّاً إلى أوباري. إنها الآية التي ترجمت لي حرف التيه في كلّ خطوة، وفي أيّ شأنٍ دنيويٍّ أقوم به. وكم أدهشني، ومازال يدهشني، اليسر الذي يقضي به الناس حوائجهم الدنيوية بالمقارنة مع ما قُدّر لي أن أعانيه

Twitter: @alqareah

في سبيل قضاء أصغر حاجة، مثل إستخراج جواز سفر على سبيل المثال، أو أي مستند قانوني من بلدية، أو أيّ مؤسسة حكومية، أو الحصول على تأشيرة خروج مثلاً، لا من الداخل إلى خارج البلاد فقط (لأن تلك ملحمة تفوق الإلياذة ثراءً وتعقيداً)، ولكن تأشيرة دخول لأيّ بلد. ولهذا لم تكن الوثائق وحدها لعنتي الأبدية، ولكن القيام بأيّ فعلٍ أو نشاطٍ سرعان ما ينقلب لعنةً حقيقيّة. فإذا كان الدهاة يؤكّدون الوصيّة التي تقول أن من إستيقظ حظّه فقط يستطيع أن يهنأ بالاً وينام، دليلاً على يسر إنقضاء الحوائج، فإن حظّ العدوس ليس نائماً فقط كما أكّدت التجربة، ولكنه لفظ أنفاس النزع الأخير يقيناً، بحيث لا أمسس أدنى أمر إلاّ وانقلب مشكلةً. والناس لا يدرون ما معنى هذه البليّة بالنسبة لمن إستجار بصاحبة الجلالة: **الروح!** فالحاجة الدنيوية ورم في عرف الروح. إنها شهادة رفض من بعبع بإسم الدنيا مرفوعةً كالراية في وجه العدوس! فالدنيا سعلاة لا تخطيء التعرّف على خصومها الذين لا يعنيهم النفع، ولا يكترثون بالصفقة، ويتنكّرون لمعبودتها: **الروح التجارية!**

فسيرة معاركي في سبيل تصويب أخطاء تتعلّق بمسألة شكليّة جدّاً كجوازات السفر وحدها دليل كافٍ على عمق المهزلة البشرية. هذا بقطع النظر عن حروب أخرى مصاحبة لإستخراج أيّ وثيقة أو هوية، لأنه عمل يفتح الباب على متاهة لاستخراج سلسلة من الشهادات تبدأ بشهادة الميلاد ولا تنتهي بشهادة حسن السيرة والسلوك مروراً بطائفة أخرى تفتّقت عنها عبقريّة كهنة الروتين الإداري بحيث تستهلك سيرورة السيرة لا الوقت وحسب (الذي هو شطر حياة)، ولكن

Twitter: @alqareah

العمر أيضاً قبل إستكمال الملف المعني! إنه العالم الذي لم يكفِهِ أن يختلس من الإنسان روحه بتغريبه المبرمَج للقيم الأخلاقيّة، ولكنه أضاف إلى المحنة نصيباً آخر بتحويله حياة الإنسان إلى مستندٍ رسمي. فلا ثقة في الإنسان، ولا إعتراف بالقيمة الإنسانية في هذا الإنسان، ولكن المستند الإداري هو الشهادة. الشهادة لا على وجود حقيقة تتعلّق بالحاجة، ولكن الشهادة على وجوده هو. الشهادة على حضوره هو قيد الوجود. وهي نزعة تستأسد لتتحوّل طغياناً في ظلّ الأنظمة السياسية الشموليّة في حمّى سعيها لتدجين الإنسان بفنون تلهيه عن واقع تحتضر فيه قضية الإنسان المركزية: الحرية! وعلّ أكبر برهان على هذه المأساة ما حدث في بولندا بعد إنهيار النظام الشيوعي في الفترة ما بين 1989 إلى 1993 حيث أخفقت السلطات الجديدة طوال سنوات في تفكيك منظومة البيروقراطية اللاإنسانية التي تأخذ بخناق الجهاز الإداري لتطيح بكل محاولات الإصلاح تحقيقاً للخلاص. ولم تفلح في إذابة هذا الجليد الخبيث إلاّ يوم اهتدت إلى **قانون يبيح في منطوقه عمل كل شيء ما لم يخالف القانون.** قانون مختزل في عبارة واحدة كانت كافية لتبطل سحر التنّين الجاثم على صدر الوطن كأنّه غول طِيبة الأسطوري، فإذا بالتنّين يلفظ أنفاس النزع الأخير ليبدأ الجليد في الذوبان الفعلي.

فالمعروف أن ثمّة حقوقاً تستوجبها المواطنة في كل أنظمة هذا العالم. واستخراج جواز سفر أو بطاقة هوية أو أي شهادة إدارية هي من ضمن هذه الحقوق. ولكن ليس بالنسبة لي! كما المعروف أن ثمّة

Twitter: @alqareah

حقوقاً بديهية تستوجبها القرارات الإدارية المنصوص عنها في اللوائح المعمول بها تُمنح تلقائياً بصدور هذه القرارات وتُعتبر حقّاً طبيعياً كالجوازات الدبلوماسية في حال الإيفاد للعمل بالخارج، ولكن ليس بالنسبة لي! أمّا تأشيرة الخروج فمبرّر بديهي للحصول على جواز السفر وإلاّ ما الجدوى من إستصدار هذا الجواز إذا نزعنا عنه صفة السماح بالسفر؟ ولكن ليس بالنسبة لي!

والشروع في القيام بخطوة في أيّ هذه السبل كان بمثابة كابوس أتقمّص فيه شخصيّات كافكا لأعلم يقيناً كم هي واقعيّة برغم رمزيّتها وتراجيديّتها وعبثيّتها حتى أيقنت مراراً بأن برهان وجودي ليس وجودي في الواقع، ولكن الإعتراف بوجودي رهين وجود أوراق غبيّة قادرة أن تلغي وجودي هذا من خارطة الوجود بغيابها من جيبي. ونستطيع أن نتخيّل ما يمكن أن تعنيه هذه المعادلة بالنسبة لإنسانٍ لم يحترف العدو فقط، ولكنّه رضع هذه الحرية في حليب الأمّ. فالصحراء هي الوطن الوحيد الذي يبدو فيه حمل وثائق الهويّة أو أي سفساف من هذا القبيل، مضحكاً ومثيراً للسخرية. في الصحراء وحدها يستعيد الإنسان قيمته كإنسان دون حاجة لأوراق شرّيرة تثبت هويّته كإنسان. ولهذا فالصحراء وحدها حرية، وهي وحدها جديرة بإسم قدسي كالوطن!

الصحراء قدس أقداس، لأنها حرية. والحرية معبود، لأنها وطن الله. ووطن الله فردوس لأنه مفقود!

الفردوس لا يكون فردوساً ما لم يكن مفقوداً!

Twitter: @alqareah

24

في محفل العزاء لم أجد المعزّين ولكنّي وجدت المحتَفين. فبالنسبة لإنسانٍ مجبولٍ على إجتناب المناسبات الدينية والدنيوية منذ الطفولة، سواء أكانت أفراحاً أو أتراحاً أم أعياداً دينية، سيتحوّل واجب الحضور في مثل هذه المحافل قصاصاً حقيقيّاً دون أن أعلم السبب. فطوال إنتقالي للحياة في الواحات أو المدن لم يحدث أن شهدت مراسم زفاف، ولا طقوس عزاء سوى مرّة واحدة للحالين: حفل زفاف أحد الأقرباء في أول واحة نزلناها عقب دياسبورا الخروج الدرامي من الصحراء، ووقفة لتقديم عزاء لزميلٍ هو علي السوكني في وفاة أبيه أمام مسجد يقع بشارع ميزران بطرابلس، وإذا كان مهرجان الزواج بالواحة حفلاً موسيقيّاً يستعرض فيه الفرسان مهارات جمالِهم في فنون الرقص حسب الطريقة الوجدانية المستوردة من تقاليدنا الصحراوية، فإن موقف العزاء صدمني لينطبع ختماً في ذاكرتي إلى اليوم، لأنه كان خيانة لناموس الصمت المعتمد في عرف أهل الصحراء المستعار يقيناً من صحراءٍ الصمت هو لغتها. في ذلك اليوم وجدت نفسي أقف في صفٍّ طويل على رصيف الشارع المجاور للمسجد لتقديم العزاء لذوي الفقيد. وكان الزميل الذي

Twitter: @alqareah

عرفته مرحاً بشوشاً عفويّاً في حالٍ أنكرته فيه. كان يندب حظّه ويوعوع بأعلى صوت، تنهمر الدموع من عينيه على نحوٍ تبدّى لي مسرحيّاً بسبب المبالغة في التعبير عن الحزن، كأنّه يستعير دور الواعية التي يستأجرها البعض لممارسة طقوس المناحة على الميّت بالإنابة عن أهله. وربّما كان سبب هذا الإنطباع الطريقة التي كان يشهر بها الزميل يده مصافحاً المعزّين. ساعدٌ ممتدٌّ كعارضة خشبية تسدّ الممشى يلامسها المعزّون دون أن يتوقّفوا في سعيهم. وأذكر أن رئيس تحرير جريدة «طرابلس الغرب» محمد فخر الدّين إنتهره بشدّة، ولكن الرجل كان غائباً تماماً. حدث هذا في 68 أو 69 إن لم تخذلني الذاكرة، وخلّف في وجداني أثراً نفّرني من المشاركة في مثل هذه المناسبات لأجد نفسي اليوم مضطرّاً لتأمّل السبب، سيّما إذا قورن بالنقيض المبثوث في اللمّة المبتذلة التي وجدتها يوم وصلت أوباري كأنها تترجم الخلخلة التي تعرّضت لها المفاهيم الإجتماعية خلال عقد واحد فقط من حياة مجتمع يعيش طفرةً إقتصادية مشفوعة بشطحات سياسية ربّت في الجيل نزعة غريبة هي **عبادة الإحتفال** بتحويل كلّ تجمّع (سواء أكان رسميّاً أم شعبيّاً) إلى وليمة حقيقية. إنها سياسة تغريبية سخّرت مؤتمرات وهمية، واختلقت مناسبات وطنية، ودأبت على الإنفاق على معسكرات أيديولوجية، كأنّها تشتري الذمم بهذا الترفيه المبتذل ليعاني الإقتصاد الوطني نزيفاً مبرمجاً لعوائد الثروة النفطية بدل الإنفاق على مشاريع تنموية حقيقية. أقول حقيقيّة لا المشاريع التمويهية التي اعتاد الخطاب الرسمي أن

Twitter: @alqareah

يطلق عليها إسم «إنجازات» كمقابل رخيص لاستدراج البسطاء. ولمّا كانت تلك مرحلة مسيّسة، بل ومؤدلجة بامتياز، فمن الطبيعي أن تتسلّل هذه الروح الإحتفالية إلى بُنية مجتمع عفوي ذي علاقات تقليدية بسيطة خالية من تعقيد المجتمع الطبقي لتفسد فيه **البُعْد الفطري** بما يحتضنه من قيم أخلاقيّة ودينية هي له قدس أقداس. والأيديولوجيا، كما دلّلت التجربة، هي النصل المميت الموجّه لقلب كلّ قدس أقداس، لأن الأخير لهذه الجنّية هو العدوّ الأوّل. وطقوس العزاء، أو مراسم الحداد، في ثقافات الأمم التقليدية تأتي على رأس القائمة في سيرة قدس الأقداس. وها هو ورم تسييس الروح يصيبها في أوّل جولة بالمرض الذي يحوّلها مبرّراً للترفيه أيضاً، ومناسبة لممارسة شعائر معترف بها في الولائم، وليس لتأدية طقوس الحداد على الأموات. وهي لا تقتصر على الترف في صنوف المأكل، أو المغالاة في ثراء الموائد، ولكن البدعة لا تستحي من السماح للمعزّين بممارسة جلال يليق بالمنتديات الخاصّة، بل وتبيح عقد الصفقات المشبوهة أيضاً سواء أكانت تجارية أو سياسية أو مدنيّة.

وأسوأ ما في الأمر أن يتنكّر أهل الصحراء لناموس الأمس القريب الذي كان فيه الموت معبوداً يشيّع صاحبه بالصمت وبآي الإكبار كلّما حلّ في رحاب بيت. إنه قانون الإعتدال الذي يحرّم النواح، كما يحرّم نقيضه الفرح أو الهرج الموروث عن الأسلاف. هذه الإهانة لحرم الموت لابدّ أن تستفزّ ما تبقّى من رموز العالم القديم الآيل للزوال أمثال الشيخ الفقّي أنقدّازَن (سليل زعيم آزجر في

Twitter: @alqareah

نهايات القرن التاسع عشر) الذي نأى بنفسه عن المشاركة في هذا التجديف فوقف خارج البيت حيث يجتمع المحفل بما أشتهر به من كبرياء لا ليعزّي أحداً، ولكن ليعزّي نفسه في فقيدٍ كان له ندّاً وقريناً ورفيق رحلة لأنه الأحقّ بتلقّي العزاء، وليقينه أيضاً بأنّ الأقران عندما يرحلون لا يكتفون بأن يأخذوا معهم الشطر الأنبل فينا، ولكنّهم يأبوا إلاّ أن يقرعوا لنا الأجراس، لأن خروجهم إيذانٌ برحيلنا. وها هو المعمّر الشيخ مسيك الزنتاني يحذو حذوه أيضاً فيقف خارج السياج حاملاً على منكبيه من الأعوام مائة ليقول لي أنه حزين لأن «آخر شرارة إنطفأت في المنطقة» كما عبّر. هذا قبل أن يُقبل خلّه القديم الشيخ خليفة حاكم قادماً من منفاه الأبدي «آدري» ليعسكر في بيت محمد مادي ليتقبّل في رفيق العمر العزاء بدل أن يؤدّي فيه واجب العزاء برغم وزر المائة عام التي ينوء بها أيضاً. وقد إحتمل المصاب ببطولة الإنسان الذي شهدت حياته بلايا كثيرة، وكان من الممكن أن يحتمل إلى النهاية، لو لم أكن السبب في إنهيار هذا الصمود عندما دخلت لأحيّيه بعد فراق طويل، فبكى لأوّل مرة ليعترف لي بأنه هو الذي تيتّم في ذلك اليوم ولسنا نحن (كما أسلفنا في الجزء الأول من هذا النزيف). إنها روح الأوائل الذين غابوا بعدها تباعاً ليخلّفوا لنا فراغاً كان بالإمكان أن يُحتمل لو لم يأخذوا معهم أنبل القيم، ليتركوا لنا الزيف بديلاً!

Twitter: @alqareah

25

لم تكن الإستهانة بالموت القيمة الوحيدة الضائعة في واقع القوم بعد أن استبدلوا دين الحرية بدين الملكيّة (دين الرحيل بدين الإستقرار)؛ ولكنّهم أضاعوا الروح التي كان لها الفضل في بقائهم على قيد الحياة من دون جلّ أمم العالم القديم، برغم قسوة ظروف الحياة في أشرس صحاري العالم على الإطلاق، بل الإغتراب عن طبيعة هذه الأمّ هو السبب في نكسة القوم وبداية غيبوبتهم الوجودية التي ستكلّفهم بعد سنوات قليلة تيهاً عن حقيقتهم سيكون تيه الصحراء الكبرى إلى جانبه نزهةً ممتعةً برغم كل أهوالها، ممّا يبرهن بأننا لا نهلك حقّاً إلاّ بما نهوى، ولا ننجو فعلاً إلاّ ممّا نخشى!

فقد دلّلت تجارب الشعوب عندما تبدأ مسيرة الإنحلال (المؤدّي في النهاية إلى الزوال) أن الإنسان الذي عاش راحلاً ثمّ استقرّ **أقلّ إنضباطاً أخلاقياً** من الإنسان الذي احترف الإستقرار، لأن الأخير ربّى لنفسه القيَم التي يتطلّبها الإستقرار وَكَيّفَ نفسه معها لتصير له نظام حياة، في حين يفقد الإنسان الحديث العهد بهذا الواقع قيمه التقليدية في حمّى سعيه لاكتساب قيَم الإستقرار، ولكنه في هذا الإنتقال الدرامي لا يفلح في نيلها، لأنه يخطيء السبيل إليها

Twitter: @alqareah

مستدرجاً بإغواء ما يمكن أن نسمّيه شبح هذه القيَم، وليس جوهرها، ولا يستيقظ من غيبته إلاّ عندما يكون الأوان قد فات، والتفسّخ المُميت قد بدأ يسري ورماً خبيثاً في الجسد. فكما لنظام الرحيل منظومة شروط، كذلك لنظام الإستقرار منظومة شروط. وأوّل هذه الشروط التي يقوم عليها هذا الأخير هو وجود **الحرفة**. فالمهنة هنا هي هويّة الإنسان وفحوى حضوره في الساحة سواء أكانت تجارةً، أم زراعةً، أم عملاً يدوياً أم ذهنياً. بالمقابل نجد غياباً لهذا التقسيم للعمل في عالم الرحيل، لأننا لا نستطيع أن نقول أن هذا المجتمع الذي يحترف السير هو مجتمع يمتهن الرعي في سفره الأبدي، لأن حرفته الحقيقية هي **الترحال**. أمّا الرعي فليس إلاّ مبرّر لمواصلة هذا الترحال، وليس له غاية. ولو كان مجتمع الرحيل يريد أن يتّخذ لنفسه مهنةً حقّاً لاختار أكثر حرف الدنيا ربحاً وأقلّها تعباً وهي: **التجارة!** وهو لم يستنكر ممارسة التجارة وحسب، ولكنّه حرّمها في نظامه الأخلاقي عندما أطلق غليها إسم «**تامكرّا**» (كما كانت تسمّى في لغة سومر البذْئيّة) التي تعني في الأصل (الذي يجري اليوم على ألسنة أهل الصحراء الكبرى): **المكيدة!** لأن ما هي الصفقة التجارية في الواقع إن لم تكن **غشّاً** مشروعاً بحرف العرف السائد وليس بحرف الأخلاق؟ أمّا التاجر فهو «**إيمَكَر**» (سواء في لغة سومر أو في لغة الطوارق) فتعني معنى **اللصّ** إلى جانب معنى التاجر! ولم تكن التجارة عملاً لا أخلاقياً في نظام قبيلة الرحيل

Twitter: @alqareah

وحدها، ولكنها كانت عملاً لا أخلاقياً في نظامٍ نبيلٍ منشقٍّ أصلاً عن قبيلة الرحيل زمن الدياسبورا الأولى وهو: **إسبارطة** اليونان القديمة.

فالتجارة ليست العمل الوحيد الذي يعاديه إبن الرحيل، ولكنه يحتقر الزراعة لأنها خطيئة أخرى في حقّ الطبيعة الأمّ وهو الذي اكتفى دوماً بأن ينال من هذه الأمّ ما تعطيه له طوعاً. أمّا حرث الأرض لانتزاع القوت منها فهو ليس غصباً وحسب، ولكنه إستباحة منكرة لبكارة الأمّ. من هنا نشأت روح العداء الفطري إزاء أمّة الفلاّحين. ولعلّ العداوة الأشرّ التي لم ينتبه لها لا علماء النفس ولا أترابهم علماء الإنتربولوجيا هي العداوة المجهولة التي يكنّها سليل الرحيل لمبدأ هو معبود أمم الإستقرار وهو: **المعرفة!** وهي عداوة تدلّل على حضور حسّ **وجوديٍّ** يرجع بأسبابه إلى عوامل غيبيّة وأخرى دينيّة. فالشفافيّة الإستثنائية التي تميّز هذا الإنسان عن قرينه الآخر لابدّ أن تتستّر على خفايا باطن مجبول على **فطرة التكوين**. وهي فطرة تنضح بالوجل، بل وترتجف خوفاً ميتافيزيقيّاً مازال قادراً على أن يعلن عن نفسه على نحوٍ مّا في إستنكار الإقتراب من هذا الحرم المهول الذي أطلقت المتون المقدّسة عليه إسماً غامضاً هو: **شجرة المعرفة!** لماذا؟ ليقينها المستبطن بأن المعرفة **عدوّ الفطرة**. والفطرة وحدها فردوس لأنها حضورٌ في الطبيعة. والحضور في الطبيعة وحده حرية!

إنه مسلكٌ مترجم في **الحدس** الأقوى من كل معرفة، ومن كلّ علم، لأنه نبوءة الغريزة الأقوى حتّى من نبوءة الوحي. ولهذا فهو

Twitter: @alqareah

يقينٌ كامن يسكن إنسان الرحيل بعمقٍ ذي أبعاد غيبيّة يستحيل التنازل عنه بسهولة. وعلينا أن نتخيّل إنساناً فقد هذه الحرية (التي كانت له في دنيا رحيله روحاً وفردوساً) دون أن يتّخذ في واقع الإستقرار لهذه الحرية المفقودة البديل الوحيد الأصلح أن يكون **تعويضاً** وهو: **المعرفة!**

المعرفة بعبع تفرّ منه الفطرة لأنها إنتصارٌ للوجود على حساب ملكوت الروح، والدليل يقدّمه لنا الأطفال بالمجّان (كرسل للفطرة) عندما يهربون من المدارس ليعاني أهليهم الويل في سبيل إجبارهم على إرتياد معبد الخطيئة هذا.

أبناء الصحاري أيضاً أطفال البشريّة الذين لا يروعهم شيء (عندما ينزلون أرض العمران) كما يروعهم الذهاب لأداء الصلوات في حرم هذا المعبد الوثني اللئيم!

Twitter: @alqareah

26

زيف الروح رهين إغتراب الحرية. فسيرة الإستقرار التي تبدأ بتدهور العلاقات الإنسانية الفطرية تصيب في طريقها **إحساس الإنسان نحو أخيه الإنسان بالشلل** قبل أن تبلغ الدرجة السفلى في درك الإنحطاط. فروح الحرية روح شعرية، لأن الفطرة وجدانٌ فسيحٌ وحميمٌ في انفتاحه على الطبيعة، ولذلك هو وجدانٌ رومانسي. هذه الأريحية تفتح الباب على مصراعيه لحنينٍ ذي نزعة غنائية لا تكتفي بأن تجعل من أهل الحرية عَبَدَة غناء وحسب، ولكنّها تنفث فيهم من روح **البُعْد المفقود** ليستحيلوا جميعاً شعراء. والشاعر وحده يتغنّى بالأشواق، ولا يحتمل فراق الخلاّن أو الإغتراب عن الأوطان. وسيرة أفيديوس الذي هلك بسبب هذا الحنين إذا كانت مثالاً في العالم القديم، فلا شكّ أنّ نكبة الشعراء الروس الذين هاجروا إلى الغرب بعد الثورة البلشفية ليموتوا حزناً على فراق الوطن هي أقوى مثال على ما حدث بالأمس القريب. وكم آلمني أن أكون شاهد عيان على زوال هذه الروح الوجدية التي كانت تاج كل سليل صحراء. لقد وجدت شعراء الأمس بُلَداء اليوم، كما وجدت أحياء الأمس جثث اليوم. إنهم بالإستقرار أولئك الأموت الذين يدفنون أمواتاً لا غير

Twitter: @alqareah

لأدرك أن السَبيل الوحيد للنجاة بالقيمة النفيسة هو الفرار بها إلى أبعد أرض، لأن الوطن الوحيد المناسب للقيمة هو مملكة الحرية التي لا وجود لها إلاّ في قلوب المهاجرين، أولئك الملائكة الذين تقول المتون المقدّسة أنهم يتنكّرون في أجرام العابرين. فإذا كان بيات شتوي واحد في مدينة مثل «كابويا» كفيل بأن يفعل بجيش هانيبال الذي لا يُقهر ما فعل (كما يروي تيتوس ليفيوس في تاريخه) فعلينا أن نتخيّل ما يمكن أن يفعله مثل هذا البيات إذا استدام ليصير بياتاً أبديّاً. إنه يقلب هنا الآية القديمة رأساً على عقب: الآية عندما كان القوم هم الفرسان الذين يتولّون ردّ الغزوات عن أهل الواحات، لأنهم خارج الأسوار طلقاء، في أزمانٍ كان فيها أهل الواحات أحوَج للحماية لأنهم داخل الأسوار سجناء!

لقد وجدتُ في الواحات في تلك الزيارة أناساً أنكرتهم كما أنكر هانيبال جيشه في أول معركة بعد خروجه من بيات «كابويا»! أناس من الطبيعي أن يقابلوني بمشاعر ميّتة لأن قلوبهم كانت قد ماتت بالسرعة التي لم أتوقّعها. فالشّرَك هو الإستهتار بوصيّة الناموس التي قضت بوجوب الإبقاء على القدم حسب في ظلّ الجدران، أمّا الرأس فيجب أن تظلّ خارجاً!

ولهذا لا يجب أن أستهجن غياب الروح التي اختلسها الإستقرار، لأن من العبث أن نحاول الركون إلى استرخاء هو ترف في عرف الصحراء دون دفع مكوس. ولكن المستنكر هو حجم هذا الثمن: فأيُّ إنسانٍ هذا الإنسان بلا غناء، بلا شعر، بلا وَجْد، بلا أشجان،

Twitter: @alqareah

بلا حنين؟ أيُّ إنسان هو الإنسان بلا خصال، بلا روح؟ ألا تَصْدُق هنا الوصيّة الإنجيلية الفذّة: «ما نفع أن يكسب الإنسان العالم ويخسر نفسه؟» كما لا تَصدُق في أيِّ مقامٍ آخر؟ ألم يَخُن القوم الوصية الأخرى المبثوثة في لسانهم ذاته التي تنعت الإستقرار في كلمة «قرّ» كرديف حرفي لمعنى الموت؟ لقد إكتشفت أن أهلي قد أنكروني في ذلك اليوم الذي تنكّروا فيه لوصايا ناموسهم، لأن هذا الناموس الذي يروقهم أن ينعتوه على مرّ الأجيال بـ«المفقود» لم يكن في الماضي مفقوداًعندما كانت وصاياه مترجمةً قيماً أخلاقيّة في سيرتهم، ولكنه بدأ يتبخّر منذ اللحظة التي ارتضوا فيها الإستقرار ديناً ليغتربوا عن حقيقتهم، لأحسّ بنفسي لأوّل مرّة غريباً بينهم. لقد تذكّرتُ وصية خلّي القديم الصادق النيهوم الذي طلب منّي أن أحذّرهم عام 1971 من الإستجابة لخطط الإستيطان لأنها فخّ سوف يدفعون الحرية له ثمناً. فهشُّ أهل الرحيل كالقطيع للمقام في سجون الجدران ليصبحوا أهل عمران جريمة في حقّ الطبيعة التي قسّمت الجنس البشري منذ البدء إلى سلالتين مجسّدتين في قبيلتين إثنتين: قبيلة عابرة. وأخرى قارّة. العابرة (في تصنيف القدّيس أوغسطين) القبيلة الإلهيّة، والقارّة هي القبيلة الدنيوية (في تصنيف القدّيس أوغسطين أيضاً).

فالناموس الطبيعي هو الذي قضى بأن تبقى القبيلة العابرة عابرةً، والقبيلة المستقرّة مستقرّةً، لأن دفع الناس لهجر أوطانهم ليس إخلالاً بالنظام الإجتماعي وحسب، ولكنّه دفعٌ للناس كي يخونوا طبيعتهم؛ ولذلك هو إخلالٌ بالنظام الكوني ذاته، لا مجرّد إخلال بالنظام الإجتماعي.

Twitter: @alqareah

27

لم أملك إلاّ أن أتأمّل وصيّة «يانينا» عن الرجل الذي استهوته الحرية فلا يصلح حميماً. إنه اعتراف جريء لن يعني في جوهره سوى الحقيقة التي تقول أن الحرية ضرّة المرأة الأولى في العلاقة مع الرجل. الحرية هي عدوّ المرأة المبين. إنها العدوّ الذي لا سبيل لصلحٍ معه، ولا حتى لهدنة. وهو ما يعني أن ما تحتاجه المرأة في الشراكة مع الرجل هو العبد وليس الإنسان كما نمنّي أنفسنا عادةً. ولهذا السبب تستسلم المرأة للرجل الذي يهبها وقته حتّى لو كان حوذيّاً، في حين ترفض رجلاً يبخل عليها بوقته حتى لو كان ملكاً متوّجاً على عرش! ولهذا السبب نجد المرأة ضحيّة دوماً: ضحيّة سفهاء أو أنذال لأن من لا همَّ له إلا تعبئة آذان النساء باللغو المعسول لابدّ أن يحمل في عبّه روح العبد. عبدٌ متبطّل وفوق ذلك خاوي الوفاض. ولكن الرجل الجادّ في عرف المرأة منفّر. الرجل الذي يروّض أحلاماً لا يليق بالمرأة لأنه ليس رجلاً. ليس رجلاً لأنه إنسان. هو إنسان لأن الإنسان وحده مهووس بما يمكن أن نسمّيه طريدة. طريدة سواء أكانت منتمية إلى هوية البعد المفقود كالحرية أو الحقيقة، أو طريدة بهوية دنيوية كالسلطان أو الثروة أو حتّى المجد.

Twitter: @alqareah

هذا النموذج في عرف المرأة هو ما لا يُطاق لأنه يطيق. وهو لا يطيق لا بسبب خصال لا أخلاقيّة، ولكن لأن السعي لتحقيق الأحلام يتطلّب تقنية. والتقنية تستدعي الخلوة. وهي تستوجب ما هو أعظم شأناً من الخلوة وهو الوقت. وإهدار الوقت عند قدمَي المرأة هو إمتياز من نصيب الصعلوك. إنه النموذج المناسب للصفقة مع المرأة: يتنازل الرجل للمرأة عن وقته مقابل أن تتنازل له المرأة عن قلبها. وهي صفقة تخفي بالطبع معادلة أخرى، إنها قناع يستر بعداً آخر. فالوقت هنا ليس مجرّد وقت، ولكنه يلعب في المبادلة دور الروح. هذا في حين يلعب قلب المرأة دور كلمة السرّ التي تقنع ربّة القلب بأنها تهب مريدها العالم برمّته عندما تهبه جسدها. في هذا البرزخ ترتكب المرأة خطأً في حقّ نفسها. إنه الخطأ الذي ينقلب خطيئةً لأنه يجعل من المرأة ضحيّةً عندما تكتشف المرأة بعد فوات الأوان أن الإنسان الذي يستهين بالوقت ليس إنساناً، ولكنّه شبح إنسان. شبح إنسان لأنه لا يملك في الواقع الكنز الذي راهنت عليه وهو: الروح! ولهذا تخسر المرأة العالم (لأن قلب المرأة رديف للعالم في ناموس المرأة) في حين يكسب الشبح الجولة لأنه لا يملك ما يخسر. يكسب لأنه لا يملك الروح. هنا تنقلب الآية لأن من ظننّاه في الصفقة فاوست يستعير هوية ميفستوفلس، ومن ظننّاه ميفستوفلس ينقلب فاوست. تتبادل المرأة مع الرجل الدور لتجد المرأة نفسها تلك الضحيّة البدْئية التي تروي سيرتها الكتب المقدّسة التي كان لها الفضل في تنصيب المرأة ملكة على عرش الخطيئة!

Twitter: @alqareah

تخسر المرأة الحبّ، ولكنّها تكسب الحرب، لأن الذرّية التي تنالها في الصفقة ليست مجرّد تعويض، ولكنّها انتقامٌ يمحو الحدود بين مخدع العشق وفراش الموت: تنال المرأة الرجل بالعشق، كما لا ينالها الرجل إلاّ بالموت!

Twitter: @alqareah

28

عدتُ إلى الشمال يتيماً مرّتين لا مرّة: يتيمٌ بغيابِ أبٍ كان شخصه لي رمزاً، وسيرته لحياتي قرون إستشعار. ويتيمٌ مرّة أخرى لانهيار قيَمٍ كانت للروح خيوط استدلالٍ في دنيا هي متاهة مينوس الأسطورية، فحصدت في الشمال الخيبة مرتين، بدل أن أنال العزاء مرتين. فروح الإحتفال كانت قد إستشرت في جسم المجتمع هناك أيضاً لتبدأ في الإطاحة بعروش التقاليد الأخلاقية النبيلة. وما كان لي عوناً في تشخيص المرض هو موقف الشاهد (الإبن الشرعي لهويّة قدسيّة هي الإغتراب) مقابل موقف الشريك (الإبن المدلّل لهوية الإستقرار).

فما لا يُصدَّق هو ما فعله دين الإحتفال بالقوم في زمنٍ وجيزٍ أعجز أن يفعله بهم الأعداء على مرّ العصور، وهو: **الإنحطاط** الذي غرّبهم عن أنفسهم ولفّق منهم مسوخاً. وهي مكيدة مزدوجة الهوية: سياسية من جانب، وغيبيّة من جانبٍ ثانٍ. السياسية مخطّط مدبّر من قبل النظام، والغيبيّة طبيعة كامنة في اللقية. طبيعة كامنة في أخطر هبة وهي: الكنز! الكنز المسكون باللعنة لا لأنه كنز، ولكن لأنه هبة مجّانية أوّلاً، ولأنه هوية مجهولة ثانياً. فإذا كان ذهباً على سبيل

Twitter: @alqareah

المثال إشترط تخليصه ممّن آلت ملكيّته له (سواء أكان ذلك أرواح الخفاء، أم روح الأرض نفسها) دماء القرابين وإلاّ تحلّل رماداً. والقربان قد يكون سخيّاً وفي النادر أن يكون هيّناً. كما قد يكون بشرياً، وفي النادر أن يكون حيوانياً. والليبيّون لابدّ أن يدفعوا المكوس نزيفاً مميتاً مقابل إمتلاك كنزٍ مجبولٍ بروح الأض، ومطبوع بنزيف هذه الأمّ (وهو النفط) دون أن يدروا أن قربانهم ليس نزيف دم، ولكنّه أعظم شأناً بما لا يقاس لأنه ببساطة **نزيف روح!**

فامتلاك كنزٍ كهذا هو لعنة لأنه يولّد الإستهتار بنشاطٍ قدسي لم يوجد لنيل حُطام دنيا أو لسدّ حاجة إلى القوت، ولكن للبرهنة على الحضور قيد الحياة وهو: **العمل!** إنه ذلك الطقس الغامض الذي لا يُكتب لنا أن نذوق طعم عنقاء إسمها السعادة إذا لم نمارسه. إنه ليس مجرّد صلاة، ولكنّه الدَّيْن الذي ننصّبه إماماً على عرش الصلوات، لأنه الشفيع المخوّل بإجازة بقيّة الصلوات.

فإذا كانت الأمّة الألمانية في عبادتها لدين الإنضباط الكلاسيكي لا تملّ من أن تلقّن: «الواجب أوّلاً ثمّ اللذّة!» فإن أمّة أخرى كالسويسرية مثلاً تأبى إلاّ أن تغالي فتقول: «الواجب أولاً، ثمّ الواجب ثانياً، ثمّ الواجب ثالثاً، ثمّ اللذّة أخيراً!». فبماذا تدين الأمّة التي سقط عليها الكنز من المجهول دون أن تسفح قطرة عرق بالمقابل؟ لسان حال هذه الملّة يقول: «اللذّة أوّلاً، ثمّ اللذّة إلى الأبد، ولا مكان في الدنيا الفانية لواجب، والعمل البغيض من نصيب العبيد!». ففي حين تنصّب النزعة الأولى والثانية من العمل

Twitter: @alqareah

(كقرين لمبدأ الواجب) معبوداً، تعمد العقلية الثانية إلى إهانة العمل وتنصيب الإحتفال سلطاناً بديلاً للعمل. والعادة في الممارسة لا تكتفي بأن تحوّل هذا العمل إبتذالاً، ولكنّها باستمراء الأمر تحيله رذيلةً لها الكفاءة في أن تستحيل إثماً. والقصاص على هذا الإثم هو **الخواء**. الخواء الروحي المنتج لانحطاطٍ يبقى في ظلّ هيمنة الأنظمة الشمولية مكتوماً على نحوٍ مّا يتحيّن الفرصة ليكشف عن وجهه البشع ما أن تتزعزع الأركان بالزلزال كما شهدتُ مرّةً عام 1991 عقب انهيار الإمبراطورية السوفييتية في قنصلية هذا النظام بطرابلس: قنصلٌ مخمور منذ الصباح يتنقّل بين المكاتب صارخاً في وجه الجمهور وموظّفي القنصلية على السواء بأكثر الألفاظ سوقيّةً في حرمٍ دبلوماسي سوفييتي كان بالأمس القريب نموذجاً للإنضباط والوقار وتقديساً لحرف القانون الوضعي، فكيف بأبجدية الناموس الأخلاقي؟

ولم أكن لأدري أن مفاجأة من هذا القبيل كانت تنتظر مجتمع بلادي بعد أكثر من ثلاثة عقود إبتداءً من ذلك التاريخ (1979) لأرى النموذج يتكرّر لا على مستوى المسلك الشخصي من موظّف يمثّل خارج الوطن روح أمّةٍ وحسب، ولكن على المستوى الجماعي الذي يعبّر عن تدهور المجتمع الأخلاقي ليحيل الواقع عقب الخلاص المنتظر إلى ساحة مروية بنزيفٍ دمويٍّ سخي. ولكن كان على العدوس أن ينتظر القيامة المخفيّة في ثنايا الخلاص الموعود إلى حين، ليعاني في تلك السنوات كيف تنتقل جرثومة الوباء من الداخل

Twitter: @alqareah

إلى خارج اَلبلاد محمولةً في شرايين تلك الفئة الشقيّة واللاأخلاقية من موظّفي الدولة (الملقّبة بالدبلوماسية) المشوّهة أصلاً بورم المحافل المغلقة، وعلينا أن نتخيّل إلى ما ستؤول إليه هذه الشريحة عندما تزدوج في مسلكها هاتين الخصلتين المرَضيّتَين فتكون رسولاً لأمّة في محافل الأمم!

نزلت الحاضرة في طريق العودة جريحاً. جريحٌ بغياب رعيل الأشياخ الذين كانوا لي الجامعات التي سبقت الجامعات، وظلّوا لرسالتي أنصاراً. وجريحٌ مرّةً أخرى لتضعضع المثل الأخلاقية التي انفطر عليها جيلنا. وجريحٌ ثالثاً لهيمنة روح الإبتذال في الهوس بالولائم الذي أمات في النفوس بلسم الإستنفار. وجريحٌ رابعاً بالطعنة التي تنتظرني في مدينة الساحل المريضة بالإنهيار الإداري في مؤسسات الدولة، وإجراءات الإفقار الإقتصادي كأنّه ضربٌ من التشفّي الخفيّ. إنه نموذجٌ مصغّر ربّى في أفئدة الناس عدواناً قبيحاً كان بالأمس فقط غريباً عن طبيعة المجتمع. تغلغل الزيف في صميم العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان، فصار الناس تعساءً، لأنهم كفّوا عن التطلّع إلى الشمس في معجزة شروقها، وفي ملحمة غروبها. إغتربوا عن بعضهم البعض لأنهم ما عادوا يرون في البحر بحراً، ولا في المطر غيوثاً، ولا في الريح رسولاً، ولا في أغاني الطير البرهان على وجود الله!

Twitter: @alqareah

29

طرابلس ـ القطب في ثالوث المدن التاريخية الماقبل تاريخية.

ما زالت تنكبّ على بحر ليبيا المجبول بالأساطير والأشعار والروح الغنائية التي كانت تعويذة الوجدان في العالم القديم.

طرابلس التي هدهدت في أحضانها عبر تاريخها الطويل، طوائف أمم ومختلف الثقافات ليقف معمار بيوتها شهادةً على هذا المزيج الثريّ من بربري إلى روماني إلى إسلامي، هاهي تتنكّر لهويّتها وتغترب عن نفسها كما اغترب عن أنفسهم أهلها لينسف التعصّب العرقي، في حلفه مع العماء الأيديولوجي، في عقدٍ واحدٍ فقط ما شيّده التسامح في ألوف الأعوام.

ها هي تتنكّر لمعبودها الخالد والوفيّ البحر لتصدّه بعيداً عن محرابها بفعل مخطّط الفتنة، ثمّ لا تكتفي بهذا التجديف في حقّ حميم الأبود، ولكنّها تلفظ من حرمها المدينة القديمة التي كانت روحها لأن المكيدة شاءت لها أن تستضيف في قلبها حميماً غريباً ذي روحٍ غريبةٍ عن سجيّتها كأنّها تحاكي أهلها الذين تنكّروا لروحهم فاستعاروا لأنفسهم روحاً أخرى. وها هي روح المكيدة تلبسها ثوباً لا يتناسب مع وقارها، ولا مع مقامها، ولا مع تاريخها. ثوبٌ مزيّف

Twitter: @alqareah

وفوق ذلك بشَع فتبدأ المعالم التي عرفناها وعشقناها في حضارتنا تتوارى لتكتسب سيماءً بلا روح، لأن الروح التي كانت للمدينة حارساً منذ الأزل هجرت المكان كمداً.

في شارع الإستقلال (الذي لم يعد شارع الإستقلال أيضاً) حيث مازالت تنتصب بعض الأعمدة التاريخية المستعارة من كعبة عالم ما قبل التاريخ «لبدة العظمى» لتسند بنياناً لم تمتدّ إليه يد الشرّ بعد لتمحوه من الوجود كما محت تمثال سليل لبدة الإمبراطور سبتيموس سفيروس من أمام مدخل المدينة القديمة؛ هنا إلتقيت مريد الأدب النبيل نبيل رحّال بعد عودتي من الجنوب في طريقي إلى الشمال لأوّل مرّة بعد فراري الأخير عند حملة الإعتقالات الأخيرة في صفوف الجيل الجديد من حملَة صليب الشقاء الذي نسمّيه أدباً. فالزمن كان يونيو من عام 1979. والمكان طرابلس، شارع الجمال الذي كانت حسان الطليان يستعرضن فيه حسنهنّ في الأمسيات، وكانت مقاهيه محافل الأدباء طوال عقد الستينيات وبدايات السبعينيات.

ولكنه في يوم اللقاء ذاك كان خالياً لا من حسن الحسان وحسب، ولا من محافل الأدباء وحسب، ولكن من المقاهي التي اعتاد أن يؤمّها الأدباء أيضاً. كان خالياً من المحلاّت التجارية التي يحجّ إليها مريدي الأناقة في كلّ القارّة لأن آخر صيحة في موضة أي هندام في العالم أو في تقنية المجوهرات، أو الساعات، أو كلّ ذخائر الترف، كان بوسع المريد أن يجدها في هذا الشارع قبل أن

Twitter: @alqareah

تحلّ في محلاّت باريس أو جنيف: سيجدها بسعرٍ في المتناول لا يمكن أن يقارن بسعرها في أسواق باريس أو جنيف. هذا الشارع المجيد ليس خالياً الآن من كل ماله صلة بالأناقة، وبالثقافة وبالجمال، بل وبالحياة أيضاً، لأنه إذا كان خالياً من البشر، فإنه كان عاصفاً بالريح! ريحٌ محمّلة بالغبار الذي استأسد في الآونة الأخيرة ليشنّ الهجمات الهمجيّة على مركز المدينة بسبب حملة إستئصال الأشجار التي كانت طوقاً يحمي المدينة من الجنوب بدعوى السياسة الزراعية الجديدة التي قضت على البيئة الوطنية بوحشية دون أن تفلح في سدّ حاجات أهل البلاد حتى من الجزر أو السَلَطَة. والنتيجة كانت كارثة بيئية شاملة بحصيلة سخيّة من اللّاسيماء!

وأذكر في ذلك اليوم البعيد كأنه بالأمس القريب. تشبّث بالذاكرة لأنه لم يكن لقاءً بقدر ما كان مرثيّةً. المرثية ليست في عيون ذلك الإنسان الشقيّ، ولكن المرثية في عيون المدينة وبلسان كل ركنٍ في المدينة. فالرفقاء الذين لم يسكنوا وراء القضبان، سكنوا بيوتاً تحوّلت بفعل الإفلاس والعزلة والإحباط إلى قضبانٍ أسوأ ربّما حتّى من قضبان السجون. ففي السجون يجتمع ذوو الهمّ الواحد على الأقلّ، أمّا في المدينة فكلٌّ حمل سجنه الخاصّ ليفرّ به إلى عزلته الخاصّة.

نبيل رحّال فاجأني مرة أخرى عندما أخبرني أن الكلّ ظنّني سجيناً. والإنسان الوحيد الذي فكّ طلسمان هذا اللغز هو أبو زيد دوردة. والسبب شبح الخوف الذي خيّم في تلك الأيّام على العلاقات بين الناس فلم يجرؤ أحد أن يستفهم عن مصير أحد دون

Twitter: @alqareah

أن يعرّض نفسه للمساءلة أو المتاعب التي قد تنتهي إلى المعتقل وهو ما حدث مع أبرياء كثيرين شاء سوء الحظّ أن يجعلهم أكباش فداء للتدليل على واقعية أدب كافكا الكابوسي. وقد تزامن الحدث مع بلوغ القمع ذروته في أجواء ذكّرتني بالمناخ الذي كان سائداً في روسيا الستالينية إبّان الثلاثينيات حيث لا وجود لضمان أو أمان أو ثقة في أيّ مخلوق حتى لو كان هذا المخلوق هو صاحب الشأن نفسه! وتلك هي بليّة الأنظمة الإستبدادية التي تضع زمام العدالة بيد جلاّدي العدالة المتمثّلين في الأجهزة الأمنية. ولهذا لم يكن مقبولاً الإستفهام عن مصير أيِّ سجينٍ سياسيٍّ من قبل أي مسئولٍ في النظام مهما كان حجم مسئوليته، ومهما كان قربه من رأس النظام. وقد أخذ أبو زيد على عاتقه أمر الإستفسار لا لمسئولياته الوزارية أو قربه من رأس النظام، ولكن لخصاله الشخصية النبيلة التي عرفها فيه كل من عرفه مثل شجاعته في تحمّل مسئولية أي فعل إقتنع به حتّى لو كان خطأً.

لا أدري اليوم عمّا إذا كان أبوزيد قد فاتح في أمري رأس النظام عند تعييني كمندوبٍ للجمعيّة كما أكّد البعض، ولكنّي على يقين بأنه لن يبخل بالجهد دفاعاً عنّي فيما لو تمكّنت منّي الأجهزة الأمنية في تلك الجولة وهو الذي تحمّل مسئولية تعييني في حين أعجز ذلك آخرون كانوا أقرب لي منه كالزوي مثلاً. أقول هذا برغم تأكيد عرفته بعد سنين أن إسمي في تلك الحملة كان يتصدّر القائمة بالفعل كما تصدّرها في الحملات السالفة. ذلك أن الأجهزة الأمنية لا تغفل عن

Twitter: @alqareah

طرائدها أبداً. وما صرّح لي به فوزي البشتي عن نوايا هذا المحفل الشرير إزاء شخصي في جولة 1975 إنّما يعبّر عن هذه النزعة: نزعة النظر إلى دخول المعتقل كدَيْنٍ مستوجب الدفع إن لم يكن عاجلاً فآجلاً. فنَفَس هذا البعبع طويل، بل وأطول ممّا نتخيّل. والتجارب هي التي برهنت على ذلك. فكيف حدث ونجوت من هذا الشرَك برغم المؤامرة الأبدية؟

لو كنت أؤمن بسلطة الحظوظ لحكّمت الصدفة في هذا الشأن. ولو كنت من أهل التسليم لأرجعت الفضل للعناية الإلهية بالطبع. ولكن الحقيقة أن لا الحظوظ تهب بالمجّان، ولا العناية الإلهية تجير بدون مكوس. فالإيمان سلطانٌ جبّار، ولكنه ليس سخيّاً فيوزّع عطاياه بلا مقابل. ففي كلا الحالين تسود قوانين خفيّة جديرٌ بنا أن نتأمّلها. فعندما يجمع أهل الحكمة على القول بأننا في الواقع مذنبون في كلّ ما يحدث لنا من خيرٍ أو شرّ، فإنّما ينفون عن الحظّ هوية الصدفة ويسحبون من تحت أقدامه روح المجّان. أمّا عندما يحثّوننا على التشبّث بعروةٍ وثقى هي الإيمان فإنّهم لا يدعوننا لاعتناق مبدأ الفرجة على المسرحية من وراء حجاب، أو الإعتصام باللامبالاة. فالعناية الربوبية لا تهرع لنجدتنا إستجابةً للصفقة المعتمدة في دين الشعائر كالإبتهال أو الممارسة الحرفية للصلاة، لأن هذه الممارسة هي دفعٌ لدَينٍ مسبق، ولا صلة له **بالنية** كشرطٍ للصلاة الأخرى الحقيقية. فما هي النية يقيناً؟ إنها كلمة السرّ في التجربة الإيمانية التي تنفي الأمنية المبتذلة في أداء الشعيرة التقليدية لتحيي بالتجلّي الروح

Twitter: @alqareah

في العلاقة. ولهذا يقال أن ما نتأمّله عميقاً يتحقّق. لا يتحقّق لأننا نريد، ولكن لأن الأمر بالنسبة لنا **سيان**! لماذا هو سيان؟ هو سيان بسبب خصلة رهيبة لا نعيرها ما تستحقّ من عناية عادةً وهي: الشجاعة! لماذا الشجاعة؟ لأن الشجاعة في بُعْدها الزهدي هي: الحرية! ولمّا كان بلوغ هذه التخوم (المشرفة على أعجوبة البعد المفقود) خلاص من روح الصفقة، وإنكار للنفع، فلابدّ أن يهيمن السلام **ليغترب إلى الأبد الفرق بين الحياة والموت**! والإنسان الذي اختار سبيل السُّرَى طلباً للمعنى الذي لا وجود له خارج الحقيقة تستوي عنده الحياة مع ما يبدو نقيضاً للحياة وهو: الموت! لأنه لا يعوّل في رحلته على شيء عندما يخطو وحيداً في بلاط الحرية التي هي حضور في ملكوت الربّ. فهل في دنيا الفناء قوّة تستطيع أن تقهر إنساناً يرى في الموت ميلاداً؟

الحرية التي تلغي الحدود بين الموت والحياة هي حصانة عدوس السُّرَى من شرور الأجهزة، ومن مكائد الزبانية!

إنها سلطة العهد الخفي المبرم بين مريد الحقيقة وبين ربّ الحقيقة. ولذلك هو نافذ المفعول، ولا وجود لسلطان يملك عليه سلطاناً، برغم أن الأغلبية تجهل بنوده لأن ما يعجزها حقّاً هو: التخلّي عن الصفقة!

Twitter: @alqareah

30

في وارسو عام 1979 خيّم شبح الهمّ الكينوني.

فاغتراب العدوس ليس في وجوده خارج الوطن، وليس في وجوده بين أناسٍ لا يفهمهم ولا يفهمونه، وليس في وجوده في واقعٍ ينكره كما أنكره، ولكن في وجوده خارج حدود الوجود. ولهذا لاً ترياق لمثل هذه الدّاء سوى الإستجارة بتلابيب الإبداع، فإن إستعصى فالموت! وأحسب أن سرّ هيمنة الهمّ الكينوني ليس في غياب الحقيقة عن عالمنا وحسب، ولكن في غياب الشعر من واقعنا أيضاً. وسبب البليّة؟ سبب البلية المباشر هو السياسة بالطبع. فمهما تنكّرنا لهذه السعلاة الكريهة، ومهما أفلحنا في إسقاطها من حسابنا، بيد أنها تأبى إلاّ أن تجد السبيل إلينا حتى لو استجرنا بقيعان أعمق قمقم. السياسة التي لا تفرض نفسها على أحد كما تفرض نفسها على ضعاف النفوس (من فئة شقيّة كالمثقفين) الذين لابدّ أن يتعلّقوا بقشّة خشية الغرق في يمّ الهمّ الكينوني، فلا يجدوا في عبّها سوى وباءً خبيثاً إسمه الأيديولوجيا فيدمنونه لأنه **الوصفة الجاهزة** الوحيدة التي تجيرهم من شبح الهمّ الكينوني وتهبهم المبرّر لبقائهم على قيد الحياة. فالأيديولوجيا حقّا هي أفيون القرن الذي أدمنته الأغلبية

Twitter: @alqareah

الثقافية في جيلنا لا على مستوى أوطاننا وحسب، ولكن على مستوى العالم، لتلعب هذه البدعة أبشع دور في الإساءة إلى إبداع القرن العشرين بأسره. ولكن زيف هذه المعبودة بدأ يتّضح مع نهايات العقد السابع عشر من القرن لأكون شاهد العيان الذي عاصر محنتها، ثمّ موتها السريري إلى اليوم الذي لفظت فيه أنفاسها الأخيرة، تماماً كما كنت شاهد العيان على ذروة مجدها في عرينها المهيب بالإتّحاد السوفييتي يوم كانت تقليعة الزمان التي عادانا أناس ظننّاهم أخلاّء بسبب إمتناعنا عن أداء الصلوات في معابدها، فيناصبونا العداء، بل ويذهبوا ليستَعْدُوا علينا السلطات السوفييتية آنئذٍ، فإذا بالعناية الألوهية تمهلني لأكون شاهداً على انهيار هذا الصنم فأرى كيف تنقلب تلك الفئة على دين الأمس لتعتنق النقيض ديناً بديلاً. فهل نشمت بهم، أو حتّى نلومهم على هذا الإبتذال؟ بالطبع لا! لما لا؟ لأن من حدّق في عين الهمّ الكينوني وحده يحترف الغفران ولا يعترف أبداً بثأر، لأنه وحده يعلم مدى قسوة المواجهة مع بعبع الهمّ الكينوني. ففي الوقت الذي كانت فيه أنظمة الظلال (كما هو الحال مع أنظمة العالم الثالث) سادرةً في غيبوبتها، كان النظام في بلادي يمارس لعبة خبيثة لم تكن لتنطلي على العالم لولا لا أخلاقيّة هذا العالم وهي **استثمار الحرب الباردة** بين القطبين المركزيين. ففي سبيل إكتساب الأمان من شرّ الغرب إستجار النظام بالعداوة للشيوعية، وفي سبيل كسب ودّ الشرق إستجار النظام بالعداوة للغرب. وهما عداوتان مزعومتان بالطبع لأنهما مجرّد جعجعة في خطابٍ إعلامي

Twitter: @alqareah

حسب. أمّا فعليّاً فالصفقة الحقيقية مبرمة بحرف النفع، حيث يتدفّق النزيف النفطي إلى آلة الغرب الصناعية بسخاء، في حين تتدفّق عائدات هذا النزيف على خزينة الإتّحاد السوفييتي وبقيّة أعضاء المعسكر لتغطية تدريب جيوش النظام المعدّة لغزو العالم!

واليقين أن إستثمار الحرب الباردة لم يكن ليتحقّق لولا لا أخلاقية الأيديولوجيات التي أنتجت هذه الحرب. ولذا فالإبتذال في العلاقات الدولية كان الإبن الشرعي للأيديولوجيا. وها هي حملات تصفية الخصوم التي يتمّ بموجبها كتم صوت الآخر بفوّهة كاتم الصوت تبدأ مع نهايات العام، وها هي الحملة العبثية في حرب أوغندا تزجّ بشبابٍ هم ذخيرة الوطن الحقيقية لإنقاذ شخصيّة كاريكاتورية مخبولة تبدأ قبل منتصف العام (1979)، لتكون هذه الأحداث كلّها سبباً في تنصيب الهمّ الكينوني ربّاً على الوجود، سيّما عندما يكون بعض من طالتهم يد الغدر من رموز حملة التصفيات الآثمة ممّن عرفنا يوماً مثل المحامي محمود نافع الذي إلتقيته في لندن مرتين، وكذلك محمد مصطفى رمضان المذيع بهيئة الإذاعة البريطانية والمثقّف الإسلاموي المعروف الذي إلتقيته بلندن مرة.

كانت روح الإستهانة بالقيم قد أدركت الشعفة، ونزعة العبث صارت دين الواقع بلا إستحياء، والزيف هو قوت الحياة اليومي، فكيف لا يقرع المخاض الأبواب لينجب المجهول الفأرة التي ستثقب سدّ مأرب بعد هذا التاريخ بشهور؟

ليخ فاليسا كان الفأرة، وسدّ مأرب هو النظام الشيوعي الذي يهيمن على العالم لما يقرب القرن من الزمان!

Twitter: @alqareah

31

ليخ فاليسا فأرة؟

هل يعقل أن يكون البطل الذي كان سبباً في نسف أشرس منظومة سياسية وأيديولوجية وعسكرية في العالم قاطبة، وفي كل الأزمان أيضاً، مجرّد فأرة؟

بلى! هو في عرف القدر فأرة، بل ربّما أقلّ شأناً من فأرة. هو فأرة ليس لأنه عامل الكهرباء البسيط الشبه أمّي الذي رفضت إحدى الشركات البولندية العاملة في ليبيا توظيفه للعمل بليبيا ليكون هذا الرفض سبباً للزلزال المنتظر. بل رفض أحد موظفي الشركة كان حلقةً أخرى في السيرة التي نسج خيوطها القدر، تماماً كما كان خلاف تافه بين قائد جيوش الأمم اليونانية آج أممنون مع بطل الأبطال أخيلوس حول الغانية إبّان حرب طروادة الذريعة في تاليف أعظم ملاحم البشرية على الإطلاق وهي: «الإلياذة». فالمهمّ في ناموس المجهول هو السبب، الذريعة، المفتاح، وكلمة السرّ، الشرارة الكفيلة بإشعال نار جهنّم. ولهذا وقع الإختيار على فاليسا ليتزعّم إضراب أحواض السفن عام 1980 ليتعاطف الشعب مع هذا الإضراب بإضرابٍ عامّ هو في لغة الخطاب السياسي **عصيان مدني**

Twitter: @alqareah

ليستعير مستشاروا فاليسا هذا التضامن الشعبي ليطلقوه إسماً حمل إلى العالم رسالة حركتهم وهو: «**التضامن**». إختار داهية الدهاة القدر فاليسا عام 1980 لهذه المهمّة، كما إختار عام 1976 غورباتشوف بتعيينه عضواً في المكتب السياسي ليكون البذرة ـ الذخيرة التي ستنسف بعد حين كيان أعتى إمبراطوريات التاريخ. ولكن.. ولكن لماذا نذهب في طلب الأدلّة بعيداً إذا كان واقعنا بالأمس القريب قد مَنَّ علينا بأعظم برهان على قدرة القدر في تسخير أقلّ خلقه شأناً في تدبير أعظم شأن ممثّلاً في شخص الفتى محمد البوعزيزي الذي صار سبباً لإشعال فتيل الحريق الذي أتى على حفنة الأنظمة التي هيمنت على واقعنا بتلك الروح الفظيعة التي لا تقارن إلاّ بهيمنة التنّين على أهل طيبة؟

Twitter: @alqareah

32

حركة التضامن لم تكن مسماراً في نعش نظامٍ سياسي محدّد وحسب، ولكنها كانت رصاصة الرحمة في رأس بعبعٍ إحتضر طويلاً وهو الأيديولوجيا الشيوعية. وكان من الطبيعي أن يزلزل الحدث المفاهيم فتتضعضع تبعاً لذلك القيَم، لينتصب الإفلاس على الواقع شبحاً لا على المستوى المحلّي وحده، ولا على مستوى المنظومة التي إعتمدت هذه الأيديولوجيا ديناً وحسب، ولكن على مستوى العالم الذي تعاطف مع المنظومة ودار في فلكها سياسياً وإقتصادياً وثقافياً كما هو الحال مع العالم الثالث، ذلك المصطلح الذي لم يكن ليوجد لو لم تبتكره تلك الأيديولوجيا نفسها!

فهل هو الخلاص؟ كلاّ بالطبع. فموت المعبود جرح. جرحٌ روحي ولم يكن يوماً فوزاً بالحرية أو نيلاً لخلاص ما لم يبلغ النزيف تخومه القصوى. وكان على إنسانٍ كالعدوس الذي تحيا فيه روح الجيل أن يتساءل في زمن المخاض هذا إلى أيّ مدى حقّق التوازن بين الهوية الطبيعية من جانب والهوية الثقافية من جانبٍ آخر. فلا شيء في تلك الأعوام دلّل على انتمائي إلى مملكة الطبيعة الأمّ في وقتٍ بلغ فيه يأسي من نفسي حدّاً أنساني هويتي الثقافية. لم يغب

Twitter: @alqareah

الكتاب وحده من حياتي في هذه المحنة، ولكن غاب الإبداع أيضاً.
لم أستشعر لذّة العدم التي تلبّستني يوم حاصرتني العاصفة الثلجية الليلية في شوارع حيّ تيكستلشيكي الخالية من السابلة عام 1975 بموسكو ففهمت لماذا يستدرج الموت الناس ليضعوا حدّاً لحياتهم، ولكن الحال في وارسو عام 1979 ـ 1980 إختلف. كانت تلك ماليخوليا من طرازٍ آخر. ماليخوليا تستثير الإشمئزاز من الحياة، ولكنها لا توقظ الهوس بالموت كما هو الحال مع تجربة موسكو. ماليخوليا سلبية. الماليخوليا كانت معشوقتي الأبدية. الماليخوليا المعشوقة التي لم أخترها. الماليخوليا المعشوقة التي إختارتني لتلعب في طوافي دور كاهنة الأقنعة كأنّها ربّة الأجيال «تانّيت» التي يروقها أن تتباهى بحضور اللاحضور. بالحضور من وراء حجاب، وتتوعّد بالويل كلّ من يجرؤ فيحاول أن يكشف القناع عن وجهها. الماليخوليا رسول ربّة الأسلاف هذه للسليل الضّالّ في عسعس السُّرَى.

أفرّ من وجهها ببعض الحيَل التي أثبتت فشلها، ولكن هيهات. كانت تنتقم منّي بأسوأ قصاص. كانت تسخّر الضمير فلا تكتفي الروح بأن تنوح، ولكنّها تنزف، فلا يبقى سوى الإستجارة بالطبيعة. والإستجارة بالطبيعة هو إستجارة بربّة الطبيعة نفسها «تانّيت». فهل أتى الشفاء؟ كلّا. الشفاء لا يتحقّق لأن الجرعة ليست كافية. الطبيعة لا تقنع بالزيارة العابرة. الطبيعة لا تعترف بالمجاملة. الطبيعة هو ما لا تنطلي عليه الحيلة. الطبيعة لا ترتضي أنصاف الحلول. ناموس الطبيعة

Twitter: @alqareah

لا يختلف عن ناموس المعشوقة التي تأبى إلاّ أن تنال كل شيء. إنها معبودة الحدود القصوى. إنها تريد أن تنالنا. إنها تريد أن تسترجعنا. إنها تريد أن تنهي اغترابنا فتعيدنا إلى بطنها. وهي تملك الحقّ لأننا لسنا في نهاية المطاف سوى أبنائها. إنها تستدرجنا لأنها تريد أن تضع حدّاً لآلامنا. إنها تريد أن تستعيدنا لا لأنانية هي طبع كل أمّ، ولكن شفقةً علينا من ألم الوجود!

فهل نلبّي النداء؟ كلاّ بالطبع. فنحن برغم هوسنا بالأمّ بيد أننا أسرى الضرّة التي قادتنا إليها الخطيئة الأولى. ولذلك نحن رهائن في رحاب العمران. لسنا رهائن وحسب، ولكننا ضحايا في كفاحنا الأبدي في سبيل تحقيق التوازن بين الهويّتين المتعاديتين. وتأتي سعلاة الدهر **الماليخوليا** لتجعل من العدوس شهيد الإغتراب المزدوج: الإغتراب عن مملكة الطبيعة، ثم الإغتراب عن ملكوت الروح. وغياب الصحراء من حياة عدوسٍ يحاول أن يجد في العالم صحراءه الضائعة هو اغترابٌ عن العالم الوحيد الذي حقّق أعجوبة التوازن بين هاتين الهويّتين الغيبيّتين على نحوٍ لن يكتب له أن يتكرّر في أيّ مكان. فالإنتماء إلى تماهي حميمي بين بعدين هويّتهما عراءٌ أبدي في ذلك العشق الجنوني كما هو الحال في الصحراء ما هو إلاّ التعويذة الوحيدة القادرة على تهوين الهمّ الكينوني: ذلك المنبع الذي تستعير منه كلّ صنوف الماليخوليا مؤهّلاتها المميتة!

Twitter: @alqareah

33

في ربيع عام 1980 حدثت في جحر الأفاعي (المسمّى سفارةً) تحوّلات.

إنّه النصيب المؤجّل من تلك الحملة الجنونية التي شنّها النظام لتطهير السفارات بالخارج بعد عشر سنوات من إستيلائه على السلطة لتنال في الأدبيات السياسية الثورية إسماً فلكلورياً مستعاراً من هوية الجموع ذات الروح القطيعية وهو: **الزحف!** وهي محاولة لتقنين روح الغوغاء الكامنة بالطبيعة في عقلية الجموع، وإستثمار جرأة هذه الجموع في إرتكاب تلك الكبائر التي لا يكتمل الإستيلاء على الحكم بدونها، ولا يرتدي مسوح الشرعية ما لم تستمدّ قوّتها لا في الفعل وحسب، ولكن في حرف اللغة أيضاً. وهو تجديفٌ اعتدناه في الثورات التي يروقها أن تضحّي دوماً بالمضمون في سبيل الشكل في حمّى توقها إلى التغيير جهلاً منها بالحقيقة الميتافيزيائية لهذا التغيير الذي يكتسب روحاً آثمة ما ظلّ قسريّاً، وليس فعلاً تلقائياً من تدبير الوصيّ الأول على الكون وهو الطبيعة: الطبيعة في سيرة حلفها الغيبيّ مع خليفة ذي هوية غيبيّة أيضاً وهو: الزمان!

كان الإبتذال في استباحة حرم اللغة قد بلغ الذروة في خطاب

Twitter: @alqareah

تلك الأيام حتّى انقلب هوساً مخجلاً. فكم من جرمٍ تمّ إرتكابه، وكم من قانونٍ أخلاقيٍّ ووضعيٍّ تمّ إنتهاكه من خلال ملفوظة زحف التي ترجمت سياسة جائرة (وفوق ذلك هوجاء) لتنحت في ذاكرة الجيل مفهوماً جديراً بإسم **ثقافة الزواحف** التي لا يعبّر عنها المفهوم حرفاً مشتقّاً من الزحف وحسب، ولكن يعبّر عنها الإنحطاط كفعل من طبيعة كلّ دابّةٍ ضارّة في الأسافل وهي: الزواحف!

وها هي السلالة المشبعة بروح الزواحف تنتهز حلول الذكرى العاشرة لحركة 69م لتفتعل معركة جديدة تصلح إضافةً جديدةً في معجم الوهم المسمّى بـ«الإنجازات» فتواصل مسلسل الزحف الأبدي بالإستيلاء المسرحي على السفارات وتحويلها من إسمٍ جليلٍ وعريقٍ ومعترف به دولياً مثل **سفارة**، وإستبداله بإسمٍ آخر وضيع وضاعة الزواحف، ومهين لهوية السفارات كمفهومٍ رديفٍ لرسالة الرسول، وهو: **مكتب شعبي!**

لقد كان ذلك بمثابة فصلٍ جديدٍ من فصول الإستفزاز التي مورست بالداخل والخارج طوال عقدٍ كامل، علاوةً على طبيعته كخرقٍ للمواثيق الدولية، وعلى رأسها إتفاقية فيينّا بشأن تنظيم العلاقات الدولية في مجال غاية في الأهمّية وهو السلك الدبلوماسي والقنصلي الذي لا يعترف بغير السفارة ممثّلاً لدولة لدى أيّ دولة أخرى. وبدل أن يستنكر العالم هذه الصرعة الجديدة ويرفض الإمتثال للجنون، نجده يستجيب لها برغم حقيقتها كصفعة للحطّ من شأن المعاهدات المنظّمة للعلاقات بين الأمم، فيعترف بالشطحة ويقوم

Twitter: @alqareah

باعتمادها مضحّياً بالمباديء الأخلاقية الشقيّة التي كُتب لها أن تكون القربان الأبديّ كلّما كانت الصفقة في النزاع طرفاً. فحيثما تلقّت القيَم الأخلاقية طعنة فثمّ رائحة للمنفعة. والمنفعة في هذه الحال هو نزيف الأرض المسمّى في لغة النفع نفطاً. لم يكن يهمّ النظام أن ينحطّ شأن سفرائه تحت مظلّة الإسم الجديد درجة في السلّم الدبلوماسي، بل درجات كما يستحقّ «المكتب» في المفهوم المنصوص عنه في الإتفاقيات الدولية، لأن غاية التجديف في حقّ المقدّس (الذي صار ناموس كلّ ثورة) هو الحطّ من قيمة كل شيء ذي قيمة بحيث يغترب إسم الوزير ليغدو مجرّد «أمين»، وإسم مهيب كالسفير أيضاً ينقلب «أميناً لمكتب» إلخ!

لقد جرّب البلاشفة في بداية عهدهم بالسلطة هذا العبث أيضاً يوم أطلقوا على سفاراتهم أسماء للتدليل على عبادتهم لإرادة الشعوب، ولكنهم تراجعوا عن هذه المغامرة ما أن اكتشفوا إنحطاط مستوى أعضاء بعثتهم الدبلوماسية بالمقارنة مع بقية البعثات الملتزمة بنصوص المعاهدة الدولية بشأن السلك الدبلوماسي والقنصلي. ولكن هيهات أن يتراجع من كان همّه أساساً هو الحطّ من شأن البعثة، بيد أننا لا نملك إلاّ أن نوافقه في شقّها المعلن وهو الإصلاح. فلا أحسب وجود مؤسسة في المسكونة في حاجة إلى إصلاح كما هو الحال مع الخارجية لا في ليبيا وحدها، ولكن الخارجية أينما وُجدت في هذا العالم. وهو إنجازٌ لن يحدث بتغيير الأسماء، ولا حتّى باستبدال الأشخاص. التغيير في بنية هذا المحفل لا يتمّ بدون بطولة تصيب

Twitter: @alqareah

روح المحفل. وروح أي محفل كما نعلم إنّما تسكن مبدأ الإستسرار! إنها قمقم مستغلق يستجير بنفسه برغم عداوته لنفسه. فلا وجود لمؤامرات يمكن أن تفوق مؤامرات أعضاء هذا المحفل في حربهم ضدّ بعضهم البعض. ولكن هذه العداوة لا تمنعهم من أن يتّحدوا عندما يتهدّدهم أيّ اختراق من خارج. إنهم يفوقون الأجهزة الأمنية نفسها في التحلّي بروح الإستسرار، لأن محفل الأجهزة إذا كان يحفل بالقوانين ولو شكلياً، بيد أن محافل الخارجية لا تحفل بأيّ قانون. ولهذا يعدم وجود **الرادع الوضعي**: أمّا إذا قارنّاها بالمحافل النفعية الأخرى فسوف نجدها تتفوّق على تنظيم عالمي رهيب آخر وهو المافيا. تتفوّق عليه في فنّ المكيدة بسبب لا أخلاقيّتها وبسبب فعالية فنونها، لأن إذا كان عصب المافيا يقوم على قاسم مشترك أعظم هو النفع، فإن محفل الدبلوماسية لا يكتفي بالنفع وحده كقاعدة مشتركة، ولكن هناك الإمتياز أيضاً. هذا الإمتياز الذي يستعير هنا هوية سلطة. سلطة من جنسٍ مميّز لأنها سلطة في مأمن الخطر المصاحب لكلّ سلطة. سلطة ذات حصانة من شرور السلطة بحصانة محفوظة بشرعٍ منصوص عنه في المواثيق الدولية. والفوز بسلطة من هذا القبيل حلم بالطبع. حلم لأنها سلطة في حلٍّ من أوزار السلطة. سلطة مجّانية تأخذ مريدها بالأحضان ما أن يعبر حدود بلاده متوّجاً بجواز السفر السحري الذي يفتح له أبواب الفردوس ليصير ملكاً دون أن يضطرّ لحمل عبء المملكة، وإنساناً معصوماً من العقاب بفرمان المواثيق الدولية، وطائراً مكفول الحرية أينما حلّ. والوهم الأعظم

Twitter: @alqareah

المرتكب بحرف الإتفاقيّات الدولية هو الظنّ بأن إنساناً كهذا إنتقل من وطنٍ إلى وطن الأغراب لكي يفعل ما من شأنه أن يساعد في مدّ قناطر التفاهم بين الوطنين، أو أن يمدّ يد العون لرعايا الوطن في إغترابهم، أو أن يقوم بأدنى فعل (هو من صميم واجبه الذي أُرسل من أجله) في سبيل إعلاء شأن الوطن الذي إنتمى إليه. إذا وُجد نموذج كهذا فهو عنقاء مغرب التي قد يكون لها وجود في بلاد الواق الواق، ولكن ليس في بلداننا. فعقيدة مريد السلك هو اللامسئولية في كلّ شيء، والتنصّل من الواجب الأخلاقي قبل التنصّل من الواجب الدنيوي. وعلينا أن نتخيّل محاولة تحرير الخارجية باجتثاث هذه الكائنات التي تتشبّث بجحورها المتوارثة جيلاً عن جيل لتحلم بالفردوس الذي ينتظرها خارج الحدود. لقد إحتكموا على الفور إلى الورقة التي لم تخذلهم يوماً: ورقة الإستسرار التي توهم بأنّهم من طينة يستحيل الإستغناء عنها، لأن بقاء الكون ببساطة رهين ببقائهم! والدليل؟ الدليل في المفارقة التي حدثت بعد تلك التصفيات المزعومة حيث لم تمرّ بضعة أشهر حتى رأينا كيف استعادت العناصر المستبعدة مناصبها بعد أن استبدلت قناع السفير بقناع أمين مكتب شعبي!

Twitter: @alqareah

34

إغتفر العالم للنظام هذا الطور الجديد من نوبات الصرع القديم أيضاً. وها هو الغرب يعتمد بعثاته الدبلوماسية في صيغتها اللادبلوماسية برغم أنف الأعراف الدبلوماسية ليقيم بذلك دليلاً جديداً على لا أخلاقية السياسة التي لا تستحي من أن تضحّي بكلّ قيمة إنسانية أو أخلاقية في سبيل منافعها الآنية. وإذا كان الغرب قد إعترف بالمغامرة في سبتمبر 1979، فإن الشطحة لم يتم تنفيذها في دول المنظومة الشيوعية إلاّ في ربيع 1980 بسبب البحث عن مخرج يرضي سدنة الأيديولوجيا السوفييتية التي لا تتساهل عادةً مع الشطط بل وتستنكر في سياستها الدولية هذا الجنس من التقاليع. وها هم غوغاء اللجان الثورية ينقضّون على مقرّ السفارة بـ«ساسكا كيمبا» في أحد أيام مايو المشمسة التي إنتظرناها طويلاً لتحرّرنا من أوزار القيافة الشتوية، فإذا بها تأتي لنا بما يحرّرنا من عقال العقل أيضاً إلى جانب عقال البدن!

صاح الغوغاء في بهو السفارة بشعارات تلك المسرحية الفلكلورية التقليدية ما شاء لهم أن يصيحوا قبل أن يقتحموا المكاتب لينصّبوا فريق عملهم الجديد المكوّن من لجنة (شعبية بالطبع) بأربعة

Twitter: @alqareah

أعضاء أمينها كان رجل يُدعى عبد الله البركي لم يكتب له أن ينعم بفردوسه الموعود طويلاً فاستُبدل بإنسانٍ يختلف عنه خلقاً وكفاءةً بعد بضعة أشهر هو رمضان عبد العزيز.

كانت تلك تجربة جديرة بالتأمل سيّما بالنسبة لإنسانٍ يعتنق دين السُّرَى كالعدوس ويقف مشاهداً للمسرحية الدنيوية بمجملها لا في فصولها الفيصل وحسب. لقد آلمني أن أودّع إنساناً أدّبته تجربة الإنقلاب نفسها وهو (حسّونة عاشور) ليُقصى من الجيش لا لذنب، ولكن لأنه حمل رتبة أعلى حقّقها بكفاءاته ودوراته الدراسية في العراق وفي أمريكا إبّان العهد الملكي، وهو الذي لم يأتِ إلى وارسو سفيراً برغبته، ولكن إبعاداً له عن الوطن وخوفاً من مكانته على الجيش! وها هو يخضع لإمتحانٍ آخر تلبيةً لنداء مغامرة تستهدف الأشخاص الذين يُخشى جانبهم ويرى فيهم خطراً على النظام. لقد حملت لهذا الإنسان في قلبي حبّاً عميقاً مجبولاً بإمتنانٍ أيضاً. فهو الوحيد في بعثة ذلك الزمان الذي كان صمّام أمان لتلك الحماقات التي اعتاد أعضاء ما يسمّى بالسلك إقترافها في الساحة سواء في حقّ الزملاء، أو في حقّ البولنديين، أو في حقّ صيت وطني الشقيّ الذي كُتب عليه أن يكون دوماً رهينةً في قبضة أناسٍ مهمّتهم أن يهينوه أينما حلّوا، بدل أن يحسنوا إليه أينما حلّوا كما يقضي الواجب الذي كُلِّفوا به. وهو ما حدث في الماضي ومازال يحدث اليوم وسوف يحدث غداً أيضاً ما ظلّ القوم على جهلهم بحقيقة مثالٍ يجب أن يكون معبوداً في مفهومهم وهو: الوطن!

Twitter: @alqareah

ذهبت إلى المطار في ذلك اليوم بقلبٍ جريح ليقيني بأنّي لا أودّع إنساناً كان جديراً بمحبّة وحسب، ولكنّي أودّع في هذا الإنسان روح جيلٍ يحتضر، تماماً كما ودّعت في غياب الأب روح الجيل الوحيد الذي عرف معنى أن يكون للإنسان في صحراء العالم وطن، ولم يكتفِ بهذا، ولكنّه علّمنا أن نحب هذا الوطن!

لم يحزنّي أن أخسر وجود حسونة عاشور بيننا وحسب، ولكن المحزن أكثر هو أن يخسر الوطن سفيراً في بلدٍ ذي أهمّية سياسية إستثنائية آنذاك بوصفه مقر حلف المنظومة كلّها كما بولندا. والبليّة الأخرى أن هذا لم يحدث في بلدٍ محدّد، ولكنّه هو السياسة الجديدة التي ستثمر قريباً تلك الفاكهة التي سمّمت بدن الوطن وحوّلت أبناء الوطن إلى مخلوقات منبوذة ومشبوهة أينما حلّوا. أمّا على المستوى الشخصي فاستعنت بيقيني القديم الذي ردّدته دائماً دون أن أجد له في الناس فهماً دائماً. إنه المبدأ القائل أن فضيلة العمل في الخارج في الفرصة التي يتيحها لنا كي نعرف لا واقع الأمم لنتعلّم من الأمم وحسب، ولكن لنتعارف ونتحابب ونتصادق كلّما وجدنا إلى ذلك سبيلاً. وأعترف اليوم بأنه مبدأ لم يخذلني برغم هيمنة الخبث على واقع البعثات الدبلوماسية عادةً. ففي تجربة موسكو كسبت أناساً كنت سعيداً بمعرفتهم أمثال علي مطاوع أو عمران العزابي أو السفير ضو سويدان. وفي وارسو إلى جانب حسونة عاشور هناك الزميل الهادي حمزة الإنسان البسيط ذي السجيّة العفوية النادرة الوجود في نفوس السلك الموبوءة بالرذيلة التي

Twitter: @alqareah

تستنكرها الألوهة وهي الخبث. وحتّى في السنوات التالية التي سادت فيها بلبلة اللجان لم يعدم وجود فرسان هم في يقيني هبة إلهيّة نفيسة أمثال محمد البدري ورمضان عبد العزيز وعثمان سعد. لقد كانوا لي ترياقاً في محنة إغتراب القيم طوال السنوات التي قضيناها معاً في سدوم العصر تلك. أمّا حسونة عاشور فقد نفّذت في شأنه تميمتي القديمة وهي الوفاء في حقّ من عرفت المتمثّل في وصل ما انقطع ما استطعت إلى ذلك سبيلاً. لقد دأبت على زيارته في مقرّ إقامته بمدينة الزاوية طوال عقدي الثمانينيات والتسعينيات كلّما حللت بأرض الوطن. وقد شرّفني بحضور إحدى محاضراتي بمركز الدراسات التاريخية (جهاد الليبيين سابقاً) أواخر 2004 م. وإذا كانت ظروفي الصحية قد منعتني من مواصلة أداء هذا الواجب في السنوات التالية فهو ما لا أغفره لهذا السلطان الجائر المسمّى مرضاً؛ لأن مجالسة رموز الزمن الضائع أمثال حسونة عاشور متعة لا تقلّ عن متعة المثول في حضرة أشياخ صحرائي الكبرى الذين رحلوا الواحد تلو الآخر ليخلّفوا لنا واقعاً دينه العقم!

Twitter: @alqareah

35

ماذا نسمّي الحكم المسبق الذي ينتج عنه موقف معادي ضدّ إنسانٍ بريء بناءً على وشاية كاذبة؟

ألن يكون هذا العمل بمثابة مؤامرة حقيقية إذا شئنا تسمية الأشياء بأسمائها الحقيقية؟

ذاك كان الداء العضال المستشري في بدن أي مؤسسة ليبية إجتمعت فيها جماعة طوال تلك السنوات سيّما المحافل المستغلقة كالسلك الدبلوماسي أو الإداري بشكل عام، ويقيناً أنّي لم أكن الوحيد الذي كان ضحيّة هذه المؤامرات التي رافقتني منذ وضعت قدمي على أوّل عتبة في سلّم العمل بوزارة العمل بفزّان، ثمّ بجريدة «فزّان» كما بيّنت في الجزء الأول من هذا البيان. ولم أكن أدري أن هذه المكيدة ستكون في حياتي قدراً رافقني منذ ذلك التاريخ ولم أجد للتخلّص من شرّه سبيلاً إلى هذا اليوم.

فاللجان الثورية لم تكتفِ بتزويد خليفتها الجديد بفريق العمل الشعبي (المتمثّل في اللجنة الشعبية الرباعية)، ولكنها زوّدته بذخيرة أخرى هي فريق العمل الأمني المتمثّل في العصابة المخوّلة في الواقع بحبك الدسائس واستزراع الفتن وتحرير التقارير الملفّقة بروح الكيد

Twitter: @alqareah

وكلّ ما لا يمتّ إلى الأمن بصلة، بحيث إستطاعت هذه الملّة أن تحوّل مناخ البعثة إلى جحيم حقيقي خلال شهور قليلة إلى الحدّ الذي أجبر ما تبقّى من العقلاء بالداخل لاستصدار قرار يقضي بإنهاء عمل هذه العصابة، ولكن ليس قبل أن تتمكّن من بثّ سمومها في عروق كلّ عمل ذي قيمة بما في ذلك سيرة المنبر الثقافي المتمثّل في المجلّة التي شاء لها الحظّ أن تتزامن الإجراءات الإدارية الثنائية المكرّسة لإصدارها مع وصول تلك الحفنة من الهمج لتعمل كل ما من شأنه أن يجهض هذا الوليد قبل أن يولد لا جهلاً برسالة عمل كهذا فقط، ولكن تعبيراً عن نزعة كانت عقيدة تلك الأعوام وهي العداء لكلّ ما متّ للشأن الثقافي الحقيقي بصلة، أو لأيّ عمل يحمل قيَماً أخلاقية أو جمالية. وليس ذلك غريباً في واقع تهيمن عليه أيديولوجيا تجهيلية تتحجّب بقناع القومية، لأن الأيديولوجيا لا تأمن نفسها لا في حضرة الأخلاق، ولا في بلاط الجمال، لأن الأخلاق والجمال هما المعبد الوحيد الذي تتلو فيه الثقافة صلواتها. وإذا وُجد ما أدهشني في تلك التجربة فهو ليس الدسّ يقيناً، ولكن الدسّ الغيابي! أي الدسّ ضدّ إنسانٍ مجهول لم تربطك به علاقة ولم يجمعك به موقف. إنه حكمٌ غيابيّ بناءً على تهمة مسبقة! وهنا تكمن عبقرية فرسان الحضارة الجديدة! فالمنكر ليس في إستصدار حكم غيابيّ، ولكن في وجود تهمة في صيغة مسبقة! لقد طاف هذا الطابور قبل وصوله الأنحاء بالداخل ناثراً بذار الأكاذيب لدى رئيس الجمعية، ثمّ أمين سرّ الجمعية، ثم لدى أعضاء مجلس الإدارة، ثمّ

Twitter: @alqareah

مكتب اللجان الثورية، ولدى الخارجية أيضاً بالطبع، كل ذلك للنيل من شخصٍ لم يقع بصرهم عليه، ولم يعرفوه إلاّ من الصحف، أو من الشائعات الخسّيسة التي تغذّيها الأجهزة الأمنية، وتردّدها تلك الفئة التي تتسامح مع الفشل لأنه من طينتها، ولكنّها لا تغفر نجاح الأغيار لأنه يفضح حقيقتها. لقد إستمعتُ إلى السيّد أبوبكر أبي شحمة أمين سرّ الجمعية (قبل أن يتمّ تعيينه سفيراً بفيينّا) بذهول وهو يروي لي رسالة شفوية من أبي زيد تحمل لوماً ودّياً مبنيّاً على فحوى مختلقة بلا حجّة وبلا دليل وبلا حتّى واقعة تصلح مبرّراً لهذه الكذبة. وما أدهشني هو كيف يصدّق إنسان في وعي أبي زيد، ونسيت أن إتقان إخراج الدسائس كان الفنّ الوحيد الذي أبدع فيه بعض الليبيين تلك الأيام. ولكن ما لم أتخيّله هو أن تنطلي الحيلة حتى على العقلاء ناسياً أن غيابي عن واقع الوطن قبل عقد من الزمان كفيلٌ بإطلاق عنان بعض الأمراض المستعصية الغريبة عن الواقع الذي عرفته قبل خروجي عام 1970م. وقد أدهشني أبوزيد في مرة تالية عندما إستفحل سمّ الأفاعي وتلقى منه حقناً إضافيّة أثناء تولّي عصابة البركي أمر البعثة، وكان ذلك بعد صدور المجلة بشهور، وبعد النجاح الذي حققته في كل الأوساط البولندية، لأسمع منه لوماً آخر دون تحديد السبب، وعندما إستنكرت وطالبت بالبيّنة لم يجد إلاّ أن يعترف بأن عملي هو ما لن يستطيع أن يطعن فيه أحد! فأين الخطيئة إذاً؟ وما هو مقياس وجود إنسانٍ خارج الوطن إن لم يكن العمل الذي يشرّف الوطن؟ وما هو العمل الذي يشرّف الوطن إن لم يكن

Twitter: @alqareah

إتقان العمل؟ ولن يرتفع الإتقان في مجالٍ صعبٍ ومحفوفٍ بالتعقيد مثل الثقافة درجات من مستوى بقيّة الأعمال الفانية في حال النجاح في مثل هذه الأعمال؟

تلك أسئلة لا يملك لها جواباً حتّى أنبل وزراء ذلك الزمان في واقعٍ غاب فيه الناموس الأخلاقي، وشهد فيه الناس موت الضمير كل يوم فلا تنوب حتى القوانين الوضعية لردع النفس الأمّارة بالسوء، لأن بدعة تحليل العمل بالقوانين التي إنطلقت عام 1973 لابدّ أن تثمر هذا الفِطر السامّ في النهاية لتبقى حياة الناس رهن أهواء أرذل الناس!

Twitter: @alqareah

36

في واقعٍ كهذا تسود الفوضى ويزدهر الروتين. الروتين لا في مفهومه الإداري وحسب، ولكن في بعده الأخلاقي أيضاً. حقّاً لم يخطيء كافكا عندما قال أن أغلال البشرية الشقيّة محبوكةٌ من ورق الروتين! وها هو العدوس يغرق في يمّ هذا الروتين منذ عام 1979 إلى عام 1981 وهو عام صدور العدد الأول من المجلّة، لأفهم ما قيل لي من الجانبين عن إستحالة صدور عمل كهذا في بلدٍ تهيمن عليه أيديولوجيا الحلف مثل بولندا. والإستحالة لا تكمن فقط في السبب الأيديولوجي، ولكن في عقبة أدهى وهي معبود الأنظمة الشمولية: جناب الروتين! وأشهد اليوم أن روح التحدّي وحدها ما كان لي عوناً في هذه المغامرة. روح التحدّي التي يستطيع كلّ منّا أن يستهين بها، ولكن لا يدري مفعولها السحري إلاّ من إستخدمها. ولا أستحي من أن أعترف الآن أن لروح التحدّي هذه يرجع الفضل في إنجاز ذلك العمل الذي صار لي رسالة حياة بعد اليقضة في الزمن التالي وهو: الرواية!

الرواية أعظم أجناس التحدّي لأنها أقوى تعبير عن حقيقة الحياة؛ هذه الحياة التي لم تكُن يوماً سوى أصدق صنوف التحدّي وأشدّها

Twitter: @alqareah

قسوةً. وما آلمني ليس أن أغدو موضوعاً لجور، ولكن أن أصبح ضحيّةً لأني أحسنت القيام بالواجب ناسياً أن ما حسبته واجباً يستلزم الإتقان هو في ناموس ضعاف النفوس النجاح الذي يستوجب إستنزال سيوف القصاص. والمحزن أكثر من كل شيء ليس قدر الصليب هذا، ولكن أن يفلح في إقناع الأخيار الذين يجب أن يكونوا في الأرض قُضاةً يخلفون عدالة السماء على الأرض، فإذا بهم يصدّقون ما سمعوا ويستصدرون أحكام الإدانة دون وجود براهين، بل وفي ظلّ غياب التهمة كما فعل الإنسان الذي لم أمنحه ثقتي وحسب، ولكني لم أخذله بعملي، بل لم أفعل إلاّ ما يعلي شأناً ثقافياً ظننته رسالة وطنية وإنسانية. ولكني عندما تأمّلت المناخ العام الذي أبتُلينا به، ودين هذا المناخ الموبوء بكلّ عبادة شريرة (بدايةً بالصلاة في محراب الشعار، ونهايةً بإحتقار قيمة وجودية كالعمل، مروراً بتقديس الترف واحتراف اللغو) إنتحلت العذر لرجلٍ كأبي زيد لا لأنه يحيا في هذه الدوامة وحسب، ولكن لوجود ما يشفع له من بين كل مسئولي ذلك الزمان وهو ما لن ينكره عليه أعتى خصومه مثل خصلة ذهبية كالنزاهة، وخصلة أخرى هي إفناء الذات في العمل، وخصلة ثالثة هي الوفاء لروح الأوائل التي لن تعني هنا سوى ترجمة لحبّ الوطن. والعدوس الذي علّمه عبور ليل الدنيا أن يجد الأعذار للأعداء (ليقينه بأنّ لكلّ مخلوقٍ حجّته حتى لو كان نموذجاً شريراً كما تعلّم الرواية) هو الأحقّ بأن يجد الأعذار للأصدقاء حتى لو غاب عنه مبرّر الإساءة.

Twitter: @alqareah

لم تقتصر الحملة الإدارية على المخاطبات المزدوجة الموجّهة إلى المسئولين في البلدين المعنيّين فقط، ولكن رافقتها سلسلة إجتماعات ذات طبيعة مزدوجة أيضاً لأعلم مدى تعقيد أن نخطب ودّ شيء يهيمن عليه وصيّان. إنها المرجعية المزدوجة التي تمليها طبيعة كلّ ما متّ بصلة للعلاقات الدولية. وليس لصاحب المبادرة في هذه الحال أن يطمع في عون أحد سيّما في واقع معادٍ لكلّ عمل ذي قيمة حقيقية كواقع البعثات الدبلوماسية المخوّلة نظريّاً بتمتين تلك الصلات بين الأمم التي لا تكون إنسانيّةً حقّاً ما لم تكن ثقافية، في حين تعمل هذه البعثات كل ما بوسعها لتعطيل أيّ نشاط لا يخدم منافع أفرادها الأنانية مبرهنةً بذلك على حقيقتها التي لم تكن معنيّةً في أي يوم بشأن الوطن الذي إنتدبها لتأدية هذه المهمّة، ولا بشأن الأمّة التي إستضافتها أو تستضيفها. ففي حين أجد نفسي ممتنّاً لجهود السيّدة ملتشارك في سبيل تسهيل إجراءات الموافقة على صدور هذا المنبر، وكذلك دعم مسئولين قياديين بالحزب الحاكم، بالإضافة إلى السيد ماركيفتش أمين عام لجنة التضامن مع شعوب آسيا وأفريقيا وقادة المؤسسات الإعلامية الرائدة، عن الجانب البولندي، وفي الوقت الذي إستمات السيد دوردة عن الجانب الوطني في سبيل إبطال مفعول الألغام التي دأب الخصوم على زرعها في طريق هذا العمل سيّما وكر الحيّات المسمّى خطأً بالخارجية، عمل السيد البركي السفير الجديد في بولندا كل ما بوسعه لميلاد هذا الوليد **لفظيّاً** في حين عمل كل ما بالوسع كي يولد ميّتاً **فعلياً**. فعل ذلك بدعم من

Twitter: @alqareah

فريق العصابة التي رافقت وصوله مشحونةً بكلّ الرذائل التقليدية التي ألفناها في أدعياء «الحضارة الجديدة» هؤلاء متوّجة بتعويذة شرّيرة إسمها: الخبث! وأعتقد أن مَن قُدِّرَ له أن يقوم بتأسيس منبر إعلامي وحده يستطيع أن يتخيّل الجحيم الذي سيرافق مغامرة من هذا القبيل سيّما في واقعٍ معادٍ، وبعيداً عن المحيط الوحيد الذي يفترض أن يكون له عوناً في عراكه وهو الوطن، إلى جانب إغترابٍ آخر ناجمٍ عن طبيعة الخطاب وهو اللغة الأجنبية. ومن عرف ليبيا تلك الأعوام وحده أيضاً يستطيع أن يتصوّر ماذا يعني أخذ أي أمر مأخذ الجدّ، أو تولّي أيّ عمل خالٍ من النفع الشخصي، أي عمل ذي طبيعة وطنية حتّى لو كان سياسياً فكيف إذا كان ذا طبيعة ملغاة من معجم النظام القائم وهو الثقافة؟ هذه الثقافة التي ظلّت شوكةً في روح هذا النظام (وهي شوكة في قلب كل الأنظمة السياسية التي تهدهد في هذا القلب ضميراً مريضاً) منذ البداية، لأن النيّة الخفيّة الساعية للإستبداد لابدّ أن تستبدل مفهوم الوطن بمفهوم الفرد. وهو ما ينتج غياب المبدأ الكلاسيكي الذي غلّب النفع الإجتماعي على النفع الأناني من خلال مصطلح (المصلحة العامّة) الذي كان إلى وقت قريب معبود الأمّة الناشئة المولودة مع الإستقلال. وسوء حظّ العدوس أن تتزامن نزعة تغريب مفهوم الوطن كتمهيد للنيّة المبيّتة في إختزال الدولة في شخص وليّ أمر الدولة (على طريقة لويس الرابع عشر) مع تولّيه أمراً رساليّاً ستحيله نزعة التغريب بين يديه إلى صخرة سيزيف. فحسن النيّة في تلك المرحلة هو ما لا يُغتفر. وحسن النيّة إذا كان هبة

Twitter: @alqareah

الطبيعة التي رافقتني دوماً بَيد أن الغياب عن الوطن لعقدٍ كامل كان كفيلاً بأن يلعب دور البطولة التي ضاعفت حسن النيّة لتترجمه إلى غفلة. فمع نهاية السبعينيّات وبداية الثمانينيات كان الكلّ قد فقد إيمانه بـ«المصلحة العامّة» ليتحوّل كل نشاط إلى صفقة تجارية، وكل الأسماء ماهي إلاّ أقنعة. وها هي العلاقة تفقد بكارتها ليلج المجتمع دهليز الزيف. ففي واقعٍ كهذا الصلاة في محراب القيمة سوف تستثير الشكوك. فإن برّر الواقع فذاك دليل على سذاجة. والسذاجة في هذه الحال هي أقصر الطرق إلى الصليب!

هذا ما لمسته بعد فوات الأوان في حين كان يجب أن ألمسه عندما خضتُ متاهة الإدارة الليبية لأعاني صنوف العذاب في تنفيذ قرار إصدار المجلّة حتّى بعد صدور القرار، لأعامَل كأنّي بصدد إصدار منبر إعلامي خاص بي، لا منبر صادر عن دولة. وأتسوّل له تمويلاً سنوياً تافهاً إذا قيس بالتمويل الذي يغدقه النظام على الصحف التي يتولّى دعمها في بيروت بحيث يبخل القائمون على أمر وزارة الإعلام والثقافة على مجلّة وطنية تصدر بلغة أجنبيّة بمبلغ سنوي لا يكفي صحيفة بيروتية **أسبوعاً** واحداً كما إعترف لي أحد رؤساء تلك الصحف. وليت الدفع يتمّ بالصورة التقليدية. إنه يتمّ موسميّاً، وفوق ذلك عبر الأخطبوط الإداري الذي إذا حدثت أعجوبة وبلغ تخوم المراقب المالي في بولندا (لا كمجرّد تفويض ورقي) فإن الروتين إذا تحالف مع دسائس المسئولين بالسفارة سيحوّل تسديد إلتزامات الطبع جحيماً آخر. أمّا الجحيم الأوّل فيكمن في موسمية التمويل. وهو ما

Twitter: @alqareah

يعني قيامي بخوض معارك تعجيزية داخل أوكار الأجهزة الإدارية البغيضة في طرابلس في كلّ مرّة أحاول فيها أن أحكّم المنطق في تصويب ما أفسدته الأهواء.

أمّا عن الموقف المعادي والمسبق الذي حمله معه الفريق الجديد في عبّه كطاعون الإبادة الشاملة فهو اللعنة التي لم أجد لها تفسيراً. نستطيع إخضاع العداوة للمنطق مع وجود أسباب، ولكن الكراهة المجّانية ظاهرة تُعجِز التأويل، سيّما في حال الإنسان الذي لم يبخل بتعرية الروح. ويبدو أن اللغز إنّما يكمن في هذه التعرية بالذّات. فما الذي تفضحه صحف الروح إذا تعرّت؟ ما هي الأحاجي التي بوسع الأغيار أن يقرأوها في حين يغيب طلسمانها عن صاحب الروح؟ هل يعقل أن يعرف الأغيار ما خفي عن صاحب الروح؟ أم السرّ في هويّة الروح كعمق بلا قاع؟

إذا إفترضنا وجود بعبع يسكن الأعماق (كالروح الرسالية) فهل يبرّر حضور البعبع نزعة العداء؟ ولماذا تفزع الرسالة إلى الحدّ الذي يوقظ كراهة مجّانية؟ لم أعرف يوماً أنّي بيّتُ في نفسي نيّة من شانها أن تلوّث حرم الروح بسوء. كلّ ما هنالك أنّي آمنت. آمنت بوجود حقيقة مّا، تنتظرني يوماً مّا، في مكانٍ مّا، حقيقة تروي ذلك الظمأ الذي لم تروه الحقيقة الشائعة التي نلتها على سبيل الإرث. وطلب هذه الحقيقة غاية وجود وإلاّ لما وُجد في الدنيا العدوس الذي لا يسري لينال هذه البُغيَة كما تُنال الغنيمة، لأن الحقيقة هي ما لا يُنال على سبيل الهبة، ولا يُمتلك إمتلاك الغنيمة، لأن إمتلاك الحقيقة

Twitter: @alqareah

مقدّمة لإحتكار الحقيقة، وفي إحتكار الحقيقة يكمن لا هلاك الحقيقة وحسب، ولكن تحوّل الحقيقة إلى نقيض الحقيقة. أمّا ما يستهوي العدوس فهو السُّرَى. لأن السُّرَى ليس عبور الحرية، ولكنه **حضورٌ** في الحرية. والحقيقة تسكن هذا الحضور في الحرية. وهي ملحمة تستوجب رهان الحدود القصوى المترجم في مفهوم الصليب. ولهذا صار الصليب قدر الإيمان بقدر مّا الإيمان قدر الرسالة. وهو صليبٌ ليس حرفيّاً دائماً. فثمّ صليبٌ خفيّ لا يعيه حتّى صاحب الشأن. فهل البعبع الذي يُفزع هو الصليب، لأنه يُرى مهما استخفى؟

Twitter: @alqareah

37

أيّ حكمة يا ترى في إستصدار منبر ثقافي؟ أم أنه ليس حكمة بقدر ما هو فتنة؟ لا أدري بماذا كان سيُجيب سارتر فيما لو سُئل عمّا يعني له إصدار منبر كـ«الأزمنة الحديثة»، أو أدونيس بإصدار «مواقف»، أومحمود أمين العالم بتولّي رئاسة تحرير «أخبار اليوم»، ولكن اليقين أن فتنةً تسكن المنابر الثقافية إذا عدمنا وجود الحكمة. أفلا يكفي الكتاب حمل وزر الرسالة الثقافية حتّى لو أُضيف لها هوية أعظم شأناً وهي لعب دور التنوير أو حتى التبشير؟ ألم تبرهن تجربة سقراط منذ ألفي وخمسمائة عام على قدرة الحقيقة على التحدّي فتخترق بصوتها لا المكان وحسب، ولكن الزمان أيضاً مستهينةً في هذه الرحلة لا بالمنابر وحسب، ولكن بالكتب أيضاً؟ ألا يبدو المنبر بالنسبة لمريد الفكر تسلية مهينة، وترفّعاً معيباً، ومجرّد لعبة لتضييع الوقت لن تليق ببطلٍ يلعب دوراً في مسرحية يدري كم هي خطرة ومميتة كالحقيقة، سيّما إذا كان أعلم الناس بقيمة هذا الكنز الذي نسمّيه وقتاً؟ أم أن السرّ في سحر الآلة الدعائية التي حوّلها تطوّر تقنيات الإتصال إلى سلطة فاستهوت فرسان الحقيقة ظنّاً منهم أن هذه الجنّية أنسب مطيّة لتسويق الرسالة كما تسوّق كل السلع دون أن

Twitter: @alqareah

يخطر ببال أحد أن حسن الظنّ بهذه الزوبعة اللاأخلاقية المتمثّلة في التقنية الدعائية هي الطاغية الذي سيجني في المستقبل على الثقافة كرسول في حملة الحقيقة؟

أعترف اليوم كعدوسٍ يعتنق دين السُّرَى أن إستصدار المنابر الثقافية (حتى لو أُضيفت لها ميزة وهي إعتماد خطاب أجنبي في اللسان) ما هو في نهاية المطاف سوى الفرار من جنان الحقيقة، لا الفرار إلى رحاب الحقيقة.

إنه إنحرافٌ عن الصراط، وسيرٌ في غيهب الضياع الجديد. ولكنه (ويا للعجب) الضياع المبدع الذي يقود إلى سدرة المنتهى حيث ينتظر الخلاص المبوث في الوصية القائلة: «ضيّع نفسك تجدها» لأن دليلي في الرحلة كان كما كان منذ الأزل، وكما سيظلّ إلى الأبد، هو حكيم الزمان الذي نلعنه آناء الليل وأطراف النهار، ونحمّله مسئولية كلّ ما ترتكبه أيدينا من خطايا ومن حماقات، لأن ذلك يريحنا ويعزّينا برغم أنّنا أعلم الناس بأننا نحن المذنبون في كل ما يصيبنا في هذه الدنيا الفانية من بلايا. بلى! دليلي في رحلة العسعس كان الداهية الذي إعترض طريقي في موسكو في فجر عام 1982 ليلقّنني درساً (كما سيأتي تالياً)، وهو وحده مَنْ حَقَّ له أن يعبّر عن رسالته الخالدة عندما يترجم وصيّته في لسان الحال الذي يقول «**أنا تلك القوّة التي تفعل شرّاً لأن الشرّ وحده يتحوّل إلى خير، ولكنّها لا تفعل الخير أبداً لئلاّ يتحوّل شرّاً!**». فمن جرّب النزول إلى أحاضيض العسعس وحده يدري كم كانت هذه الحُجّة صائبة، وكم هو هذا

Twitter: @alqareah

المكابر الرهيب حكيماً عندما وقع عليه الإختيار ليلعب دور الدليل الذي لا يبيع الأوهام على طريقة عَبَدَة الحرف، ولكنه يمارس عمل الرسول الذي يقود المريدين إلى حرم الحقيقة من **الباب الخلفي**، من الباب السرّي، لأن دخول بوّابة النعيم مشروطٌ بعبور ظلمات العسعس، وهي كلمة السرّ التي يرفض الكلّ أن يعترف بها، وهو وحده من يتباهى بامتلاكها، بل بوضعها موضع التنفيذ في شأن أخيارٍ لا يعلمهم سواه.

إنّه مَن رجمنا عبر الدهور ظنّاً منّا أنه عدوّ المعبود، ولا ندري أنه رسول المعبود الذي آلى على نفسه أن يدخلنا سَمّ الخياط ليخرجنا من هذه الميتة أحياءً: **ميفستوفلس!**

وسلاح الداهية في ملحمة الخلاص؟ داهية الأجيال لم يستبدل سلاحه منذ الأزل، لأن لا قوّة تفوق قوّة هذا السلاح: **الألم!**

إنها الصفقة التي لم يتنازل عنها طوال رحلته الخالدة، لأنه الوسيط الذي نتلقّى الألم لكي ننال على يديه الخلاص.

وهوية الخلاص رهينة جنس الألم بقدر إستعداد روح المعني لتقبّل الإيماء في متن الرسالة.

Twitter: @alqareah

38

الحصول على الموافقات الرسمية من الطرفين لم يكن نهاية مطاف في سيرة المعارك. فهنا تبدأ المعركة مع المؤسسة المخوّلة بالنشر وهي وحيدة بالطبع في مناخ تهيمن عليه روح الإحتكار. وبعد مباحثات متّصلة قال الإحتكار كلمته التي تستهين بالقيم ولا يعترف ناموسها بصداقة حتى لو كانت عنوان المطبوعة قيد النقاش. فالمبالغة في السعر المقترح طوّح بالعدوس خارج الحدود، نحو فيينّا حيث يسود النظام الذي يعتمد المنافسة ديناً. هناك كان السعر في المتناول، ولكن بُعْد المسافة، وتعقيد الإجراءات الرقابية على دخول المطبوعات الأجنبية إلى داخل عاصمة حلف المنظومة الشيوعية كان سيكلّف أكثر، علاوة على ما سيستغرقه من وقت هو خسارة أعظم إذا قورن بخسارة المال. وهكذا تمّ توقيع العقد مع مؤسسة الداخل التي لم يكن غلوّ الأسعار أكبر مساوئها، ولكن داء البيروقراطية الذي لا يسري في شرايين النظام الإداري وحده، ولكنه عرف طريقه إلى النفوس أيضاً؛ والدليل ترجمته المعركة التي كانت تنتظرني في هيكل الإنتاج بشقّيه الفنّي والتحريري (أي التقني والأدبي) ليصيبني الإكتشاف بخيبة أمل، بل بصدمة، إزاء ذلك النموذج الذي كان في

Twitter: @alqareah

يقيننا مثالاً للجدّية والدقّة والإنضباط في كلّ ما متّ بصلة للعمل كما هو الحال مع الإنسان الأوروبّي! فهل بوسع نظام إقتصادي كالإشتراكية أن يزيّف لا إرادة الإنسان وحسب، ولكن روح الإنسان أيضاً؟ ألا يبدو قتل الحافز هنا إماتة لملَكة الإبداع، بحيث تبتلع جرثومة اللامبالاة قوى الإنسان الخلاّقة فتنكمش القدرات العفوية، وتتبلّد الفطرة الذهنية على النحو الذي كنت له شاهد عيان في خيرة صحفيي بولندا سواء الذين انضمّوا لجهاز تحرير المجلّة رسمياً، سواء المتعاونين من خارج؟

لقد هالني صنف الأخطاء المرتكبة في كل خطوة سواء في النصوص، أو التراجم، أو الإخراج، أو المجال الفنّي، أو الجمالي، على نحوٍ يدعو لأن أجزم أني وقعت ضحيّة شَرَك ملفّق من حفنة أدعياء، وليسوا طائفة تدّعي الإحتراف مستعارةً من أكبر الصحف البولندية، لأجد نفسي أعلّمهم أبجديّات العمل الصحفي بدل أن يكونوا هم بخبرتهم وثقافتهم وإمكاناتهم الجدير بأن يعلّمني العمل الصحفي سيّما إذا كانت المطبوعة صادرة بلغتهم، لا بلغتي! فلم يحدث منذ أول عدد أن فتحت صفحة دون أن أُصدَم بالأخطاء من كل جنس ونوع بحيث بدأت تالياً أشكّ بوجود مؤامرة في حقّي تضاف إلى مؤامرات الخارجية والسفارة ولجان الداخل الثورية والشعبية على السواء، كأنّ هؤلاء من سخّر جهاز التحرير للضلوع في اللعنة الأبدية التي تلاحقني، لأجزم هذه المرّة أن المؤامرة ذات بُعْد غيبيّ، لأن ليس من المعقول أن يبلغ الإستخفاف بالأشياء حدّاً

Twitter: @alqareah

يعمي هؤلاء عن البديهيّات، سيّما بعدما انضمّ إلى هذا الطابور في الإستهانة بأبسط الأشياء بعض أعضاء فريق أساتذة الجامعات المتعاونين بدراساتهم وبحوثهم في الصِّلات الثقافية بين حضارتي الشرق والغرب يتصدّرهم عميد الإستشراق البولندي البوفيسور بيلافسكي، وتلميذه البروفيسور دانتسكي عميد الدراسات الشرقية بجامعة وارسو، وأساتذة أجلاّء كثيرين أمثال البروفيسورة ماخوت ميندتيسكا، والبروفيسورة كازلوفسكا وغيرهم.

ولمّا كان العدوس قد عقد الصفقة مع الغيوب منذ أول خطوة في سبيل السُّرَى الطويل، فإن نسيان بنود الصفقة السرّية كان سرّ الوسوسة، أو بالأصحّ، غياب الوسوسة التي كانت لي دليلاً مبكّراً لم يكن ليخذلني أبداً لو لم تستغفلني الدوّامة الدنيوية يوم استدرجتني إلى مستنقعها الآسن ظنّاً منّي أنّي أستطيع أن أحقّق شيئاً حقيقياً بمنبر ثقافي لم يُخلق لي، فإذا بجلاّد الزمان القديم ميفستوفلس يهرع لنجدتي بالسبيل الوحيد المعتمد في شرعه وهو تأليب مريديه ليتولّوا أمري علّي أعود إلى رشدي!

ولكن اليقظة كانت ماتزال خلاصاً مؤجّلاً، ربّما لأن المسيرة كانت ماتزال في المستهلّ، وأوان بلوغ القاع لم يحن بعد. وها هي مفاوضات النظام مع رموز «التضامن» تنتهي إلى الفشل لتبلغ الأزمة حدّاً لم يكن بوسع أحد أن يتنبّأ بنتائجها لا على مستوى بولندا وحدها، ولكن على مستوى مستقبل النظام الشيوعي بأسره.

والخطيئة التي ارتكبها النظام لتصير مسماراً في نعشه تمثّلت في

Twitter: @alqareah

الحيلة المميتة التي اعتاد أيّ نظام مطلق أن يلجأ إليها لمعالجة إفلاسه وهي إقتسام الشيء الوحيد الغير قابل للإقتسام وهو: السلطة!

إنه التفويض للخصم كي يسطو على النصف الثاني من القسمة، لأن القبول بمبدأ القسمة ما هو في الواقع إلاّ الإعتراف الضمني بالعجز عن الإحتفاظ بالسلطة! فما كان من النظام إلاّ أن هرع لاستخدام الورقة الأخيرة بضغط من الأخ الأكبر (السوفييت) بالطبع وهي: الإستنجاد بالعسكر بإعلان الأحكام العرفية مدعومةً بحضر التجوّل. وكان بوسع عالم ذلك الزمان أن يتسامح مع حدث كهذا في أي بلدٍ ناءٍ بقدرٍ كافٍ عن المركز، ولكن أن يحدث هذا في قلب أوروبا على مشارف نهاية القرن العشرين، فهو المنكر المؤهّل لإشعال فتيل الصدام بين القطبين المهيمنين على نهاية العالم، برغم أن هذا الحل كان أهون الشرّين، لأن الصيغة الثانية للحلّ هي تدخّل السوفييت على غرار سيناريو 1956 في المجر، أو سيناريو عام 1967 في تشيكسلوفاكيا. هذا ما برّر به الجنرال ياروزيلسكي إنقلابه في البيان الذي قرأه بنفسه في التلفزيون البولندي في ديسمبر 1981 كي يضع حدّاً للفوضى التي هدّدت البلاد بالإفلاس الإقتصادي الشامل الذي لم يكن في الواقع سوى نتيجة للإفلاس الأيديولوجي الشامل.

جاء قادة الإنقلاب بشخصية عسكرية لتولّي رئاسة جمعية الصداقة البولندية الليبية هو الجنرال هوبالوفسكي وزير الإقتصاد الجديد خلفاً للسيدة ملتشارك وزيرة العمل والرئيسة السابقة للجمعية، وهي الشخصية التي يجب أن نعترف لها بآي الإمتنان على كل ما فعلته من

Twitter: @alqareah

أجل تيسير شئون العلاقة بين البلدين. وهو ما لا نستطيع أن نقوله عن الجنرال هوبالوفسكي لا لنقيصةٍ في شخصه، ولكن لبراءته بالذّات، وجهله بخفايا المستنقع المسمّى سياسةً. وها هي طفيليات هذه الجنّية تحيط به مدعومةً باستشارات نفايات وزارة الخارجية ليتحوّل دميةً في أيادي هذا المحفل برغم حسن النوايا ظنّاً منه أن هذه الفئة أدرى بحقيقة العلاقات الدولية، أو أنها حريصة بالفعل على مصالح بولندا. وهو ضلالٌ شائع في الأوساط الدولية، لا في بولندا وحدها. تزامن هذا الحدث مع إنهاء عمل السيد البركي المفاجيء فغادر مصحوباً بلفيف الرعاع الذين رافقوه في وصوله لتكون تصرّفاتهم الحمقاء وبالاً عليه إلى جانب التصرّفات التي اقترفت يداه ليخلفه في منصب السفير إنسانٌ يعتبر كنزاً في سياسة تلك الأيام لا على المستوى الرسمي وحسب، ولكن ليكون لي مع محمد البدري عضو اللجنة للشئون الثقافية الثنائي الذي عزّاني في محنة إغترابي لا عن الوطن وحسب، ولكن عن الموقع الوحيد الذي يمثّل الوطن والحافل دوماً بروح العداء لكلّ ما من شأنه أن يعلي شأن هذا المعبود الشقيّ المسمّى وطناً وهو: السفارة!

لقد كان هذان الرجلان من طينة غريبة لا عن واقع سفاراتنا بالخارج وحسب، ولكن عن واقع المستنقع المسمّى خارجيّةً أيضاً، ربّما لأنهما الوحيدان اللذان لم ينظرا إلى الثقافة كشبحٍ معادٍ ومشبوه، ولكنها حسناء أحلام جديرة بالثقة.

كانت كتبي سفيري إلى قلب البدري حيث حدّثني بحسن ظنّه

Twitter: @alqareah

بمجموعة: «الصلاة خارج نطاق الأوقات الخمسة» منذ الأيام الأولى لوصوله. أمّا رمضان فقد قرأ عن أعمالي في الصحافة المحلّية، وعبّر عن تقديره منذ أوّل يوم لدخوله السفارة. وعندما أُحيط علماً بالعقبات التي تعرّضتُ لها في إصدار المجلّة لم يتردّد في أن يعلن للجميع أن هذا المنبر هو قلعة وطنية أهم من السفارة بما لا يُقاس، لأن السفارة ما هي إلاّ إدارة تمارس الخدمات، أمّا المجلة فهي وجه الوطن الحقيقي والحضاري، لأنها رسالة ثقافية إنسانية.

وتلك شهادة ترجمها الرجل عملياً طوال وجوده في وارسو. وبالنسبة لي لم يكن هذا نصراً على المستوى العملي وحده، ولكنّه فتحٌ ذي بُعْدٍ وجوديّ. فالحنين إلى العلاقة الإنسانية كان طوال وجودي في الخارج نقطة ضعف بسبب النكسات المتتالية في هذا المجال الحميم. وقد وجدت في هذين الرجلين صديقين حقيقيين مازلت أفتقدهما وأشتاق للحضور في محرابَيهما لأستعيد معهما ذكريات الزمن الضائع بعد أن فرّقت الدنيا بيننا طوال هذه الأعوام. وهو ما برهن على صواب المبدأ الذي اتخذته لنفسي دوماً، وجاهرت به مراراً، والقائل بأن ما نكسبه من وجودنا في الغربة هو **العلاقة**، لأن الغربة سجن لا يأتيه الباطل في تحديد معدن الرجال. ومَن صادقونا في إغترابنا وحدهم زاد الوجود الذي لن يخذلنا في ليل دنيانا الفانية المجبولة بالخيانة والزور.

لقد تميّز هذان الرجلان بروح أخلاقية إلى جانب الروح الشعرية في زمنٍ لا وجود فيه لأخلاق كما لا وجود فيه لشعر. ولذا حقّ لهما

Twitter: @alqareah

أن يفوزا بلقب جليل نستهين به هذه الأيام وهو هوية **المثقّف**، لأنّنا نجهل أن غاية الوجود برمّته هو الثقافة كما يروّج عمانويل كانط، في حين ابتذلنا في أدبيّاتنا هذا المفهوم النبيل بمنحه البعد التقليدي ناسين أن الإنسان المثقّف ليس الإنسان المهذّب، أو الجنتلمان، ولكنه في الأساس هو الإنسان **الأخلاقي**.

لقد وجدتُ في هذين الإنسانين تلك الفطرة التي افتقدتها طويلاً والتي اعتدنا أن نطلق عليها ذلك الإسم المفقود اليوم وهو الأصالة. الأصالة كشهادة وحيدة على البراءة من رذيلة الزمان، وكل الأزمان، روح المكيدة أو العملة السائدة الملقّبة بـ«الخبث». فهذه اللقية في زمن إغتراب القيم هو ما حقّ لنا أن نطلق عليه إسم: **السعادة!**

بلى! وجود هذين الخليلين كان لي في زمن إغترابي هبة ربوبية. والهبة الربوبية في الترجمة إلى لسان الدنيا هي اللقية التي تبدو في ناموس الدنيويين عنقاء مغرب فلا يعترفون بوجودها برغم حقيقتها كغاية وجود، وهي هذا الطيف الخجول الذي لا يحلّ ضيفاً في قلب إن لم يكن مجبولاً بالبساطة.

كان البدري بسيطاً وبريئاً وعفويّاً. وهي الخصال ذاتها التي وجدتها في خلّه وخلّي رمضان عبد العزيز ليكونا قرينين حميمين برغم أنهما لم يتعارفا إلاّ في وارسو.

كان البدري روحاً غريبةً في واقع الزمان، وفي واقع المكان. وكان انضمام عبد العزيز إلى رحاب غربتنا بمثابة البلسم لكلينا والبلسم لعبد العزيز نفسه. إغترابٌ سببه عمقهما الإستثنائي. العمق

Twitter: @alqareah

الوجودي والثقافي. وأن يكون الإغتراب ثقافياً يعني أن يكون أخلاقياً أيضاً. والحلف الأقدس هو الحلف الذي يتبادل فيه الغرباء عزلتهم. وهو لذلك عفوي إذا قورن بالحلف المدبّر، حلف الصفقة الذي يتبادل فيه الخبثاء منافعهم. وهو قدسيٌّ حقّاً لأن الإغتراب بطبيعته قدرٌ مغسول بنزيفٍ أبديّ!

Twitter: @alqareah

39

صدور الجزء الأول كان حدثاً. كان حدثاً لا بالنسبة لليبيين (سواء بالداخل أو بالخارج)، ولكن بالنسبة لواقع ثقافي يختلف جوهرياً عن واقعنا الثقافي البائس الذي تهيمن عليه سلطة سياسية تستخفّ بكلّ ما له صله بالثقافة فلا تكتفي بقمع فرسان هذا الحقل، ولكنها تحتقرهم وتختلق كل مبرّر لاضطهادهم أيضاً. ولكن في بولندا كان للحدث الثقافي شأن برغم هيمنة النظام الشمولي. وهو فضلٌ لابدّ أن نحيّي التقليد النابع من الروح الأوروبية بشأنه. وها هي وسائل الإعلام البولندية تحتفي بصدور هذا المنبر الثقافي الثاني من نوعه بعد مجلّة «أمريكا» الموسمية. إحتفاءً شمل وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة ليقين موروث مؤدّاه أن العمل قيمة وجودية إجمالاً، والعمل الثقافي تحديداً وحده له المعنى، لأنه الأبقى. وتجربة تيتوس ليفيوس في الإستهانة بخطاب سينيكا يوم إنتحاره لا لشيء إلاّ لأنه كان على كل لسان أكبر برهان على خطورة المدوّنة، وأعظم دليل على حقيقة الكتابة بوصفها الميلاد الثاني للإنسان، لأن هذا اللغز سيفقد إمتياز اللغز، وسيفقد هوية هويّته كإنسان لأن الإنسان ليس إنساناً إذا أضاع الذاكرة. بلى! المطبوعة لا تعود هنا مجرّد بيان

Twitter: @alqareah

ثقافي، ولكنها تستعير رسالة الذاكرة. إنها بهذه الهوية خزنة الأجيال التي لا تُغْنِي عن نبش طلول الأسلاف بحثاً عن حقيقة الأسلاف، ولكنها تحقّق أعجوبة أخرى لها علاقة بالزمن. إنها توقف لحظة العجب العجاب الذي لا يُوقف لأنها ترصد روح الزمن الضائع، وتترجم سيرته الأجيال ليمثّله عميقاً، كأنّه يحقّق حضوراً في المحال ليحيا هذا الزمن المفقود حلماً في تجربة الحرية التي نسمّيها تجلّياً.

فهل كان هذا هو السبب الوحيد للإحتفاء؟

بالطبع لا! فبالنسبة للمريد هناك علّة أخرى شبه غيبية للهوَس بأيّ عمل. لقد وقفت في بستان السفارة يوم أقبل السائق بالأعداد الأولى للمجلّة فتجمهر حوله الموظّفون والمحلّيون خارج السور ليتخطّفوا الأعداد الأنيقة بطبعتها المتميّزة لا ظمأً للمعرفة، ولكن إرواءً لمبدأ وجوديّ آخر هو: الفضول!

في تلك اللحظة تصادف مرور محمد البدري في طريقه إلى الخارج مخفياً يديه في جيبيه كعادته فيقف بجواري ليتفرّج على المشهد ليعلّق بمرحٍ طفولي كان له دوماً شهادة براءة: «اليوم حقّ للكوني أن يحتفي بانتصاره!». لقد خاطب الجمع عنّي بضمير الغائب بدل أن يخاطبني في وقفتي بجواره. خاطب الجمع الذي ضمّ في ذلك اليوم دهماء فعلوا كل مابوسعهم لكي لا يرى هذا العمل الضوء. خاطبم بعفوية العقل الباطن لأنه كان شاهداً على مؤامراتهم وصنوف كيدهم وكل أنواع الدسّ وأجناس السموم التي بثّوها في طريقي سواء في الشئون الإدارية، أو الإدارة، أو الإدارة المالية، أو

Twitter: @alqareah

لدى البركي، أو لدى المسئولين البولنديين، أو تقاريرهم الكاذبة إلى الأجهزة الأمنية بالداخل، بل والتقارير الموجّهة للجهات ذات الإختصاص وغير الإختصاص بما في ذلك دسّ السمّ الزعاف لدى إنسانٍ كان صديقاً قبل أن يكون ربّ عمل كأبي زيد دوردة. وكانت عبارة البدري رسالة موجّهة لكل هؤلاء، وكذلك الفئة التي تتدافع الآن لتختطف عدداً لا لتقرأه بالطبع، ولا لتقدّمه للأصدقاء البولون على سبيل الإهداء، ولا لتتباهى بالإنتماء إلى معبد الثقافة الوطنية التي أنجبت هذه الوثيقة لتكون لأمّته لدى الأغراب رسولاً، ولكن الحرص على نيل النسخة للبحث عن ثغرة، أو أخطاء أو أي نقيصة تصلح موضوعاً لكيدٍ جديد، واقتراف شرٍّ جديد، ظنّاً من هؤلاء البلهاء أن خروج هذا العمل إلى الوجود هو تحدٍّ سافر لهم، لأنه في يقينهم ليس نجاحاً لرسالة معنيّون بها هم أيضاً، ولكنّه مجد لشخصٍ يرونه عدوّاً لا لشيء إلاّ لأنه جادّ. فهل أحسستُ بنشوة النصر التي يتوهّمون، أو راودني الإحساس بما يسمّيه الغوغاء نجاحاً؟ لقد كان البدري سعيداً لا لتأكيد قيمة ثقافية وحده (مع رمضان) يدرك أهمّيتها، ولكن إبتهاجاً بفوزٍ نابعٍ من روحه الأخلاقية التي لا تعترف بعيد كالعيد يوم ترفرف راية الحقيقة. وقد بادلت البدري هذا الإحساس واعتبرتُ وقفته أكبر هدية لي بالمناسبة في ذلك اليوم الذي ذهبنا فيه إلى نادي الضيوف بفندق فيكتوريا (مقرّنا الإبدي) لنشرب نخب هذا الإحساس المشترك إلى جانب إحساس آخر غامض لم أبُح به إلى البدري لأني لم أفلح في بلورته لنفسي حتّى ذلك الوقت

Twitter: @alqareah

وهو: نعمة الإحساس بسفح نصيب من نزيف قرباناً على مذبح وسواس إسمه: **الواجب!**

الإحساس بأداء الواجب لا يهب المعنى للحياة وحدها، ولكنه يهب الموت أيضاً معنى.

Twitter: @alqareah

40

في عام 1982 بلغت الأزمة الإقتصادية في بولندا ذروة هدّدت بالمجاعة بعد عام من الإفرازات العمّالية التي أصابت البنية التحتيّة بالشلل لذلك الهيكل الإقتصادي الإشتراكي الهشّ الذي يتغذّى في الأصل على فتات **الحماس للشعار الأيديولوجي**. والحماس كما نعلم قصير النفس سيّما إذا كان مدفوعاً بالشعار الميّت، في مقابل الحافز النفعي كما هو الحال مع الإقتصاد الليبرالي. ولم نكن نعلم أنّنا نشهد مخاضاً جديداً سوف يُطيح بعد أقل من عقد من الزمان بأكبر إمبراطورية ملفّقة من لدن الإيديولوجيا على الإطلاق ليُكتب لي أن أكون شاهد عيان لغروب أطلانطيدا الزمان هذه في عودتي الثانية إلى أرباع ذلك الفردوس الموعود الذي راهن عليه عبَدَة الصنم الأيديولوجي في العالم قاطبة: الإتّحاد السوفييتي!

فالأغلبية لا تعلم سرّ الإنهيار الدرامي للوثن، والقلّة وحدها تعلم، ولكنها تتعمّد تجاهل السبب الذي لم يكن ليكون سوى تلك القشّة التي استهان بها الدهاة الذين أقاموها على أساس إقتصادي لتكون للبشرية منقذاً أخلاقياً، فإذا بهذا الأساس الإقتصادي يسحب البساط من تحت الكيان ليكون سبباً في هلاك الحلم. بلى! المفارقة

Twitter: @alqareah

أن الإقتصاد الذي راهنت عليه النظرية الماركسية في إنقاذ العالم هو كلمة السرّ التي أطاحت بهذه الأسطورة. فالإفلاس الأيديولوجي كان نتيجة للإفلاس الإقتصادي، وليس العكس. وبرغم هذا الدرس القاسي الذي دقّ آخر مسمار في نعش الهوس الأيديولوجي ظلّ عبَدَة هذا الوثن يتغنّون بهذه الخرافة بعد زوال النموذج السوفييتي، لأن الذين يعانون الإفلاس الروحي لا يبقى لهم إلاّ التشبّث بالأوهام لا لأنّهم عميان يعجزون عن التحديق في ضوء الشمس بسبب طول مكوثهم في ظلمات الكهف عملاً بالأمثولة المبثوثة في أسطورة أفلاطون، ولكن لمجرّد غياب نموذج آخر يصلح بديلاً. فلا أخلاقية مرضى الأيديولوجيا تكمن في هذا الإنصياع المخجل للشعار حتى لو إستحال رميماً ما لم ترتفع في الأفق راية شعار جديد، تماماً كما لا تهجر المرأة هذا الرجل ما لم تطمئن إلى وجود رجل آخر حتى لو كان الأرذل؛ لأن المهمّ ليس القيمة، ليس الحقيقة، ولكن الضمان. المهم هو الأمان الذي يستعير بُعْداً حرفياً. هذه الحرفية التي لن تكون هنا سوى الروح النفعية!

وها هي هذه الروح النفعية تجبر الخارجية البولندية على التنازل عن كبريائها فتبعث لي برئيس دائرة ليبيا رسولاً ليقنعني بالتدّخل لإقناع المسئولين ببلادي بمساعدة بولندا بالمواد الغذائية العاجلة وبالقروض الطويلة الأجل بعد أن يئست هذه الخارجية من إيجاد لغة مشتركة مع مَن تتابع في الآونة الأخيرة على منصب السفير، ناسيةً أو متناسية الألغام التي استزرعتها في طريقي منذ وصولي سواء في شأن إعتمادي، أو في شأن إصدار المجلّة!

Twitter: @alqareah

ومن خلال تجربتي في التعامل مع الخارجيات لم أملك إلاّ أن أجد لهذه الخارجية أيضاً العذر. فأن تكون خارجية يعني أن تتحلّى بسيكولوجية المحفل. وأن تتحلّى بسيكولوجية المحفل يعني أن تتقوقع على نفسها وتتسلّح بروح المافيا. وأن تتسلّح بالروح المافياوية يعني أن ترفض الإعتراف بكل ما من شأنه أن يبدو تعدّياً على اختصاصها، أو خروجاً عن أبجدياتها. من هنا كان من الطبيعي أن ترى في عمل منظّمة أهلية كجمعية الصداقة منافساً يسلبها نصيباً من دورها. فإذا تعدّى الأمر صفة شكلية كتبادل المندوبين إلى إقامة صرح إعلامي كإصدار مجلة ثقافية فذاك لا يعود تدخّلاً في الشأن الداخلي وحسب كما سيترجَم بلغة الدبلوماسية اللئيمة. ولكنه إختراقٌ جسيم إذا استخدمنا اللغة الأمنية. من هذا المبدأ إنطلقت حملة الخارجية البولندية المعادية. وهي حملة كانت مدفوعة بالأجهزة الأمنية البولندية كما برهنت الأحداث في السنوات التالية، تماماً كما كانت حملة الخارجية الليبية ضد المجلة مدفوعة بأشباح الدوائر الأمنية. فبرغم تباعد الأمكنة، وبرغم إختلاف الأوطان، وبرغم تباين المصالح بين البلدان، بيد أن كل الحدود تنمحي، وكل الخلافات تختفي عندما تكون الثقافة هي الخصم. فالثقافة عدوّ كل الأنظمة. وإذا كانت السلطات البولندية ترى في الثقافة العربية الكلاسيكية عدوّاً لأنّها تتنفّس برئة دينية هي الإسلام وهي التي تعتنق ثقافة لا دينية كالشيوعية، فإن عداوة السلطات الليبية للمطبوعة نابعة من العداوة القديمة لشخصي المستعارة لا من ملفّات بداية عراكي مع النظام

Twitter: @alqareah

الجديد عام 1969 وحسب، ولكنها مستعارة من السجلاّت المرحّلة من دهاليز أجهزة النظام الملكي الأمنية كما تناولناها في الجزء الأول من هذا البيان، فالوثائق الأمنية كنزٌ لا يفنى بمنطق هذه الأجهزة فهي ترث هذه الوثائق من العهد الماضي، المفترض أن يكون العهد المعادي، لا كمجرّد وثائق، ولكن **كمسلّمات**. كأحكام إلهية دامغة مجبولة بالدليل القاطع برغم حقيقتها كمكائد حيكت في الخفاء. تثور السلطة العسكرية على سلطة المملكة وتقطع دابر كل ما ارتبط بها من الوجود، ولكنها تتبنّى ما ترثه عنها أمنياً كحقيقة واقعة غير قابلة للإستئناف أو الطعن، سيّما إذا متّ هذا الإرث بأيّ صلة لبعبع الأنظمة الخالد: **الثقافة!**

هذه البصمة تنام في بطون ملفّات الأجهزة كلعنة أبدية تلاحق المعني، لها القدرة الميتافيزيائية على تحدّي القدر نفسه على النحو الذي عبّر عنه كافكا في «المحاكمة». من هنا كان الحظر على إسم العدوس حظراً أمنيّاً **تاريخياً** في عرف النظام إلى جانب طبيعته الثقافية.

فكيف لا يتحالف النظامان (مهما اختلفا) إذا كان المستهدف هو تلك الجرثومة التي تبدو لكليهما عدوّاً مبيناً وهي الهوية الشقيّة الملقّبة ثقافةً؟!

ولكنه عداء ليس نزوة إذا تأمّلناه عميقاً، فهو تعبيرٌ لا واعٍ عن موقف مبدئي تعتنقه الأنظمة الأيديولوجية في العلاقة مع الوجود إذا ذكّرنا بأن الإنسان إذا كان غاية هذا الوجود حقّاً، فإن الثقافة هي غاية

Twitter: @alqareah

إنسان هذا الوجود، لأن الناموس الأخلاقي (وبالتالي الإلهيّ) هو رهين الثقافة. ولذا فإن عداوة الأيديولوجيا (المعبرة عن الأنظمة التي تعتنقها) للثقافة إنّما يكشف في الواقع عن عداوة الأيديولوجيا المستبطنة للمبدأ الأخلاقي. ولهذا أفلحت زعيمة أيديولوجيا الأزمنة الحديثة (الإتحاد السوفييتي) في سنّ الفلسفات في مجالات الحياة الدنيا كلّها، ولكن لم تعجزها سوى فلسفة واحده هي: **فلسفة الأخلاق!**

Twitter: @alqareah

41

مازال حسن النيّة يوهمني بوجود قِيَم في عالم يرى في حسن النيّة سذاجة، وفي وجود قيَم مثالية كالصداقة غفلة. وكان على العدوس أن يسدّد فواتير باهظة ثمناً للدروشة وقصاصاً جزاء إيمانه بوجود تلك الصداقة التي لم يعد لها وجود بين الأخلّة، فكيف بوجودها بين أجرام رمزيّة (بل وهميّة) كالدول، أو بين أقطاب هلامية كالأمم؟

ولكن معلّم مريد العدو في عسعس الدنيا هو الألم، ومجدنا الحقيقي ليس في الأوسمة التي تجلّل صدورنا بالعمل، ولكن في كمّ الطعنات التي أصابت قلوبنا بأنصال رسول الحقيقة الألم بدليل تترجمه سعادة هي رهينة هبة العبقرية التي تقدّم لنا الصدمة بالمجّان. وليس لي أن أندم اليوم لأن الخدعة إنطلت عليّ فأيقنت بوجود صداقة حقّاً لأن وسواس الواجب هو الدّاء الذي قادني بالأمس كما لم أتحرّر منه إلى اليوم، برغم كل الخيبات التي كان عليَّ أن أجنيها بسبب حسن نيّة تبدّت في عرف زمن إغتراب القيم الأخلاقية سذاجةً، بل وحتى غباءً. وها هو الإحساس المقدّس بالواجب يدفعني للسفر إلى الوطن لطرح قضيّة الإستغاثة البولندية أمام رئيس

Twitter: @alqareah

الجمعية الذي لم يبخل كعادته للسعي لدى ذوي الإختصاص لإقرار دعم مادّي عاجل على شكل مساعدات غذائية، ودعم آخر في شكل قروض طويلة الأجل، تماماً كما ارتجى المسئولون البولون من خلال الرسالة الشفوية التي بلّغني بها مندوبهم السالف الذكر يوم زارني بمقرّ المجلّة. حدث هذا في ذروة شتاء عام 1982، أي بعد إعلان حالة الطواريء في بولندا بشهر أو شهرين. وبرغم النيّة في البقاء بالوطن زمناً أطول برفقة الأسرة فراراً من جليد ذلك العام (وما يأتي به هذا العدوّ الأبدي في عبّه من كآبات الشمال التي لا تطاق) بيد أنّي لم أجد مفرّاً من مرافقة الدفعة الأولى من العون المادّي المقدّم إلى شعب بولندا الصديق في شكل مواد غذائية تقرّر أن تقلع بها طائرة خاصّة مستعارة من شركة كانت لاتزال أهلية في ذلك الوقت وغير معترف بها دولياً وهي شركة النقل الإفريقية لكي تقلّ الشحنة الأولى من السلع على نحوٍ عاجل في تلك الفترة المزمومة سياسياً وعسكرياً مع أمريكا التي أعقبت إسقاط الأخيرة لطائرتين حربيّتين فوق خليج سرت عام 1981، لأعلم بعد وصولنا بأمدٍ قصير بنيّة الأسطول السادس الأمريكي في إسقاط الطائرة عند مرورها فوق بحر إيجه بدعوى التجسّس على الأسطول لعدم حملها لهويّة معترف بها دولياً. وهو ما يعني منطقيّاً أني نجوت من الموت بمشيئة الصدفة وحدها. ولم أنجُ من الموت مرة واحدة، ولكني نجوت (بحكم المنطق) مرتين إثنتين. لأن المجهول الذي إستهدفني كان ينوي أن يقطع دابر أثري أيضاً بضربة واحدة. إنه الأثر الذي يعوّل عليه

Twitter: @alqareah

المخلوق البشري في الفوز بالخلود، وتعوّل عليه الطبيعة في تأكيد رسالتها في الوجود، وهو: الذرّية!

والإحساس بأنّي كنت سأذهب ضحيّة بخسة لعمل غادر دبّرته مسرحية ركيكة من مسرحيات السياسة التي كثيراً ما ذهبت بأرواح الأبرياء، كان مريراً وحافزاً للتأمّل في آن. ولكن ما فاق هذا الإحساس مرارةً، وأضاف له نصيباً سخيّاً من العبث، هو كيف كافأتني السلطات البولندية بيد أجهزتها وكذلك ساستها بعد هذه التجربة بزمن لم يتجاوز السنة.

ففي عام 1983 كنت بصحبة محمد البدري في سيارته الدبلوماسية بعد فراغنا من العشاء في أحد مطاعم المدينة يصحبنا القنصل في طريقنا إلى بيتي الواقع على الضفّة الأخرى من نهر الفيستولا، فإذا بسيّارة تعترض طريقنا فجأة لتستوقفنا. من السيّارة خرج عددٌ من الأشباح الماردة التي لم نتبيّنها في الظلام ليباغتونا بالعدوان بمجرّد خروجنا من السيّارة دون أن يفاتحونا بكلمة واحدة في بلدٍ إشتراكي يأتي الأمن الشخصي على رأس مزاياه، وتعتبر فيه حرّية تنقّل الأفراد بالداخل أبجديّة بديهية مكفولة بحرف الواقع أيضاً لا القانون وحده بوصفها تعويضاً للحرية الحقيقية المغتربة كحرية الرأي مثلاً. ولكن الجرح الذي أحدثته الأحداث التي شهدتها البلاد مؤخّراً خلخل المجتمع الذي قتل في نفسه شبح الخوف، فكان أن تضعضع الأمن لتنتعش في الإنسان روح الجريمة. وتسلّل عصابة لسرقة مقرّ المجلّة قبل ذلك التاريخ بشهرين كان برهاناً على الوضع الأمني الجديد.

Twitter: @alqareah

ولمّا لم نفعل ما من شأنه أن يبرّر هذه الهجمة المباغتة فكلّنا ظنّ أن حفنة المردة هي عصابة أوجدتها ظروف التسيّب الجديد، فدافعنا عن أنفسنا، في حين أفلت القنصل ولاذ بالفرار. كانت معركة تَنَدّرْنَا بفصولها طويلاً فيما بعد. ولكن المفاجأة الحقيقية هي هوية العصابة كما اتّضح تالياً: شرذمة رسميّة من أعضاء البوليس السرّي تستخدم سيّارتين لا سيّارة واحدة. وها هي تلقي علينا القبض لتقتادنا إلى أقرب مركز شرطة بعد أن تستولي على كل أوراقنا الثبوتيّة لتخفيها إلى الأبد ظنّاً منها أن ذلك سيجيرها من المسئولية القانونية الناتجة عن فعل هو إنتهاك لا يُغتفر لقانون الحصانة المعتمدة في القوانين الدولية التي لا تعترف بغير الوصيّة التوراتيّة المترجمة في مبدأ المعاملة بالمثل في علاقات بعضها ببعض. ولكن جرم التهجّم على حافلة لبعثة دبلوماسية معتمدة (كما تشير اللافتة المثبّتة من أمام ومن خلف) ثمّ الإعتداء على ركّابها على ذلك النحو الهمجي دون سابق إنذار أو إستفسار أو ذنب من أيّ نوع، لم يكن كل ما في جعبة هذه المؤامرة الدنيئة. فما أعقب ذلك من إجراءات برهن على خطّة مسبقة تواطئت في تدبيرها عدّة جهات أمنيّة وحزبية تعكس الصراع الدائر داخل المؤسسة السياسية في بولندا نفسها بين العناصر الموالية للغرب والمعادية لحركة ياروزيلسكي، وبين الفريق الآخر المتمثّل في الحرس القديم الموالي للأخ الأكبر المتمثّل في السوفييت. ففي مركز الشرطة تمّ إبلاغ المناوب بالخارجية فأمر بإطلاق سراحنا فوراً لنستعيد حرّيتنا، ولكن دون أن نستعيد هويّاتنا. وهو ما يعني أنها

Twitter: @alqareah

نصف حرية في عالمٍ لا يعترف بهويّة الإنسان كإنسان ما لم تكن مشفوعةً بتلك الأوراق الثبوتية التي لم يخطيء كافكا عندما قال بأن أغلال البشرية منسوجة من أخطبوطها. وأبالسة الأجهزة الأمنية التي إبتدعت مثل هذه الأصفاد تعلم هذه الحقيقة لدرايتها بأن غياب أوراق الروتين ليس تضييعاً لأثر الدليل على حدوث الجريمة فقط، ولكنه أيضاً تضييع لحريّتنا طوال الأمد الذي سيستغرقه إستخراج الأوراق البديلة. تزامن وقوع هذا العدوان مع غياب السفير رمضان عبد العزيز عن بولندا ليتولّى محمد البدري منصب القائم بالأعمال في تلك الفترة ليكون من سوء حظّ المتآمرين أن يكون المدّعي العامّ في القضيّة هو الضحيّة أيضاً: أي أنه شاهد العيان أيضاً. وها هو هذا الإنسان الذي لم أُكبر في شخصه النبل أو الرجولة أو الوفاء كما أكبرت فيه روح السخرية، يقوم في صباح اليوم التالي بالذهاب إلى السفارة ليبرق بالواقعة إلى الداخل، قبل أن يحرّر مذكّرة الإحتجاج إلى الخارجية البولندية ليحمله بنفسه إلى بلاط الزبانية ذاك، في حين قمتُ من جانبي بالإتصال بأمين سرّ الجمعية طالباً مقابلة عاجلة مع رئيس الجمعية الجنرال هوبالوفسكي الذي عبّر لي عن أسفه العميق طالباً مهلة للإستفسار من جهات الإختصاص عن ملابسات هذا الإعتداء المحزن. والواقع أنّي لم أعوّل على فعالية هذا الرجل السجين في قوقعة الرؤية العسكرية التي لا تعترف بغير تلقّي الأوامر لتُنفِّذ، أو إلقاء الأوامر لتُنفَّذ. وكم كان يسيراً على دهاة الخارجية أن يقنعوا الرجل بأيّ حجّة هي دوماً بالطبع كذبة، كما كان أيسر على

Twitter: @alqareah

دهاة الأجهزة الأمنية أن يقنعوا معبودهم ميفستوفلس نفسه الذي لا تخفى عليه خافية بصواب أيّ خطيئة وإلاّ لما انصاع أعتى الطغاة لمشيئتهم ليخلقوا منهم طغاة رغم أنفهم! فالفضل في قيام الأنظمة الإستبدادية يرجع إلى حجج الأجهزة الأمنية وقدرتها على الإخراج الذي يحوّل الأكذوبة حقيقة، ويقلب الحقيقة أكذوبة!

والنتيجة؟ النتيجة كانت متوقّعة لا بسبب سوء النيّة في البدعة المسمّاة خارجية (سواء البولندية أو الليبية)، ولكن بسبب العجز أمام الأجهزة الأمنية التي كانت بليّة كل نظام شمولي. فهي وحدها تملك الحصانة الحقيقية مقابل حصانة البعثات الدبلوماسية التي لا تعود حبراً على ورق عندما تصطدم بحصانة الأجهزة. والأسوأ من كل شيء هو أن نحاول تنفيذ العدالة في خصم معصوم من قوانين الوجود التي ترى في الحضور أوّل حرف في أبجديّتها. أنه خصم خفيّ فعليّاً، لا مجازيّاً. خفيّ لأن لا أحد يستطيع أن يقاضيه، برغم قدرته على إبتلاء الخصم بأشرّ أنواع الجور لأنه يسري في كل السلطات، ويملك الحقّ في استخدامها كلّها كأدوات في تنفيذ ما شاء، ضدّ من شاء دون أن يتهدّده أدنى عقاب. وأقسى ما يمكن أن يتعرّض له عند ارتكاب أفظع جرم هو كلمة توبيخ ليس إلاّ. فالإحساس بغياب العقاب لا يجيز الظلم وحسب، ولكنّه يفتح الباب على مصراعيه لاحتراف الإرهاب!

لا أدري عمّا إذا كان من العدالة أن نؤمن بالأحكام المطلقة التي يروق البعض أن يلصقوها بالشعوب كخصال كأن يُقال عن أمّة

Twitter: @alqareah

البولنديين أنها مراوغة، أو كتومة لأنها تخفي غير ما تُظهر، أو نفعيّة، أو غيرها من طباع قد تكون سجيّة أفراد، أو جبلّة شرائح، ولكنّنا لا نملك الحقّ في إتّخاذه معياراً لقياس مسلك أمّة في دنيا محكومة بقوانين النسبية. وأظنّ أن الموقع لعب دور البطولة في تحديد طبع البولنديين. إنه موقعٌ تراجيدي لأنه همزة الوصل بين سلالتين عظيمتين لعالمين مختلفين هما: الروس والجرمان. وكي تتّقي شرّهما عليها أن تتمتّع بخصالٍ إستثنائية في الدهاء. هذا الدهاء الذي قد نراه لؤماً، ولكنّه من وجهة نظر القدر التاريخي دفاعٌ عن النفس. فإذا أضفنا إلى هذه الخصلة خصلة أخرى فرضتها ظروف إقتصادية كانت ربّما إفرازاً للواقع السياسي الدرامي كالروح التجارية الناجمة عن احتراف الحرفة، فإنّنا سنفهم الطبع النفعي في مسلك الإنسان البولندي الذي يتبدّى من وجهة نظر الغرباء خللاً أخلاقياً. فإذا كنتُ قد صُدمت مراراً في أُناسٍ من هذه الملّة كنت قد أحسنتُ إليهم كثيراً، فليس لي أن أسبّ الملّة البولندية لآخذها بجريرة أفراد لهم حضور في كل الأرباع وفي صفوف كلّ النّحَل؛ فبرغم نكران الإحسان كطبع تقليدي في سريرة الجنس البشري، بيد أنّي لن أنسى أصالة أناس أعتزّ بصداقتهم، وممتنّ لوفائهم أمثال البروفيسور دانيتسكي، أو البروفسورة مينديتسكا، أو إيفون بازديرسكا، أو السيّد جيتيك، أو السيّد ماركيفتش، أو ناتورف أو أناس بسطاء أمثال السيّد فلوديك، أو السيّدة هالينا، أو غيرهم ممّن لا تسعفني الذاكرة الآن باسمائهم. فروح خيّرة واحدة قادرة أن تشفع لألف روحٍ شرّيرة!

Twitter: @alqareah

وتعرُّضنا لظلم نظام سياسي لا يعطينا الحقّ في إتخاذ موقف ضدّ أمّة هذا النظام الظالم، لأننا لا يجب أن ننسى أن أهل النظام هم أيضاً ضحايا. وإذا أساءوا لنا فإنّهم لا يفعلون أحياناً تعبيراً عن طبيعة كامنة، ولكن تنفيساً عن الضغط العام المصاحب لأي نظام ظالم. وهو ما تعلّمته من تجربة أهلي في ليبيا. فإذا كان الظلم جحيماً فإن الغفران فردوس!

Twitter: @alqareah

42

لم تتكرّم السلطات البولندية بتقديم أي تفسير للغارة الهمجيّة التي شنّتها أجهزتها الأمنية السريّة على أعضاء بعثة دبلوماسية لدولة صديقة معتمدة لديها. بل ولم تتفضّل بتقديم حتّى الإعتذار المستوجب وهو أقلّ الإيمان في مثل هذه الأحوال، أو أي إيضاح يشفي الغليل كالتحقيق في القضيّة. لم يحدث هذا لا على المستوى السياسي الذي تمثّله الخارجية، ولا على المستوى الشعبي الذي تمثّله الجمعية. ولكن موقف الخارجية البولندية يهون إذا قيس بموقف الخارجية الليبية المخوّلة أساساً لا بالإحتجاج الشكلي وحسب، ولكن في صلاحيّاتها، بل وفي أبجديّات واجبها، أن تتّخذ الموقف العملي الرادع إنطلاقاً من المعاملة بالمثل كما جرى التقليد. فماذا فعلت سلّة الأفاعي هذه؟

لم أنتظر شخصيّاً من محفل الشرّ هذا خيراً وهو الذي ناصبني العداوة المجّانية دوماً، بل توقّعت أن يفرّك سحرتها أيديهم من فرط السعادة نكايةً بي، ولكنّي ظننت أن يتّخذوا إجراءً إنتصاراً لإنسانٍ هو القائم بأعمال بعثتهم يوم وقوع الحادث وهو محمد البدري. وها هو هذا المستنقع العفن يخيّب ظنّي في أن يثأر لكرامة إنسان بريء يمثّل

Twitter: @alqareah

وطناً لدى البلد المعني كالبدري فتبعث هذه المؤسسة وفداً للتّحقيق مع الضحية بدل أن تشكّل إستقصاء حقائق مع الجلاّد أو تمارس وسائل الضغوط على الجانب الآخر وهي تملكها ومن ضمن إختصاصاتها. وهي بهذه المفارقة لا تبحث عن الحقيقة في الجناية، ولكنّها تنوي الفوز بذريعة لإدانة الضحيّة وتبرئة الجُناة. لماذا؟ الجواب ببساطة: لأن كلينا دخيل على المحفل، ولسنا أرومة في صلبه وهو ما لا يُغتفر في عرفها الذي يرى العمل في الخارج حكراً على أعضائها. وهناك سبب آخر يبرّر الإستهانة بنا وربّما يبيح التنكيل بنا وهو اطمئنانها بأنّنا لا ننتمي إلى الفئة المدعومة من السلطات كمندوبي الأجهزة الأمنية الذين تخشى جانبهم، أو مبعوثي اللجان الثورية، أو الملحقين العسكريين، وكلّهم يملكون سلطة ردع تحمي ظهورهم وتظلّلهم بحصانة ضمنيّة. أمّا نحن فنمثّل الحلقة المستضعفة التي لا تملك للدفاع عن النفس حيلة وهو ما يدريه البدري أيضاً ولذا تسلّح بدرعه التقليدي المسبوك من معدن السخرية مقابل إستنكاري لهذه المناورة الخسيسة لتمييع مسألة مبدئية أخلاقية قبل أن تكون إستهتاراً بالقواعد المعتمدة في العلاقات بين الدول، لأن الواقعة ليست إهانة موجّهة لأشخاص، ولكنّها عمل مدبّر لإهانة وطن يمثّله هؤلاء الأشخاص، والإجراء المستلزم هو ردّ إعتبار كرامة هذا الوطن. ولكن ما يهمّ سدنة الخارجية هو النظام وليس الحقيقة ولا الوطن. ولمّا كنّا مع البدري خدماً في بلاط العنقاء المضطهدة في كلّ الأنظمة وفي كل العصور وهي الثقافة (لأنها صوت الحقيقة الحاملة

Twitter: @alqareah

لروح الأوطان)، فأمرنا لا يهمّ محفل الخارجية إلاّ بالقدر الذي يسيء لنا، لا ليبرّئنا. ولكن الأقدار التي لم تتخلّ عنّي يوماً هرعت لنجدتي هنا أيضاً. هرعت لنجدتي في هذه الحملة الجديدة مرّتين لا مرّة واحدة. مرّة عندما عَيّنَتْ في لجنة التحقيق المُزمع صديق قديم هو الكاتب كامل عراب الذي كان عضواً بإحدى لجان الخارجية آنذاك دون أن يعلم محفلها الأمّي أنه كاتب أوّلاً، ودون أن يعلم أيضاً أنه صديقٌ لي! وقد عبّرتُ لكامل عن رفضي الإدلاء بشهادة أمام لجنة الخارجية فور وصوله لأسباب مبدئية ومنطقيّة حدّثته عنها. ثمّ أحلته إلى البدري كي يطلعه مع عضو لجنته على روح العداء التي دأبت السلطات البولندية على ممارستها ضدّ البعثة والذي لم تكن له حادثة الإعتداء سوى الذروة. وقد برهن له البدري عند إجتماعه به عن الوقائع الدالّة من واقع الملفّات. وكم كان مذهولاً عندما جاءني في المساء بسبب الحقائق التي وضعها البدري بين يدي اللجنة، لأن ما أدهشه هو كيف نتوهّم حسن نيّة دولة تدّعي الصداقة ثم تمارس على رعايانا مثل هذه الأفعال. فهل غيّر تقرير اللجنة من موقف الخارجية الليبية شيئاً؟ كلاّ بالطبع. لقد لزمت الصمت لأن تقرير اللجنة يدينها هي أكثر ممّا يدين السلطات البولندية لموقفها المخزي من حوادث الإعتداء المكرورة على رعاياها وأعضاء بعثتها. صمتتْ الخارجية الليبية لأنها لم تفُز بما من شأنه أن يدين شخصي أو يدين البدري. ولكن الأقدار سخّرت الإنسان الوحيد الجدير بالإكبار الذي لم يصمت ولم يخُن إنتصاراً للعدالة وتلبيةً لنداء الواجب وهو: أبو

Twitter: @alqareah

زيد دوردة رئيس الجمعية الذي كان يتولّى في ذلك العام وزارة الزراعة أيضاً. ويشرّفني أن يكون هو من انتصر لي لا سواه، لأن الأقدار لم تشأ أن تسخّر لي أناساً مشكوك في نقائهم الأخلاقي أو قيمتهم الإنسانية وهو العملة الغالبة السائدة في واقع ذلك الزمان. ففي زيارتي لطرابلس واعدني هذا الإنسان النبيل كي يلتقيني في بنيان وزارة الخارجية التي تولّى أمرها ما بين 1974 و1976 وخرج منها بطلب من أنور السادات كشرط لتحسين الأجواء المزمومة بين البلدين ليتولّى وزارة البلديّات في العام نفسه. في مقرّ الخارجية المرمري كان الرجل قد سبقني ليطلب إستدعاء السفير البولندي على نحوٍ عاجل. وهو سفير برتبة جنرال جرى إعتماده بعد إنقلاب ياروزلسكي. وهو مثله مثل الجنرال هوبالوفسكي رئيس الجمعية لا يفقه في أمر السياسة شيئاً ليصير رهينة في يد حفنة موظّفي الخارجية الموبوئين بعدوى واقع الخارجية المسموم. ومعالجته الفاشلة لقضايا كثيرة بين البلدين برهنت آنذاك على جهله بأبسط أبجديّات العمل السياسي.

في ذلك اليوم تنحّى وزير الخارجية آنذاك علي التريكي ليفسح المجال لفارس هذا المحفل (الذي لم يتكرّر، ولم يكن له أن يتكرّر إلى اليوم) ليحتلّ مكانه ليبرهن في ذلك اليوم أن السياسة عموماً (الخارجية خصوصاً) لا تحتاج للإلمام بالفلسفات من أي نوع. يكفي التحلّي بروح المنطق، وبنصيبٍ وافر من رجولة ومن صدق، لكي يكون الإنسان ناجحاً سياسياً. أي أن ما تحتاجه السياسة عكس النظرية المعتمدة في ناموس الداهية تاليران تماماً. وها هو سفير بولندا

Twitter: @alqareah

يسمع هذا الصوت: صوت الوضوح الذي يضع النقاط على الحروف، فيعبّر ببسيط العبارة عن إستنكاره لتعريض حياة أناس هم رسل لفعلٍ إجراميّ لا مكان له حتى بين الدول المعادية، فكيف إذا كانت دولاً تدّعي الصداقة؟ فبماذا برّر السفير البولندي موقفه في ذلك اليوم؟ لقد لجأ إلى الغشّ الذي لقّنه له موظّفو خارجيّته اللؤماء وسادتهم من إدارات الأجهزة البولندية السرّية. أقول الغشّ لأن الحجّة المستخدمة في تبرير فعل الإعتداء هي تعاطي الخمر لا لأنها أكذوبة فقط، ولكن لأنها عزفٌ مبتذل على وتر الموقف من المشروبات الكحولية كسلعة محظورة التداول رسميا في ليبيا. وكثيراً ما استخدمتها دول أخرى في مثل هذه المواقف كفزّاعة لحسم الأمر لصالح الجُناة لأنها هي كعب أخيلوس لدي الليبيين.

ولكن هذه اللعبة لم تكن لتخفى على أبي زيد. وها هو يوجّه للسيد الجنرال سؤالاً أمات في قلب معالي السفير أدنى أمل في الفوز: «هل تعاطي الخمر ممنوع في بولندا؟». طأطأ الرجل برأسه أرضاً ولم يجب فأضاف أبو زيد: «في ليبيا تعاطي الكحول ممنوع، وبرغم ذلك تتعاطونه كبعثات دبلوماسية، وتقودون السيارات في الشوارع وأنتم سكارى فيتغاضى رجال المرور عن مخالفتكم للسير برغم أنها جرم تعاقب عليه قوانيننا، فهل حدث واعتقلنا أحدكم بتهمة تعاطي الخمر، أو قمنا بالإعتداء عليه لمجرّد مخالفة سير؟!». عاد السيد الجنرال يطأطيء في حين خاطبه أبو زيد بلهجة صارمة وواضحة: «إذا كنتم صادقين في صداقتكم حقّاً فليس لكم أن تمسّوا

Twitter: @alqareah

مندوبينا لأنهم رسل، وصفة الرسول مقدّسة في كل الأعراف. فإذا اقترف أحدكم خطأً في حقّ قوانينكم فلكم أن تخاطبونا بشأنه لا المساس بشخصه أو بأحد أفراد عائلته. هذا ما نصّت عليه الإتّفاقيات الدولية، وما نصّ عليه ميثاق الصداقة أيضاً!».

لقد أخفق الجنرال في مبرّراته إلى حدٍّ أحسست نحوه في تلك اللحظة بالشفقة. ولكي ينقذ ما تبقّى من ماء الوجه تحدّث عن واقعة تعرّض لها مواطنون بولنديون على يد السلطات الليبية منذ يومين دون أن يستلم بشأنها إيضاحاً من جهات الإختصاص. وقد إتّضح فيما بعد أن إعتقال هؤلاء الأشخاص (الذين كانوا من عمّال إحدى الشركات البولندية العاملة في ليبيا) كان بسبب ضلوعهم في إستيراد شاحنة كاملة من المتفجّرات بدون ترخيص رسمي. وهي جريمة لا تتساهل معها حتى الدول التي تبيح قوانينها تداول الأسلحة، فكيف ببلدٍ يمنع إمتلاك بنادق الخرطوش المستخدمة لصيد الطير مثلاً؟ وبرغم ذلك إستنكر أبو زيد الواقعة ووعد بالتدخّل لاستجلاء الأمر دون أن يدري هو بالطبع، ولا أن يدري العدوس الشقيّ أيضاً أن الواقعة كانت رسالة مدبّرة من جلالة القدر موجّهة إلى السلطات البولندية ليوهم مسئوليها أن المسئولين في بلدي هم مَن إنتصر لي ولرفيقي ردّاً على عملهم الهمجي؛ لأن القدر إذا كان نصير مَن لا نصير له، فإنه العليم أيضاً أنه إذا لم يتدخّل على هذا النحو، فإنّ أبالسة الإستخبارات البولندية الذين لا يعرفون غير لغة الردع سوف يتمادون في عدوانهم، لأن الهجمة الأولى لم تكن في السيرة سوى جسٍّ لنبض!

Twitter: @alqareah

فما دلّلت عليه التجربة هو أن العداوة موقف كل الأنظمة (سيّما الشمولية) وهو موقف مبدئيّ ونهائيّ إزاء كلّ من حمل جرثومة الثقافة مهما حاول سادة هذه الأنظمة (سواء جناحهم السرّي، أو العلني) أن يخفوا الموقف بالأقنعة الزائفة كالبعد الأيديولوجي أو السياسي أو حتى الشخصي بدليل ما حدّثني به أحد الإعلاميين البولنديين الحزبيين كيف وبّخ قادة اللجنة المركزية أقطاب الإعلام في إجتماع دوري، لأن ليبيّاً أقبل من الصحراء ليؤسّس في عقر دارهم وسيلة إعلاميّة تفوّقت في السوق على وسائلهم شكلاً وموضوعاً! ففي الوقت الذي سادت فيه الشائعات التي تؤكد أن توبيخ دعاة الأيديولوجيا باللجنة المركزية لعناصر الإعلام الرسمي كان بإيعاز من كهنة النظرية القابعين وراء أسوار الكرملين باعتبار المطبوعة إختراق أيديولوجي وثقافي لا يقلّ خطورة عن الإختراق الأمني في ظلّ التحجّر العقائدي الذي بلغ الذروة في تلك الأيام، إلاّ أن ما غاب عنّي هو حقيقة حقل الألغام الذي جئت لأبني عليه كياناً لمنبر ثقافي يبدو معادياً لا أيديولوجياً فقط في بلدٍ يدين أهله بمذهب كاثوليكي ذي نزعة شوفينية في كثلكته (سيّما بتزامنه مع إختيار كاردينال البلاد فويتيلا ليتولّى أمر الفاتيكان)، ولكنه معادٍ دينياً أيضاً إذْ يقدّم الإسلام كرسالة ثقافية تغذّت على روافد مختلف الأمم ذات أفق روحي إنساني لا يمتّ بصلة للخرافات النمطيّة الموروثة في أوطان الشمال سواء عن الحروب الصليبية أوعن الحروب مع

Twitter: @alqareah

الإمبراطورية العثمانية. فهل هذا كل ما غاب عنّي في مجاهل الشمال البولندي؟

كلاّ! لقد غاب عنّي عنصر آخر لم أحسب له حساباً وهو الخصم السرّي، والأبدي، المستتر دوماً وراء أقنعة سخيّة قد تكون أيديولوجية، أو سياسية، أو فكرية، أو دينية، ولكن حقيقتها الخفيّة هي دوماً عرقيّة. وهو عدوّ لا يواجه عادةً لأن ما يروقه هو إتّخاذ الأغيار ترساً في كل مواجهة سواء أكان الأغيار هويةً أو بردعةً سياسية، أو مسوحاً أيديولوجية. إنه شبح. وهو لذلك لا يُسمّى. وما لا يُسمّى هو ما لا يُقهر!

Twitter: @alqareah

43

في تلك المرحلة كانت فصول خطّة ميفستوفلس في الدفع نحو الحدود القصوى قد قاربت على الإكتمال. فالحصار يشتدّ كل يوم، والخناق يضيق، وحبل المشنقة مفتول ومزموم بعد أن سخّر رسول الشرور كلّ مريديه (الذين لم يعدم وجودهم يوماً) لإحكام القبضة حول شخصي لتشمل الدول والأخلّة وطاقم السفارة من الزملاء، بل ولتتسلّل إلى عريني لتؤلّب ضدّي قريني. فها هو رسول الخلاص المسلّح بمنطق الشرّ القادر على التحوّل خيراً يجرّدني مع مشارف عام 1984 من المخلوقين الوحيدين الذين كانا لي ذراعاً يمنى وعزاءً في المحنة: رمضان عبد العزيز ومحمد البدري لينسحبا من الساحة بقرار الإستدعاء إلى الداخل، ولم يبقَ لي إلاّ أن أصارع أشباح الأرواح الشرّيرة وحيداً. كل ذلك لكي أعلم بالتجربة أن الحقيقة التي طفت العالم بحثاً عنها لا وجود لها في واقع هذا العالم، وليس أمامي سوى تناول الجرعة الأخيرة من كأس المرارة لأواجه نفسي الجريحة لأفتّش في نزيفها عن حقيقة نفسي التي أهنتها وبدّدتُ ذخيرتها طوال سنوات الضياع في العالم. إنه درس التجربة التي حلمتُ بها منذ التكوين. بلى! إنها التجربة التي حلمتُ بها وعوّلت

Twitter: @alqareah

عليها مع ميلاد رحلتي في الستينيات ورأيتها فردوسي الموعود دون أن أدري كيف تغلغلت في صلبي فخذلتني. خذلتني لأني إستهترت بها وظننتها كنزاً يُعطى على سبيل الهبة، أو لقية تُنال كالغنيمة، فإذا بها نصل في الروح يغوص خبيثاً فلا ننتبه لوجوده إلاّ بعد أن تستفحل الجراح ويسبح القلب في نزيف الدمّ. وكيف لا إذا كان عمق الرؤيا إستعارة من عمق التجربة، أي من عمق حضور النصل في سويداء القلب؟ لقد إستدرجتني التجربة بحيَل الإغواء فطفتُ طويلاً، وتهتُ عن نفسي كثيراً، فأضعتُ وقتاً سخيّاً لأُلحِقَ بذلك الضرر بالأبدية، وأسيء إلى نفسي عميقاً، لأكتشف بعد أن أثخنتني الجراح أن ما خذلني ليس التجربة، ولكن ما خذلني هو العالم الذي عوّلتُ عليه فقادت إليه التجربة لتفضح لي حقيقته المعادية للحقيقة!

فعندما كنتُ أروّض «التنّين بألف رأس» كعنوان للرواية التي لم أكتبها بعد، وربّما سأكتبها يوماً إن أمهلتني الأقدار، ظننتُ أنّي أرى في أشباح الشرّ التي طوّقتني نموذجاً إستعارياً كافياً لتجسيد محنة الإنسان إبّان حضوره في شرَك الكينونة، ولم أكن أدري أنّ هذا التنّين برؤوسه الألف هو روح الدنيا التي لا تُغلَب، قبل أن يكون مبعوثاً للقوّة التي تفعل شرّاً لأن الشرّ يتحوّل خيراً، ولكنّها لا تفعل خيراً أبداً لئلاّ ينقلب شرّاً ممّا يعني أن الداهية الذي سنّ قوانين الجدل لم يكن هيراقليط أو هيغل، ولكنه ميفستوفلس! وأحسب أن من المناسب أن أتوقّف هنا قليلاً لأسرد سيرتي مع هذا الداهية عندما إعترض سبيلي في ربيع عام 1982 أثناء زيارة إلى موسكو كعضو في

Twitter: @alqareah

وفد رسمي لإجراء مباحثات مع أكاديمية العلوم السوفييتّية ضمّ الأكاديميّين الصديقين محمد الجراري ومحمد الحضيري. وقد غادرا إلى جمهورية أذربيجان لإجراء محادثات مع فرع الأكاديمية هناك في حين قرّرتُ أن أكرّس ما تبقّى من وقت لإرتياد المكتبات في حاضرة المعرفة الأولى وزيارة أصدقائي القدامى لإسترجاع ذكريات الزمن الضائع. وها هو صديقي القديم حسن أحمد المقيم بموسكو يقلّني بسيّارته التاريخية بعد عشاء مع أحد الأصدقاء الروس خارج المدينة إستمرّ إلى ما بعد منتصف الليل. وكان علينا أن نقطع مسافة لا تقلّ عن الخمسين كيلو متراً كي نبلغ مركز المدينة في أجواء شهر يونيو التي تجود فيها طبيعة الشمال بقبس الفجر منذ الثالثة صباحاً. ولكن الغيهب كان مايزال مهيمناً عندما إعترضنا ذلك الجسم المسجّى على قارعة الطريق بلونه الرصاصيّ الأشعث وهويّته التي لم أخطئها، كما لم يخطئها رفيقي حسن لأننا هتفنا بإسمها معاً كأنّه لقية إفتقدناها طويلاً، أو مريد أضعناه كثيراً وعثرنا عليه مصادفةً. إنه نداءٌ منطوقٌ بلسان الأعماق. نداء المجهول الذي ينام فينا كجرثومة موروثة عن الأسلاف ليلعب لغز الروح دور الرسول الحامل لوصية المواجهة الأولى مع آدم، مؤكّداً بذلك لا على خلود الروح وحسب، ولكن على وجود ربّ الروح أيضاً! إذْ ما معنى أن يتجسّد في الواقع الحرفي القطب الآخر المعادي الحامل لهوية النقيض، إن لم يكن ذلك دليلاً على وجود القطب الأجلّ المجبول دوماً بالغيوب؟ أليست هذه رسالة جليّة للبرهنة على وجود الضدّ؟ وهتافنا بهويّته دليلٌ آخر

Twitter: @alqareah

على وجوده فينا لا خارجنا أيضاً، وهو ما يؤكّد الوصية التي نتغنّى بها عن وجود الله فينا أيضاً. والمثير في الأمر حقّاً هو صورته التي لم تخطيء ذاكرة الأمم التقليدية حقّاً في التعبير عنها كجرم أشعث، بلون رصاصي مشوب بالزرقة، وبأذنين طويلتين، وذيل أطول، مكسوّة كلّها بالشعر الشاحب، فيستعير ملامح الحيوان الوحيد الذي نصّبته ثقافة مصر القديمة كقرينٍ له حتّى في الإسم وهو «شث» الذي يعني أيضاً الحمار الذي تقول أسطورة «إيزيس وأوزوريس» أن ربّ الشرور «شث» أو «شظ» قد فرّ إلى أورشليم على ظهره. ولا أعرف لماذا تبدّى لي في ضوء السيارة قريناً لحيوان آخر هو «كونغرو»!

علامة أخرى كانت فارقة في هذا البدن الرهيب: إنها الأظافر. الأظافر التي فتنت حسن أحمد إلى حدّ أنّنا لا نأتي على سيرته إلاّ وهتف في كل مرّة كالممسوس: «هل رأيت أظافره؟» ليكرّر هذه العبارة مأخوذاً كأنّه يحدّث بها نفسه. وسرّ تلك الأظافر لم يكمن في لونها الأزرق وحده، ولكن في طولها الإستثنائي الذي إستفزّ حسن لدرجة همّ فيها بسحق الجسم الأسطوري الفظيع بعجلات السيارة لو لم أوقفه إستجابةً لوسوسة خفيّة بوجود شَرَك. وسوسة قدسية لا تختلف عن وسوسة الإهتداء إلى الهوية الميتافيزيقية المدسوسة في الجينات. والحدس الغيبيّ لم يخذلني، لأن المكيدة بدأت تنكشف ما أن ترجّل حسن وتقدّم بدافع الفضول لينحني فوق الجرم الملقى على الإسفلت في نيّة للتحقّق منه بحاسّة أخرى هي اللمس. هنا فقط بدأ الجرم ينقشع ويتبدّد. لم يتبدّد فوراً، ولكنّه إنسحب ببطء ليجد حسن

Twitter: @alqareah

بين يديه جرم رجلٍ ثملٍ ما لبث أن كافأ حسن على تحريره من شبح الجثامة التي تلبّسته بلعنة بذيئة!

في تلك المرّة إستجرتُ بسيرة سلطان الخفاء هذا كما أوردها دهاة الأدب. تذكّرت زيارته لـ«إيفان كارامازوف» الرهيب عندما كانت تساوره رؤاه التجديفية في حقّ كل مبدأ قدسي بما في ذلك الإيحاء لأخيه غير الشرعي سميردياكوف بقتل الأب! وأدهشني أن يصفه دوستويفسكي كما شاهدته في فجر تلك الليلة حرفياً. ثمّ إستعدت زيارته الأخرى لبطل «دكتور فاوستوس» لتوماس مانّ (وهو لافركيون) ليحاور الشبح الأشعث على نحوٍ لا يختلف كثيراً عن الحوار مع إيفان كارامازوف. أمّا نبيّ الديانة البروتستانتية مارتن لوثر فقد عاجله بالمحبرة أثناء قيامه بزيارته عندما كان منهمكاً في تأليف إنجيل البروتستانتية المعنوَن بـ«الخمسة والتسعين موضوعاً» التي زعزعت سلطة بابا الفاتيكان. وهو ما يعني أن زائر الأبدية الأشعث هذا لا يشرّف أحداً بالتبدّي، أو الحلول في مسوحه التقليدية إلاّ لأمرٍ جلل. أي في الزمان الفيصل. وهو يأتي ليضع النقاط على الحروف ليبشّر بعصر جديد بعد أن يكون قد وضع بزيارته حدّاً لعصر. فحضوره بمثابة نبوءة يجب أن تقرأ كوصيّة لبداية عصر جديد. والويل ثم الويل لمن أخطأ في قراءة الوصيّة، أو إستهزأ بحرف الوصيّة!

إنّه المنعطف الذي ينبّه إلى حقيقة العالم كباطل أباطيل ليعيد المريد إلى الصراط القديم القائم على وصيّة الأجيال المحفورة منذ الأزل على مدخل معبد دلفي: **إعرف نفسك!**

Twitter: @alqareah

44

تلك كانت بشارةً مقلوبةً على طريقة التورية في أحاجي الأوائل تقول أن الخلاص يستوجب قطع حبل السرّة مع العالم. وهو ما لا يتأتّى بدون الإرتداد إلى الذات. الذات التي كانت حتى لحظة المواجهة مجرّد مرآة تعكس العالم بكلّ ما يسكنه من عنفٍ وكذب وفوضى، ويجب منذ الآن قلب الآية بحيث تغدو الذات هي العالم، والعالم هو المرآة التي تعكس الذات. واعتناق دين التخلّي ليس التدبير الأخير في هذا السبيل، ولكنّه مجرّد تقنية لاكتشاف الكنز الحقيقي. الكنز الخفيّ الذي يسكننا، ولكن العالم يستدرجنا ليسرقه منّا طوال مواكبتنا لركابه مأخوذين بوعوده. فالذّات دهليز مجهول يحوي عوالم ثريّة نفرّ منها بحثاً عنها خارجاً ولا ننكفيء لنلتفت إليها إلاّ بنكبة. وكلّما كانت النكبة أقوى كلّما كانت النيّة في العودة أصدق. وعمق الردّة رهين بصدق النيّة أيضاً. فاليأس من العالم شهادة. ولكن النزيف الناتج عن جراح العالم ضمان أكبر وكلمة سرّ أقوى مفعولاً في النزال مع البعد المفقود حيث ينتظرنا رسول إسمه **الروح**. الروح المنسية التي لم يخطر وجودها لنا على بال. ولكن العثور على الروح ليس نهاية مطاف في تجربة البعث، ولكنها البداية.

Twitter: @alqareah

إنها قطعة في طريق عالم الآثار والحافز في حملة الحفريات. الحفريات التي ستكشف بالبحث عن وجود ما يتستّر وراء الركام حيث ينام الأثر الأعظم شأناً من كل الآثار وهو: **الحقيقة!**

ففي ذلك اليوم الذي أغلقتُ فيه الباب على نفسي وجلست لأخضع نفسي للحساب، تحوّل الإشمئزاز في نفسي غثياناً. لقد هالني أن أسلخ من العمر القصير عشرات السنين في ملاحقة السراب ممنّياً نفسي باكتساب التجربة، وبطلب مباديء لا وجود لها في العالم، بل ويستهزيء بها العالم. فالصداقة التي جئت هذه البلاد لكي أضع لها حجر أساس خرافة بدليل أنّي جنيت مقابل حسن النيّة عداوة بدل الصداقة. والثقافة التي إنتويت أن تكون للوطن رسولاً من خلال المنبر الشقيّ لا تهمّ القائمين على أمر الوطن، لأن الوطن نفسه كان قد صودر ليحلّ مكان ثقافة الوطن معبود آخر هو أيديولوجيا الوطن. وها هي القرينة الشقيّة تنضم لصفوف الأشباح كما إعتادت أن تفعل في كلّ مرة يتكأكأ فيها الأعداء بدل أن تكون لي عوناً. فهل أعزّي نفسي بخرافة الذرّية على طريقة الدهماء فأضحّي بالروح وبالحقيقة التي تسكن الروح في سبيل نعيم هذا العدوّ أيضاً بعد أن إكتشفت طوال هذه الأعوام أن كل ما له صلة بالعالم، وكل ما يراه الناس قيمة في العالم هو بالذات باطل الأباطيل الذي تغنّى به حكيم الجامعة منذ القِدَم؟

وها هو الزعيم المسلّح بالقوّة التي تفعل الشرور يدفع بالعجلة إلى الحدود القصوى مع وصول إنسان رذيل مجبول بكل الخصال

Twitter: @alqareah

الخسيسة إلى وارسو في شخص مسخ إسمه سليمان العريبي ليتولّى أمر السفارة خلفاً لرمضان عبد العزيز عام 1984. ففي الوقت الذي دأب فيه على إعطائي من اللسان حلاوةً، كان يحرّر تقاريره المبعوثة إلى كل الأجهزة بالداخل سموماً تحرّض على قفل أبواب المجلّة كأنّها قضيّة الساعة، أو كأنّه لم يصل سفيراً من أجل العلاقات بين البلدين، ولكن ليدفن هذا المنبر الذي شهد الجميع بأنه المنارة الوضيئة الوحيدة في تاريخ العلاقات بين هذين البلدين.

لم يدهشني الخبث الذي ترجمه هذا المخلوق في مسلكه (لأن الخبث هو العملة الوحيدة المعترف بها في التعامل مع كل مَنْ مَتَّ بصلة لمحفل الأشرار المسمّى خارجيّةً)، ولكن ما أدهشني هو تحويل وجود هذا المنبر قضيّة إلى حدٍّ تكون فيه شغل الرجل الشاغل منذ وصوله إلى البلاد. وهو مسلك قرأت فيه درساً. فالسرّ يكمن في نجاح المنبر بدل أن يكون في فشل المنبر. وفي عالم تغترب فيه المفاهيم على هذا النحو إنّما يعني حقيقة العالم اللاأخلاقيّة التي تحثّ على ممارسة الخبث وقول الكذب واحتراف الزيف لمن شاء أن يجد لنفسه مكاناً فيه. وهي مواهب أُنكرها علاوةً على أنّي لا أملكها. فأين المفرّ في عالم لا وجود فيه لصدق، ولا لصداقة، ولا لحبّ، ولا لأيّ قيمة من تلك القيَم التي حقنتني بها أمّي الأولى الصحراء الكبرى، ولقّنها لي أشياخ القبائل العظماء؟

لم أكن في يوم المواجهة ذاك منهكاً وحسب، ولكنّي كنت أحترق بالحمّى. حمّى مزدوجة: حمّى في الجسد كان سببها

Twitter: @alqareah

المرض، وحمّى في الروح سببها خيبة الأمل. مرض الجسد نتاج العراك الطويل مع أهل الدنيا، ومرض الروح بسبب هيمنة الزور في واقع شفافيّة نفس ترفض الإعتراف بخطاب الزور. وأسوأ ما في دراما هذا المنعطف ليس مرض الروح والجسد، ولكن الألم الناجم عن العزلة. فكم كنتُ وحيداً في محفل المواجهة ذاك! كنت مهجوراً. ولكن مرارة الإحساس بالعزلة المميتة هو ما قدّرني على إستحضار قريني الآخر. إستحضار القرين الذي يسكنني وتجاهلته بسبب هوسي بالبهتان طوال رحلة الباطل، وها هو يغفر لي طيشي فيتطوّع ليكون لي في المحنة نصيحاً. كانت تلك وصيّة مستعارة من الكتاب المقدّس هوت إلى قيعان اللاوعي يوماً لتحلّ الآن في القلب وحياً كأنّه النبوءة: «**ما نفع أن يكسب المرء العالم ويخسر نفسه؟**». إنها النبوءة التي قرأتها يوماً ونسيتها نهائياً فإذا بها تطفو على السطح كيابسة خلاص، فلا تلهمني ملحمة «المجوس» وحسب، ولكن لتهديني **الحرّية!**

ولكن الحرية ليست هبة بالمجّان. والحضور في الوجود كضحيّة لم يكن ثمناً كافياً. لقد حدّقتُ في وجه الموت في ذلك اليوم بروح تحدٍّ، لأني نذرتُ نفسي للموت. لقد قرّرتُ ببساطة أن أموت إذا أخفقت في أن أتحرّر من الكابوس. بلى! إمّا الحرّية أو الموت. لأن ما هو الموت إن لم يكن في الواقع حرّيةً قصوى؟ لقد أحسست بحميميّة الموت في تلك المواجهة كما لم أعرفها في ذلك اليوم الذي واجهتُ فيه العاصفة الجليديّة في هزيع ليل موسكو عام 1975. فنحن لا نلامس الأبدية إلاّ عندما نستشعر لذّة الموت!

Twitter: @alqareah

ولمّا كان مجدنا الحقيقي في الطعنات التي أصابت قلوبنا، لا في كمّ الأوسمة التي تجلّل صدورنا، فمن الطبيعي أن تكون الخطوة الأولى في سبيل الحرية الدامي هي التنصّل من الشوكة المغروسة في ظهري المتمثّلة في إمرأة كان يجب أن تكون لي قريناً حميماً، فإذا بها تغدو في رقبتي وهقاً خانقاً، ممّا استلزم أن أبدأ بذوي القربى فأبعث بها غير آسفٍ إلى وطنها لتلتحق بأهلها المقيمين بمدينة لفوف الأوكرانية مصحوبةً بالدمية الأشقى التي نعوّل على خلافتها لنا في الأرض لتكون لنا سفير بهتانٍ إلى خلودٍ مزعومٍ فنسمّيها ذرّيةً في حين لم تخطيء المتون المقدّسة عندما سمّتها فتنةً وعدوّاً!

كان لابدّ أن ألجأ إلى هذا العملية الجراحية الدامية كي أفلح في إستئصال بقيّة الأورام أوّلاً بأوّل يقيناً منّي أن التخلّص من الأوهام يبدأ بأعسرها منالاً؛ أي ما نعوّل عليه أكثر من كل شيء في الدنيا، بل ولا نرتكب الحمق في حقّ أنفسنا، والجرم في حقّ الحقيقة إلاّ تعلّلاً به كحجّة في قائمة الحُجج. فما قرأته في مسلك المبعوث الجديد لا يبشّر بخير، بل هو مخاض ينذر بإنجاب مسوخ أبشع من سلفه البركي الذي قيل لي أنه لعب دور شيخ الطريقة في تلقين مريد الخبث الجديد صنوف الدروس في هذا المجال الذي كان لغة التعامل اليومي في تلك الأيام لا على مستوى الخارجية التي كان لها ديناً فقط، ولكن على المستوى العام أيضاً. والواقع أن الخبث هو مؤهّل أوّل في مسوغات تعيين كل من قرّر أن يلتحق بالعمل في الحقل الخارجي لا في ليبيا وحدها، ولكن في كل العالم. وما عبارة

Twitter: @alqareah

الدبلوماسية سوى تمويه لإضفاء الشرعية على هذه الرذيلة وتسويقها. ليس هذا وحسب، ولكن هذا المحفل أوتي العبقرية في أن يتفوّق على نفسه دوماً في شأن نسج المؤامرات الأبدية التي يُستخدم فيها الخبث سلاحاً. فالحبكة دائماً أقوى مفعولاً من المتوقّع، والحيلة في التدبير تتطوّر وتتقنّع بإعجازٍ لا يُجارَى. إنها موهبة يحسدهم عليها ربّهم الذي علّمهم السحر ميفستوفلس نفسه! وها هي خارجية ليبيا تتحالف مع خارجية بولندا في شخص إمام الخبث المدعو سليمان العريبي لتنفّذا من خلاله مكيدتهما ضدّ بعبع الثقافة الذي تجسّده المجلّة. وما يدهش في هذا الحلف هو مخالفته لأبسط مباديء الدبلوماسية التي تدّعي الحرص على مصالح الوطن في الوطن المعتمدة لديه، في حين برهنت التجربة أنه إدّعاء في الظاهر، أمّا في الباطن فإن الدبلوماسي لا يحرص سوى على أهوائه الشخصيّة ومنافعه الأنانية. ولهذا كان من السهل دائماً تجنيدهم كعملاء يتجسّسون لصالح الأعداء ضدّ أوطانهم. وعندما يقوم سفير بلد بالتنسيق مع المؤسسات السياسية في البلد الأجنبيّ ضدّ مؤسسة ثقافية تنتمي إلى بلده فتلك **خيانة** لا تختلف عن العمالة للبلد الأجنبي المعتمد لديه، ولكنّها مغتفرة في عرف الخارجية الليبية مادامت موجّهة ضدّ مؤسسة ثقافية هي في ناموسها اللاأخلاقي عدوّة لطبيعتها **الثقافية** أوّلاً، ومعادية لشخص القائم على أمرها ثانياً. وهو ما لم ولن يحدث إلاّ في بلدٍ كليبيا يحتفي بكلّ منكرٍ أو بدعة ما اكتسب صفة «الجديد»!

Twitter: @alqareah

وليس للعدوس إلاّ أن يواجه المكيدة الجديدة بتعويذته القديمة: **الإستنفار!** إستنفار مشفوع بروح استعداد لتلقّي أي قارعة من أي مكان، وفي أي زمان. وهو مبدأ إن خلا من العزاء، بيد أنه يجيرنا من أن نؤخذ على حين غرّة كما سيتّضح تالياً دون أن يفلح بالطبع في محو مفعول الغثيان. الغثيان في بعده السارتري الناطق باسم معبودة الجيل (التجربة) التي لا ينتصب فيها الأدب ناسكاً يعتصم ببلاط الصومعة، ولكنّه يقف ترجماناً أميناً لواقع دنيوي عبثي وعدمي ومقزّز تهيمن عليه التنانين المسلّحة بألوف الرؤوس فلا ننتصر باستئصال رأس حتّى ينمو في موقع الرأس المقطوع ألف رأس. فنحن بالوجود مهزومون سلفاً. مهزومون لأن الشرّ تنّين مدجّج بألوف الرؤوس، ومريد الحقيقة في مواجهته دوماً محارب أعزل، برغم أن بطولة المريد إنّما تكمن في هويّته كمحارب أعزل! وهو ما يعني أنه ضحيّة على نحوٍ مسبق. وأن يكون ضحيّة مسبقاً فذاك قدر البطولة منذ الأزل.

كنت أتأمّل عجزي في ضوء نيّة الدور الجديد في السيرة القديمة: سيرة قطع الجذور والإنطلاق من جديد. سيرة مجبولة لا بالنزيف وحسب، ولكن بمرارة العتبة الجديدة في سلّمي الأبدي: **الإغتراب!**

لقد أدركت أنّي أحيا في المكان الخطأ، في الزمان الخطأ، بين أناسٍ خطأ، في العالم الخطأ. فأين المفرّ؟

لذّة الموت تجعل الخروج خياراً في متناول اليد لأنه الحرّية في

Twitter: @alqareah

حدودها القصوى، ولكن التخلّي يبدو تحدّياً أعظم إغواءً إذا قورن بقرينه الحرفي، لأنه أيضاً موت، أو بالأصحّ، إماتة لكلّ ما متّ بصلة لحضرة الجسد، علاوةً على حقيقته كانحياز للغز مغترب هو الروح. إنه المجهول الذي نحمله دون أن نعلم من أمره شيئاً. لقد أقنعتني المسألة بضرورة أن أعود أدراجي بحثاً عن الأثر الضائع، بحثاً عن البعد الضائع، فلم يهرع لنجدتي غير الطبيعة. كم هو مفارقة أن يكون بعث الروح رهين الحضور في الطبيعة: تلك الطبيعة التي كانت النقيض الشرعي لأحجية الروح. وكي أحظى بقبول الطبيعة لي في حرمها بوصفي إبنها الضالّ لابدّ من تقدمة تصلح قرباناً، لأن الظمأ للإرتواء من منبعها السحري عمل لا يكفي، وتأمّل لغز رموزها وحده التميمة المخوّلة بأن تشفع.

Twitter: @alqareah

45

الطبيعة حضورٌ في الكون. وهي لهذا السبب هوية غيبيّة مثلها مثل الكون. والسجيّة الشعرية التي تفتننا في هذه الأمّ مستعارة كما يبدو من هذه الهوية الغيبية ذات الطبيعة الإستسرارية إلى جانب روحها الشعرية. فعناقيد النجوم التي تطالعنا وهي ترصّع السماء عندما نختلي بها في ليل الصحراء تصيبنا بالدوار. دوارٌ مترجمٌ بسلطان اللانهاية. والإحساس بالإنتماء إلى هذا الكون أعجوبةٌ أخرى في سيرة الإعجاز الذي لخّصته فلسفة كانط في الإعتراف بحضورهذا العالم **مادّياً**، مع إنكار القدرة على فهمه **عقليّاً**. أي التأكيد على لا **معقوليّته**. وكم استهوتني هذه اللامعقولية يوم استنطقت لغز الكون من خلال منطق أمّ اللغات المشبع بروح التكوين التي أطلقت عليها إسم اللغة البدئية في موسوعة «بيان في لغة اللاهوت». إنها لغة الحرف الساكن الواحد التي بحث عنها علماء اللغات دوماً إيماناً منهم أنها أصل اللغات، وهي المولعة بنحت المفاهيم المجرّدة من واقع التجربة الحسّية، والمفتونة كذلك بالتركيب الذي تبدو فيه السواكن في اللغات مجرّد كلمة ذات دلالة محدّدة، في حين تلعب هذه السواكن في ما نظنّه كلمة دور **جملة كاملة** في العُرف البدئي. وكم هي تجربة ممتعة أن

Twitter: @alqareah

نفتّش عن هوية المفاهيم المسكوت عنها في ضمير اللغة الأمّ لأن لا حضور للحقيقة خارج اللغة. فماذا يسكن **الكون** من هذا المنطلق؟

الكون مفردة مركّبة من شقّين يلعب حرف الكاف مجرّداً دور المفهوم الدالّ على **الجذر**، أو **الأساس** في الأصل البدئي. ونلاحظ إشتراك كلمتي جذر وأساس العربيتين في المعنى من خلال كلمة **جدار** المشتقة أساساً من كلمة جذر الرديف لكلمة **أساس**. ووجود الأساس ضرورة مبدئية في وجود أي شيء، لأن ما لا أساس له (ما لا جذر له) هو ما لا يجب أن نعترف له بحضور في الوجود. بعدها يأتي دور كلمة «**أون**» لاستكمال شرط الكينونة من خلال معنى **الإستواء**. فـ «أون» (on) هذه كلمة إستعارتها كل لغات العالم القديم من اللسان البدئي للتدليل على سيرة **النموّ** في طوره التكويني. ففي لسان الليبيين القدماء (الذي مايزال متداولاً عند الطوارق إلى اليوم) تعني كلمة «أون» معنى **العلوّ**. وفي العربية الكلاسيكية تعني **السكون**. أي الكينونة في مرحلة **ما بعد الإستواء**، لأن الإستواء نتيجة نهائية لفعل العلوّ كسيرورة تطوّر. وهي الدلالة المعتمدة في لغات العالم القديم كالمصرية واليونانية واللاتينية ومجموع اللغات الأوروبية المنبثقة عن الأخيرتين. فـ«**أون**» تعني في اليونانية القديمة **الكيان**. من هذا المفهوم اشتقّ في اليونانية إسم المدينة. وفي اللغات الجرمانية كالألمانية والإنجليزية وغيرها دلّ على كل ما له صلة بالإرتفاع عن حيّز المكان. أمّا في مصر القديمة فقد اشتقّ منه إسم الفرعون ذاته الذي كان في الأصل «برأون» (برّ = بيت، **وأون** = العلوّ) أي «**البيت**

Twitter: @alqareah

العالي»، وهو الإشتقاق الذي صار مصطلحاً إستعارته جلّ اللغات تالياً للتدليل على **الهوية السماوية** للحاكم كخليفة لله في الأرض.

وهو منعطف في تاريخ التركيب اللغوي البدئي لأنه منذ الآن سيعتبر **بُعْداً دينياً** في مسيرته كمفهوم من خلال **عبادة مبدأ الصعود إلى أعلى**. وهي نزعة لا نجد لها سلطة في كل ما له صلة بالمكان وحده، ولكن الهوس بالصعود يشمل الزمان أيضاً. فإذا كان «أون» يدلّ على الكيان، والـ«**كا**» تدلّ على الجذر أو الأساس، فإن المفهوم الثريّ لا يقنع بهوية «**الأساس الكينوني**» كمدلول، ولكنه يذهب إلى أبعد عندما نستنطق اللغة البدئية التي تجود بدلالة أخرى للـ«كا» السحرية هذه من خلال مدلول جسيم كـ **الروح**، كما في المصرية القديمة، ليغدو مضمون التركيب: **الكيان الروحي!** فما معنى الكيان الروحي فعلياً إن لم يكن زواج بُعدين ضدّيين باركت تالياً المتون السماوية عقدهما هما: **الروح والجسد!**

الكون إذاً عقد مُبرم بين «**كا**» (الروح) و«**أون**» (الكيان أو الجسد) كصفقة ذات هوية غيبيّة ذات حجم مكبّر ليأتي لغز مجلّل بالمجهول إسمه الإنسان لينصّب نفسه نموذجاً لهذا التركيب الميتافيزيقي ليكون الجزيئة الداهية بلعب دور رديفها في الحجم المصغّر. فالإنسان من هذا المنطلق حقاً **كونٌ متنقّل** لأسباب أخرى يتكتّم عنها المفهوم السالف الذكر. فالإنسان روح. والروح **حرية**. ولكن حضوره في الجسد **سجن**. فإذا تأمّلنا كلمة **كون** من وجهة نظر العقلية البدئية فإنها سوف تكشف لنا عن هويّتها **الجدلية**. فالكون بمنطق الصفقة هو

Twitter: @alqareah

عقد. عقدٌ بين ضدّين حضورهما ككينونة رهين حميميّة العلاقة بينهما، وإلاّ انفرط **العقد**. والمدهش أننا ننسى أن كلمة كون إنّما تعني حرفياً **العقد**. العقد بمفهومه **الحرفيّ** أيضاً لآ المجازي وحسب. فكلمة **قنّ** الدّالة على العبد في العربية هي **كون** نفسها، لأن القاف العربية هي إبدال من الكاف البدئية دوماً، ولسنا في حاجة لإيراد أدلّة هي في المتناول. ولكن لماذا صار **القنّ** (كون) عبداً؟ أطلق الأوائل على العبد صفة **كون** (= قنّ) بسبب **القيد**. فعندما كان الناس يؤخذون في الغزوات كأسرى، كان أصحاب الغلبة **يعقدون** أيديهم خلف ظهورهم علامة الأسر الذي يعني في العرف القديم العبودية تلقائياً! والمسلاّت المصرية تصوّرهم على هذا النحو **المقيّد** الأيدي إلى الخلف للبرهنة على هويّتهم الجديدة كعبيد. من هذه التجربة **الحسّية** استعارت اللغات الأوروبية مفهوم **العقد**، أو **الإنعقاد** عموماً، في كلمة con أي كون البدئية) التي تشكّل مفتتح كل كلمة تحمل طبيعة **عقدية** مثل: (عقد **contract**) (مؤتمر **conference**)، و(مسابقة **concourse**)، و(تضاد **contra**)، و(وصل **contact**)، و(إستشارة **consultation**)، و(مجمَع **consulum**)، و(حفل موسيقي **concert**)، و(توافق **concession**)، و(صلح **conciliation**).. إلخ.

وفي لغة لاتينية كالإسبانية تنتصب **con** (كون) هذه كمدلول حرفي لمبدأ **المعيّة** (= مع) تعبيراً عن الإيمان بالظاهرة الكونية كـ«**قيد**»، أو عقد مبرم لا بصفقة الروح والجسد فقط، ولكن كميثاق ضمني موقّع بين اللامتناهي في الحجم (الكون)، وبين المتناهي في

Twitter: @alqareah

الصغر (الإنسان). وهو ميثاق بطبيعة **جدلية** يبدو **القيد** (أو الصفقة العقدية) في ناموسها كشرط مبدئي **مسبق**. وما تزال لغة الطوارق (وريثة اللسان الليبي القديم) تستخدم فعل «**قنّ**» للتدليل على كل مبدأ يكون فيه الرباط أو ناموس العلاقة قاسماً مشتركاً. والمثير أنها في هذا الفعل إنّما تستحضر الصيغة الفطرية الطقسية الأولى لهذا الفعل الحافل بالدلالات بقدر ما هو مجبول بغموض وجودي ذي نزعة دينية إستسرارية. فهو يعني إلى جانب العقد فعل: **يُحكم** لِيُصبح **الكون** من هنا **محكماً** في تكوينه، وفي كينونته. والإحكام هنا لا يكتفي بإضافة معنى **الإتقان** للصنعة، ولكن فتنته تتجلّى في صيغة **التَّغْدِيَة** عندما نقول: **مستحكم**. هنا يهبّ الفعل الأصلي ليبوح بدلالة سرية أخرى للتعبير عن حقيقة الإستحكام في فعل: **يشفّر**. فالعالم، أو **الكون** بالأصحّ، **معقودٌ** أوّلاً، أي مصنوع جيداً، ثمّ هو **متقن** على نحوٍ عبقريّ ثانياً، ثمّ هو **محكمٌ** ثالثاً، أي مكتفٍ بنفسه منكفيءٌ على ذاته؛ ثمّ هو **مستحكم** رابعاً، أي **منغلق** على كل ما هو خارجه (إذ لا وجود لخارجٍ خارج الكون)، ثمّ هو **مشفّرٌ** خامساً، أي مطلسمٌ ومجهولٌ وسرّيّ، برغم التبدّي!

وهكذا تقدّم لنا اللغة الأولى الحجّة الأخيرة في تفسير الكون من أقصر طريق، في حين أنفقت فيها الفلسفة مسيرة ألوف السنين.

ولِمَ لا إذا كانت اللغة هي رديف الكينونة؟! ولِمَ لا إذا كان اللسان هو الناطق الرسمي المفوّض من قِبَل الكون للنطق بكلمة السرّ في سيرة الكون؟!

Twitter: @alqareah

46

لا تتكتّم اللغة الأصلية في كلمة **كون** (**con**) على الشفرة لتأويل لغز الكينونة كعقدة وجودية وحسب، ولكنّها تجود بوصيّة أخرى ذات علاقة بثمرة هذه العقدة الكينونيّة وهي: **المعرفة!** هذه المعرفة التي تستعير سرّها من مجد الكون (**con**) ل كلغز ألغاز وحسب، ولكن **حرفياً** أيضاً. ففي كل اللغات الأوروبّية نجد جذور (**con**) مهيمناً في كلّ كلمة ذات دلالة معرفية. ففي الإنجليزية: **con**noisseur للتدليل على العارف، أو **العالِم**. وفي الإسبانيّة: **conocimiento**، وفي الألمانية: **ken**tnis، وبالفرنسية: **con**naissance، أو حتّى الكلمة الثانية في الإنجليزية الدالّة على العرفان التي تبدو مجرّدة من قيد الكينونة في **kn**owledge هي في الواقع حاملة لجرثومة الأرومة من خلال حرفَي الكاف والنون في المستهلّ برغم إهمال نطق الكاف لأسبابٍ ذات علاقة بموسيقى اللغة لا كسواكن اللغة التي كانت دوماً الحجّة الوحيدة في التحليل.

وهو ما يعني أن الإنسان إذا كان **فحوى** الكون، فإن المعرفة هي **فحوى** هذا اللغز المسمّى إنساناً. ليس هذا وحسب، ولكن كلمة ضمير الذي هو **فحوى** ملغّزة أخرى في كيان هذا اللغز نجد لها إسماً

Twitter: @alqareah

مستعاراً من **الكون** ذاته في جذر يتوّج كلمة الضمير الذي في جلّ اللغات ذات الأرومة اللاتينية الحاملة لهوية اللغة الأصليّة في **conscience** . وحتى لغة جرمانية كالألمانية تهب الضمير هوية معرفية في كلمة **gewissen** المستعارة في هذه اللغة على المعرفة في فعل **wissen** (يعرف)؛ لأن الـ(ge) في الألمانية دلالة الفعل الماضي.

إنها تلك **العقدة** ذات الطبيعة **الغيبية** المستعارة من مفهوم الكون (**con**) كمنظومة معقّدة تأبى إلاّ أن تطاردنا في شأن المعرفة أيضاً. والمثير حقّاً أن تولد المعرفة كمفهوم من رحم الكينونة كـ **عقدة غيبية**. فما معنى أن يجد الإنسان (ككائنٍ وحيدٍ عارفٍ) نفسه رهيناً في قبضة **العقدة**؟ فإذا كان الكون لغزاً إنطلاقاً من التعقيد فإن من الطبيعي أن تأتي فاكهة هذا الكون إلى الوجود مكبّلةً بالسلطة الميتافيزيقيّة ذاتها التي غُلَّ بها العالم. ولو ساءلنا المتون المقدّسة حول لغز المعرفة هذه لاكتشفنا أنها بالفعل **ورطة**! ما معنى ورطة؟ الورطة هنا تعني **الشَّرَك**، تعني **الفخّ**. وهو ما يعني أن هذا الكون المصغّر (الإنسان) هو هويّة من الكون المكبّر. وإذا كان الكون المكبّر **مُحْكَماً**، أو مطلسماً بما يكفي كي يظلّ لغزاً إلى الأبد، فهذا لن يعني سوى أمر واحد وهو أن **فحواه** (التي هي الإنسان) هي فحوى **مفخّخة** أيضاً. ولا أحسب أن أحداً سيشكّك في حقيقة المعرفة كـ **فحوى مفخّخة**، أو **ملغّمة** إذا إستخدمنا لغة الأزمنة الحديثة. ولو لم تكن المعرفة لغماً موقوتاً لما كانت السبب الذي غرّب هذا الكائن عن هويّته الأولى الموصوفة في الكتب المقدّسة بالفردوس. ولو إستجرنا بلغة بدئية

Twitter: @alqareah

أخرى كالمصرية القديمة لفزنا بالبرهان. ففي هذه اللغة (وكذلك في قرينتها الليبية القديمة) نجد كلمة **شثّ** الدالّة على ربّ الشرور تتكتّم على حزمة أخرى من الدلالات الرديفة التي سطّر منها سفر التكوين ملحمته عن سيرة الخلق مثل: **اللعنة، والمرأة، والحيّة، والنار، والليل، والحمار، والمعرفة**، إلى جانب **الشرّ**. والطريف أن ينتحل إله **الحِكمة** في المصرية ذات الإسم المجبول باللعنة أيضاً كرديف لهذه الحكمة التي نتغنّى بها كأعظم هبة توّجتنا بها العناية الألوهيّة لندفع **الفطرة** ثمناً بالمقابل. فهي مفارقة لا تتجلّى كلقية تراجيديّة كما تتجلّى في تلك الإستماتة الميتافيزيقيّة التي يقاوم بها أطفالنا زجّنا بهم في محافل هذه اللعنة التي نسمّيها معرفةّ. إنه التدخّل الجراحي الأكثر دمويّةً بناموس الوجود، وفي تاريخ الوجود، لأن قتل **روح الطفولة** في فسحة البكارة التي تسكن بلاط السجيّة الأولى، **جرم كينوني** قرين لتجريد المخلوق من فردوسه الحقيقي. ودمعة الطفل التي يذرفها وهو يستجدينا إعفاءه من هذه التجربة الإغترابية المميتة ليست دمعاً، ولكنّها نزيف روح يشيّع جثمان آخر عهدٍ له بالمعبودة الأبدية **الحرية** لينزل المنفى الأبدي المغلول بألف **عقد** (con): دمعة الطفل التي قال عنها دوستويفسكي أن العالم كلّه لا يساويها.

إنها الدمعة التي ننعي بها أنفسنا كـ **حرية** لنمثل في حضرة الجلاّد (**con**) الذي سيحيلنا منذ تلك اللحظة **ضحيّةً**. وكون المعرفة هوية **عقديّة** (con) مبرمة مع جلالة الكون (con)، أو مستعارة **حرفياً** من روحه، لا يعفينا من قدر الضحية، بل أنّنا في هذا **العقد** (con) نحن

Twitter: @alqareah

أوّل من يخسر الرهان، لأنه يغيّب عنّا **فحوانا** من خلال الإحكام في حبكة الطلسم، فيعمينا عن حقيقتنا بالنسيان. فإذا كان الكون مفهوماً **للقيد**، وإذا كانت المعرفة ككينونة هي حكرٌ على الإنسان (الذي هو غاية الغايات في منطق الكون) هي أيضاً **قيد** مستعار من لدن الكون، فإننا برسالة **القيد** هذه نحن مكبّلون بموجب العقد (con) المبرم مع الكون كـ(con) تماماً كما تكبَّل الضحيّة قبل أن تُذبح!

فيالها من صفقة خاسرة هي الكينونة!

Twitter: @alqareah

47

من هنا كان الوعي بإزدواجية الغابة. فالبعث مشروط بالحضور في بلاط اللغة، وكذلك المثول في حرم الطبيعة. لأن الحلول في فردوس اللغة رهينٌ بالحضور في فردوس الطبيعة ماداما بُعْدَان مستعاران من تثنية العلاقات الجدلية الكامنة في الكينونة الكونية، وهي تثنية مشفوعة بتثنية أخرى في اللغات لا تضير المريد أبداً ما دام النبع الذي يستعير منه محفل اللغات هو الكينونة، سيّما إذا كانت لغة العدوس الأمّ هي اللغة الشفرة التي أسّست للمفاهيم في هذه اللغات. ولكن العقدة الحقيقية هي في استعادة الطبيعة الأمّ أيضاً. هذه الطبيعة التي إغترب عنها المريد منذ الطفولة ليستبدلها بالمثول في حضرة طبيعة الشمال العَبوس؛ فلا يبقى سوى طقس الإستحضار خلاصاً. وهي تقنية لا تبدو حلاّ يسير المنال بقياس البعد لا في المكان وحسب، ولكن في الزمان أيضاً. ليس هذا وحسب، ولكن هناك أحجية أخرى تستدعي التأمّل. فالطبيعة المستوجب إستحضارها هي طبيعة من جنس خاص. إنها طبيعة بالمفهوم الشائع، ولكنها طبيعة اللاطبيعة في الواقع. وهو إمتياز يجعل منها رديفاً للمثال المستهدف منذ الان وهو: الحرية. فلا تتنكّر الطبيعة لطبيعتها كطبيعة كما تتنكّر

Twitter: @alqareah

في رحاب الصحراء. إنها هنا تنكمش إلى حدود قصوى لتتقمّص مسوح نقيضتها الحرية. إنها تتبدّد لتبرهن أن الطبيعة عندما تغترب عن نفسها تنقلب روحاً، كما تتحوّل الروح طبيعةً عندما تغترب عن هويّتها كروح. فجدل الروح والجسد هذا ما هو بالطبع سوى ترجمة حرفية لجدل الطبيعة والحرية. وهي مفاجأة تبدو لقية بالنسبة للعدوس الضالّ لأنه بالعودة الدرامية إلى محراب الصحراء سوف يجد ضالّته مجسّدةَ. سوف يمثل في ملكوت الحرية المجسّدة. وهي لقية خطرة بقدر ما هي فاتنة: خطرة لأنها تشترط تماهياً يحكم على المريد بعزلة لا تختلف عن عزلة القاتل قابيل الذي كتب عليه أن يحيا مجبولاً بالعلامة. العلامة التي تحمل حقيقتها في نقيضها ككل الكلمات الحقيقية. وهي فاتنة بسبب الإغواء. الإغواء الحامل لنداء الحدود القصوى. الحدود التي تلوّح برايات الخلاص، خلاص يبدو عدماً عارياً من الحلم، لأن الحلم وحده يبثّ الروح في العدم فيصير أمنيةً. يصير حريةً. إنه الحلم باغتراب الطفولة. فالطبيعة أينما وُجدت هي وطن الألوهة. هذا إذا لم تكن هي القمقم المسكون بالألوهة.

فالموقف من مملكة الطبيعة محكومٌ بمفارقة تمليها طبيعة العلاقة مع القطب الآخر، مع الحرية. هذه الحرية التي لا تكون حرية ما لم تتنكّر للطبيعة كنقيض، وبرغم ذلك لا تتحقّق كحرية بدون الإحتكام إلى حرم هذه الطبيعة، لا تتحقّق بدون التماهي بهذا النقيض؛ كأنّ الخلاص هبة النقيض. لِمَ لا إذا كنّا لا ننجو إلاّ بما نخاف، ولا نؤخذ إلاّ بما نعشق؟

Twitter: @alqareah

48

ما يجب أن نعترف به اليوم، بعد مرور ربع قرن من غياب الإتّحاد السوفييتي، هو عدم صواب ما اعتاد الغرب أن يروّج له في آلته الدعائية الرهيبة عن النيّة الأيديولوجية الصرفة التي حكمت علاقة هذه الإمبراطورية العجيبة بالعالم، سيّما ما يسمّى بشقّه الثالث. فالنزعة السائدة هي أن السوفييت كانوا يغدقون على أبناء العالم الثالث المنح الدراسية بالآلاف سنوياً لكي يلقّنوا هؤلاء دين الشيوعية. والواقع أن السوفييت لعبوا دوراً **تاريخياً** في تنوير أبناء العالم الثالث بإخلاص دون اعتبار للبعد الأيديولوجي في سياستهم التعليمية التي كانت تكلّف ميزانية الإتحاد مبالغ فلكية كل عام، اللهم إلاّ إذا كانت الخطّة المعتمدة في سبيل تنفيذ هذا البرنامج التنويري هي **تكفير** أجيال العالم الثالث بالعقيدة الشيوعية، أي عكس ما ادّعته آلة الخصم الأيديولوجي زمن الحرب الباردة. وهو «تكفير» أثبتته التجربة مراراً دون أن يفلح هذا «الكفر» في إجبار الإتحاد السوفييتي على مراجعة هذه السياسة المبدئية.

وأحسب أن من قبيل نكران الإحسان أن نردّ أحكاماً أفرزتها ظروف الحرب الباردة عن واقع كنّا فيه شهود عيان. والحظّ من شأن

Twitter: @alqareah

ما جاد به الإتّحاد السوفييتي في هذا الحقل ليس إنكاراً لإحسانٍ فقط، ولكنّه التجنّي على الحقيقة أيضاً. فالمقياس الأوّل في العلاقة مع الوافد، أو مريد العلم، هو مدى استعداد هذا المريد لخوض تجربة العلم في واقعٍ بيئيّ غريب وصعب، إلى جانب المسلك الأخلاقي في العلاقة مع مجتمعٍ غريبٍ وصعبٍ أيضاً. وقد إستثمرتْ هذا الوضع تلك الدول التي لم ترَ في روسيا السوفييتية بعبعاً أيديولوجياً كما هو الحال مع دول أمريكا اللاتينية أو أفريقيا، في مقابل البلدان الإسلامية التي تتزلزل بمجرّد سماع إسم الإتّحاد المرتبط بشبح الشيوعية.

لقد ضحّى الإتّحاد السوفييتي بأموال لم يكن في غنىً عنها، ولكن مأساتنا هي أننا لا نقنع بأن تُقدَّمَ لنا اللقمة سائغةً وجاهزةً للمضغ وحسب، ولكنّنا نريد أن تُمضغ بالإنابة عنّا، بل وأن تُهضَم بالإنابة عنّا أيضاً! وهي مقولة لا تصدُق في مجال العتاد الحربي، أو تدريب العسكر وحسب، ولكنها تصدق على مريدي العلم بالدرجة الأولى. والدليل في جلّ الذين تنصّلوا لقناعاتهم الأيديولوجية التي أوصلتهم إلى الإتحاد وارتموا في أحضان الغرب؛ وكانوا من تلك الفئة التي أعجزها مواصلة دراستها فخانت من أحسن إليها لتبرّر فشلها باستجارتها بعدوّ الإتّحاد. وبرغم ذلك لم تؤثّر هذه «الخيانات» على سياسة الإتّحاد. وهو ما برهن على أصالة القناعة **الإنسانية** في هذه السياسة، وليس القناعة الأيديولوجية المجرّدة كما يزعم الغرب. وهو ما يعني أن الروح المبدئية في اعتناق مبدأ إنساني مّا هو أصالة

Twitter: @alqareah

جديرة بالإكبار مهما اختلفنا في القناعات الإيديولوجية مع صاحب هذه الروح. وحضور هذه الأصالة في كيان سياسي مّا هو ما يغفر خطايا كثيرة لهذا الكيان. إنها أصالة الأصل التي سوف يفجعنا غيابها في الظلال. ففي نظام مفتعل وملفّق مثل بولندا يبدو استنساخ التجربة السوفييتية محاكاة ركيكة في كل الأحوال، بل نستطيع أن نقول أنّه مجرّد مسخ إذا تعلّق الأمر بما أسميته الروح المبدئية منذ قليل. لماذا؟ لأن غياب الروح المبدئية هو غياب القيمة. ولكن أيّ قيمة؟ هوية القيمة هنا أخلاقية بالضرورة. هل هي أخلاقية حتى لو كانت خاطئة؟ بلى! الروح المبدئية قيمة أخلاقية في حدّ ذاتها، وسوف تظلّ مجبولة بالروح الأخلاقية حتّى لو عدم صاحب الصواب. كيف لنا أن نفهم هذه الأحجية؟

لفهم هذه الأحجية يكفي أن نتذكّر أن **الإيمان** بجلالة قدره هو الذي ينتصب شفيعاً هنا. فصاحب الروح المبدئية إنسانٌ مؤمن. والإيمان هو القوّة الخارقة التي تمتلك القدرة على نفخ الروح في الصنم لينقلب إلاهاً، وهي لذلك تستطيع أن تجعل من المستحيل ممكناً.

فما نؤمن به بقوّة يغدو بالنسبة لنا حقيقةً حتّى لو كان في نظر الأغيار باطلاً. وهذا سبب إعجابنا بأولئك الذين يحاربوننا عن مبدأ حتّى لو حاربونا عن باطل، وسيبقى إعجابنا بهم حتّى لو خذلتهم الأقدار ونالوا الهزيمة على أيدينا. وما نحسبه إكباراً لجنابهم هو في الواقع إكبارٌ للقيمة التي تسكن المبدأ. إكبار لجلالة الإيمان الذي

Twitter: @alqareah

يسكن المبدأ. والإنسان السوفييتي المجبول بروح المبدأ الإنساني القائل بوجوب التضحية بنصيب من دخله اليومي في سبيل الإنفاق على تعليم أجيال الإنسانية هو في الواقع إنسان مؤمن، مؤمن مهما رأى نفسه ملحداً، أو رآه الناس ملحداً!

ولكن هذا ما لا نستطيع أن نقوله لا على سياسة الدولة البولندية، ولا على الإنسان البولندي لسبب بسيط وهو **غياب الأصالة**. غياب الروح المبدئية الناتج عن حقيقة الظلّ المشفوع **بالتلقين** مقابل الأصل المجبول على الإيمان. والتقليد في هذا المجال لن ينجو من روح الإفتعال لأنه ليس نابعاً من أصالة، ولكن للإستخدام كراية للتظاهر. وسيلة لذرّ الرماد الأيديولوجي في العيون، **وليس فعلاً أصيلاً للأخذ بيد الآخر**. أي فعل في الحالة الأخيرة يتحوّل تجديفاً سافراً، لأن الإفتعال يسحق تلك الروح الرمزية التي تختزل المعنى، والقادرة على تحويل الحجر الميّت ربّاً أعلى، والتي كانت دوماً رأس مال الإنسان المؤمن، في مقابل الإبتذال في تصرّف الإنسان الدعيّ! وإذا ما كانت أعمال الأجهزة الأمنية في ظلّ الأنظمة الشمولية دوماً على حقّ، لأنها تقع خارج نطاق القانون الوضعي، بيد أنها في نظام كالإتّحاد السوفييتي ليست معصومةً من العقاب عندما تمارس الإرهاب بالمجّان كما هو الحال مع تجربة إرهاب أجهزة الإستخبارات البولندية الجبان! هذا الجهاز الذي لم يجد في الخارجية البولندية سنداً وحيداً، ولكنه وجده في الخارجية الليبية أيضاً. هذه الخارجية الجبانة التي بعثت بلجنة للتحقيق مع الضحية

Twitter: @alqareah

دون أن تكلّف نفسها عناء إستجلاء الحقيقة، ودون أن تتخذ أدنى إجراء للإحتجاج لدى السلطات البولندية جرّاء الإعتداء على بعثتها الدبلوماسية، وهو واجب من صميم إختصاصها حتّى في الحال التي يتعرّض فيها الرعايا للإعتداء، فكيف إذا كان أعضاء البعثة المعتمدين هم الضحيّة التي لم ترتكب أي ذنب يبرّر فعل إعتداء هو في الواقع تعبيرٌ عن عداء وليس مجرّد إعتداء؟ وحتى في حال إغتفرنا الإهانة وصبرنا على الأذى من الجانبين، بيد أن خيوط المؤامرة لا تلبث أن تكشف عن وجهها القبيح بوصول السيد سليمان العريبي الذي بدأ في التنسيق مع الخارجيّتين في كلّ ما من شأنه أن يؤذي شخصي أو يعجّل بدفن المجلّة. ولم أكن لأتخيّل بالطبع أن تتواطأ السلطات في بلدٍ يُفترض أنه بلدي حقّاً مع سلطات البلد الأجنبي ضدّ إنسانٍ هو قبل كلّ شيء مواطنٌ مبعوثٌ في مهمّة ثقافية إنسانية من بلده لدى البلد الآخر. ولكن حملات السيد العريبي أحْيَتْ شكوكاً في نفسي، وبرغم ذلك لم أصدّق! لم أصدّق حتّى بعد أن أفلح المدعو العريبي في قفل أبواب المجلّة مستعيناً بالسيّدين كامل المقهور وزير الخارجية آنذاك، والسيّد جاد الله الطلحي رئيس الوزراء، إلى جانب الأجهزة الأمنية والثورية دون أن يفلح أبو زيد في إنقاذ ما يمكن إنقاذه. لم أصدّق أمام تصرّفات الرجل الحمقاء وأمام كيد السلطات البولندية واستفزازاتها التي استمرّت بوحي من هذا المخلوق طوال الفترة التالية، ولم تتوقّف إلى يوم مغادرتي مستنقع سدوم هذا. ولكن

Twitter: @alqareah

الأقدار التي لم تخذلني يوماً كانت تعدّ لي في الخفاء المفاجأة التي لم تخفها عنّي أبداً: **الحقيقة!**

فبعد سنوات من إستجارتي بمرتفعات «فوروبيوفا» الموسكوفية المسكونة بروح الطبيعة الشمالية القاسية ململماً جراحي العميقة في تلك الأصقاع وحيداً، طرقت الحقيقة في أحد الأيام بابي لتلهمني واجب الخروج في سبيل إيقاف نزيفي. بل في سبيل إيقاف نزيفين: نزيف الروح ونزيف الجسد. نزيف جسد نال منه العراك مع صخرة سيزيف، ونزيف روح أيقنت بعدم وجود عدالة. أذكر أنّي اتصلت بصديقي صادق النيهوم بجنيف للإستفهام عن سبيل للمثول بين أيدي الأطبّاء هناك، ولكنه لم يحمّسني بشأن أطبّاء جنيف واقترح زيوريخ بديلاً حيث زوّدني برقم هاتف أحد عملاء المستشفيات ذي الجنسية العربية. ولكني أقلعت عن فكرة سويسرا وآثرت إيطاليا. وقد تواعدت مع صديقي القديم محمد التاجوري للإلتقاء في وارسو التي قرّر زيارتها لقضاء حاجة له هناك. وكنت في حاجة للحصول على تأشيرة دخول إلى بوابة كابوسي القديم بالطبع. ولتيسير الإجراءات البيروقراطية إتصلت بالسيدة هالينا ناتورف التي عملت معي بالمجلّة مترجمةً للنّصوص إلى اللغة البولندية. وهي مستعربة من أصل جورجي متزوّجة من السيد ناتورف مسئول الشؤون الخارجية بالحزب البولندي الحاكم الذي كان قد تعرّف بها أثناء دراسته في لينينغراد في الخمسينيات. وهو شخصية نبيلة سمحة الخصال مثل قرينته تماماً. وكنا نتزاور ونتحاور على موائد العشاء في أجواء عائلية سواء في بيته بوارسو أو ببيتي.

Twitter: @alqareah

وها قد تزامن وجودي بموسكو مع تعيينه هو لا سواه سفيراً لبلده لدى أهم بلد بالنسبة لبلده وهو الإتحاد السوفييتي. وقد تواصلنا هنا أيضاً. وكان من الطبيعي أن ألجأ لشخصيهما في أمرٍ روتيني عادي كالحصول على تأشيرة دخول من حقّ أي مواطن مقيم. وقد استجابا بكل سرور كما هو متوقّع. ولكن بعد عودتي من الرحلة كانت تنتظرني مفاجأة!

إتّصلتْ بي السيّدة هالينا في أحد الأيام لتخبرني بسيرة أدهشتني. سألتني في البداية سؤالاً حسبته نكتة وهي التي عاصرت (بل وكانت شاهداً) على كل ما اقترفته أيدي البولنديين والليبيين في حقّ مجلّة كانت هي عضواً بهيئة تحريرها: «ما سرّ عداوة السلطات البولندية لك؟!». أجبتها ببراءة قائلاً «أنّي لا أعرف سرّاً أكثر ممّا تعرفين أنت». لم أكن أعلم أن السؤال هو مقدّمة لما حدث بعد منحي التأشيرة. قالت أن السفارة تلقّت من السلطات البولندية إنذاراً موجّهاً للسيّد القنصل على صرف هذه التأشيرة. ليس هذا وحسب، ولكنّه حُرِمَ من الترقية عقاباً له لأنه لم يستشر الداخل بشأن منحي هذه التاشيرة. كان هذا القرار برهاناً آخر على فصول المكيدة القديمة ومسك الختام لها. لقد تذكّرت ما حدث مع ضابط الجوازات بطرابلس الذي تعرّض لخصم أسبوع من راتبه عقاباً له لأنه منحني تأشيرة خروج عام 1976. ولا وجود للفرق إلاّ في الوجهة: القنصل البولندي عوقب بسبب منح تأشيرة **دخول**، وضابط الجوازات الليبي عوقب لأنه منحني

Twitter: @alqareah

تأشيرة خروج! وروح السخرية الحقيقية لا تكمن هنا، ولكن في غياب التهمة في حقّ المذنب في الحالتين. وهما على يقين بالطبع أنّي مذنب. وأسوأ ما في الأمر أن تتسبّب في الإساءة إلى أناس لا تملك السبيل لاستجداء غفرانهم، إنهم سيصبّون على رأسي اللعنات دون أن يدروا أنّي ضحيّة مثلهم، بل ضحيّة أكثر منهم. فالمأساة أن تتسبّب البراءة في الإساءة. المؤلم حقّاً أن تؤلم الآخرين ببراءتك، لا بخطاياك!

فما يبرّيء ساحتي أمام حضرة القنصل هو جواز سفري. هذا الجواز الذي يبرّيء ساحة القنصل أيضاً أمام زبانية خارجيّته وأبالسة الأجهزة الأمنية، لأن الجواز المقدّم وثيقة سفر عادية، وليست دبلوماسية. والجواز العادي لا يستوجب الرجوع إلى الخارجية قانوناً كما هو الحال مع الدبلوماسي. الجواز العادي يخضع لقوائم الأشخاص المحضور دخولهم وحسب. وهي قوائم في متناول القنصلية، لا الخارجية. ولكن هذه تفاصيل تقنيّة إذا قورنت بالحقيقة التي وقفتُ عليها تالياً: فقد حدّثني أحد الزملاء العاملين بالسفارة الليبية بوارسو كيف أقام المدعو العريبي الدنيا ولم يقعدها يوم علم بزيارتي لبولندا، وهو لا سواه من قام بإبلاغ السلطات البولندية بالأمر في احتجاج شديد اللهجة، فيا للمفارقة!! فهل يجرؤ سفير بلد أن يتّخذ كلّ هذه التدابير ضدّ مواطن بلده دون أن تكون المؤامرة بإيعاز من سلطات بلده؟

Twitter: @alqareah

لقد فاتحت أبا زيد دوردة بعد عشرين عاماً من هذه التجربة معبّراً عن شكوكي في مسألة التواطؤ بين السلطتين فلم يزد على أن قال: «**لا أستبعد ذلك!**».

ألا يبدو العالم مؤامرة مدبّرة ضدّنا مسبقاً؟ هل من حقّي، أو من حقّ أحد أن يشكّك في واقعيّة «محاكمة» كافكا، بل وفي حرفيّتها؟!

فنحن في نظر هذا العالم كلّنا مجرمون لا لشيء إلاّ لأنّنا ارتضينا لأنفسنا دوراً بالحضور على خشبة مسرح هذا الوجود!

Twitter: @alqareah

49

يروق همنغواي أن يتغنّى بوجود أشياء في دنيا الناس أسوأ من الحرب: الجُبْن في رأيه يأتي على رأس قائمتها. وأحسب أن الأسوأ من جبن الأفراد هو جبن الهيئات، والأسوأ من جبن الهيئات هو جبن الدول أو الأمم، لأن هذه الرذيلة تصبح هنا خصلة جماعية. فأيّ بطولة تكمن في أن ندكّ مواقع الأبرياء بالقنابل من مدافعنا الخفيّة وهم الذين لا يملكون حيلة للدفاع عن أنفسهم ضدّ هجماتنا الجبانة بسبب تخندقنا خلف متاريس الخفاء؟ ذاك هو لسان حال القوى الشرّيرة في حربها الأبدية ضدّ الشرفاء. إنها تستغلّ وجودها في مواقع ليست في المتناول لتستأسد وتتباهى بتفوّقها الكاذب، لأن الخصم لا يملك حيلة في الوصول إلى مخابئها السرّية. فتصوّروا معي موقف إنسان يذهب إلى بنيان الإستخبارات سواء في بلد كليبيا أو بولندا ليستفهم من ذوي الإختصاص هناك عن هويّة التهمة التي يطاردونه بها. أو أن يذهب إلى مقرّ الخارجيّة في إحدى هاتين الدولتين ليستفسر عن حقيقة الخطيئة التي يلاحقونه بها كاللعنة. موقف إنسان كهذا لن يحسد عليه، لأنهم سوف يلقون في وجهه بتهمة أسوأ وهي الجنون (!) دون أن يرحموه فيكفّوا عن المهزلة،

Twitter: @alqareah

بل سيصعّدون من حملاتهم إلى أن يصاب بالجنون فعليّاً فيودع مستشفى الأمراض العقلية بدل إيداعه السجن، وسوف يفرّكون أيديهم آنذاك من باب التشفّي، لأن الضحيّة استنزلت في حقّ نفسها قصاصاً أسوأ بما لا يقاس بحلولها في مستشفى الأمراض العقلية من القصاص الذي أرادوه لها وهو الحبوس!

هذه هي الرواية التي يجب أن تُكتب، والمؤهّلة لأن تكون إضافة لملحمة كافكا المعبّرة لا عن روح العصر فقط كما يروقنا أن نقول، ولكنّها المعبّرة عن روح اغترابنا في هذا الوجود. فالتهمة بدأت بالميلاد، والحكم في القضيّة صدر قبل الميلاد. الأجهزة السرّية في ساحة المحكمة هم محلّفون، وكل من يدبّ حولنا هم شهود إثبات. أمّا المجهول المحجّب بلحاف المعبودة «تانيت» فهو قاضي القضاء!

Twitter: @alqareah

القسم الثاني

الخلاص

«لا يجب أن ننسى أن أمّنا الطبيعة التي نجابهها بالإدانة حيناً، وبالإستهانة حيناً آخر، سوف يأتي اليوم الذي ستضمّنا فيه إلى صدرها بوصفنا أبناء ضلال!».

(دويل)

«أنجبتني الطبيعة مستهتراً، لكي تكون لي في البلايا عزاءً»

(فولتير)

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

1

تلك كانت بالفعل عودة كلاسيكية: عودة الإبن الضالّ أبداً إلى أمّ الوجود: الطبيعة!

وهي كلاسيكية مرّة أخرى لأنها عودة المحارب المثخن بالجراح. عودة المستجير الذي أعياه سفح العرق ونزف الدمّ عملاً بوصيّة شكسبير التي تكفّ عن أن تكون مجرّد وصيّة بعد عبور جحيم التجربة لتستحيل منذ الآن نبوءة. وسوف يكتسب مبدأ الضلال بعداً أكثر دراميّةً عندما يكون الإبن الذي ضلّ هو إبن الأمّ الشرعيّ، لا إبنها بالتبنّي، كما هو الحال مع سليل الإستقرار، في مقابل سلالة الفرار. فالملّة الأخيرة وحدها تتّخذ من هذه الأمّ لباساً برغم سجيّة الفرار. ترتدي الطبيعة حلّة برغم اعتناقها لدين الترحال. وهي لا تفعل ذلك للتنصّل من أمّ الوجود التي تشدّ إلى المكان بألوف الأصفاد، ولكن فرارها من المكان ملاحقة لقرينه الزمان. وهو سباقٌ غيبيّ يُخفي عميقاً الظمأ للمزاوجة بين الطبيعة كبرهان وجود، وبين الأبوّة كقطب غيابٍ في صفقة الوجود. فالبحث عن الله في دين الترحال وحده يبرّر الفرار من سلطة الأمومة. وحده يبرّر الضلال. يبرّر الضلال المشروط بالضياع في حدود الطبيعة الأمّ، ولكنّه لا يغفر

Twitter: @alqareah

تخطّي هذه التخوم. وخطيئة العدوس هي اجتياز حدود الوطن العاري إلى ما وراء حدود تلك الدنيا التي لا يعترف ناموس الصحراء بوجودها على اليابسة أصلاً. وهو ما لا يعني مجرّد التمرّد على العرف السائد، ولكنّه التجديف في حقّ الناموس أيضاً. والتجديف في حقّ الناموس هو ما لا تغتفره أمّ الوجود العاري لإبن. وكلّ السوء الذي ناله في رحلة اغترابه تلك كان قصاصاً ناجماً عن لعنة الأمّ، برغم أن العدوس لم يتنكّر لطبيعة الأمومة التي أسكنها عميقاً في قلبه طوال غيبته في أوطان الغرباء، ولم يكن لينجو من شرور السبيل لو لم تكن له روح الصحراء تميمة أجارته من أهوال السُّرَى طوال عبوره لليل هذه الدنيا.

ولكن الإحساس الفاجع بالميلاد من رحم باطل الأباطيل يجعل من العودة إلى حرم هذه الأمّ ليس مجرّد خلاص وحسب، ولكنّه استعادةٌ للفردوس المفقود!

Twitter: @alqareah

2

الطبيعة معبودة المبدع لا لأنه الصريع التقليدي في حرم الجمال وحسب، ولكن لأنه طريد دنيا. والهوية الأخيرة تضمر شهادة أخرى وهي: **إرادة الحقيقة**. هذه الحقيقة التي استماتت الطبيعة في إخفائها، بيد أن ما لم تخفه الطبيعة عنّا (بل وتباهت دوماً بالتلويح به في وجوهنا) هو ذلك الإيماء المجبول بالإغواء حيناً وبالغموض دوماً الذي اعتدنا أن نسمّيه جمالاً. وهكذا لا يبقى لنا سوى فحص هذا الإيماء في سبيل فهم فحوى الرسالة التي تخفيها الطبيعة في أحجية الجمال. وإذا كانت الحقيقة تسكن نقيضها، ككلّ ما يعوّل عليه، فإنها لن تجد حرجاً إذا سكنت الطبيعة التي يروقها أن تغترب عن نفسها في كلّ مرّة لكي تؤكّد هويّتها كحضور يحقّق نفسه في الغياب. في العودة من هذه الرحلة المجهولة (رحلة الغيبوبة) تنبعث الحقيقة كالعنقاء من رمادها لتزاوج بين الضدّين التقليديين، بين الرؤيتين الخالدتين: رؤية القدّيس (الذي لا يعنيه ما يُرَى في مقابل ما لا يُرَى، لأنّ ما يُرى وقتيّ، في مقابل ما لا يُرَى الأبدي) مع رؤية الفيلسوف الذي لا يعترف بغير ما يُرَى دليلاً على وجود حقيقة. هذا العَود الأبدي من المنفى. هذا الميلاد الأبدي من رحم العدم، هو ما

Twitter: @alqareah

يهب الطبيعة هويّةً **ألوهيّةً** لينتزع لها الإعتراف بامتلاك الحقيقة. بتلابيب هذه القشّة يتشبّث ذلك الطيف الهشّ، غريق الدنيا وجريحها الأبدي (المبدع) لا كمعبود يتلو في محرابها صلواته فقط، ولكن ليستجير بها **كملاذ**. ملاذ لا يكتفي بأن يجيره من نقمة الدنيا، ولكنّه يضيف فيلقّنه **الإلهام** أيضاً. ولهذا يُقال أن المبدع معشوق الطبيعة، كما الطبيعة معبود المبدع. وهي صفقة لها ما يبرّرها في الواقع فيما لو استنطقنا طبيعة العلاقة بين قطبين يتبادلان العشق. فالمبدع هنا ليس طريداً وحسب، ولكنّه جرحٌ ينزف. وهو لا يلقي بنفسه في أحضان أمّ الأمّهات هذه إلاّ ليحتال على النزيف. وأمّ الأمومة لا تخذله لأنها قمقم الإستشفاء الأصلي. إنها تهرع لمداواة مريدها بروح الهوية الأولى. بروح الساحر. إنها الهوية التي اغتربت عنها الأمم بسبب اغترابها عن اللغة الأمّ. ففي العربية نستخدم كلمة طب دون أن نعلم شيئاً عن مدلولها البدئيّ. فهو في لغة التكوين يرد كـ«تب» كما في المصرية القديمة، وكـ«يوتب» في لسان الليبيين القدماء وَوَرَثهم طوارق الصحرء الكبرى، فالتاء هي طاء العربية، و«يو» في الليبية القديمة حرفا علّة غير معترف بهما في أصل الكلمة لأن حروف العلّة أُضيفت في اللغات لبثّ روح الموسيقى في الكلمات التي كانت سواكن فحسب في الأصل. جدير بالملاحظة هنا أن نرى كيف انبثق مفهوم الطبيعة ذاتها من كلمة «تب» (طب) هذه إلى جانب كلمة طبع بالطبع! ولكن السؤال هو: لماذا سُمّي الساحر بإسم «تب» أو طبّ؟ الجواب: لأن الساحر كان طبيب العالم القديم. أي في الزمن الذي

Twitter: @alqareah

لم ينفصل فيه السحر عن الطبّ كعلمين مختلفين. إنه الزمن الذي كان فيه الإنسان يرى في الداء بُعْداً خفيّاً مصدره الأرواح الشرّيرة الكامنة في الطبيعة الأمّ. ولكن اللقية الحقيقية التي تخبّئها لنا اللغة الأمّ تسكن دلالة أخرى هي: «**الكشف**»! فالساحر إذاً لا يستعير إسمه من الطبيعة كحرف، ولكن من هويّة أكثر حميميّة في العلاقة مع هذه المعبودة المحجّبة بألف قناع وهي: **إمتهان الكشف عن الداء وإماطة اللثام عن السرّ المسكوت عنه في رطانة الطبيعة**. وهو إكتشافٌ لا يجب أن نستهين به لا بالنسبة لمروّض المفاهيم كما هو الإنسان القديم فقط، ولكن بالنسبة لنا أيضاً. فنحن مازلنا نستعمل ذات الدلالة في التعبير عن استشراف الدّاء من خلال كلمة تشخيص. أي رحلة إستجلاء حقيقة المرض، بل وحقيقة كلّ شيء. وهي نزعة أوجدت تعبيراً آخر يصلح قاسماً مشتركاً أعظم بين علم الطبّ وعلم المنطق كامناً في كلمة: تحليل الرديفة للكلمتين السالفتين المترجمتين لحقيقة الطبّ وهما: الكشف، ثمّ التشخيص. والمدهش أن تنبثق هذه الحزمة من المفاهيم ذات البعد الفلسفي والكينوني من صلب مدلول بسيط كالطبيعة. وهو اكتشاف جدير بالتأمّل لأن هذه الداهية لا تبقى بالنسبة للمريد مجرّد ملاذ لنيل الإستشفاء من علل الدنيا، ولكنّها تنقلب عروة خلاص. فهي منذ الآن تنتصب حجّة على الحقيقة حقّاً. فلنطارد حفنة الدلالات التي بثّها أساطين الدهاء في هذه الملفوظة الشديدة التواضع (تب). فالحرف الأوّل في أبجديّتها هو: السحر. السحر كرديف للطب في لغة اليوم. وهو وظيفة علاجية

Twitter: @alqareah

بالطبع. الدّاء كامن في طبيعة مصغّرة مستعارة من طبيعة مكبّرة. في هذه الطبيعة الكبرى يتخفّى سرّ إسمه الدواء. الدّاء خلل وحقيقته في الدواء الذي لا وجود له خارج الطبيعة المكبّرة. وهو ما لا يتحقّق بدون كشف. والمفارقة أن مبدأ الكشف هنا ليس مهنة الساحر (الطبيب) وحده، ولكن الكشف صفة للطبيعة فارقة. أي أنه كشف في جرم مبدأ ينتحل طبيعة كشف كما هو الحال مع الطبيعة التي تحمل الكشف إسماً لها. وهو أمرٌ من دواعي سرور فيلسوف مثل هايدِغر الذي أفنى العمر في البرهنة على وجود الحقيقة كحضور في الظاهرة. بلى! الطبيعة كشف. أي أنها حقيقة عارية. ولكن هذا جانب من الحقيقة في فتوى أمّنا الطبيعة، لأن الفيوض التي ينوء تحت عبئها المصطلح العبقري (تب) لا تبخل بها اللغة البدئية. فالوصيّة تضيف فتقول أن الكشف ليس مجرّد كشف، ولكنّه تشخيص. أي بصريح العبارة أمرٌ عسيرٌ يستدعي استجلاء الحقيقة سواء أكانت علّة في بدن إنسانٍ مريض، أو الحقيقة الإنسانية المخفيّة في بطن الطبيعة. إنه المعنى الذي سنّته البشرية تالياً في كلمة: تحليل. التحليل ببعديه الطبّي والفلسفي. وهو ما يحثّنا على المضي قدماً في استنطاق الطبيعية التي لا تعود منذ الآن مجرّد ظاهرة، ولكنّها تتحوّل لغزاً جسيماً يستوجب تضحيات أعظم يتطلّبها التحليل. وهو ما يعني أن الطبيعة لا تقبلنا في حرمها كملاذ نحن أشقياء الهمّ الكينوني، ولكن لتستدرجنا إلى التأويل. تغوينا باحتراف التحليل الذي لن يستقيم بالطبع بدون التحلّي بالروح الوجدية التي قد نسمّيها تأمّلاً، وقد

Twitter: @alqareah

نسمّيها تجلّياً. ولهذه العلّة أجمع كلّ حكماء العالم القديم على حقيقة واحدة هي: عدم وجود الحقيقة خارج التجلّي. هذا التجلّي الذي أعجز أمّة الممسوسين بحطام الدنيا، ولكنه لم يعجز اللغة البدئية في الشقّ المعتمد في اللغات الأوروبّية في كلمة type (نموذج) المستعارة من الأصل (تب). فالتجلّي أخيراً هو حرفة المصابين بعلّة الهمّ الكينوني!

Twitter: @alqareah

3

إلى أي مدى نحن أخلاقيّون في العلاقة مع الطبيعة عندما نكتفي بالتغنّي بالجمال في الطبيعة؟

اليقين أن الجمال هبة أخرى من هبات هذه الأمّ السخيّة، ولكنّ امتناننا على هذه الهبة لن يكون دليلاً على أخلاقيّتنا بقدر ما يعبّر على أنانيّتنا. قد يصلح شهادة على هويّتنا كمريدي طبيعة، ولكنّه في العلاقة مع هذه الأمّ ليس برهاناً على أخلاقيّتنا بعد. فالجمال متعة. والمتعة نفع. والنفع عملة غير معترف بها في حضرة الأخلاق، لأن الحرف الأول في أبجديّة المعجم الأخلاقي هو: **التضحيّة**، وليس المنفعة. والمنفعة هنا ببعدها الروحي أيضاً إلى جانب بُعْدها الحسّي. فأن يسعدنا وجود الغابات لأنها شهيّة للنظر، أو حضور الطير، لأن غناءه لذيذٌ للسمع، أو هيمنة البحر لأنه مهيب، أو امتداد الصحراء لأنه حرية، أو سحر السماء لأنها زرقاء، كلّها شروطٌ لا تكفي لاستخراج شهادة براءة من بلاط الأخلاق التي يقضي ناموسها أن نقرّ (بل ونسعد) بوجود ما يبدو في نظرنا شرّاً في مملكة الطبيعة كالوحوش في الغابات، أو الخطر في ركوب البحر، أو العطش في الصحراء، أو الصواعق المستنزلة من السماء. والطبيعة نفسها تقدّم لنا

Twitter: @alqareah

الدرس الكامن في تتابع الفصول الذي يجب أن نقرأه كأمثولة لجدل الخير والشرّ، أو بالأصحّ، القبول بالطبيعة كوحدة واحدة يروقها كأمّ أن تقسو في معاملتنا لتربّينا، أو حتّى تميتنا لتشفينا: تشفينا باستعادتها لنا في جوفها لأن الموت هو استشفاء من مرض إسمه الدنيا (كما تبرهن أمثولة سقراط عن الديك الأبيض)، ليبقى المثول في بطن هذه الأمّ عملاً طبيعيّاً. وأن يكون الموت طبيعيّاً يعني أنّه ليس شرّاً كما يتغنّى أبيقور.

لقد استخدمت تعبير تربّي، في حين كان يجب أن استخدم رديفاً آخر لهذه الكلمة وهو: تؤدّب. تؤدّب لا بسبب طبيعة التأديب الدينية فحسب، ولكن تشديداً على منطوقه الحرفي المعتمد في أصله البدئي الذي تبنّته جلّ اللغات بسبب مدلول التكيّف أو التبنّي إستعارةً من الجذر اللاتيني adoptare!

فكلمة أدب استعارة من فعل يؤدّب. والتأديب (adopte) هو التبنّي بكلّ معنى الكلمة لما في هذا المفهوم من ترويض للذّات على ذلك العمل الذي لا يستقيم أبداً، ولا يثمر أصلاً، بدون إجبار كما هو الحال مع الأدب كإبداع. إنه ذلك الإجبار الذي ما انفكّ أندريه جيد يؤكّد عليه، في حين عبّر عنه غابرييل ماركيز بالقول أنه يخشى أن يتوقّف عن الكتابة طويلاً لئلاّ تبرد يده. وبرودة اليد هذه هو ما تغنّى به هوراسيوس قديماً عندما قال: «لا يوم بدون بيت شعر». أمّا تشيخوف فأوصى قائلاً: «يجب أن نكتب بلا توقّف!»؛ وكلها ترجمة لسيرة الأدب كإجبار مستمرّ. أي خوض تجربة ذلك التريّض (أو

Twitter: @alqareah

الترّوض لا فرق) الدالّ على **التأديب**. تأديبٌ رهين الإستمرار مثله مثل ممارسة الفلسفة التي يصفها أئمّة الحكمة بأنّها ترويضٌ للنفس على الموت. من مدول التبنّي اللاتيني في adoptatio (جذر الكلمة البذْئي adopt الدال على المقدرة في الأصل، مع ملاحظة إسقاط حرف التاء في العربية لأنه في الأصل علامة تأنيث)، وما يسمّى في معجمنا التقليدي وَحْياً أو إلهاماً ما هو في الواقع سوى فاكهة لذلك الجهد المرير الذي نبذله كي نحقّق **الحرية** في أنفسنا. إنه حبسٌ وراء قضبان أقسى بما لا يقاس من الحصباء الملتهبة كالجمر في فم حكيمٍ قرّر ذات يوم أن يكون أعظم خطباء عصره فدأب على مضغ هذا العذاب كي يقوّم لسانه، أو بالأصحّ كي **يؤدّب** لسانه! وبفضل هذا التأديب وحده كان لشيشرون **الأدب** الذي أراد.

ففي لسان أمّ اللغات ترد كلمة التأديب بالسواكن ذاتها وبالفحوى ذاتها من خلال معنى: **يؤهّل**، أو يتأهّل، أو **يقدّر**، أو يتقدّر، لتستعيره اللغات الأوروبية بمدلول التكيّف أو التبنّي (adopt)، أي بذات الدلالة، كما ورثته العربية في مفهومٍ جليلٍ ذي شقّين: في معنى أدب الدّال على **الإبداع**، وفي معنى أدَب الدّال على **الأخلاق**. وهو ترادفٌ عادلٌ ومُباح يقرّه ناموس الجحيم الذي نعتناه منذ قليل بلقب **الترويض**. الترويض كفعل مستخدم عادةً في حقل لا يختلف عن حقل الأدب، لا من حيث الجهد، ولا من حيث الطبيعة القاسية لهذا الجهد. فما يسمّى في المناهج التربوية **بمكارم الأخلاق** هو في الواقع سجال ملحمي لا يتحقّق للناشئين بالتعليم عارياً، ولا بوصايا

Twitter: @alqareah

الوالدين المجّانيّة، ولكنّه يُنال بتلك العصا المميتة التي استخذمها الله في تأديب مريده أيّوب، أو تلميذه التالي باسكال، لكي **يؤهّل** هذين الإنسانين كنموذجين للبرهنة على وجود معجزة في هذه الدنيا إسمها **الميلاد الثاني!**

بلى! الحقيقة أنّنا لا نكون أناساً أخلاقيّين ما لم نتلقّ قصاص الربّ، كما لا نتعلّم الأدب (كإبداع) ما لم نعبُر مع أوليس دهاليز العالم السفلي لنُبعث من هذا الجحيم من جديد.

وهكذا تبرهن اللغة على الحقيقة التي ترفض الأغلبيّة الإعتراف بها وهي الجذر الأخلاقي للأدب (الإبداع)، بل وقاسمهما المشترك الأعظم وهو: **الدِّين!**

هنا يجب أن نتوقّف لنلتقط الأنفاس قبل المواجهة التالية.

فمبدأ التأديب كقاسم مشترك يجمع قطبين جليلين كالأخلاق (التي هي في مفهوم اللغة أيضاً أدب) والأدب (الذي لن يكون أدباً حقيقياً في مفهوم اللغة إن لم يكن أخلاقياً) لا يلبث أن يقودنا إلى الروح الدينية لهذين القطبين الجليلين من خلال كلمة ذات حمولة جدلية لتزاوج بين اللّقيتين السالفتين في كلمة: **دين** التي تدلّ على **العبادة** من جانب (الدِّين)، كما تدلّ على **الواجب** من جانبٍ ثانٍ (الدَّيْن)!

فالواجب لا يكون واجباً ما لم يكن **التزاماً أخلاقياً** نابعاً من ضميرٍ نقيّ، كذلك الأخلاق لا تكون هويّة أخلاقيّة ما لم تكن **واجباً دينياً** نابعاً من الإيمان بسلطان **المعاملة**، أي عملاً مترجماً في المسلك،

Twitter: @alqareah

وليس مجرّد دوغما محكومة بصفقة مترجمة في حرف الشعائر. أي أن نفعل ما يبرّر هويّتنا السماوية أيضاً إلى جانب هويّتنا الأرضية؛ هويّتنا الطبيعية، وما الجمال الذي نعبده في الطبيعة سوى **إيماءة**. إيماءة غيبيّة تشير إلى الهويّة الخفيّة، إلى الهوية المغتربة التي لا نستطيع أن نستحضرها (بل وأن نستعيدها) بدون عروة جواز السفر الأخلاقي. فكما الأدب (الإبداع) لا يكون أدباً حقيقياً إن لم يكن عملاً أخلاقياً، كذلك لا يكون الإنسان ديّناً ما لم يؤدِّ واجباً، أي ما لم يدفع الإتاوة المستوجبة المنصوص عنها في عقد الدَّيْن (بنصب الدال وتسكين الياء) المستعارة أصلاً من الدِّين كمفهوم جامع لمنظومة الإيمان: الإيمان العميق بأنّنا، في العلاقة مع الطبيعة، مجرّد نواة في فسيفساء هذه الأمّ الرؤوم، ولسنا أرباباً ولا حتّى أوصياء!

هذا يعني أنّنا أدباء بقدر ما نحن أخلاقيّون، ونحن أخلاقيّون بقدر ما نحن ديّنون، ونحن ديّنون بقدر ما نحن **طبيعيّون**، أي بقدر ما نصلّي في محراب جمالٍ يوحي بالرسالة الأخلاقية كجمال.

باعتناق دين الواجب كقدرٍ في العلاقة مع الطبيعة، يعلن الحبّ عن نفسه في صميم البعد الأخلاقي، فلا تبقى الطبيعة منذ الآن فردوساً مفقوداً، ولكنّها تغدو **الفردوس المستعاد**.

Twitter: @alqareah

4

بلغت سياسة **قتل الأحلام** الذروة مع منتصف الثمانينيّات. والإنسان بلا حلم (كما دلّلت التجربة تالياً) هو إنسانٌ بلا روح. وغياب الروح في الإنسان شهادة على فشل محقّق في أي معركة وفي أي مجال. وهو سبب الهزائم التي مُني بها الإنسان الليبي سواء على المستوى الشخصي أو على المستوى العام حتّى أضحى نموذجاً في سيرة الأموات الذين يدفنون أمواتاً كما يصفهم المسيح. دين واحد فقط لم يمت في نفوس ذاك الجيل لا لأنه أقدم دين في تاريخ الإنسان وحسب، ولكن لأنه الدين الوحيد الذي لا يموت حتى لو ماتت في الإنسان كل الأديان، بل يزداد شراسةً باغتراب القيَم وقوّةً بغياب الأحلام. إنه دين **الحسد** الذي لم يُقِم اعتباراً لرباط الدمّ وكان سبباً في دفع الأخ كي يقتل أخاه. والإستجابة لنداء هذا الدّين الغيبيّ الرهيب أيقظ الغرائز المستبطنة ليغذّي علاقة الإنسان بأخيه الإنسان ليحوّل حياة الكلّ جحيماً، فتصبح الكراهة المجّانية المسبقة هي عملة التداول اليومي. ففي ظلّ أيديولوجيا لا تملّ العزف على وتر **المساواة** لابدّ أن يغدو **التميز** في أي حقل جرماً يستوجب القصاص في يقين العقلية العامّة. وصفة العموم هي التي تحيله وباءً شاملاً

Twitter: @alqareah

يصير فيه كل أعضاء المجتمع يستحقّون التداوي في مشافي الأمراض العقلية، في حين تعدم الضحية من يترافع عنها، لأن جرائم الحسد هي الجرائم الوحيدة التي لا تعاقب عليها القوانين الوضعية!

فيكفي أن يحسد إنسانٌ أخاه الإنسان كي يتمكّن منه في ظلّ النظام الشموليّ حيث تسود روح القطيع ويُعتبر كلّ مروّض حلم مخلوق متلبّس بجرم. وكم كنت درويشاً يستفهم عن سرّ قيام زميل حسبته مبدعاً مثل بشير الهاشمي بكتابة التقارير التي صودرت بسببها كتبي كلّها، لأن الحسد الذي حدّثني عنه بقية الزملاء هو ما لا وجود له في معجمي حتّى ذلك الوقت لسببٍ بسطٍ وهو عدم اعترافي بكتابة أدب استحقّ أن أُكافأ عليه بوسام جليل مثل الحسد! وهي تجربة تكرّرت مع أديب آخر هو كامل المقهور الذي كنّا نعتبره رائدنا في كتابة القصّة القصيرة ونعامله بإكبار كما نعامل رموز الثقافة الوطنيّة أمثال التليسي أو عبد الله القويري حتى أنّنا سعدنا لتعيينه رئيساً للمحكمة العليا عقب انقلاب 1969 مباشرةً وذهبت مع أحمد الفقيه لتهنئته بمقرّ المحكمة ظنّاً منّا أن قراراً كهذا هو نوعٌ من ردّ الإعتبار من قبل السلطة الجديدة لتلك الفئة التي لم يُرَدّ لها يوماً إعتبار من قبل أي سلطة في العالم وهي فئة المثقّفين. ولكن الظنّ خذلنا لأن الأيام كشفت لنا أن ذلك القرار لم يكن خطاب ودّ، ولكنّه خطاب إستقطاب: إستقطابٌ للرموز الثقافية لا لإنصاف الحركة الثقافية، ولكن لتجريدها من الرموز بهدف إفراغها من ذخيرتها الحقيقية. وهو ما برهن عليه تالياً تعيين عبد الله القويري أو علي خشيم في مناصب

Twitter: @alqareah

وزارية بحكومة الوحدة مع مصر، أو تعيين صادق النيهوم كأمين للدعوة والفكر بتنظيم الإتحاد الإشتراكي، أو تعيين التليسي سفيراً بالمغرب، والفقيه رئيساً لتحرير «الأسبوع الثقافي». كما برهن عليه تعيين يوسف الشريف كمدير للإذاعة والتلفزيون عقب الإنقلاب مباشرةً، ليليه تعيين أمين مازن كمدير عام المطبوعات في الأشهر الأولى التي لم تدم طويلاً. ولكن سياسة الإستقطاب تعثّرت بسبب العجز في الإستيعاب. فما استعصى هو تطويع أناس في قامة هؤلاء لتبنّي مشروع خفيّ ليس صعباً أن تكتشف فيه روح الإرتجال حيناً وروح العبث أحياناً. ولهذا آثر جلّ هؤلاء الإنسحاب أخيراً ولم يواكب مسيرة الموكب سوى المقهور الذي تولّى حقيبة الخارجية في تلك المرحلة التي بلغ فيها صراعي مع هذا المحفل القمّة. وبدل أن ينصفني في هذه الحرب الظالمة الغير متكافئة أصلاً، فوجئت بهذا الإنسان (الذي إحترف إعلاء شأن العدالة من خلال مهنته كمحام تولّى القضاء كلّه، وادّعى حمل لواء الثقافة في البلاد) ينحاز للجلّاد ويستصدر أحكامه لإدانة الضحيّة. لماذا؟ طرحت هذا السؤال على الزملاء الذين عرفوه في العهد الملكي وكان لهم صديقاً حميماً فأجمعوا في جوابهم على مرض البشرية الميتافيزيقي النائم في قيعان الجينات وهو: الحسد!

وعندما استفهمت قائلاً أن لا وجود لديّ لأيّ شيء يمكن أن يحسدني عليه إنسان في مثل وضعه سواء الثقافي أو السياسي أو الإجتماعي، أجابوني بسيماء الشفقة التي اعتاد العقلاء أن يعاملوا بها

Twitter: @alqareah

الدراويش أمثالي ليقولوا أني خصمٌ له لدود في كتابة القصّة! أعترف اليوم أن هذه الصدمة كان لها الفضل في تصميمي تالياً على فعل المستحيل لتحويل حلمي القديم في الإحتراف إلى واقع. فأن يتنازل سعادة وزير وأديب نحرير مثل كامل المقهور لكي يتّخذني خصماً بسبب عملٍ كنت حتى ذلك الوقت لم أحمله محمل الجدّ كأدب القصّة، إنّما يعني أني أملك شيئاً لا أعيه. أملك شيئاً نفيساً ما دام قد استفزّ أديباً لامعاً ورائداً كالمقهور كي يسخّر سلطاته الوزارية في حربه ضدّ مواطن لا يملك من مؤهّلات الحرب شيئاً، تماماً كما سخّر قديماً مواهبه القانونية كمحامٍ ليبرهن في مقالٍ شنيعٍ عن قيام أحمد الفقيه باختلاس قصّة من يوسف إدريس كما حدّثني الفقيه تالياً!

تزامنت حملة المقهور مع حزمة الحملات الباقية التي تفوّق ميفستوفلس في إحكامها حول شخصي سواء على المستوى الشخصي كحملة الإنسانة التي افترضت أنها رفيقة رحلة الضرّاء قبل السرّاء، إلى جانب حملات السفارة بالتنسيق مع مؤامرات الخارجية البولندية وأجهزة سلطة النظام الإستخباراتية. وبرغم هذا الحلف الشيطاني المحكم، بيد أن خلل الجسد الفاني كان أقوى. فالتوتّر المزموم الناجم عن حربٍ لا تنتهي مع أسفل سفلة هذا العالم لابدّ أن يصيب البدن بالعطب في النهاية. وبرغم المرض إلاّ أن نزيف الروح كان علّة جبّت كل العلل: نزيفٌ سببه الإحساس الوجودي بغياب الحدّ الأدنى من العدالة في هذا العالم مجبولاً بمرارة وجود

Twitter: @alqareah

أحكام إدانة لا لعدم وجود ذنبٍ فقط، ولكن دون وجود تهمة أيضاً. إنه باطل الأباطيل مجسّداً. إنه نموذج كافكا الذي يُساق إلى المذبح كأضحية العيد ليُنحر على حجر بالسكّين كالكلب! يحدث كل هذا دون أن يُواجه بالتهمة في منطوق الحكم المستنزل من الغيوب كأنّه الربّ! وها هو العدوس يحيا كابوس المواطن «كاف» فعليّاً، لا كما تخيّله عندما قرأ السيرة لأوّل مرّة في موسكو عام 1975 في كتاب المختارات المنشورة في ذلك المجلّد الأسود المستعار من مكتبة معهد غوركي في طبعة الصفوة الصادرة عام 1965 في نسخ محدودة لعب فيها الإنفتاح الخروتشوفي دور البطولة. ففي أحد الأيام بدأ الفصل الثاني من المواجهة: فالحلف المعادي قاتل على جبهتين: جبهة تُصْلِي بنيرانٍ من خارج، وأخرى تُصْلي بحريقٍ من داخل. في الخارج كثّف أهل البتهان هجومهم، وفي الباطن استعر نزيف الروح المدعوم بنزيف الجسد. ولا أملك اليوم إلاّ أن أصلّي في محراب الحقيقة تعبيراً عن امتناني لرسولين كانا لي في حربي نصيرين: **الحلم والحنين**. فبتأمّل الواقع قليلاً لا يعود عسيراً أن أكتشف أن كلّ الحروب التي شنّها العالم ضدّي كان غايتها إصابة هذا المارد. كان غايتها إغتيال هذا المارد الذي نسمّيه حلماً كما فعلوا مع أقرانٍ لي كثيرين من أبناء جيلي سواء في الوطن أو في أوطان الأنظمة التي عبرتها. فالحلم لم يكتفِ بتغذية روح بعث الرسالة الصحراوية المؤجّلة، ولكن للحلم يرجع الفضل في الإبقاء على نار الوجْد مشتعلة كأنّها الشعلة في حضرة الجندي المجهول الخالدة. وَجْد

Twitter: @alqareah

الحنين إلى البُعْد المفقود الذي لم يكفّ عن الوسوسة بوجوب التنصّل من بهتانٍ لم آتِ من أجله إلى هذه الدنيا، وعمل ما يجب أن يُعمَل. وما يجب أن يُعمل هو **الواجب**. ما يجب أن يُعمل هو **الحقيقة**. أمّا ما فعلته حتى الآن فهو **ما لم أُخلَق له**. ولهذا فالسؤال منذ الآن هو: لأيّ غاية جئت؟ هل جئت لأحارب جيوش سفلة لا أوّل لهم ولا آخر، لأنّي جرّبت أنّي لم أقطع فيهم رأساً إلاّ وأنبت ألف رأس؟ بل السؤال الأكثر جذرية هو: لماذا أدخل مع خلقٍ لم يكونوا من طينتي ولا من ديني يوماً في حرب لا تُبقي ولا تذر، سيّما إذا كان حطام الدنيا الذي يستهويهم هو ما لم يخطر لي يوماً على بال، كما لم يخطر لي يوماً على بال التطاول في الجاه أو السلطان أو أي شيء ذي قيمة دنيوية؛ الخلاص الوحيد إذاً هو الإنسحاب من دنياهم والتشبّث بتلابيب العزلة، لأن العزلة هي بوابة الحرية، والحرية بوّابة الحقيقة. الحقيقة كحبّ يسري فينا، فنهدهدها في أحلامنا، وتستهوينا فنجدّ في طلبها، ولكنّنا لا نجرؤ على **امتلاكها**، لأن مبدأ الملكيّة في عرفها خطيئة وهي التي لا تعترف بغير الهوى ديناً!

الحقيقة **سيرورة** دوماً، لا سكون أبداً. لهذا السبب الحقيقة معبودٌ خالد.

Twitter: @alqareah

5

في تلك المرحلة كانت الإدارة الليبية قد لفظت أنفاس النزع الأخير. وكان من الطبيعي أن تكون النتيجة هي عموم الفوضى. وأوّل حرف في أبجدية الفوضى هو الإستهانة بالقوانين، بل وكتم أنفاسها نهائياً. يحدث كل هذا بدعوى تسييد الشعب الذي لم يكن ليعني فعلياً سوى تشجيع روح الغوغاء لتكون هي السلطة الفعلية لا سلطة الشعب. وهو فصلٌ أخير في مسرحية تعميم السلطة، أو تعويمها لأن ما يملكه الكلّ هو في الحقّ ما لا يملكه أحد. وهو تنفيذ للخطّة اللئيمة القاضية بتوطيد أركان الهيمنة الشمولية على واقع لا سلطان فيه لأحد. فكلّ شيء منذ الآن خاضعٌ للمزاج لا للوائح ولا للقوانين ولا لمذكّرات الإيضاح. فنزوة عابرة كفيلة بقطع علاقة مع دولة، وموقف إنفعال كفيلٌ بالإطاحة بالحكومة، وغضبة طارئة قادرة على إلغاء القوانين برمّتها، وهي تجارب عاشت المرحلة ما هو أسوأ منها على المستويين الوطني والدولي، ممّا يبرهن أن بوسع البشر أن يتعايشوا مع القيامة ذاتها شريطة أن تحلّ في ديارهم على أقساط! والويل ثمّ الويل لمن أبت نفسه الإنصياع لناموس الفوضى الجديد وأبقى على وفائه لخرافة القوانين! ذاك إنسانٌ لن يجني الخيبة في

Twitter: @alqareah

قضاء حوائجه وحسب، ولكنه سينال قصاصاً أسوأ وهو المرض، سيّما إذا ابتلته الطبيعة بنصيبٍ من حساسيّةٍ روحيّة كما هو الحال مع مريدي الأدب أمثالي. كنت في زياراتي إلى طرابلس أخوض معارك مع أشباح حوّلها الوضع الجديد إلى طواحين هواء لا لشيء إلاّ لأن تكويني العقلي اعتاد الإلتزام بالقوانين ويستنكر بالطبيعة تأليه الفوضى. فالنظام القانوني (بل والمنطقي أيضاً) المعمول به في كلّ العالم، بما في ذلك هذا الوطن الشقيّ المسمّى بليبيا، كان يقول في أبسط أبجديّاته أن المرسوم الرئاسي لا يُلغى إلاّ بمرسوم رئاسي، والقرار الوزاري لا ينفيه سوى قرار وزاري.. إلى آخر القائمة في التسلسل الوظيفي في منظومة أي إدارة. ولكن الوضع الجديد أفرز في هذا المجال مفارقات محزنة. فبوسع أتفه موظّف أن يوقف مرسوماً بجرّة قلم، فكيف بالقرار الوزاري، أو ما يلي القرار الوزاري في سلّم الروتين الإداري المشئوم؟ لقد أجبر غياب الإدارة الليبيين على حمل ملفاتهم الوظيفية إلى بيوتهم ليتوسّدوها في غرف نومهم بعد أن عانوا الويل بسبب ضياع مستنداتهم ببقائها في أوكار العبث الملقّبة بإسم الإدارة الشعبية! أمّا بالنسبة لي فقد ضاعت في هذه المرحلة كل وثائقي الإدارية بسبب التغيير المستمرّ في الوزارات لتضيع معها حقوقي الوظيفية والتقاعدية أيضاً التي ترجع إلى تاريخ تعييني بوزارة الشئون الإجتماعية، ثمّ بجريدة «فزّان» عام 1965م. وإذا سلّمنا بهذا العدم وآمنّا به كواقع يومي في حياة الناس فلن نستغرب أن يتجرّأ أي مخلوق يضمر حقداً أن يوقف تمويلاً لمجلّة،

Twitter: @alqareah

أو يوقف المجلّة نفسها عن الصدور دون الحاجة لاستصدار قرار. والمنكر الحقيقي أن صاحب الدسيسة معصوم دوماً من العقاب، في حين يستدعي تصحيح ما أفسد خوض حربٍ حقيقية لا تلتهم وقتاً هو أنفس كنز لأنه الحياة فقط، ولكنّها تستقطع قرابين جسيمة أيضاً. والواقع أن كل العبث يمكن أن يُحتمل إذا قورن بصنفٍ آخر من العبث عندما يسمح صاحب المسئولية الأمنيّة أو الثورية لنفسه بإدراج إسم أحد الخصوم في قائمة الممنوعين من السفر (وهو ما حدث مراراً) أو تدبير مكيدة سياسية للزجّ بذي قربى في غياهب الحبوس (كما حدث مراراً أيضاً). فليس بطولةً أن تحيا في ظلّ نظامٍ شمولي، ولكن البطولة أن تحيا نزيهاً في ظلّ نظامٍ شمولي يغيبُ فيه الحدّ الأدنى من القوانين. والواقع أنه ليس بطولةً وحسب، ولكنه جنون. فالإتّحاد السوفييتّي نظامٌ شمولي، ولكن في ظلّ هذا النظام عاشت رموز ثقافية كبرى وأبدعت أدباً إنسانياً عظيماً أمثال باسترناك أو شولوخوف أو آخماتوف أو ليونوف أو آيتماتوف أو شوكشين أو حمزاتوف أو بولغاكوف وغيرهم. يحدث هذا لأن هؤلاء كانوا من الحكمة بحيث احترفوا الأدب الإنساني المجبول بروح الإستعارة لا الأدب السياسي المشغول بالحرف الأيديولوجي. ولكن في عالمنا الثالث لا ضمان لحياة الإنسان لمجرّد أنّه نزيه، فكيف إذا كان يهدهد في الوجدان حلماً ككلّ المبدعين؟ إنه هنا مدان مسبقاً. مدانٌ حتّى لو لم توجد تهمة، فكيف إذا حامت الشكوك حول نواياه أو نصّت متونه على ما لم يُفهَم؟ لا مفرّ في هذه الحال من الفرار؟

Twitter: @alqareah

ولكن السؤال بالنسبة لي ليس في مبدأ الفرار، ولكن في وجهة الفرار، لأن اللجوء هو ما لم تعترف به طبيعتي يوماً. ويبدو أنه فلسفة مستعارة من العرف الصحراوي المستخفي في الجينات والذي يحرّم على الملّة عبور المياه للإستجارة بأوطان الغرباء. وهو يقينٌ مثير ذي سجيّة غيبيّة. فالمهاجرون كانوا يعبرون الصحراء الكبرى منذ القدم، ولكن أهل اللثام لا يمشون في ركابهم أبداً. والدليل تقدّمه لنا هجرات هذه الأيام الجماعية التي تنطلق من جنوب الصحراء لتعبر وطنهم في طريقها إلى الشمال للعبور إلى أوروبا، ولكن لم يحدث أن انضمّ إلى هذه الدياسبورا سليل واحد من أبناء الأمّة الملثّمة. يحدث هذا برغم وضع القوم الإقتصادي الأفقر في العالم، لأنه لا يبخل بالموارد الغذائية وحسب، ولكنّه يبخل بالشرط الأول للحياة الدنيا وهو المياه. والسرّ؟ السرّ لن يكون سوى الهوس بمعبودة الأمّة الأبدية: **الحرّية!**

فاللجوء بكلّ أجناسه مهانة. مهانة أسوأ من الموت في يقين مريد الحرية، لأن مَنْ قرّر أن يتحرّر فليس له أن يستجير. من قرّر أن يتحرّر ليس له إلاّ أن يستجير بنفسه. فإذا لم تجره نفسه (هذه النفس المسكونة بأعظم قوّة في الوجود وهي الإيمان) فليس له أن يرجو الرحمة من الأغيار أبداً. قانونٌ قاسٍ؟ القسوة هي دين الحرية. والموت هو دين الحرية في تخومه الأبعد. ولهذا السبب يموت الناس في سبيل الحرية وهم سعداء. وهو ما يعني أن من اختار الحرية فقد اختار أن يجاور الموت. ولهذا أعجزني أن أفهم دوماً سرّ قيام الإنسان بإلقاء نفسه في أحضان الأغراب لكي يأووه ويطعموه

Twitter: @alqareah

ويعلّموه ليحيا عالةً عليهم ما شاء له أن يحيا. يحيا متبطّلاً لأن الإعانة الإجتماعية تتولّى عنه كل شيء، بل وتتولّى كل شيء بالنسبة لعائلته أيضاً. يحدث هذا تلبيةً لنداء الدواعي الإنسانية النبيلة في إيواء من يتهدّده الموت جرّاء الحروب أو سيف نظام ظالم تحديداً، ولكن جرى استغلال اللجوء من قبل الأدعياء ليكرّسوه لمآربهم الأنانية الخبيثة. فهل أقفز إلى القاطرة المتّجهة غرباً كما فعل زملاءٌ لي كُثر زمن الدراسة في بلاد السوفييت، أو كما كان يجب أن أفعل عام 1970 عندما شدّد النظام الخناق حول عنقي، أو أفعل الآن بحجّة اقوى وهي تآمر نظامين سياسيين ضدّي، فأسلّم أمري لصندوق العناية الإجتماعية في الغرب حسب تقليعة الزمان؟ إذا كان الموت الذي يتهدّد هو الذريعة فالموت مسلّط على رقبتي منذ الميلاد، بل هو هاجسي الذي لم يفارقني طوال رحلتي في غيهب السُّرَى. وإذا كان المبرّر هو الإضطهاد فنحن كلّنا ضحايا اضطهاد بمشيئة العهد المبرم مع ارتضاء الحضور رهن الوجود. وإذا كان السبب هو القُوت فإن الجوع هو ترياق الخوف من غياب القوت. إنها قرابين صغيرة مقابل متعة الإحساس بالحرية. فالحرية هي ربّة الحدّ الأدنى، ولكن الإحساس بالواجب هو الساحر الذي يقلب الحدود الدنيا إلى حدودٍ قصوى. هذا فيما يتعلّق بظاهرة اللجوء إلى الغرب، فكيف تبدو في واقع الشرق؟

في المنظومة الشيوعية يستعير المبدأ الإنساني للجوء قناعاً أيديولوجيّاً خاضعاً لمناخ الحرب الباردة. وهو ما يعني عدم وجود اعتراف باللجوء إلاّ لأسبابٍ سياسية مفروضة بحرف المعارضة

Twitter: @alqareah

العقائدية التي يضطر فيها المنتمون للأحزاب الشيوعية للهجرة إلى موسكو فراراً من بلدان تضع حضراً على نشاطاتهم السرّية أو تكتشف تخطيطهم لقلب أنظمة حكم معادٍ بطبيعته للأيديولوجيات اليسارية. وهو لجوء ليس بلا ثمن، لأن مريد اللجوء في هذه الحال لا يلبث أن يجد نفسه رهينة الروتين السوفييتي الذي يضع حجراً على حرية المريد في التنقّل لا خارج البلاد وحسب، ولكن داخل البلاد أيضاً مثله مثل كل الأجانب ما لم يحصل على إذنٍ مسبق. أي أنه استبدال لشبح سجن الوطن بشبح سجن خارج الوطن. ربّما نصّت القوانين السوفييتية على حقوق مّا للأجانب الذين ارتبطوا بالزواج من مواطنات أو مواطنين سوفييت، ولكن فعلياً لا وجود لهذه الحقوق بما في ذلك حقّ الإقامة المنصوص عنها في الدول الأخرى في ما يُعرف بـ«لمّ الشمل العائلي». فالإتحاد السوفييتي لا يريد من ناحية أخرى أن يخون المبادىء الأمميّة التي يتغنّى بها لئلاّ يخذل مريديه عبر العالم، ولكنه لم يكن ينوي أن يضحّي بنزعة الإستسرار التي كانت دوماً تعويذة نظامه من جانبٍ ثانٍ. والدليل أن التضحية بنزعة التكتّم هذه هي التي لعبت دور البطولة في تفكيك آلة هذا النظام الرهيب من خلال شعار «**غلا سنوست**» (أي الكشف) الذي رفعه غورباتشوف مع نهايات الثمانينيات كفحوى لسياسة التغيير التي عُرفت باسم «بيريسترويكا». ولهذا السبب نجد كهنة الأيديولوجيا يحتالون للتوفيق بين النقيضين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً بالموافقة على اعتماد قوانين تبدو إنسانية من ناحية شكلية، ولكنّها لا تنفّذ فعلياً إلاّ على نطاق محدود جدّاً لأناسٍ إستثنائيين يحظون بتزكية كاهن العقيدة الحزبية الأول سوسلوف بجلالة قدره! أي ذلك

Twitter: @alqareah

النموذج الذي تطلق عليه الأدبيات السياسية إسم: «الشخصيّات الذائعة الصيت الأَولى بالرعاية»!

تبقى مسألة الحصول على عمل في دول المنظومة هي السبيل الوحيد للفوز بالإقامة في هذه البلدان. وهو أمرٌ تعجيزي بسبب عدم وجود هذا العمل. فدول المنظومة ليست في حاجة لاستجلاب عمالة من أي نوع لا في مجال الأعمال التي تستوجب الخبرات، ولا في مجال الخدمات، لا لأسباب الوضع الإقتصادي المتردّي وحسب، ولكن لأسبابٍ أمنيّةٍ أيضاً. فالمواطن الأجنبي في عرف هذه الأنظمة هو دوماً جاسوس! وإذا لم يكن جاسوساً فيكفي أن يكون أجنبياً ليكون مخلوقاً مشبوهاً حتّى لو ثبتت براءته كجاسوس. وهي شبهة أفلحت هذه الأنظمة في دسّها في عقلية المواطن عميقاً بحيث أمست يقيناً شعبياً يحيل حياة الإنسان الأجنبيّ جحيماً في واقعٍ لا يستطيع أن يكتسب فيه أصدقاء حقيقيين لأنهم إن وُجدوا فلن يطمئنّوا إليه. في هذه الأجواء لا تعود حياة المغترب مجرّد توحّد، ولكنّها تنقلب عزلةً بالإكراه. إنه نوع العزلة الذي يليق بكلّ طريد دنيا. وقد إخترته كوطن من دون كلّ الأوطان الأخرى لهذه الفضيلة، لأن كل حلم تلك الأيام أن أخلو إلى نفسي بشرط أن أحصل على إقامة. ولكنّها ليست إقامة لجوء، ولا إقامة التسوّل المقنّع الذي إرتضاه زملائي الذين عملوا كمترجمين في مؤسسات مثل دار نشر «التقدّم» أو «أنباء موسكو»، ولكن الإقامة التي تضمن الحدّ الأقصى من معبودتي الحرية. وهو ما تطلّب خوض حربٍ جديدة!

Twitter: @alqareah

6

الحرب إستوجبها التّوق إلى الحرية. فبرغم كوننا وُلدنا أحراراً بالطبيعة، بيد أن المفارقة هي أنّنا لا نلبث أن نجد أنفسنا مكبّلين بأصفاد لا سبيل للنجاة منها بدون حرب. فمادمتُ اخترت الحرية، فليس لي إلاّ أن أتحمّل المسئولية الناجمة عن هذا الخيار. فالتفرّغ للإبداع حلمٌ لابدّ أن يعني تفرّغاً للحقيقة. وليس لمن تجرّأ أو عاند أمر الحقيقة أن يرجو من العالم نصيباً من قُوت، بل الجزاء الذي يجب أن ينتظر هو القصاص. هذا ما كان منذ الأزل، والجليّ أنه سوف يستمرّ إلى الأبد.

ولكن الجوع تبدّى فردوساً، والموت خلاصاً في ظلّ التردّي في الوضعين الصحّي والنفسي فلم يبق إلاّ قبول التحدّي: التحدّي في اكتساب هويّة روبنسون كروزو، والفوز بجزيرةٍ مجهولةٍ في قلب المحيط لا وجود فيها لمخلوق حتّى أحقّق فيها سيرة إمام الزهد علي ابن أبي طالب الذي بلغه أن ابنه تمنّى لو يجد مكاناً لا يرى فيه أحد، فعقّب قائلاً أن الواجب أن يقول: «حبّذا لو أجد مكاناً لا أرى فيه أحداً، **ولا يراني فيه أحد!**». فالخلوة الحقيقية ليست في أن نشاهد الناس من وراء حجاب (لأن هذا ما تحقّقه صومعة النسّاك

Twitter: @alqareah

أيضاً)، ولكن في أن نغيب عن أنظار الناس. قد تكون تلك عزلةً، ولكنّها ليست خلوة. وإذا كانت خلوةً، فهي ليست حرّية. لأن خلوة الحرية هي أن نختفي من حياة الناس لا بالإنقطاع عن الحضور بين الناس فقط، ولكن بالإختفاء الكلّي عن أنظار الناس لأننا لا نضمن أن نتحرّر من ألسنة الناس ما لم نتحرّر من ذاكرة الناس. ولن نتحرّر من ذاكرة الناس ما لم نغب عن مجال رؤية الناس. فليكن فراري كالفرار الجنوني الذي يتحدّث عنه نيتشة فيقول أنّه إمّا أن يكون فراراً من مرض، أو فراراً من أُناس مرضى، لأن الحقيقة في حالي هي فرارٌ من كليهما! أو فليكن فراراً من جنس الفرار الآخر الذي يصفه الحكيم القديم فيقول أنه فرار الإنسان الذي لابدّ أن يكون إمّا وحشاً أو إلاهاً! فلأكن هنا أيضاً روحاً يتلبّسها الضدّان! إن كل ما يستهويني الآن هو الفوز بالجزيرة الموعودة. وها أنا أجدها على الأرض بعد أن أيقنت أن لا وجود حقيقيّ لها في السماء! ولكن مفتاح الدخول إليها تطلّب كلمة سرّ، كأيّ كنز. ولم يبقَ لي إلاّ أن أفكّك طلسمان الأحجية كي أحقّ الحلم وأقتحم الفردوس: الجزيرة هي قمم «فوروبيوفا» الواقعة على مرتفعات جنوب موسكو بمسافة عشرين كيلو متراً من مركز المدينة، لأن موسكو بالملايين العشر التي تقطنها هي بالفعل محيطٌ بشري، والأحياء في هذا المحيط هي بالفعل جزر معزولة عن بعضها البعض. إنه المكان الغارق في غابات الضواحي التي تلتفّ حول الحاضرة كحزامٍ من أشجار البتولا (المعبودة الروحية في وجدان الشعراء الروس)؛ إنه المكان الذي كان لي بمثابة

Twitter: @alqareah

أرجوحة المهد أوّل عهدي بمجاهل ما وراء الستار الحديدي عندما وطأت قدمي أراضي الإتّحاد في أحد أيّام صيف 1970. أمّا كلمة السرّ فليست سوى الإقامة. ليس أي إقامة، ولكن الإقامة الوحيدة التي تضمن الحدّ الأعلى من المعبودة الأبدية هي **الإقامة الصحفيّة**، لأنها الإقامة الوحيدة التي تضمن الإستقلال عن الهويّة الوطنيّة، كما تضمن الإستقلال عن السلطة السوفييتية!

إنّها الإقامة ذاتها التي حقّقتها عام 1980 لصديقي القديم حسن أحمد من خلال زميلي في معهد الإنماء العربي طاهر عراب الذي تولّى تالياً فرع المعهد ببيروت ليُصدر مجلّة «الفكر العربي» عن المعهد خلفاً لمطاع صفدي الذي انتقل ليتولّى معهد الإنماء القومي بتمويل عراقي. ذلك أن حسن أبدى لي رغبته للعمل بليبيا بعد تخرّجه من معهد السينما بموسكو عام 1975. وقد انتهزت فرصة حضور البخاري سالم حودة مهرجان موسكو السينمائي مندوباً عن مؤسسة السينما التي يترأسها بليبيا في العام نفسه فرشّحته له. فأبدى استعداده لتعيينه بالمؤسسة. وغادر حسن بالفعل لاستلام عمله بعد أسابيع من ذلك التاريخ، ولكنّه لم يمكث هناك أكثر من أسابيع فإذا به يعود إلى موسكو فجأة لأسبابٍ ظلّت بالنسبة لي ملفوفةً بالغموض إلى اليوم. وقد خاض حرباً في سبيل حقّ الإقامة في موسكو مع سلطات الهجرة نظراً لارتباطه بالزواج من مواطنة سوفييتية. وهو سبب تأبى السلطات أن تعترف به كمبرّر للإقامة بأراضي الإتّحاد، فسافر للعمل بالعراق. ولكن لم يمكث هناك طويلاً أيضاً. وقد التقيته

Twitter: @alqareah

بإحدى زياراتي إلى موسكو في وقتٍ كانت فيه مشكلة الإقامة مع السلطات ماتزال قائمة. إتّصلت بعدها بالزميل طاهر عراب لتعيينه كمراسل لمجلّة المركز بموسكو فاستجاب بروح شهامةٍ كانت خصلةً ماتزال حيّةً في نفوس الليبيّين آنذاك.

خطابٌ ممهورٌ بتوقيع متوّجٍ ببصمة غبيّة هي في العرف الروتيني ختمٌ رسمي كفيلة بوضع حدٍّ لمأساة عائلة والإعتراف بها قيد الوجود طوال أعوام إلى حدوث الزلزلة التي أطاحت ببعبع المنظومة كلّها ليتبدّل الحال فيحصل حسن أحمد لا على الإقامة وحسب، ولكن على الجنسيّة أيضاً بعد أن سلخ من عمره أربعين عاماً. فكيف لي بالحصول على قرطاسٍ غبيٍّ كذاك يزكّيني لسلطات جناب الروتين كي يُعتَرف بي كإنسانٍ له الحقّ في أن يتمتّع بالإقامة في أي مكانٍ كما ينصّ ناموس الوجود قبل أن تنصّ عليه مواثيق المحفل المسكوني المدعو بالأمم المتّحدة؟

Twitter: @alqareah

7

الظمأ إلى صوت الله استوجب الحوار مع الطبيعة. حدث هذا تزامناً مع تخلخل أعمدة آخر صنم أيديولوجي كان أفيون الأنتليجنسيا المسكونية طوال قرنٍ من الزمان ومعبود اليسار السياسي منذ استيلاء البلاشفة على الحكم في روسيا القيصرية. إنها الماركسية تحتضر لتلفظ معها خرافة الشيوعية أنفاس النزع الأخير؛ فلا يملك أمثالي إلاّ أن يعبّروا عن امتنانهم للعناية الإلهية التي أمهلتهم حتّى يشهدوا دراما أفول هذا النجم المزيّف وهم الذين عانوا كثيراً جرّاء تنصّلهم من الإنتماء إلى خانة هذا الفردوس المزعوم في ذلك الزمان الذي كانت فيه الماركسية تقليعة الزمان. وإذا كان جيلنا قد تعاطف معها كفكر يتبنّى العدالة ويملأ الخواء الروحي السائد على نحوٍ مّا، بيد أنّه أعجز من أن يروي ظمأ الفئة الممسوسة بمرض العصر وهو الإحساس بالضياع، أو يشفي غليل الفئة الأخرى المجبولة بالهمّ الكينوني. وكم كنت مديناً للعناية الإلهيّة شخصيّاً لأنها أمهلتني لأكون شاهداً على صواب حدسي ثلاث مرّات لا مرّة واحدة. فلم أكن لأنسى مجادلاتي مع بعض المستنيرين المهووسين بسياسة عبد الناصر في زمن الوعي المبكّر تحديداً في أعوام ما بين 1963 و1967

Twitter: @alqareah

أثناء وجودي بأمّ الواحات سبها، معبّراً عن شكوكي في صواب تلك السياسة النابعة من أيديولوجية شوفينية سرعان ما برهنت هزيمة 1967 عن قوّة حججي بشأنها. وهو ما لا يؤكّد حنكة سياسية بالطبع بقدر ما يؤكّد تفوّق الطبيعة الفطرية على أي حكمة تجريبية. كانت هزيمة 67 سبباً كافياً لوأد صنم الهوس القومي، ولكن مريدي هذا الصنم أبوا إلاّ أن يتنكّبوه في المسيرة التالية نعشاً حقيقيّاً تلبيةً لنداء الصدمة ليكون سبباً في هزائم أخرى في العقود الثلاث التالية. ويدهشني أن تبقى فئة عمياء تتغنّى بهذه الخرافة إلى اليوم. وإذا كنت ضحيّة عداوة عَبَدَة **الصنم اليساري** (الشيوعي تحديدا) طوال سنوات وجودي بروسيا السوفييتية (أمثال جيلي عبد الرحمن كما ورد في الجزء الأوّل من هذا البيان) فإن الموقف من **الصنم القومي** قد صيّرني ضحيّةً مرّتين لأنه كان سبب الإضطهاد الذي غدا منذ 1969 لعنةً في رقبتي حتّى بعد حدوث الزلزال الذي هوى بالصنم للمرّة الثانية في السنوات الأخيرة برغم وجود العُمي الصمّ البكم الذين لن يعترفوا بزواله برغم ذلك وفاءً لنزعة الأمّة التي ترفض الإعتراف بالهزائم، ولهذا لا وجود في حياتها لانتصارات!

لقد كان محمد أحمد الزوي صريحاً معي يوم عبّر لي في أحد أعوام بداية السبعينيات عن استيائه من مقالٍ كتبته بإحدى الصحف أنتقدُ فيه، عن تجربة، معبودة المثقّفين (الشيوعية) ليقينه بأن ذلك سيضير صيتي النضالي. قلت له في ذلك اليوم أن النضال هو ما لم أراهن عليه يوماً لسببٍ بسيطٍ وهو أنّي لست معنيّاً بالسياسة أصلاً،

Twitter: @alqareah

وكل ما جنيته بسببها هو لعنة مفروضة على شخصي فرضاً منذ العهد الملكي، مؤمناً في الوقت نفسة بأن البطولة الحقيقية بالنسبة للمثقّف ليس عبادة الآلهة التي في المتناول، أي تلك الآلهة التي نتلقّاها من الأغيار جاهزةً بالمجّان، ولكن البطولة في أن نشكّك في الأرباب المعتمدة بحرف السواد الأعظم ونجد في أنفسنا الشجاعة لكي نبدع آلهتنا بأيدينا. وهو ما يستدعي أن نميت في أنفسنا إنسان السِّوَى، نميت إنسان الكلّ، إنسان الأصنام، لنبعث في أنفسنا إنسان الله الجدير بأن يتّخذ الله معبوداً، لا ظلّ الله. وكم أسعدني أن يأتي اليوم الذي جاءني فيه هذا الصديق بعد مرور سنوات ليعبّر لي عن صواب رأيي القديم في الأيديولوجيا بعد أن كشف له الزمان عن عورتها!

أمّا الهوس بالصنم الديني فهو الوثن الذي لم أطمئنّ إليه يوماً لإحساسي الذي لم يخذلني بأنّه يشيّد مجداً للحرف الذي يُميت على حساب الروح التي تحيي!

فكيف السبيل للخلاص من الظلّ والوصول إلى حرم الأصل؟

الإستجارة بالطبيعة لم تكن في السبيل بديلاً، ولكنّها في الرحلة وسيط. الطبيعة في رحلة بعثي كانت خيط العهن الذي أخرج البطل من متاهة مينوس الأسطورية. الطبيعة هنا دليل البطل الآخر في الخروج من جحيم دانتي. ولذا لم تخطيء فلسفة إسبينوزا التي يمكن تلخيصها في عبارة واحدة: «تشبّث بتلابيب الطبيعة!».

Twitter: @alqareah

8

لم أحدّث أحداً بالرؤيا. كلّ ما فعلته هو قيامي بمفاتحة صديقي محمد الجرّاري مدير مركز الدراسات التاريخية بنيّتي في قطع حبل السرّة مع الدولة والإنتقال إلى موسكو. كنت قد عرفت هذا الإنسان النبيل في أحد أيام عام 1976 عندما إلتقيته في مكتب خليفة التلّيسي في الفترة التي تولّى فيها الأخير رئاسة إتحاد الكتّاب والأدباء في بداية تأسيسه قبل أن تستكثر السلطة السياسية هذا الإسم على ملّة المثقفين فتستبدل الإسم إلى رابطة الأدباء والكتّاب. كان الجراري في تلك الفترة قد عاد للتو من أمريكا ليتولّى تأسيس «مركز الدراسات الليبية» الذي أُستُبدل أيضاً بإسم «مركز جهاد الليبيين ضدّ الغزو الإيطالي» تالياً. وقد شارك الجراري في الندوة الفكرية التي نظّمتها الجمعية بوارسو بمناسبة حلول القرن الهجري الخامس عشر بمشاركة لفيف من الأكاديميين البولنديين عام 1980، حيث أوكل لي في تلك الزيارة مهمة تزويد المركز بالوثائق التاريخية المتوفرة بإرشيف المراكز العلمية البولندية المتعلّقة بالحضارة الإسلامية إجمالاً، وبالمسلمين البولنديين القاطنين بشرق بولندا خصوصاً. وقد قمت بتكليف أحد الدارسين البولنديين المنتمين لهذه الأقلّية الدينية للقيام بهذه المهمّة

Twitter: @alqareah

العلمية. وكان تواصلنا في السنوات التالية سبباً في أن أعرف الجراري لا كمريدٍ للتاريخ وحسب، ولكن الجراري الإنسان أيضاً. ويبدو أن الهوس بالتاريخ قد غذّى فيه روحاً وطنية كانت خصلة كل مريدٍ لهذا المجال أمثال محمد عبد الكريم الوافي أو علي عبد اللطيف إحميدة يتقدّمهم عميد الحقل خليفة التليسي بالطبع. وهي خصلة نادرة في زمن طغيان الشعار السياسي الذي سمّم الحياة الثقافية بعد أن سفّه قضايا الوجود الإنساني. أقول نادرة لا ببُعْدها الوطني وحسب، ولكن بما تجود به هذه الروح من مزايا أخلاقية كانت حتى ذلك الوقت قد إغتربت من واقع المجتمع. فعندما كان التليسي يثني على قيَم العدوس الأخلاقية (كما أوردنا في الجزء الثاني من هذا البيان) فالحق أنه يقدم الدليل على قيمه الأخلاقية هو في زمن إغتراب القيَم الأخلاقية، لأن ما أجمع عليه رموز الحكمة هو إستحالة أن يجود إنسانٌ بمديح خصلة حميمة في إنسانٍ آخر مالم تسكنه هو ككنزٍ خبيء! لقد كان هؤلاء في ظنّي آخر جيل تحلّى بروح العلماء الذين لم يذهبوا إلى الغرب لكي ينالوا الشهادات العلمية ليكسبوا من ورائها حطام دنيا، أو ينالوا بها ترف إجتماعي كان آنذاك نزعةً سائدة، ولكنهم إغتربوا في سبيل الحقيقة العلمية وحدها. ولكن ليس يسيراً التحلّي بروحٍ كتلك في واقعٍ كذاك، في زمنٍ كذاك. لماذا؟ لأن الحقيقة العلمية قرينة قدر إسمه الرهبنة. إنها نوعٌ قاسٍ من تنسّكٍ لابدّ أن يدفع بالمريد إلى المنفى. إنهم المنفيّون في أوطانهم، والغرباء بين ذوي القربى. وبرغم ذلك فإن الطقس الكهنوتي هو ما يجيرهم عادةً

Twitter: @alqareah

عندما يستنزل على وجوههم سيماء قداسة. قداسة هي دوماً حصانة حتى في ظلّ أعتى أجناس الأنظمة الإستبدادية. فسيماء هذا الطراز من الناس تنطق بتسامح. تسامحٌ مجبولٌ بتسليم. تسليمٌ يُسقط السلاح في يد أكبر عدوّ. بهذا السلاح أسقط الجراري مؤامرات تلك الفئة المعادية لأيّ نجاح، وأبطل مفعول حقل الألغام التي دأب الخصوم من جانب، وأبالسة كل قيمة إنسانية أو وطنية أو حضارية من جانبٍ ثانٍ، على إستزراعها في طريق مؤسسته العلمية التي لها الفخر في أن تكون الحصن الثقافي الوحيد المعبّر عن روح ليبيا الحقيقية طوال عشرات السنين التي غُيّبت فيها الثقافة من خلال الإلغاء المخجل والمكرّر لوزارتها من دون كل الوزارات الأخرى. وهو دورٌ تبنّاه هذا الراهب كواجب شخصي وعلى نحوٍ ضمني. فالمركز هو المنارة العلمية الوحيدة في الوطن التي لم توقف نشاطاتها الثقافية في عزّ الكابوس المسمّى حصاراً، ولم تتأثّر بحملات التشويش والتشويه في برامجها في إستعادة ذاكرة الوطن من النسيان، بل وبعثها من العدم، ليصير هذا المركز في زمنٍ قصير المرجع الأول في ذخيرة مخطوطات ترجع بتاريخها إلى الثمانمائة عام، ليغدو محجّاً لمريدي المعرفة من كل البلدان. وقد حدّثني مرّة كيف زاره السفير الألماني ليقوم بجولة في محفل هذه الثروة من المخطوطات القديمة. وقد أدهشه حجم الثروة، وأذهله أكثر حال القرطاس وحضور الأحبار في مجلّداتٍ حاربت الزمن مئات الأعوام. لقد كانت تلك تحفةً فنيةً وآياتٍ جماليةٍ تنافس أبدع ما نجا من سيف هذا المارد الذي لا يرحم

Twitter: @alqareah

(الزمان) في متاحف أوروبا والعالم كما رأيتها عندما قادني إليها الجراري يوماً. وكان السفير على حقّ عندما عبّر للجراري عن دهشته لعدم وجود حرس لبنيان المركز مع وجود هذا الكنز في جوفه!

ولم يكن السفير المسكين يدري أن في ليبيا في تلك الأيام لصوصاً أسوأ ألف مرّة من لصوص الكنوز: أولئك كانوا مفارز اللجان الثورية الذين حاولوا طويلاً الإنقضاض على هذه المنارة الحضارية، لأن ما أخذوه على عاتقهم في أدبيّاتهم هو تدمير كل ما هو حضاريّ تمهيداً لتشييد حضارتهم المزعومة بديلاً! وها هم يعدّون العدّة للزحف على الصرح فيستنجد الرجل بأحد أعضاء مجلس الثورة السابقين (وهو الخرّوبي) آملاً أن يتدخّل لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. ولكن سلطة اللجان في ذلك الوقت كانت أقوى من الأعضاء، بل وأقوى من رأس الأعضاء أيضاً. ولهذا لم يكن الإنسان الذي بنى هذا الكيان عشرات الأعوام (لا كفحوى جمعها بالحنان الذي تجمع به أمّة النّحل الرحيق من حقول الزهور وحسب، ولكنه شيّد هذا الكيان كـ **بنيانٍ معماريٍّ** أيضاً)، أقول لم يكن ليطمئن لنجدة في مرحلة لم يعد أحد يعوّل فيها على أية نجدة، ولهذا لم يجد ما يفعله إلاّ أن إستنجد بتلامذته في المركز الذين تربّوا على يديه وتشرّبوا حبّ العلم من مسلكه في معاملة قدس أقداسٍ إسمه الكتاب. جمع الجراري فريق الباحثين والدارسين بالمركز وصارحهم بما لم يتوقّعوا أن يسمعوه أبداً. قال لهم في ذلك اليوم العصيب أن الطوفان على الأبواب ولا يبقى له إلاّ أن يستودعهم روح الأمّة المهدّدة بالفناء. قال أيضاً أنه يأذن لهم بإختطاف المخطوطات

Twitter: @alqareah

والوثائق وشهادات الرواة حال هجوم الهمج وحملها معهم لإخفائها في بيوتهم، لأنه ليس له ان يعوّل على عونٍ في زمن هيمنة روح الغوغاء. ولكن روح الدرويش التي حملها هذا الإنسان في قلبه حققت الإعجوبة، لأن الغيوب إستجابت لنداء الإنسان الذي لا حول له ولا قوة فأبطلت مفعول الشرّ لتبرهن أن نداء العُزّل دوماً سلطة أقوى!

ذلك اليوم في المركز كان يوم عيد.

فالجراري هو أحد نماذج شهداء الواجب الذين وإن ظلّوا على قيد الحياة، بَيْدَ أنهم الشهداء على قيد الحياة كما راقني أن أسمّيهم دائماً. فهل يبخل إنسان الشهادة على إنسانٍ هو قرينٌ له في آلام الصليب بشهادة تجيره من بطش الصليب ولو إلى حين؟ كلاّ بالطبع. لقد تعاطف معي هذا الإنسان يوم هرع لنجدتي بتلك الشهادة التي لا تعدو أن تكون مجرّد قرطاسٍ إداريٍّ ممهورٍ بختمٍ وتوقيعٍ سيّما وأنها غير مدعومة بأيةِ مسئوليةٍ مالي. تعاطف لأنه كانً شاهداً على عراكي الطويل والمميت مع زبانية النظامين الجمهوري والجماهيري، برغم أنه لم يشهد شقّه الثالث مع زبانية النظام الملكي. كان ذاك خطاب تعيين كمراسل لمجلّة «البحوث التاريخية» بموسكو موجَّهاً إلى السفارة السوفييتية ليس سلاحاً للحرب يُشترى زمن السلم، ولكنه قشّة الروتين التي تمكّن إنساناً من إيجاد موطيء قدم له في عالمٍ لايريد منه هذا الطريد سوى أن يدعه يخلو لنفسه ليضمّد جراحه في سلام متنازلاً عن كلّ حقوقه الدنيوية والإنسانية. ولكن إذا كان الإنسان كضحية يتنازل، بيد أن العالم كجلاّد لا يتنازل. وها هي

Twitter: @alqareah

الضجّة التي صاحبت نبأ تحرّري من جحيم النظامين الحليفين (البولندي والليبي) تقيم الدنيا وتقود الجراري إلى ساحة المساءلة بتهمة تقديم يد العون المادّي والمعنوي الذي مكّن شخصي من السير في سبيل الضلال! والضلال هنا هو مصطلح الأيديولوجيا الجماهيرية للتعبير عن حرية يراها النظام شقّاً لعصا الطاعة على مشيئته وإنقلاباً عليه إلى حدٍّ صار هو الإسم الدالّ على كل صاحب رأي، لأن صاحب الرأي في شرع العالم الثالث بالضرورة معارضة، والمعارضة في هذا اليقين ليست تنفيساً للغليان في قِدر النظام، ولكنها عداوة. والسيرة كانت تتويجاً لمؤامراتٍ للمسخ القديم سفير ليبيا لدى بولندا سليمان العريبي ضدّ المجلّة وحلفه المريب لا مع أجهزة الداخل الأمنيّة وحسب، ولكن مع أجهزة بولندا الأمنية أيضاً (كما سبق الإيضاح) إلى جانب ضلوع العدوّتين الأبديّتين الخارجية الليبية والبولنديّة. وكانت نجاتي من شراك هذا الأخطبوط مفاجأة للجميع. فمن الطبيعي إذاً أن تنشط التقارير سواء في وارسو أو في موسكو أو في طرابلس. والبلبلة هنا مرتعٌ خصب لإزدهار هذه التقارير التي خلصت إلى إستنتاجٍ روّج لا للأكذوبة فقط، ولكن للأسوأ من الأكذوبة وهو: **نصف الحقيقة.** فلجوئي إلى موسكو لم يكن فراراً من البلاد إلى خارج البلاد، ولكنه فرارٌ من الخارج أيضاً. فرارٌ من المفهوم الذي بثّته الآلة الدعائية للنظام في هذه الكلمة، لأنه فرارٌ إلى الداخل الحقيقيّ، فرارٌ إلى الذات المسكونة بالمجهول لغاية واحدة هي إكتشاف لغز هذا المجهول الذي تتكتّم عليه الذات. وهو

Twitter: @alqareah

ما يعني أنّه ليس لجوءاً إلى موسكو أيضاً، ولكنّه لجوءٌ إلى الملكوت. لجوءٌ إلى الغيوب. ولو كان في نيّة عدوس السُّرَى أن يلجأ حقّاً للَجَأ لرحاب الغرب المعادي منذ زمنٍ بعيد كما فعل أغيار آخرون قبلي، لأن لا البطولات الكاذبة تستهويني، ولا الفروسيّات المزيّفة كانت يوماً من شأني. أمّا الإدّعاء في حقّ الجراري الذي ساد الأوساط السياسية والثقافية والقائل بأن الرجل ساهم في بلوغي برّ الأمان بدعمٍ ماديّ فكان أكذوبةً فنّدها الجراري بالمستندات الرسمية في جلسة المساءلة التي تولاّها أحمد إبراهيم وزير التعليم العالي كصاحب إختصاص لتبعيّة المركز آنذاك لهذه الوزارة الشقية. وكان من حقّه أن يستنكر إعتبار أمر من صميم إختصاصه جريمةً سياسية وهو الذي يترأس مؤسسة تصدر عنها عدّة مجلاّت ثقافية وعلمية يملك قرار تعيين مراسلين لها حتّى بمقابل ماديّ، فكيف إذا كان الأمر بالمجّان مع إنسان هو أحد رموز الثقافة الوطنية لن يعجزه الحصول على مثل هذا المستند من أي صحيفة بيروتية لو شاء؟ وكان المنطق يقضي أن يقوم الرجل بإخطاري بالأمر كي أتمكّن لا من الترافع عن نفسي أو عنه، ولكن للترافع عن الحقيقة كيتيمة دهرٍ قَدَرُهَا الدفاع عن النفس دوماً لأن سلطة الكذب في عالمنا هي العملة المعتمدة. ولكن طبيعة الجراري أبت إلاّ أن تكتم عنّي ماحدث لأكون آخر من يعلم بعد زمنٍ طويل. وكم آلمني أن تتعرّض روح شفّافة كروح الجراري للإساءة من أجلي بسبب إجراء إداري روتيني فلا أملك السبيل للإنتقام له كما يقضي الواجب. لأن الأقسى على

Twitter: @alqareah

النفس هو أن نخيّب ظنون أولئك الأخّلة الذين إفتدونا. ولا أملك إلاّ أن أعبّر عن إمتناني للعناية الإلهيّة التي أمهلتني حتّى شهد الجراري ثمار شهادته يوم تمخّضت فسحة **الحرية** التي أتاحتها شهادته فلفظت من جوفها المزموم، المجبول بالنزيف، باكورة نتاجها مجسّداً في سيرة بدأت بـ «الخسوف»، ثمّ «التبر»، ثم «نزيف الحجر»، ثم «المجوس»، ولم تنتهِ بسداسية «الأخلاف والأسلاف» تلك الأنشودة في مديح الوطن التي تحمّس لها الجراري عندما وُلِدَتْ يوماً كفكرة فهرع ليضع بين يدَي المصادر التاريخية بروح الوصيّ على روح الوطن لتلعب هذ المصادر دور القابلة التي ساعدت على ميلاد هذا العمل التاريخي ذي النَفَس الملحمي عن أهمّ منعطف في مسيرة أجيال هذا الوطن، فلم أجد للتعبير للرجل عن إكباري سوى أن أهديه الجزء الأول من السداسية مشفوعاً بإمتناني لا عن إحسانٍ، ولكن عن روح الإستجابة لنداء ذلك الواجب الذي يقول **كانط** أنّنا لا نأتي إلى الدنيا لكي ننال السعادة، ولكن لكي نعتنقه كبديلٍ للسعادة.

والإنتصار في نداء الواجب، في عرف ملّة الدراويش أمثال الجرّاري، دوماً عيدٌ آخر!

لم يكتفِ خازن الذاكرة الوطنية بهذا الجود ولكنه أبى إلاّ أن يضيف لشخصي شهادةً أخرى يوم قال لي (بعد أن قرأ الجزء الأول من ملحمة «الأخلاف والأسلاف»): «هذا هو ما يُسمّى: **تخليد التاريخ**»!

Twitter: @alqareah

9

ولكن صاحب المرصاد ميفستوفلس قرأ أفكاري وسبقني إلى الساحة ليعرقل خلاصي لأنه لا يريد أن يفقد ضحيّةً صارت بين يديه دميةً منذ أحسنت هذه الدمية الظنّ بالدنيا فتوهّمت وجود قضيّة أو حقيقة أو رسالة في واقع الناس. ففي تلك الأيّام بالذّات أصدرت السلطات القرار القاضي بوجوب مخاطبة الخارجية في كلّ شأن له علاقة بالسفارات الأجنبيّة المعتمدة في البلاد بوحي من معبود السلطة الأبدي ميفستوفلس لإبطال مفعول خطاب درويش الزمان وفعل كلّ ما بالوسع لسدّ الثغرات. كانت تلك طريقة تقليدية لامتحان الإرادة، أو تقويتها لا أدري. ما أدريه أنّي لم أيأس في ذلك اليوم فخلوت إلى نفسي للبحث عن مخرج. والإيمان بوجود مخرج كان كافياً للمجيء بالمخرج لا لشيء إلاّ لأنه إيمان.

وها هو الحارس الذي انتدبته الغيوب لتيسير أمري يهرع لنجدتي هذه المرّة أيضاً فيأتي إلى دائرة الإختصاص بالإنسان الذي سيكون لي في الأمر نصيراً. ذاك كان سعد مجبر الإنسان الذي عرفته منذ بداية عقد السبعينيات سنوات تولّى مناصب إعلامية عديدة، وها هي الأقدار تأتي به مديراً لإدارة المراسم بالخارجية ليبطل مفعوم اللغم

Twitter: @alqareah

الخبيث الذي دسّه ميفستوفلس في طريقي، فيزكّي خطاب مدير المركز إلى السلطات السوفييتية بخطابٍ من دائرته. وهو ما لم يكن ليحدث في زمن يهيمن عليه شبح الخوف من مسئولية أبسط إجراء إداري لولا تدخّل العلاقة الشخصيّة كمؤهّل وحيد نافذ المفعول في تلك الأعوام. وهو المؤهّل الذي زكّاني لدى الجرّاري وقبله لدى دوردة ولدى كل الأخيار الذين كانوا لي عوناً في زمن الإرهاب النفسي الذي سحق ثقة الإنسان في أخيه الإنسان كإنسان. وكم أدين للعناية الإلهية بالإمتنان لأنها مكّنتني من كسب ثقة كل هؤلاء في وقت المحنة ذاك، وكل ما أملكه من رأس مال في علاقاتي بجميع هؤلاء هو صيتي الأخلاقي المترجم في مسلكي الدنيوي: رأس مال يبدو بلا قيمة في زمن إغتراب القيم، ولكنّه يحتفظ حتّى آنذاك ببعض القيمة لدى أولئك الذين مازالوا يهدهدون في قلوبهم بقيّة من قيم. فالقيَم الأخلاقية هي سفير الأغيار لدينا والذي لن نعترف له باعتماد ما لم يجد في قلوبنا له قريناً حميماً، وكذلك قيمنا الأخلاقية الموجّه بها كسفير منّا لدى الأغيار.

فهل تكفي الشجاعة في العراك مع أشباح الظلمات للفوز بالغلبة؟

واقع الحال يجيب بالنفي. والدليل أن الأعادي لم يكونوا ليتمكّنوا من عابر ليالي السُّرَى في الزمان الذي مضى لولا روح الدروشة، لولا روح حسن النيّة التي تبدو في شرع أهل الدنيا دوماً سذاجةً، أو بلاهةً، أو غباءً، أو كلّ هذه الخصال معاً. إنها سهوٌ من طبع كل عدوس يعبر ليل الدنيا غافلاً عمّا يُرَى، غافلاً عن الباديات

Twitter: @alqareah

لا بسبب ظلمة الليل وحسب، ولكن بسبب العزلة. فالعدوس مقيمٌ في قمقم عزلته برغم مسيره في خلاء الدينونة، فلا يصحو من غفوته إلاّ في الوقت الذي يتلقَّى فيه القارعة. فإذا كان أهل الدنيا هم النيام الذين لا ينتبهون من نومتهم إلاّ إذا ماتوا، فإنّ العدوس غائب بالتجلّي ولا يصحو من غيبته إلاّ في اللحظة التي تباغته الطعنة. لحظتها يستعيد الإيمان بوجوب اليقظة. ذلك أنّ الملّة التي تنتمي إلى سلالة عدوس السُّرَى وحدها تجوس في الغيبوبة لأنها تحيا في **الحلم**، لا في اليقظة. فكيف لي أن أحقّق غلبة في حربٍ إذا لم أتخلَّ عن روح الدرويش لأتحلّى بروح أوليس ولو إلى حين؟

حدث ذلك في ذروة موسم الكآبة: أي شهر يناير من عام 1987 حيث يكون كفن الطبيعة الناصع قد استوى ليطرح على الكائنات ستوره المميتة فتعلن الروح الحداد. إنه الموسم ذاته، والشهر ذاته، واللحاف ذاته الذي نزلتُ فيه هذا الجحيم منذ ثمانية أعوام بالضبط لأنزف طوال حلولي ضيفاً في أرباعه. وها أنا أعدّ العدّة لمغادرته إلى الأبد في التاريخ ذاته كأنّه ميعادٌ مدبّر بمشيئة القدر، ليكون في حياتي المكان الوحيد الذي أهجره غير آسف على مغادرته، بل هو المكان الوحيد الذي أسفتُ لحلولي فيه. وهي شهادة منطوقة بلسان الروح برغم أن العقل يجادل فيقول أن الجحيم في سبيل المريد أيضاً ضرورة وهو ما يوجب أن نقرأه كوصيّة. ولا أعرف لماذا استشعرت خطراً غامضاً في الأيّام التي سبقت فراري بأمدٍ قصير. خطرٌ لم أستشعر له مثيلاً حتّى أيام كان خطر نزول الحبوس في الوطن معلّقاً

Twitter: @alqareah

فوق رأسي طوال الوقت. فالخطر هو العنقاء التي لا وجود لها في عرف عدوس السُّرَى، لأنّ وجوده ثوبٌ منسوجٌ من خيط خطرٍ من جنسٍ خاصّ، خطرٌ ذي سجيّةٍ غيبيّة لا يقارن بالخطر الدنيوي. فليس لمن احترف الخوض في الحرية أن يخاف حريةً يأتي بها الموت. هذه معادلة عدوس السُّرَى، هذا هو دين عدوس السُّرَى الأدهى من كلّ دين. إنه الدين الذي يجعل الكل في شكٍّ من العدوس أينما حلّ. الشكّ الذي حيّرني في علاقاتي بكلّ من عرفت، ولم أفهم له سبباً منطقيّاً طوال تجربتي حتّى مع الخلّان. ويبدو أنّهم كانوا يرون هذا البعبع الذي لا أراه في نفسي. لقد حذّرني أخيارٌ كثر قبل مغادرتي ديار سدوم هذه لأن عداوة الأجهزة الأمنية في يقينهم هو ما لا تُحمد عقباه أبداً. وتجربة إغتيال القسّيس الكاثوليكي المعارض بأيدي الإستخبارات السرّية كانت آنذاك على كل لسان. فإذا أُضيف إلى هذا العداء موقف السلطات الليبية المتواطيء مع أجهزة النظام البولندي وهو ما لم يكن سفير ليبيا يخفيه لدرجة شاع فيها هذا الموقف لدى الأوساط الثقافية والأكاديمية والإعلاميّة لأقرأ الدهشة في سيماء كل من عرفت في هذه الأوساط. وهي دهشة كانت مشفوعة دوماً بالإستفهام دون أن يدري هؤلاء أنّي لا أملك جواباً على استفهامهم الخفيّ، وهو ما ضاعف آلامي، لأن الأبرياء وحدهم لا يملكون للدفاع عن أنفسهم حيلةً ظنّاً منهم أن البراءة شهادة كافية. ولكن هيهات. فالقسّيس لم يكن الضحيّة الوحيدة الناتجة عن الفوضى الأمنية التي تعقب تزعزع أركان الأنظمة الشمولية عادةً، ولكن في

Twitter: @alqareah

تلك الأثناء شهد مقرّنا الدائم بفندق فيكتوريا محاولة تصفية أحد رموز المقاومة الفلسطينية أبو داوود جسدياً بإصابته بثماني رصاصات في مقهى الطابق الثاني لينجو من المحاولة بأعجوبة. وقد وجّهت أصابع الإتّهام في البداية للبعبع الأبدي الموساد، ولكن التحقيقات برهنت تالياً أن الأمر كان بيد عميلٍ لفصيلٍ فلسطينيٍّ آخر لا بيَد الموساد. ففي تلك الفترة التي أطاحت فيها الإضطرابات باقتصاد البلاد ممّا اضطرّ الحكومة لأن تتسوّل المعونات الغذائية من كل الدنيا، من الطبيعي أن تترعرع الجريمة لتبلغ الذروة. وإذا كان من حقّ العدوس أن يستهين بالموت في سبيل قضية، بيد أنه ليس من شيمه أن يستخفّ بالميتة الرخيصة التي تأتي بمكيدة خسّيسة تنفّذ بيَد أجيرٍ مبتذل أو عميلٍ مزدوج. ففي ذلك الوقت الذي أزف فيه الرحيل كانت وارسو قد أقفرت وخلت أجواؤها من روح الرومانسية التي لفظت أنفاسها مع مغادرة البدري ورمضان عبد العزيز ولم يبقَ من كبكبة الفرسان القدامى سوى الهادي حمزة وأحمد عبد العال وعثمان سعد الذين صيّرهم الواقع الجديد غرباء أيضاً، لأن أوّل ما يفعله الأفيون المسمّى ثورات هو تصفية ما تبقّى من روح الشعر في المجتمع ليحقن الواقع بنثرٍ مستعارٍ من وحي معبودٍ إسمه التغيير.

ويبدو أن أجهزة العالم السرّية تستميت في الحيلولة دون خروج خصومها لأنها سوف تفقد مبرّر وجودها بإضاعة الخصوم. ولهذا تستميت كي تختلقهم أيضاً في حال أفلت من يدها الخصوم الحقيقيّون. إنها صفقة مرضية مبرمة بحرف ضمنيّ يلعب فيها الطرف الأقوى دور التمساح الذي يتسامح مع الطير ما ظلّ ضماناً لتنقية

Twitter: @alqareah

أنيابه، ولكنّه لن يتردّد في استخدام هذه الأنياب ذاتها فيبطش بالطير إذا أخلّ الأخير ببنود الصفقة النفعيّة. والخروج في عرف تمساح الأجهزة الأمنية ليس خروجاً من وطن، ولكنه خروجٌ من سلطته هو. وهو ما يعني الإخلال ببنود الصفقة. وهو أمرٌ جلل كثيراً ما يُفقد تماسيح الأمن صوابها فترتكب الحماقات في حقّ ضحاياها. حماقات جنونية قد تصل إلى التصفية الجسدية في حدودها القصوى، أو إلحاق الضرر بالضحية سواء أكان جسدياً أو معنوياً، وهو أقلّ الإيمان في سيرة الحبّ الذي إذا سلّمنا بطبيعته المميتة إجمالاً، فإنّه في حال الجلّاد مع الضحيّة مميتٌ مرّتين لا مرّة! وها هو العدوس يعيش مع هذا الجلّاد تلك التجربة المعقّدة ذاتها التي عاشها مع قرينه جلّاد الوطن يوم خرج في مطلع 1979 ميمّماً صوب ديار الأغراب، فإذا بالديار التي ظنّها حرّيةً تتحوّل سجناً لا يختلف عن السجن الذي فرّ منه، بل هي الأسوأ، لأن الإحساس بالحضور في حرم قدسيٍّ كالوطن في سجون الوطن عزاء، ولكن القمع في أوطان الأغراب جحيمٌ أقسى من السجن. وها هو العدوس يخطّط للإفلات من الشرك تماماً كما خطّط منذ ثمانية أعوام، فما أشبه الليلة بالبارحة!

شَبَهُ الليلة بالبارحة هو ما استوجب الإستعانة بتعويذة أوليس: الدهاء!

فكلّ خروجٍ في عرف البعبع الأمني العالمي مباح باستثناء خروج واحد: الخروج إلى الحرية!

إنه الخروج الذي ينتظره القصاص، لا في عرف العقلية الأمنية وحدها، ولكن في كل الأعراف.

Twitter: @alqareah

10

ولكن هل كان البعبع الأمني سينصّب نفسه على الرقاب جلّاداً بغياب عصا سحرية إسمها **الخبز**؟! لقد نصّب ماركس الدين ربّاً للجبن من خلال وصيّته الكلاسيكيّة: «أفيون الشعوب هو الدين». ولكن وصيّة ماركس ستخسر الرهان فيما لو لم يضف لها همنغواي شقشّها الثاني في وصيّة: «الخبز أفيون الشعوب». لقد كنت أتأمّل هذه المعادلة طوال سنوات صلواتي بمحراب معهد غوركي لأنتهي إلى الإيمان بصواب مقولة همنغواي في مقابل مقولة ماركس المؤدلجة إلى حدٍّ توّجتها استشهاداً لقصّتي الطويلة «ذرّات الرمال التي تقرع الطبول» التي نُشرت في منتصف السبعينيات بمجلّة «الأقلام» العراقية.

فالدّين إذا لم يكن مجرّد شعيرة، إذا لم يكن مجرّد صلاة في محراب الحرف، أي إذا كان تجربة روحية، إذا كان إيماناً، إذا كان مسئولية أخلاقيّة، فالدّين هنا في الخيار الأخير هو الساعد الأيمن في إرادة الحرية، والحافز الأول في خوض تجربة الحرية. أي أنه عامل تحريضي، وليس خضوعاً. أمّا الخبز فوتد حقيقي. الخبز سلسلة أسطورية أقوى سلطاناً من سلسلة السبعين ذراعاً التي تتوعّدنا بها

Twitter: @alqareah

المتون المقدّسة. الخبز هو الحبس الذي يدخله الناس أفواجاً. الحبس المجّاني الذي لا نستحي أن نتدافع بالمناكب لكي يحتوينا طوعاً. إنه الجدول المسموم المستخدم بيد الروح الأمنية لإصابتنا بالورم الذي يميت فينا الحلم الأقدس: الحلم بالحرية! ولا نغدو رهائن في قبضة الأخطبوط الذي يترصّدنا في الواقع الدنيوي إلاّ بالإستسلام لإغواء هذا الطُّعم الموبوء الذي أُلهمتُ بطبيعته مبكّراً حتّى صار لي في كلّ مسيرتي هاجساً. فالحرية التي نتغنّى بها مسئولية أخلاقيّة أيضاً إلى جانب كونها مسئولية وجودية. أي أنها ليست حرية ذات هوية بوهيمية أو فوضوية كحال التقاليع التي سادت زمن الستينيات والسبعينيّات في الغرب. فالخبز الذي لا يخضع لناموس النزاهة هو قوتٌ مسروق. إنه خبزٌ مسمومٌ أيضاً، ولهذا لن يوفي بشروط العقد المبرم مع صاحبة الجلالة الحرية التي ينصّ أحد بنودها على أن نرتضي بالقدر **الزهيد** المغسول بعرق الجبين لأنه كسبٌ **نزيه!** وهو ما يعني أنّنا يجب أن نقبل بالحدّ الأدنى، بل وبشبح الجوع عندما نقرّر السير في ركاب هذه المعبودة الأبيّة.

ما أعنيه أنّني لم أكن لأحسب حساب القوت لو لم أكن في تلك المرحلة مغلولاً بمسئولية ذات جناحين: مسئولية أخلاقية أمام عائلتي الكبرى المتمثّلة في الإنسانية، ومسئولية أخرى أمام إنسانية أخرى في حجمها المصغّر المتمثّلة في العائلة التي كبّلتُ نفسي بها يوم أخطأت فقرّرت أن أقترن بامرأة تنتمي إلى ثقافة أخرى تلبيةً لنداء التقليد الذي سنّه أسلافي وكل من أرى حولي ناسياً أن العدوس لم يكن ليقبل

Twitter: @alqareah

بقدر الطلب لو لم يكن من طينة أخرى. فالدَّيْن المستوجب نحو عائلتي الكبرى (الإنسانية) هو أن ألزم ناموس **النزاهة** التي تحتّم أن أكسب قوتي بعرق جبيني برغم وسوسة حمّى الحرية. والدَّيْن الثاني المستوجب هو أن أطعم عائلتي الصغرى بهذا القوت النزيه. وهو القوت **الزهيد** دوماً بسبب مبدأ النزاهة، برغم أن مبدأ النزاهة هو ما يهبه قيمة رمزية تستنزل فيه روحاً ألوهيّةً لا تقدّر بثمن. فكيف التوفيق بين الواجب الأخلاقي وبين الهوى الوجودي؟ كيف السبيل لتلبية نداء الحرية دون التنصّل من نداء الضمير؟

كم حسدتُ في تلك الأيام أناساً عرفتهم في شرق الدنيا وفي غربها يقترنون بالنساء بمزحة لينجبوا منهنّ ذرّيةً بمزحة أخرى، ثمّ يهجرونهنّ بمزحة ثالثة، فلا يكلّفوا أنفسهم عناء الوضع الناتج عن هذه الخطيئة، ولكنّهم ينتقلون إلى ضحيّة أخرى ليعيدوا السيرة ذاتها من جديد. إنه دين اللّهو الذي نسمّيه بمنطق الضمير إستهتاراً فنلزم أنفسنا بنقيضه دون أن ندري أنّنا سنجني من وراء هذا الإلتزام لا الإنكار وحسب، ولكن العدوان أيضاً؛ لأن أعداءنا الحقيقيّين هم أولئك الذين ضحّينا لكي نحسن إليهم أوّلاً، فإذا كانوا ملّة تنتمي إلى هوية ذوي القربى فهم الأعداء مرّتين. وها هم يكافئونني على تضحياتي في سبيلهم بانتقام لم أفهم له سبباً لو لم يهرع نيتشة ليعزّيني بوصيّته القائلة: «أنت تبكيت ضمير لذوي القربى، لأنهم لا يستحقّونك! لهذا السبب يكرهونك وعلى استعداد لأن يمتصّوا دمك!». ففي حالي كانوا قد امتصّوا دمي فعليّاً واستعاريّاً. لقد كانت

Twitter: @alqareah

يانينا شوكةً لا في ظهري وحسب، بل في قلبي أيضاً بدل أن تكون في حياتي بلسماً وفي دنياي رفيقاً. ومَن ابتلته الأقدار بالتنقّل بين أكثر ثلاثة بلدان سطوة روتين كروسيا السوفييتية وبولندا وليبيا وحده يستطيع أن يتخيّل ما معنى أن ينوء إنسان تحت عبء إمرأة تحتضن ولداً طوال المسيرة حتّى لو كان ميسوراً يمتلك كنوز كريوز الأسطورية، أو حتّى لو كان بقوّة هرقل الجسدية، فكيف إذا كان مثخناً بجراح الروح والبدن طوال الرحلة، وفوق ذلك يهدهد في القلب نزاهةً هي أعظم كنز أورثه له الأسلاف في الجينات برغم أنه الكنز الذي لا يعترف به عالمنا؟

فالساعد الأيمن المفترض، المجبول بالروح الشعرية المفترضة أيضاً، لم يكتفِ بإنكاري في سويعات المحنة وحسب، ولكن لا يروقه أن يصعّد حملاته الظالمة إلاّ بالتزامن مع هذه السويعات بالذّات كأنّ ميفستوفلس الذي يسكنها (والذي أبرمت معه الحلف ضدّ سلالتنا منذ التكوين) هو الذي يوَسوِس لها ما أن تشتدّ حملات الأعداء، فتشعل حربها توقيتاً معهم إستجابةً لنداء الوسيط الأبدي وبسُعارٍ لن يُستعار إلاّ من جناب هذا العدوّ الأبدي. وبرغم ذلك فكلّ هذا يهون إذا قورن بمكيدتها الكبرى التي لن تكون غير تلك اللعنة الملقّبة باسم الذرّية. إنه الشرك الذي لم يخذلني حدسي عندما خشيت الوقوع فيه دوماً. ومازلت أذكر مجادلاتنا الحامية زمن كفاحي للنجاة من هذا الوهق الذي أرادت أن تكبّلني به. ولم أملك إلاّ أن أتنازل رحمةً بنداء الطبيعة في كائن هو كلّه طبيعة وبالتالي خليفة

Twitter: @alqareah

الطبيعة على الأرض بقدر ما الرجل خليفة الله في الأرض. وكان أن جاء إلى الدنيا الشقّ الثالث في المعادلة الذي سيدفع الأب حياته ثمناً لها لا بالتفريق بين قرينين وحسب، ولكن بنفيهما كليهما وجودياً، وبنفي الأب فعلياً، لا رمزياً. ولم يكن الإبن الشقيّ في حاجة لتلقين الأمّ ضدّ الأب، لأن هذا الأب الذي يتحوّل في يقين الولد معبوداً في البداية لابدّ أن ينال القصاص في النهاية جزاء هذا اليقين، لأن قدر الصنم أن يتحطّم بيد العابد ما أن يكتشف أنه ليس معبوداً، ولكنّه مجرّد صنم. هنا تستيقظ العداوة الغيبيّة من قيعان الباطن لتقتصّ من النموذج الذي انتحل هوية الربّ طوال الوقت. إنه جنسٌ من تصحيح السيرة لابدّ أن ينتهي بقتل الأب. إنه إشباعٌ للحاجة إلى الجهاد في سبيل الله كنزعة عرفتها كل الديانات في مرحلة من مراحل تطوّرها.

وهو ما يعني أن قتل الأب دَيْنٌ في رقبة الإبن. لهذا السبب كانت جريمة قتل الأبّ هي أكثر ما استهوى رموز الأدب الكبرى بدايةً بـ«أوديب» سوفوكليس، إلى «كارامازوف» دستويفسكي، مروراً بهاملت شكسبير. فمهما فعلنا فنحن في عرف الأبناء آثمون. يكفي جرماً مجيئنا بهم إلى الوجود!

Twitter: @alqareah

11

من المدهش أن يفتدينا في زمن الضيق ما لم نحسب له حساباً في زمن الفرج. فالسكن الذي اقتنيته عام 1977 بأقساط شهرية من المصرف التجاري الوطني تسدّد على عشرين عاماً هو ما أنجدني بعد عشرة أعوام ليكون لي سنداً في نيل الحرية ذات البعد الأخلاقي لا الأناني أو الفوضوي. فمن حقّ مريد الحرية أن يجوع، أو أن يضحّي بنفسه ما شاء أن يضحّي، بشرط ألاّ يكون هذا العمل سبباً في إلحاق الضرر بالإنسانيّة، أو الإساءة إلى أناسٍ ربطوا مصيرهم بمصيره يوماً كالأهل سواء أكانوا آباءً أم أبناءً. بريع إيجار هذا السكن إستطعت إسكات الضمير الذي لا يرحم لأعرف في تلك المرّة كم كان محقّاً من قال أنّ صاحب الضمير إنسانٌ مريض، ولأعرف أيضاً كم كنت مخطئاً في حسن ظنّي بموقف نيتشة المعادي لإقتناء أي سكن، لأن مفهومه للحرية إنّما يكمن في عدم إمتلاك بيت. وهو موقفٌ لم يكن ليفتنني لو لم يعبّر عن ضمير إنسان الرحيل الذي لا يعترف بغير العراء بيتاً. فالعقار سواء أكان بيتاً أو أرضاً، هو في عرف كل عدوس ملكيّة. هذه الملكيّة التي لم تكن في يقين أمّة الترحال مجرّد قيد يشدّ إلى المكان، ولكنها خطيئة في حقّ الناموس البدئي الذي رأى كل

Twitter: @alqareah

اليابسة بيتاً منذ التكوين، والركون فيها إلى مكانٍ محدّد هو تجديفٌ من حقّ هذه الهبة الإلهيّة.

ولهذا أطلق لسان هذه القبيلة على البيت إسم «**كبر**» التي تعني في العربية **القبر**، في حين إستعارت كلمة بيت العربية في اللغة الأولى معنى القبر الذي هو **بيت الأبدية**. على هذا البيت الأخير راهن شقّ الدياسبورا التي نزلت وادي النيل من خلال عبادة الناووس المدفون في جوف الضريح المدفون أيضاً في أعماق الأرض. ولم يتفنّن قدماء المصريين في صنعه وفي زخرفته وفي صمود صلده إلاّ ليقينهم بأنّه **بيت الخلود**، في مقابل استهانتهم بـ **بيت الدنيا**، لأنه الفاني. وهي عقيدة أنتجت للبشرية نبوءة كم كان إنسان دنيانا سيكون شقيّاً بدونها وهي اليقين **بخلود الروح** مقابل بهتان الجسد. ولو تأمّلنا هذا الهوس بالموت لوجدنا له جذوراً في الأرومة الصحراوية حيث مازال هؤلاء المهاجرون الأبديون يعبدون الرمز الوحيد الدّال على هويّة الأبدية القابل لأن يُحتمل على الظهور وهو: **الكفن!** فإنسان الصحراء يستطيع أن يستغني في سفره عن حمل الزاد، أو يستثني من متاعه حتّى الماء، ولكن هيهات أن ينطلق دون أن يحمل في متاعه كفنه! وهو ما يعني أن البيت هنا هو الكفن! الكفن وحده حقيقي وكل ما عداه باطل أباطيل.

والخوف من السكن (الكامن في أعماق كل سليل صحراء) هو الخوف من **السكون**. السكون كرديف للموت تترجمه هذه الملفوظة ذات الأرومة البدئيّة أيضاً. فالسين علامة تعدية، وكون هي الكلمة

Twitter: @alqareah

الثرية التي أفردنا لها فصلاً فيما سبق والتي تدلّ من ضمن ما تدلّ على **القيد**، أو **العقدة**. وهو ما يعني أن اللغة الأولى إنّما تعبّر عن نزعتها الدينية المستبطنة التي ترى في الرضوخ إلى المكان من خلال السكن إلى المكان **عقدةً**. أي **ورطة**، أو **شرَك**، يجب عمل كلّ ما بالوسع لتجنّبه طوال فسحة الزمن التي نسمّيها عمراً، ويراها إنسان التكوين ذي الروح العدميّة إنها لا تمهل لإنجاز أيّ عمل حقيقي، والمترجمة في الوصيّة التقليديّة الشائعة: «ميدّيياغز» التي سبق تناولها في المجلّد الأول أو الثاني من هذا البيان.

هذا الموقف من **البيت** كان لي وسوسةً موروثة عن الأسلاف يقيناً. وسوسة لا تختلف كثيراً عن وسوسة الخوف من المدرسة التي هي مرض كل سليل صحراء لأنه أصدق تعبير عن موقف الفطرة من غول إسمه المعرفة. ولهذا لا يذهب أبناء الصحراء إلى المدارس إذا لم يغلّوا بالسلاسل. وبرغم ذلك فهم لا يمكثون هناك طويلاً لأنهم يفرّون عادةً في أوّل فرصة. والله وحده يعلم كم كلّفني ترويض نفسي (المجبولة بطبيعة الصحراء) على دخول هذا الحرم الذي لم تجعله الديانات السماوية قريناً للعنة إلاّ استجابةً لروح الصحراء التي استعارت منها هذه الديانات أدبيّاتها (كما بيّنا في موسوعة «بيان في لغة اللاهوت»).

والواقع أن الإنتقال من عالم الصحراء للحياة في عالم العمران يتطلّب التحلّي بروح إنسان إنتقل من كوكب للحياة بين أُناسٍ ينتمون لسلالات أخرى تحيا في كوكبٍ آخر. والتّأقلم هنا هو أبسط ما يجب

Twitter: @alqareah

عمله إذا شاء هذا الإنسان أن يبقى على قيد الحياة، لأن هنا لا تسود قوانين أخرى وحسب، ولكن هنا تهيمن عقلية أخرى تختلف كلياً عن العقلية الأصلية. والسكن ما هو إلا حرف أول في أبجدية معجم التعامل الجديد، برغم أنه يبدو تجديفاً في حق الناموس بمنطق الكوكب القديم. أي أنه ضرب من تضحية. ولكنه في الواقع الجديد ليس التضحية الأولى ولن يكون التضحية الأخيرة. ولكن ها هي التجربة تبرهن أن التنازل لقبول قوانين الواقع الجديد ليس بلا ثمن. فالبيت الذي حسبته في البداية قيداً هو ما غدا لي سبباً لحرية تالياً، كأنّه الدليل المقدّم من روح العمران تعبيراً عن امتنان، وتعويضاً عن القربان. فأيّ دَيْن مستوجب بعد كلّ هذا؟

الدَّيْن الوحيد المتبقّي هو الموقف من القانون الإداري. أي المسئولية الوظيفية التي اعتبرتُ نفسي في حلٍّ منها بسبب الإستخفاف باللوائح الإدارية كنزعة فوضوية كانت نظام تلك الأيام. فهل نُلزم باحترام إدارة لا تحترم أبسط أبجديّات القوانين الإدارية فتبيح لنفسها استصدار قرارات ليست من اختصاصها كأنْ تنهي انتداب موظّف لم تمتلك صلاحية تعيينه على سبيل المثال كما فعلت الخارجية متمثّلة في شخص وزيرها المقهور؟ لقد كان ذاك القرار بمثابة قفّاز التحدّي، فما كان منّي إلاّ أن قبلت التحدّي الذي ترجمته في موقف التخلّي. فالقوانين الوضعيّة وُجدت لتيسّر لنا شئون دنيانا، فإن عجزت، فليس لنا أن نعبدها، لأن تقديسنا لها في هذه الحال يحيلنا خدماً لها بدل أن يحدث العكس. فهل إكتملت فصول الشهادة

Twitter: @alqareah

ببراءة الذمّة أمام قاضي القضاة (الضمير)، ولم يبقَ إلا الخروج من السجن الذي وجدت نفسي فيه مكافأةً لي لأنّي آمنت يوماً بوجود صداقة بين الأمم تتشدّق بها أنظمة سياسية لا أخلاقيّة إلى درجة عرّضت فيها نفسي وعائلتي للتّهلكة في سبيل أن أجلب لهذا البلد القوت من أبعد قارّة زمن محنته الإقتصادية كما سلف القول؟!

Twitter: @alqareah

12

الخروج الثاني سبقته تقنية ذات محورين: تقنية في العلاقة بالذّات وأخرى في العلاقة مع الناس.

فمنذ 1984 اعتمدتُ سياسة لتطهير الجسد كالتخلّي عن العادات الناتجة عن الحمق البشري كالتدخين أو الإقلاع عن تناول بعض أنواع الطعوم كاللحوم، تزامناً مع الإنسلال التدريجي من دنيا الأنام. وقد لعبت الطبيعة دور البطولة في تمكين ممارسة التقنية الأولى، في حين هرع لنجدتي جناب الكتاب لتحقيق التقنية الثانية. فظمأ الجسد إلى الطبيعة رافقه ظمأ الروح إلى المعرفة. إرتدت حزام الغابات التي تطوّق وارسو على نحوٍ شبه يومي سيّما في فصل الخريف الذي اعتادت فيه هذه الأمّ المغتربة بيننا أن تكتب ملاحمها الشعرية ذات النفس الوجداني. فالتردّد على الحدائق العامّة لم يعد يشفي غليلي لا بسبب الشحّ في هبات هذه المعبودة وحسب، ولكن بسبب زحام الخلق أيضاً. لقد كنت آنذاك أنانيّاً بما يكفي كي أسعى للإستئثار بعالم بدأ يتحوّل في وجداني معشوقةً من حقّي أن أستولي عليها وحدي. والغابات بثرائها وحدها لا تبخل عليّ بهذا الإحساس. إنها تسكن كلّما حللت بحرمها ضيفاً كأنّها تحيّيني. سكونٌ مسكونٌ بحالة

Twitter: @alqareah

تأهّب. سكونٌ يضيق بامتلاء، والإمتلاء يستوجب فعلاً يَعِدُ بالبوح. إنه وجومٌ من جنسٍ عبقريّ. وجومٌ مثيلٌ لوجومِ نصٍّ شعريٍّ أو روائيٍّ مزبورٍ بروحٍ داهيةٍ تدري أن ما نقول ليس أبداً ما نريد أن نقوله، ولذلك يحجم عن القول قبل أن يفصح، لأن اللغة الحقيقية هي اللغة التي تخفي لا اللغة التي تفصح؛ لأن السكوت هو اللغة الوحيدة المعترف بها في عرف الآلهة!

ولكن الوجوم لا يدوم طويلاً. وها هو رسول الغيوب الريح يقبل من المجهول بالنبوءة فينفث المعزوفة المجبولة بروح الآلهة في أغصان الأشجار، ليعلو صوت الأنشودة، فيتزلزل الوجدان بالحنين في رحاب البعد المفقود. الحنين إلى ملكوت الفردوس المفقود. يترنّح سليل الضلال وَجْدَاً وهو الذي اغترب عن هذا الحرم منذ ذلك اليوم المشئوم الذي وجد فيه نفسه طريد فردوسٍ إسمه الصحراء، ليجد نفسه يسرح في حضيض جحيم إسمه العمران. فالآية هنا هي إحتفاء الأمّ الرؤوم بعودة الإبن الضالّ! كأنّ سكونها في البداية هو انتظار لقولي، وعندما تيأس تتولّى زمام المبادرة بوشوشات سيمفونيّتها الألوهية الخالدة: «تعال! تعال لأضمّك إلى حضني! لا تخف فلن أؤذيك. هل إلتقيت في طريق تيهك أمّا ألحقت ضرراً بوليدٍ أنجبته من بطنها؟ ثِقْ أنّي سأجيرك من أضغاث آلامٍ تسمّونها أحلاماً، وأعصمك من كابوسٍ تسمّونه وجوداً. سأمحو عنك وعثاء سفرك، وسأحسن إليك حتّى لو أعدتك إلى بطني!».

Twitter: @alqareah

13

ولكن هل تقبلنا أمّنا الطبيعة في حرمها دون أن نعلن توبتنا في العلاقة مع أخينا الإنسان؟ هيّن أن نعلن توبتنا، بل ونستجدي الغفران من أخينا الإنسان، ولكن ليس هيّناً أن يقبل إخوتنا في الإنسانية توبتنا فيغفروا لنا انسحابنا من أرباعهم واستبدالها بربوع الطبيعة. إنهم في هذه الحال يسيئون بنا الظنّون يقيناً منهم أنّنا نكرههم، برغم أننا في الواقع لا نكرههم بقدر ما نشفق عليهم من أنفسنا. ولكن التراجيديا أنّهم لا يصدّقون. والشكوك هي الثمن الذي يدفعونه لنا مقابل هذه التضحية المجانية التي يقرأونها كخيانة مجّانيّة لناموسهم الذي ورثوه عن أسلافهم ومارسوه فيما بينهم لا عن قناعة، ولكن بحكم العادة؛ ولكنها العادة التي لا تلبث أن تنقلب طبيعةً ثانية. وكم آلمني أن أرى آي الإنكار في سيمائهم في سنوات كنتُ فيها أكاد ألفظ أنفاس النزع الأخير كل يوم لا بسبب تقنية الجوع المميت، ولكن بسبب احتقاري لنفسي طوال حياتي في دنيا بدأت تتكشّف لي فحواها الحقيقيّة، فأشفق عليهم، لأنهم في هوسهم بباطل الأباطيل عن صلاتهم ساهون! وكم أدهشني أن أكتشف بعد زمن أنّهم لم يغفروا لي فقط ما فعلته بنفسي، ولكنّهم يخافونني! فالناس لا يثقون في إنسانٍ

Twitter: @alqareah

إستطاع أن يفعل بنفسه ما أعجزهم أن يفعلوه بأنفسهم، لأن العادة التي تحوّلت في حياتهم طبيعةً ثانيةً هي ما يزيّن في نظرهم ضعفهم فيمارسونه كنعيم، برغم أنّهم ينكرونه في قرارة أنفسهم ويحلمون باليوم الذي سيرفعون فيه راية التمرّد عالياً، ولكن هيهات، لأنهم ينتظرون من واقع الدوّامة أن يغيّرهم بدل أن يغيّروا هم ما بأنفسهم. في هذه النقطة لا يعود يضيرهم أن يضيفوا للخوف ممّن فاز بقصب السبق في ملحمة تغيير ما بالنفس موقفاً آخر وهو الإكبار إلى جانب الخوف!

لم يكن لي في تلك الرحلة سينيكا مجرّد أنيس في عزلتي العميقة، ولكنه كان لي بمثابة أخيلوس لحميمه أوليس مع فارق أصيل وهو أن سينيكا كان لي دليلاً للخروج من ظلمات العالم السفلي إلى رحاب الرواق، في حين كان أخيلوس دليل أوليس في سفر نزوله إلى أسفل الدرك في العالم السفلي. وإنجيلي في المسير إلى الميلاد العسير كان في سنوات هذا المخاض «الرسائل الأخلاقيّة إلى لوتسيلي» في ترجمة الفقيد «أوشيروف» الفذّة من اللاتينية إلى الروسيّة حتّى كدت أحفظ المتن عن ظهر قلب من كثرة ما قرأته. لقد استنصرت بوجودي في بولندا لاقتناء الكتب الصادرة باللغة الروسية، لأن هنا فقط أستطيع أن أحصل على المؤلّفات الكلاسيكية المترجمة من لغات العالم سيّما في حقلَي الفلسفة أو الرواية أو المتون العالمية المرجعية بسبب عسر الفوز بها في أسواق روسيا نفسها نتيجة الإقبال الشديد من قبل أناس هم الأكثر حبّاً للكتاب والأعظم نهماً للقراءة

Twitter: @alqareah

في كل من عرفت من الأمم بحيث تختفي من المكتبات كتب تُطبع بمئات ألوف النسخ بمجرّد صدورها لتساهم الأسعار البخسة في تأجيج هذه الحمّى. ولكن حرص السياسة الثقافية السوفييتية على حضور حضرة الكتاب (كرسول لروح الأمّة) في مكتبات كلّ عواصم منظومة الحلف أعانني في الحصول على تلك الكتب ذات القيمة الكلاسيكية في مكتبات وارسو أكثر ممّا استطعت أن أحصل عليه في مكتبات موسكو حيث تبلغ المنافسة ذروتها إلى حدٍّ لم أكن لأتمكّن من تجميع نواة كتبي في بداية السبعينيات لولا وجود مكتبات لبيع الكتب القيّمة بالعملات الصعبة، وهو ما يستعسر على المواطن السوفييتي: إنها نواة تلك المكتبة التي حشدت لها جيشاً حقيقياً لإدخالها إلى ليبيا والتي تركتها وديعةً عند أحد الأصدقاء لأترك معها قلبي رهينة. ووارسو إذا كانت على المستوى الدنيوي سدوماً وعمّورة، فإنها بالنسبة لمريد الكتاب الروسي فردوساً استطعت أن أحصد في مكتباته كنوزاً لم أكن لأحصل عليها في موسكو بسهولة، سيّما في تلك المرحلة التي سبقت المحنة الإقتصادية التي عصفت بالإمبراطورية، ممّا اضطرّ عشّاق الكتب لطرح مكتباتهم في الأسواق ليبيعوها بأبخس الأثمان. أمّا في تلك الفترة فمازال السوفييت يتباهون بتفنّنهم في صناعة الكتاب على نحوٍ حسدهم فيه الأصدقاء قبل الأعداء. وكم من مرة عبّر لي فيها أصدقاء بولنديين مثقّفين (أكاديميين وصحفيين وأدباء) عن اعترافهم بتفوّق السوفييت في هذا الحقل لا كمضمون وحسب، ولكن كفنٍّ أيضاً. وهو ما تشهد به تلك الطبعات

Twitter: @alqareah

الفاخرة للأعمال الكاملة لجلّ رموز الثقافة العالمية (الكلاسيكي منها والمعاصر) التي تبدو تحفاً حقيقيةً. لقد خذلت الأيديولوجيا الإنسان السوفييتي من خلال النظامين الشقيّين الإقتصادي والسياسي، ولكن هذا الإنسان لم يُهزم لأن الثقافة أنقذت روح هذا الإنسان من السقوط بالقدر نفسه الذي كانت له عزاءً زمن اغترابه في غياهب هيمنة الأيديولوجيا.

زمن المخاض استجرت بالكتاب ليغدو لي فردوساً بديلاً لتيهي الموجع في ليل الدنيا الطويل.

Twitter: @alqareah

14

في زمن المخاض هذا كانت تقنية التأديب قد دفعت بمجموعة «جرعة من دم» إلى الطباعة لتصدر في 1985، ثم أفلح الترويض في إنتاج «شجرة الرتم» لتصدر في العام التالي. لم تكن تلك تجربة عودة إلى الفردوس المفقود بعد تيهٍ استمرّ مايربو فعليا على عقدر كاملٍ من الزمن، بقدر ما كان تمهيداً لدخول حرمٍ جديد، لتحقيق ميلادٍ جديد، بفعل ترويض حرفيّ للنفس على حرّية لن تعني في الواقع سوى الموت. إماتة ممنهجة، بطيئة، ولكن عن سبق إصرارٍ وترصّد، لوجودٍ ذي طبيعة دنيوية، لتوليد كينونةٍ خفيّةٍ من رحم هذا الوجود **الحرفي**. وعندما أنعت حالي في تلك الأيام (بالجسد المشدود على كرسيّ قرينٍ بالمكتب عشر ساعات يومياً)، بالحضور على الصليب، أو بالرقبة التي تنتظر نصل الجلاّد، فلن يكون ذلك من قبيل المبالغة أو الإستعارة. لأن من جرّب الإنسلاخ من سجيّته الدنيوية الطاغية ليبعث نفسه في الروح وحده لن يستنكر التعبير عن هذه التجربة الدموية إذا قلنا أنها لا تختلف عن تجربة سلخ الشاة **دون** ذبحها!

إنه نداء النبوّة الخبيئة التي استودعها المعلم القديم (شكسبير) في قيعان الباطن تعلن عن نفسها في نزيفٍ فعليٍّ **للعرق والدمّ** الذي

Twitter: @alqareah

سيضع الحلم القديم بقول **كلمة الصحراء** موضع التنفيذ. إنه الفعل الأعسر لأنه الميلاد المركّب المشروط بارتياد الأبدية للعودة من هناك بوصية السلف التي تسكن الروح. إنه نزالٌ مع ذاكرة أخرى كامنة في بعد الخلود هي ذاكرة الروح التي لا تعترف بالزمن، ولهذا كانت الأعجوبة الوحيدة المخوّلة بالتفويض. وكسب ثقة هذا الوصيّ على روح الصحراء (التي هي مهد التكوين) هو ما يستدعي ركوب الهول!

ولم أكن أدري أثناء عنادي لإنجاز رواية «البئر» أنّي لا أسرد سيرة، ولكن السيرة هي التي تسردني لتكون لي في الرحلة إلى المجهول دليلاً. دليل في رحلة طويلة تجربة «البئر» فيها مجرّد كسر لِوزر القمقم الدنيوي، واكتشاف وجود الروح (الذي كان لغزاً منذ قليل) ليس نهاية المطاف.

كان لي الصوم الدائم عوناً في اجتياز العقبة الأولى، برغم ولولة الجسد في الدفاع عن النفس. ولشدّ أزرٍ يحقّق الحدّ الأدنى من التوازن بين القرينين حملت متاعي إلى جبال «كاربات» لارتياد مصحٍّ طبّي على الحدود التشيكية. متاعٌ كلّه «البئر» الذي نهلتُ من ينبوعه العزاء الوحيد القادر أن يبقي على قيد الحياة إنساناً قتل في نفسه الأمل في الحياة. فإمّا أن تحدث معجزة تعيد له الثقة في الحياة، أو يعدم الوجود في حياةٍ فقدت معنى الحياة. واكتشاف وجود سرٍّ إسمه **الروح** كان معجزةً حقيقيّة بالنسبة لمريد اليأس الذي أيقن بحضوره في عداد الأموات.

كان ذلك في مارس 1986 أي في فصل الربيع في واقع الشمال

Twitter: @alqareah

الذي لا يعترف بربيع التقويم، لأن لطبيعة الشمال تقويمها سيّما في الجبال. وبرغم قسوة الشمال، بيد أن الشموس أفلحت في كسر إرادة الجليد أخيراً فبدأ في الذوبان قبل مغادرتي بأيّام. لكن في الأيام الأولى هيمن العدم: عدمٌ في الطبيعة وعدمٌ في الوجدان. ليل الشمال المديد، وليلٌ في القلب. لم أكن في حاجة لترياق أطبّاء لا هَمَّ لهم سوى معاندة جسدٍ أرسلتُ به إلى الجحيم، بقدر ما كنت ظامئاً لترياق يشفي توق الروح إلى العافية، توق الروح إلى النقاهة من مرض إسمه الدنيا، توق الروح إلى ما لا بديل له: الحرية!

أستجير بالطبيعة الجبليّة الشمالية القاسية في نهاري، واحتكم إلى رحاب الباطن ليلاً. باطنٌ مازال عصيّاً في بداية العهد به ويغوي ويستدرج بفنون ما توحي به الذاكرة. والمثير ليس أن تكلّل الرحلة بالإكتشاف على مستوى الذّات، ولكن أن تُتوَّج على مستوى الموضوع أيضاً: فأيّة روح تكشّف عنها الحفر؟ إنها الروح ذات البعد المزدوج. روح **ذاتٍ** مغتربةٍ عن أرومةٍ تنتصب جوهراً لروحٍ أخرى تلعب دور **الموضوع** وهي الصحراء؛ تلك القارّة المغتربة عن العالم، برغم أنها الحرية الحاوية لسرّ العالم من خلال سكوتها على طلسم التكوين. وهو الإكتشاف الجسيم الذي سينتظر ميلاده الفعلي في تجربة «اللغة البدئية» ذات الحرف الساكن الواحد التي كانت همّ دهاة اللغات منذ الأزل، والتي لم يكن «بيان في لغة اللاهوت» (بأجزاءه السبعة) المنجز تالياً سوى مقدّمة في تفكيك حضورها في جلّ لغات العالم القديم. أمّا «البئر» فكانت في سبيل الحفريات الطويل مجرّد

Twitter: @alqareah

اقتراب من حقل الآثار الثريّ والخفيّ في قيعان يابسة لم تكن لتهرم وتتعرّى من طبيعتها الأولى لو لم تكن رقعة الأرض **الرائدة** في اليبوسة. وعندما أقول اقتراب فإنّما أعني التناول **الأفقي** في سرد سيرة هذا الكون الصحراوي المجهول قبل تخلّل المسالك المؤدّية إلى العمق في مسيرة تطوّر المنظومة التي ستمتلك بعداً رسالياً بفضل الإبحار في العمق بالذّات. وعلّ الطبيعة الواقعية لمبدأ الإقتراب هو ما فرض أن تولد رواية أخرى من كمّ الرواية الأولى على نحوٍ يمكن أن يستمرّ إلى ما لا نهاية لا بسبب الإمتثال لإغواء السرد فقط، ولكن لعلّة التعب الذي يتحدّث عنه حكيم الجامعة في الوصيّة المفاجئة: «لكتابة كتبٍ كثيرة لا نهاية، والعمل الكثير تعبٌ للجسد». وهو إغواءٌ عاندتُ سلطان سحره مراراً في أعمال تتعدّد فيها الأجزاء في مراحل تاريخية ومعرفية تالية.

وبطبيعة الحال فإنّ التحدّي الأوّل في رواية الصحراء هو كيفيّة التعبير عن واقع يغترب عن الواقع. واقع يفتقد شروط الواقع. واقعٌ خارج الواقع. واقعٌ لا يعترف بقوانين الواقع لسببٍ بسيطٍ وهو أنّه ليس بواقع، بل ليس ظلاًّ حتى لواقع. أي ما حقّ لنا أن نسمّيه: **العدم**! هذا العدم الذي كانت له الصحراء دوماً رديفاً حميماً. هذا العدم الذي كانت له الصحراء **تجسيداً** أرضيّاً يمكن الخروج في رحلة سياحية لزيارته مع ضمان العودة منه سالماً!

ولهذا فالتحدّي الأكبر هو كيفيّة ترجمة **ماهيّة** كون هو أمّ الكينونة برغم حضوره في بُعْدٍ مفقود بمقياس الكينونة؟ أو كيف التعبير بلغة

Twitter: @alqareah

الواقع عن واقع لا وجود له في الواقع إذا عاملنا الواقع بمعيار الواقع؟ سؤال فرض نفسه طوال معاندة روايات «الخسوف» الأربع وكان السبب الحقيقي في قطع النظر عن مواصلة السفر في هذه الوجهة **الأفقية** الذي كان من الممكن أن يتواصل في خماسية أو سداسية إلخ. ولكن قوانين **أركيولوجيا الروح** هي التي قضت بوجوب الإقلاع عو السفر في هذا الإتجاه وتحقيق المنعطف في «نزيف الحجر» ثمّ في «التبر» إنه المنعطف الذي حاول الإجابة على سؤال أقسى في سفر الأركيولوجيا هذه وهو: الصحراء إذا كانت تبدو **عدماً** حقّاً فالتعبير عن حقيقتها بلغة الكينونة هو ضربٌ من عبث. فتسعة أعشار من كيان وطنٍ إسمه الصحراء وجوده في البعد الغيبيّ لا في بُعْد الوجود. أي أنها ليست ظاهرة تخضع لناموس المكان والزمان، ولكنّها تحدٍّ سافر لهذا الناموس. كيف السبيل لتفكيك الأحجية إذاً؟

السبيل كان سفراً آخر. السبيل لم يولد بين يومٍ وليلة، ولكن بعد قطع شوط أبعد في سفر أركيولوجيا الروح. ولو لم تهرع **الأسطورة** لنجدة العدوس لما أفلح في قول كلمة الصحراء أبداً. ذلك أن الأسطورة لا يمكن استنطاقها إلاّ بلغة الأسطورة. وهو ما يعني بوجوب التسليم بحقيقة الصحراء كأسطورة. كحضور أسطوري مجسّد. الصحراء كيان غيبيّ لا يعترف بغير الأسطورة ديناً. وابتكار لغة **فوق واقعيّة** ضرورة أولى في أبجديّة السرد. ولكن أي سرد؟ السّرد الشعري بالطبع، وليس الدرامي وحسب: لماذا؟ لأن طبيعة الروح **كلّها وجدان**، ولهذا تملي النزعة الغنائية في التعبير. تملي

Twitter: @alqareah

التحليق في الفضاء بألف جناح، ولا تلامس الأسافل إلاّ بخفّة الطير.
أي إيحاءً! ومازاد الأمر تعقيداً هو اعتناق الحكم المسبق والإيمان به كمسلّمة. الحكم المسبق هو الخرافة القائلة بأنّ العمل الروائي عملٌ **عمرانيّ**، لأنه يعتمد أساساً على مبدأ **العلاقة**. وهو شرطٌ مفقودٌ في عالم الصحراء الذي تهيمن عليه الفطرة بديلاً للعلاقة. ويبدو أن غياب أدب درامي صحراوي ناجم عن هذه الفرضيّة. وهي فرضية تطرح سؤالاً: هل الروح الدراميّة قرينة المجتمع البشري، أم أنها تسكن لغزاً إسمه **الإنسان**؟

هنا كان على العدوس أن يلغي كل ما تعلّمه في معهد غوركي للآداب من نظريات عن الأدب ويعمد إلى محو داء خبيث إسمه المسلّمات، كي يضع حجر الأساس لأدب الصحراء، أو بالأصحّ لرواية الصحراء، سيّما الرواية ذات النفس الملحمي المتعدّدة الأجزاء، مستعيناً بروح الصحراء المبثوثة في لغة ترفرف بألف جناح، لأنها وحدها تستطيع أن تستجوب المجهول، بل وتستنطق البعد المفقود لكل ما يحفل به من أصوات قد يستنكرها الواقع كحرف، ولكن غموض الكينونة يأبى إلاّ أن يشهد لها في محفل عالمٍ ما نعلمه فيه مازال محدوداً، وما نجهله فيه مازال بلا حدود، وسوف يظلّ بلا حدود! والشحنة الشعرية التي تحفل بها لغة الأسطورة ليست حيلة لتسويق سلعة مشبوهة كما قد نتخيّل، ولكنها وثبة شجاعة لاقتطاف الثريّا من بعد المحال بسلطة مخيال دلّل في كلّ مرّة على قدرته في التفوّق على الواقع، ولغة البدايات (التي

Twitter: @alqareah

كانت الصحراء مهداً لها) هي التي توّجت الأسطورة كحليف لهذا المخيال ذي الألف جناح في كلمة «**إيميّان**» الدالّة على **المُهمَل** في تجربة الجنس البشري، أو **المنسيّ** الذي أسقطته ذاكرة الأجيال بفعل تدفّق الزمان.

الوِزر منذ الآن إذاً هو ابتكار طريقة يستطيع بموجبها هذا اللغز المسمّى إنساناً أن ينطق بلسان العدم أيضاً (الذي هو لسان الحرية) بعد أن رطن طويلاً بلسان العلاقة!

Twitter: @alqareah

15

نستطيع أن ننفي عن الصحراء طبيعة المكان فيما إذا احتكمنا إلى ناموس المكان الذي يملي ضرورة حضور المياه، ولكننا لا نملك الحقّ في تجريد الصحراء من حضور **الطبيعة** في المكان برغم اغتراب المكان في الصحراء كمكان. والطائفة التي تحاول أن تقنعنا اليوم بغياب **الحياة** في الصحراء إنّما تفعل لأمرٍ في نفس يعقوب، لأن تلك العقلية هي التي أوجدت المبرّر الذي أباح اقتراف الكبائر في حقّ الصحراء بفنون الإستباحة بوصفها فراغاً (أي **مشاعاً**) بلغ الذروة بجعلها حلبة لتجريب أسلحة الدمار الشامل كما فعل الإتحاد السوفييتي بصحراء كازاخستان، وفرنسا بالصحراء الكبرى، وأمريكا بصحراء نيفادا!

فمبدأ الحياة إذا غاب عن المكان فليس له أن يغيب عن حضور الطبيعة في المكان. واليابسة طبيعة حتّى لو حملت هوية **التجرّد** وتعرّت من الأسمال. وحتّى لو غاب الإنسان في ملكوت الحرية هذا فلن يكون ذلك غياباً للحياة بقطع النظر عن هويّة هذا اللغز كمقياس لكل الأشياء، وبقطع النظر عن حقيقته كغاية وجود الأشياء، سيّما إذا أيقنّا بأنّ هذا الإنسان لم يغب من ربوع الصحراء يوماً، كما لم تغب

Twitter: @alqareah

من رحابها النباتات ولا بقيّة الكائنات أيضاً. وندرة حضور الإنسان في عالم الصحراء أو شحّ النبوت في أرضها ليس حجّةً في نفي الحياة عن الصحراء ومعاملتها كفراغ يبيح ارتكاب الكبائر، لأن هذا الحزام المفتول من أنفاس الحرية الذي يطوّق العالم ليس مجرّد رئة للعالم، ولكنه روح العالم، لأن باليبوسة فقط نستطيع أن نحتفظ بروح الألوهة في العالم فهل نستطيع لحسم الجدل أن ننتهي إلى القول بأن الصحراء **مكان نسبي** ما دمنا ننكر عليها خصال المكان بسبب غياب شرط الحياة (وهو المياه)، ومادامت هي ترمي في وجوهنا بقفّاز التحدّي مجسّداً في حضور الطبيعة الذي تسوقه كبرهان؟ إنها تحاججنا باستحضار المكان مغلولاً بالشرط في حدّه الأدنى، ولكنّها بالمقابل تطرح أمامنا الحرية في حدودها القصوى فيستعير المكان هنا سيماءً رمزية. يغترب المكان ليلعب دوراً مجازياً في البرزخ المشرف على المجهول الذي سيزلزلنا وسيبعثنا من غيبوبة كنّا فيها نياماً فيما إذا حدّقنا فيه طويلاً. في هذه التجربة التي تميت جسداً لتحيي روحاً تنتظرنا تلك النبوءة التي كانت في الصحراء سليلة بيتها منذ الأزل. فالنبوءة إبنة حرية. النبوءة هي الإبنة الشرعية للمعبودة الأبدية: **الحرية!**

Twitter: @alqareah

16

الزمان سيرة أخرى لا تختلف في الإلتباس عندما يتعلّق الأمر بعلاقتها بالصحراء. فالزمن البرّي زمنٌ آخر. وهو إذا كان الساحر الذي يرى رسالته في أن يُظهر كل ما استتر، فإنه عرّى الصحراء حتّى من ورقة التوت، ولم يبق له إلاّ أن يعرّي فيها الروح بعد أن عرّى الجرم. ولكن سيرة التعرية هي ما غرّب الصحراء عن طبيعتها كمكان ليجعلها كلّها روحاً، ليجعل منها قارّةً ملفّقةً من روح. قارّة تسبح في محيطٍ من روح. وهو التحدّي الذي أعجز الزمان في الإبقاء على طبيعته كزمان في رحاب المملكة الصحراوية؛ لأن رسالة الزمان أن يبيد كل شيء بعد أن يكشف كل شيء، ولكنّه لم يُخلق كي يبيد الروح، سيّما إذا كان هو نفسه روح مكان: روح المكان الذي باد. من هنا تنازل الزمان عن كبريائه فتخلّى عن مسئوليته لأول مرّة: مسئوليّته في تبديد مكانٍ لم يعد مكاناً، ليتنكّر لطبيعته كزمان فينقلب في حضرة الصحراء خلوداً لا زماناً. ينقلب أبديّةً لا سيرورةً. فكيف تفلح المروية في أن تترجم هذه الأعجوبة؟ كيف يستطيع جناب اللسان وهو رهين كينونة أن يعبّر عن سجايا كيانٍ ذي حضورٍ في

Twitter: @alqareah

البعد المفقود، لا في بعدٍ ذي حضور في الوجود كما هو الحال مع مكانٍ مستكمل الخصال كمكان؟

اللغة سوف تقف عاجزةً بالطبع إزاء بطولة كهذه، لأن الوصيّة منذ الآن ليست التعبير عن وجود له خصال الكينونة، ولكن عن مجالٍ خارج نطاق الحدود، وخارج الزمن أيضاً. أي أنه خروجٌ لمنازلة **اللاشيء**. حرب لمعاندة **العدم** بسلاحٍ لم يُخلق للإستخدام في النزاع مع هذا الشبح، سيّما إذا كان إنسان هذا المكان المشكوك في هويّته كمكان (كما هو الحال مع الصحراء) شبحاً أيضاً، وإلاّ ماذا نسمّي إنساناً لا نستطيع أن نتيقّن من حضوره في مكان، ولا يتبدّى إلاّ ليتوارى مثله مثل أشباح الصحراء تماماً؟ أليس من الأنسب أن نستعير رطانة الجنّ لترجمة وجدانه؟

من هنا انتصب التحدّي الجديد: وجوب استحداث اللغة ذات القدرة على الطيران بألف جناح. وهي لن تكون سوى لغة الجنّ حقّاً. وما يمكن أن نسمّيه لغة الأسطورة هو في الواقع لسانٌ مستعارٌ من رطانة الجنّ! وأظنّ أن أهل الصحراء الكبرى لم يخطئوا عندما رأوا أنفسهم **أضيافاً طارئين** على أهل الصحراء الأصليّين المتمثّلين في سلالات الخفاء كما يطلقون عليهم، لأنهم بهذا اليقين إنّما يؤكّدون على الهويّة المشتركة مع من سبقهم إلى الجانب الآخر من البرزخ، التي لن تكون بالطبع سوى الهوية **الشبحيّة**، أو الروحية (نسبةً إلى الأرواح)، أي أسلافهم من أمم سبقتهم إلى مملكة الغيب ليكون الهوس بالعزلة هو قاسم الفريقين الأعظم وإلاّ لما كانت الصحاري

Twitter: @alqareah

جنّة الأشباح في كلّ الثقافات. ومن جرّب الحياة في الصحاري (سيّما الكبرى) وحده يستطيع أن يشهد بمدى عمق الإيمان بوحدة الكائنات التي تلعب فيها الأشباح دور البطولة دوماً إلى حدٍّ صاروا فيه في مسلك الناس اليومي لا أهل جوارٍ وحسب، ولكن شركاء أيضاً!

هذا الإيمان هو ما يمحو الحدود بين الواقع والخيال، بين المعلوم والمجهول، بين المستظهر والغيوب، بين الأصول والظلال، بين الجرم وشبح الجرم، بين الإنس والجنّ. إنه انهيار لكيان البرزخ بحيث تستعير الروح جسداً، وتتحرّر الروح من جسد لتغدو شبحاً. ولا يحدث هذا على مستوى الباديات وحسب، ولكن على مستوى الزمن أيضاً. فالحاضر يتواصل في الأبد، كما يقبل الماضي ليهيمن في الحاضر، بحيث تغترب الحدود التقليدية للمفاهيم، لأن الخلود منذ الآن هو السلطان على الوجود. إنه الواقع الذي يختلط فيه الحابل بالنابل فعلياً، لا مجازياً، بحيث يكون السؤال الوحيد المناسب الموجّه للمخلوق الذي نلتقيه في الصحراء هو: «**من أنت؟**» للتعبير عن الإستفهام عن الهوية أهي بدنيّة، أم روحيّة، أهي أنسيّة أم جنّية؟ وعلّ مصطلح «**الثقلين**» الوارد في القرآن كإسمٍ لهذين القرينين الحميمين (الإنس والجنّ) هو حكمٌ على هويّتهما كوزن، أي **كعبء** على أمّهما الأرض لا بالمعنى الإستعاري فقط، ولكن بالمفهوم الحرفي أيضاً. فليس الإنسان وحده الظلّ الذي يثقل كاهل الأرض كما يقول ديوغين الكلبي، ولكن الجنّ أيضاً يثقل كاهل الأرض عندما يتقمّص جسداً ليتنكّر لطبيعته **كحرّية**، لطبيعته

Twitter: @alqareah

كروح تسرح في فراغ البرّية. وهي وصيّة تؤكّد على قاسم هذين القطبين المشترك الذي يحكمهما .**فالظلّ** هويّة إنسانية أيضاً برغم أنها بالمنطق هويّة جنيّة، تماماً كما **الثقل** هويّة جنّية أيضاً برغم أنها بالمنطق هويّة إنسيّة.

لرصد عالم نصف دنيوي ونصف غيبيّ يصاب اللسان بالشلل. وإذا أخفق صاحب البيان في الإنسلال إلى ملكوت الحرية هذا فليس له أن يستعين بلسان الجنّ حرفاً، ولكن الإحتيال على الرطانة باستعمال النَّفَس الأسطوري. أي روح اللغة المترجمة في خطاب نصف أرضيّ ونصف ميتافيزيائيّ!

Twitter: @alqareah

17

لا أدري لماذا تعمل الأنظمة على حظر الخروج على الخصوم ومنعهم من السفر إذا كانت تستطيع أن تزجّ بهم في القمقم أو تجرّهم إلى ساحات القضاء لاستنزال القصاص. ولكن روح الشرّ التي تحكم العالم لا تعتمد المنطق، ولا تعتنق دين القوانين، بما فيها القوانين الظالمة التي تسنّها في التنكيل. فيومٌ مجيدٌ ذلك اليوم الذي ترى فيه الخصوم سجناء بدون سجن، ومدانون بدون ذنب. وهي نزعة ذات أرومة غيبيّة عبّر عنها موقف الفرعون من خروج العبرانيّين من أرض مصر. إنّها استماتة ميتافيزيائيّة تلك الإستماتة التي استخدمها سادة الزمان لاعتراض سبيل العبيد في فرارهم الجماعي. أي أن المبرّر هنا هو موقف السيادة كصاحبة ملكيّة في العلاقة مع عمالة مسخّرة لإدارة رأس المال. أي أن مقاومة الخروج في هذه الحال تستعير لا أخلاقيّتها من أسبابٍ نفعيّة، فلا تتحرّر من هذا الأسر هنا لتقع في أسرٍ آخر بابليّ هذه المرّة للأسباب النفعيّة ذاتها.

ناموس الأنظمة الإحتفاظ بأولي الألباب رهينة كأنّها تحاكي القدر الذي أوجدنا رهينة كينونة!

وأستطيع أن أفهم لماذا يمارس نظام الوطن مهنة الحظر على

Twitter: @alqareah

حرية تنقّلي كمواطن، ولكن ما لا أستطيع أن أفهمه هو: بأيّ حقّ يجرؤ النظام في بلدٍ أجنبيّ كبولندا على ممارسة الحجر ذاته على عدوسٍ لم يمارس نشاطاً يهدّد نظامه السياسي، ولم يقم بعمل من شأنه أن يلحق الضرر بمصالحه، وهو الذي لم يكن ليقبل المقام في دياره لولا هوسه بالحرية المكفولة بحرف الهوية الأجنبية! أيعقل أن تمتلك الأهواء سلطةً على القوانين في بلدٍ يتشدّق بالعلمانية فيفلح الدسّ الشخصيّ مثلاً لدى الأجهزة الأمنيّة في عمل ما أعجز عن عمله واقع القوانين؟ لم أكن لأنسى كيف استطاعت الوشاية أن تسمّم حياة الليبيّين زمن هيمنة الأجهزة فزجّت بالأبرياء في السجون أكثر ممّا فعلت الأجهزة السرّية، كما لم أكن لأنسى ما فعلته الوشاية بأبرياء الإتّحاد السوفييتي زمن الهيمنة الستالينيّة، ولم يخطر ببالي أن يفلح هذا الوباء في أن يجعل منّي ضحيّةً في بلد الأغراب الذي جئته يوماً مستشهداً بحسن النيّة متوهّماً وجود صداقة يمكن أن تقوم بين أممٍ منفيّةٍ في جبّ أنظمة شموليّة. تلك بالطبع كانت خطيئتي التي لم أغفرها لنفسي، برغم جهلي حتى اليوم بالمبرّر الذي يجيز إحلال العداوة مكان الصداقة حتّى لو لم توجد النيّة في هذه الصداقة. وهو ما يعني أنّي لم أكن لأستحقّ القصاص لو لم أحمل الأمر على محمل الجدّ، لأن روح هذا الجدّ هو ما كشف زيف صداقةٍ لم تكن في سياسة البلدين سوى الشعار! وما لاحظته في ذروة حمّى قيام حركة التضامن في بولندا وما صاحب إنقلاب ياروزيلسكي بعدها هو كيف تستشرس الأجهزة القمعيّة فترتكب كبائر أكبر، تعويضاً عن

Twitter: @alqareah

إحساسها بفقد السيطرة على الوضع الذي لن يعني في عرفها سوى إضاعة السلطة. لم ألحظ هذا في تجربة بولندا وحدها، ولكنّي لاحظت هذا في تجربة إنهيار الإمبراطورية السوفييتية أيضاً، أي في الزمن الذي أعقب البروسترويكا، وكذلك الزمن الذي رافق الإنهيار الرهيب بما في ذلك فترة الإنقلاب الفاشل الذي قاده سَدَنَة هذه الأجهزة بالذّات بدايةً بالقطب الـ كي جي بي مروراً بالداخليّة ونهايةً بالعسكر. وهو الدليل على فقد المؤسسة الإستخباراتية لصوابها إلى حدٍّ لا تعود تفرّق فيه بين الصديق والعدوّ.

هذا استوجب منّي التحرّر من الكابوس البولندي لا ليقيني بأنّ الأجهزة تضمر لي شرّاً (كما أفادني الأخيار) وحسب، ولكن تلبيةً لوسوسة حدس قوّمته التجربة مع الأجهزة الليبيّة قبل أن يلقّنه الأوائل بلزوم الحذر المبثوث في وصيّة «لا تثق بأحد!» ففي تلك المرّة تنكّرت لطبيعة الدروشة التي تسكنني كسجيّة أولى فكتمت أمر خروجي عن كل من عرفت. لم أستخدم الطيران، ولا القطارات، ولا أي نوع من المواصلات العموميّة المتوقّع أن أستعملها بحكم العادة إمعاناً في تضييع الأثر! إستخدمتُ وسيلة مواصلات خاصّة حتّى الحدود مع جمهوريّة روسيا البيضاء. هناك في تلك البيئة القاسية في 20 يناير من عام 1987، أي في ذروة فصل شتوي شمالي لا يرحم، قضيت ليلتي في فندق لا يبعد عن بوّابة الدخول لأراضي الإتّحاد سوى بضعة أمتار، عامداً أن يكون دخولي طارئاً، أي بدون حجز مسبق، تماماً كما في أفلام المغامرات، أو بالتحديد كما في

Twitter: @alqareah

رائعة أنطونيوني «المهنة صحفي» التي لا يتنكّر فيها البطل لطبيعته وحسب، ولكن لشخصيّته أيضاً!

ولكن يجب أن أعترف أنّي لم أكن سعيداً كما كنت في تلك الليلة. فبرغم نزيف الروح في حلفه مع نزيف الجسد، وبرغم وجود نصفي في وطن الخطر. ولكن طبيعة العدوس التي لا تستعيد نعيمها إلاّ في السفر كانت تهدهد إحساساً غامضاً بحضورٍ لم يكن له برزخ الحدود سوى الرمز، لأن السنوات الضائعة في باطل الماضي لم تكن مجرّد عمرٍ زال، ولكنّها الختام لحياةٍ كاملة دفنتها ورائي في تلك الليلة، وإذا كُتب لي أن أحيا مستقبلاً، فلن تكون تلك الحقبة بقيّةٌ من عمر، ولكنّها ستكون ميلاداً حقيقيّاً لا يمتّ بصلة للماضي الزائل!

في الصباح استيقضت مبكّراً كالعادة. كانت الظلمات ماتزال تلفّ صباح الشتاء الشمالي، ولكنّ السماء صافية، مرصّعة بحشود نجوم ذكّرتني بتظاهرات أكوان المجهول في سماء صحرائي العارية أبداً. ودّعت السائق الذي رافقني وعبرت البوّابة البولنديّة وحيداً. من هناك انطلقت نحو البوّابة السوفييتية مشياً. في الجانب الآخر انطلقت بسيّارة أخرى في الطريق البرّي الطويل نحو الشرق. خلف الأفق برز قرص الشمس فجأة ليفرش السبيل بفيض ذهبيّ سخيّ كأنّه بشارة خفيّة!

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

القسم الثالث

الميلاد

«ليس يسيراً أن نعثر على الكتاب الذي يستطيع أن يعلّمنا أكثر ممّا سيعلّمنا الكتاب الذي كتبناه بأنفسنا»

(نيتشة)

«باليقظة نحن نخطو في الحلم. ما نحن سوى أشباح الزمن الضائع»

(كافكا)

«كلّما أفلح العقل في اكتشاف حقيقة، كلّما حقّ له أن يحتفي بنصرٍ صغير»

(سانتايانا)

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

1

في امتداد شارع لينين الذي يخترق موسكو جنوباً عشرات الكيلومترات ليعتلي هضاب «فوروبيوفا» في الزمن القيصري، أي هضاب لينين بعد الثورة البلشفيّة، ثمّ هضاب «فورد بيوفا» مرّة أخرى عقب الثورة على الثورة التي كُتب لي في تلك العودة أن أكون لها شاهد العيان الذي تابعها عاماً بعام، شهراً بشهر، يوماً بيوم، غمضةً بغمضة. في نهايات هذا الشارع وجدتُ نفسي في البنيان المخصّص لسكن المراسلين الأجانب، والبعثات السياسية، المنتصب فوق البحيرة الإصطناعية الواقعة في نقطة التماس بين شارع «أبروتشيف» الفرعي وشارع لينين، والمجاورة للغابة المشرفة من جانبها الآخر على شارع «مكلوخيا مكلايا» الذي شهد حلولي ضيفاً على حاضرة الإمبراطورية في صيف عام 1970 لأعاند فيه الصقيع واللغة والكآبة كهبة طبيعية جاد بها الواقع البيئيّ الجديد. ففي فسحة المثلث الواقع بين البنيان والبحيرة والغابة استلقى الثلج في مساحة تقاطعت فيها الكثبان في سيوفٍ ناصعةٍ بكرٍ، لا تختلف عن سيوف الكثبان الرملية في صحرائي الكبرى إلاّ في اللون، في حين تتصاعد الذرّات في الفضاء كلّما هبّ الريح لتذكّرني بلهو ذرّات الرمال فوق شعاف الكثبان في عراء «زلاّف» في رقصةٍ وَجْدِيّةٍ تسطّر في الفراغ أنشودتها

Twitter: @alqareah

الخالدة عن **باطل الأباطيل** التي كانت لي هاجساً رافقني منذ الخروج الأوّل إلى تخوم الواحة التي افتتحت بها الجزء الأول من هذا البيان.

إنها سيرة الهباء تتكرّر من جديد. الهباء.. الناطق الرسمي بإسم ذلك العدم الذي لم يأتِ العدوس هذه المرّة كي يفرّ منه، ولكن لكي يجد معه لغة مشتركة إذا شاء أن يمثل في بلاط الفردوس المستعاد. العدم المترجم بحرف تلك الذرّة التي أمست عنواناً للفناء بقوانين الفيزياء أيضاً! والذرّة الثلجيّة كنواة عدميّة هو ما كان ينتظرني في تلك العودة لا في مجال الطبيعة وحسب، ولكن في عالم الروح أيضاً. وها هو «تانيزاكي» عميد السرد الروائي الياباني المعاصر يهرع بعمله الملحمي الفخم (حجماً وفحوىً) المعنوَن بـ«ذرّات الثلج» والمترجم للروسية للتوّ ليكون لي دليلاً في تأويل رحلتي الوجودية في ميتافيزياء الذرّة الثلجيّة في طبيعتها الجدليّة كتجربة بعثٍ رهين عدم. ففي ذلك العام اختار الشتاء الصيغة الذرّية دون صيَغ الثلج الأخرى، وشرع يهوي آناء الليل وأطراف النهار ليحيل المدينة الهائلة مسرحاً تهيمن فيه كثبان صحراء ناصعة لا تتجلّى فتنتها في النتيجة بقدر ما تتجلّى في السّبب. تتجلّى في الهطول العنيد، ذي النَّفَس الطويل، المجبول بطبعٍ هشٍّ، المشفوع بالقدرة على الإحتفاظ بخصاله السرّية في الصمود في وجه موجات الدفء، فلا يتضعضع أو يستسلم، بل يتراكم وينمو ليشيّد حصونه الباسلة التي تكتسح وتتمنّع فلا تفلح شموس الربيع في النيل من صمود كياناتها. إنّه نسيجٌ حثيثٌ وشجاع وغيبيّ في البرهنة على قدرة الذرّة في تنفيذ وصيّة المجهول القاضية بدفن الوجود حيّاً! إنّه كفن الطبيعة الرهيب الذي

Twitter: @alqareah

فتن العدوس دوماً كما لم يفتنه قرينه الرملي المسلّح بالذرّة أيضاً، برغم سطوته التي أهّلته لأن يدفن في جوفه حضارات أسلافه المتعاقبة فلا يترك حتّى الأثر. ولكن وسواس الإحساس حدّث فقال أن طريق البعث يمرّ عبر بوّابة العدم، والسبيل لاستعادة الفردوس المفقود يمرّ عبر سمّ الإبرة التي خيّط بها نسيج الكفن. فالظمأ إلى فردوسي الذي اغتربت عنه في دنيا الأنام طوال هذا الزمن كان أقوى من شبح الثلج. أقوى من شؤم الكفن. وها هو العدوس يقتحم نسيج الكفن. ها هو يتلحّف بالكفن: يذهب ليخلد للنوم مبكّراً كي يستيقظ لملاقاة الكفن في ظلمات الساعة الرابعة فجراً. ينزل البنيان الشامخ في ظلمات يبدّدها إنهمار ذرّات الكفن المتّصلة ليحيل لون السماء ورديّاً فاتناً بقدر ما يحيل الفراغ صقيعاً قاسياً. ينزل ليسلّم الأمر لجناب الكفن. ينزل المرتفع المغمور بالكثبان فيتلقّفه ساحل البحيرة الإصطناعيّة وقد استحالت مياهها قطعةً من جليد منذ غزوات الذرّة الأولى، فيطوف الشطآن قبل أن يعبر ليلج الغابة الملفوفة في ثنايا الكفن. والحقّ أن الكفن لا يحقّق لنفسه حضوراً كما يحقّقه في أشجار الغابة، فلا يبدو فاتناً ومغرياً كما يبدو وهو يحتال على يبيس الأغصان ليجلّلها بالأكفان. لا يبخل على الجذوع اللئيمة، الملساء، أيضاً بصنوف فنونه في تلفيقها ببصمة الأبديّة تلك كأنّ رسالته أن يزيّن الكفن، ويعيد له الإعتبار، ليقول للجبناء أن العدم أيضاً فتنة! العدم أيضاً جمال! العدم أيضاً حرّية! وحضور الحرية وحده يكفي كي يجعل منه ميلاداً لا فناءً!

Twitter: @alqareah

2

موسكو في 1987 ليست هي موسكو 1970. فالمدن التي نهجرها لا تعترف بنا عندما نعود إليها كالنساء تماماً. إنّها تتنكّر لنا باعتبارنا خونة، فلا ترحّب بنا، بل تعادينا. إنها لا تفقد حميميّتها أو شعريّتها وحسب، ولكنّها تفقد أريحيّتها، بل روحها، فتعبس في وجوهنا. وهو موقفٌ كافٍ كي يتضاعف اغترابنا طوال حضورنا فيها. فالأمكنة تتجرّد من سحر الزمن الضائع، والزمان نفسه يتعرّى من رومانسيّته. كل شيء يقف شهادةً على الفقد: المكان والزمان وفحوى هذين القطبين أيضاً المتمثّلة في أهل المكان والزمان. فالعلاقات بين هذه الفحوى تتزيّف أيضاً وتفقد عفويّتها، لأن ورم كالنفع لابدّ أن يبتذل العلاقة كلّما تقدّم الزمان إلى أمام. التقاليد الثقافية أيضاً لا تسلم من البلبلة، لأن الثقافة عدوٌّ أوّل في ناموس الروح النفعيّة. لم يعد الفرسان القدامى يتّخذون من مقهى فندق إنتوريست منتدىً أدبيّاً كما في السبعينيات، ولم يعد أقطاب الأدب الروسي يلتئمون في «بيت الأدباء» المجاور لمعهد غوركي، ولم يعد معهد غوركي معبداً أدبيّاً كما في الماضي. حتّى الجمهور الذي احترف ارتياد هياكل الروح الكبرى (مثل مسرح البولشوي، أو تاغانكا، أو المعارض الفنّية

Twitter: @alqareah

الدائمة مثل «تريتيكو فسكايا غاليري»، او معرض بوشكين، أو غيرها) لم يعد يرتادها الجمهور المعني حقّاً بفاكهة الروح، لأن البولشوي نفسه اغترب عن البولشوي، كما اغترب مسرح تاغانكا عن مسرح تاغانكا، كما اغترب كلّ شيء عن كلّ شيء! وأحسب أن هذا الإنحطاط في الواقع الثقافي كان نذيراً للإنهيار المنتظر الذي بدأ يلوح في الأفق الثقافي قبل أن تبشّر به سياسة غورباتشوف عن «أوسكارينييه» (أي التسريع في وتيرة الإنتاج الإقتصادي) التي انتهت إلى فشل ذريع مع وصولي إلى موسكو ليستبدلها بسياسة «البريسترويكا» التي أتت بأجل أطلانطيدا العصر الحديث في أمدٍ قصير لم يزد على الأربع سنوات.

فروح اللامبالاة التي صارت علّة المجتمع السوفييتّي على المستويين الثقافي والأخلاقي رافقتها (وربّما أنتجتها) مفارقة على المستوى الإقتصادي بالمقارنة مع مرحلة السبعينيات عندما كانت الوفرة في النظام الإقتصادي الغذائي أعلى في تلك المرحلة يقابلها الندرة في النظام الإقتصادي الصناعي كالألبسة أو المستحضرات الإصطناعية بأنواعها. في حين حدث العكس في مرحلة الثمانينيّات. الخلاصة في أفيون الشعوب الحقيقي: **الخبز!** هذا الخبز الذي اشترى به النظام البلشفي حرية الإنسان الروسي يوماً، صار اليوم هو السرّ الذي سحب البساط من تحت كيان الإمبراطورية بعد هيمنة دامت ثلاثة أرباع القرن. فالخبز هنا هو فأرة سدّ مأرب!

ففي هذا العام بدأ غورباتشوف حملته في سبيل إطلاق سراح

Twitter: @alqareah

الإقتصاد المغلول بأصفاد الجمود في نظريّة ماركسية لينينيّة ماتزال مكبّلةً بروح ستالين برغم حركة خروتشوف التي نالت العصب السياسي في النظام وأهملت الشقّ الإقتصادي ممّا يسّر على كهنة الأيديولوجيا وأدها في مهدها. وها هي البريسترويكا تفلح أخيراً في تعليق الجرس في رقبة القطّة بافتتاح أوّل محل خاص لم تشهد رحاب الإمبراطورية له مثيلاً منذ عشرينيّات القرن زمن ما عُرف بـ(نيب) أي «السياسة الإقتصادية الجديدة» التي أباحت القطاع الخاصّ لأمد لم يدم طويلاً. وها هم زملائي من الصحفيّين الأجانب المعتمدين بالإتّحاد (الغربيين تحديدا) يهرعون إلى ذلك المحل المتواضع (الواقع بالقرب من وزارة الخارجية ومن المركز الإعلامي السوفييتي المخصّص للمؤتمرات الصحفيّة) ليشبعوا الزبائن وصاحب المطعم استجواباً وتحقيقاً وتصويراً إحتفاءً بانتصار إقتصاد السوق وترحيباً بعودة الإبن الضالّ إلى محراب النظام الرأسمالي بعد تيه إستغرق سبعة عقود!

والمثير ليس أن يولي المراسلون الأجانب مثل هذا الإهتمام الإستثنائي لحدث يمكن أن يكون صبيانيّاً لو لم تكن أنظار العالم كلّها موجّهة آنذاك لما يحدث وراء الستار الحديدي، ولكن المثير حقّاً أن يصدّق زعيم أقوى امبراطورية في العالم آنذاك قيمة ما فعل فنراه بعد يومين يذهب شخصيّاً ليتناول وجبة في ذلك المطعم الشقيّ مؤكّداً بهذا الدلالة الرمزيّة للحدث، وليحتفل بفوزه الصغير على أخطبوط أعداء البريسترويكا. وكان من الطبيعي أن تتحوّل تلك

Twitter: @alqareah

الزنزانة الخانقة إلى قدس أقداس يحجّ إليه كل من هدهد في القلب حلم التغيير، كأنّ ارتياده وتناول وجبة في رحابه هو حصولٌ على شهادة براءة، أو دخولٌ إلى فردوس، لأن الخبز المعجون بروح حرية السوق يهب الإحساس بالسعادة كقوتٍ حيّ، في مقابل خبز يبدو ميّتاً في ظلّ السوق الموجّه!

إنه هوس الإنسان بوجودٍ مسكونٍ بالرموز، وهوس الأقدار في اللهو بدميةٍ إسمها الإنسان!

Twitter: @alqareah

3

سنوات الميلاد لم تكن بعثاً وحسب، ولكنّها كانت تجربة تكوين. التكوين ذي الأبعاد الثلاثة التي يحاول كلّ مريد أن يجيب فيها على سؤال الهوية غيبيّاً ووجودياً وثقافياً. وهو ما لم يكن ليتحقّق بدون حصول على تفويض من جناب اللغة. هذه اللغة التي شهدت في مسيرة العدوس اغتراباً مركّباً بقطع الصلة مع اللغة الأمّ منذ النزوح إلى حاضرة واحات جنوب الوطن في 1963م، لينقطع حبل العلاقة مع اللغة المكتسبة الأولى (العربية) منذ الهجرة إلى أوروبا في 1970. وهو ما يعني أن هذه اللغة المكتسبة منذ 1958 (وهو تاريخ الفرار من الصحراء) والتي أُستُخدمت في المحاولات الأدبية المتواضعة منذ 1966 تحديداً (وهو تاريخ النشر) لتحدث القطيعة معها بعد ثماني سنوات فقط من تاريخ اكتسابها لتبدأ الرحلة مع اللغة المكتسبة الثانية (الروسية) منذ 1970 لتقتحم حرم الأخيرة لغتان هما الإنجليزية التي خضعت لعملية تأهيل أعوام الدراسة بمعهد غوركي في دورات دراسية مسائية، ثمّ تدخّل البولندية منذ عام 1979 كلسانٍ خامس، لتظلّ الألمانية حلماً مجهولاً مؤجّلاً منذ الطفولة قبل أن يتحقّق مع حلول الدياسبورا التالية إلى سويسرا نهاية 1992 مطلع

Twitter: @alqareah

1993، لتكون الإسبانية تالياً في سفر العدوس اللغة السابعة التي فرضت نفسها ولم يحسب لها حساباً. أمّا اللاتينيّة فكانت بمثابة قرون الإستشعار التي اهتدى بها طوال السفر، وهو ما لم يخطر على بال يوم تلقّاها تلقيناً من منهج السنة الأولى في كلية الآداب بجامعة الصداقة قبل أن يتخلّى عن هذه الكلية ويستبدلها بمعهد غوركي. وأهمّيتها في هويّتها كدليل لسليل أوليس في رحلة أوليس عبر هذا المحفل البابلي المبلبل برطانات أمم لا تطوّع اللسان، ولا تغذّي الذاكرة، بقدر ما تروّض الروح. هذه العملية الترويضية التي لعبت دوراً في فكّ طلسمان لغات العالم القديم كالمصرية القديمة واليونانية القديمة والسومرية واللغات ذات الأرومة اللاتينية، وهو العمل الذي ساعد في **اكتشاف** ما أطلقت عليه إسم **اللغة البدئية** في بياني المتعدّد الأجزاء عن لغة اللاهوت في السنوات التالية. وهو اكتشافٌ ذي طبيعة مزدوجة في الواقع. فالإهتداء إلى لغة خفيّة خبيئة تسكن جلّ اللغات ذات حرفٍ ساكنٍ واحد، ذات سجيّة **حسّية** عصيّة الدلالات، صاحبه إهتداءٌ آخر في العمق باكتشاف **لغة الروح** الكامنة في قيعان كلّ لغة. ويجب أن أعترف بأن الفضل في استعادة العلاقة مع اللغة العربية (وهي لغة مكتسبة) إنّما يرجع إلى اكتشاف لغة الروح هذه. وهو برهانٌ على صواب وصيّة القدّيس أوغسطين عن قدرة الروح على قهر الزمن. فالروح مجهولٌ بلا قاع يتكتّم على منظومة لا علم لنا بها ولا نستطيع أن نتخيّلها ليس الضمير أو الحدس أو النبوءة كلّ مؤهّلاتها، ولكن ماخفي فيها دوماً هو الأعظم. والإستنطاق الطويل

Twitter: @alqareah

والمميت لهذا الصلد لم يعنّي على استعادة اللغة الضائعة وحسب، ولكنّه لقّنني اللغة التي يجب أن أعترف بأنّي لم أؤتَ بها علماً يوماً فكانت تكتبني هي لا أنا من يكتبها كأنّي بها اللغة التي يقول عنها هايديغر أنها هي التي تتكلّمنا لا نحن من يتكلّمها! لغة لم أعرفها في نفسي، ولا عهد لي بها، كأنّها مستعارة من ذاكرة أخرى كانت غنيمة نسيانٍ غيبيّ مريب، كأنّ مخلوقاً آخر يسكنني ويكتب بالإنابة عنّي!

فهل يكفي أن نقول أنّها لغة الروح، أم يجب أن نضيف فنقول أنّها **روح اللغة؟!**

فإذا آمنّا بأنّنا نسكن اللغة كما تسكننا اللغة، فليس لنا أن ننكر وجود روح أخرى أعظم شأناً تسكن هذه اللغة التي تسكننا وهي: **روح الله!**

إنها روح الكينونة الحاملة لرسالة النبوّة التي إذا أعجزت مريد الحقيقة فليس له أن يأمل في ترجمة التجربة الروحية.

Twitter: @alqareah

4

محنة اللغة إحدى إفرازات تحدّيات الهوية في أبعادها الثلاثة التي يتصدّرها البعد الغيبيّ بالطبع. فماهيّة الـ homo sapiens هي فحوى الوعي منذ مغامرة الوجود الأولى. وليس مصادفةً أن تكون هذه الماهية هَمّ العقل في شطحاته الوجدية البدئية، وليس عبثاً أيضاً أن يكون هذا الهوس بحقيقة هذه الهوية هو العلّة التي أوجدت الفنون أصلاً، والهوية الدينية للإبداع أكبر دليل على هذا. هوية تتجلّى في ميلاد الفنّ من رحم العبادة. ففي البيئة الصحراوية وحدها مازال الفنّ مرويّاً بالروح الصوفيّة إلى اليوم. يرجع الفضل في ذلك إلى طبيعة الصحراء التي إذا كانت تتصحّر وتتبدّل بيئيّاً بيد أن فحوى الأشياء فيها لا تتغيّر. يرجع الفضل في هذا لطبيعة الزمن الصحراوي المشفوع بالروح الأبدية. فالأغنية تتطهّر من نزعة دنيوية كالطرب لتستعير بُعْد الحنين الوجدي إلى ما تسمّيه عقيدة مصر القديمة «منتوّ» التي تعني في اللغتين الأرومة الألوهيّة. ولا تقتصر روح الإنشاد على اللحون، ولكنّها تهيمن على المرويات لتشحنها بروح شعرية غنائية ملحمية أيضاً. أمّا الرقص فمازال أداءً طقسيّاً كما ورثه الأخلاف عن أسلافهم على النحو المزبور على جدران كهوف الصحراء منذ ألوف

Twitter: @alqareah

الأعوام. وهذه الروح الشجنيّة أو الوجدية أو الغنائيّة ليست هوية فنون وحسب، ولكنّها انتقلت إلى المسلك اليومي لتغدو وسماً عامّاً. إنه نوعٌ من بثّ روح الشعر في روح النثر. أو حقن النشاط الدنيوي البليد بأنفاس الخلود كحيلة وحيدة لجعل الوجود محتملاً!

وأوّل حرف في أبجدية التحدّي الذي سيواجه العدوس منذ الآن هو كيفية استعادة واقع هويّة مغتربة عن الواقع منذ آلاف السنين بفعل أناس غير معنيّين بهذا الواقع، بل ومعادون له برغم أنهم هم من يتولّى أمره حاضراً، بحيث يفعلون كل ما بالوسع لمحو أثره من خارطة الوجود، فلا يكتفون بهذا، ولكنّهم لن يألوا جهداً في تزوير هوية أهله الأصليّين التي صارت منذ الآن أقليّة، لكي يطيب لهم تزييف روح المكان أيضاً بعد أن أفلحوا في تزييف حرف المكان.

فالرسالة إذاً هي بعث روح الوطن من براثن المنفى التاريخي، واستعادة الأصالة المفقودة بفعل حملات التجنّي على حقيقته طوال عصور. فما يجب الإعتراف به هو أن الغزوة الدينية أيضاً غزوة ثقافية لا تتردّد في البطش بهويّة المغلوب من خلال فرض أدبيّاتها الدينية بهدف كتم أنفاس الديانة السابقة عليها ليتمّ بذلك طمس أحد أهمّ مكوّنات الهوية (لأن الديانة رافدٌ أوّل في أبجديّة الروح) تمهيداً للبطش بكيان الأمّة. فغزوات ما قبل التاريخ من يونانية وفينيقية ورومانية لن تختلف عن غزوات ما بعد التاريخ كالإسلامية أو الهلالية أو التركية أو الإيطالية، لأنها كلّها غزوات تستهدف الهويّة

Twitter: @alqareah

الثقافية لأمّة الصحراء الكبرى التي لم يكن شمال إفريقيا كلّه مجرّد امتداد طبيعي لها، ولكنه عمقها الثقافي أيضاً، بل ووصيّته الروحية.

والتأويل يعجز إزاء الحساسية العدوانية المفرطة التي يعادي بها سكان شمال إفريقيا الوافدين هويّة أهل الوطن الأصليّين من دون كل أمم العالم الدخيلة على شعوب أصيلة. فهؤلاء مازالوا يواصلون قرصنة بدأت منذ غزوات الفتح الأولى لتبلغ الذروة زمن الهوس بما سمّي بالبعث القومي لتكون الأقليّات ضحيّتها كأنّها هي المذنبة في أزمنة الإنحطاط وليس قوى إستعمارية إستيطانية سواء أكانت هذه القوى تعتنق ديناً مختلفاً أو ديناً مشتركاً كما هو الحال مع الإستعمار العثماني. لقد مارست هذه الأيديولوجيا سياسةً عنصريّةً بكلّ المقاييس ضدّ الأقلّيات الثقافية طوال القرن العشرين ظنّاً منها أنها تشكّل خطراً خفيّاً على وجودها، وليس أدلّ على ذلك من نزعة مازالت سائدة في الأوساط الثقافية (إلى جانب الأساط السياسية) تتّهم الأقلّيات بلعب دور حصان طروادة المخوّل بتفتيت المعبودة الخرافية (الوحدة العربية) تلك العنقاء التي لم توجد يوماً، وأشكّ أن يكون لها وجود في المستقبل.

وها هو التعصّب يبلغ ببلدٍ كليبيا حدّاً شجّع على تدمير تراثٍ إنسانيّ يرجع في تاريخه إلى مراحل التكوين مترجماً في موقف النظام المشبوه من جريمة تخريب رسوم أكاكوس عمداً بإطلاق سراح الفاعل الذي لم يكن في الواقع سوى رسول هذه العقلية الهمجيّة في العلاقة مع الآخر قبل أن يكون مجرّد دسيسة تقوم بتنفيذ مشيئة نظام.

Twitter: @alqareah

وبوسعنا أن نتخيّل مدى عمق الدراما يوم أقبل فوج السياح من كل العالم ليحلّوا أضيافاً في محفل أقدم مغامرة إنسانية للتعبير عن الإحساس بحضور الجمال، فإذا بهم يجدون أنفسهم في حضرة المذبحة التي ارتُكبت في وصايا هؤلاء الأسلاف! لقد كان ذلك اليوم طقس حداد في حياة هؤلاء الرسل كفيل بأن يجعل الحدث وصمة عار في جبين لا الليبيين وحدهم، ولكن في جبين المنظّمات الأممية (كاليونسكو) التي بخلت باستصدار بيان إستنكار في حين أقامت الدنيا ولم تقعدها يوم فجّرت عقليّة مثيلة تمثال بوذا في أفغانستان!

ولكن الإستهانة بهويّة إنسان شمال إفريقيا تقليدٌ مستعارٌ من الإستهانة بإنسان شمال إفريقيا زمن الغزوات الإستيطانية التي اتّخذت الديانة ذريعة لتزكية هذه الحملات الإستيطانية. وهو عملٌ لم يُلحق الضرر بأبسط النواميس الأخلاقيّة وحسب، ولكنّه استباح حرمة الدين أيضاً. هذا الدين الذي جاءت الحملات لتكون له بشيراً. وإلاّ ماذا نسمّي تجنيد أبناء الأوطان في صفوف الجيوش الغازية والزجّ بهم في الصفوف الأمامية ليكونوا طعاماً لحِراب أبناء جلدتهم برغم اعتناقهم للديانة الجديدة؟ ليس هذا وحسب، ولكن ماذا نسمّي إجبار القوم على دفع الجزية حتّى بعد اعتناقهم للإسلام إن لم تصبح الغنائم هي غاية الغزوات ليغدو الدين في الحملات مجرّد ذريعة؟ ليس هذا وحسب، ولكن الغزاة لا يكتفون بكلّ هذا، ولكنّهم دأبوا على إجبار إخوتهم الجدد في الدين على دفع ذرّيتهم إذا أعجزهم دفع تلك المكوس المحرّمة في عرف الدين وهي الجزية؟

Twitter: @alqareah

إنها النزعة اللاإنسانية للحروب حتى لو كانت في سبيل إعلاء شأن رسالة ألوهية، لأن الغزوة الدينية هنا لن تختلف عن الثورة الشعبية حيث يسود دينان في الواقع لا الدين الواحد: دين القيمة، ودين الغنيمة. يهلك مريد القيمة في سبيل العدالة (عدالة أرضيّة في حال الثورات، وعدالة سماوية في حال الغزوة الدينيّة) لكي يجني مريد الغنيمة ثمار التضحية. وها هو الخليفة الوحيد الذي ورث روح الفاروق عمر بن الخطّاب (وهو عمر بن عبد العزيز) يؤكّد هذه الحقيقة يوم أقبل عليه وفد أهل شمال إفريقيا يشتكون الجور فحكّم شرع الدين في حقّهم قائلاً: «لم يأتِ محمّد جابياً، ولكنّه أتى هادياً!»، وكانت النتيجة أن أجهز عليه أهل الغنيمة بالسمّ؛ ليكون يوم الإغتراب ذاك حداداً على روح القيمة التي استشهدت على يد أهل الغنيمة كما حدث مراراً في رحلة الديانات السماوية نحو الحقيقة، وكما حدث أيضاً في مسير الثورات الأرضيّة، كأنّ هذا الإنتصار لم يكن ليُتوّج لولا تدخّل مشية خفيّة لحكمة خفيّة كُتب على الأجيال الظامئة إلى الحقيقة ألاّ يحيطوا بها علماً إلى الأبد!

وهكذا هيمنت عقلية الغنيمة على التاريخ تالياً لتستقيم في عقيدة دنيوية تنتج الحملات العنصرية ضدّ رموز إنسانية أبدعتها هوية ثقافية صحراوية ثريّة ومغتربة فلا تكتفي هذه العقيدة بتدمير الآثار، ولا بنبش الأضرحة، ولا بإبادة المومياءات المكتشفة في مناطق مختلفة، ولكنّها سعت لاجتثات اللغة ذاتها ونفيها من اللسان المتداول، وهي تدري أنها بهذا العمل إنّما تقوم بعمليّة **تطهير عرقي حقيقي** في بعده

Twitter: @alqareah

الحرفيّ أيضاً لا المجازي وحسب مادام وجود الإنسان رهينٌ بوجود هذا اللسان.

إنها الحملة التي ألهمتني الرواية التي كانت بحقّ منعطفاً صعباً وهي: «نزيف الحجر». وهي الرواية التي لم تكن لتولد لولا وجود شرر قدح به زند مثلها مثل أيّ عمل أدبيّ مجبول بالشهادة الوحيدة المخوّلة بأن تخلق من الأدب أدباً (وهي الأسطورة). ففي إحدى رحلاتي التقليدية إلى صحراء «مساك سطّفتْ» ذات التاريخ الأقدم من كلّ تاريخ كنت شاهد عيان على مذبحة أخرى عبّرت بعمق رمزي عن مدى الحقد الذي تكنّه بعض الأمم الدخيلة إزاء أمجاد أمم أخرى أصيلة. حقدٌ لا نملك إلاّ أن نرجعه إلى أمراض نفسية (كعُقد النقص) عندما يعجزنا تأويله بالمنطق. والواقع أن خروجي إلى تلك الصحراء هذه المرّة لم يكن لتأدية فروض الصلاة التقليدية في حرمها، لكن تلبيةً لنداء بعض الأخيار الذين حدّثوني عن إحدى الوصايا الموروثة عن السلف أثخنتها أيدي الأشرار بالجراح، فرأيت عيادتها تأديةً لواجب: هناك في فردوس العزلة والصمت والعريّ البكر الذي يبدو أنه استنزل من البعد المجهول للتوّ هيمن الزمان الخالد مستحضراً أعجوبة الروح حتى تكاد تتجسّد فتنطق بالبيان عن سرّ التكوين برغم نزيف ملايين السنين؛ في هذا الكون ذي العمق الغيبي إختطّ الأوائل رسائلهم على الصلد مسربلةً بالحنين والأشجان والأشعار برهاناً على وجود وتعبيراً على لهفة الإنسان إلى توطين البصمة الدالّة على الخلود دون أن يتوهّموا أن قابيل الزمان سوف يقبل في ما سيأتي من أيام ليرتكب في حقّهم الجرم الأبدي في

Twitter: @alqareah

محاولة لقتل الحلم. وها هي روح قابيل ترش الوصية المزبورة على الصلد بوابلٍ من الرصاص من بندقيّة سريعة الطلقات في نيّةٍ لنحر التاريخ المكتوب بأنفاس الضحيّة الأبدية هابيل.

لم تطرح هذه الحادثة الموجعة مسألة وجود جلّادٍ أبديّ (قابيل) وضحيّة أبدية (هابيل) في مسرح التجربة البشرية وحسب، ولكنها أيقظت في نفس العدوس قضيّةً أعظم شأناً ذات صلة بهويّة القربان. القربان المقدّس، وقرينه القربان المدنّس. فالربّ لم يتقبّل قربان هابيل ويرفض قربان قابيل لولا وجود سببٍ ذي بُعْدٍ دينيّ عميق. وهو سبب تفسّره هوية الأخوين المهنيّة شكلاً وتؤكّده هويّتهما الروحية موضوعاً. فقربان الراعي هابيل قربانٌ أفضل في نظر الربّ لأن الراعي إنسانٌ **راحل**. والرحيل **حرّية** لا بالمعنى الحرفيّ وحسب، ولكن بالدلالة المطلقة أيضاً، أي الحرية كرديف للموت. والموت هنا آخر كلمة يمكن أن تقال في سيرة القربان كتضحية. تضحية الإنسان بوجوده قيد الوجود يجب أن يرتضي قدره كقربان مؤجّل. أي أنه قانعٌ بنفسه كنذر ينتظر حلول الأجل. خيار القربَنة هذا هو خيار **حرية** في نهاية المطاف يقابله خيار **الملكية** الذي يمثّله قابيل بوصفه الحامل لجرثومة دنيوية هي الإستقرار. أي خيار الجمود في مقابل خيار الرحيل كطلب، أو سفر بحثاً عن الله. ولهذا فطلب هابيل قدس أقداس وركون قابيل دنس أدناس. ومن الطبيعي أن يفضّل الربّ قربان مريد الحرية ويرفض أضحية الدنس. ولهذا السبب لم تطرح «نزيف الحجر» قضية صارت بعد سنوات من نشر تلك الرواية قضيّة الساعة وهي البيئة فقط، ولكنها طرحت مسألة **الإنقسام**

Twitter: @alqareah

التراجيدي للجنس البشري منذ التكوين إلى فريقين من طينتين مختلفتين تماماً ليكون هذا الإنقسام هو الحلقة المفقودة في تاريخ الجنس البشري إلى اليوم. هذا برغم أن الأغلبية النقدية أرجعت نجاح هذا العمل في الغرب إلى قضية البيئة، بيد أن دراما القربان بطبيعته الجدلية والغيبيّة هو ما غاب عن النقد الأدبي كعادة هذا المجال دوماً. فهو يجتهد كثيراً ولكنّه لا يصيب الهدف أبداً. إنه يقترب من عرين التنّين، ويحوم حول مربط الفرس، ولكنه لا يلبث أن يعود من منتصف الطريق. فالرواية الحقيقية لابدّ أن تتعدّد في الأبعاد كما تفرض الروح الملحمية فلا تكتفي بطرح قضية موقع الإنسان في العلاقة مع الطبيعة، ولكنها تضيف إلى الدراما فصلاً آخر عندما تطرح **عزلة** الإنسان خارج نظام **وحدة الكائنات**. ولكن ما لا يخطر على بال النقد هو الفرق بين النوايا المعلنة كمجرّد حُجّة، وبين النوايا الخبيئة في التجربة السردية. ليس النوايا التي يخفيها الروائي، ولكن النوايا الغيبيّة التي لا تكتفي بالتشبّث بقيعان الباطن اللاواعي، ولكنّها تأبى إلاّ أن تكتب نفسها وتؤكّد حضورها خارج سياق السرد ورغم مشيئة الرواية. أي ما راقني أن أسمّيه دوماً **البُعْد المفقود** وما يحويه عالم هذا البعد من كنوز ومتاع. وسلعة البعد المفقود في «نزيف الحجر» هي سلعة **دينية** أكثر ممّا هي هويّة وجودية، ولو لم يكن الأمر كذلك لما كانت قضيّة القربان الجدير بمباركة الربّ حجر الزاوية في وقوع أوّل جريمة في التاريخ.

Twitter: @alqareah

5

الإحساس بقدر هابيل رافقني طوال رحلة إستعادة الفردوس المفقود. فالنّهم لاسترجاع الهويّة الطبيعية كان طاغياً إلى حدٍّ قرّرت فيه دراسة الفيزياء بعد أن أنهكتني معاندة قرينتها الميتافيزياء. ليس هذا وحسب، ولكن الظمأ إلى هذه الأمّ الرؤوم دفعني لارتياد مكتبة لينين بحثاً عمّا يمكن أن يشفي غليلي في علمٍ لم يخطر لي على بال وهو البستَنة، لأعلم تالياً كم هو ماردٌ قادرٌ على تيسير مهمّتي الروائيّة، سيّما بكلّ ما متّ بصلة لرموز الطبيعة الصحراوية من أعشابٍ وأشجارٍ برّية وغيرها. لقد كانت تلك المغامرة تنصّلاً حقيقيّاً من ذات، واكتساباً لذات أخرى بديلة. هذا كان كافياً لأجد نفسي في عالمٍ آخر لا صلة له بواقع العصر، أو واقع الزمن، ولكنه وجودٌ في ذاكرة الزمن.

فالدنيا منذ الآن لم تعد أياماً ثلاثة، ولكنها انقلبت يوماً واحداً يتواصل فيه الأمس باليوم بالغد ليكوّن هذا الثالوث الكلاسيكيّ روح الزمن الذي نسمّيه بلغة الدنيا خلوداً. السعادة هي الإحساس بالحضور في روح الزمن، أي في بعد الزمان الأبديّ. فاللغة مازالت تعجز عن قول حقيقة ما حدث حتّى بعد مرور العقد الثالث على تلك التجربة

Twitter: @alqareah

المميتة، لأن بالحضور في الموت وحسب نستطيع أن نبطل مفعول هذا الغول لننفي ما نسمّيه فناءً من معجم اللغة. لأن ما لا وجود له في الموت هو أشدّ ما نخافه في الموت وهو ليس الموت، ولكنه شبح الموت، أو بعبع الخوف من الموت. هنا يولد **الإنسان بدون خصال** الذي يرتئيه روبرت موزيل، لأن حلم سينيكا في هذا الإنسان يتحقّق إذْ يعدم في نفسه وجود **طموح**، أو **الأهواء** التي هي بليّة كلّ وجود دنيوي. فهل في اللغة فرصة أخرى للتعبير عن إنسانٍ يغنّي مرثيّته ترجمةً لداءٍ يراه الأغيار دنيا وهو الذي خرج منه غير آسفٍ عليه إلى حدٍّ يغدو فيه الموت ترياقاً، بل ملاذاً!

لم يتخيّل العدوس الذي عرف الظمأ إلى الماء مراراً، أن يعرف الظمأ إلى نقيض الماء، الظمأ إلى الصحراء، على ذلك النحو المحموم الذي عرفه سنوات المخاض.. سنوات البعث الموجع. ظمأٌ لم يكن له الهوس بالطبيعة الشمالية القاسية سوى ضربٌ من تعويض. ظمأٌ لم يكن تعبيراً عن توقٍ إلى واقع، بل التوق إلى **اللاواقع**. ظمأٌ ليس لإرواء الحنين إلى وطنٍ يلعب فيه الناس دور البطولة، ولكنه الظمأ لإرواء الروح من سلسبيل عزلة وطنٍ كلّه روح لأنه يحيا في **ذاكرة الزمن**، وليس في الزمن.

يتعجّب أصدقائي الروس (عقب صدور مجموعة «جرعة من دمّ» في 1987) كيف لا أعاني **الجوع الروائي** في واقع صحراء إنقطعت عنه عشرات السنين لأن ذاك نداء الواقع في استجابته لشرع الرواية. ولكن هيهات أن يدروا أن جوعي ليس إلى واقع تشترطه الرواية

Twitter: @alqareah

بقوانينها التقليدية، (لأنّ لا وجود لرواية حيث لا وجود لواقع تقوم فيه العلاقة ربّة للرواية)، ولكنّه جوعٌ إلى اللاواقع الذي ينفي إمكان حدوث الرواية، وهو الشرع الوحيد المعترف به في عرف الصحراء. وهو ما يعني أن رواية الصحراء ليست رواية. رواية الصحراء يمكن أن تكون أي شيء، ولكنّها لن تكون روايةً بالمفهوم الكلاسيكي للرواية اللهمّ إلاّ إذا آمنّا بإمكان **العدم** أن يكتب رواية. ولهذا فإنّ رواية الصحراء يمكن أن تسمّى أيّ شيء باستثناء إسم الرواية. رواية الصحراء يمكن أن تسمّى أغنيةً وجديّة. أو سيرةً وجدانيّة، أو وصيّةً شعرية، أو أيّ نصٍّ يترجم تجربة حلمية، لأن الصحراء ليست واقعاً دنيوياً، ولكنّها كلّها **روح**. ولهذا السبب كانت «نزيف الحجر» ثمّ «التبر» بمثابة التحدّي الذي اعترف العالم بقيمته من أقصى الشرق في اليابان إلى أقصى الغرب في أمريكا مروراً بأوربّا بالطبع. كان هذان العملان بمثابة المسمار في نعش النظرية السائدة القائلة بخرافة الرواية كإبنٍ شرعيّ لواقع عمرانيّ. وكان لحرم الآداب شرف أن يقبل في رحابه ضيفاً يحلّ فيه أول مرّة مشفوعاً بهويّته **الزهدية** وهو الصحراء. هويّة الصحراء المكلّلة بتاج ما نستطيع أن نطلق عليه **الرواية الزهدية** المعبّر عنها في «نزيف الحجر» ثمّ «التبر» ليكون هذان العملان بمثابة مقدّمة للنطق **بكلمة** الصحراء وهي تروي سيرة ضياعها الكبير المنصوص عنها في ملحمة «المجوس»، لأن اغتراب كاهنة الأجيال هذه لم يكن غياباً بالطبيعة وحسب، ولكنّه غيابٌ ثقافي أيضاً، أي أنه

Twitter: @alqareah

ضياعٌ في الهوية، وضياع في التاريخ، وضياعٌ في الوطن، وضياعٌ لناموس الأمّة المتمثّل في ضياع الكتاب المقدّس «آنهي»!

الإحساس بالضياع (سواء في كمّه أو كيفه) كان الجرح الجديد الذي حفّز الإبن الضالّ للإرتماء في أحضان أمّ الوجود بعد تيهه الطويل في أرض الله الواسعة. فإذا كان في السنوات الأولى لضياعه يعزّي نفسه بزيارات خاطفة يقوم بها بين الحين والآخر لقارّته المفقودة، فإنّ قطع حبل السرّة مع العالم أوجد في الوجدان فراغاً موحشاً ضاعف دراميّته نداء الواجب الذي غدا وسوسةً لجوجةً مع اليقظة من الغيبوبة الدنيوية، سيّما بعد رحيل سدنة روح الصحراء الواحد تلو الآخر الذين جسّدهم في الماضي أشياخ العشائر وزعماء القبائل الذين اعتاد أن يستجير بهم كلّما حلّ في ديار الأمس التي صارت اليوم برحيلهم طلولاً، لأنهم أخذوا معهم في سفرهم روح معبودته أيضاً. ولهذا كان الفقد مزدوجاً، والخواء الذي تخلّف بسبب غيابهم مضاعفاً، والمرارة غصّة في القلب أعظم، في وقتٍ تمادت فيه علّة البدن لتبلغ الذروة.

ففي الوقت الذي سبق الوصول إلى موسكو بقليل كان وزن الجسد قد حام حول 95 كيلو غراماً، في حين حقّق صيام ثلاثة أشهر كاملة عن الطعوم والإكتفاء بالسوائل حسب رقماً قياسياً في فقدان الوزن ليهوي إلى الأربعين كيلو غراماً فقط بعد الوزن التسعيني، بحيث أنكرني كلّ من عرفت وحدث والتقيت في تلك المرحلة. وبرغم ذلك كنت سعيداً ولا يخيفني الخوف الذي كنت أراه في عيون الأغيار كلّما التقوني أثناء تنقّلي في أوطان الأغراب أو أثناء

Twitter: @alqareah

حلولي في أرض الوطن. كنتُ سعيداً لأنّني كنت أحيا تجربة التحرّر من الجسد بعد أن عشت تجربة التحرّر من وزر الدنيا.

في تلك المرحلة تحوّلتُ هيكلاً عظميّاً يدبّ على قدمين بحيث كانت هبّات الريح في مرتفعات «فوروبيوفا» تتلاعب بي حسب مشيئتها كما تتلاعب بأوراق الخريف فيستهويني عبثها لأني أكاد أستعير أجنحةً فأحقّق حلمي الأبدي القديم فأطير!

هنا كان من الطبيعي أن أعيد حساباتي في كل ما تعلّمت في تلك اللحظات الوجدية التي أستشعر فيها الروح وهي تتنفّس الصعداء في سيرورة تحرّرها لأؤمن كما لم أؤمن يوماً بمدى ثقل هذا الحمل الذي نتنكّبه وندلّله ونراهن عليه كما لا نراهن على شيء في دنيانا المسمّى جسداً. لقد أيقنت بإمكان التخلّص منه دون أن أخسر شيئاً مادمت أشعر بهذه السعادة التي لم أعرف لها مثيلاً يوماً عندما بدأ الجسد يذوب ويتبدّد. هذه السيرورة المؤدّية إلى الفناء هي ما يفزع الناس كلّما التقوني لأنهم يرونها زوالاً دؤوباً، أو شطراً من زوال، في حين أحسستها تنصّلاً من عبء، وسيراً في طريق الميلاد!

لقد كنت في نظر كل من قابلت إنساناً في عداد الأموات. وهو ما دفع بالأغلبية بأن تشيع في كل الأوساط بأنّني ابتُليت بورمٍ خبيث لن يمهلني طويلاً، ولا يدرون أن الورم الحقيقي هو دنياهم التي أعانني ملاكي الحارس على الشفاء منها!

فأيُّ شرٍّ بعد هذا في أن نموت إذا كانت الروح لا تنوح لفقد، ولكنّها تعبّر بلسان الوجد عن سعادتها بزوال الجسد؟

Twitter: @alqareah

6

منذ 1987 وطوال العقدين التاليين استعدت علاقتي بفردوسي الصحراوي المفقود في رحلات طقسية موسمية هَبَّ لعوني في تنظيمها شقيقي في الدمّ وخلّي في الروح وفي التوق إلى هذا الفردوس فنايت الكوني شملت مسقط الرأس «تينغرت» (أي الحمادة الحمراء)، ومسال سطّفت، ومساك ملّت، وتارات الرابضة على تخوم نوميديا وأكاكوس المحرّفة من الإسم الأصحّ آكوكاس، والهروج، ومناطق جبل نفوسة قاطبة بما في ذلك القريات، وقرزة وبني وليد إلى جانب الإمتداد البرّي الواقع بين الجبلين الغربي والأخضر. إنها الأرض النبيلة الملقّبة بإسم «ليبيا» التي تعني في لغة أهلها القدماء «المسكونة بروح الربّة يت» أي تلك المعبودة الأولى التي حملت إسم «يت» الدال على الأحدية، أو تانيت (ذات الأحدية)، أو تانّس التي كوّنت في مصر مملكة الدلتا، وهي تونس أيضاً، وهي أثينا كذلك كما برهن أبو التاريخ هيرودوت. إنها وطن التكوين الذي أنبت للروح بلسم الديانات (كما يبرهن البيان في لغة اللاهوت) قبل أن ينبت للأبدان ترياقاً في عشبة السلفيوم التي كانت دواءً لكل أمراض العالم القديم.

Twitter: @alqareah

في هذه الأرض السخيّة عاشت القبيلة الصحراوية التي حملت القارّة المعروفة اليوم بإسم إفريقيا المستعار من «إيفري» أو «آفرا» الدالّتين على الصحراء، لأن العلامة الطبيعية الفارقة لهذه القارّة هي الصحراء بالطبع وإلاّ لما فازت بلقب «الكبرى» من بين كل صحاري العالم. للغة هؤلاء الأقوام الذين سكنوا هذا الوطن منذ ملايين السنين (كما برهنت جمجمة السبعة ملايين عام أخيراً) يرجع الفضل في نحت إسم الصحراء في اللغات من خلال كلمة desert الدّالة في الأصل على معنى **الأسبقيّة**، أو **الأولوية**، أو **الريادة**، أو **الشيخوخة** أيضاً. وهو الإسم الذي استعارته قرينتها المصرية القديمة أيضاً في «دشرت». كان ذلك في وقتٍ كانت فيه الصحراء ماتزال تحتفظ بالحدّ الأدنى من بكارتها التي كانت دوماً نقطة تفوّقها؛ أي قبل الأزمان التالية التي قامت فيها جنرالات الشرّ والفساد والخبث باستزراع جرثومة التطرّف الديني في تربتها السمحة خصّيصاً لإلصاق تهمة الإرهاب بأهلها كتماً لأنفاس هويّتهم كأمّة أصيلة مقابل هوية مختطفيها كي يهنئوا بهويّتهم فيها كدخلاء لم يكفهم أن يتنازل لهم الأصلاء عن ثرواتها (ذلك النزيف المميت الذي يمتصّونه من تحت أقدامهم ليجري في شرايين السوء إلى بطون الدخلاء في الشمال دون أن ينالوا منه شيئاً)، ولكنّهم سعوا حثيثاً لقطع دابر نسلهم ومحو أثر هويّتهم تلبيةً لنداء سيّدتهم التي لم يكفها أن تتبرّع بأرضهم يوماً بتوزيعها بين دول عنصرية أربع عقاباً لهم على موقفهم منها كمريدي حرية لم يبخلوا في سبيلها بالدمّ ولا بالمنفى ولا بالعدم، ولكن

Twitter: @alqareah

العقلية الإستعمارية لم تكتفِ بهذه الجريمة في حقّهم، ولكنها أضافت جرماً آخر يوم فجّرت في وطنهم البكر قنبلة القيّامة عام 1957 لتبيد ما استبْقته آلتها الحربية من أنامٍ وأنعامٍ ونبات ليتحوّل فردوس الجمال ذاك إلى قارّة كبرى من عدم غير آبهةٍ بصوت الضمير الذي صرخ في وجهها حاملاً لهويّتها في شخص العلاّمة «مانو» مريد الصحاري الذي لم يملّ من أن يردّد: «إنّها البقعة الأجمل في العالم، والأكثر إكتمالاً!». فهل استجابت عقلية التطهير العرقي لنداء الضمير؟ كلا بالطبع. لقد عمدت هذه العقلية إلى تكليف خدمها في مستعمرتها في نوميديا (الذين كانوا أصلاً جنوداً في جيوشها) لاستكمال الفصل الجديد في المكيدة التاريخية التي لا تنتهي بالإنابة عنها التي سيقومون بموجبها بالإستمرار في تفجير القنبلة الذرّية في الصحراء الكبرى طوال الأعوام التالية حتى عام 1965، ثمّ تشجيع الملّة العنصرية السوداء في مالي للقيام بمجازر عام 1963 ضدّ القوم في أوّل حملة تطهير عرقي يشهدها عالمنا المعاصر الذي لا يملّ التغنّي بخرافة حقوق الإنسان وحماية الأقلّيات العرقية والثقافية والدينية!

حللت في فردوس طفولتي الذي طردتني منه فعلة هذه اللعنة الإستعمارية في 1958 لأنزل المنافي منذ ذلك اليوم وأتنقّل في الأوطان في رحلة أوليسيّة حقّ لها منذ الآن أن تكون كونيّة، لأن رحلة أوليس التي يضرب بها المثل والتي صارت إستعارةً رمزيّةً وفلسفيّةً لحضور الإنسان في هذا الوجود لم تزد على العشر سنوات

Twitter: @alqareah

في «الأوديسة»، فإذا تسامحنا وأضفنا لها عشر سنوات أخرى إستغرقها غزو طروادة في «الإلياذة» (أي ما مجموعه عشرون عاماً)، فإنّ رحلة عدوس السرى منذ خروجه الأول من وطن الرؤى السماوية إلى تاريخ تسطير هذا النزيف قد جاوزت النصف قرن من الزمان بزيادة قدرها خمسة أعوام. حللت في حرمها المهيب في وقتٍ مازالت تلملم فيه جراحها، ولم تتعاف من نزيفها بعد. ولكن بطولتها إذا كانت في صمودها الخالد، فإن عزائي في أنها لم تمت بعد. إنّها ماتزال مكابرةً نكايةً بأعدائها، والتزاماً ببنود عهدها الأزليّ الذي قطعته على نفسها منذ سنّت ناموس ملتبس يتنكّر لطبيعته كناموس طبيعة اللاطبيعة. بل طلعتها توحي بأنها تسخر من أعدائها، بل وتشفق على أعدائها، لأن من تألّم كثيراً وحده تالّه قليلاً. والصحراء التي عرفت البراكين من جوفها وتلقّت النوازل على رأسها من نيازك وغيرها وحدها تستطيع أن تتباهى بحقيقتها كقفّاز تحدٍّ مجسّدٍ لمبدأٍ يقهر، ولكن هيهات أن يُقهَر. فهذه هي معبودتي التي هدهدتها في قلبي دوماً، ولكنّي لم أعرفها في نفسي يوماً كما عرفتها اليوم عندما تجرّدت من سَمّ خِياطٍ إسمه الدنيا ونزلتُ لأصلّي في محرابها عاري القلب كما ولدتني أمّي، أو بالأصحّ كما ولدتني هي، لأنها هي أمّي الحقيقيّة التي لم أعترف يوماً بأُمٍّ سواها!

فهل هو انتصارٌ لأمّ الروح على حساب أمِّ الجسد؟

إنها الإشكالية ذاتها التي يطرحها الميلاد. فهل ننتصر لميلاد جسد الطبيعة الذي لا فضل لنا فيه، بل ولم نختره بإرادتنا، أم ننتصر

Twitter: @alqareah

لميلاد الروح الذي حققناه بأنفسنا، واخترناه بإرادتنا، ورويناه بنزيف دمنا؟ أحسب أن المنطق يفرض الإنحياز إلى الخيار الأخير، لأنه خيارٌ بالذّات. والخيار **حرية**. النسب إلى الأمومة يحمل بذور الجدل ذاته. فلإنتماء إلى الأمّ الكبرى لن يكون عقوقاً في حقّ الأمّ الصغرى سيّما إذا كانت الأخيرة تستعير هويّتها كإبنة شرعية من طينة الأمّ الكبرى. وشرف الإنتماء إلى إحداهما لا يخضع هنا لقوانين الطبيعة كأمٍّ أكبر حتّى من أمّي الكبرى (الصحراء)، ولكنه يخضع لماهيّة الدسيسة التي أخفتها الأمّ الحقيقيّة في سليلٍ إختارته لرسالتها من دون الناس جميعاً. فليس أمّ الجسد هي من ألهم العدوس الشعر أو لقّنه الأسطورة، أو حقنه بحمّى الهوس بالغناء، كما يروّج خيال البعض. ولكن الكيان الذي يتكتّم على لغز الكينونة أكثر مما فعل أي ركنٍ أرضيّ في هذا الوجود هو من ألْهَمَ العدوس الشّعر، ولقّنه الأسطورة، وحقنه بحمّى الهوس بأنبل ما في الوجود وهو الغناء. إنّها أمّ الروح التي سكنتني منذ المهد، ثمّ كانتني كوناً يوم استدرجتني في رحلة التيه لتكبّل عنقي بعهدٍ سرّي كان لي شرف حمله كصليب خفيّ يراه الناس بعين البصيرة فيشكّون في أمري دون أن أدري أنّ كلّ مازرعوه في طريقي من بلايا كان ترجمةً لنيّتهم في صلبي عليه، ولكن العناية الخفيّة لم تمكّنهم منّي!

في تلك الرحلات كنت أتلبّس صحرائي تلبّساً. أتقمّصها تقمّصاً. أتماهى بها لأسري فيها وتسري فيّ سريان الدمّ في الجسد، بل وسريان الروح في الجسد. كان ذاك طقساً في طلب الغفران، ولكن

Twitter: @alqareah

عبقريّتها في أنّها كافأتني على توبتي بدل أن تقتصّ منّي. كافأتني في الرحلة الأولى بـ«نزيف الحجر»، وفي الرحلة الثانية بـ«التبر»، وفي الرحلة الثالثة كافأتني بلقية أكبر.. كافأتني بـ«المجوس». هذا العمل الذي عدّه أساطين النقد في العالم عملاً مرجعيّاً، في حين كان في عرف العدوس (الذي اغترب عن لغته الثانية التي ما كاد يكتسبها حتى اغترب عنها) مفاجأةً ومنعطفاً في آنٍ معاً: مفاجأة لأنها كُتبت بلغة لم أعرفها قبل ذلك اليوم ولا في أيّ يومٍ في نفسي، ومنعطفاً لأنّ بهذا العمل إنهارت نظريّة جورج لوكاتش عن الرواية كعمل مديني لتنهض على أنقاضها نظريّة أخرى جديدة هيّأت لأرجوحة الكينونة الخريطة الهندسية التي أهّلتها لأن تقول كلمتها أخيراً، فتتفضّل بدخول حرم محفل الأدب العالمي لأوّل مرّة لا كهويّة نمطيّة ابتذلها أدب الرحّالة، أو كماهية فلكلوريّة أو أكزوتيكية روّج لها الفضول السياحي، ولكن بمؤهّلاتها الحقيقية. مؤهّلات ثريّة رمزيّة ووجودية وغيبيّة وتاريخية وأنثربولوجية تميط اللثام لأوّل مرّة عن لغة مفقودة تسكن البعد المفقود!

Twitter: @alqareah

7

دين الإنضباط مترجماً في برنامج كل يوم:

الإستيقاظ مع الرابعة فجراً في حال الذهاب إلى النوم الساعة العاشرة ليلاً، أو الخامسة فجراً في حال الخلود للنوم عند الحادية عشر ليلاً، ولكن الإستيقاظ ليس بعد السادسة صباحاً حتّى في حال استقطع سلطان الأرق من الوقت نصيباً أكبر، وهو ما يحدث ليليّاً تقريباً بسبب سياسة التجويع المصاحبة للنظام الغذائي اليومي. تخصيص ثلث ساعة لغسل الوجه وتنظيف الأسنان وارتداء الملابس الرياضية التي تناسب أجواء طبيعة الشمال الإستثنائية تبعاً لفصول العام، ثمّ الخروج إلى الغابة الغارقة في ظلمات تستمرّ حتّى الثامنة والنصف في فصل الشتاء، وملفوفة بالكفن التقليدي الموحش في هذا الفصل أيضاً، بل في أغلب الأحيان تعربد في المكان العواصف الثلجية التي تعرقل حركة السير في سعي الطبيعة الحثيث لتغيير خارطة الأرض وهي تنقل هذا السيف الثلجي الفاتن من هذا المكان لتطرحه كسياجٍ حول شاطيء البحيرة الشقيّة التي تجمّد فيها الماء، ولكن الجمود لا يمنع الفئة التي يخلع عليها الروس لقب «الفقمة» من شقّ هوّة في سطح الجليد للسباحة في المياه تحت القشرة.

Twitter: @alqareah

يستغرق التريّض في الغابة ما لا يقلّ عن الساعة، تليه عودة متمهّلة تبتهج فيها الروح بعد حملة التنكيل بالجسد فتتفتّح في تماهيها بالطبيعة لتستيقظ. فاليقظة من النوم صحوة الجسد، ولكن صحوة الروح في التنكيل بالجسد، أمّا تجلّي الروح فبالحوار مع الطبيعة. هذا الطقس يغري باقتحام حرم الفصل التالي من السيرة المسمّى في لغة العدوس بـ«المقصلة» والمتمثّل في الجلوس على المكتب لمنازلة عزلةٍ مميتةٍ لا عون للمريد فيها سوى نزيف الروح كحيلة وحيدة وأخيرة للتّطهّر من دنس العقلية التقليدية الموروثة التي لا تمارس الحياة كمشروع مؤجّل يستدرجنا فيه باطل الأباطيل فلا يتحقّق أبداً إذا لم تتدخّل تلك اليقظة التي كثيراً ما يلعب فيها المرض دور البطولة، كما تلعب فيها خيبة الأمل دوراً آخر، فإذا حدث وتآلف الرسولان (كما هو الحال مع العدوس) فإنّ الخلاص يغدو مسألة يكون الرهان فيها على الموت أكثر من الرهان على الحياة سيّما بالنسبة لإنسانٍ هدهد حلم أن يستنطق وطن الهويّة مبكّراً فخذل الوطن، لأنه راهن على الإحساس الكاذب بالخلود، ولم يكتشف إلاّ بالصدمة أنّه مخلوقٌ عابرٌ لا يختلف في أجَله (الذي توهّمه خلوداً) عن نحلة أو مريدتها الزهرة!

فأين أغنية الوجدان في مديح وطن الزمان التي عاهد بها، ثمّ تنصّل من العهد؟

هنا تتقمّص الصحراء روح مريدها فتخضعه لاستجواب لتنتزع منه الإعتراف، لأنّه لم يخطئ من قال أنّنا لا نكتب عن شيء إذا لم

Twitter: @alqareah

نكتب عن أنفسنا، ولو لم يكن الأمر كذلك فما جدوى التعويذة التي استخدمتها الإنسانية كقدس أقداس والمترجمة في حرف: «إعرف نفسك!»؟ إذ كيف نعترف بما في نفوسنا إن لم نعرف أنفسنا؟ والواقع أن كل منظومة التقنية المعتمدة كبرنامج جديد لحياة جديدة ما هي إلاّ النّصل لاستفزاز ما أسكنته قيعان الباطن المحصّن بسلطة النسيان، والحضور في حضرة المقصلة هو نوع من قربان في سبيل الفوز بالكنز المحروس بألف مارد ومارد.

كان هذا مخاضاً مكتوباً بنزيف الروح في سبيل الميلاد، رافقه مخاضٌ آخر مكتوبٌ بنزيف الجسد في سبيل استعادة عافية الجسد، أو بالأصحّ، في سبيل إعادة تأهيل الجسد لكي يمهل قليلاً؛ تأهيل هو بمثابة ولادة جسد من صلب جسدٍ آخر تردّى بالإستهلاك من قبل بهتانٍ إسمه الدنيا.

فهل هو بداية عهد جديد مبرم بحرف السرّ أكتفي بموجبه بالوقوف موقف المشاهد للمهزلة من وراء ستار فيما إذا أمهلتني الأقدار بفسحة عمرٍ لا أمل لي فيه؟

ولكن رحلة اليوم لم تنته بعد، تماماً كما لم تنتهِ رحلة العمر التي كنت، في مواجهتي اليومية مع الأبدية، قد يئست منها نهائياً. فالعراك مع الحلول في البعد المفقود (الذي نصّبه حكماء العالم القديم وصيّاً وحيداً على الحقيقة عندما أطلقوا عليه تأمّلاً حيناً وتجلّياً حيناً آخر) يستغرق عادةً عدّة ساعات قد تطول إلى منتصف النهار ليتحوّل امتحاناً للإرادة أو ترويضاً لها على قطع الصلة بالوجود واستمراء

Twitter: @alqareah

البعد المفقود وجوداً بديلاً. وقد برهنت التجربة تالياً أن عالم الحقيقة ذاك هو ما نسمّيه في لغتنا فردوساً. وهو ما يعني أن بيننا وبين حلمنا الأبدي في الفوزِ بالنعيم رمية حجر! وهي لا تبدو محالاً إلاّ لوهن الإرادة وعجزنا في تغيير ما بأنفسنا. هذا التغيير الذي لن يكون سوى الوجه الآخر لوصيّة: «إعرف نفسك!». فالنعيم في متناول اليد. في متناول اليد هنا، في دنيانا هذه أيضاً، كل ما يجب أن نفعله لتحقيق هذه البطولة هو أن نتخلّى: نتخلّى عن كلّ ما توهّمنا أنه مسألة حياة أو موت في وجودنا، لنكتشف أن ما ينقصنا هو الإيمان الذي نتشدّق به في جلساتنا، ولكننا نخذله في ممارساتنا؛ لأنّ لا بطولة بدون إيمان...

Twitter: @alqareah

8

في تلك المرحلة اقتضت التقنية تجريد البيت من وسائل أخرى بغرض اقتصاد الوقت، تأتي عدّة اللهو التقليدية في مقدّمتها كجهاز التلفزيون ثمّ الفيديو ثمّ التلفون ثمّ الراديو. إستثناءٌ واحدٌ فقط لم يتعرّض للطرد من البيت: جهاز الموسيقى! بقاء هذا الجهاز يشفع لاستخدام جهاز الراديو الملحق ايضاً لا لأنه ملحق به، ولكن لأن المؤشّر فيه لا يحيد عن محطّة إذاعيّة واحدة كل الوقت وهي: محطّة موسكو المخصّصة للموسيقى الكلاسيكية. فكنت اضغط على الزرّ في كلّ مرة فتصدح السيمفونية بملحمة فاجنر الخالدة «لونغرين» أو «ذهب الراين»، لأؤكّد حضوري مرة أخرى في رحاب الفردوس بما لا يدع مجالاً للشكّ!

والمدهش أن يحدث هذا في ذروة إستشراس مرض البدن، ولكن الحلول في البُعْد الآخر يصاحبه سحرٌ ينفي الإحساس بالألم، بل والأعجب أنه يمحو الإحساس بالبدن أصلاً. لقد قرأت قبل ذلك التاريخ الكثير عن أعاجيب اليوغا، وسمّمونا في الطفولة بالحكايات الشائعة عن معجزات دراويش الطرق الصوفية سيّما تلك التي لها علاقة بالبطش بالجسد، ولكنّي لم أتخيّل أنّي سأعيش هذه التجربة

Twitter: @alqareah

يوماً دون خطّة مسبقة، أو بالأصحّ، بدون موهبة مسبقة. وأعترف أن الموسيقى كانت لي عوناً آخر في ارتياد دنيا الحقيقة تلك إلى جانب الإستنفار المميت والموصول للذاكرة كي تنفذ من أشراك الزمن لتقتحم الزمن الآخر، الحقيقي، الخالد، حيث لا همّ، ولا ألم، ولا باطل. فإلى تلك المرحلة يرجع الهوس بالموسيقى الكلاسيكية، بل وفهم حقيقة الموسيقى الكلاسيكية كتميمة حرية. يرافق هذا الهوس ظمأٌ آخر بدأ يتمادى إلى موسيقى الأهل التي بدأتُ أفكّك فحواها كحنينٍ ربوبيّ وطقسٍ دينيّ، وهو ما لا صلة له برسالة تبدّت لي مبتذلة كالطرب. هذا اللحن الغيبي نجد له أثراً أيضاً في موسيقى «المرزكاوي» إستعارةً من الروح الصحراوية ذاتها التي فاجأت العالم من خلال فرقة «تيناريوين» التي فازت بأعلى جائزة في عالم الموسيقى(غرامي) إنتصاراً لهذه النبرة الإلهيّة بالذّات التي اغترب عنها الجنس البشري منذ اغترب عن فردوس الفطرة الأولى!

بعد تلاوة الصلوات في معبد الروح فقط يحين ميعاد الإلتفات إلى حضرة الخادم الذي خذلني طويلاً وصرت له خادماً زمناً طويلاً، ولكن لا أملك إلاّ أن أشكر العناية الإلهية التي أمهلتني حتى غيّرت ما بنفسي كي أعيده إلى طبيعته كخادم مرة أخرى. وإحساسي بالتفوّق دفعني لأنكّل به كما نكّل بي هو بالأمس القريب. ولهذا لا ألقمه إفطاراً حقيقيّاً كما يتوقّع، ولكني ألقمه جرعة ماء: خليط أعشاب ممزوجة بالعسل هو كل ما استحقّ. والعسل هنا طُعم لئلاّ يخذلني فيتخلّى عنّي نهائياً!

Twitter: @alqareah

بإحكام اللجام لجواد الجسد ينتهي النصف الأول من نهار العدوس، ليبدأ النصف الثاني بهجعة، بإغفاءة قصيرة نادراً ما تبلغ تخوم الساعة. أستيقظ بعدها لأستقبل نصف نهاري الثاني. والواقع أنه نهارٌ كامل، كما النصف الأول نهارٌ كاملٌ آخر.

فإذا كانت العبرة بالنتيجة كما يقال فلا شكّ أن النصف الأوّل كان نهاراً كاملاً مادمت قد أفلحت في أن أسدّد فيه الدَّين المستوجب. الدَّيْن نحو الجسد ونحو الروح فيباركني الضمير بهدوء البال. أمّا النصف الثاني (أو النهار الثاني في عرف الأغيار) فمقسّمٌ بين واجب تغذية الروح (القراءة)، وواجب نحو دنيا مازلت أنتمي إليها بموجب العقد المبرم مع الجسد. فبعد طقس الصلاة في محراب خلاّني الجدد من أنبياء وحكماء وفلاسفة وشعراء وكهنة كلّ الأزمنة أكافيء نفسي بأمرٍ لم يخطر ببالي أنّه كنزٌ إلاّ في تلك الأيام: **الماء!**

في الواقع لم تكن علاقتي بهذا اللغز دنيوية حتّى فيما سبق من أيام. لقد كان أحجيةً قدسيّةً دوماً. ويبدو أن الصحراء هي التي لقّنتني هذه الوصية عن هذا الشيء الوحيد الذي لا لون له ولا طعم ولا رائحة فلا يكون ضرورياً للحياة وحسب، ولكنه هو الحياة كما عبّر أنطوان ذي سانت أكزوبيري الذي لم يكن ليعي هذه الطبيعة في هذه الهبة الإلهية الغامضة لولا تجربة العطش في الصحراء. وهي الرؤية التي فتنتني إلى حدٍّ دفعني لاستخدامها كاستشهاد في «المجوس»، لأنها أصابت في نفسي الوتر الخفيّ بالمسّ وأيقظت هوسي المجهول بهذا العنصر الطبيعي من دون بقية العناصر. وهو هوسٌ تحوّل جنساً

Twitter: @alqareah

من عبادة أعوام تقنية المخاض لأجد نفسي أتحمّم مراراً في اليوم الواحد كأنّ ظمأً ميتافيزيقياً إستيقظ في مجاهل اللاوعي وشرع يطلب الإستزادة من هذا الزاد بلا حدود. فهل عملية تطهير الروح (التي هي شرطٌ أوّل في أبجديّة الميلاد الثاني) تستدعي إستخدام الماء كأنّ الخطيئة مبثوثة في خلايا الجسد، وليست دنساً يسري في الروح؟

إذا اعتمدنا التفسير الحرفي فلا شكّ أنّ الجسد هو الوسيط في اقترافنا لخطايانا، تماماً كما كان الوسيط في ارتكابنا للخطيئة الأولى، واستخدام الماء الذي خلق لإبادة الدنس الحرفي يلعب هنا دوراً رمزياً في محو الدنس الروحي. ولهذا السبب صار الماء في ديانة كالمسيحية وسيلة لتعميد المريد، كما كان في يد ساحر ديانة سومر سلاحاً في كشف الأمراض، وأداة لقطع دابرها أيضاً إلى درجة إقترن فيها الفاعل بالمفعول في مصطلح «**أسُوْا**» الدّال في لغة التكوين على الماء.

بعد الخروج من نعيم الإستحمام يحين ميعاد الخروج إلى تلك الحلبة التي عاهدت نفسي أن أكتفي بأن أكون لها مشاهداً ولا أنزل ساحتها أبداً. ولولا ضرورة النزول إلى السوق بغرض استجلاب فاكهة تبقي الجسد قيد الوجود لما استبدلت الخروج من نعيم الماء بالخروج إلى جحيمها. والخروج إلى ساحة هذا الجحيم لا يحدث كل يوم، ولكن كثيراً ما يخضع لتأجيلٍ قد يستمرّ أسبوعاً يشمل تأدية رسالة أخرى كي لا يظلّ هدفاً وحيداً، وكي لا يلتهم من الوقت أكثر ممّا يستحقّ. والرسالة المعنيّة ليست مخصّصة لقضاء حوائج الدنيا

Twitter: @alqareah

التي لا غنى عنها وحسب، ولكن للإلتقاء بأصدقاء لا أنوي قطع الصلة بهم سواء أكانوا عرباً أو أجانب برغم حرصي الشديد على أن تبقى مثل هذه العلاقات في أضيق نطاق لا خوفاً من إهدار الوقت وحسب، ولكن حرصاً على سلامة الروح أيضاً. ذلك أن الواقع الوجودي الجديد فرض موقفاً جديداً صارماً، بل قاسياً، من الملّة التي كانت إلى وقتٍ قريبٍ آفةً للوقت، وظلّت في حياتي بمثابة صنم الوهم.

فالأخلّة أيضاً من المخدّرات التي ندمنها بحكم العادة مثل التدخين والقهوة وبقيّة المغريات التي لا تسلبنا الوقت فقط، ولكنها تسلبنا الإرادة أيضاً، لأنّ العدوّ منذ الآن هو العادة؛ والحرب المقدّسة في سبيل تغيير ما بالنفس تبدأ ضدّ هذه البدعة. لقد اكتشفت أن كل ما يغرّبنا عن أنفسنا ليس وليد الضرورة، ولكنه وليد العادة. ولن نفلح في ثورتنا ما لم نتنصّل من كل ما ألفناه بحكم هذا الأفيون الذي نتعاطاه بالمجّان. وما أثار فضولي في تلك المرحلة هو هذا الفزع الذي قرأته في سيماء كل من عرفت الناتج لا عن فاكهة الإنضباط المخطوطة في ملامح البدن وحدها، ولكن عن القدرة في التخلّي عن تناول هذا الأفيون المجّاني. فكلّ من عرفنا يكون في شكٍّ منّا ما أن يرى العلامة مرسومةً على وجوهنا. ولهذا فإيماء الفزع هنا مختومٌ ببصمة أخرى هي الإستنكار. إستنكار أن يجرؤِ إنسانٌ على التحرّر من ما اعتمده أخوه الإنسان حتّى لو كان خطيئةً أو جرماً مرتكباً في حقّ الذّات، لأن الإنسان يعبد ضعفه، ومن يتمرّد على

Twitter: @alqareah

هذا الضعف يعدّ مارقاً يستحقّ العقاب لأنه بهذا ينتحل خصال الإله. لقد رموني بالتجديف مراراً لا لدقّ المسمار في نعش مخدّراتهم اليوميّة وحسب، ولكن لمجرّد أنّي أقلعت عن تناول لحومٍ هي في الواقع جيَف حقيقيّة كما أسمتها سيّدة روسية في خطابٍ طويلٍ وجّهته لي لتهنئتي على هذا الإنجاز الذي أخفقتُ في تحقيقه.

وبرغم ذلك لا يتصوّر الخلّان مدى حنيني إلى الحضور بينهم. كلّ ما هنالك أن نداء الواجب يأَبى إلاّ أن يستبدل الواقع بالخيال فيطعمني الذكرى بديلاً عن الحقيقة مثل كلّ إنسانٍ لم يعد له وجود على قيد الحياة، وتصرّفاته كلّها تبرهن بالفعل على وجوده في عداد الأموات!

إنها تراجيديا إنسان القداسة المعلّق في برزخ بين قطبين ضدّيين فيبقى مشدوداً إلى الوراء بحميمية الحنين إلى جحيمه الماضي الذي تنكّر له مهما تباهى بالطهارة، ومهما تمكّن من واقع نعيمه الجديد، كأنّه يؤكّد حرفياً وصيّة كهنة مصر القديمة القائلة: «تذكّر أن الحياة الدنيا هي الحياة الوحيدة التي لها قيمة!». والمفارقة أن يرد هذا اليقين على ألسنة سدنة تلك الديانة التي كان لها قصب السبق في التغنّي بخلود الروح في مقابل فناء الجسد!

Twitter: @alqareah

9

بعد الفراغ من الواجب نحو الآخر، أو الإنتهاء من قضاء الحوائج، يأتي أوان الغارة على الأسواق، لا ارتيادها؛ تيمّناً بوصايا الإمام الغزالي في هذا الشأن. فالتسكّع في الأسواق خطر على روحٍ حديثة العهد بالحرية، ولذا فالأنسب إختطاف السلعة خطفاً والفرار بها حرصاً على عافية الروح، لأنّ المكان موبوء. هنا يتناكب الدهماء ليتبادلوا الوباء المدسوس في نفايا تعاهدوا أن يطلقوا عليها إسم الإخبار عن جديدٍ في دنيا لا وجود فيها لجديد. ولمَ لا إذا كانت لغة البدايات قد احتفرت في كلمة السوق هذه معنى **العشّ** من خلال إبدال شائع بين القاف والكاف (سوك) كقمقم مزموم تتلاحم فيه صغار الطير لتملأ الدنيا جعجعةً إنتظاراً لطعومٍ قد تسقط في أفواهها الشاغرة الملهوفة دوماً إن لم يكن إلى النداءٍ فبالحنين إلى الأنباء؟ ولهذا ورد في لغة التكوين: «إيسلان هان إيسَوان» أي «إن شئت الأنباء، فعليك بالأسواق!». ففي بلاط ميفستوفلس هذا يبدو عدوس السُّرَى عدوّاً كما لا يبدو في أي مكان آخر. والأسوأ من أن يعامل العدوس كعدوّ هو أن يعامل كمجنون. وهو اللقب الأثير لدى صحبان الأسواق عادةً. ولهذا يجللونه بسياط السخرية إذا لم يلاحقوه

Twitter: @alqareah

ببضائعهم الفاسدة. والقلّة هي التي تجود عليه بالأسوأ وهو الشفقة. الشفقة على إنسانٍ يتبدّد ويفنى بالتدريج. شفقةٌ مشفوعةٌ بخوفٍ بالطبع لأنّ أنانيّتهم تأبى إلاّ أن تعلن عن نفسها هنا أيضاً، في حين يبادلهم العدوس شفقةً بشفقة وهو يشهد في أجسادهم غياب الروح. أمّا ما لا يغفروه هم للعدوس فهو الإستغناء عنهم الذي لا يفلح أمثاله في أن يخفوه مهما جاهدوا، لأنه بمثابة بيان الإدانة الذي يجاهر بعجزهم مقابل أعجوبة الغِنَى التي لا تعبّر عنها السيماء وحدها، ولكن يترجمها المسلك أيضاً. والإستغناء عن الناس هو الخطيئة الأخرى التي لا يغتفرها الناس. لا يغتفرها أهل الأسواق لأنها تلك الحرية التي حلموا بها دوماً وآمنوا بأنّهم لن يجدوا السبيل إليها أبداً. فلا يكفي أن نتخلّى للناس عن ما يحبّون كي يطمئنّوا إلينا، ولكن علينا أن نتخلّى لهم عن أسواقهم أيضاً في دنيا محكومة أصلاً بناموس السوق، ولكن كي نتّقي شرّهم علينا أن نتخلّى لهم عن الجسد أيضاً كبرهان أخير على حسن النيّة. لحظتها فقط ينهزمون، لأن الروح هو ما لا وجود له في دينهم. وهكذا أستجير بحال الجسد للوقاية من أوبئة سوقهم. أنسلّ عائداً إلى البيت لأكافيء نفسي على النجاة بكوب عصير فواكه طازجة صار بديلاً لمائدة الغداء منذ بداية حملة التنكيل بالجسد. في الواجهة ينتظرني العزاء الذي سيغسل وعثاء الغزوة. يكفي أن أضغط الزرّ لكي يتدفّق من الجهاز خطاب الأبدية الموجّه لسليل الأبدية: نداءٌ يستقيم في سياق اللحون متمتماً بسرّ البعد المفقود ليصير في حياتي منذ ذلك التاريخ فردوساً حقيقيّاً

Twitter: @alqareah

إلى جانب الماء والهواء. أسترخي على الأريكة لأسبح في المجهول قليلاً. في تلك الرحلة أستعيد حضوري وأضمّد جروحي الناتجة عن مدى الإحتكاك بأهل السوق، فلا يكتمل الشفاء قبل الإحتكام لصاحبة الجلالة ذات الأعمدة السبعة ترياقاً مترجماً في وصايا سينيكا أو أحد مريدي المحفل. فإن تبقّى شطرٌ من وقت قبيل حلول الظلمات فالخروج إلى الغابة لتقديم فروض الولاء والطاعة للطبيعة الأمّ هو حجٌّ شافٍ يسبق اللجوء إلى الفراش في طلب ميتة صغرى نستجديها لأنها في عرفنا نومة، مقابل نومة كبرى نخافها، لأنها في عرفنا ميتة!

Twitter: @alqareah

10

في ربيع 1987 أرسل سيّد قذّاف الدمّ مبعوثاً ليبلّغني رسالةً تقول أن ليس من الحكمة أن أغسل يديّ من كلّ شيء وأستجير بجبلٍ في موسكو لأترك المجال للأعداء كي يشيعوا في أوساط الداخل بأنّي قرّرت إعلاء راية العداوة للنظام وذهبت لأضمّ صوتي لصوت المعارضة بالخارج!

تلك كانت تهمةً جاهزةً في تلك الأيّام راق الخصوم أن يستخدموها ضدّ خصومهم بسبب وبلا سبب حتّى سفّهوا مبدأً نبيلاً كالإختلاف في الرأي كما سفّه هواة ذاك الزمان كلّ شيءٍ أصيل إلى حدٍّ برّر مساءلة أي مواطن غاب عن أرض الوطن مايزيد عن الشهر بحرف القانون، وأبرياء كثيرون خضعوا لاستجواب، بل وزُجّ بهم في الحبوس لا لشيء إلاّ لأنهم أخفقوا في إقناع الأجهزة بمبرّرٍ مقبول. لقد إستفزّتني تلك الرسالة الشفوية بقدر ما أضحكتني. إستفزّتني لأنها مسّت في نفسي قناعة قديمة ورثتها على ما يبدو في الجينات عن أسلافي الذين سنّوا تحريم عبور المياه عقب الدياسبورا الكبرى التي كادت أن تقطع دابر السلالة من وطنٍ ألمّ به مصابٌ هو التصحّر. ولهذا ظللت متشبّثاً بالوطن برغم كل صنوف الإضطهاد

Twitter: @alqareah

التي بدأت في العهد الملكي لأسباب أيديولوجية مزعومة وتواصلت في العهد الجديد لتضيف إلى الأسباب الموروثة عن النظام الملكي سبباً آخر أسوأ في يقين النظام الجديد وهو الهوية العرقيّة التي يرفض هذا النظام الإعتراف بها كهويّة ثقافيّة. وانتمائي إلى هذه الهويّة بالذّات كان حجّتي في التشبّث بأرضي بوصفي سليل السلالة الأصليّة، وكل ما عداها هو طاريء أقبل طلباً للإستحواذ على الغنيمة وإن برّر الحملة بإعلاء شأن رسالة دينية أو نشر بدعة قومية. ولهذا خضتُ حروباً حقيقية (كما بيّنت في الأجزاء السالفة من هذا البيان) إستعمل فيها النظام كلّ أسلحته، ولم يبخل باستصدار قرارات الإعتقال التي مسختها العناية الإلهية وحدها في حقّ الإنسان الوحيد الأحقّ بألاّ يتخلّى عن الوطن، برغم أنه الأكثر إستحقاقاً للجوء إلى ديار الغرباء منذ عام 1969 لعدّة أسباب أهمّها مواقفه المعلنة في وسائل الإعلام منذ الشهور الأولى لوصول العسكر إلى سدّة الحكم مثل المواجهة الحامية مع رئيس مجلس الثورة المنقولة على الهواء في أوّل مؤتمر صحفي عالمي في 1969 والذي حضره صحفيّون من مختلف دول العالم. ثمّ المواجهة الثانية مع شخص أبي منيار في ندوة الفكر الثوري (التي كانت نتيجة للمواجهة الأولى من حيث إستجابة لندائي بضرورة إشراك المثقّفين في المرحلة الجديدة) التي تُوّجت بمصادرة الكتاب الصادر عن الندوة وإتلافه. ليس هذا وحسب، ولكن أكبر مؤهّلات اللجوء في تلك الأيام كان هويّة الأقليّة التي لم يكن سرّاً أنّها مضطهدة منذ الشعارات الشوفينية التي

Twitter: @alqareah

رفعها الثوريون الجدد وكان العالم شاهداً على خطورتها. هذا بالطبع إلى جانب وجود مؤلّفات تؤهّل العدوس قبل غيره للحصول على لجوء سياسي في أيّ دولة غربية في وقتٍ كانت فيه دول الغرب تقبل اللاجئين لأسباب إقتصادية بحتة متساهلةً بذلك في شأن قوانينها التي لا تبيح اللجوء إلاّ لأسباب إنسانية قصوى كخطر الإعدام بسبب الخلاف في الرأي أو التعرّض لحملات التطهير العرقي. ولهذا السبب لم أكن لأستسلم لإغواء اللجوء حتّى يوم بلغ جنون النظام حدّاً مارس فيه ضدّ شخصي سياسة التجويع بحرماني من أبسط حقّ وهو العمل في وقتٍ كان يجلب فيه العمالة من مائة وعشرين بلداً. هذا الموقف من سيرة اللجوء هو ما أثار إستفزازي. أمّا سخريتي فأثارها إقحام موسكو في اللجوء المزعوم. فالمعروف آنذاك أن الغرب هو ملاذ المعارضة الليبية ونعيم أدعياء المعارضة أيضاً، أي تلك الفئة التي فرّت من البلاد لأسبابٍ أخرى لا علاقة لها بالسياسة ولا بالرأي كفلول الفارّين من التجنيد الإلزامي أو اللصوص الذين اختلسوا أموالاً، أو التجّار الذين خضعت ممتلكاتهم للتأميم، ووجدوا حيلة في الإحتيال على الغرب (وما أسهلها في تلك الأيام) لينالوا حقّ اللجوء. أمّا موسكو فلم تكن ملاذاً سوى لزعماء الأحزاب الشيوعية العالمية سيّما من دول أمريكا اللاتينية أو آسيا أو إفريقيا، أمّا من أوروبّا فلا يحضرني أنها آوت لاجئين منذ نكسة اليسار الإسباني إبّان الحرب الأهلية. وبرغم ذلك فإنّ القائمين على أمر ليبيا لم يطمئنّوا، ربّما لأنّهم ظلّوا على شكوكهم في شأن علاقتي بالسوفييت لا

Twitter: @alqareah

لميولي اليسارية فقط، ولكن لأنّي درست في أحد أهمّ معاهدهم بمنحة من أخطر مؤسسة ثقافية سوفييتية وهي إتّحاد الكتّاب السوفييت، وربّما لأنّي اقترنت بشاعرة سوفييتية كانت زميلةً لي. وربّما لأنّهم لم يطمئنّوا لنوايا السوفييت أيضاً طوال علاقتهم بهم بسبب إزدواج في سياستهم تجاه البلدان العربية التي يجاهرون بصداقتهم معها في العلن، في حين يواصلون دعمهم للأحزاب الشيوعية في الخفاء.

الخلاصة أنّي لم أشكّ في نوايا سيّد برغم أنه خذلني في زوبعة 1976 التي قادها هواري بومدين، وقد وجدتُ له العذر وقتها بسبب دِرايتي بسلطة الشائعات في مجتمع إستهلاكي متبطّل كالمجتمع الليبي الذي كان قد احترف آنذاك بدعة **التظاهر** بالعمل بدل الإخلاص في العمل، ليجد نفسه يحيا في ذلك الفراغ الذي يكون فيه اللسان هو فارس الأحلام، والعمل يفقد ماهيّته كصلاة. ولهذا لا يجب أن نستغرب أن تصدر قرارات ذات طبيعة مصيرية في حقّ أشخاص بناءً على شائعات حسب، وليس على حقائق. وثلاثة أرباع المؤامرات التي حيكت ضدّ شخصي هي تلك التي تبنّتها الشائعات، وأفلحت في أن تقنع بها السلطات.

ولا أنسى كيف حاول سيّد بإخلاص أن يبطل مفعول حقل الألغام المستزرع بحقّي في عام 1986 عندما بلغت الأزمة بيني وبين وزير الخارجية المقهور الذروة ليقف له إنسانٌ صار لي تالياً صديقاً وهو جاد الله عزوز الطلحي سنداً في هذه الحملة في وقتٍ كان يتولّى

Twitter: @alqareah

فيه رئاسة الوزراء. وقد حاول سيّد أن يقنع جاد الله في محادثة هاتفية كنت شاهداً عليها، وقد وعد الرجل خيراً، ولكن سلطة الإشاعة كانت أقوى كما توقّعت. في تلك الزيارة حاول سيّد أن يقنعني بمقابلة الإنسان الذي نصّبته الأقدار ليكون وليّ أمر الليبيّين، ولكنّي إعتذرت لسببين أوّلهما: لأنّي لا أملك جديداً أقوله له غير ما يعرف، وثانيهما: ليقيني بأنّه لن يستطيع أن يفعل شيئاً حتّى لو شاء أن يفعل، لأن الجيوب في ذلك التاريخ كانت قد استفحلت إلى درجة أنّهم هم من يحكم ليبيا، وليس من يظنّ البسطاء أنّه يحكم ليبيا. أمّا السبب الثالث فهو: **النّداء!** نداء الفرار الذي تبلور آنذاك ولم يبقَ إلاّ أن يترجم التوق للخلاص بالتنفيذ. تنفيذٌ غَدَت له رواية «البئر» شهادة.

ولكن في هذه المرّة أحسست بأنّ سيّد على صواب، لأنّ عدم وضع حدّ لما يتردّد في الأوساط قد يؤدّي إلى ما لا تحمد عقباه سيّما في تلك الفترة العصيبة المزمومة على كل مستوى. أوكلت للرجل مهمّة الإجراء وانتظرت بفندق باب البحر برفقة ماركيز «مائة عام من العزلة» في الترجمة الروسية التي كنت قد قرأتها لأوّل مرة منذ أعوام الدراسة بمعهد غوركي، ولم أجد فرصة أنسب لإعادة قراءتها من تلك المناسبة. إلتقيت صديقي القديم مظفّر النوّاب العائد للتوّ من المقابلة أيضاً فحدّثني كيف فاتحه الرجل في أمر قصيدة له سجّلتها مؤسّسة الإذاعة والتلفزيون، ولكنّها ظلّت حبيسة الأدراج ولم تجد طريقها للإذاعة لسببٍ ظلّ مجهولاً ولم يعرف حقيقته إلاّ في

Twitter: @alqareah

ذلك اللقاء حيث قال صاحب الشأن أن التقارير التي كُتبت بشأنها تقول أنّه هو المقصود شخصيّاً في متن الإدانة الرمزية الواردة في نصّ القصيدة، ولكنّ مظفّر سخر من هذا الإدّعاء قائلاً أن قصائده تحفل بسبّ الحكّام العرب بلا استثناء قبل أن يُقبل كلاجيء في ليبيا، ولكنّه لم يكن ليخصّص قصيدة ذمّ في شخصه ثمّ يقبل البقاء في بلده. ولدهشة مظفّر أنه فوجيء بالقصيدة المصادرة تُذاع في التلفزيون في الليلة التالية مباشرةً. وهو درسٌ لقّننا أمرين. الأوّل: المدى الذي بلغته سلطة الأجهزة في الحياة العامّة، والثاني: كم هو أسير هذه الآلة الرهيبة وليّ أمر الليبيّين، وكم هو بسيطٌ أيضاً وليّ الأمرّ هذا بحيث يقتنع بكلمة فيلغي خطراً دام أعواماً بكلمة أيضاً.

كان مظفّر النوّاب طريد الأنظمة ونزيل المنافي في تلك الأيام. وها هو يحلّ في ليبيا قادماً من بيروت عام 1974 حيث كنّا نجالسه في مقهى فندق الشاطيء الذي كنّا نقيم فيه معه. ثمّ انتقل للسكن في بيت بالحيّ الإسلامي، وكان يدعونا مع بعض الأدباء إلى موائد العشاء حيث يطعمنا بيديه الأكلات العراقية الشهيّة التي لا تزداد لذّة طعومها إلاّ لأنّ مظفّراً هو من إستحضرها بيديه. وكنّا نحضر قراءاته الشعرية في مختلف المناسبات والأمكنة في وقتٍ كان فيه هذا الإنسان الزاهد، المعتزل، المتصوّف، والأنبل، نجم الشعر العربي المجبول بروح الرفض بلا منازع. وهو رفضٌ ليس ككل رفض، ولكنه رفض المبدع الذي أعاد لمبدأ اليسار مفهومه المفقود كنزاهة، لا كمعبودٍ قبيح هو الأيديولوجيا في وقتٍ كانت فيه هذه السعلاة في

Twitter: @alqareah

ذروة مجدها، برغم أنها ما لبثت أن خيّبت آمال مريديها. وأحسب أنّ الروح الصوفية كانت شعرة شمشون هذا الإنسان، ولها يرجع الفضل في إنقاذ مظفّر من شرك الزمان ذاك ليتميّز شعره عن بقيّة شعراء جيله بذلك النَّفَس الزهدي العميق الذي يسري في شرايين موقفه الشعري سواء إزاء الوجود، أو إزاء السلطة. لقد عاش ليغنّي للأخيار «وَتَريّاته الليليّة» غير آبهٍ باستصدار أشعاره في دواوين كأنّي به هوميروس الزمان الذي يترنّم بأغانيه لنفسه برغم قوّة الفحوى في رسالته، ليقدّم بهذا دليلاً آخر على زهده، وموقف هو الشهادة على قطيعته مع كلّ شأن في الدنيا قد يهدّد حرّيته.

مظفّر النوّاب يعيش شعره مترجماً في حرف وجوده: وجودٌ يؤكّد حضوراً في لا دنيويّته.

Twitter: @alqareah

11

في الفندق تلقيت مكالمة من أحمد رمضان أمين سرّ قيادة الأركان يدعوني فيها للإستعداد للمغادرة بسيارة المراسم التي ستصلني بعد ساعة لتقلّني إلى المطار. هناك وجدت في انتظاري سعد مجبر مدير التشريفات آنذاك بصحبة سفير جمهورية إيران الذي غادر معنا إلى سرت بغرض المقابلة في شأنٍ طاريء ذي صلة (كما استنتجت من الحوار بين الرجلين) بالتنسيق بين البلدين في الشئون الدولية، برغم العلاقات المزمومة بينهما بسبب قضية الإمام موسى الصدر الذي كان قد إختفى إثر زيارته لليبيا منذ السبعينيات في ظروف غامضة، في حين حمّلت الأوساط الدينية الشيعية أجهزة النظام مسئولية إختفائه.

في الفندق بسرت تلقّيت إتصالاً من سيّد لتحيّتي، ولكنه إعتذر ليرجيء إلتقائي إلى حين التحرر من بعض المسئوليات العاجلة. كانت تلك فرصة لزيارة ذلك الحرم المهيب الذي أحببته في بلادي دوماً لحميميّته ولشبهته بفردوسي الصحراوي المفقود وهو: البحر! إنه كالصحراء لا يملك إلاّ أن يعد بما يملك حقّاً وهو الحرية مقابل غياب ماءٍ هو في ناموسه ظلٌّ لماءٍ يروي ظمأ الجسد، ولكنه سلسبيل

Twitter: @alqareah

كل ظمآنٍ إلى الروح. في هذا الساحل يبدو البحر وحيداً كما لا يكون في أيّ مكان. فهو مهجورٌ دوماً بسبب القطيعة القديمة بينه وبين أهل المكان الذين لم يعترفوا به يوماً، كما لم يعترف بهم يوماً. لم يعترفوا به بسبب زيف الفحوى، ولم يعترف بهم بسبب منافستهم له في عشق معبودته الصحراء! ولكني لم أعتنق عرفهم في العلاقة مع هذا المجهول فرأيته وجهاً آخر للصحراء، لأنّ قاسمهما المشترك الأعظم ليس الماء، ليس سرّ حياة ذات حضور في الحرف الذي هو الجسد، ولكن قاسمهما المشترك هو سرّ الروح الذي لا وجود له خارج الحرية. الحرية كلغزٍ كان هاجس كل أعمالي منذ التجارب المبكّرة لا في بعدها الحرفيّ الذي ابتذلته السياسة أو عبدة الأيديولوجيا، ولكن في بعدها الكينوني، وفي مفهومها الغيبيّ أيضاً. وكم أسعدني أن يعترف لي العالم بهذا التناول مترجماً في ما توّج به أعمالي من عديد الأوسمة والجوائز، بقدر ما أحزنني أن يغيب هذا البعد عن أبناء جلدتي لا لأنهم لم يقرأوا فقط، ولكن لأن البعد الوجودي في هذه المعبودة الأزليّة هو البعد المفقود في حياتهم بالذّات. فكيف نطلب من أناسٍ لم يعرفوا الإحساس الوجودي للحرية في نفوسهم أن يعترفوا بنصٍّ أدبيٍّ يتغنّى بالحرية في بعدها الغيبيّ أيضاً (المثيل للحاجة إلى وجود الله) إلى جانب بعدها الوجودي الغائب في مفهومهم غيابه من حياتهم؟

مشكلة الثالوث في أبعاد الحرية تغري بالتأمّل، والبحر دوماً لا يبخل بالبلاط. فالمحنة في شأن الحرّية تطرح الوجه الآخر وهو

Twitter: @alqareah

العلاقة مع السلطة لنفاجأ هنا أيضاً بالمفهوم **الحرفيّ** للسلطة على حساب بعدها الأخطر وهو **الوجوديّ**. فالسلطة بالنسبة لعالمنا المغترب عن المعرفة والغائب عن حقيقة الوجود هي دوماً مفهومٌ **سياسيّ** مباشر لا يتعدّى مفهوم العلاقة بين حاكمٍ ومحكوم. وكان من الطبيعي في مجتمع يعتنق يقيناً كهذا أن يغترب الإبداع أيضاً فلا تنتج المواهب سوى فنونٍ وآدابٍ خاليةٍ من العمق الفلسفي، ومجبولةً بروح التقرير، في دوّامة من التكرار المجرّد من روح الشعر والمعادي لقوانين الجمال، كما هو الحال مع مغامرة الأدب العربي الحديث لا في جانبه الروائي وحسب، ولكن في جانبه الشعري أيضاً. والسبب ليس في الهوس بالأيديولوجيا أو العقليّة الحرفية في العلاقة مع رموز الوجود الإنساني وحسب، ولكن في **التقنية** أيضاً. هذه التقنية التي لعب فيها غياب **الأسطرة** (التي هي حقيقة الإبداع منذ أرسطو) دور البطولة. وهو ليس مجرّد غياب، ولكنّه للأسف إستهانة أيضاً. فمازال المبدع العربي يكابر ولا يريد أن يعترف بأنّ الإبداع ليس عقيدةً سياسية، ولكنه ببساطة **أسطورة!** أسطورة ذات قوانين صارمة أوّل حرف في أبجديّتها هو أن تكون نابعةً من الواقع البيئي، وليست مستقدمةً من خارج هذا الواقع أو مفتعلة. أي أنّ الأصالة في صنع الأسطورة هو مسألة حياة أو موت بالنسبة للنصّ الأدبيّ. والمفارقة أن يُستهان بالأسطورة في واقع مجتمع عاش الأسطورة يوماً، بل ومازال يعيشها إلى اليوم دون أن يفلح أحد في صياغة هذه الأسطورة المعاشة!

Twitter: @alqareah

فالمعبود في الأدب العربي المعاصر هو **الواقع**، أو حرف الواقع، بدل أن يكون **روح الواقع**. هذه الروح التي لا تستقيم بدون التحديق في غيوب الرؤيا التي تسكن ملكوت المستعار، لا الرؤية في عدسة شاهد العيان. ولهذه العلّة يكون الأشرف لمريد الجنس الأخير أن يحترف الأدب السياسي، لا الأدب الإبداعي، أو يمارس السياسة في بعدها النقيّ، ويعمل بوصيّة تولستوي القائلة بوجوب أن نتخلّى عن ممارسة الأدب فيما إذا استطعنا إلى ذلك سبيلاً، لأن ذلك سيعني أنه ليس مسألة حياة أو موت بالنسبة لنا. أمّا الزجّ بالأدب في ما تسمّيه زعيمة الأزمنة الحديثة الأيديولوجيا **بالنضال** فنزعة دخيلة لا علاقة لها بالأدب كإبداع، ولكنّه فكرٌ سياسي يسعى لتدجين الأدب لحساب عمل لا أخلاقي هو السياسة على حساب مبدأ جمالي يحمل رسالة إنسانية لها قوانينها الخاصّة.

ذلك أن المشكلة ليس في أن نعترف بالسلطة السياسية أو لا نعترف، ولكن في أن هذه السلطة لا تعترف بنا مهما اعترفنا بها. والدليل في النزعة الإقصائية التي تعامل بها السلطة الإنتليجنسيا عموماً (المبدعين خصوصاً) حتّى في الأنظمة الأكثر إدّعاءً للديمقراطية، ولا يعترف الحاكم بوجودهم على خارطة المجتمع إلاّ إذا أعيته الحيلة في نفيهم، أو الوسيلة في تجاهلهم. فالمبدع وباءٌ لا في مفهوم الأنظمة الشمولية وحدها، ولكنه الخطر الذي لا يُؤمَن جانبه في الأنظمة التي تتغنّى بالديمقراطية أيضاً لعلمها بأنّ هذا المخلوق هو العنقاء الوحيدة القادرة على كشف الخطأ الشائع الذي

Twitter: @alqareah

لا يرى فرقاً بين الديمقراطية وبين الحرية؛ لأنه الوحيد الذي لن يعترف بحضور الحرية في نظامٍ يرتعد خوفاً من الحقيقة التي لا وجود لها خارج الحرية، برغم تشدّق هذا النظام بتحقيق الحرية المزعومة بخرافة الديمقراطية الملوّثة بنفس السياسة الكريه. هذه السياسة اللاأخلاقية التي حاولت وتحاول أن تقنع البشرية بعدم وجود بديل لصناديق الإقتراع لا لحجّة حقيقيّة، ولكن لمجرّد الإنتصار لمبدأ «ليس في الإمكان أبدع ممّا كان». وهي النزعة التي أدانها أحد رموز العصر الأدبية وهو غونتر غراس في روايته: «هذا حقلٌ شاسع» الصادرة عقب إنهيار جدار برلين ليخلص إلى القول أن إنهيار نظامٍ لا يعني صواب النظام المضادّ، لأنّ التاريخ عرف أنظمة شمولية كثيرة أفضل من أنظمة ديمقراطيّة كثيرة، ليحصد الرجل هجوماً عنيفاً من قبل الأغلبية الثقافية الغربية يتزعّمهم عميد النقد الغربي المعاصر رانيتسكي الذي مزّق الرواية بطريقة إستعراضيّة أمام عدسات وسائل الإعلام، فإذا بغونتر غراس يخرج من المعركة منتصراً بتتويجه بجائزة نوبل للآداب، كأنّ لجنة الأكاديمية السويدية قرّرت أن تكفّر عن خطيئتها في تسييس الأدب العالمي طوال أربعة عقود، مخالفةً بذلك تقليدها القديم في منح جائزتها لأدباء «الضفاف الأخرى» في ذلك الزمن الذي كان فيه اليسار العالمي مازال خصماً عاتياً لم يملك سلطةً على السياسة الدولية وحسب، ولكنه إنتزع لنفسه موضع قدم داخل محفل الجائزة أيضاً!

Twitter: @alqareah

فنحن لا نقدّم نظرية جديدة عندما نقول أن رسالة الفكر إذا كانت الإظهار، فإنّ رسالة الإبداع هي **الإخفاء**، هذا الخفاء الذي إذا اغترب عن طبيعته فاستظهر فقد تحوّل خطاباً عارياً، أي بياناً سياسياً، ذا هويّة دعائية غير معترف بها في شرع الفنّ.

كان ذاك زماناً أيديولوجيّاً بلا منازع سرت أنفاس السياسة في شرايينه عميقاً بحيث قُدِّر لجيلنا الشقيّ أن يطلّق هويّته الطبيعية ككائن كينوني لينتحل هويّة مبتذلة موبوءة بالأوهام المبثوثة في حرف نظريّات معادية لكلّ ما متّ للروح بصلة. وكان من الطبيعي في واقعٍ كهذا أن يغترب عن الدنيا أنفس ما في الوجود: **الحقيقة!**

وأحسب أن إغتراب هذه المعبودة عن عالمنا هو سرّ المرض الغيبيّ الذي ألمّ بالقلّة، وكلّ التقنيات القاتلة التي إعتمدها العدوس في رحلة ردّ الإعتبار للهويّة الروحيّة كانت عتبات في سلّم البحث عن هذه المعبودة الضائعة.

Twitter: @alqareah

12

في اليوم التالي لوصولي إستقبلني الرجل الذي لم ألتقه فعليّاً منذ عام 1969 لأكون شاهداً على فعل الزمن في شخصه، أو ما فعلته به الصفقة مع ربّ السلطة. فإذا كان الشيب الذي غزا شعر رأسه بسخاء هو عملٌ من فعل الزمن، فإنّ الإيماء في السيماء لم يكن مسئولية الزمن، ولكنه شأنٌ من إختصاص السلطة. إنّه إيماءٌ مزمومٌ، مكتومٌ، موسومٌ بوسوسة من لم يعد يثق بأحد، أبدعه يقيناً شبح الموت الذي رآه الرجل مجسّداً في المحاولات الإنقلابيّة الكثيرة، ومجسّداً أكثر في الغارة الأمريكية على باب العزيزية في إبريل 1986، مما زعزع الثقة بالنفس، وشكّك في اليقين الخفيّ بالبقاء الأبديّ على قيد الحياة! والدليل على هذا اليقين ترجمه موقفه من الحال الذي آلى إليه جسد إنسان إستمرأ التنكيل بهذا الهيكل كما هو حالي. موقفٌ فاجأني أيضاً، لأنّي في حمّى هوسي باكتشاف الروح نسيت ما يمثّله هذا المعبود الشقيّ في نظر الناس إلى الحدّ الذي أصاب فيه مضيفي بالهول فخاطبني مستفهماً عمّا حدث قبل أن يضيف مستنكراً كيف لم أعالج نفسي! فالهيكل العظمي المتنقّل الذي كنت أحمله بدل أن يحملني كان في وضع التلاشي فلم يخطيء صادق النيهوم عندما

Twitter: @alqareah

مازحني قائلاً: «أنت تشرف على الإختفاء!». وأعترف اليوم بأنّي أزداد اعتزازاً بنفسي كلّما هال الأغيار وضعي، لأنّهم لا يدرون أنّي لم أكن عليلاً كما كنت عندما كان هذا الجسد يبدو للناس رمز العافية، كما لم أكن معافىً كما كنت في هذا الوقت الذي تبدّى فيه هذا الوزر للناس زائلاً!

ولكنّ الجليّ أيضاً أن عقدين من الزمن من النكسات ومن العراك العبثي مع الداخل والخارج لم تقتل حتى ذلك الوقت وهج الفطرة الذي كان لهذا الرجل نقطة قوّة. هذا الوهج كان له الدليل في خلع ثوب الزعامة جانباً والتحلّي العفوي بروح الضيافة من خلال لمسات إهتمامٍ تبدو تلقائية كجزعه على ما حلّ بحضرة الجسد بنبرة صدق، أو أمره بإستحضار طبق التمر وكوب حليب الإبل على سبيل المثال! إنها الخصال الصغيرة التي تؤنسن إنساناً يراه الناس بعبعاً من موقعه في عرش الزعامة. ثم هناك النزعة الأريحيّة التي تهب الحوار دوماً طبيعةً، بل وحتى الحميميّة بحيث يمكن التأكيد على قدرة هذا الإنسان على استبعاد **القناع** تماماً. وهو ما لم يعتد أن يفعله مع أضياف من طينة أخرى كما اكتشفت في السنوات التي إلتقيته فيها تالياً. فلا أحد ينكر أنه عامل تلك الفئة التي تنتمي لحقل الثقافة معاملةً خاصّة جدّاً، كما لم يحدث أن عاملني يوماً كوليّ أمر يلتقي مواطناً، ولكن إستقبلني دوماً بالمراسم التي يستقبل بها رؤساء الدول، وعاملني معاملة الندّ الذي ليس له إلاّ أن يُكبِر ندّاً.

في تلك الجلسة حدّثته عن مأساتي مع الإدارة الليبية في التجربة

Twitter: @alqareah

الأخيرة لأنتهي إلى أن ما قرأه في جسدي ما هو إلاّ الجراح التي سبّبها العمل مع هذه الملّة. وخطيئتي أنّي صدّقت بوجود قضية وطنية إسمها صيت ليبيا، أو رسالة ثقافية إنسانية إسمها الثقافة العربية، أو الحضارة الإسلامية، ولكنّي اكتشفت طوال تجربتي المريرة في بولندا أن هذه خرافات لا وجود لها في قاموسهم، ولهذا تكأكأوا على شخصي فانتصروا لأنهم يملكون القوّة في حين لم أملك في المعركة سوى قلبي المجبول بحبّ بلدي. وعندما تركت كل شيء ونجوت بما تبقّى من جلدي، لاحقوني بالتّهم كأنّه لم يكفهم ما فعلوه بي. لقد فررت منهم، ولكنّي لم ولن أفرّ من ليبيا. وكل ما أريده الآن هو أن أخلوا إلى نفسي لأضمّد جراحي بسلام.

أذكر كيف استنكر بعبارة لا أذكرها حرفياً، ولكن ما لم أنسه هو تعقيبه حرفياً عندما قال: «من حقّك أن تهرب منهم! ولو إستطعتُ أن أفعل مثلك لفعلت!». ثمّ بدأ يسرد كيف خذله كلّ مسئول كُلّف بمهمّة عامّة، وكيف خذلته أيّ جهة أو مؤسسة أو وزارة في تنفيذ أيّ مشروع تمّ الإتّفاق عليه. ثمّ أضاف ساخراً أنّ أسوأ ما في الأمر هو المبرّرات التي دأبوا على تقديمها في كلّ مرّة. وضرب أمثالاً على الخذلان بالمشاريع الزراعية والصناعية التي تُنفق عليها المليارات لتنتهي إلى الفشل. كان ذلك إعترافاً خطيراً، ولكنّه لم يعدم الشجاعة في رأيي، سيّما أنه لن يعني ضمنيّاً سوى إفلاس سياسته سواء التنموية أو الإقتصادية أو الإدارية. وهو ما لم يكن لتسمح به كبرياؤه لأن يدلي به لا أمام العالم، ولا أمام شعبه، حتّى أنني لا أدري إلى هذا اليوم لماذا اختارني من دون الناس جميعاً لأكون شاهداً على هذا

Twitter: @alqareah

الإعتراف! هل يعقل أن يكون مؤمناً بينه وبين نفسه بأنّ المبدع هو ضمير أمّته، والإعتراف في حضرته هو بمثابة فوز رمزي (أو فلنقل نفسي) بصكّ غفران يعيد به السكينة إلى نفسه؟!

هل يُعقل أن يكنّ أهل السلطة إجلالاً خفيّاً لسلطة الإبداع وإن لم يعترفوا به لأنفسهم علناً؟ أم أن سلطان الزهد الذي أطاح بعرش الجسد هو الذي فرض نفسه كما فعل يوماً مع الإسكندر المقدوني في حضرة ديوجين، أو يوليوس قيصر في حضرة شيشرون؟

وأحسب أن هذه الروح التي تلبّستني في تلك الأيام، وكنت بها سعيداً أيّما سعادة، هي التي دفعتني لأحجم عن ذكر أسماء الخُطاة الذين كانوا سبباً في وأد المجلّة أمثال المقهور وزير الخارجية أو جاد الله الطلحي رئيس الوزراء أو حثالات الخارجية الليبية الأقلّ شأناً والأكثر ضرراً ككلّ الحشرات، برغم إلحاحه في معرفة من المسئول عن قتل هذا العمل ذلك أن أخلاقيّاتي التي ورثتها عن أسلافي تمنعني من الخوض في سيرة أناسٍ أساءوا لنا، برغم يقيني أنّهم لم يكونوا ليرحموني لو وجدوا أنفسهم في موقفٍ مماثل. في تلك الجلسة ترفّعت أيضاً عن سلسلة المؤامرات التي تعرّضتُ لها على أيدي السفلة، بل ولزمت الصمت إزاء حملات الإضطهاد العرقي الذي تعرّضت له منذ 69 لتبلغ حدّ التجويع بالحرمان من العمل. لم تكتفِ سلطة الزهد بهذا ولكنها أبت إلاّ أن تمتنع أيضاً عن الخوض في الإيقاف الظالم واللاقانوني لمعاشٍ هو حقّ للكلّ برغم مرور ما يزيد على العام والنصف على هذه المكيدة. ليس هذا وحسب، ولكن روح التخلّي غرّدت لتضيف للملحمة أنشودةً أخرى عندما

Twitter: @alqareah

امتنعت عن طلب علاجٍ هو حقٌّ لكلّ الليبيين تلك الأيام، سيّما إذا كان سفهاء الإدارة الليبيةِ وأشرار الخارجية هم سبب المرض أصلاً!

كان ذاك إنتصاراً على حطام الدنيا، ومن حقّ الروح أن تحتفي بانتصارها، فإذا بها تتمادى فتلتمس من صاحب الشأن الإنسحاب من أيّ عمل أو أي مسئولية منذ ذلك التاريخ بعد أن أعيتني الحيلة في إيجاد لغة مشتركة مع هؤلاء الأشباح.

قلتها حرفيّاً وبصريح العبارة، ويسعدني اليوم إلتزامي بهذا القرار منذ ذلك التاريخ، برغم إصراره في تلك المقابلة على إعادة إصدار المجلّة، وبرغم كل الإغراءات التي حاولوا إستدراجي بها إلى ساحة باطل الأباطيل مرة أخرى كما سيأتي في ما سيلي في فصول أو أجزاء. بل لقد أصدر أوامره في تلك المرّة لإعادة إصدار المجلّة بالفعل، ولكنّي لم أمتثل للأمر. كل ما فعلته أنّي اخترت صديقي القديم محمد الزنتاني (السفير السابق بالمجر) ليكون لي في تلك المهمّة بديلاً. وكي أُيسّر له الأمر خضت معركة شرسة كي أنتزع له من الخزانة مبلغاً يستطيع أن يبدأ به مسيرته دون أن أتقاضى من هذا المبلغ قرشاً واحداً برغم حقّي القانوني في نيل رواتبي المستحقّة. ففي تلك التجربة أدركت أننا لا نحتاج إلاّ للإرادة كي نستغني عن تلك الأشياء التي نحسبها ضرورةً لا غنى لنا عنها!

ولكن المثير للتأمّل في ذلك اللقاء هو المرارة التي تحدّث بها صاحب سلطة ليبدو شقيّاً بسلطته بدل أن يكون سعيداً بها. وهو ما يكشف سوء فهمٍ عميق في علاقة هذه السعلاة مع مريديها. فهم

Twitter: @alqareah

يعوّلون عليها كي يتّخذوها مطيّةً لتحقيق أحلامٍ مثالية، ولكن السلطة ترفض أن تكون مطيّةً، لأنها لا تريد أن تشرك بنفسها شيئاً سواها مثلها مثل الربوبية تماماً. أَوَ لَيست أساساً بديلاً غيبيّاً للربوبيّة؟ وهو ما يكشف عن وجود دراماً ما في العلاقة مع هذه المعشوقة الخالدة التي لا نملك إلاّ أن يستثير عشّاقها شفقتنا سيّما إذا آمنّا مع محفل الحكماء السبعة بالقدر الذي ينتظر هؤلاء البؤساء على يديها بعد أن برهنت التجربة أنّهم لا يهنأون بحبّهم، كما لا يموتون أبداً على فراشهم ميتة السلام كما يموت كل الناس!

ومع هذا لم أملك إلاّ أن أشعر بالإمتنان لهذا الإنسان على إعترافه لأنّ نبرة الصدق في شكواه وخيبة الأمل في لهجته غذّت يقيني الخفيّ باجتناب كل ما له صلة بهذه الصفقة المنكرة التي ننال بموجبها العالم لكي نخسر أنفسنا حتّى لو كان نيلنا للعالم فعلياً، فكيف إذا كان دوماً وهميّاً؟

كما لم أملك أيضاً إلاّ أن أكون له ممتنّاً على موقفه يوم راهنتُ على براءتي عندما حرّضه زعيم عربي مثل بومدين على التخلّص منّي، فسعى في طلب الحقيقة بدل أن يستصدر في حقّي حكماً ظالماً هو ملك يمينه في مرحلة كانت فيها القاعدة السائدة مقلوبةً رأساً على عقب بمنطق يقول أن الإنسان مذنب حتّى لو ثبتت براءته بدل أن يكون العكس هو الصحيح.

فهل هو التسامح من جانب عدوسٍ لم يرَ في دنياه طوال الرحلة سوى الكيد ولم يعرف غير الجور؟

Twitter: @alqareah

كلّا! لا أرى في هذه النزعة تسامحاً، ولكنّها محاولة لفهم حقيقة الإنسان في موقع السلطة من موقف الحياد. وهو ما يستدعي أن أتصوّر نفسي مكانه إذا شئت أن أحكم بالعدل! وكم كنّا سنغفر خطايا أولي الأمر لو تخيّلنا أنفسنا نمارس دورهم شريطة أن نفعل ذلك بما يستحقّ من إخلاص. بل ربّما فوجئنا بأنفسنا نمارس جوراً يفوق جور من حسبناهم طغاةً وظلّامين للعبيد. فالواقع أن لا وجود لسلطة عادلة في أيّ يوم، والنماذج التي تمرّدت على مشيئتها في التاريخ لم يكونوا الإستثناء الذي يثبت القاعدة إلاّ لأنهم من طينة القدّيسين الذين تنكّروا في أجرام حكّام ليبرهنوا على وجود معجزة إسمها الإيمان بوجود الله كضمان وحيد لوجود عدالة السماء فيما لو اغتربت العدالة من دنيا الأرض.

صحيح أنه صادر كتبي، ووضع إسمي في القوائم السوداء، وأصدر الأوامر باعتقالي مراراً، وتعرّضت لسياسة تجويع بحرماني من العمل، وخضعت للإضطهاد بسبب الهوية الثقافية، ولكن هل أملك الحقّ في أن أتّهم المخلوق الذي كُتب عليه ألاّ يرى بعينيه، ولا يسمع بأذنيه، ولا يتحقّق بنفسه، بل ولا يصدر حُكماً إلاّ بناءً على حيثيّات مرسومة بأهواء الأشباح الذين يحومون حوله آناء الليل وأطراف النهار؟

من يمتلك السلطة إذاً ليس الدمية الشقيّة التي تتصدّر الواجهة، ولكن الزبانية الممسكين بخيوط الدمية ليديروا المهزلة من وراء ستور الخشبة.

ورسالتي كمبدع هي رصد القوانين الغيبيّة التي تحكم اللعبة

Twitter: @alqareah

الشيطانية من خلال قوانين الأسطرة، كما فعلت في كلّ أعمالي الروائية وفي القصص القصيرة أيضاً وذلك بهدف التعبير (إستعارياً بالطبع) عن لغز غياب العدالة في حضرة السلطة الأرضية المسيّرة بمشيئة المخلوق الفاني التي لم ولن يكتب لها أن تتحقّق ما لم يتنازل صاحب الشأن الأعلى عن علوّه ويتنزّل ليقوّم الأمر بمشيئته.

فالموقف من السلطة كالموقف من الوجود ذاته: صوفيّ بقدر ما هو فلسفي، ديني بقدر ما هو وجدوي.

في هذا البعد تعترض سبيلنا حقيقة ذات أهمّية قصوى: فأمثالي هنا ليسوا معنيين بالسلطة كأشخاص، ولكن بالسلطة كقيمة وجودية، وكمعضلة فلسفية وإلاّ إنقلبنا كمبدعين أبواقاً دعائية بقدرة قادر. فالسلطة كتجربة سياسية لا تهمّ إلاّ من ينوون أن يكونوا فيها شركاء، أي أن يمارسوها عملياً كساسة. وهي شراكة لها قوانينها من حيث هي غنيمة دنيوية كما هو شائع في العقلية السائدة حيث تفترض الإلتزام بأعراف المنافسة وماينتج عن المنافسة من مؤامرات. وهي مسألة لا علاقة لها بالعدالة البتّة برغم أن الأطراف المتخاصمة تلوّح بها كحجّة للفوز بالسلطة لا أكثر دون أن يستحي الطرف الفائز من أن يتنكّر لهذه العدالة ما أن يضع قدمه في بلاط السلطة. ولكن مأساة عصرنا في خطيئة مطالبة المبدع بالموقف السياسي المباشر من هذه المبارزة الأبدية السخيفة على نحوٍ لم يشهده تاريخ الآداب دون أن يوضع في الإعتبار أنها في الواقع دعوة لممارسة السلطة (من خلال لعبة السياسة) بدل أن تكون دعوة لممارسة واجب المبدع الحقيقي وهو إدانة مبدأ السلطة أصلاً.

Twitter: @alqareah

هذه النزعة أساءت لمفهوم الأدب وغرّبته عن رسالته الحقيقية التي تحترف إستخلاص النماذج من فوضى النشاط البشري، وتحويل هذه النماذج رموزاً تتحوّل مع الوقت دستوراً لا يهبنا اللذّات الجماليّة وحسب، ولكنّه يصير في الوعي درساً أخلاقيّاً أيضاً.

هذه النزعة أجرمت في حقّ الآداب لأنها لم تكتفِ بتغريب رأس مال الأدب وهو القيَم، ولكنّها عبثت بقوانين الأدب أيضاً ليغدو الخطاب السياسي الفجّ عنواناً رائداً في الأدب!

إنّها خطيئة الأيديولوجيا في تسطيح الأشياء، وابتذال العالم، بحيث لا يصير الموقف من الحقيقة هو المقياس، ولكنه الموقف من الأيديولوجيا التي ترى في السلطة السياسية (وليس الوجودية) الرهان الأخير في الحياة. وعلّ جواب جيمس جويس على سؤال الصحفي السوفييتي عن رأيه في ثورة أكتوبر العظمى عبّر عن ضلال العالم أخلاقياً عندما قال أن ثورة أكتوبر ظاهرة دنيوية لها علاقة بالعالم الخارجي، وهو كمبدع معنيّ بعالم الإنسان الباطني لا الخارجي!

السلطات السوفييتية إكتفت بإدراج جويس في القائمة السوداء جزاء هذا التصريح، أمّا سلطات عالمنا الثالث فلن تكتفي بمصادرة كتب مارقٍ كهذا، ولكنّها سوف تطالب يقيناً بمحاكمته عقاباً له على هذا التجديف في حقّ «عالمٍ خارجيٍّ» هو في عرفها قدس أقداس؛ هذا إذا لم يعاقَب بالصلب، لأنّ الكفر بـ«العالم الخارجي» كفرٌ بالحرف، والكفر بالحرف في عرفهم كفرٌ بربّ السماوات والأرض. فالأيديولوجيا هي الدّين الذي لا يعترف بالروح التي يصرّ القدّيس على أنّها تحيي، مقابل الحرف الذي يصرّ أنّه يميت!

Twitter: @alqareah

13

لم أتخيّل أنّي سأخرج من ذلك اللقاء بقيدٍ جديد بعد أن ظننت أنه سيعفيني من قيدٍ قديم. وها هي نيّة صاحب الأمر تقضي بوجوب إعادة إصدار مجلّة كانت لي كابوساً لم أصدّق أنّي تحرّرت من وزره ربّما ظنّاً منه أنّها رغبتي الخفيّة في واقع تلك الأيام الذي لا يلتقيه فيه أحد إلاّ طمعاً في قضاء حوائج دنيوية، ولا يدري أنّ العدوس من طينة لا ترجوا من سادة هذا العالم سوى أمانٍ هو من حقّها كي تختلي بنفسها لمعاندة مرضٍ عضال إسمه الحياة الدنيا إنتظاراً للميعاد الذي سيقضي فيه الله أمراً كان مفعولاً! وعلّ الحال الذي وجد فيه العدوس ذلك الرجل كان سبباً إضافيّاً ومجّانياً في صواب خياره، لأنّ لا وجود لبرهانٍ على وجود يقينٍ من أن نكتشف أن مَنْ إنتظرْنا منهم عوناً هم أحوج الناس إلى العون. والإنسان الذي توهّمنا أنّه يملك أمر الناس هو في الواقع مَنْ لا يملك من أمره شيئاً! فما أحمقنا أن نطلب عوناً من أناسٍ هم أعجز الخلق عن عون أنفسهم!

لم أستنتج هذا اليقين من لقاء السيد أبي منيار وحسب، ولكن من التجربة مع خلق الله أيّام المخاض في طريق الميلاد الثاني. أي زمن الحملة للإطاحة بعرش عبدٍ نصّبناه على أنفسنا ربّاً، واستوجب

Twitter: @alqareah

أن نعيده عبداً كي نكون له أرباباً. كنت أعجب في الفترة التي عشتُ فيها إنهيار الجسد من أناسٍ يرتجّون لمرأى إنسانٍ إستطاع أن يقهر هذا المارد برغم أنّي عرفتهم بالأمس أهل سطوة وقوّة إرادة، وها هم ينبهرون بسفسافٍ تبدّى في نظرهم بطولةً كالإقلاع عن آفة قاتلة كالتدخين، أو التخلّي عن شرب القهوة أو الإستغناء عن طعومٍ هي جثث نسمّيها لحوماً، لأنّ الناس يُكبرون فينا حتّى استعادتنا لهويّتنا الطبيعية عندما نتحوّل كائنات نباتيّة لا لشيء إلاّ لأننا تمرّدنا على عبوديّتنا للعادة واستجرنا بفردوسنا الذي أضعناه!

ولا أنسى الإستنكار الذي غزا سيماء صديقي اللبناني الذي زرته ببيروت في تلك المرحلة فاحتفى بي بوليمة هي فنٌّ أتقنه اللبنانيّون دوماً ليكتشف في آخر لحظة قطيعتي مع لحومٍ هي في العرف السائد سلطانة المائدة!

ولكن ما لم يخطر لي على بال يوماً هو أن يكون صيامي عن تلك النفاية التي اعتدنا أن نسمّيها أخباراً محلّ إكبار من قبل الأغيار. ففي الفترة التي حططت فيها الرحال على جبال الألب السويسري فوجئت في إحدى زياراتي للسفارة بالسفير يقدّم لي شخصاً قال أنه أحد كبار موظّفي بعثتنا لدى الأمم المتّحدة المعتمدة بجنيف عبّر له مراراً عن توقه للتعرّف إلى شخصي لا ليسائلني عن أعمالٍ أدبية لي قرأها، ولكن ليعرف عن كثب الإنسان الذي سنّ في حياته حظْراً على الأخبار وطرد من بيته جهاز التلفزيون!

ولكنّي لم أملك إزاء إنسانٍ كهذا إلاّ أن أضيف فأقول له أنّي لم

Twitter: @alqareah

أطرد من حياتي جهاز التلفزيون وحسب، ولكنّي طردت جهاز التلفون أيضاً!

فالدلالة في مثل هذه المواقف تترجم كم صار إنسان عصرنا عبداً في قبضة تلك التقنية التي كلّما أدمنّاها أكثر كلّما غرّبتنا عن أنفسنا أكثر. يحدث هذا لأننا نتجاهل وجود الإنسان الآخر، الحقيقي، الذي يسكننا. وبدل أن نهرع لنجدته ونطالب بتحريره من أغلاله كي يستطيع بدوره أن يهرع لنجدتنا ليعيننا في إستعادة هويّتنا المفقودة، نبحر عكس تيّار خلاصنا بتعاطي كلّ ما من شأنه أن يضلّ بنا السبيل إلى ملكوت قريننا، ولا نقنع فندمن الإفيون الذي نكتم به أنفاس الحميم الذي كان يمكن أن يكون منقذنا!

فكيف لا أرى في المجلّة وهقاً من شأنه أن يعيدني إلى حظيرة العالم الذي فررت منه ولم أشفَ من جراحه بعد؟ لقد إكتشفت كم كانت الفلسفة الثاوية على حقّ عندما روّجت لمفهوم «اللافعل» لتلتقي مع الصوفية في مبدأ التسليم. وهو ما لم يكن ليجد هوىً في نفسي لو لم يستمرّ قلبي ينزف دماً حتّى ذلك اليوم لأسائل نفسي في كلّ مرّة: هل أن نفعل ما يفعله الناس هو ما خلقنا من أجله لمجرّد أنّ الناس لم يهتدوا لفعلٍ سواه؟ وإذا كان الأمر كذلك فأين معنى الحياة؟ أيعقل أن تكون غاية الحياة هي ممارسة نشاط يعلي من شأن ما نسمّيه حضارةً؟ وهل عمل الحضارة عملٌ أخلاقيّ؟ أين موقع الحرية من كل هذه القيّامة؟

الجواب إستوى بالتدريج، ولكنّه كان جليّاً: إذا كانت هذه

Twitter: @alqareah

الدوّامة هي غاية الوجود فإنّي أرفض هذا الوجود. كان ذاك شطراً من جواب لأنّ السؤال عن **البديل** يغدو منذ تلك اللحظة هاجساً لجوجاً إلى حين تستقيم الرؤيا في خيار **الحرية** تعبيراً عن هذا البديل، ثمّ يليه طرح السؤال عن **ماهيّة** الحرية ليكون اعتماد الهويّة **القصوى** في الحرية (وهي الموت) شطراً ثانياً من الجواب الذي يلوح كشرط لما تبقّى من المغامرة: إذا لم أجد طريقي، ولم أكتشف القرين في نفسي، ولم أعرف نفسي، ولم أغيّر ما بنفسي، وإذا لم أبرأ من علل نفسي، فسوف أتبرّأ من نفسي، لأسلّم زمام أمري لجناب الحرية القصوى: **الموت!**

حدث هذا في تلك المرحلة التي صار فيها بعبع الخليقة هذا في حياتي رفيقاً يقرع نواقيس الخطر في مسير إنهيار الجسد، في حين تغرّد الروح طرباً لتهرع لنصرتي في كلّ مرّة لتملأ قلبي فرحاً. فرحٌ خفيٌّ، عميقٌ، لم أعرفه في دنياي يوماً. فهل هو تلك السعادة الأسطورية التي يطلبها الكلّ فلا ينالها أحد إلى حدٍّ غدَت فيه السعادة عنقاء مغرب الأجيال منذ الأزل؟ هل هذا الإحساس المبهم هو ما جرّبه قنطروس سيلين ليعلن لمطارده يوم أمسك به أن أفضل ما نفعله بأنفسنا هو أن نموت؟ هل هذا هو الإحساس الذي عرفته عبقرية ميتافيزيائية مثل آينشتاين عندما أعلن أن الموت أيضاً عملٌ لا يخلو من جمال؟ آه، كم تخذلني اللغة اليوم كي أعبّر لنفسي عن حقيقة ذاك الإحساس الغيبيّ الذي لا يقارن بشيء ولا يُجارى في طغيانه إلى حدٍّ أيقنت فيه بلذّة ذلك البعبع الذي نخلع عليه لقب الموت ظلماً،

Twitter: @alqareah

لأن هذا البعبع إذا كان يستطيع أن يُهدي لنا إحساساً كهذا فهو حقّاً الفردوس المفقود!

هيمنة الموت إستحضر النَّفَس الوجداني (أو فلنقل) الروح الغنائية في أوّل عمل وُلد من رحم هذه الحمّى، وهو «المجوس»؛ تلك الرواية المتعدّدة الأجزاء التي نزفها العدوس متنقّلاً بين عواصم العالم، وعلى ضفاف الأنهار والبحار، كأنّها وصيّة الحِمْل الثقيل الذي تحدّث عنه أفلاطون فقال أنه يسكن كلاًّ منّاً، وما رحلتنا في وجودنا الفاني سوى بحثٌ عن المكان الضائع الجدير بأن نستودعه فيه. أمّا بالنسبة لمريد عبور كما هو الحال مع كل عدوس إتّخذ من الفرار حرفةً فإنّ هذا الوزر لن يكون سوى ذلك المكان المغترب بعرف المكان عن المكان، الذي تراه الخليقة فراغاً وما هو بفراغ، والحامل لرسالة الكينونة في زمن التكوين: **الصحراء!**

من هذا البعد المفقود الذي يلامس وجدان الأبدية أستُعيرت تلك اللغة المفقودة التي لم أعرفها في نفسي، ولم أتعلّمها من لغة مكتسبة ما لبثتُ أن إغتربت عنها ما أن بدأتْ تهبني سرّها، فأضطرّ أن أطلق عليها إسم: **لغة الروح**.

كان الجسد يهوي، ولكني كنت سعيداً بالألم، كأنّي أخطو في حلم!

Twitter: @alqareah

14

في تلك الأيام كان العصيان المدني المستبطن الذي إعتدنا أن نسمّيه إشتراكيّة قد بلغ في ربوع الإمبراطورية حدوده القصوى. ففي كل مجتمعٍ إشتراكيّ توجد مقاومة سلبية لنسف النظام من الداخل. فإذا كان البولنديون قد عبّروا عن الحرب الخفيّة المتبادلة بينهم وبين نظام إقتصادي وسياسي لم يكن لهم فيه خيار بالعبارة الشائعة التي تقول: «أنّنا نتظاهر بأننا نعمل، والدولة تتظاهر بأنّها تدفع لنا أجراً»، فالواقع أن المقولة تحسن الظنّ بما يفعله البولنديون وكلّ من دبّ دبّهم، لأنّ الحقيقة هي أن المواطن في ظلّ النظام الإشتراكي لا يتظاهر بالعمل بقدر ما يتفرّج. لا يقف موقف المتفرّج أيضاً بقدر ما يشنّ حرباً ضدّ النظام القائم. فنعوت مثل السلبية واللامبالاة والإهمال وحتّى التخريب المتعمّد أحياناً لن تعني في النهاية سوى تقمّص دور الفأر في الحفر تحت سدّ مأرب. حفر وئيد، صبور، طويل النَّفَس، سوف يؤدّي على إنهيار السدّ طال الزمن أم قصر. فالإقتصاد طبيعة هشّة إلى جانب كونه طبيعة جبانة. فهو لا يحتمل أنصاف الحلول فكيف بأرباع الحلول أو أقل من أرباع الحلول؟ والتجربة هي التي برهنت على هشاشة هذا النمر الورقي من خلال إقتصاد دول

Twitter: @alqareah

أسطورية في ثرائها بالموارد الطبيعية كان الإتّحاد السوفييتي هو أكبر نموذج، لأن كنوز قارون لن تجدي في لجم أسنان الفأرة الخفيّة! وهو ما يثبت أن العمل ليس عامل إنتاج وحسب (وبالتالي ضمان التقدّم أو الرخاء)، ولكنّه تعويذة ذات طبيعة غيبيّة في الواقع، لأن العمل وحده يجير لا من الفقر وحسب على مستوى الأفراد، ولكنّه يجير أيضاً من الشرور. وعندما يفتر حماس الأمم نحو ألعوبة الشعار الذي تتباهى به الأيديولوجيا، فلا مفرّ من فرار اليقين من قلوب الناس الناتج عن غياب الله بسبب إتّخاذ أصنام الأيديولوجيا معبودات من دون الله، فإنّ الإحساس بالإثم سوف يهيمن ليدفع الناس إلى التكفير عن تجديفهم في حقّ القيم الأخلاقيّة التي كان الإيمان الديني دوماً هو خازنها الأعظم. وأوّل حرف في دين التكفير هو إعلان الحرب على الأوثان روحيّاً أوّلاً، ثمّ ترجمة هذه الحرب **عصياناً مدنياً خفيّاً** يسري في كيان النظام كالسرطان، فلا يملّ إلى أن يضطرّ هذا الكيان لأن يذهب ليشنق نفسه بنفسه كما حدث بالنسبة للإتحاد السوفييتي! إنّه العصيان المدني الدفين البديل لخيار الإنتفاض في ثورة دموية.

وإذا كان رئيّ الزمان أرسطو قد تنبّأ بالمنقلب (كما تنبأ بعدم جدوى المساواة بين الناس بالشراكة في نشاطٍ نفعيّ كالإقتصاد) عندما قال في وصيّته أنّ الثورة إذا كانت عملاً جسيماً، فإنّ الذريعة قد ترجع لأتفه سبب. والدليل تقدّمه لنا التجربة السوفييتية في سيرة ما يمكن أن نسمّيه «قالب السكّر» التي كانت بمثابة الشوكة في كعب

Twitter: @alqareah

أخيلوس والقشّة التي قصمت ظهر البعير. فقد روى أحد قادة الحزب الشيوعي الكبار كيف كُلّف بمهمّة خارج البلاد في تلك الفترة التي تزعزعت فيها أركان الإمبراطورية وتبدّى النظام يلفظ فيها أنفاس النزع الأخير دون أن يصدّق العالم ودون أن يصدّق القائمين على أمر النظام أنفسهم وفي مقدّمتهم غورباتشوف نفسه الذي كان حتّى تلك اللحظات المصيرية يتوهّم أنّ ما حدث مجرّد إرهاصات الإصلاح ولا يريد أن يعترف بينه وبين نفسه بحقيقة عدم نفع الترقيع في جرم الجسد الذي باد. ففي المطار حلّ القائد الحزبي بقاعة الشرف المخصّصة لأعضاء اللجنة المركزية برفقة بطانة إعتادت أن تمشي في ركاب كل وفد. هناك أَمَرَ بإحضار كوب شاي، وعندما جيء بالطلب إكتشف غياب السكر، فاستنكر. لحظتها شاهد الوجوم في سيماء لا النادلة الشقيّة التي وقفت لخدمته وحسب، ولكن في سيماء أعضاء الوفد أيضاً، ممّا اضطرّه أن يكرّر السؤال. لحظتها لم يجد الكل بدّاً من أن يعترفوا له بغياب السكّر من قاعة الشرف! وهو ما لم يحدث زمن الحرب الأهلية في عشرينيات القرن، ولم يحدث في زمن المجاعات في الثلاثينيات، ولم يحدث إبّان الحرب الوطنيّة العظمى عندما كانت جيوش هتلر تدقّ بوّابة موسكو الغربيّة! لحظتها فقط أدرك الرجل ما لم يتخيّله حتّى في الأحلام وهو: **زوال أسطورة إتّحاد الجمهوريات الإشتراكية السوفيتية من الوجود!**

Twitter: @alqareah

15

نحن لا نجد لغة مشتركة لا مع الحياة ولا مع الموت ما لم نجد إلاهنا **نحن**، لا الإله الذي نتلقّاه من الأغيار على سبيل الهبة، أو الإله الآخر الذي نرثه عن أسلافنا بالمجّان. أي الله الذي ننزفه **نزيفاً**، لأنه وحده المعبود عن إيمان. بنَفَس هذا الإيمان المشفوع بحبر الروح نزف العدوس سيرة ذلك المتن المزموم كمّاً وكيفاً وزمناً الذي غدا حجر الزاوية لكل الأعمال سواء ما تقدّم منها أو ما تأخّر، الموسوم بذلك الإسم الملتبس الذي لم يعبّر عن هويّة دينيّة هي أهل النار، بقدر ما عبّر عن هويّة فطرية كانت لإنسان الطبيعة ديناً: «**المجوس**» التي كان عنوانها في البداية «القِبْلي» تلك الريح الجنوبية المميتة التي تهبّ من أعماق الصحراء الكبرى لتبيد في سفرها نحو الشمال كل شيء، فلا تفلح حتّى البحور في إعتراض مسيرتها، لأنها تعبر أوروبّا كلّها ولا تتوقّف حتى تبلغ تخوم سيبيريا. هذه القوّة العاتية ذات الطبيعة الغيبيّة هي التي نحتت أكبر صحاري العالم، فحقّ لها أن تكون بطلاً رائداً في إبداع الوطن الصحراوي، وسرّاً في ملحمة اليبوسة التي نصّبها كاهن الأجيال هيراقليط قريناً لروح

Twitter: @alqareah

الألوهة، لتكون الصحراء بعدها جديرةً بأن تتبوّأ عرش الروح في عالمٍ هو لها جسد.

رصد هذا البعد الغيبيّ في طبيعة هذه الريح النارية كعلّة في تكوين وطن التكوين هو موضوع كان في النيّة الأولى مركزيّاً، سيّما إذا لاحظنا أن كلمة روح ما هي إلاّ إستعارة من كلمة ريح، كما أن سجيّتها النارية هو ما يزاوج بينها وبين دين المجوس كعَبَدَة للمبدأ الناري في العالم. ولكن شرع السياق إنتصر في سيرورة السرد ليصير ركناً فرعيّاً في رحابٍ تتبارى فيها أركان أخرى للفوز بدور البطولة تلبيةً لسلطة دين طبيعي يأبى إلاّ أن يكون ناموساً ألوهيّاً يستجيب للنداء الأخلاقي بنبذ الشرّ، في حين يبدو الدين الذي نسمّيه سماوياً بالمقابل دنيوياً بحرفيّة غرّبت فيه روح الناموس الأخلاقي. هذه موضوعة تبدو بسيطة كمفهوم، ولكنّها روائياً تبدو ثريّة وغايةً في التعقيد. ولمّا كانت كل سيرة روائية هي إبنة شرعيّة لسيرة روائية أخرى كانت سبباً، أو فلنقل، كانت شرراً قدح به زند مصادفة أو حادثة أو موقف، ليشعل الحريق، فمن المناسب أن أروي سيرة هذا الشرر. وهي سيرة ذات شقّين احدهما نظري والآخر فعلي.

ففي الفترة التي خضعت فيها الروح للنقاهة من أكوام النفايات التي علقت بها بسبب بهتان الدنيا قمت بالحجّ إلى صحراء أسلافي في «آزجر» تحديداً منطقة «آكوكاس» (التي تُكتب أكاكوس خطأً) لأشاهد جبل «إيدينان» الأسطوري كما لم أشاهده سنوات العماء الروحي لأكتشف فيه ما لم أكتشفه من قبل كأنّ الأسطورة الشهيرة

Twitter: @alqareah

التي تروى عنه كمعقل للجنّ (وسمعناها في الطفولة مراراً) قد إنتقلت من ذلك الصرح المهيب لتحلّ في وجداني الظمآن للإرتواء من روح تلك الطبيعة التي إذا كانت أمّاً في العموم، فإنها إذا كانت صحراوية فهي الأمّ مرّتين. فالمنطقة كلّها هبة أسطوريّة مجسّدة مستعارة من أسطورة أخرى أبدعتها الصحراء الواقعة بين كمّاشة تتلتّب فيها «زلاّف» الرمليّة في الشمال حميمتها الغربية في «تارات» التي تتواصل في سلسلة جبلية أسطورية أخرى في «تاسيلي نازجر» مشيّدةً الحزام الذي أنجب أقدم حضارات عرفها الإنسان مبثوثةً آيةً في لوحات فنّاني ما قبل التاريخ قبل أن تنقطع في الجنوب في فجوة لا تلبث سلسلة «آكوكاس» أن تنتصب لتكون آثارها البرهان الثاني الذي يشهد للصحراء على أحقّيتها في حمل راية التكوين بلا منازع. وهكذا تفيض روح الأسطورة من هذه المواقع لتطبع الأرض في الجوار كلّها بسيماء أسطورية طاغية زعزعت كل من وقف في حرمها مشاهداً. وقد سكنتني حتّى النخاع يوم عدت من منفاي كإبنٍ ظالّ لأستجدي الغفران في حرمها، فلم تبخل لا بالغفران، ولا بالإلهام مثلها مثل كلّ أمٍّ رؤؤف في هذا العالم الذي لا وجود فيه لرأفة ولا رحمة ولا غفران لولا حضور روح الأمومة في طبيعة هذا العالم.

حلّت الصحراء في الوجدان لتستكمل ما بدأته يوم اختطفتني لتخلو بي في التيه كي تستودعني وصيّتها عن الثالوث: هويّة ضائعة، وطن ضائع، ولسان ضائع مبثوث في متن هو أب كل المتون إنتحلته أمم **بسلطة الحِرْفَة لا بسلطة المعرفة** لتفرّ به دون أن تفقه منه حرفاً لتصير كمثل الحمار يحمل أسفاراً!

Twitter: @alqareah

هذا عن الشقّ النظري من الشرر.

أمّا الشطر الفعلي فقد لعب فيه شقيقي في الدمّ وخلّي في الروح فنايت الكوني دور البطولة عندما حدّثني عن أسطورة تقول أن رجلاً راهن رفيقاً له أن يهبه كل ما امتلك فيما إذا استطاع أن يصعد إحدى قمم سلسلة «آكوكاس» الخرافيّة. وهو رهانٌ لم يكن ليكون فحوى لأسطورة تناقلتها ألسنة الأجيال لو خلا من سرّ لا حيلة لكشفه حتّى بالنسبة لأولئك الذين شاهدوا هذه الأعمدة الملساء، المكابرة، التي تخترق الفضاء كأنّها تنزّلت بمعجزة من كوكب آخر. فإذا كان الصعود إلى قمم الأجبال أعسر دوماً من النزول من أعاليها، فإنّ الأمر يبدو في حال صوامع آكوكاس مقلوباً رأساً على عقب. فالصعود إلى أعاليها لن يحتاج سوى إلى مهارة مجبولة بقدرٍ كافٍ من شجاعة. أمّا النزول إلى أسفل فيستدعي إلى جانب ما سلف موهبة أخرى للإحتيال على الأنصاب الملساء في وقفتها العمودية الصارمة في الفراغ. وهو ما أعجز صاحب الرهان الذي أفلح في الوصول إلى القمّة، ولكنّه أخفق في أن ينزل منها. أي أنه كسب الرهان بالفعل، ولكنه خسر بالمقابل نفسه، إنها الأمثولة التي زلزلتني بعمق لأنّها ذكّرتني بالوصيّة الإنجيلية الرائعة التي وضعتها إستشهاداً لأحد فصول الرواية والقائلة: «مانفع أن يكسب الإنسان العالم ويخسر نفسه؟». وبالوسع تلخيص هذا العمل الضخم ذي الثلاثة أجزاء في الإيماء الفلسفي والوجودي الكامن في هاتين الأحجيتين: الأسطورة وصدى الأسطورة المبثوث في نصّ الوصيّة الإنجيليّة.

ولكنّ التحدّي الحقّ في تأليف سيرة روائية ذات نَفَس ملحمي،

Twitter: @alqareah

من واقع فلسفي أو وجودي أو جمالي أو أخلاقي لأمّة مّا هو إنجاز عمل بهذه الخصال جميعاً مضافاً إليها بُعد آخر في غاية الأهمّية بالنسبة لقومٍ يجهلهم حتّى جيرانهم أو حتّى الملل الدخيلة عليهم لتشاركهم هويّة الإنتماء إلى وطن واحد كما الحال بالنسبة للطوارق الذين يجهلهم الليبيون في الشمال وحتّى في الجنوب فلا يفرّقوا بينهم وبين التّبو أو زنوج الدواخل، أو كما يجهلهم جزائريّوا الشمال، أو كما يجهلهم زنوج جنوب الصحراء ويعتبرونهم دخلاء على الصحراء برغم أنهم أهلها الحقيقيّون منذ التكوين كما هو الحال مع سكّان مالي التي لم تكن لتنال هذا الإسم أصلاً لو لم تمنحه لها أمّة التّيه من خلال هذه الكلمة التي تعني «الإمتلاك» أو «الملكيّة» أو «الكيان»، وكما هو الحال مع أفارقة النيجر أيضاً الذين لا يعلمون كما لا يعلم غيرهم من أهل القارّة الإفريقية كلّها أن إسم قارّتهم برمّته هو من صنع لغة هؤلاء الأشباح الهائمة في الصحراء، لأن كلمة إفريقيا إسمٌ مستعارٌ من كلمة «آفرا» الدالّة على الصحراء، لأن الصحراء الكبرى هي العلامة الفارقة في طبيعة القارّة كلّها.

هذا يعني أنّ التحدّي في كيفيّة تحميل المتن الملحمي برسالة **إنتربولوجية** أيضاً إلى جانب حزمة الرسائل الثقافية الأخرى بكيفية تقنية لا تخون قوانين السرد الروائي الغريب عن واقع السرد التقليدي أصلاً بوصفه سرداً **صحراوياً**، أي ذلك الجنس من السرد **المطرود** أصلاً من ساحة السرد الروائي بوصف الرواية عموماً **هوية عمرانية** وليست صحراوية كما تروّج نظريات الأدب الأوروبي!

Twitter: @alqareah

أمّا التحدّي الثاني فهو في كيفيّة عقد صفقة تبدو على كل مستوى مستحيلة بين إنسانٍ صحراوي يدين بدين الفطرة الحميمة الصلة بالطبيعة هي وثنية بمنطق دين سماوي دخيل على هذه البيئة، وبين هذا الدين الدخيل الذي هو الإسلام. إنها تلك الإستحالة التي كان من المستحيل وجود مخرج منها لو لم تهرع **روح التصوّف** لإنقاذ الموقف بوصف هذه الروح هي القاسم المشترك الأعظم للقطبين، بل والشفيع الذي يرجع له الفضل في الإعتراف بهذا الدين لا في الصحراء وحدها، ولكن في كل الشمال الإفريقي البربري.

فإذا أضفنا إلى هذين القطبين البعدين الفلسفي والوجودي المشروطين في كل عملٍ روائي، ثمّ ذكّرنا بالبُعْد الإنتربولوجي، فإنّ التحدّي يستعير طبيعةً أكثر تعقيداً بحيث يختلط حابل القيم الغيبية والتاريخية والعقائدية بنابل الواقع الدنيوي المجبول بأنفاس زمانٍ ومكانٍ أسطوريّين لا سبيل لإيجاد لغة مشتركة للكلّ دون لجوء إلى ساحة تلك الأسطورة المنتجة بحرف البيئة.

وإذا كانت الذاكرة قد خذلتني في إسترجاع روح التجربة في رحلة عدوس السُّرَى مراراً، فإنّها أعجز من أن تخذلني في شأن الكفاح الدموي الذي خضته لإنجاز عمل بهذا التعقيد، وبهذا الحجم، وبهذه اللغة، ليكون لا مجرّد عمل مركزيّ في سيرتي الروائيّة كما ذهب النقد العربي، ولكنه **العمل المرجعيّ** كما أكّد النقد الأجنبي، سيّما إذا أضفنا وقلنا أنه كُتب في زمنٍ قياسي بالنسبة لعملٍ ملحميّ متعدّد الأجزاء معقّد التركيب، وهو عشرة أشهر وحسب

Twitter: @alqareah

عانى فيها الجسد صنوف التنكيل، وشهد فيها صاحب الجسد إرتحالاً مكثّفاً عبر العالم حاملاً في جعبته مئات الملاحظات، كما حمل في قلبه مئات الشخصيّات!

لا أنسى سيرورة العمل، ولا سيرة الإنضباط المبتدع الذي ابتلع بنود الإنضباط التقليدي المعتمد كما ابتلعت عصا موسى حيّات سحرة فرعون، فلا يعود اليوم يوماً منذوراً للعمل، ولا يعود الليل ليلاً مسخّراً لراحةٍ من عمل، ولكن الصريمين يتداخلان في التجربة الجديدة بحيث أجد نفسي وقد نمت في جوف المقصلة التي يسمّيها الناس كرسيّاً، ثمّ أصحو فلا أعلم ليلي من نهاري لأواصل رحلة السرد كأنّي أترجم رحلة العدوس شخصيّاً عملاً بالوصيّة القائلة بأنّنا لا نكتب أي شيء ذي معنى ما لم نكتب عن أنفسنا، وهو ما لم يكن ليحدث لو لم يتلبّسني الإحساس لا بملامسة حرف الأبديّة وحسب، ولكن الإحساس بوجودي في جانب البرزخ الآخر إلى حدّ كنت فيه أتخيّل أنّ السيرة هي التي تكتبني، بل وكنت على يقين أحياناً أنّي عندما أتوقّف عن تسفير السرد على القرطاس لأنعس فإنّ يد المجهول سوف تمتدّ لتواصل تسطير السيرة على الورق!

في ذروة هذه الحمّى وقفت أشاهد من النافذة أرتال الدبّابات وهي تتدفّق عبر شارع لينين متّجهةً إلى قلب المدينة في أوّل تجربة إنقلابيّة حقيقيّة تشهدها أوروبّا في تاريخها على الإطلاق، لتبدو من موقعي في الجانب الآخر من البرزخ حلماً عديم الصلة بالواقع الغيابيّ (أو الغيبيّ) الذي أحياه في تلك المرحلة حتّى إذا أثقلني

Twitter: @alqareah

كابوس الدنيا هوّنت على نفسي بتسليم أمري للطبيعة. فكم مرّة إستجرتُ بمملكة «زافيدوفو» تلك القرية النائمة في أحضان نهر الفولغا، المطوّقة بغابات تتآلف فيها أشجار الصنوبر بأشجار البتولا، الواقعة خارج موسكو بمائة وخمسين كيلو متراً؟

كانت تلك أرجوحة رومانسية لن تتكرّر كما لن يتكرّر وجود ذلك الكيان السياسي المهيب الذي كان يحتضر في تلك اللحظات والذي أريدَ له أن يكون للبشرية أرجوحة الأحلام، وكان بالإمكان أن يكونها بالفعل لو لم تخذله الروح النفعيّة الوقتيّة الكامنة في روح الإنسان! وإذا كان لي أن انسى فلن أنسى يوم تقدّم منّي السيّد يوري مسئول الإدارة الصحفيّة بوزارة الخارجية السوفييتية ليُهديني البطاقة الصحفية السوفييتية الزائلة الصلاحيّة مصحوبةً بالبطاقة الصحفية المتوّجة بشعار الدولة الفدرالية الجديدة ليدشّن الهبة الرمزية بعبارة تراجيدية هيهات أن أنساها تقول: «القوانين تقضي بسحب البطاقة القديمة، ولكنّي أتركها لك للذكرى، لأنها ممنوحة من سلطة لن تتكرّر أبداً!».

أعترف اليوم أن حضوري في وطن «المجوس» هو الذي خفّف عنّي وزر الزلزال الذي لم يهضمه الذين آمنوا بوجود كيان إنساني يرعى عدالة لا وجود لها في دنيانا وحدهم، ولكن لم يصدّقه حتى الأعداء. فالروح الرومانسيّة ترفض الإعتراف بغياب المثال حتى لو كان هذا المثال محاكاةً ركيكةً للحلم بالمثال، لأن ذلك نذيرٌ بغياب روح الشعر من رحاب العالم. فغياب الإتّحاد السوفييتي لم يتسبّب في وجود فراغ سياسي على مستوى العلاقات الدولية التي إستمرأت

Twitter: @alqareah

حضور قطبين إثنين إستجابةً لضرورة وجود توازن بقدر ما تسبّب في إغتيال الأمل الذي راود الأغلبيّة في قدرة هذا الكيان على أن يصلح ما بنفسه كي يحقّق طموح وجود النموذج أو ذلك المثال الأرضي المؤهّل لأن يكون عزاءً يعوّض غياب المثال المثالي، أو السماوي إذا استخدمنا لغة الكتب السماوية. وغياب المثال يخلّف دوماً الخواء الروحي. وأحسب أن في هذا يكمن سرّ عدم إعتراف عالمنا العربي بهذا الحدث على المستوى الأيديولوجي وكذلك السياسي. ذلك أن خيبة الأمل لا تكمن في إنهيار إمبراطورية وزوالها من قيد الوجود (لأن الحرب العالمية الأولى وحدها كنست ستّ إمبراطوريّات، والثانية كنست ما تبقّى)، ولكن الخيبة هي فشل الإنسان في قدرته على تحقيق عدالة أرضية بمقاييس مثالية. أي وفاة حلم البشرية الأبدي، لأن قيام الإتحاد السوفييتي كان الفرصة التي عوّل عليها الإنسان، وها هي الإنسانيّة تفوّت الفرصة وتخيّب الآمال المعقودة عليها. وهو فشلٌ يمسّ كل إنسان ليصير شخصيّاً بما هو فشل لعبت فيه الطبيعة الإنسانية (الأنانية بسجيّتها) دور البطولة!

ولكن إنهيار برج بابل كان قيّامة الخارج التي صاحبها ميلاد قبس في الباطن. فهل يُعقل أن يكون الجحيم سبباً لنعيم؟ هل بوسع جحيم الواقع في حلفه مع جحيم الجسد أن يصير علّة لغز المحال وارتياد بلاط الأحلام؟

فأن يتداعى صرح الواقع في وقتٍ تداعى فيه جسدٌ هو أيضاً أحد أركان هذا الواقع، في حين تحلّق الروح في ملكوت سعادة كانت

Twitter: @alqareah

بالأمس القريب عنقاء مغرب كما كان حضور الروح نفسه عنقاء مغرب، إنّما يؤكّد صواب ناموس الجدل الذي إعتنقه سدنة برج بابل نظرياً، ولكنهم خانوه فعلياً عندما أقاموا نظام الحزب الواحد ظنّاً منهم أن الحقيقة هي اللغز الذي يمكن أن يُحتكر!

مشاهدة البرج الأسطوري وهو يتهاوى لم يكن مجرّد شهادة وفاة بحقّ جنّية الزمان (الأيديولوجيا) وحسب، ولكنّه البرهان الأخير على استحالة إحتكار الحقيقة وضرورة القبول بجدلٍ لم يُسنّ قوانينه لا هيراقليط ولا هيغل، ولكنه مخطوطٌ بمشيئة الطبيعة. فأهل اللثام على يقين أنّهم إنّما يحصّنون أنفسهم من سلطان الأهواء عندما يحترفون وضع اللثام. وليس على سليلهم العدوس إلاّ أن يستجير بلثام الإرادة كي يرى من موقعه في فردوس الطبيعة كم هو العالم دميةً هشّة في قبضة القدر. وفي الوقت الذي كان فيه عبيد الأيديولوجيا ينوحون هولاً لما حدث، وفي الوقت الذي كان فيه البعض الآخر يردّدون خرافة «نهاية التاريخ» كان العدوس يبتسم باستخفاف وهو يشاهد من سماء أحلامه الفصل الجديد من المهزلة البشرية، لأن من اختار الإستغناء عن ما لا غنى عنه لجسد، وحده لن يدهشه ما يراه الناس عجباً حتى لو كان هذا العجب هو إختفاء العالم من الوجود.

إنها ثمار الحضور في البعد المفقود، لأن من توغّل في مسيرة الحلم وحده يحقّق الحضور في ميتافيزياء الواقع التي كان لها الفضل في إنتاج الواقع، وبالتالي إنتاج أي عمل ذي قيمة روحيّة. والمدهش حقاً هو أن العبور إلى أبعاد هذا البعد ليس معجزةً كما نتوهّم. يكفي

Twitter: @alqareah

أن نسلّم زمام أمرنا لأمّنا الطبيعة كي تتحقّق المعجزة. يكفي أن أستيقظ مبكّراً على طريقة أسلافي لأشاهد مخاض الميلاد في طقس إنفصال جسد السماء عن جسد حميمتها الأرض كي أتجلّى لأولد أيضاً في حمّى هذا الوجد. في قرية «زافيدوفو» عقدت مع الطبيعة عهداً أن أصحو في قلب الديجور لأهرع إلى ضفّة نهر الفولغا لأتلو صلوت ميلادي في هذا المعبد ميمّماً صوب الضفّة الأخرى من النهر حيث تنتصب أشجار الصنوبر في اشتباكها مع أشجار البتولا على طول الإمتداد، لأنّ الإعجاز الذي حقّ للأوائل أن ينصّبوه معبوداً إنّما يقبل من هناك. أتسكّع بمحاداة أحراش هذا الجانب حافياً إمعاناً في التنكيل بالجسد، فتغرّد في جوف الأجمات أجناس الطير كأنّها تحيّيني وتشدّ من أزري. إنها تلك القبيلة التي اغتربت عنها طوال زمن إغترابي عن نفسي لأكتشف في معزوفاتها السخيّة، وفي صنوف الآلات المستخدمة في أغانيها، وفي تعدّد لحونها، وتنوّع الأنغام، ليس معجزة لا تحتاج إلى دليل وحسب، ولكن اليقين بصواب باسكال عندما خلص إلى أن وجود الطير هو البرهان على وجود الله!

وقد لاحظت مراراً كيف تحتفي هذه المخلوقات الربوبية بحضوري كلما ارتدت الأجمات أو مررتُ بجوار الأحراش التي تتشبّث بضفاف النهر، فتصدح بسمفونياتها لا في الصباح الباكر وحسب، ولكن في الأمسيات أيضاً، حتّى إذا ذهبتُ، توقّفتْ عن العزف، كأنها تخجل أن تصدح بأغانيها عندما تعدم وجود من يسمعها! أفلا يكفينا سعادةً أن الطير لم يخلق إلاّ ليغنّي، ولا يغنّي إن

Twitter: @alqareah

لم نكن نحن من يسمع أناشيده الشجنيّة السرّية التي لا نفهمها حقّ الفهم ما لم نتفرّغ، أو بالأصحّ، ما لم **نتحرّر**؟ ألا يكفينا سعادةً أن يغنّي الطير من أجلنا، وأن يمزّق القبس قوس الأفق تمهيداً لميلاد معبودٍ لا يتكبّد عناء الخروج من قمقمه في كلّ مرّة إلاّ لينير لنا السبيل؟

Twitter: @alqareah

16

يغنّي الطير من أجلي، وتشرق الشمس في سبيلي، وتخشع غابة البتولا لحضوري، ولكنّي لا أقنع، لأنّ طوافي في سوق باطل الأباطيل يعميني عن نعيمي، واعتناقي لروح الغنيمة ينسيني حتّى إسمي!

ذاك كان عنوان الغيبوبة التي لم تكن لتستقيم في العبارة اليوم لو لم يتبوّأ العدوس بالأمس عرش المشاهد الذي يتفرّج على فصول المهزلة من وراء ستار. فالروح هو القيمة المغتربة في عالمٍ يحترف سفسافين مُهينين هما: السياسة والتجارة!

إنه ثنائي العملة الواحدة ذات الوجهين الدميمين التي سمّمت روح عالمنا ونالته بالورم الخبيث الذي لا شفاء منه. وإذا شئنا اكتشاف ما فعله هذا الثنائي الشيطاني بالروح البشرية فليس لنا إلاّ أن نحتكم إلى ساحة الأوائل طلباً للحقيقة. ففي لغة أسطورية ومرجعيّة كالسومرية يُطلق على الصفقة التجارية إسم «تامكرّا» التي تعني في مفهوم لغة التكوين (التي ماتزال حيّةً في ألسنة أهل الصحراء الكبرى) معنى «البليّة» أو «المكيدة». أمّا ربّ هذه الحرفة الشريرة فهو بالسومرية «مكر» التي تعني في لغة الأصل: «اللصّ»! فما الذي

Twitter: @alqareah

يمكن أن يُنتظر من عالمٍ نصَّبَ المكيدة لتكون له في مسيرته شريعةً، ونصّب اللصّ ليكون علَى عرشه سلطاناً؟

أمّا إذا شئنا استكشاف سرّ ما نسمّيه اليوم سياسةً فليس لنا إلاّ أن نستجير بتلابيب عقلية ما قبل تاريخية أيضاً المبثوثة في متون الصين القديمة المعنونة بـ«التنازل عن عرش الدنيا» لحكيم الفلسفة الثاوية «تشوان تسي» الذي يسرد سيرةً عدميّةً تدين إحتراف هذه الرذيلة التي نسمّيها في معجمنا سياسةً كما لا يدينها أيّ نصّ في كل التاريخ. وها هي الأمثولة القاسية تبدأ بصاحب الجلالة مالك ما تحت قبّة السماء (كما يروق الصينيون أن يصفوا وطنهم الذي لم يشكّوا يوماً في أنه الوطن الوحيد الذي له وجود على الأرض) وهو يطوف الحكماء ليرجوهم أن يتقبّلوا من يديه امتلاك مملكة الأرض وما دبّ فوقها فلا يجد إلاّ الإستنكار، لا لأنه أساء بهم الظنون وحسب، ولكن لأنّ جلّهم فضّل الإنتحار على القيام بهذا العمل الرذيل!

فالإنسان يحترف السياسة عندما لا يجد ما يفعله بنفسه، ويذهب ليمارس الصفقة التجارية عندما يقرّر أن يحترف السرقة علناً! والأسوأ من هذين الفعلين الشائنين هو أن مريدهما لا يكتفي بامتهانهما، ولكنّه لا يستحي من أن يتباهى بهما أيضاً.

فإذا كانت غاية التجارة في المنفعة، فإن غاية السياسة في السلطة. ولا أحسب وجود شيء أكثر لاأخلاقيّةً من هاتين الجنّيتين: المنفعة والسلطة!

فهل يحقّ لأمثالي أن يشتكوا من العزلة لمجرّد وجودهم في واقع

Twitter: @alqareah

خلا من سلطةٍ ومن نفعٍ؟ أعني: هل يغيب الشعر من ساحة غاب فيها باطل الأباطيل الناجم عن غياب هاتين الساحرتين اللاأخلاقيّتين كما قد يتخيّل البعض؟ الواقع أن العكس هو الأصحّ. نستطيع أن نؤمن بعدم وجود حبكة دراميّة في واقعٍ لا وجود فيه للعلاقة التي هي علّة كل إشتباك وكل إلتباس، ممّا سوف يتيح الفرصة لهيمنة ما تخافه الطبيعة الإنسانية أكثر من كل شيء وهو: **الملل!** ولكن هذا لا يصدق في شأن الإنسان الذي اتّخذ قراراً باعتناق أكثر ما تخافه الطبيعة الإنسانية وهو: **الحرية!** فلا أظنّ أننا مؤهّلون لأن نستوعب معنى أن نرى سماءً زرقاء، أو نستطيب أغاني الطير، أو أن نتزلزل بتأمّل الشروق، أو مشاهدة نبتة تزدهر، ما لم نحقّق تلك الدرجة من الصفاء في الروح كي نتلقّى هذه الهبات الألوهية كشعر، بل كملحمة أشعار. فالعجز عن تأمّل الذّات في وحدتها الحميمة والجدلية بالموضوع هو ما يغرّبنا عن أنفسنا ويدفعنا للفرار إلى الساحة الشرّيرة التي يسود فيها اللهو بالدميتين الأبديّتين اللاأخلاقيّتين: المنفعة (التجارة) في حلفها مع السلطة!

فمأساتنا في اعتناقنا لطينة من المفاهيم المقلوبة رأساً على عقب عندما نتجاهل درس التاريخ في وصيّة التجربة البشرية التي برهنت منذ الأزل أن النفع إذا كان قريناً للثروة فالخلود لم يكن من نصيب مريدي هذه السعلاة، ولكنه صار وساماً على صدور أعدائها، والتاريخ لم يسجّل المجد لمريدي السلطان، ولكنه وهبه لمن زهد في معبود الزمان هذا. قد يكون من حقّ الفئة التي ارتوت من آبار

Twitter: @alqareah

الروح العمرانية ولم تعرف السجيّة الصحراوية أن ترى في هذه النظرة تطرّفاً لجهلها بحقيقة الناموس الصحراوي الذي يحتفي برأس المال الرمزي، مقابل إنكار رأس المال المادّي. أي إعلان شأن القيمة والحظّ من شأن الغنيمة. ويبدو أن هذه الطبيعة التي تنام في قيعان جينات عدوس السُّرَى هي التي انتصرت لا لتحتقر كل ما له علاقة بعالم هاتين الجنّيتين (الصفقة والسلطة) وحسب، ولكن لتناصبهما العداء الفطري أيضاً.

ويبدو أن نزعة الإكتفاء بالنفس والهوس بالعزلة أيضاً إفراز لهذه الطبيعة التي تسكن مجهول الباطن بحيث اكتشفت أخيراً كم كنت ضالاً مثل سمكة انتزعت من المياه طوال الشوط السالف من الرحلة، والإهتداء إلى السبيل الجديد كان بمثابة إهتداء المريد إلى شيخ الطريقة، أو عثور التائه على الواحة، أو بالأصحّ عودة السمكة إلى المياه. فهذا التشذيب العنيد للذّات، وصنوف التنكيل بمارد الجسد، حربٌ أدمنتها كالأفيون لأستشعر مع الوقت حضور الروح لا في أعماقي وحسب، ولكن إلى جواري، وحولي أينما حللت إلى درجة أحسست معها بأنّها تكاد تستعير جسداً لتخاطبني كقرينٍ حميم! هذا الإحساس هو الذي غرس في وجداني اليقين بأنّي سأصحو يوماً لأجدها وقد كتبت النصوص الروائية قيد الإنجاز بالإنابة عنّي!

Twitter: @alqareah

17

في ملكوت الفردوس المستعاد يسكن العصر الذهبي إذاً!

هنا لا مكان للأهواء التي ترهننا في قبضة جلّاد الصفقة، أو حميمه الآخر السلطة، لينسجا معاً قدر الضحيّة لأيٍّ منّا، لأنّهما حقّاً لعنة الوجود التي قصمت ظهر المجتمع البشري إلى شطرين وقع أحدهما في شركها، وفرّ الآخر إلى الصحراء لينجو من الشَرَك بالترحال. ولهذا فإن رأس المال الرمزي إذا كان هو عملة التعامل في دنيا الفريق الأخير كما يتجلّى في تحريم ممارسة التجارة في عالم الصحراء، فإن رأس المال السياسي في شرع هذا الفريق ليس السلطة بالطبع، ولكنه تلك **الحرية** التي لا وجود لها في أيِّ مكانٍ أرضيّ باستثناء هذا المحراب المسمّى صحراءً. هذا هو ما يبيح لنا أن نخلص إلى نتيجة مؤدّاها أن إنقسام القبيلة الإنسانية التراجيدي منذ الأزل إنّما يترجم فعلياً الموقف من هذين الشرّين اللذين يعوّل عليهما مجتمع العمران كما لا يعوّل على شيء لأنهما فحوى تكوينه: **الصفقة والسلطة!**

حرّية قاسية؟ بلى!

Twitter: @alqareah

إستبدال رأس المال الدنيوي (النفعي) برأس المال الرمزيّ خيارٌ قاسٍ؟ بلى!

هل عافية الروح (التي نسمّيها سكينةً) تعويضٌ عادل في هذه الصفقة؟ ألف بلى لو لا الحساسية الميتافيزيائية التي ترافق هذا الخلاص بالنسبة لنموذج مازال يحتفظ برباط مع أناس نصّبتهم الحكمة غاية الوجود. فإذا كان إرتداء اللباس وخلعه يصبح مضيعةً رهيبةً للوقت، فما الذي يمكن أن نقوله على العلاقة مع الناس ولو في حدّها الأدنى؟

والمحنة ليست في النزيف الذي سينتج عن قطع حبل السرّة مع الجنس البشري حتى لو استطعنا لذلك سبيلاً نهائيّاً، ولكن في الألم الذي تسبّبه هذه القطيعة مع أناسٍ لابدّ أن يسيئوا بنا الظنّ، لأنهم يعتقدون أننا لم نكن لنفعل ما فعلنا لو لم نملك شيئاً ضدّهم، أي أننا بموقفنا من دنياهم إنّما نكرههم، بل ونبيّت لهم العداء؛ والمشكلة الأخرى أننا لا نملك الحُجّة لإقناعهم بالعكس أيضاً؛ لأن اللغة نفسها لا تعود منذ الآن مشتركة!

لا أنسى كيف آلمني موقف تزامن مع ذروة حضوري في هذا البرزخ في الفترة التي اعتدت فيها أن أفرّ من موسكو لأستجير بقرية «زافيدوفو» حيث توافق وجود إنسان نبيل إحتفظت له ذاكرتي بإنطباعٍ جميل في السنوات التي جاء فيها سفيراً لبلادي في الإتّحاد لأوّل مرّة مع منتصف السبعينيات، ثمّ عاد ليتبوّأ المنصب نفسه في النصف الثاني من الثمانينيّات وهو: ضو سويدان. فقد وقع بصري على

Twitter: @alqareah

شخصه أثناء تجواله في شوارع القرية محاطاً بلفيف من موظّفي السفارة في وقتٍ كان فيه هؤلاء يتحاشونني ويفرّون من وجهي خوفاً من عدوى إنسانٍ رمى بقفّاز التحدّي في وجه النظام، فاجتنبت الرجل كي لا أسبّب له حرجاً. ثمّ لمحته في مطعم القرية أيضاً وتعمّدتُ تجاهله مرّة أخرى حرصاً على شخصه أيضاً، وعندما خرجت فوجئت به يلاحقني ليحيّيني وهو يفيض بعبارات اللوم. تألّمت لأنّني جرحتُ الرجل الذي لم أحمل له في قلبي سوى الحبّ لأنّي إلتقيته مراراً بعد عودته من عمله بموسكو في السبعينيات أي في الأعوام التي تولّى فيها منصب وكيل وزارة الخارجية. وعزائي أنّي جرحته حرصاً عليه من محفل الجواسيس الذين يحيطون به لا انطلاقاً من موقفٍ ضدّ شخصه. وكي أكفّر عن خطيئتي إضطررت لتلبية دعوته لزيارته بمقرّ عمله بالسفارة لأجد تلك البطانة التي إجتنبتني دوماً تنزع قناع الشرّ فجأة وتتسابق لتجود بمراسم الإكبار كعادتها عندما تريد أن ترضي سادتها!

ذاك كان بمثابة النموذج في العلاقة المعقّدة مع الآخر طوال فترة **النقاهة الروحية** التي عشتها بعد التجربة الدامية مع دنيا كان فيها هذا الآخر دوماً هو الربّ. وهو ما يعني أن مريد العزلة مدان في فراره، وقدره أن يتألّم لألم الآخر الذي لا يكنّ له كراهةً كما يظنّ، ولكنّه يتحاشاه شفقةً عليه من نفسه! ولكن هيهات أن يقتنع الآخر أو يتسامح أو يغفر، لأن لن يعلم أن بشراً من هذه الطينة لا يحتملون حتى ملابسهم، فكيف يحتملون وجودهم بين أناسٍ من لحمٍ ودم وهوىً، أو يحتملون وجود هؤلاء بينهم؟

Twitter: @alqareah

كنت أحاول أن أعبّر لذوي القربى عن طبيعة هذا الحال، ولكنّهم لم يصدّقوا كما لم يصدّقني الأصدقاء، أو أولئك الذين يحسبون أنفسهم أصدقائي. كل ما انتهوا إليه هو أنّي **جننت!** فقد حدث موقفٌ مشابه مع صديقٍ قديم هو خليفة بازيليا الذي إعترض سبيلي مرّة بطرابلس وهو محاط بالبعض ففررت دون أن أحيّيه لئلاّ أزعجه في زحام الخلق ذاك لأعاني تبكيت ضميرٍ لأنّ الرجل سوف يعتقد أنّي تجاهلته ولن يدري أنّي لم أفعل ما فعلته إلاّ شفقةً عليه من نفسي!

وكانت النتيجة أنّي شككت في أمري في النهاية بعد إخفاقي في أن أقنع ذوي القربى بصواب مسلكي الجديد إلى أن هرع لنجدتي بعد سنوات إنسانٌ متوحّدٌ، ومغتربٌ أيضاً هو الناقد الأكاديمي عبد المنعم تلّيمة. فقد دعاني إلى جلسة على النيل بصحبة صديقي أحمد الفقيه أثناء إنعقاد مؤتمر الرواية العربية الأول في بداية عام 1997 بالقاهرة ليروي لنا جانباً من تجربته إبّان إقامته في اليابان ليصف كيف كان يستشعر قلقاً غيبيّاً من مجرّد الإحساس بوجود كائن حيّ تحت السقف الذي إتّخذه مقاماً كحضور الخادمة مثلاً في المكان أو أحد العمّال. وهو ما أدهش إنساناً لم يخض تجربة العزلة كالفقيه الذي لا أشكّ في أنّه سيندهش أكثر لو حدّثته كيف اعتدت الخروج من البيت لأخلي للخادمات البيت سواء في بداية عهدي بالتجربة في بولندا، أو في موسكو، أو في سويسرا، لألجا للطبيعة طوال الوقت المفترض لوجودهنّ. ليس هذا وحسب، ولكن من شيم العدوس في هذا الزمن أن يعلن الطواريء مجرّد إقتراب موعد إقتحام روح إنسانية لحرم

Twitter: @alqareah

المكان الذي لا يعود مكاناً، ولكنّه يصير امتداداً لروح صاحب المكان. لا يحدث هذا الشلل في الآن الذي يحلّ فيه ميعاد دخول الخدم للبيت فقط، ولكن في حال توقّع حضور الآخر استجابةً لموعدٍ سابق. بل القلق يبدأ من اللحظة التي يُبرم فيها موعد حتّى لو سبق بزمانٍ يمتدّ إلى الشهر. فالوقت ينقلب كلّه بساطاً منسوجاً من حساسيّة ميتافيزيائية فتكتسب فيه اللحظة بُعْد القيمة التي لا تقدّر بثمن ليغدو ضياعها خطيئةً لا تُغتفر، لأن الروح منذ الآن هي ربّة الموقف!

لقد تذكّرت تجربة عبد المنعم تلّيمة يوم دُعيت لإلقاء محاضرة بالسوربون في باريس عام 1998 فأرسل لي العميد أستاذةً مصريّةً لتقلّني من الفندق إلى الجامعة حيث أخبرتني أنها كانت ستتزوّج تلّيمة في أحد الأيام السالفة. لم أسألها عن السبب الذي حال دون استكمال هذا المشروع النبيل بالطبع؛ لأنّي تذكّرتُ حساسية ذلك الراهب إزاء مبدأ العلاقة أصلاً، وحدستُ أن هذه الحساسية هي السبب!

ويبدو أن إدمان هذا الأفيون هو سرّ هوس هذا الإنسان النبيل بعملٍ كان فاكهة هذا الإحساس كـ«المجوس» ليكون هو لا سواه من قاد الحملة التي تُوّجت بعقد أوّل ندوة حول هذه الرواية في العالم العربي بعد صدور طبعتها الأولى بزمنٍ قصير.

Twitter: @alqareah

18

تجربة الميلاد الثاني تحيل الذّات كلّها روحاً. تحيل الوجود كلّه روحاً. وأن يتحوّل الوجود روحاً يعني أن يتحوّل الوجود حساسيّةً. وأن يتحوّل الوجود حساسيّةً يعني أن يتحوّل الوجود كلّه **شفافيةً**. وأن يتحوّل الوجود شفافيّةً يعني أن يتحوّل هذا الوجود الملفّق بين قطبين هما الروح والجسد **طيفاً**، ولا أقول شبحاً. ويبدو أن هذا هو سرّ القلق الغيبيّ الذي يستولي على مريد البعث عند حضور الآخر، وهو أيضاً سرّ خوف هذا الآخر عند المثول في حضرة إنسانٍ تنكّر لطبيعته التقليدية واستعار خصال الطيف!

فإذا كانت علل الجسد هي إفراز للتوتّر النفسي الناجم أساساً من العراك مع الدنيا، فإن الحملة المميتة على الجسد سوف تحيي الروح على نحوٍ لا نعود نميّز فيه أيّ القطبين أكثر تأثيراً في قرينه الآخر لأنّهما يبدآن في تبادل أدوار البطولة في الممارسة البعثية فلا نفهم بعدها يقيناً عمّا إذا كانت حساسيّة الروح هي التي أوجدت حساسيّة الجسد، أم أن العكس هو الصحيح، فلا ندري لهذا السبب أيضاً عمّا إذا كان نزيف الروح هو الذي أنجب نزيف الجسد خلال رحلة الإستشفاء من مرض الدنيا، أم العكس هو الأصحّ. فبالنسبة لمن قرّر

Twitter: @alqareah

أن يبعث حياً لن يشكّ في حقيقة الحرية كميتة صغرى قابلة لأن تتحوّل ميتةً كبرى فلا يرى في نزيف الجسد شرّاً إذا كان لا يرى في شبح الموت الذي يسير في ركابه شرّاً. فالواقع أن نزيف الجسد (نزيف الأمعاء تحديداً) تزامن في تجربة العدوس مع بلوغ نزيف الروح الذروة كأنّ أحد القطبين يستجيب لنداء القطب الآخر، فلا يملك العدوس في حمّى فراره نحو البعد المفقود إلاّ أن يستهين بالنزيفين لا ليومٍ أو لشهرٍ أو حتى لعام، ولكن لأمدٍ إستغرق أعواماً. أي منذ 1988 حتى منتصف التسعينيات. فهل هو استهتارٌ أم أنه توقٌ إلى الإنتحار؟

لن يصدّقني أحد إذا أجبت بالقول أن العلّة هي: **ضيق الوقت!**

إذْ كيف يضيق الوقت بالنسبة لمخلوقٍ قرّر أن يتفرّغ للموت!

الواقع أن الوقت لا يضيق حتّى يصير خرم إبرة إلاّ في اليوم الذي نقرّر فيه أن نتفرّغ للموت!

فالمنطق يقول أننا لا نعود في هذه الحال في حاجة للوقت أساساً مادمنا نتأهّب لتسليم زمام أمرنا لجلالة الموت، ولكن الطبيعة الإنسانية الخفيّة تقول العكس. فالوقت لا يعدم القيمة إلاّ بالدنيا، ولكنه لا يقدّر بثمن بالموت!

وإذا كنتم لا تصدّقون فاسألوا إنساناً أخبره الطبيب بإصابته بمرضٍ خبيث لن يمهله أكثر من أشهر!

فالمنطق يقول أن إنساناً كهذا لا يعود في حاجة لاستعمال الوقت لأن حبل علاقته بالدنيا سينقطع بعد شهر أو أكثر بقليل ولن يضيره

Twitter: @alqareah

بعد الآن أن يترك الحبل على الغارب ويتخلّى عن خوض المباراة الأبدية في قضاء حوائج الدنيا التي لا تنقضي. ولكن هيهات!

هذا الإنسان سوف يرى في اللحظة الواحدة عاماً، وفي اليوم عقداً، وفي الشهر المتبقّي له على قيد الحياة عمراً! لحظتها سيستعيد الزمن جوهره المسروق فجأة. لا يستعيد الزمن هويّته المفقودة، أو قيمته التي لا تقدّر بثمن وحسب، ولكنه سيستعيد في لحظة المواجهة مع الموت هذه بعداً آخر. سيستعيد الوقت عمقه. سيستعيد عمقاً كان ضائعاً إلى وقتٍ قريب. ولهذا فالمهلة المتبقّية سوف تختزل العمر الضائع كلّه لأنها لا تعود وحدة قياس دوّامة باطل الأباطيل كما كانت، ولكنها سوف تستعيد إمتلاءً غيبيّاً كان غائباً لتبدأ منذ تلك اللحظة **الحياة الحقيقية**. لحظتها فقط سوف يعلم الإنسان كم أجرم في حقّ نفسه، وفي حقّ حياة نالها بالمجّان، فاستهان بها كما يُستهان بكلّ هبة نلناها بالمجّان، ليكتشف في تلك اللحظة فقط **وجود الوجود**، لا ظلّ الوجود: سماء زرقاء، متوّجة بشمسٍ مجبولةٍ بذهبٍ حقيقي لا معدن البهتان، في الفضاء طير، في الأرض شجرٌ ونهرٌ وبحر، من الشمال يهبّ ريح، وفي الرئتين هواءٌ قراح!

فالوقت إذاً هو تلك الفسحة التي لا تتكرّر، والمنذورة لرصد الحياة التي تسكن الجمال!

Twitter: @alqareah

19

الهاجس بأنّي قتلت الحياة كان كابوس تلك المرحلة. وإذا كنت قد استهنت بالنزيف المميت فهو بمثابة التكفير عن جرمي سيّما وأنّي يائس من أي غفران، ولم يبقَ لي إلاّ أن أقتنص اللحظة الواحدة بعمقها الجديد الذي وهبه لها الإحساس بقرب الأجل لتغدو متعةً أستطيع أن أسمّيها سعادةً لأزكّي وصايا القدماء الذين أجمعوا أن الإنسان لن يكتب له أن يعرف عمّا إذا كان سعيداً حقّاً ما لم يواجه الموت. أقتنص اللحظة لأستخدمها الإستخدام الصحيح لأول مرة. مرّة في طقس التماهي مع الطبيعة، ومرّة بتأدية الواجب الذي تنكّرت له طوال سباق الزور الفاني: إنجاز المتن الذي سينقذ أعرق ثقافات الدنيا من النسيان.

تلك كانت رسالة وجودي على قيد الحياة في تلك الأيام، وكنت سعيداً أن العناية الألوهية ابتلتني بالمرض الذي أحياني بعد موت، وممتنّاً لهذه العناية ثانياً لأنها أمهلتني وقتاً لم أكن لأطمع في أن يكون من حقّي كي أنجز المهمّة التي وُلدتُ من أجلها.

فلينزف الجسد ما شاء أن ينزف، وليذهب العالم كله إلى النار،

Twitter: @alqareah

لأني ودّعت العالم منذ زمنٍ بعيد ولم يعد وجود لشيء سوى الدَّين الذي استوجب السداد.

اللهفة في استغلال الزمن المتبقّي هي التي أنجزت المتون الأولى في نَفَسٍ واحد ممّا دفع أحد النقّاد أن يجاهر في إحدى الصحف بدعوة تنادي بإيقاف العدوس عن الكتابة حتى يُتمكّن من قراءته. وهو النداء الذي كرره آخرون مراراً في الأعوام التالية علّ أعظمهم شأناً وأنقاهم قلباً هو الفقيد الطيب صالح الذي بعث لي مرة بوصية مع أبناء السودان قبل أن أعرفه شخصياً تقول أن الأدب لا يستحقّ شرف أن نضحّي بالحياة من أجله فنتّخذه بديلاً لها. وهي وصية ترجمت موقفاً مبدئياً له مع الإبداع قرأته له مرة في إحدى المجلات المغتربة عبّر فيه عن سوء ظنّه بالكتابة، كما عبّر فوكنر عن سوء ظنّه بالقراءة!

وهما موقفان يبدوان مفارقة فيما إذا تأمّلناهما من وجهة نظر عبقريّتين روائيتين، لأنهما في الواقع لم ينطقا إلاّ بإلهامٍ من هذه العبقرية ذاتها التي عوّدتنا ألاّ تنتصر لهويّتها كعبقرية ما لم تشذّ عن القاعدة فتنفي شروطها مثلها مثل الكلمات الحقيقية التي تقول الثاوية أنها تؤكد حضورها في نقيضها!

هذا يدعونا للإجابة على سؤال: لماذا نبدع؟

هل الروح الرسالية في إبداعٍ مّا هي سرّ الهوس الذي يأسرنا ويحيلنا رهائن؟

اليقين أن المبدأ الرسالي إذا كان ضرورة، فإن سيرورة الإبداع ذاتها مجد لأنها برهان على حضور في الوجود أولاً، وحضور في

Twitter: @alqareah

البعد المفقود ثانياً. وعندما أقول حضورٌ في البُعد المفقود فإنما أستجير بالإستعارة لكي لا أبتذل الأشياء فأقول الحضور في الحقيقة. فالإحتكام إلى ساحة القلم ليس كتابةً، ولكنه تجربة ألم، والألم تأمّل. وعندما أتأمّل أتجلّى. وعندما أتجلّى **أتحرّر** .وعندما أتحرّر أكفُّ عن أن أكون فانياً فلا أحيا فقط، ولكنّي أحقّق مستحيلاً. أحقّق **خلوداً**.

في هذا البعد فقط لا يعود الموت بعبعاً، ولكنه يكون ميلاداً.

من هذا المنطلق فإن فتنة معاندة القلم ذات هويّة ميتافيزيائية.

ولهذا يهون في نظر المبدع كلّ شيء، بما في ذلك الموت، ما أن يصير له الإبداع قدراً.

Twitter: @alqareah

20

هل الوقوف من المسرحية موقف المشاهدة إنسحابٌ من المشاركة؟

الواقع أن مشاهد فصول المسرحية لا يشارك في المسرحية فقط، ولكنه يحيا المسرحية. يحيا المسرحية كما لا يحياها أولئك الذين يلعبون أدواراً في المسرحية.

فنحن لا نكتشف حقيقة دخيلتنا إن لم **نتحرّر** من سجون دخيلتنا لنراها من خارج هذه السجون.

والتجربة أثبتت أن خلاص سجناء الحصون لا يأتي من بطون الحصون، ولكن من **الطلقاء** الذين يحومون **أحراراً** خارج الحصون. التجربة برهنت أيضاً أن من يحرّر الأمم ليس الأبناء الذين يتشبّثون بتلابيب الأمم، ولكن من أبناء الأمم الذين **اغتربوا** عن واقع الأمم.

السرّ إذاً يكمن في المبدأ الذي لم يخطر لنا على بال في التجربة وهو: **الحرية!**

فصاحب الفرجة وحده ينعم بالحرية. وهو لهذا وحده الذي يملك الحقّ في النطق بحقيقة فحوى المسرحية، أي **أصالة** اللعب

Twitter: @alqareah

من عدمه. ومشاركة هذا النموذج ليست مجّانية، ولكنها **نقديّة!** ما معنى نقديّة؟ نقدية يعني أنها مشاركة النموذج المثخن بالجراح. أي النقد بالمفهوم الكانطي، وليس الحرفي. أي الفلسفي بكل حمولته التحليلية والتأويلية بأبعاده الجدلية. أي موقف المنظومة العارية من الإنطباع أو الأهواء. ولهذا فهو ليس مشاركة حرفية في فصول المهزلة، ولكنه **تصحيحٌ** لمسارها، والتصويب لسيرورتها على النحو الذي يؤدّي إلى إعادة إنتاجها مسربلةً بسلسبيلٍ قدسيٍّ لا وجود له خارج **الحياد**. هذا الحياد المجبول بغياب الروح النفعية التي تجعل من أبطال الخشبة عمياناً في الرؤية، وخصوصاً في الموقف من الحقيقة. وصاحب المشاهدة وحده مريد حقيقة لحضوره في بُعْد الحرية. هذا الحضور في ملكوت الحرية وحده تفويض. ولو علم أهل الأدوار الذين يلهثون فوق خشبة الباطل حقيقته لما تردّدوا في تخويله بالمنطق بكلمة الحقّ في حقّ المسرحية، ولما تردّدوا أيضاً في تسليم زمام أمرهم لهذا المريد، لأنه وحده الطليق، وهم كلّهم سجناء!

ولكن السؤال هو: هل يتنازل من عرف حقيقة المهزلة عن عرشه في الفردوس المستعاد ليقبل تولّي أمر ذلك الحضيض المبتذل الذي فضّل حكماء الصين القديمة الإنتحار على أن يتولّوا أمره؟

Twitter: @alqareah

21

ولكن المفاجأة الحقيقية في حقيقة المشاهدة. فهي ليست مشاهدة للعرض المسرحي بقدر ما هي محاولة **لفهم** العرض المسرحي. أي أنها **معرفة**. ولكن أيّة معرفة؟ إنها أعسر صنوف المعرفة بشهادة ربّ معبد دلفى وربّ كهنة معبد دلفى قاطبة وهي: معرفة لغز الألغاز المسمّى **نفساً**!

وهي معرفة لا تتحقّق بدون قرابين تأتي العزلة في رأس قائمتها لا ببعدها الزهدي وحسب، ولكن بطبيعتها كشرط للحرية. والجدل الخالد بين الذات والموضوع، بين الروح والجسد، هو الوسيلة في استنطاق العرض المسرحي المكرور لاستخلاص الأمثولة التي تصلح تميمةً في استشراف مجاهل الطلسم الذي نحمله في أنفسنا ونجهله كما لا نجهل أي شيء في دنيانا.

والحرية التي يوفّرها موقع المشاهدة هو الضمان في عدالة الحكم المستصدر بحقّ العرض الذي كنّا في القريب جزءً منه، لأننا إن لم نعرف من نحن، فلن نفيد من أي علم، كما يقول النفّري. فموقف الحياد يجرّدنا من عدوّ كل حكم وهو: **الهوى**. واستطعام الحرية بحضورنا في هذا الموقع لا يروي الظمأ، ولكنه يضاعف الظمأ، فلا

Twitter: @alqareah

يملك المريد إلاّ أن يستزيد. يستزيد من ماذا؟ يستزيد من الحرية، لأن الحرية وحدها تملك هذه الطبيعة الغيبيّة. فمن شرب من مياهها فلن يقنع بسلسبيل ما لم يرتوِ من ينبوع الحدّ الأقصى، لأن الهوس بالحرية هو هوسٌ بالحقيقة التي لا وجود لها خارج تخوم الحدّ الأقصى، أي: **الموت!**

وعلينا أن نتخيّل كم ستتضاعف مسئولية المشاهد عندما يلوح في الأفق شبح الرسالة.

الهوس في هذه الحال يتحوّل إلى حمّى، والترياق يستدعي مطاردة الحرية في بعدها الأقصى، بحيث تصير حتّى القشّة وزراً يعرقل مسير العدوس في ليل السُّرَى.

لقد ظننتُ أنّي تحرّرت بما يكفي يوم تحرّرت من كابوس العائلة، ثمّ قطعت شوطاً أبعد في هذا السبيل النبيل يوم تحرّرت من العلاقات الزائفة مع أناسٍ لا يصادقوننا إلاّ ليحسدونا ويكيدوا لنا، ولا يعرفونا مجرد معرفة إلاّ لينتهزوا الفرص ليسيئوا لنا. ثمّ ظننت أني حققت غلبةً يوم طهّرت البيت من أشراك اللهو كالتلفزيون أو الفيديو أو التلفون أو كلّ ما شابه، ولكنّي لم أهنأ بالاً. فالإغتسال من أدران الدوّامة الدنيوية يخلّف وسواساً لجوجاً يطاردنا دوماً ويوشوش لنا بوجود مجهولٍ لم تجرفه حملة التطهير بعد.

هذه الوسوسة المرضيّة هي التي صوّرت لي بقائي محسوباً على كادر الدولة الوظيفي حضوراً في **سجن**، بل قيداً أسطوريّاً يفوق السلسلة الحديدية ذات السبعين ذراعاً. وبالطبع كانت الشفافية

Twitter: @alqareah

الروحية بالإنتظار لتنفخ في الإكتشاف من أنفاسها السخيّة. والنتيجة صحوة القلق الغيبيّ الذي لا يُحتمل. ولم يكن أمامي في سبيل إستعادة السلام إلاّ شدّ الرحال لاستئصال الشعرة الخبيثة أيضاً!

قبل السفر خلوت إلى نفسي لتأمّل أقصر سبيل إلى الخلاص في أرضٍ كلّها بالنسبة لي حقل ألغام. إستجرتُ بوصايا كتاب الأسلاف الضائع «آنهي» فلم يخذلني بوصيّته الخالدة في شأن قضاء الحوائج والتي تحثّ على التوجّه لذوي الشأن رأساً لا ظلالهم، أو من أنابوا عنهم، لأننا إن لم نفلح في قضاء الحاجة في هذه الحال، فإننا على الأقل لن نضيّع وقتاً لا يقدّر بثمن! ومن خلال خبرتي بحقل ألغامي المسمّى الإدارة الليبية فإن دهاة الروتين في حلفهم مع كهنة الكيد المجّاني لن يكتفوا بتصوير الإستقالة على أنها إستفزاز، ولكنّهم سوف يخرجونها على أنها نيّة مبيّتة للإلتحاق بفلول ما يسمّى بالمعارضة. أي أنها خطوة في طريق نهايته المجاهرة بالعداوة.

ولمّا كان العدوس (كل عدوس) هو معارضة بطبيعته بوصفه صليب الحرية الذي يدبّ على قدمين، فإن اللجوء في ذاته مبدأ مهين ومرفوض، فكيف بالإنضمام إلى محافل تحترف إستعراض العضلات الأيديولوجية، وتتفنّن في تغليف نواياها الحقيقية بشعارات سياسية كاذبة، لأن الغاية دوماً هي الغنيمة، وليس القيمة المغتربة في ظلّ كلّ الأنظمة السياسية مهما تشدّقت بالعدالة، أو تغنّت بالديمقراطية!

ففي تلك الأيام لم يكن الحرص على الحياة هو هاجس وجودي

Twitter: @alqareah

على قيد الحياة كما هو الحال مع الإنسان الذي كنته قبل تجربة البعث، أو كما هو الحال مع كل إنسانٍ دنيوي، حتّى أخشى موتاً لم أعترف به طوال الزمن الذي حام فيه حولي، فكيف أخافه في الزمن الذي حسبتُ فيه نفسي في عداد الأموات؟ فالتقارير التي ستنشط والتي ستدفع بسدنة اللجان الثورية لإدراجي ضمن قوائم المطلوبين للتصفية الجسدية ليس هو ما يخيف، سيّما في ذلك الزمن الذي صارت فيه إستقالة أي موظف (حتى لو كان مغموراً) أمراً مشبوهاً، فكيف باستقالة إنسان معروف؟ فهمّي في تلك الأيام هو **الحسم**، وبأسرع وقت ممكن. وهو ما يعني ترجمته **الحرية** بأسرع وقت، لأن الإنسان الذي يتلو صلاة الوداع وحده لا يملك وقتاً. ونزيفي الجسدي ثم الروحي، في تلك الأيام، هو التعبير عن صلاة وداعي.

فالإنسان الممسوس بهاجس الموت وحده يستميت لكي لا يترك وراءه إلتزاماً، أو أي إرتباط، فكيف يغفل عن بقاء قيد بحجم سلسلة السبعين ذراعاً التي ترهن رقبته في كفّ جنّية إسمها الدولة؟

والواقع أنّي لم أكن ساذجاً أيضاً إلى الدرجة التي تجعلني أعتقد أنّهم لم يستصدروا قراراً بفصلي من الوظيفة العمومية طوال أربع سنوات من الغياب من باب الإكبار لشخصي، فلا أعي أنهم لم يكونوا ليتردّدوا لولا خشيتهم من ردّة فعلي التي لن تكون غير **المجاهرة** بالعداء. وهو أكثر ما اجتنبوه طوال تلك الأعوام حتّى مع نكرات لا وزن لها ولا قيمة، فكيف بإنسانٍ إمتلك صيتاً خارجياً وفوق ذلك تسلّح بقلم. فالخوف من البلبلة (سيّما في وسائل

Twitter: @alqareah

الإعلام) هو ديدن الأنظمة الشمولية عموماً، ويتضاعف هذا الخوف حتى يصير هاجساً مرضيّاً كلّما قطع النظام السياسي شوطاً أبعد في طريق الهيمنة الشمولية. وبالنسبة لبلدٍ كليبيا كان النظام قد بدأ يعاني أعراض هذا المرض منذ منتصف السبعينيات ليبلغ مع نهايات الثمانينيات مشارف الذروة في هذا السبيل.

لم يكن سدنة النظام يدرون أن موقفي من مشكلة الحرية ليس سياسياً بحتاً (لأن السياسة بالنسبة لي دوماً إبتذال بسبب لاأخلاقيّتها)، ولكنه أعظم شأناً من البُعْد السياسي، لأنه بالدرجة الأولى كينوني، ثمّ فوق ذلك غيبيّ فلسفيّ. ولو قرأوا كتبي لاكتشفوا هذا الموقف المبدئيّ، وهو مبثوثٌ في أعمالي المبكّرة أيضاً قبل أن يتطوّر ليستعير أبعاداً ملحميّة في الأعمال الروائية التالية.

ولكن السدنة يعتمدون في أحكامهم على التقارير، ولا يقرأون الكتب. ولا أدري عمّا إذا كان ذلك لسوء الحظّ، أم لحسن الحظّ. ولكن ما أدريه هو أني خاسرٌ في الحالين، لأنهم يظلمونني عندما يوكلون لأشباه المثقفين (أمثال بشير الهاشمي) الذين سيكيدون لي في التقارير من باب الحسد (كما فعلوا دوماً) سواء فهموا النصّ أم لم يفهموا، سواء حوى النصّ إدانةً صريحةً للجور أم حوى موقفاً فلسفياً إزاء أي ظاهرة وجودية. ذلك أن لون الماء لا ينضح بغير لون الإناء. وهو ما يعني أن الجميع إنّما يقيسوننا بما يجول في نفوسهم هم. ونفوس أمثال هؤلاء لا تجود في تلك السنوات سوى بكلّ ما هو سطحي وحرفي ومبتذل. أي أن الغاية للجميع هي غنيمة شطرها

Twitter: @alqareah

الأول مال وشقّها الثاني جاه. أي الثنائي الأبدي: **السلطة والمال.** وهم لهذا السبب لا يتصوّرون وجود إنسان في الدنيا غير معني بمعبوديهما هذين. ولهذا فأناس من طينة العدوس دوماً ليسوا غرباء وحسب بسبب شذوذهم عن القطيع، ولكنهم مدانون مسبقاً. ليس مسبقاً وحسب، ولكن ملحقاً أيضاً. أي دون أمل في تبرئتهم. ولهذا لم أشكّ في أنّهم سيتركون الأمر بشأني معلّقاً. وهو ما يروقهم لأسباب أهمّها أني لا أتقاضى معاشاً. وهو ما يشفي غليل حقدهم. وثانيهما لأن وضعاً كهذا يعفيهم من مسئولية القرار الإداري الذي قد يؤدّي إلى إتخاذي لموقف سياسي سيعرّضهم لأضرار على المستوى الوظيفي، وربّما أسوأ من الضرر الوظيفي!

تلك قراءة للواقع النفسي لذاك الزمان سوف يشهد بصوابها كلّ من ابتلته الأقدار ليكون للمرحلة شاهد عيان.

الخلاصة أن الوظيفة في تلك السنوات أضحت لعنة التحرّر منها أعسر من نيلها. وكي أكون على يقين من أمري عرضت الأمر على بعض الأخيار: الصادق النيهوم أوصاني أن أخاطب بالشأن الرأس مباشرةً لأن الوسطاء سيجدون الفرصة لكي يكيدوا لك بما يضرّ لا بما ينفع في حال فوّضتهم رسلاً. أمّا جمعة الفزّاني فقد شدّد على الوتر نفسه عندما صارحني قائلاً أن لا أحد في الدولة كلّها يستطيع أن يبثّ في أمر إنسانٍ معروفٍ سوى رأس القيادة. أي أنه حقل الألغام الذي لا يجب أن أثق فيه بأحد.

ولكن أيّة حياة هذه التي نعدم فيها أن نثق بأحد؟

Twitter: @alqareah

كلاّ، كلاّ. حتّى في الجحيم نستطيع أن نجد الإنسان الجدير بثقتنا. إستعدتُ فرسان الزمن الضائع كلّهم فلم أجد لتلك المهمّة إنساناً أجدر بالثقة من الإنسان القديم المطبوع بقيم الصحراء الذي كان يبيعني الكتب في بداية عهدي بالمعرفة (في بداية الستينيات بسبها) مفاتيح هذه الخزنة العجيبة لانتمائه إلى تلك القلّة التي لم تفقدها المناصب الزائلة تلك العفوية التي ميّزته عن الأغلبيّة دائماً حتّى أنه لم يتردّد في الدفاع عن شخصي عندما سنّ الأشرار السكاكين لنحري إستجابةً لوشاية الرئيس هوّاري بومدين في منتصف السبعينيات في وقتٍ لم يكن لأحدٍ أن يجرؤ فيه للدفاع عن أحد سيّما إذا تعلّق الأمر بتهمة ذات الطبيعة السياسية. هذا الإنسان هو: **إبراهيم بجاد!**

وضعت خطاب الإستقالة بين يدي هذا الرجل ليقيني أنه لن يخذلني في وضعه بين يديّ وليّ أمر البلاد المخوّل الوحيد آنذاك بالبتّ في أمرها سواء أكان سلباً أو إيجاباً.

إنتظرت بالحاضرة أياماً، ثم انطلقت برّاً إلى الجنوب برفقة شقيقي آلة الذي كان قد إستقال أيضاً كضابط بالشرطة، ولكن أصحاب القرار بوزارة الداخلية لم يجرؤوا على البتّ في الإستقالة لا سلباً ولا إيجاباً فتركوه لأمدٍ إستغرق أعواماً منذ ذلك التاريخ حتى أنه لم يفلح في انتزاع حريته في نهاية المطاف إلاّ بحرف القانون النافذ لا باللوائح الإدارية وحدها، ولكن بحكم القضاء أيضاً.

إنها السيرة القديمة التي لعب فيها الأب دور البطولة في منتصف

Twitter: @alqareah

الستينيات فرافقتُه عندما طاف عواصم القرار في الشمال بدايةً بطرابلس ونهايةً بطبرق مروراً بالبيضاء العاصمة الإدارية للدولة آنذاك جرياً وراء إستقالة لم تكن لتتم لو لم ينتزعها في النهاية من قصر الخلد العامر حيث ينتصب عرش الملك إدريس. وهي الجرثومة التي سكنت جيناتنا جميعاً ميراثاً عن الوالد فيخضع شقيقي الأكبر فنايت للتجربة ذاتها بعد سنوات، ثم شقيقنا الأصغر موسى أيضاً بعدها بأعوام أخر. فالإنسان المسكون بالفيروس القدسي الوحيد المسمّى حرّيةً لابدّ أن يتمرّد يوماً عندما سيكتشف أن الوظيفة ليست عملاً حقيقياً، ولكنها نوعٌ من قِنانة، بل عبودية مخجلة، لأنها ليست خضوعاً لصاحب سيادة حقيقية، ولكنها إمتثالٌ لمشيئة مملوك يتظاهر بهويّة المالك كما هو الحال مع البعبع المسمّى دولةً.

فالدولة آلة ميّتة تستبسل في إيهامنا بوجودها على قيد الحياة فتتفنّن في سنّ التدابير العبثيّة لإرهابنا، أو تحتال بكل الوسائل لإقناعنا بهويّتها الغيبيّة طمعاً في أن نصدّق أنها عملٌ لا أرضيّ، وهو لهذا السبب كفيلٌ بأن يفنينا من الوجود فيما لو أصاب الدولة سوء. أي أن وجودنا برمّته رهين وجودها. ولهذه العلّة يتزلزل كيان الدولة ما أن يجرؤ أحدنا على الإنسحاب من ظلالها، لأن هذا الفعل نذيرٌ بزوالها. فالحرية هو ما لا تعترف به الدولة، أي دولة، مهما تغنّت بهذه الخرافة التي لم تعترف بها يوماً، ومهما إخترعت لنفسها من أسماء لتسوّق بضاعتها!

ولذا فالدولة إذا كانت في نظر البلهاء بعبعاً فإنها في يقين الشجعان بعبعٌ جبان!

Twitter: @alqareah

فالشجعان الذين ينتوون أن يتنصّلوا من سلطانها عندما يكتشفون أن الخبز الذي تهبه لهم مقابل الوظيفة المزعومة التي يتقلّدونها هو خبزٌ مسموم لأنه مجرّد خدعة لسرقة أرواحهم، فأولئك هم الأبطال الذين تخافهم الدولة كما لا تخاف الفئة الأخرى التي ترفع السلاح في وجهها مطالبةً بحقوقٍ أو حتّى بتغيير نظام الحكم، لأن المنتمين للفئة الأخيرة مازالوا على ضلالهم، ولم يكتشفوا سرّ الدولة القائم على الأكذوبة كما اكتشفه فريق الشجعان الذين يرمون بقفّاز التحدّي في وجهها برفض حسناتها المسمومة ليختاروا الحرية بديلاً.

ولهذا فالإستقالة هي كلمة السرّ التي تميت الكلم في ألسنة القائمين على أمر الدولة، ولا يملك مَنْ تفوّضهم هذه الساحرة لينطقوا بإسمها إلاّ أن يتلعثموا ويهتملوا ثم يلوذوا بالصمت، لا لأن اللغة هي ما يعجزهم، ولكن لأنهم لا يجدون ما يعبّروا به عن هزيمتهم! لهذا السبب لم يدهشني أن تطاردني الدولة أثناء رحلتي البرّية لتزفّ لي على لسان زبانيتها نبأ إعتذار الدولة عن قبول فراري من سجنها!

كان السيّد إبراهيم عليّ أمين سرّ القيادة آنذاك هو مَن بحث عنّي ليبلغني القرار، فلم يعثر على شخصي على كل الهواتف المتاحة بالحاضرة، فاتّصل بالسلطات في كلٍّ من سبها وأوباري في وقتٍ كنت فيه أحلّ في حرم معبودتي الصحراء ممنّياً نفسي بالخلاص والتفرّغ كلّ ما تبقّى لي من أيام للحضور في رحاب فردوسي الأبدي.

Twitter: @alqareah

22

أظنّ أن الإنسان الذي جرّب الحرية وحده يستطيع أن يتصوّر كم هو مخيّب للآمال أن تتنزّل نازلة مّا لتحرم هذا الإنسان نعيم الحرية هذا. فأيّ ارتباط هنا يتحوّل في حياة هذا الإنسان كابوساً سوف يهبّ لإزالته بكلّ حيلة. ذلك أن الإحتفاظ بهذه الحرية في عرف هذا النموذج هو مسألة حياة أو موت. في هذه الحال يستحيل وجود تنازل أو أي حلّ وسط. فإمّا الحرية أو الموت. لهذا السبب فهمت لماذا يموت الأبطال في سبيل الحرية وهم سعداء. فالحرية وحدها ترفض الحلول الوسط، وهي وحدها إمّا أن تكون أو لا تكون، وهي وحدها تغوينا لأن نذهب فنموت من أجلها كأننا نذهب لنحيا، لا لنموت.

لقد ذهبت لمقابلة السيّد إبراهيم علي فوجدته إنساناً دمثاً بسيطاً لم يتلوّث بروح المؤامرة، ولم يعتنق دين الحكم المسبق (الذي كان عقيدة تلك الأيام)، ومجبولٌ بخصلة نادرة وهي حسن النيّة. وهو ما شجّعني كي أكون معه صريحاً إلى أبعد حدّ عندما قلت له أن ما منعني من إعادة إصدار المجلّة ليس ظروفي الصحيّة (التي أفزعته ما أن رآها آيةً مرسومةً في سيمائي) وحدها، ولكن لظرفٍ آخر أكثر

Twitter: @alqareah

أهمّية (سبق وحدّثت به صاحب الشأن) وهو الوعد الذي قطعته على نفسي لكي لا أتولّى أي مسئولية لها علاقة بالإدارة الليبية حتّى لو متُّ جوعاً في زمنٍ لا يموت فيه أحدٌ بالجوع!

كان ما خذلني دوماً في مثل هذه المواقف مع البشر هو لهجة الإنفعال التي ستبدو لكل من سمعها إستفزازاً، أو نوعاً من عراك. وكنت أشفق على الناس من هذا الطبع الذي لم أفلح في ترويضه سنوات سفري في ليل الدنيا، لأكتشف عندما تأمّلته طويلاً أن سببه اليقين بما أقول. فالإيمان بمادّة القول يفجّر في الروح تلك النار التي تحيل العبارة قنبلةً في أذن من يسمعها وتحيي فيه روح العداء كردّة فعل طبيعية إستوجبها ناموس الدفاع عن النفس. ولكن الرجل تسامح في ذلك اليوم حتّى أنّه أطلق ضحكة كأنّه يزكّي نبرة التطرّف في خطابي قبل أن يخاطبني بما لم أتوقّعه. قال أنّني أحد رموز الثقافة في هذا البلد. ليس هذا وحسب، ولكنّي أتمتّع إلى جانب الصيت الأدبي بالصيت الأخلاقي أيضاً. ثم أضاف قائلاً: «أنت لست ملزماً بأن تقبع وراء المكاتب ككلّ الموظفين، ولكن من حقّك أن تتمتّع بالتفرّغ الأدبي إسوةً بأدباء آخرين لتحيا حيث تقيم عائلتك أو في المكان الذي يناسبك».

لقد تعمّت أن أتجرّد من سيرة المرض لكي لا أبدو من يستخدم حجّة المرض كورقة إبتزاز إعتادها الكثيرون، ولهذا جاهرت بحقيقة موقفي المبدئي من العمل مع مؤسسات الدولة منذ عام 1965. فلا أحد يجرؤ أن ينكر وجود بقيّة من نزعة إنسانية (مستعارة أصلاً من

Twitter: @alqareah

نزعة عاطفية) لدى المسئولين الليبيين ليتنازلوا عن عجرفتهم مراراً لينجدوا من ألمّ به مصاب صحّي فاستدعى العلاج خارج البلاد، فإن تعذّر عملوا على تعيينه بوظيفة بإحدى البعثات الدبلوماسية. لم يتحمّلوا تكاليف علاجية باهضة بالنسبة لبعض الليبيين وحسب، ولكن حدث أن تطوّعوا لعلاج أناس عرب كثر منهم أدباء مشاهير. كما كنت أدري بمِنَح تفرّغ تقرّرت لأدباء ليبيين عديدين بالداخل. أمّا بالخارج فتجربة الشاعر محمد الفيتوري وصادق النيهوم وأحمد الفقيه بمثابة دليل.

ولكن المشكلة ليست في النوايا، ولكن في وضع هذه النوايا موضع التنفيذ.

فأخطبوط الإدارة يتربّص ليبطش بأي فكرة يمكن أن تكون سبباً في تحرير أي إنسان!

وبرغم كلّ العراقيل التي رافقت تنفيذ هذا القرار، أو العراقيل الأخرى التي رافقت تنفيذ قرار الإنتقال لسويسرا بعد هذا التاريخ بثلاث سنوات لأسباب صحيّة، بيد أن العزاء في هذا العناء كان في التشبّث بحرف العهد الذي قطعته على نفسي فلم أطأ بقدمي أرضاً لسفارة لأمارس فيها عملاً منذ الخروج من كابوس إسمه بولندا إلى هذا اليوم، كما سيتّضح في المجلّد الرابع من هذا البيان، برغم أن العمل في بولندا لم يكن بالسفارة أيضاً اللهمّ إلاّ إذا كان حمل هويّة إقامة مكّنتني من إصدار منبر ثقافي مرجعيّ عملاً بسفارة وقف منه القائمون على أمر هذه المؤسسة موقف العداء. وهو ما يعني أنّي

Twitter: @alqareah

أستطيع أن أتباهى بعدم إنتمائي إلى هذا المحفل اللئيم طوال وجودي خارج الوطن، بحيث أملك الحقّ في أن أقول أن ليس شخصي من مارس عملاً بسفارة ليبيّة يوماً (سواء في بولندا أو روسيا أو سويسرا)، ولكن سفارات ليبيا في هذه البلدان هي التي مارست العمل ضدّي!

Twitter: @alqareah

23

نزعة الخارجية في معاداة كل من لم يشرب من آبارها المسمومة مستعارة من أيديولوجية المجتمعات المنغلقة حول نفسها حتّى لا أقول أيديولوجية العصابات ولا أقول المافيات، لأن الأخيرة تمتلك عرفاً ينظّم علاقاتها سواء الداخلية أو مع العالم، في حين يسود الخارجية قانون الغاب الذي لا يكتفي بأن ينهش كلّ دخيل، ولكنّه لن يتردّد في أن ينهش قرينه عندما لا يجد عدوّاً يغرس فيه نابه المسموم على نحوٍ يبدو فيه تعبير «وكر الأفاعي» تنازلاً فيما إذا قورن بحقيقة الحقد الذي يتأجّج في نفوس الملّة التي تحترف الدبلوماسية. وهي نفوس لا تتسامح فتقبل بوجود ملحقين عسكريين أو أمنيين في أوكارها الخارجية (السفارات) إلاّ على مضض، أي بسبب الخوف في الواقع، ولكنّها لا تلبث أن تستشرس وتكشّر عن أنيابها في وجه كلّ ما له صلة بالثقافة كالملحقين الصحفيين أو الثقافيين لا لشيء إلاّ لأنهم عُزّل ولا يملكون أسلحةً للدفاع عن أنفسهم! ولهذا السبب خلت السفارات الليبية تحديداً من هذين العنصرين، كما خلت منهم سفارات العالم نسبيّاً، كأنّ العالم أفلح في أن يقنّن كل شيء، ولكنه أخفق في استئصال ورم الحقد في نفوس أبناء هذه الملّة. والمثقّفون

Twitter: @alqareah

يصيرون هنا أيضاً الضحيّة الأولى بعد أن كانوا بالسليقة ضحيّةً في مجتمعاتهم، ثمّ ضحايا في العلاقة بساسات بلدانهم مهما طاب لهذه البلدان أن تتشدّق بالنعيم الأرضي المسمّى في لغة العصر ديمقراطيّة!

فمن العبث أن يحاول يتامى التاريخ هؤلاء أن يقنعوا عالماً يعتنق عقلية الغنيمة بنبل مسعاهم كالتبشير برسالة ثقافية تحقّق تشييد القناطر بين الثقافات حتّى لو كانوا بحكمة سقراط أو عبقرية آينشتاين، لأن كلّ ما متَّ بصلة لجلالة الحقيقة هو ما لا يُعترف به في شرع المعبودة التي هي الغنيمة.

ولكن روح الشرور في الخارجية الليبية لا تقتصر على حدود إختصاصاتها، ولكنّها شبكة أخطبوطية تسري بجذورها في شرايين الدولة كسرطانٍ خبيث. فتقاريرها مقدّسة لدى رأ س الدولة، ولدى أعتى الأجهزة الأمنية، وتملك سلطةً خفيّةً لا على الوزراء أو وزاراتهم أو المؤسسات التابعة لها فقط، ولكن على رئيس الحكومة أيضاً.

ذلك كلّه ليس نتيجة كفاءة، ولكن لفروسيّتها في الدسّ، وإتقان أهلها حبك المؤامرات، وتفوّقها في تصوير الباطل حقيقةً. فيكفي أن تشكّك هذه الساحرة في أمرٍ، أو تجاهر بإدانة مخلوق، حتّى تعامل كلمتها قرآناً منزّلاً، وحكمها قضاءً مبرماً. فقد حدث عند وصولي بولندا في خريف 1978 مع أعضاء الوفد الثقافي أن وجدت حفنة من موظّفي السفارة وهم يهوّلون موقف أحد مرافقي فرقة الفنون الشعبية الذين سبقونا في الوصول بيوم أو يومين، لا لشيء إلاّ لأنه انتقد

Twitter: @alqareah

موقف السفارة التي لم تقم بواجبها في إتمام إجراءات الوفد ليتّهموه بالخيانة العظمى بدعوى أنه أهان السفارة، وحطّ من شأن الخارجية، كأنّ السفارة قدس أقداس، والخارجية خليفة الله على الأرض؛ فلم يكتفوا بعبارات الإستنكار كأنّ أمراً جللاً قد أُرتُكب، ولكنّهم إستدعوا الملحق الأمني ليعقدوا إجتماع الكيد الطاريء لكي يجد الشقيّ القصاص في انتظاره عند العودة إلى بلده!

هذا نموذج صغير معلن، فكيف بالكبائر في التآمر التي ترتكب في الخفاء ليذهب ضحيّتها الأبرياء؟

وها هي الكاهنة الوثنية القديمة تعلن حال الطواريء بمجرّد إنتشار نبأ النيّة في إعادتي إلى حضيرتها كأن شخص عدوس السُّرَى لا يفوق أغلبية أهلها سواء في المؤهّلات العلمية، أو في الأقدمية الإدارية، أو الكفاءة الوظيفية، ولا أقول الخصال الأخلاقية، كما لم يحدث أن إستخدمت أيضاً صيتي الثقافي، أو مكانتي الأدبية منذ ذلك التاريخ إلى يوم الفانين هذا، في واقع الخارجية الذي يشهد كل من عرفه أن ثلاثة أرباع موظّفيه أُمّيّين، والربع الباقي شبه أمّيّين، أمّا الجهل باللغات الأجنبية فالسفارات الليبية نموذج في هذا المجال على مستوى العالم!

وليت الفئة التي تكلّفها الخارجية بتمثيل وطن هو ليبيا في أرض الله الواسعة يملكون حسّاً وطنيّاً ولو في حدوده الدنيا، أو يتمتّعون بخصالٍ أخلاقيّة في حدٍّ أدنى أيضاً، أو يمكن أن يشرّفوا هذا الوطن في أيّ شيء ذي قيمة باستثناء الجشع إلى المال أو اقتراف الآثام

Twitter: @alqareah

المشبوهة، إلى حدٍّ صارت فيه بعثات هذا البلد الشقيّ النموذج في سوء الخلق، والمثال في ممارسة الجهالة!

من الطبيعي إذاً أن يطعن هؤلاء في أيّ إنسان يخالفهم في المسلك، ولا يدين بدينهم في كل شيء. ولهذا لا يعود أمثال العدوس في واقعٍ كهذا مجرّد غرباء، ولكن لا يجب أن يستنكروا أن يعاملوا معاملة الأعداء أيضاً. هذا اليقين هو الذي أعانني في حمل صليبي، فأشفق عليهم دوماً لأنهم أبناء الوطن الذي لم أختره، ولكنه هو الذي اختارني، كما لا نختار أقدارنا، ولكن أقدارنا هي التي تختارنا.

ولكن لا يجب أن ننسى أيضاً أننا إنّما نظلم النزهاء عندما نتسامح مع السفلة: هذه الملّة المجبولة بروح القنانة، التي تعتنق الكراهة المجّانية بديلاً للدّين، فتعلن الطواريء لتتكأكأ على الإنسان الذي لم ينافسها في غنيمة، ولم يتقلّد في السلك الدبلوماسي وظيفة، ولم يزاحم زبانيتها في مكتب بسفارة، فتحاربه في قوتٍ هو في كلّ الأعراف مجرّد رزق للبقاء على قيد الحياة وليس بثروة أو ترف، كأنّه ليس حقّاً طبيعياً يتمتّع به الكل في وطنٍ غنيٍّ بالثروات الطبيعية التي عمّت بخيرها أقطار الدنيا وأمصارها ليبخلوا بها على الإنسان الذي حمل وطنه في قلبه وأحسن له سيرةً وعملاً بقدر ما أساؤوا له هم سيراً وأعمالاً، ويعاملونه كأنّهم يستقطعونه من لحومهم في وقتٍ لم يعد فيه بالنسبة لغريب الزمان حتّى القوت (لأنه إستغنى حتى عن القوت)، ولكنه رزقٌ لتلك الذرّية التي تعتبرها الأوطان رصيداً

Twitter: @alqareah

بوصفها فحوى المستقبل الذي لن يكون سوى الأجيال، في حين كانوا في رقبة العدوس قصاصاً في طفولتهم لأنهم الخطيئة التي اقترفها في حقّ نفسه يوم تنكّر لطبيعته فقرّر أن يقترن بإمرأة لا لشيء إلاّ لأن الأغيار يفعلون، ليصيروا أعداءً تالياً ليصدق في حقّهم الحكم الألوهي المنصوص عنه في الآية القرآنية الكريمة.

الحلف المبرم بين أشباح الإدارة الليبية أدخل القرار في متاهة لم يكن لأمثالي سلطاناً عليها إلاّ بالتخلّي عنها عملاً بوصيّة إمام الزهد عليّ بن أبي طالب القائلة بوجوب الإستعانة على قضاء حوائج الدنيا بالإستغناء عنها.

عدت إلى ملكوت فردوسي لأعاند درس معلّمي سينيكا عن سعادة الحكيم التي لا تكون حقيقيةً ما لم تكن صارمة. وهي لم تكن لتكون صارمةً لو لم تكن حرباً مع ما يسمّيه الدنيويّون **مللاً**. فالكينونة إذا كانت رهينة الحسّ، فإن الحياة الدنيا رهينة الأفيون الذي نسمّيه متعةً. ولكن بطولة الحكيم (أو مريد التخلّي عموماً) في التضحية بهذه المتعة واستبدالها بلعبة أخرى هي: **التجلّي**. فترياق الورم الإنساني ذي الطبيعة الغيبيّة المسمّى مللاً هو التسلية. واستبدال التسلية الحسّية بالتسلية الروحيّة هو شعرة شمشون المريد. أي أنه: **عرش المشاهد** الذي يتأمّل فصول المهزلة من بُعْد المسافة المناسبة ليروّض النفس على أن تستمرىء الأمر ما لم يتدخّل جلالة الواجب. فإذا كان إستبدال غنيمة الحسّ بقيمة الروح هو شعرة شمشون أمثال العدوس، فإن الضمير في حياتهم هو كعب أخيلوس. والضمير بوسواسه إنّما

Twitter: @alqareah

ينطق بلسان الواجب. ومن عاش هذه التجربة وحده يعلم ما سيكلّف أداء الدين هذا الإنسان من عناء. فلا يكفي أن تنتحل دور الخادم لتعول أسرة في الزمن الأسوأ الذي تنهار فيه الإمبراطوريات وتتشكّل خارطة العالم من جديد، ولكن الأسرة لا تقنع بالرعاية التي تقي من شرّ الحاجة، ولكنها تأبى إلاّ أن تقتحم شخص الإنسان الذي لم يعد من لحمٍ ودم، ولكنه منذ الآن كلّه روح، لأنها لا تتخيّل الإنقلاب الذي حدث لسببٍ بسيط وهو أنه **تجديف** من وجهة نظر ذلك الإنسان الحرفي الإبن الشرعي للطبيعة الذي لا يعترف بالروح لأنه لا يملك الروح أصلاً كما هو الحال بالنسبة للمرأة. وها هي يانينا تغزو بيتي دون أن تتصوّر بالطبع أنها تغزو روحي لتزرع فيه البلبلة بل والبلبال، وهي تهدهد في القلب الأمل في أن تجد في شخصي الإنسان الذي مات، وتأمل أن تستعيد ذكريات الزمن الرومانسي سنوات الدراسة بمعهد غوركي بحاضرة العالم، فلا يخطر ببالها أنّي طلّقت نفسي كما طلّقت موسكو نفسها، كما تنكّر الزمان لنفسه كما لم يتنكّر لنفسه في تاريخه لينزع عن وجهه قناع الرومانسية المسربل بروح الشعر ليكشف عن المنفى الأبدي. ففي أقلّ من عقدين إغتربت موسكو عن موسكو ولم يبقَ من الحاضرة القديمة سوى الطلول. وها هي بريسترويكا تتأهّب لتكنس حتى الطلول لتفتح الباب على مصراعيه على عصر لا عهد به لعالم ماوراء الستور الحديدية التي تستعير جذورها التاريخية من زمن القيصرية كأنّ المجهول قدر هذه القارّة الذي لم يكن له الزمن الستاليني سوى الذروة. وها هي فطرة

Twitter: @alqareah

الأمس التي كانت سجيّةً مميّزة في مسلك الإنسان الروسي تتنكّر لطبيعتها لأن اللهات وراء المعبود الجديد (الذي نصّبه إقتصاد السوق سلطاناً على الحياة اليومية) يسنّ للعلاقات الإجتماعية ناموسه الجديد لتصبح **الصفقة النفعية** منذ اليوم هي المقياس في أي معاملة دنيويّة. غابت الحميمية في العلاقة وشرع جليد الزيف يكتسح صلة الإنسان بأخية الإنسان. فالنظام القائم على التجارة يولّد روحاً تجارية لا تصيب عَصَب المجتمع وحسب، ولكنّها تلقي بظلالها القبيحة على فاكهة البشر الروحية أيضاً كالفنون والآداب والعلوم وما شابه. فالمعبود منذ الآن لا يعود الرمز، ولكن سيّد الموقف هو المال. وهكذا تصير مباديء أخلاقية كالعفوية عملاً مستهجناً يُنعت بالمثالية، في حين ينقلب النفع عملاً مستحسناً لينعت بالواقعية.

ففي سنوات الحمّى تلك إستحضرتُ أيّام المعهد عندما كانت أسطورة التدريس الجامعي المجسّدة في شخص جومبينوف وهو يتلو علينا باللاتينية توماس سترنس إليوت وهو يهدي معلّمه الأول أزرا باوند ملحمة «الأرض الخراب» ليشدّد على سيرة فرار الصديقين من نعيم أمريكا بسبب تفشّي وباء الروح التجارية، دون أن يخطر ببال أحدٍ منّا في تلك الأيام أن وقتاً سيأتي نكون فيه شهود عيان على تفشّي الوباء ذاته برحاب الإمبراطورية السوفييتية، كأنّ ما يحدث اليوم ضربٌ من أضغاث الأحلام.

فالزمن، كما اتّضح، لا يكون رومانسيّاً ما لم يكن زمناً ضائعاً. فالزمن الآنيّ واقعيّ. وأن يكون واقعياً يعني أن يكون حرفيّاً. وكل ما

Twitter: @alqareah

هو حرفيّ فهو مميت. لهذا السبب لا نتردّد في الفرار من هذه الروح الحرفية في الزمن لنمثل في حضرة الزمن الماضي، أو في مجهول الزمن الآتي. هذه النزعة هي ما يجعل حياتنا مشروعاً مؤجّلاً. وكل تقنيات اليوغا أو تدابير التأمّل التي شغلت الجنس البشري منذ الأزل إنّما كانت وَحْياً لتحقيق أعجوبة الحاضر العصيّة المنال. كلّها أشراك لاقتناص الحضور في الآنيّة، وكسر شوكة الإستكبار في مسلك لحظة المحال.

Twitter: @alqareah

24

في نهايات الثمانينيّات زارني في حرم العزلة الموسكوفية شقيقي في الدمّ وخلّي في الروح فنايت الكوني حاملاً في أعطافه كنوز الأوائل. فكم كنت سأَحْيا في هذه الدنيا وحيداً لو لم تمنّ الأقدار على شخصي بإنسانٍ كهذا. فهو الوحيد القادر إلى اليوم، كما بالأمس، أن يشفي غليلي لحميميّة العلاقة المفقودة في عالمنا التي نسمّيها صداقة. أقبل على فردوسي ليهنّئني، لا ليعزّيني كما قد يحسب الأغيار الذين يرون في العزلة يُتْماً، بل موتاً على قيد الحياة. أقول هذا لا لأن الرجل شقيقي، أو لأنه صديقي الأول من بين كل أصدقائي الذين كان جلّهم قد خذلني حتى ذلك الوقت، ولكني أقول هذا لخصال هذا الإنسان التي كانت لي مثالاً أعْلَى منذ الوعي المبكّر إلى يوم الفانين هذا.

وأعتقد أن أخانا الأكبر (من جهة الأب) لم يخطيء عندما تندّر بسيرة القدر الذي انتوى يوماً أن يصطفي هذا الإنسان ليكبّله برسالة، ولكنّه أقلع في آخر لحظة ربّما شفقةً عليه من نبوّة كانت في رقبة كل الأنبياء وزراً حاولوا أن يتنصّلوا منه جميعاً بما في ذلك خاتم المرسلين الذي هرع إلى حضن حرمه خديجة في أوّل مواجهة مع

Twitter: @alqareah

الملَك جبريل ليستجير بها صائحاً: «دثّريني، دثّريني!» أي: «أخفيني، أخفيني!»

فما يسمّى في معجم السواد الأعظم بـ«مكارم الأخلاق» التي اعتنقها هذا الإنسان منذ الصغر هي التي أوحت لإحدى خالاتنا أن تطلق عليه إسم «الغريب» وهي ما ألهم أخانا غير الشقيق أسطورة النبوّة التي لم يُكتب لها أن تستقيم بحرف الواقع.

ولكن مكارم الأخلاق المترجمة بحرف المسلك ليست سوى سبب معلن لمشيئة الغيوب التي استخدمت الصحراء لتكون لها رسولاً في استزراع تلك الشفرات التي كانت دوماً بمثابة العلامة في سيماء أخيار اصطفتهم لرسالة سواء بشّروا بها، أو لم يبشّروا. فإذا كان الأب قد تكتّم فراراً من هول قول لم يجد إليه سبيلاً لأنه في عرف القوم أساساً خطيئة، فإن عدوس السُّرَى الذي كبّلته الصحراء بالعلامة مرّة، وتوّجته بالتيه مرّة ثانية، لإجباره على البوح، لم يكن ليستخدم عضله الإثم هذه لو لم يحترق طويلاً بنار الحنين إلى البُعْد المفقود.

هذا يدعونا لتأمّل التصنيف الخلدوني (انظر المقدّمة) للنبوّة التي يقف على رأسها الأنبياء والرسل ثمّ يليهم أهل الرؤيا، ثم الشعراء.. إلخ. هذه الرؤية هي ما يبيح لأحد أعظم رموز التصوّف الإسلامي وهو ابو حيّان التوحيدي لأن ينعت أفلاطون بإسم «الإلهي» كلّما ورد ذكر إمام الفلسفة المثالية هذا. وهو ما يعني أن النبوّة درجة أولى في سلّم إلهام إلهي لا يتنزّل على الأخيار بالمجّان، ولكن على تلك

Twitter: @alqareah

الفئة النادرة فيهم التي لا تبخل بالتضحية بحثاً عن الحقيقة التي لا حضور لها خارج البعد المفقود. والإنقطاع المميت هو دوماً الخطوة الأولى في هذا السبيل. هذا الإنقطاع كان قَدَر فنايت منذ الطفولة في زمن احتراف رعي الأغنام في صحراء اللابداية واللانهاية التي تظلّلها سماء عارية أبداً ليكوّن هذا القطب الأعلى مع قرينه الأسفل متاهة من عدم لا سلاح لمنازلتها سوى بتحقيق التماهي معها لاستنطاقها. فلا شيء في عدمٍ كهذا يمكن أن يلهي عن طرح السؤال الكينوني الجذري: «من أنا؟ وإذا كنتُ صنيعة الله، فمن صنع الله؟» ممّا سيبدو تجديفاً من طفل وجد نفسه مهجوراً ووحيداً مع طبيعة اللابداية واللانهاية، وشقيّاً أيضاً، لأن المبدأ الوحيد قيد المتناول والمخوّل بأن يجيب، لا يجيب. وقد اعترف لي مراراً كيف كان في تلك المرحلة يصاب بالدوار من فرط التفكير، والمرارة بسبب العجز الناتج عن غياب الجواب.

لقد نبّهنا في مكانٍ آخر من هذا البيان على أهمّية الموقف من الله في تكوين الذّات الإنسانية، ومدى عمق الإنسان رهين بمدى الإنهمام بالهوية الألوهية من حيث المبدأ.

هذا النزيف المبكّر لابدّ أن يستزرع بذاراً وجوديّة في الروح الطفولية الهشّة لتتوّج المريد ببصمة هي جرح سيواصل النزيف حتّى لو حدث إنكسار بحرف الدنيا التي لا تباشر رسالتها إن لم تجرجرنا إلى ساحتها فتنفينا عن ملكوت الروح. وهو ما حدث لهذا الرجل تالياً عندما فجّر سليل الإثم آدم شرّه في الصحراء الكبرى (مثمثّلاً في

Twitter: @alqareah

التفجير النووي الفرنسي 1957) لتغترب الصحراء عن الصحراء التي ألفها وعرفها وأحبّها وتماهى معها وارتوى بالروح من أسرارها، ليجد نفسه منفيّاً في الواحة، مشدوداً إلى كرسي في مدرسة لتلقّي علم مختلفٍ عن علم الصحراء، بلغةٍ تختلف عن لغة الصحراء، ليحيا أيضاً اغتراباً مركّباً في الهويّة، وفي الثقافة، وفي الواقع البيئيّ، لتحيا الصحراء فيه بعد أن كان يحيا صحراءه في الصحراء. ذلك أن البذار السرّية لم تمت في روح الطريد، سيّما إذا كانت كاهنة الإجيال الإنسانية هذه قد تنبّأت للسليل بالتّيه فشيّعته قبل أن ينطلق بزاد الوجدان مترجماً في وصايا ذات أركانٍ ثلاثة مكتوبةً بحبرٍ أسطوريٍّ لعبت في فصوله دور البطولة كائنات غيبيّة هي الحيّة (الموصوفة في سفر التكوين بأحْيَل الكائنات البرّية)، ومسخ لحيوان منقرض هو الضبع، ثمّ رُسُل الجانب الآخر من البرزخ الذين نصّبهم أهل الصحراء سلالةً أصيلة على صحراءٍ هم أنفسهم فيها أضياف دخيلة واعتادوا أن ينعتوهم بإسم: الجنّ!

وهي رسائل تبدو ذات بعد ميثولوجي فيما لو قرأناها من وجهة نظر التراث الإنساني وضعتها التجربة الأسطورية شرطاً للفوز بالكنز، أو الحسناء، أو الحكمة، كاستعارة تعبّر عن أنبل ما تستطيع الألوهة أن تصطفي به مريدها الذي إذا لم يكن الجمال (الحسناء) فلن يكون سوى الكنز (الثراء)، وإذا لم يكن الكنز فلن يكون سوى الحكمة (السلطة)؛ بإمكان مخلوق ميتافيزيقي كالحيّة أن يختزل الثالوث مرّة واحدة، لأنها وحدها حامية الكنوز، وهي وحدها ربّة الحكمة، وهي

Twitter: @alqareah

وحدها ربّة الإغواء أيضاً. وها هي تنصب الشَّرَك لطفل لم يجتز عتبة السادسة لتنفث في عقبه الغضّ حمولتها من سمٍّ هو ترياق خلاص بقدر ما هو داءٌ مميت. ولكن الخلاص من مرض إسمه الدنيا لم يتحقّق كما هو متوقّع لأن رسالة القدر كان لها غاية أخرى كما اتضح فيما بعد وهو: البعث!

كان يمكن أن تكون التجربة درساً كافياً، ولكن للقدر حسابات أخرى ليس للفانين أمل في فكّ طلاسمها، وها هو يبعث بذلك المِسخ الذي ظنّ أهل الصحراء أنه انقرض من بيئة الصحراء رسولاً مخوّلاً بإخضاع صَفيّهِ لامتحانٍ آخر. ولهذا لم يخطيء الشقيّ عندما حسبه ذئباً وهو الذي لم يعرف في صحرائه وحشاً غير الذئاب. ولكن المسخ واجهه بمسلك لم يعهده في سلالة الذئاب. وبرغم الكرّ والفرّ لم يتخلّ له عن القطيع. وأكثر ما حيّر الطفل في تلك المبارزة الدرامية هو خبث الخصم (المتوّج بذلك العمود الفقري الأسطوري الذي يعيقه عن الحركة، ولكنّه نال بديلاً عن المرونة قوّة أهّلته لحمل الحيران كما تروي أساطير القوم) فيوليه ظهره ذاك ليوهمه بالإنسحاب من ساحة المعركة. ولكنه كان يفاجأ به وقد اقترب مسافة أكبر ليكتشف أنه كان يحتال بتلك الحركة فيمشي على عقبيه في مناورة لا تخطر إلاّ ببال مسخ يستطيع أن ينافس الحيّة في مواهبها. ومن الطبيعي أن تكون النجاة من ناب هذا الوحش الخرافي حلقة ثانية في سيرة البعث!

أمّا الفصل الثالث فكان تجربة غيبيّة بكلّ المقاييس لا يرويها إلاّ

Twitter: @alqareah

وتستولي على بدنه القشعريرة إلى هذا اليوم. فإذا كانت النجاة من ناب الحيّة، ثمّ النجاة من بطش الضبع، ضرباً من عجب، بيد أن الركن الثالث في الثالوث كان معجزةً حقيقيّة؛ ويبدو أن القدر قرّر أن يدسّ في صلبها كل مواهبه العبقريّة في نفي المخلوق الفاني من خارطة الوجود ثمّ إعادته لدنيا الأنام حيّاً. فها هو صفيّ الأقدار يسرح بغنيمته الأبديّة الأغنام (التي لم يكن مصادفةً أن تشتقّ منها الغنيمة إسمها) بعراء يجاور الخباء الذي نصبه الأب (مستعيناً بالأمّ) بعد أن حطّ الرحال للتوّ من الرحلة إلى هذا الموقع الجديد في صحراء تينغرت الأسطوريّة دوماً. إنه الوقت الحرج من النهار المسربل بفحوى الغيوب في عقيدة الأجيال الذي تحتضر فيه الشموس فيتحرّر أشقياء أهل الخفاء. كان القطيع قد التأم حول أكَمَة قريبة من الموقع لا أحد يعلم لماذا حذّر منها الأوائل دوماً بوصفها مأوى لسلالات أهل الصحراء الأصليّين المولعين بالمقام في رماد الدِّمَن، وآثار الدّماء التي تخلّفت عن المعارك، وفي مثل هذه الأكمات التي تكوّنت في أصول أشجار برّية تمازجت فيها بقايا الأغصان مع أتربة الرياح الجنوبيّة فتعلو بالتقادم لتبني جِرماً كهيئة الضريح كما هو الحال مع هذه الأكمة التي شهدت الركن الأقسى في سيرة البعث والبرهان الأقوى على وجود غيوبٍ أنكر المشكّكون وجودها دوماً.

لم تتزلزل الأرض، ولم تَجُدْ السماء بأيّ قارعة، ولم تدمدم الرعود، ولكن السكون لم يحل دون حدوث حدثٍ هو في يقين الطفل قطعاً قيّامة. فقد اعتدنا أن نستهزيء بتعبيرٍ لا يخلو من فحوى

Twitter: @alqareah

في الذاكرة الشعبية التي أبدعته والمتمثّل في مقولة «كفّ العفريت».
فما حدث كان تأكيداً لا لوجود هذا المارد وحسب، ولكن على وجود كفّه القادرة على أن تتولّى أمر هذه الحمولة الخرافية بكل المقاييس.

يروي صاحب الشأن السيرة فيقول أن الأنعام كانت له دائماً قرون استشعار سيّما في ما تعلّق بحضور كائنات تنتمي إلى عالم ماوراء العالم. فقد لاحظ كيف التأمت الأغنام فوق الأكمة في كوم مزموم كأنها تريد أن تحتمي ببعضها البعض وهي تشرئبّ في فزع يفوق فزعها عندما تشتمّ رائحة الذئاب. وهو فعل تزامن مع الإنتباه للإنسلاخ من المكان والإبتعاد عن الموقع بسرعة ليلاحظ كيف بدأت الجمال المجاورة للخباء تتضاءل تحت مرمى البصر، وحجم الخباء ينكمش أمام عينيه حتّى تبخّر تماماً. استولت عليه بالطبع القشعريرة التقليدية ذات الطبيعة الحدسية (أو بالأصحّ ذات الطبيعة الغيبية) التي انتابته في اللحظة التي سبقت الإحساس بناب الحيّة في عقبه، والتي انتابته أيضاً قبل أن يكتشف أن الوحش الذي نازعه ليس الذئب، ولكنّه مسخٌ من فصيلة أخرى. كل ما هنالك أن الإحساس هذه المرّة لم يكن غامضاً، بل كان يقيناً. يقين بقيام القيامة التي سمع عنها في ألسنة العجائز وفي روايات الفقهاء العابرين الذين كثيراً مانزلوا على النجوع أضيافاً. فما كان منه إلاّ أن بدأ يقرأ التعاويذ التي تعلّمها سواء من الأمّ أو من داهيات القبائل غير آمل بالطبع في النجاة.

فالسؤال الذي حيّره دوماً هو كيفيّة أن تطير به تلك القوّة الغيبيّة

Twitter: @alqareah

الرهيبة مصحوباً لا بالقطيع وحده، ولكن بالأكمة أيضاً دون أن يُحدث هذا العنف خرقاً لليابسة، أو هاويةً في المكان، لتضع هذا الحمل الهائل (المكوّن من قطيع وراعي القطيع ورقعة أرض متوّجة بأكمة) في مكانٍ يبعد على مسافة كان عليه أن يقطعها الليل كلّه ليدرك الموقع الذي سُلخ منه قبيل الغروب. فما لم يشكّ فيه هذا القدّيس (المبعوث مجدّداً ليبقى على قيد الحياة) هو سيرورة الإنتقال، أي الإحساس بأرضٍ تميد وتطير بسرعة جنونيّة تفوق سرعة البرق دون خلل في عرش هذا الموكب الخرافي. أمّا الزمن فهو اللغز الذي لم يجد له تفسيراً. فالدنيا لم تظلمّ، ووضع الشمس الغاربة لم يتبدّل. وهو ما ألهمه اليقين بأن القيامة إذا كانت قد أصابت المكان، فإنها تساهلت مع الزمان.

إنّه الإسراء الذي أعجزني تناوله روائياً حتّى اليوم، ولا أسرده هنا الآن من باب المديح لهذا الإنسان الذي اصطفته الأقدار لمعجزتها، ولكن لكي أتحدّى به أولئك الذين يشكّكون في وجود بُعْدٍ مفقودٍ في المعادلة هو أصل، وما نحن له بحضورنا قيد الوجود سوى الظلّ!

Twitter: @alqareah

25

ألن تعني هذه التجربة في السُّرَى أن مبدأ السُّرَى لا يختلف من سُرَى إلى آخر إلاّ في **الدرجة** حسب التأويل الخلدوني في تفسير الوحي الألوهي؟

ولكن المشكلة ليست في القدرة على قراءة الرسالة، ثمّ قبول المبدأ المتمثّل في الإستجابة، بقدر وجود المشكلة في رصيد الألم الذي يحدّد **قيمة** كلّ إنسان في هذه الدنيا .**فالإنسان يساوي وزنه ألماً**. وأيّ ألم يمكن أن يعادل ألم إنسان خضع لما خضع له فنايت الكوني وهو طفل بالبلايا الثلاث التي لم تكن سوى ميتات ثلاث في الواقع، تلاها بعثٌ مرّات ثلاث، فيما إذا سمحنا لأنفسنا بتأويل الإمتحان لا في بعده الرمزي (أو الروحي) وحسب، ولكن الحرفي أيضاً سيّما إذا تأمّلناه من وجهة نظر الطفل؟

البعث لا يضمّد جراح المحنة، بل نزيف الروح يستمرّ في العمق بحيث يحفر في وجدان صاحب التجربة الهويّة الأخلاقيّة المميّزة لتكون بمثابة علامة الربّ في جبين قابيل مع الفارق الجوهري في جنسيّة الهويّة. جرحٌ كان كافياً لكي يحدّد سيرة هذا الإنسان الأخلاقية سواء في العلاقة مع ذوي القربى، أو مع الأغيار، أو في هوس

Twitter: @alqareah

البحث عن الهويّة الثقافية، ثمّ الهوية الغيبيّة، وهو ثالوثٌ آخر لا يتحقّق بدون حفر الذّات الذي لقّبه حكيم الأزمنة بـ«أعرف نفسك!».

وهي سيرة تعبر حقل الألغام، قبل أن تتوّج باكتشاف اللسان البدئي الذي عاندناه معاً منذ سنوات تكوين الوعي في منتصف الستينيات عندما بدأنا نقرأ فصولاً من تاريخ هيرودوت وبقيّة مؤرّخي العالم القديم، وكذلك الإخباريين القدماء الذين كتبوا عن الصحراء الكبرى عرباً أو أجانب، لننتهي إلى النظرية التي استقامت في «بيان في لغة اللاهوت» ولم تُقرأ بكل أسف لا عربياً ولا عالمياً: عربياً بسبب كبرياء زائفة من أناسٍ يرفضون الإعتراف بأيّ قيمة خارجهم لأن ليس المعرفة ما يشغلهم، ولكن اليقين بامتلاكهم للحقيقة ليؤمنوا بأنهم خير أمّةٍ أخرجت للناس كمسلّمة ليجدوا أنفسهم في خانة واحدة مع خصومهم التقليديين الذين ادّعوا اصطفاء الله لهم من دون الناس جميعاً! أمّا عالمياً فلم يقرأ بسبب انحطاط الترجمة الناجم عن انحطاط الزمن الذي خلا من حبّ الحكمة بسبب طغيان آفة الزمان: التقنية!

وهذا الإنسان لم يكن ليكون لي الخلّ الذي لا أتخيّل الوجود لو لم يوجد هو في هذا الوجود بفضل خصاله الأخلاقية فقط التي كانت مضرب مثل، ولكن لأنه كان ولا يزال **آخر فرسان الروح الأولى** التي هدهدت في القلب صوت قيم الإسلاف لا كحرف أعراف، ولكن كصلاة في محراب مثالٍ يحيل الدّين واجباً أخلاقيّاً مبثوثاً في المسلك على النحو الذي تكشفه متون الأهرام في ما عُرف بـ«كتاب الموتى»

Twitter: @alqareah

الذي لم يكن ليختلف عن وصايا القوم الواردة في كتاب الصحراء المقدّس الضائع «آنهي»، سيّما إذا علمنا أن متون «كتاب الموتى» مروية أيضاً على لسان الحكيم «آنهي». وهو برهان آخر ضمن حزمة براهين على وحدة الأرومة السلالية للأمّتين (الصحراوية والمصرية) تأتي وحدة اللغة لتكون في وحدة الهوية تاج البراهين.

فبالنسبة لإنسانٍ مغتربٍ عن وطنٍ ثلاثيّ الأبعاد (صحراوي ثمّ ساحليّ ليبيّ، ثمّ لغويّ بشقّين لسانيّين أموميّ ومكتسب) يصير الظمأ إلى الزمن الرومانسي ملحمةً وجدانية لن ترتوي في هذا المنفى (الواقع في شمال العالم) إلاّ بحضور روح إنسان في حجم فنايت الذي لا يعود مجرّد شقيق في الدم، ولا حتّى مجرّد خلّ في الروح، ولكنّه يغدو خزنة القيم المشفوعة بالذكريات، والمجبولة بكنوز الزمن الضائع، في ذلك الزمن الذي شهد إغتراب القيم عن أرض الواقع، وفقدت فيه الذكرى سحر الفردوس المستعاد، فخلا بسبب ذلك من المعنى.

Twitter: @alqareah

26

لم يخطر ببالي يوم اعتمدت تقنيات التخلّي كعرف لأيّامي أن ينتهي بي المطاف إلى المثول في حرم القداسة لأجد نفسي مجبراً أن اكتب أدباً مشبعاً بأنفاس الدين، مخالفاً بهذا قوانين الرواية التي إذا كانت نظريّتها لا تعترف بواقعٍ خارج حقل العمران في الأساس، فكيف تعترف بواقع الحرية القصوى المشروط بالبعد اللادنيوي أصلاً؟

هذا الإكتشاف كان التحدّي الآخر الذي انتصب بالسيرورة تلقائياً، ولم يكن لي أن أحسب له حساباً تجريبياً. وهو ما يعني أن تحويل النفس الإنسانيّة الغنيّة في ذاتها ساحةً للخصام الدرامي الضروري لنشوء الرواية لا يعود كافياً، ولكن المغامرة تستوجب منذ الآن استنطاق العدم على نحوٍ لا يكتفي باستحضار الفحوى في البعد المفقود لتعويض شحّ هو ميزة واقع صحراوي، ولكن يستلزم استقدام نماذج أسطورية قد تستعير أجراماً إنسيّة، ولكنّها بالجوهر أرواح لا أرضيّة، بحيث تكتسب تلك الخاصيّة التي تعتنقها شخصيات دوستويفسكي في لحظة تجلٍّ ألوهيّ مفاجيء، فلا يخطيء

Twitter: @alqareah

توماس استرنس إليوت عندما يصف هذه الشخصيّات قائلاً أنها ليست من هذا العالم!

وأعتقد أن لا اغتراب للنقد يمكن أن يقارن باغتراب النقد في واقع، أو زمن، يضطرّ فيه المؤلّف لأن يتولّى تأويل عملٍ من أعماله كما هو الحال مع هذا النقد في عالمنا العربي، وربّما في عالم اليوم عموماً، وإلاّ ماذا يمكن أن نسمّي خرافة **التكرار** التي يتغنّى بها البعض في أعمال العدوس إن لم يكن الإدّعاء عجزاً في حجّة النقد، فهو يقيناً لن يكون غير الجهل بقوانين الإبداع الروائي؟

فالرواية هي لسان حال مجتمع رأسماله هو: **العلاقة**. والعلاقة هو ما تستهدفه القداسة لتنفيه، لأن دينها الحرية، وليس العلاقة. فأيُّ عَصَبٍ تستطيع القداسة أن تنصّبه بديلاً للعلاقة في حال قرّرت استضافة الرواية في حرمها؟

إنها تستبعد الحرف التقليدي لتحتفي بواقع **حلمي** بدل واقع اجتماعي محكوم بناموس العلاقة. في الواقع الحلمي تلعب **النماذج** دور البطولة على النحو الشعري الذي يذكّر بوسوسة الألوان في لوحات الإنطباعيّين. والنموذج هنا لا يعبّر عن تجربة عمليّة مختطّة بحرف علاقة، ولكنّه ظلّ يسرح في فضاء تلك الحرّية التي تنطق بروح الأسطورة: الأسطورة التي تختزل التجربة الوجوديّة لتعيد صياغتها في الرمز.

هذه الثورة التي تحدثها رواية القداسة هي ما يفرض إعادة هيكلة القوانين التقليدية لاعتماد مفهوم لا أرضي للغة، وللزمان، وللمكان.

Twitter: @alqareah

هيكلة تنقل المهزلة الدنيوية إلى رحاب البُعْد المفقود، حيث لا يعود البطل يلعب دوراً تقليديّاً يتمثّل في ذاتٍ حرفيّةٍ ذات طبيعة لها ملامح معترف بها، ولكنّه **يتحرّر**. يتحرّر من أسمال الواقع لينفذ إلى **الوظيفة**. وهو تطوّر ضروري في عرف الرواية القدسيّة لخلق النموذج الذي لم يكن سوى عتبة في سلّم صنع الرمز. ورسالة الوظيفة أن تستوعب بالطبع، لأنها ليست ذاتاً كما هو الحال مع أبطال العلاقة، ولكنّها موضوع. موضوع في ذاتها، مكتفيةً بنفسها تجبّ مريدها ليتماهى معها، وقد يتبادل فيها الطرفان (المريد الدخيل والموضوع الأصيل) الأدوار، ولكن الغلبة دوماً للوظيفة لأنّ سلطانها لا يُقهَر بسبب طبيعتها **الدينية** كخليفة للألوهة في البعد المفقود. تنتصر الوظيفة في النهاية لأنها خالدة، وكلّ دخيلٍ لحرمها فهو فانٍ. ولهذا فالتمرّد على ناموسها باطل أباطيل؛ وهو ما يضاعف التراجيديا. فالعِرَافة وظيفةٌ، العرّاف فيها يلعب دوراً لا يملك أن يخالف نصوصه دون أن يفقد رأسه أو عقله فيصاب بالجنون. وهو لهذا السبب نموذج درامي في الحالين. والزعامة وظيفة ذات بعد ديني أيضاً لا يجرؤ الزعيم أن يخالف الحرف في ناموسها دون أن يكون ذلك تجديفاً في ناموس الكينونة التي أبدعت الزعامة وسوّتها في نظامٍ هو الوظيفة. والتجلّي وظيفة لا يملك الدرويش أن يعبث بطقوسها دون أن يُتّهم بالهرطقة. والتجارة وظيفة، كبير التجّار فيها يلعب دور البهلوان الذي لا يملك الحقّ في تحريف منطوقها دون أن يكون ذلك بدعةً تستوجب الإعدام. وأن تتكرّر الوظيفة لا يعني تكرار البطل، ولا

Twitter: @alqareah

تكرار جوهر اللعبة، لأن الوظائف أبديّة كخشبة المسرح، أمّا الأبطال الذين يلعبون الأدوار فظلالٌ فانية، لأنّهم إذا كانوا يملكون في الرواية الواقعية أجراماً تثقل كاهل الأرض، فإنّهم في الرواية الأسطورية وحدها أطيافٌ روحيّة.

Twitter: @alqareah

27

إذا كانت غاية حملة 1989 في سبيل إنتزاع الإستقالة هي التحرّر من عبء إداري وسياسي وأخلاقي يشكّل فيه النظام الوظيفي لا مسئولية أدبية وحسب، ولكن قيداً نفسياً أيضاً، فإن غاية حملة 1990 هي ردّ الإعتبار المعنوي الناجم عن قرارات الخارجية الظالمة إدارياً وأخلاقياً الصادرة لا بحقّ العدوس كإنسان له حضورٌ في الكادر الوظيفي فقط، ولكن في حقّ لوائح الكادر الوظيفي، وفي حقّ حرف القانون الإداري أيضاً. فمن الناحية القانونية فإنّ حقّ صدور المجلّة مازال ساري المفعول ما لم يصدر قرار بإلغاء القرار الذي يقضي بإصدارها، وحقّ رئيس تحريرها في ممارسة عمله مازال نافذ المفعول قانونياً ما لم يصدر قرار بإلغاء إنتدابه من الجهة الإدارية التي قامت بتعيينه. وكل ما حدث بشأن هذا الملفّ هو تجاوزات قانونية مارستها الخارجية مستغلّةً الفوضى الشاملة التي عمّت الإدارة الوطنية في تلك المرحلة، لتبلغ الذروة أيام الغارة الأمريكية على مدينتي طرابلس وبنغازي، لتجد الأحقاد الشخصية فرصتها السانحة لتلحق الضرر بمن شاءت وهي في أمانٍ من العقاب. وهي العقلية التي كانت مازالت سائدةً عند صدور الأمر بتسوية الحقوق القانونية في كل ما له

Twitter: @alqareah

صلة بهذا الملف، فما كان من أمر القائمين على هذه الخارجية إلاّ أن لجأوا للمناورة من جديد بهدف تمييع القضية دون أي مبرّر سوى الإلتزام بالعرف القديم القاضي باعتماد الحكم الغيابي في حقّ فردٍ هو في عقيدتهم مدانٌ مسبقاً ولا يستوجب الحكم حضوره، لأن **الشائعة** هي شهادة الإثبات المعتمدة في الأوساط لا الإجتماعية وحسب، ولكن الرسمية أيضاً. ومن عاشوا هذه السنوات العجاف وحدهم يعلمون كم حصدت هذه النزعة من ضحايا في تلك المرحلة من تاريخ الوطن الشقيّ المرهون عبر كل الأزمان للألم.

تحاملت على نفسي لأحلّ ضيفاً على الحاضرة من جديد مصمّماً على وضع النقاط على الحروف في استجلاء الحقيقة بشأن مسألة صيّرتها الملابسات مبدئية: إمّا أن يبرهنوا لي أين أخطأت، أو أن أستردّ اعتباري حتّى أتحرّر بضميرٍ نقيّ.

إنّها حرب في سبيل تبرئة ذمّة في عالم لا وجود فيه لضمير ولا لذمّة. ولكن هذا لم يمنعني من الإتصال بالسيّد إبراهيم علي لأطرح له الأمر بهذه الصيغة حرفياً. وأذكر الآن كيف استولت الدهشة على الرجل إذْ ظنّ أن الأمر إنتهى منذ شهور بعيدة، فإذا به يفاجأ بما ما من شأنه أن يعيده لأن يبدأ السيرة من جديد. وها هو الإنسان الدمث، المتسامح، الصبور، يفقد وقاره (إن لم أقل صوابه) فأسمعه يتناول سمّاعة التلفون الأخرى ليتّصل بالسيّد عمر المنتصر رئيس الوزراء الذي كان بسرت آنذاك ليخاطبه بلهجة غاضبة قائلاً أنه لن يكون مسئولاً بعد الآن عمّا قد يترتّب عن التأخير في تسوية هذا

Twitter: @alqareah

الملف من تبعات. لحظتها فقط أدرك السيّد المنتصر كم كان مخطئاً عندما استسلم لشائعات زبانية الخارجية فاستهان بالتعليمات الصادرة بشأن هذا الملفّ كعادة جلّ مسئولي ذلك العهد. وكي يكفّر عن خطيئته تنازل عن أوهامه واقترح على السيّد عليّ أن يحلّ صاحب الشأن ضيفاً على مقرّ الحكومة بسرت لتصفية هذه الإلياذة التي ترجع ملابساتها إلى تاريخ يعود إلى ما يقرب خمسة أعوام مضت.

في سرت إستقبلني السيد المنتصر في مكتبه بمراسم الضيافة كأنّه عبّر ضمناً عن اعتذاره لسيرورة الملفّ العبثيّة طوال أشهر. ثمّ عقد إجتماعاً مع المستشارين القانونيين قبل أن يأمر باستدعاء وزير المالية. كنت أنتظر في مكتب مدير مكتبه عندما انفضّ الإجتماع مع الفريق القانوني ليأذن لوزير المالية بالدخول. لم يستغرق إجتماعه مع وزير المالية طويلاً ليستدعيني من جديد ليوجّه لي سؤالاً عن الجهة الإدارية الأصلية التي أنتمي إليها. قلت له أن الجهة الإدارية التي كنت أنتمي إليها عند صدور قرار إنتدابي للعمل كمندوب للعمل ببولندا منذ اثنتي عشر عاماً قد أُلغيت أثناء غيابي وهي معهد الإنماء العربي. لقد كان رجلاً دبلوماسياً بحيث تعمّد أن يطعّم حديثه بآراء حول الأدب والأسف على الجدب الذي حلّ بالحقل الثقافي كأنّه يريد أن يخفّف بهذا من وطأة العبث الإداري الذي استشرى في شرايين الدولة قبل أن يخيّرني بشأن الجهة التي أنوي الإنتماء إليها. صارحته بالموقف من الخارجية قائلاً أنها المؤسسة الوحيدة التي لن يشرّفني أن أنتمي إليها حتّى لو خلا العالم من أيّ مؤسسة سواها، وإذا كان

Twitter: @alqareah

لي أن أختار في ظلّ غياب وزارة الثقافة التي انتميت لها منذ عام 1965 فإنّي لن أختار سوى مركز الدراسات التاريخية، لا لأن من يتولّى أمرها صديقي وهو محمد الجراري الذي لن يحسدني على درجة في السلّم الوظيفي، ولكن لأنها الجسم الوحيد الباقي من وزارات الثقافة المتعاقبة والمنفيّة، ولذلك أعتبره الجهاز الثقافي الوحيد البديل لهذه الوزارة الشقيّة لا شكلياً وحسب، ولكن فعلياً أيضاً.

كان المسئولون طوال تلك السنوات قد اعتادوا صراحتي فتسامحوا مع حدّة في الطبع مترجم في حرف العبارة بوصفه جنون أدباء، فحاولوا دوماً أن يتعاملوا مع هذه الحدّة برحابة صدر، بل كثيراً ما تندّروا بانتقاداتي للواقع آنذاك كأنها أحكام مأثورة. وهو ما فعله المنتصر في ذلك اليوم أيضاً سيّما عندما لسعتُ قدس أقداس الوطن (الخارجية) بسياط السخرية. وهي سخرية لم يُقدّر لها أن تبقى سجينة لسانٍ عاني من مؤامرات هذا الحرم المزعوم، ولكن الأقدار شاءت لها أن تستقيم في فعل هذه المرّة. فقد تزامن صدور قرارات رئيس الحكومة اللاغية للقرارات الظالمة الصادرة سابقاً بحقّ العدوس مع تولّي جاد الله الطلحي لحقيبة الخارجية في وقتٍ كان فيه عرّاب قرارات المقهور لعام 1986 عندما كان يترأس الحكومة. وكانت على عاتقه تقع مسئولية تنفيذ القرارات الجديدة الطاعنة في صواب قرارات حكومته الزائلة بعد ما يقرب من نصف عقد من الزمان. وهو موقفٌ لم أكن لأقبله لإنسانٍ في قامة الطلحي لأني أدري أنه لم يكن في

Twitter: @alqareah

قراراته سوى ضحية الحكم المسبق المبثوث في حرف الشائعة المسموم الذي كان قانون تلك الأيام، كما لم أكن لأرتضيه لأديب كالمقهور لو لم يخضع في موقفه للظرف ذاته، والدليل أنهما تراجعا بما يعبّر عن ندم عندما عرفا الحقيقة: المقهور بزيارته لي في الفندق معتذراً بعد خروجه من الخارجية بأعوام، والطلحي بموقفه الودّي من شخصي تالياً، وبموقفه الحازم من إنسان نبيل آخر هو عبد العاطي العبيدي عندما حاول الأخير أن يضع عراقيل في إجراء آخر عندما كان نائباً لوزير الخارجية في مرحلة تالية كما بلغني من بعض الأخيار الذين تصادف وجودهم بالمكان.

الخلاصة أن الحرب التي استغرقت مايربو على العام لتتوّج بثلاثة قرارات ممهورة بإمضاء رئيس الحكومة، لم تنتهِ بصدور القرارات الثلاث: قرار النقل من الملاك الوظيفي المجهول الذي اغترب بفعل فوضى العبث بقيام الوزارات ثم إلغائها بجرّة قلم إلى الملاك الوظيفي بمركز الدراسات التاريخية؛ ثمّ قرار التسوية المالية؛ ثمّ قرار الإنتداب إلى الخارجية للعمل صورياً بالسفارة بموسكو تنفيذاً لتفرّغ إن كان قد وُجد على أرض الواقع في حالات مشابهة، بيد أنه ظلّ بالنسبة للمستفيدين منه حلماً لم يُعترف به في الواقع الإداري بعد، سيّما بخارجيّة تحفل بالجهل والأنانية وروح الصفقة حيث لا يُعتَرف بشيء إسمه الأدب أساساً، فكيف بالتفرّغ الأدبي.

فالخارجية التي أعجزها أن تجد حُجّة لدفن قرارات سياديّة هذه المرّة وليست مجرّد إدارية، لم يكن ليعجزها أن تصطاد في الماء

Twitter: @alqareah

العكر كعادتها، لأنها إنّما تنضح بطبيعة الدنيا التي تمارس النشاط بالإنابة عنها عملاً بوصيّة الحسن البصري عن هذه الجنّية التي إذا لم تفلح في قتل مريدها وهو مقبلٌ عليها، فإنها لن تعجز في أن تجرحه وهو مدبرٌ عنها!

وها هم الزبانية يحومون حول القرارات بحثاً عن ثغرات، أو بالأصحّ، لاختلاق ثغرات ليستغرق هذا الطواف زمناً آخر قبل تنفيذ إجراء روتيني لا يتعدّى تحرير رسالة تحويل القرار بحذافيرها إلى السفارة بموسكو حيث استطاع الخبثاء أن يستزرعوا بذار ألغامهم على جبهتين: جبهة إدارية هي السفير، وجبهة مالية هي المراقب المالي!

السفير كان السيّد عبد الله صالح، وهو عقيد سابق بالجيش الليبي، سبق وتقلّد مناصب عدّة بالمؤسسة العسكرية بالداخل قبل أن يتمّ تعيينه رئيساً لمكتب المشتريات العسكرية بموسكو، ثمّ عُيّن خلفاً للسيّد ضو سويدان مع النصف الثاني من الثمانينيات إن لم تخذلني الذاكرة.

وقد حامت حول شخصه تلك الحيّات اللئيمة التي لا مؤهّل لها سوى حبك الأشراك ضدّ الشرفاء، والوسوسة في آذان الرؤساء بأحكام غيابية كي يصيبوا الأبرياء بتلك الجهالة التي حذّر منها الكتاب الكريم.

فما هي الذريعة التي يستطيع بها رئيس بعثة يُفترض فيه أوّل ما يُفترض الحرص على تنفيذ قرارات حكومته سيّما إذا كانت صادرة

Twitter: @alqareah

من أعلى جهة إدارية في الوطن التي كان لها الفضل في تعيينه هو ذاته، حتّى يحاول أن يتنصّل من تطبيق قرارات هي أوامر تنفيذها هو أوّل بند في تأدية واجبه؟

الذريعة، ويا للسخرية، هي صدور القرارات الممهورة بإمضاء رئيس الحكومة في يوم واحد!

أعترف أن هذه الحجّة أفقدتني صوابي عندما سمعتها منه يوم زرته في مكتبه بناءً على دعوته، إلى الحدّ الذي أخرجني عن طوري بحضور مدير الشئون الإدارية بالسفارة السيد محمد البوعيشي الذي تندّر كثيراً تالياً بردّة فعلي والفعل الناتج عن ردّة فعلي.

لقد فززتُ من الكرسي لأنهب من بين يديه حزمة الأوراق في نوبة جنون. ويبدو أنه لم يتوقّع الهجوم وهو الذي اعتاد أن يأمر جنوداً فيطاع، وأَلِفَ أن يوبّخ أقناناً يتنكّرون في جلود موظّفين فيذعنوا، فإذا به يهبّ واقفاً ويهرع خلفي فزعاً في نيّة لاسترضائي. أدركني عند الباب مستسمحاً قبل أن يعيدني إلى المقعد مؤكّداً أن كل شيء على ما يرام، وكل ما حدث ما هو إلاّ نتيجة سوء فهم!

بَطُلَ لغم الدسيسة لدى السفير بنوبة غضب ليستأنف دين الدسّ مسيرته لدى الملحق المالي. هناك كنت في حاجة بالطبع لأن تهرع لنجدتي نوبة غضب أخرى كي أبطل مفعول اللغم!

فهذه الطينة من البشر تأبى إلاّ أن توقظنا من غفوتنا لتكشف لنا حال أُناسٍ نسينا أنّهم مجرّد عبيد، ويجب أن نعاملهم كعبيد كي يفيقوا من غيبوبتهم لكي يدركوا أنّنا لسنا مثلهم بعبيد، وخطأ مَنْ

Twitter: @alqareah

يستنكر روح العبيد أن يعامل هؤلاء مفترضاً فيهم حرية أضاعوها منذ زمنٍ بعيد لا بسبب النظام الشمولي وحسب، ولكن لإستسلامهم لروح الوظيفة التي لن تعدم بالإدمان أن تكون ذلك الجنس البشع من العبودية الذي نستمرئه ولا نتصوّر لنا وجوداً بغيابه، هذا يجعل من تلك الملّة جنساً أسوأ من العبيد. ولم يكونوا ليخطئوا في حقّي لو لم أعاملهم بروح الحرية التي أضاعوا إليها السبيل ويرون حاملها إن لم يكن عبداً من جنسهم فهو العدوّ المبين.

هل أستطيع أن أتساءل اليوم عمّا إذا كان كفاح تلك الأعوام إستماتة لردّ اعتبار معنوي، أم هو نضالٌ للبرهنة على الإنتصار للعدالة في عالمٍ إغترب عن القيم، أم أنه سعيٌ لإعلاء شأن البعد الأخلاقي القادر على أن يقول كلمته حتّى في ظلّ نظام شموليّ، أم أنه استجابة للهوس بالحرية، أم أنه طلبٌ حثيثٌ لإحقاق الحقيقة، أم أنها كلّها عوامل تفاعلت في الباطن لتستوي في حافزٍ لا واعٍ؟

مهما يكن من أمر، فإن ما تعلّمته من تلك التجربة هو أن الإستعداد للإستغناء عن حوائج الدنيا هو ما يحقّق قضاء الحوائج بقطع النظر عن طبيعة هذه الحوائج سواء أكانت أرضيّة أم مثالية. فيكفي أن نتنازل مرّة لكي نُهزم إلى الأبد. فأن نتنازل يعني في عرف الجبناء أن نستسلم. والموقف الزهدي الحقيقي في أن نستميت في الدفاع عن النفس، لا أن نتساهل. والروح الزهدية في هذه الحال أقوى القوى لأنها وحدها تعتنق النَّفَس الطويل؛ والنفَس الطويل هو ما لا يحتمله السفلة!

Twitter: @alqareah

لقد قوّمتُ في تلك الأعوام «نضرية الضريح» عمليّاً بعد أن كانت مجرّد نكتة تندّرتُ بها مع الأصدقاء أمثال محمد البدري ورمضان عبد العزيز وحسن أحمد. وهي مستعارة من أحد أبدع النصوص التي أنجبها قلم صادق النيهوم وهو: «سبع قصص للأطفال» المنشورة في عام 1970. وهي أمثولة تبرهن على حقيقة وهي أن الغلبة مِن نصيب مَن له القدرة على أن يحتمل النوم في الضريح أطول أمد ممكن. وهو ما يعني أنّ من يحقّق النصر حقّاً هو من يذهب إلى الموت. فإن لم يستطع أن يموت فليس له إلاّ أن يمكث في الضريح متظاهراً بأنه في عداد الأموات!

Twitter: @alqareah

28

ذاك كان قتالاً مميتاً في سبيل التحرّر من ورم العالم الذي نسمّيه روتيناً، أستطيع أن أفخر اليوم بأن قدمي هذه الممهورة بعلامة الغيوب لم تطأ أرضاً متوّجةً بكيان إداري ترتع فيه عناكب الروتين منذ ذلك التاريخ إلى زمن الناس هذا!

لقد حاول دهاة هذا المستنقع في موسكو أن يستدرجوني إلى أوكار الدسيسة المسمّاة مكاتب بشتّى الطرق، ولكنّي لم أرفض هذه الفخاخ وحسب، بل رفضت الفخّ الأسوأ بالنسبة لي (والأكثر إغراءً في عرف الملّة الشرّيرة) وهو القبول بالإقامة الدبلوماسية هويّةً مقابل التنازل عن الهوية الصحفية التي كانت لي هوية حرّية. والطُّعم الذي لوّح به هؤلاء بالطبع هو الإمتيازات المزعومة التي أثارت دوماً اشمئزازي، لأن مبدأ الإمتياز إذا كان في عرف عبيد السفساف معبوداً، فهو ما لا وجود له في عرفي. فالدبلوماسية في عرف هذه الملّة هي امتياز لا لأنها رسالة مبعوث مهمّته أداء الواجب نحو علاقات بين بلدين أو تقديم عون لإبن وطن في البلد المعتمد لديه، ولكنّها تمتّع بمزايا دنيوية تضعه لا فوق مستوى الأغيار وحسب، ولكن تحقّق له حضوراً فوق مستوى القوانين أيضاً. ولا يدري بلهاء

Twitter: @alqareah

البعثات الدبلوماسية أن في هذا الإمتياز بالذّات تكمن لاأخلاقية الحصانة الدبلوماسية، ولاأخلاقية الإتّفاقيات الدولية التي أقرّتها أيضاً. فالإقرار بإعفاء المجرم من جرم قد يرتكبه على نحوٍ مسبق هو في كلّ الأعراف إعتراف بتبرئة المجرم من الجرم المزمع. وهو أمرٌ لن يعترف به أي قانون وضعي فكيف بالألوهي مهما حاولت الدول أن تضفي عليه الشرعية بحرف الإتفاقيات الثنائية أو الأممية على حدّ سواء. لقد حكمت الطغمة على سقراط بالإعدام بحرف قانونٍ جائر، وعندما حاول تلامذة الحكيم أن يقنعوا أستاذهم بتهريبه من السجن لاجتناب تنفيذ الحكم رفض سقراط العرض ليقينه بأن على المواطن أن يمتثل لحكمٍ منطوقٍ بمشيئة قوانين الوطن حتى لو كانت قوانين الأوطان جائرة. لقد اكتفى إمام حكمة الأزمنة بالإحتكام إلى حرم الحكمة الإلهية عندما علّق على حكم الطغمة قائلاً: «لقد حكمتم على سقراط بالموت، ولكن الطبيعة إنتقمت لي وحكمت عليكم بالموت أيضاً!». فتخيّلوا معي في أيّ عالمٍ نحيا إذا كانت الإتفاقيات الدولية تبيح تبرئة المجرم مسبقاً في عالمٍ يدّعي النموذج الأمثل في الإنتصار للعدالة، وبدل أن ننحاز لجلالة الضمير فنرفض الإمتثال لهذا التجديف، نجد الناس يتبارون في الفوز بهذه الصفقة ومعاملتها كامتياز بدل أن تعامل كوصمة عار يجب أن نتنصّل منها!

والمفارقة الأخرى أن العالم يعامل أبناء الملّة الدبلوماسية كممثّلين لأوطانهم، وسفراء شرعيين لأممهم، في حين يجب على العالم أن يعاملهم كأعداء لهذه الأوطان، وسفراء لا شرعيين لأممهم. كما على الأوطان أن ترفض أن يتكلّم هؤلاء بإسمها، وألاّ تعترف

Twitter: @alqareah

بهم أممهم إلاّ كسفراء زور يمثّلون أنفسهم، لئلاّ تؤخذ الأمم ظلماً بجرائرهم.

لساحة هذا الدنس يحاول سفهاء أسوأ بعثة دبلوماسية في العالم أن يجرّوني، لأنهم لا يتصوّرون وجود ما يمكن أن يمارسه إنسان أُتيحت له هذه الفرصة حتّى يضحّي في سبيله بما يرونه امتيازاً. ذلك أن لا وجود في عرفهم لشيء يمكن أن يسمّى تفرّغاً أدبياً، لأن الأدب هو ما لا وجود له في عالمهم، وحتّى إذا وُجد في عقليّات البعض الذين حالفهم الحظّ فقرأوا في حياتهم كتاباً يوما مّا، فإنّهم لن يتخيّلوا مهما اجتهدوا أن لهذه البدعة قيمة حقيقية تؤهّلها للفوز بتفرّغ يستطيع صاحبه أن يتنازل من أجله عن مزايا الفردوس الذي تحقّقه الهوية الدبلوماسية.

فالدبلوماسية في الناموس الأخلاقي (بل وفي القانون الوضعي) تهمة بالشروع في ارتكاب جرم سيظلّ مريدها مشبوهاً حتى لو ثبتت براءته لأن الشبهة سوف تظلّ قائمة لمجرّد القبول بالإنضمام إلى عوالم هذا المحفل.

برغم أنّي لم أخن العهد الذي قطعته على نفسي بألاّ أطأ أرضاً لسفارة لأمارس فيها عملاً من أيّ نوع، بيد أني لم أغفر لنفسي إضطراري لحمل هوية من هذا القبيل ولو شكليّاً لتبرير إقامتي بسويسرا لظروف صحيّة قاهرة في تلك الفترة التي سبقت قيام سلطات هذا البلد النبيل بمنحي هويّة الشخصيّات الدولية الأَوْلَى بالرعاية إعترافاً بالقيمة الإبداعية، فأتحرّر بفضل ذلك من معتقل كنت فيه رهينة كما سيأتي ذكره بالتفصيل في الجزء الرابع من هذا النزيف.

Twitter: @alqareah

29

لا يكفي أن نحترف قطع الجذور بالتنكّر القطعي للأمكنة، ولكن علينا أن نمارس هذه الحرفة حتى بحضورنا في الأمكنة إذا شئنا أن نجير أنفسنا من وزر الأمكنة. ففي الأعوام التي تعرّض فيها الجسد لحملات التنكيل سعياً وراء تحريره من تلك الأثقال التي تجعله عبئاً على أمٍّ لنا هي الأرض ليفقد من حجمه أكثر من النصف ليس له إلاّ أن يستجيب لمناوشات الريح اللجوج لينطلق في أسفارٍ هي تلبية لنداء الرحيل الذي يسكن الجينات والموروث عن الأب بالذّات.

ففي الفترة الواقعة بين أعوام 1987 و1993 إنطلق العدوس في أسفارٍ لم تكن سوى حلقة صغرى في سيرة الحملة الكبرى المترجمة في حرف سفره الكبير. فمن رحلة إقتفاء أثر سلفه الأعظم أوليس التي انطلقت من ضفاف البحر الأسود، تحديداً من المدينة التي تصلح أن تلعب دور طروادة بالإنابة وهي «أوديسا» لتسلك السبيل نفسه الذي طافه طريد القدر ذاك مروراً باسطنبول، وبيرينييوس، ونابولي، والجزائر، وتونس، ومالطا، إلى أرض اللوتس الذي يُنسي من ذاق له طعماً حلاوة الوطن الأصلي: طرابلس ليبيا!

فالتّيه في مياه بحر ليبيا العظيم في ذاته نقاهة روحية بقدر ما هو

Twitter: @alqareah

شفاءٌ للجسد. فالبحر دوماً القرين الحميم لفردوس العدوس المفقود: الصحراء! وهو إذا كان لا يروي بمياهه السخيّة من ظمأ بيد أنه يروي الروح بالسلسبيل الوحيد الذي تعترف به الروح وهو: الحرية، مثله مثل الصحراء تماماً! وهو وحده القادر على استحضار البعد المفقود مسربلاً في رؤيا إنسانٍ إمتلك الشجاعة فاستنطقه بحلمٍ عميق. وهو طواف كان بالإمكان أن يحقّق إستشفاءً حقيقياً لو لم يكن محمّلاً بأوزار العائلة فتلعب فيه القرينة دور سيرينات البحر التي لا تحلّ في مكان إلاّ لتنتحر الحرية بنصل تلك العلاقة التي لا تصير في الرقبة وهقاً مميتاً إلاّ بسبب الشرعيّة التي صيّرها الحرف معبوداً وثنيّاً إستفزّ الجرح القديم فنزف الجسد أيضاً تعاطفاً مع نزيف الروح إلى الحدّ الذي يستدعي قطع الإجازة والسفر إلى بيرن لتلقّي علاجٍ عاجلٍ إستغرق شهوراً. هناك حللت لأوّل مرّة ضيفاً على المكان الذي قُدِّر أن يكون لي وطناً بعد سنوات. فمدن وسط سويسرا هي الأمكنة الوحيدة التي لم أسعد بالحلول فيها قبل تلك المرّة. ففي مرحلة الإقامة في بولندا، وكذلك أعوام السبعينيات سنوات الإقامة في موسكو، كانت مدن مثل زيوريخ أو جنيف محطّات عبوري إلى عواصم أوطان الشمال فأقضي فيها ليلة أو ليلتين لأتزوّد بشحنة أنقى الأهوية في عالم العمران الملوّث ليكون لي زاداً نفيساً في بلدان ماوراء الستور الحديدية حيث تستغيث البيئة الشقيّة بسبب الإستهتار بالطبيعة كما لا تستغيث في أيِّ مكانٍ في العالم. في بيرن أيضاً كان الهواء لقيةً حقيقيّةً سيّما بالنسبة لإنسانٍ هدهدته الأقدار بمناخٍ

Twitter: @alqareah

صحراويٍّ هو الأمثل في نقاوة الأهوية ليغترب عن هذا النعيم الإلهيّ يوم وجد نفسه سجين أسوأ الأهوية طوال أعوام طويلة ليدفع ثمن هذا الإغتراب غالياً، وما وجوده في هذه المدينة المعلّقة بين السماء والأرض إلاّ لمداواة علل نجمت عن هذا الإغتراب القاتل. وها هي بيرن تتمنّع في استقبال ضيفها لا لتحرمه القِرَى، ولكن لتلقّنه الدرس الذي يصلح مادّةً لتشكيل أسطورة تعبّر عن روح هذا الوطن. فقد تصادف وصولي بشهر يوليو الذي هو ذروة الموسم السياحي في البلاد لأجد كل فنادق العاصمة مشغولة. ولكن الموظّفة بالفندق المجاور للساحة التي ينتصب فيها البنيان الكلاسيكي الذي تتّخذه الحكومة مقرّاً لها أبت إلاّ أن تحاول العثور لي على غرفة شاغرة بالفنادق الأخرى. ولكن عبثاً. لم تكتفِ روح حبّ الخير للآخر التي كانت ذخيرة الإنسان السويسري التي تتمتّع بها هذه السيدة النبيلة فتُجهد نفسها، وتضيّع وقتها في سبيل عابرٍ شأنه ليس من شأنها، ولكنها تقترح أن تبحث له عن غرفة في أحد فنادق مدينة مجاورة لليلة واحدة وسوف تقوم بحجز غرفة له في فندقها في الغدّ. شكرتها على الإقتراح فعاودَتْ سلسلة إتصالاتها. أخفقت في أن تجد غرفة شاغرة في المدينة المجاورة، ولكنها أفلحت بعد محاولات أخرى في حجز غرفة لي بفندق يقع بقرية جبلية تقع على تخوم المدينة المجاورة. زوّدتني بالخرائط اللازمة لأستقلّ القطار إلى المدينة التي تبعد حوالي خمسين كيلو متراً لأعلم أن إسم المدينة هو: تون، تلك المدينة الواقعة في خاصرة الألب، النائمة فوق بحيرة تحمل إسمها

Twitter: @alqareah

لتجود بمياهها على بيرن نفسها، بل وعلى بازل، حيث تُكوّن هناك مصباً لأكثر أنهار أوروبا أسطوريّةً، وإلاّ لما مجّدته أساطير الجرمان، وملاحم فاجنز، لأنه عنوان وجود هذه الأمّة العظيمة وعلّة مجدها: الأمّة هي ألمانيا، والنهر المهدى من تون هو: الراين!

نزلت أرض هذه الجنّة دون أن يخطر ببالي أنها ستكون لي وطناً يوماً، ثمّ استفهمت عن السبيل للوصول إلى الفندق فأفادتني موظّفة القسم السياحي بمحطّة القطارات بوجوب أن أستقلّ الحافلة رقم 6 لأنزل في قرية بإسم «هونيباخ» حيث يقع الفندق المأمول. كان الطريق الذي سلكته الحافلة يجاور البحيرة طوال الوقت، وكانت الجبال ذات السيماء الغيبيّة تتطلّع باستكبار مغلّف بذلك الغموض الذي يوحي بوصيّة مكتومة بقدر ما ينطق باللامبالاة المخفية وراء قناع كما هو الحال مع كلّ رموز الطبيعة. وأستطيع أن أعترف اليوم بأن هذا الحضور العميق للطبيعة الذي يكاد يكون ميتافيزيائيّاً قد أفلح في امتصاص ذلك التوتّر الباطني الذي افترس أعصابي طوال وجودي بين أناسٍ لا أفهمهم ولا يفهمونني ليصير أي احتكاك بملّتهم بمثابة طعنة ليتها تكتفي بإسالة دم البدن، ولكنّها لابدّ أن تتحوّل خناجر تنهش الروح. والأسوأ من كل شيء هو طبيعتها التي لم تكن سوى ديمومتها.

في «هونيباخ» نبّهني السائق إلى الوصول. هناك سألت أحد المارّة عن السبيل إلى الفندق فدلّني إلى طريقٍ يصعد الجبل مجاوراً لنهير

Twitter: @alqareah

يتدفّق من أعلى ليصبّ في البحيرة في الأسافل. قطعت مسافة مائة متر قبل أن أنتهي إلى ميدان صغير تتقاطع فيه الطرق فلم أعرف أيّ طريقٍ أسلك. توقّفت لحظات عندما وقع بصري على عجوزٍ وقور يعاند سيّارة داخل سورٍ من الأعشاب يطلّ على الساحة. تقدّمت من المكان وسألته بالإنجليزية عن موقع الفندق. دلّني على طريق يصعد رأساً إلى أعلى، ثمّ حاول أن يشرح بالألمانية شيئاً. وعندما لاحظ أنّي لم أفهم إبتسم في وجهي قبل أن يلوّح بيده في الهواء بعفويّة من يلعن عجز اللسان في التعبير للإنسان عمّا يجول في بال أخيه الإنسان. وكي يضع حدّاً لهذا العجز أقفل غطاء المحرّك ليدعوني للدخول في جوف الآلة. جلست إلى جواره لينطلق في الطريق الصاعد إلى أعلى. وكم دهشتُ عندما توقّف بعد أن عبر علوّ حادّ يطلّ على بيته في منعطف لا يفصله عن المكان الذي انطلقنا منه سوى بيتين لا غير. أنزلني في فسحة أمام الفندق لينطلق عائداً، لأجد نفسي عاجزاً عن التلفّظ حتّى بكلمة امتنان. لقد كان إسم ذلك الفندق «غاست هوف» الذي تعني ترجمته من الألمانية «بلاط الضيافة»، وإسم القرية «هونيباخ» في الترجمة صيغة معدّلة من كلمة: «هوني باخ» الدّالة في الترجمة على «نُهير العسل»!

ما لم يخطر لي على بال هو أن يكون هذا النهر العسلي بلسماً عندما حللتُ مصادفةً بعد مضي خمسة أعوام من ذلك التاريخ ضيفاً على القرية لغاية الإستشفاء من أمراض العلاقة التي هي رأسمال الحضارة، لأقضي هناك أحد عشر عاماً قبل أن أصعد الجبل بضعة

Twitter: @alqareah

مئات من أمتار أخرى لأنتقل بعدها إلى «غولديفيل» لأقيم عشر سنوات أخرى. ولكنّي لا أنزل من رحاب هذا الحرم لقضاء حوائج الدنيا إلاّ وأمرّ في طريقي بـ«بلاط الضيافة»، ولأقف تحيّة إكبارٍ لروح الأمّة السويسرية كلّما وقع بصري على بيت العجوز الواقع بجوار النهر.

Twitter: @alqareah

30

في ذلك الزمان حملتُ آلام جسدٍ ينزف دماً لأطوف القارّات (أوروبا وآسيا وإفريقيا) بحثاً عن ترياق طبيعة إقتصّت منّي جزاء إغترابي عنها، في وقتٍ تزامن مع تلك المرحلة التي شهد فيها العالم فصول مهزلة السلطة التي لا تضحّي بخشارة الخلق إلاّ لتأتي على عرشها بأرذل الخلق. وها هو المهرّج يلتسن الذي راهنت عليه الأمّة الروسية كفارس خلاص ليتولّى زمام إمبراطورية تتفكّك وتتصدّع بديلاً لمريد الإعتدال غورباتشوف، يترنّح مخموراً أثناء مراسم إستقبال رؤساء الدول ليصير نكتة المجالس وموضوع سخرية في وسائل الإعلام العالمية، وها هو نظيره البولندي فاليسا يتباهى في تصريحٍ وقحٍ وشهير بأنّه لم يقرأ في حياته كتاباً واحداً ليحاجج بهذه السفاهة التاريخية موقفه من أهل الثقافة لا لشيء إلاّ لأنّهم انتقدوه ظنّاً منهم أنه فارس الأحلام الحامل للواء الحرية، دون أن يدري هؤلاء وأولئك أن التغيير الذي تأتي به الثورات أمرٌ لا يعني السلطة التي يأبى شرعها ألاّ يقبل في بلاطه سوى السفلة الذين إذا لم يتحلّوا بهذه الرذيلة فليس لهم إلاّ أن يعتنقوها ديناً إذا شاءوا أن يمثلوا في رحاب هذه المعبودة الشرّيرة.

Twitter: @alqareah

فالموجع بالنسبة لمن يقف موقف المشاهد (كما هو الحال مع العدوس في تلك الأيام) ليس أن تنهار الإمبراطوريات، ولكن أن ينهار النموذج الذي نصّبته الأيديولوجيا المثال الذي يُعوَّل عليه. أي أن الأمر في الواقع إنهيارٌ لحلم البشرية في تحقيق فردوسٍ أرضيّ يصلح بديلاً للفردوس الضائع. والحلم إذا كان ضرورة لجعل الوجود محتملاً في الحدّ الأدنى، فإن انهيار هذا الحلم على هذا النحو الدرامي والدموي والفجائي إنّما يعني نكبة على مستوى الواقع بقدر ما يعني صدمة على المستوى النفسي. ولكن المأساة لا تتوقّف عند هذا البُعْد. فالصدمة الناجمة عن تبدّد الحلم تربّي في النفوس روح إنتقامٍ من جنسٍ خاصّ. إنه الإنتقام الجنوني الذي يتولّد كردّة فعل نتيجةً الإحساس المهين بانطلاء الخدعة لأمدٍ طويل. إنه موقف المسيو بوفاري كزوجٍ مخدوع لم يُقدّر له أن يكون آخر من يعلم بخيانة حميمته وحسب، ولكن علمه جاء بعد فوات الأوان فلا يجد حيلة ليشفي الغليل إلاّ الجنون أو الإنتحار. هذا هو الموقف التراجيدي الذي عاشته الأمم المنظوية تحت لواء الإمبراطورية السوفييتية فلم يكن أمامها إلاّ أن تحيا تجربة الجنون أيضاً بدخولها في حروب عرقية دامية لتشرف فعلياً على الإنتحار!

إنه ضربٌ من جنون ذي طابع وجودي لا يختلف عن جنون العدوس يوم بلغ الحدود القصوى في التنكيل بجسد لا يملك له بديلاً، وذلك طلباً لأحد الشفائين: الشفاء من علل الدنيا، أو الشفاء من علّة كبرى إسمها الدنيا!

Twitter: @alqareah

لقد إستوجب الأطبّاء في تقاريرهم الخضوع لإشراف طبّي مباشر في سويسرا. ولكن يقيني بوجود الترياق في تلك الطبيعة التي أذنبت في حقّ نفسي يوم إرتضيت الإغتراب عنها هو ما دفعني لتسليم أمري لسلطانها بدل التردّد العبثي على أطبّاء الكيمياء الذين كنت قد يئست من عقاقيرهم منذ وجودي في بولندا، ثم في روسيا، ولم يكن لجوئي لهم في روما، ثم في بيرن، من باب الطمع في أن أنال على أيديهم الشفاء بقدر ما كان طلباً لتشخيصٍ الفضل فيه يرجع للتقنية، لا لهم كأطبّاء!

فالطبّ هو طبّ الطبيعة التي لم أكن لأنعم بالحضور قيد الحياة لو لم أستجر بها منذ غسلت يديّ من دوّامة الدنيا لأستعيد العلاقة معها إلى الحدّ الذي لم أكن لأتردّد في أن أتماهي بها في الصفقة النهائية بأبعادها الغيبيّة القصوى لولا إحساسي بثقل الدَّين الملقى على عاتقي إزاء رسالة الثقافة الإنسانية الثريّة المشرفة على الإنقراض، وما تخفيه لغة القوم من أسرار علّ كشف القناع عن لغة الحرف الساكن الواحد (التي كانت همّ العلماء منذ الأزل بوصفها شفرة كل اللغات) هو مجرّد فصل في ملحمة لغة اللاهوت.

ولكن الإنهيار لم يمسس النظام السياسي أو الإقتصادي أو الإجتماعي أو الثقافي أو النفسي، في الإمبراطورية المهيمنة على قارّتين من العالم وحسب، ولكنه أصاب النظام الأخلاقي أيضاً بالطبع. وانهيار النظام الأخلاقي لابدّ أن يؤدّي إلى تغييب تلك القيم التي تحدّد علاقة الإنسان بمحيطه البيئيّ، وبالطبيعة بالتالي، سيّما في

Twitter: @alqareah

واقعٍ كان حتى في السابق في خصام مع هذا المحيط البيئيّ، لأن الأيديولوجيا في حمّى هوسها بالأوهام لا تقتل في مسيرها الأحلام وحدها، ولكنها تدوس بعقبها الحديدية على جسد الطبيعة أيضاً. وها هو التنكيل بهذه الأمّ الشقيّة يبلغ الذروة في سنوات الإنهيار فلا ينجو من البطش لا الغابات، ولا الأهوية، ولا المياه، فكيف بالأغذية المنتجة بأرضٍ تتغذّى على السموم؟

لهذا لم أجد مفرّاً في موسم الجدب إلاّ الفرار إلى بلدانٍ أستطيع أن أشاهد فيها سماءً زرقاء، متوّجة بشمس ذهبية، وأستنشق هواءً نقيّاً، وأرى شجراً بكراً، لأسمع طيراً حرّاً. فهل هذا حلم من قبيل المحال؟

كانت النتيجة أني إحترفت الهرب لسنوات كاملة. الهرب إلى أبعد البلدان حيث يمكن أن أحقق الحلم وأفوز بالدفء المفقود. إلى مراكش بأرض الأسلاف، إلى الصحراء الليبية، إلى قبرص، إلى اليابان، إلى تايلاند، إلى ماليزيا، إلى سنغافورة، كل ذلك طلباً لطبيعة لا تضطهدني، وفراراً من كفن الطبيعة الكريه الذي إنقلب في حياتي كابوساً لم أفلح في التعامل معه رغم علاقة إستغرقت عشرات السنين. لقد تحوّلت حياتي فراراً حقيقياً داخل فرار آخر أكبر وأعمق. وكان من الطبيعي أن أواجه نفسي في أحد الأيام، كما واجهتها في إحدى أمسيات عزلتي في وارسو لأخرج من المواجهة بقرار الخلاص من كلّ ما له علاقة بالدنيا. فالفرار الوقتيّ (أو الرجعيّ) لا يعترف به ناموس الصحراء. فالفرار من المكان لا يكون فراراً قدسياً

Twitter: @alqareah

ما لم يكن فراراً **قطعيّاً**، أي أبديّاً. ففرار اللاعودة هو فرار الحرية. وهو لذلك البطولة التي لن نندم عليها بسبب الثمن المدفوع وهو القربان. فهو ليس مجرّد تضحية بالمكان، ولكنه تضحية بالحياة التي نزفناها في هذا المكان. إنه تضحية بأكثر ما نتشبّت به عادةً وهو فحوى الزمن الضائع التي لا يروقنا شيء كما يروقنا أن نستعيدها لنعيشها من جديد في كل مرة. فالفرار من المكان هجرة. أي تنكّر لكل الفحوى التي هي النصيب الأنبل من وجودٍ لا نضمن له الغد عندما نضحّي بأمسه! هذا هو ما يضفي على المكان الذي نهجره مسوحاً رومانسية، ثم قدسية، ليتحوّل في الوجدان معبداً حقيقياً.

لهذه العلّة تتغنّى دنيا الأنام بالطلول، ولهذا السبب يتباكى الشعراء على الدِّمَن!

كنت أدري أن الإنتقال إلى سويسرا سوف يفتح في وجهي باباً على حربٍ جديدة مع الزبانية الأبديّين وربّما هي الحرب الأشرس على الإطلاق، برغم الحقّ في العلاج في البلد الذي قرّر فيه الأطبّاء الخضوع للإشراف الصحّي، ولهذا السبب كان القرار المبدئي هو الفرار من هذه الواحة التي تحوّلت جحيماً أيضاً سواء أفلحتُ في حربي ضدّ الزبانية أم لم أفلح. فإذا لم يكن الملاذ هو سويسرا، فلتكن الصحراء الكبرى هي الملاذ.

وإذا لم تكن صحرائي الكبرى هي الملاذ لسليلها الضالّ لإنفاق ما تبقّى له في الدنيا من أنفاس، فلتكن هذه الجنّة الأسطوريّة ملاذاً للإنسان الذي أحبّها كما لم يحبّ جنّة في الدنيا حتى أنه لم يغترب

Twitter: @alqareah

عنها إلاّ طلباً لها. فإذا بخلت عليه بالغفران بسبب الضلال، فلن تبخل بأن تكون له في رحلة الشقاء ملاذاً أخيراً. فإذا لم يكن ملاذاً أخيراً فلن يكون هنا سوى: **المثوى الأخير!**

ولكن الأقدار أبت إلاّ أن تقرّر أمراً آخر: الأقدار وهبت العدوس حياةً، لأنه أراد الموت، وبعثت له أناساً هم بكل المقاييس ملائكة ليضمّدوا له جراح الدنيا، تماماً كما بعثت بالملائكة ليقوموا على خدمة المسيح يوم رفض عرض إبليس في المبارزة بالجبل كي يعلم أن وعد الله حقّ!

(نهاية الجزء الثالث ويليه الجزء الرابع)

السواحل الجنوبيّة لشبه القارّة الإيبيريّة

ديسمبر 2013 م

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

ملحق 1

مقابلة مع جريدة ميادين الليبيّة

س1 ـ تتشرّف ميادين بإجراء حوار مع الروائي والمفكّر الليبي إبراهيم الكوني. وقبل كل شيء ففي (الإعترافات) نقرأ: «سأبدأ بمشروع ما قام به أحدٌ من قبل ولن يقدر على تكراره غيري فيما بعد..» إلى أن يقول: «أغامر بالقول أنه ليس هناك مثيلٌ لي على قيد الحياة، وهذا لن يعني أنني أفضل بالضرورة، بل إنني من نوعٍ آخر فحسب» لعلّكم تذكّرتم تقديم جان جاك رسّو نفسه في مذكّراته، حيث يقول نقّادٌ ومنهم خليفة التلّيسي أن ليس بإمكان كتابة المذكرات، لأن الإنسان الشرقي مجبولٌ على الكتمان وليس كالغربي المسيحي، ويذكّر غيرهم بما كتبه الغزالي عن محنته من الشكّ والإيمان. هل واجهتم هذه المسألة في كتابتكم للمذكرات؟ وهل ما كتبتم يقع تحت الإعترافات أم أنه ذوذٌ عن النفس؟ أم غير ذلك باعتبارك روائياً، والرواية تحوي نوعاً من السيرة الذاتية بالمعنى الفلسفي للذات؟

ـ يُدهشني الخلط الشائع بين الإعترافات والمذكرات. والتليسي في ملاحظته كان حكيماً عندما أشار إلى أن هذا الجنس من الفن هو

Twitter: @alqareah

للروح المسيحية أنسب. أي أن العلّة ذات بُعْدٍ ديني. والبُعْد الديني دوماً ختمٌ عميق في صميم تكوين الإنسان النفسي.أي أن الإنسان المسيحي عندما يُدلي بالإعتراف في حضرة القسّيس إنّما يمارس الطقس المجبول بروح الصفقة، لأنه ضربٌ من تلك الصلاة التي قال عنها «كانط» أنّها أمنية موجّهة للربّ وليست عبادة حقيقيّة. لماذا؟ لأنها إعلاءٌ لشأن الحرف الذي يُميت على حساب الروح التي تُحيي كما يعبّر سادن الديانة المسيحية القدّيس بولس في وصيّته الرائعة. لأن أي تطهير للضمير يمكن أن يتحقّق بالمهزلة التي يدفع فيها الإنسان مالاً مقابل الفوز بصكّ غفرانٍ يُجيره من قصاص الأبدية المنتظَرة. لماذا؟ لأن التوبة الحقيقية تجربة أكثر من دموية قد تُشترَى بنزيف الروح، وليس بنزيف الجيب! ونزيف الروح هو تلك المعاناة التي تُميت في الإنسان إنساناً لتُحيي في الإنسان إنساناً آخر. إنه ذلك البعث الذي حقّقه القدّيس أوغسطين المبثوث في «إعترافاته» والذي أهّله لأن يغدو قدّيساً. ولهذا استهوتني «اعترافات» أوغسطين أكثر ممّا استهوتني «اعترافات» روسّو لسببٍ بسيط وهو أنّي لم أجد اعترافات في اعترافات روسّو، ولكني وجدت مذكّرات. مجرّد مذكّرات تترجم سيرة لا تختلف كثيراً عن سيرة أيٍّ منّا. أي أنّها احتفاءٌ بالذاكرة قبل فوات الأوان، لأننا كثيراً ما ننسى أنّنا مهدّدون بفقدان هذا الكنز كلّما تقدّم بنا الزمن إلى أمام. وهو ما عبّرت عنه تجربة «كانط» الذي خسر المعركة مع هذا البعبع (الزمان) لأن فقدان الذاكرة أدركه قبل أن يدلي باعترافه برغم أن هذا الإنسان كان العبقرية الوحيدة في تاريخ

Twitter: @alqareah

العقل البشري الذي استطاع أن يُنجز أعظم وثيقة على الإطلاق في نشاط هذا اللغز المسمّى ذاكرةً من خلال «نقد العقل المحض».

وهو شَرَكٌ استطاع ماركيز أن ينجو من شرّه فكتب سيرته في الوقت المناسب. وها هو يحيا اليوم بلا ذاكرة مستعيداً سيرة أبطال ملحمته «مائة عام من العزلة» حيث يهاجم داء النسيان سكّان «ماكوندو» كأنّه الوباء فصاروا يدوّنون كل شيء ليثبّتوا مدوّناتهم على الجدران لئلّا ينسوا أتفه الأشياء كأن يفوتهم أن يأكلوا مثلاً، أو أن يغتسلوا أو أن يقضوا حوائجهم. إنها أمثولة أسطورية عن قيمة الذاكرة، بل ملحمة عن حقيقة الإنسان **كذاكرة**. وضياعها بليّة تترصّدنا جميعاً، وليس لنا أن نتأخّر في مواجهتها. ولا أحسب بوجود حيلةٍ تستطيع أن تُجيرنا من هذا المصير التراجيدي سوى مطاردة الزمان المفقود (على طريقة مارسيل بروست) واستجلاء حقيقة الماضي في خفاياه. هنا ينتصب الوجه الآخر للعملة. هنا نتبيّن البُعْد الثاني للجدوى من نزيف الذاكرة.أنه بُعْدٌ **وجوديٌّ** بامتياز، وهو أكثر ما يستهويني في هذه التجربة. فإذا كان الإبداع الروائي هو نزيف روح، فإن نزيف الذاكرة هو نوعٌ من **تأهيل** الماضي، ضربٌ من **بعث** الماضي. والماضي هنا ليس مجرّد زمان زال، ولكنه تاريخ. أي تجربة تتكتّم على **جنين**. والجنين هنا مسكونٌ بطبيعةٍ ذات بُعْد مزدوَج: بُعْدٌ غيبيّ وآخر ثقافي بَعدَ أن نكون قد حرّرناها من بُعْدها الطبيعي، لأننا بهذا البُعْد الأخير نذهب إلى الموت كما يعلّم التوحيدي. والبعد الثقافي معرفيٌّ بالطبع، ولكن البُعْد الغيبي رسالي

Twitter: @alqareah

سواء أكانت هذه الرسالة ذات هوية دنيوية، أم أنّها ذات سجيّة ميتافيزيائية. واستجواب الزمن الضائع يستعير مسوحاً دينية لهذا السبب. إنه طلب بالمدلول الصوفي. والطلب يتضمّن التوق إلى المثال فيجود بالمعنى الذي ينفي عن المريد زَلَلاً كامناً في الضلال. أي أن الطلب بحث. والبحث مهدّد بالضلال. ولكن الوجْد هوَسٌ مجازيّ شعريّ مبرّر بالغاية لا بالسبيل. والغاية بالطبع هي **الحقيقة**. ولهذا يُعلن حكيم الطاوية بأعلى صوت: «مَنْ عرف الحقيقة في الصباح، في المساء يستطيع أن يموت!». ولكن هل هذا كل شيء؟ كلّا، بالطبع. فالحقيقة لا تُنال بدون مكوسٍ جسيمة. والعُمْلة الوحيدة المعتمدة في ناموس الصراط هي: **الحرية!** أريد أن أعترف بأننا نستجيب لنزيف الذاكرة لأننا نريد أن نُشبع الظمأ إلى الحرية. الحرية بحقيقتها الوجودية لا المفهوم المبتذل المختزل في البُعْد السياسي، ولكن الحرية في فضائها الوجودي، في فضائها اللاّنهائي. هل قلت الّلانهائي؟ بلى! الحرية حقيقية فقط في هذا البُعْد المسكون بشبح الجنون أو الموت. ولهذا كانت الحرية عبر الأزمنة تجربة مميتة. وهي مميتة لأنها شرط ما لا حضور له في الواقع (برغم أن البعض يخلط بينه وبين الواقع)، وما لا يمكن التعبير عنه باللغة (بحرف اللغة تحديداً)، ولا سلطان عليه لا للزمان ولا للمكان، وهو: الحقيقة. وليس أمام كلّ من قطع في السبيل شوطاً بعيداً إلاّ أن يستنطق فحوى زمانه الضائع عن شبح هذا الطيف، لأن البحث في الزمن الضائع هنا يصير معادلاً شرعيّاً للتفتيش عن **فردوسنا الضائع**، عن فردوسنا

Twitter: @alqareah

الأبدي الضائع، برغم أننا نبتذل قدسية المعنى عندما لا نجد حيلة لاستبدال العبارة بالإستعارة فننعت المبدأ المستخفي باسم: الحقيقة.

فالسرد الروائي حقق الوظيفة الإستعارية للتعبير عن تجربة البحث. وهي لهذا السبب متن. ولكن هل يشفي المتن الغليل دوماً؟ قد يشفي المتن الغليل في واقعٍ ثقافي كالواقع الثقافي في الغرب (أوروبا وأمريكا تحديدا)، ولكن المتن الإستعاري لن يشفي غليل المبدع في واقعٍ ثقافيٍّ كواقعنا بسبب تخلّف لا الكيف الثقافي وحده، ولكن بسبب غياب **الروح النقدية** أيضاً. والروح النقدية هنا ليست بالمعنى الحرفي، ولكن بالمفهوم **الكانطي**، أي **المعرفي**؛ لأن النقد بهذا المفهوم، **موقف فلسفي**. موقف فلسفي من الظاهرة الوجودية، ومن موقع اللغز المسمّى إنساناً في نطاق هذه الظاهرة الوجودية. إنه ببساطة واقع ثقافي مازال يعيش غياب الرؤيا الفلسفية. وهي محنة لم تكن لتمرّ دون عواقب. وعلّ أهم هذه العواقب إغتراب النصّ الأدبي الحامل للواء الرؤية الفلسفية اغتراباً كاملاً أو شبه كامل. والأمثلة على ذلك كثيرة لم يكن ضحيّتها النصّ المكتوب بنزيف صاحب هذا البيان وحده، برغم أنّي معنيّ الآن بقدر تجربتي التي وجدت اعترافاً في النقد الأوروبّي والأمريكي وحتى الياباني، في حين مازالت أصوات تعلو هنا وهناك مستنكرة بسذاجة مخجلة أن يضيّع كاتبٌ وقته بالكتابة عن قبيلةٍ، سيّما إذا كانت هذه القبيلة لا وجود لها في يقينهم كـ«الطوارق»!! وهي أصواتٌ يرثى لها لأنها لا تفضح جهلها وحسب، ولكنها تعبّر عن عنصريّتها رغماً عنها. فكما

Twitter: @alqareah

يقول الجنيد: «لون الماء من لون الإناء». وهؤلاء يبرهنون قبل كل شيء على جهلهم لا بمضمون النصّ الروائي الذي لم يقرأوه يقيناً وحسب، ولكنّ لأنهم يعبّرون عن جهلٍ مهين بأبسط أبجديّات الفنّ الروائي الذي يشترط أول ما يشترط ذلك المبدأ المترجَم في وصية تولستوي الشهيرة: «أكتب عمّا تعرف!» كما يجهلون طبيعة الروح العالمية التي يتشدّقون بها في لغوهم اليومي دون أن يدروا أنها خرافة ما لم تلتزم بالواقع البيئي والثقافي والوجودي المحدّد بهويّة إنسانية محدّدة، أي ما يسمّى في نظرية الأدب بـ«الروح المحلّية». وهي روح لن تبرّر نفسها كمكانٍ ذي ملامح محدّدة، وطينة مميّزة، كسفارة معتمدة لدى عالم يزخر بالتنوّع، ولكنّه لا يخون قاسماً مشتركاً أعظم هو: **الطبيعة الإنسانية الواحدة!**

يحزنني، بل ويُدمي قلبي، أن يجرؤ إنسانٌ يدّعي الإنتماء إلى الحقل الثقافي، ثمّ يُبيح لنفسه أن ينعت مؤلّفاتي بانهمامها في تناول قبيلة، تلك القبيلة العظيمة التي يحاول أمثال هؤلاء الجهلة أن يحطّوا من قدرها فيقولون بلهجةٍ تحقيريّة أنها «تارقية» على طريقة عنصريّي المشرق، كأن الطوارق ليسوا أناساً، وليسوا هويّة ثقافية عرقية، أو ليسوا أهل وطنٍ أصلاً، فكيف إذا كانوا هم أهل الوطن **الأصليّين** لا الوافدين أمثال هؤلاء الذين تأبى عنصريّتهم إلاّ أن تنفيهم عن الواقع لا الوطني وحسب، ولكن عن الواقع الإنساني أيضاً. وهو ما يكشف لا عن جهل هؤلاء بحقيقة الوطن الذي يتشدّقون بالإنتماء إليه، ولكن جهلهم بقوانين الأدب التي تقيس عالمية الأدب بمدى غوص

Twitter: @alqareah

هذا الأدب في روح **المحلّي**؛ لأن الصحراء كطبيعة عارية قرينة للعدم لم تكن لتنتج أدباً لو لم تستضِف في ملكوتها ذلك اللغز المسمّى إنساناً. وكلّما كان هذا اللغز غنيّاً روحيّاً، كلّما هيّأ للمبدع فُرَص نبش كنوزه ليستخرج من أبعادها المجهولة الدرس الإنساني المسمّى في لغة الأدب: **التحفة الأدبية**. وهي مغامرة لا تتحقّق عادةً بدون ثمن. **والجدل** هو حجر الزاوية في هذا العراك. فالطلسم في اللغز لا يستسلم بدون مهارة، والكنز يستعصي بدون دهاء من يمسك بالمعول. والمهارة إذا كانت تقنية، فإن دهاء المبدع هو **نزيف روح**. والإنسان هنا كلغزٍ هو هويّة إنسانيّة، وليس هوية قبليّة، لأنه مسكونٌ بطبيعة إنسانية هي ذخيرته، والقبيلة الحاملة للسيماء المحلّية في الصفقة مجرّد ذريعة **لتأكيد** هذه الطبيعة الإنسانية التي تسكن كلاًّ منّا. لا تسكننا وحسب، ولكنّنا نسعى بكلّ حيلة كي نكتشفها في الآخر، الثريّ، المجهول، المتعدّد الأبعاد، المجبول بالغيوب، وبالعمق اللاّمحدود. هذه الرحلة هي مايسمّى في نظرية الأدب بـ **النمذجة**. أي التعبير عن إنسانٍ من لحمٍ ودمٍ (بحضوره في مجال طبيعته المحلّية) مع أسطرته كنموذج ليستعير هوية إنسانية.

فأن أعيش متنقلاً بين عواصم أوروبا من أقصى شرقها إلى أقصى غربها لثلاثةٍ وأربعين عاماً دون أن أكتب حرفاً روائياً واحداً على هذه البلدان هو ما من حقّي أن أفخر به، لأن هذا برهانٌ على قوّة الإنتماء للهوية الوطنية، وانتصارٌ نادرٌ لقوانين الأدب التي تحتّم الكتابة عن عالمٍ يسكننا لا عن العالم الذي نسكنه، وبرغم ذلك فإن الملحمة

Twitter: @alqareah

القرمانليّة في أجزائها الستة الضخمة التي تختزل قرناً وربع القرن من تاريخ ليبيا، حوض المتوسّط عموماً، كانت قفّاز التحدّي الذي ألقيتُ به في وجوه أولئك الذين يُشيعون في الأوساط الثقافية العربية أن الكوني أسير الصحراء. ويتعمّد أهل الجهالة تجاهل رواية الأجيال هذه التي تعبّر عن مرحلة تاريخيّة ثريّة ومجهولة من تاريخ هذا الوطن العريق في زمنٍ شاء له فيه النظام أن يغترب، وهو دليلٌ على أحد أمرَين: إمّا الإصرار على طمس الحقيقة **على طريقة النظام في طمس النجوم**، أو العجز الناتج عن عداوة أصيلة ضدّ جلالة الكتاب. وكلاهما وصمة عار في جبين هؤلاء.

وجعجعة أمثال هؤلاء هي التي تدينهم، لأن الدليل على أحكامهم المسبقة إنّما يفضحه النصّ المبثوث في عشرات الأعمال الروائية الذي لم يحدث أن وردت فيه كلمة واحدة لا عن هويّة القبيلة، ولا عن إسم القبيلة، ولا عن هوية بطل روائي ينتمي بالسلالة إلى هوية قبيلة. هذا إذا كانت حقّاً هي قبيلة أم أنها تلك الأمّة العريقة ذات التقاليد الثقافية الأصيلة التي روى عن بطولاتها أبو التاريخ هيرودوت وفريقٌ آخر من مؤرّخيّ اليونان القديمة والرومان الأساطير التي لم تَرِدْ على المدى الصحراوي المسمّى ليبيا من خارجٍ كما وَرَدَ عليها هؤلاء البُلهاء، ولكنّها نبتت في الوطن نبتةً ثريّةً طيّبة بدليل أنّها تسامحت مع كل المِلَل الدخيلة فآوتها بين ربوعها كما آوَتْ أمثال هؤلاء الذين ينكرون عليها هويّتها ولغتها وثقافتها وحتّى إسمها تلبيةً لنداء تعصّبٍ عرقيٍّ عنصريّ يعرّض هؤلاء لا للمساءلة

Twitter: @alqareah

الأخلاقية وحسب ولكن للمساءلة القانونية أيضاً هذه المساءلة القانونية المنصوص عنها في ميثاق محفل الأمم حول حقوق الأقلّيات الثقافية.

س 2 ـ نُشير إلى نشركم مؤخّراً للجزئين الأول والثاني من مذكّراتكم تحت عنوان (عدوس السُّرَى) نستسمحكم: هل بالإمكان أن تُعطوا القاريء دوافعكم لنشرها في مرحلة مازلتم فيها في قمّة عطائكم، لأن العادة جرت باختتام الكُتّاب شغلهم الإبداعي بكتابة المذكّرات كما فعل الكولومبي ماركيز؟

ـ الواقع أنّي تردّدت كثيراً قبل القيام بهذه المغامرة. وما وضعها موضع التنفيذ هو انطلاق تلك الشرارة التي كانت دوماً ضرورة لترجمة النيّة إلى فعل. شرارة قدح زندها ثلاثة أصدقاء أكنّ لهم إكباراً مجبولاً بحبّ وهم: صلاح فضل، وأدونيس، وسعيد الغانمي، الذين كانوا يحفّزونني في كل مرّة آتي فيها على سرد إحدى الوقائع في سيرتي الدنيونية التي لم أكن لأظنّ يوماً أنها يمكن أن تتميز بشيء عن تجارب أي إنسانٍ في هذا العالم، ولكن إجماع فرسان فكر من هذا العيار النفيس هو ما شجّعني على المجازفة. أمّا الصديق الأكاديمي المعروف علي احميدة فقد ظلّ يدفعني للقيام بهذا العمل دفعاً منذ سنوات ليقينه بأن شهادتي على جيلٍ انتمى إليه أيضاً ستكون وثيقة لا تاريخية وحسب ولكن معرفيّة أيضاً كفيلة بأن تكون عوناً للأجيال اللاحقة التي لم تعِش لا العهد الملكي ولا السنوات الأولى لحركة 69 ولا إفادة في شأن الأمم التي عبرتُها في رحلةٍ عدوسيّةٍ

Twitter: @alqareah

تختزل نصف قرن من الزمن وتشمل موقف شاهد عيان لأحداث أخرى في عالم ذاك الزمان بدايةً بحياة الفطرة بالصحراء الكبرى ونهايةً بقيام ثورة فبراير مروراً بمعايشة ذروة مجد الأمبراطورية السوفييتية والحرب الأهلية اللبنانية وقيام الثورة الإيرانية واندلاع فتيل حركة التضامن في بولندا التي أشعلت الحريق الذي التهمَ منظومة المعسكر الإشتراكي ثم الانهيار التراجيدي لبابل الأزمنة الحديثة (الإتحاد السوفييتي) إلى المرحلة السويسرية التي شهدت تجربة البعث الروحي لعابر ليل الدنيا هذا؛ هذا برغم خيبة أملي في مذكرات أدباء كبار أمثال بابلو نيرودا وماركيز هذا إلى جانب عبد الرحمن بدوي على سبيل المثال. حيث تغيب روح التأويل الفلسفي. فرسالة الذاكرة في نبش الماضي ليست بهدف استعادة الزمن الزائل حرفاً، ولكن روحاً. أي وجوب الإستنارة بالرؤيا، لا الرؤية. إنها اختزال رؤيوي لتجربة دنيوية يلبّي نداء الظمأ الذي يترجم الرؤيا في الرواية: تلك الرواية التي يقال أنها نيّة خفية تسكن قيعان لا وعي كل مخلوق بشري ليستودعها بَصْمَته. بصمة ممهورة بحبر هويته هو لا سواه، لأن إرادة أن نحيا تصاحبها إرادة أخرى هي إرادة الخلود. ولا يستهوينا نيل الزمن الضائع إلا لأنه الشهادة (والشهادة الأخيرة) على موت إنسانٍ هو على قيد الحياة!

س 3 ـ هل يمكن أن تقدّموا للقاريء العجول قاريء الصحف لمحة عن هذه المذكّرات خاصّة مرحلة التكوين الأول والمرتكزات الرئيسية في هذا التكوين؟

Twitter: @alqareah

ـ قبل كل شيء يجب التنبيه لأني لا أكتب لقاريءٍ عَجُول، وبالأخصّ لقرّاء الصحف.

وهذا المبدأ هو ما جَلَبَ لي عداوة الصحفيّين أيضاً لا في الشرق العربي وحده، ولكن في الغرب أيضاً. وقد دخلت في معارك مع محرّري كبريات الصحف الأوروبّية في سويسرا وفرنسا وألمانيا، وإيطاليا، والنمسا، وأمريكا، وأخرى مع فضائيات تلفزيونية وإذاعات في هذه البلدان بسبب روح الإستهانة التي يتعامل بها الصحفيّون مع كُتّاب الكتب، حتّى أنّ صحفية إيطالية اتّصلتْ بي مراراً لأجيبها عن سؤال واحد هو: «لماذا لاتحبّ الصحفيّين؟» فأجبتها ببساطة: «لأن الصحفيين لا يحبّون الكتب!». بلى! أكثر ما أعجب له هو سطحيّة الصحفيين واستخفافهم بالكتب. فعلاوة على كونهم لا يقرأون إلاّ أنّهم لا يستحون من مطاردة كُتُّاب الكتب ربّما إرواءً للظمأ الخالد إلى الفضول، وربّما بحثاً عن أدعياء مناسبين للعب دور النجوم. والدليل أن الصحفية الإيطالية ما لبثت أن استنكرتْ سؤالي فوجدت نفسي مضطرّاً أن أستفهم بيقينٍ عمّا إذا كانت قد قرأتْ لي أي كتاب بالإيطالية أو بأيّ لغة أوروبّية أخرى تتقنها كلغة ثانية إلى جانب لغتها الأمّ، فأجابت بالنفي. عندها سألتُ سؤالاً صار بالنسبة لي تقليدياً في العلاقة مع الصحفيين: «عن أي شيء سوف نتحدّث إذا لم يكن الموضوع هو فحوى كتبي؟ على أرفف المكتبات الإيطالية توجد ثلاثة مؤلّفات لي بلغتك الأمّ، وثمانية بلغتك الثانية الفرنسية، وأحد عشر مؤلّفاً بالألمانية، وسبعة بالإنجليزية إلخ. فبأيّ حقّ أُدلي

Twitter: @alqareah

بتصريح عن أمرٍ لم يهمّني ولم يكن ليعنيني يوماً لأنه في نظري عمل من أعجزهم أيّ عمل كمعبودتكم الأبدية السياسة مثلاً؟». فأهل الصحافة هم من لعب ضدّ الثقافة دوراً تخريبيّاً من خلال نزعة تسييس الأشياء على نحوٍ أدّى إلى تسييس العالم وابتذال الحياة الدنيوية انتصاراً لجنونٍ يعبدِ المعلومة التي لا تعني في الواقع أحداً. بالمقابل تغترب تلك الحقيقة التي تنام في بطون الكتب. إذا وُجِدَ مَنْ يستهجن أن تنام الحقيقة في جوف الكتب فسوف نتسامح ونقول أنّها الحكمة التي تنام في بطون الكتب، وهو ما لا يستطيع أن يُنكره أحد. فالقراءة ليست تقنية، ولكنّها طقسٌ قدسيّ لا يختلف عن الصلاة. لماذا؟ لأنه تجلٍّ نسمّيه تأمّلاً كما يسمّيه الأوائل تفكّراً. والحقيقة لا وجود لها خارج ما يسمّيه أساطين الحكمة في اليونان القديمة بـ«التأمّل النقيّ» المترجَم صوفيّاً بـ«التجلّي» والخاضع لتأويل هيجل في معادلة «توَحّدٌ ثمّ تأمّلٌ»، لأن لا وجود لتأمّل حقيقي خارج العزلة. وهذا المبدأ لم يمرّ بدون حصد قرابين. فالنزعة السائدة عن أعمالي في الغرب الأوروبّي كما في الشرق العربي هو حكمٌ قاسٍ برغم أنّه عامّ وهو: «كاتب **الأدب الصعب**». وقد اتّصل بي دارِسون كُثُر يريدون تحضير رسائل علمية عن الأعمال الروائية، ولكنّهم لم يجدوا تشجيعاً من أساتذتهم المشرفين على رسائلهم بدعوى أني أكتب أدباً صعباً، دون أن أدري أين تكمن هذه الصعوبة فعليّاً، ولكن العزاء أن هؤلاء كانوا أقلّية إذا قورنوا بأغلبية أخرى خاضت المغامرة بشجاعة. وكان من المنطقي أن أتساءل عن حقيقة

Twitter: @alqareah

«الصعوبة» فتذكّرت سنوات الدراسة بمعهد غوركي للآداب بموسكو كيف كان الزملاء الروس يصفون أعمالي القصصية المبكّرة بالصعوبة أيضاً دون أن أعترف بالإتهام أو أجد له سنداً. ولم ينبّهني إلى السرّ سوى صديقي المستشرق الألماني هارتموت فيندريخ عندما قال لي تعليقاً على إحدى رواياتي أنها صعبة ولا تستجيب لروح أناس عالم اليوم الذي لا يرى في الأدب سوى تسلية! وقد استفزّني هذا الرأي لأذكّر الرجل بتقاليد الأدب الأوروبّي إجمالاً، والألماني تحديداً، الذي لم يكن تسليةً في يومٍ من الأيام، ولكنّه **رسالة**، ورسالةٌ قاسيةٌ جدّاً. فهل الأدب الكلاسيكي مجرّد تسلية؟ هذا يعني أن كاتباً مثل جويس لن يُكتَبَ له أن يُقرأ في واقع اليوم، وكذلك الأمر بالنسبة لأدب بروست. والنبوءة القاسية أن ما يبقى من هذين النموذجين هو الإسم وحسب. فمنذ ثلاثين عاماً كنت مع صديقي القديم جلال الماشطة في جلسة بالمركز الإعلامي بالخارجية السوفييتّية ليستفهم عمّا أقرأ وقتها، ولم يُخفِ دهشته عندما أجبته بأني منشغل في إلتهام أجزاء ملحمة بروست «البحث عن الزمن الضائع» التي تسامحتْ الأيديولوجيا فسمحت بإصدارها بفعل الإنفتاح الأخير. وقد سألت الصديق عن السبب فلم يزِد أن ردّد كأنّه يبوح بنبوءة: «لا أحد يقرأ مثل هذه الكتب هذه الأيام!». وقد لمست صدق نبوءته عملياً بعد ذلك التاريخ بأعوامٍ كثيرة في سنوات انتقالي للحياة في غرب أوروبّا في شأن رواية «السَّحَرَة» أيضاً التي قال عنها أنها لن تُقرأ قبل مائة عام. لتتكرّر التجربة مع أصدقائي السويسريّين وكذلك الألمان. ففي

Twitter: @alqareah

جلسة عشاء مع مديرة مؤسّسة نشر «لينوس» سئلتْ السؤال ذاته. وعندما أجبت بأنّي أقرأ عمل شوبنهاور المرجعي المتعدّد الأجزاء: «العالم كإرادة وتصوّر» استنكرت المرأة بسؤال: «كيف تستطيع أن تقرأ شوبنهاور؟». تذكّرت تجربتي مع جلال فابتسمت قائلاً بأنّي أقرأه لا كفلسفة، ولكن كشعر. ثمّ ما لبث أن تكرّر ذلك تالياً في ندوة أقيمت في فرانكفورت منتصف التسعينات عن إحدى أعمالي الروائية. وعند انتهاء الندوة تقدّمت منّي صحفيّة ألمانيّة لتخبرني بأن الألمان ما عادوا يقرأون كل الفلاسفة الذين استشهدتُ بهم في مداخلتي مثل كانط، أو نيتشة، أو فيختِه، أو شيلّينج أو هيغل. ألاَ يعني هذا أن القراءة تمرّ بمحنة عالمية، والكتاب مهدّد بالزوال سيّما بعد صعود نجم ذلك الجهاز الذي يملأ رؤوسنا بقمامة غير معنيّين بها هي المعلومة ليوهمنا بأنّه يُهدي لنا ثقافة كانت منذ الأزل رهينة معاناة تأمّليّة؟.

وما يُقال عن محنة القراءة يصدُق على تلخيص النصّ الذي تطلبه منّي، لأن الأفضل ألاّ نقرأ الكتاب على الإطلاق من أن نقرأ ملخّصاً لكتاب. التلخيص بدعة تغريب روح تختزل فكرة. وهو ما عبّر عنه فلوبير عندما سُئل عن مضمون «مدام بوفاري» فأجاب بأن الجواب يستدعي منه كتابة الرواية من جديد.

الخلاصة أن تلخيص الكتب هو تزييفٌ للكتب، ومن شاء أن يعرف الحقيقة التي تنام في بطون الكتب فليس له إلاّ أن يضحّي، لأن الكتب كالحسناء التي لا تهب نفسها لمعشوقٍ لم يهبها وقته.

Twitter: @alqareah

وعلينا ألاّ ننسى أن الفضول إذا كان قصاصاً غرّبنا عن الفردوس فإنّ الثمن كان معرفةً!

س 4 ـ أثار الروائي التشيكي كونديرا مسألة أن يكون المبدع ممّا سمّاه البلدان الصغيرة وهو التشيكي الذي يعلّق على رقبته هذا الجرس. أنت الليبي، ومُعينك الروائي الصحراء الكبرى. ماذا يعني لك ذلك؟

ـ يروق البعض أن يتغنّى بعبارة «جماليّات المكان» حتى صارت هذه الترنيمة في واقعنا الثقافي نشازاً موسيقياً خاوياً من المعنى. فلا جمال للمكان سوى حُسن الظاهرة الميّت ما لم يعزف لنا لحناً آخر بعيداً قريناً لمعزوفة الأفلاك العليا التي قال أفلاطون أنها هي ما يفتُننا في كلّ نغمٍ موسيقيٍّ أصيل. ثمّ جاء نيتشة ليؤكّدعليها في «ميلاد التراجيديا من روح الموسيقى» مستشهداً باعتراف شيلّلر في تجربته الشعرية القائلة بأن الوحي الشعري يولد في مخيّلته كلحنٍ موسيقيٍّ ناءٍ. وهو ما يلهمنا العلاقة بين النبوّة والشعر، أو بين النبوّة والفنّ عموماً، المبرهَن عنه من خلال عرّافات معبد دلفى اللآئي لا تجري النبوءة على ألسنتهنّ إلاّ شِعراً. أمّا أهلي في الصحراء الكبرى فيدلّلون على صدق هذه الموضوعة بتأكيد ميلاد النبوءة كمعزوفة مثيلة لصوت النحلة عندما يرقدون على أضرحة الأسلاف طلباً لوصية أو طمعاً في تلقّي رسالة من غائبٍ طال انتظاره، فلا يتنزّل الإلهام في قلب المُريد إلاّ في السياق المنصوص عنه في النغمة الموسيقيّة. وأحسب أن هذه مقدّمة ضرورية لفهم حقيقة الجمال في الوجود برمّته، لا في مجال

Twitter: @alqareah

الفنون وحده. وهو ما يؤهّلنا لإعادة النظر في مفهومٍ ملتبسٍ كالمكان: المكان المستخدم كمسرحٍ لعملٍ روائيٍّ على سبيل المثال. وهو لا يكون مكاناً **جمالياً** بحقّ ما لم يستوفِ شروط **الإستعارة** المستوجبة لأيّ مكانٍ إبداعيّ، وللمكان الروائيّ تحديداً. فالبُلَهاء وحدهم يتوقّفون عند حدود **الظاهرة** في المكان ليتوهّموا أنّي أكتب عن مكانٍ كحرف مكان، أي كظاهرة لها حضورٌ في مجالٍ جغرافيّ كالصحراء الكبرى إجمالاً، أو الصحراء الليبية تحديداً. وهو جهلٌ مُخجل سوف يترتّب عنه جهلٌ أفظع عندما يعتقد أمثال هؤلاء أن الظِّلال التي تسرح في هذا المكان،لتُثقل كاهل الأرض في المكان، هم **هوية عِرقيّة** محدّدة، أمازيغيّة تحديداً، برغم أن النصّ يحفل بهويّاتٍ أخرى عرقية، وحيوانية، ونباتية، وجمادية، وحتى هويّات روحية حقّقت معجزة التحرّر من قُمقم الجسد لتسكن الخلوة الأبدية، وهم الذين أسمّيهم أهل الخفاء، ويلقّبهم العامّة بإسم الجنّ. وأريد الآن أن أُطمئن أهل الجهالة (إن كان ما يتشدّقون به مجرّد جهالة وليس شروراً أسوأ ألف مرّة من الجهالة) بأن الصحراء التي أكتب عنها هي مجرّد حُجّة وليست مكان. الصحراء هنا **إستعارة**، وليست موقعاً جغرافياً له حضورٌ على خارطة الكرة الأرضية. إنها تلعب دوراً **مجازياً مرادفاً للوجود**: الوجود الإنساني على كوكب الأرض. وجودٌ يبدو لغزاً بقدر ما تبدو الصحراء لغزاً، مسكوناً بلغزٍ آخر هو الإنسان: إنسانٌ مرموزٌ له بقومٍ يسكنون هذا الواقع الوجودي بغموضٍ معبَّرٍعنه بلثامٍ صار لهم بين الأمم علامةً لا تختلف عن

Twitter: @alqareah

العلامة التي وضعها الربّ للسلف قابيل لكي لا يقتله كلّ مَنْ وجدَه كما يرد في سفر التكوين. ولهذا فأهل المكان أيضاً حجّة. إستعارة للقبيلة الإنسانية كلّها، وما أمازيغ الصحراء، أو طوارقها، سوى ذريعة مجازيّة لتبرير القبيلة الأشمل، لأننا لا نستهدف إنساناً محدّداً عندما نكتب في الأدب عن هذا الإنسان أوذاك، ولكننا نعبّر عن **النموذج** الذي يمثّله هذا الإنسان في هذا المكان؛ نعبّر عن **الطبيعة** في الإنسان. نعبّر عن طبيعة الإنسان في هذا الإنسان. بل نعبّر عن **طبيعة الإنسانية** في هذا النموذج الإنساني. وهو ما يعني أننا بالطبيعة كلّنا أناس مهما اختلفت طباعنا، أو ألسنتنا، أو ألواننا، أو مواهبنا، أو أعراقنا. وغموض النفس البشرية لغز مستعار من **وحدة** هذه الطبيعة الإنسانية التي تسكننا.

هذه هي رسالة الأدب منذ الأزل، وعمقها هو ما استوجب الإحتكام إلى الأسطرة التي كانت شرطاً للإبداع منذ أرسطو على المستوى النظري، كما كانت هوية الأدب قبل أرسطو **ضمناً**. وجلجامش، أو الإلياذة، أو الإنياذة أكبر دليل على هذه الروح الأسطورية التي تسكن الأدب لتبرهن على أن الأدب في الأساس **أسطرة**. فإن خالف هذا القانون فلن يكون أدباً. من هنا كان الإحتكام إلى هذه الساحة ضرورةً لأنه استجابة لروح الأحجية. لروح اللغز في إنسانٍ يتحرّك في متاهة صحراوية بحثاً عن المعنى، وعن الهوية، وعن حقيقة الموت: الموت عدمٌ، والصحراء (بالمفهوم الكلاسيكي) **عدمٌ**. غياب المعنى **تيه**، والحياة في الصحراء تيهٌ، الهويّة الإنسانية

Twitter: @alqareah

كخلافة لله في الأرض أحجية، وهويّة الترحال الصحراويّ هي الرديف الرمزي لرحلة البحث عن الله. والظمأ الأبدي الذي هو قدر الصحراوي هو ظمأ الإنسانية إلى **الحقيقة**.

وهذا ليس كلّ شيء في حزمة الرموز سواء على المستوى الوجودي أو الديني.

يقول النقد الأجنبي أنّ فضيلتي تكمن في هويّتي التي استطاعت أن تقود إلى الأدب واقاً جغرافياً جديداً كان إلى وقتٍ قريبٍ مجهولاً في خارطة فنّ الرواية وهو الصحراء. وأحسب أنه نقدٌ مازال على جهله بحقيقة الصحراء المجازية في كلّ ما كتبت. وهو جهلٌ آخر يشاركهم فيه العوامّ الذين دأبوا على طرح سؤالٍ صار بالتكرار تقليدياً في جلّ الندوات التي نُظّمت عن أعمالي الروائية في أوروبا وأمريكا وهو: «كيف يستطيع روائي أن يحيا في واقعٍ أبعد ما يكون عن الصحراء كأوروبّا طوال عقود وعقود من الزمن ثمّ لا يكتب إلاّ عن هذه الصحراء؟». وكنتُ دوماً أكافح كي أُفهم هؤلاء أن حرف المكان ليس هَمّ المبدع، ولكن ما يهمّ هو **ظلّ** المكان. لأننا لسنا معنيّين في الواقع بالرؤية، ولكن **بالرؤيا**. وكنت ومازلت لا أملّ من ترديد وصيّة القدّيس بولس في هذا الشأن: «نحن غير ناظرين إلى الأشياء التي تُرَى، ولكن إلى الأشياء التي لا تُرَى؛ لأن الأشياء التي تُرى وقتيّة، أما الأشياء التي لا تُرى بإبديّة». هذا يبرهن للمرّة الألف أن الإبداع رصدٌ تراجيدي لواقعٍ تراجيدي لا حضور له في المكان، ولا في الظاهرة، ولكنه يسكن ما أسمّية: **البُعْد المفقود في لغز الوجود!**

Twitter: @alqareah

الخلاصة أننا معنيّون بالصحراء التي تسكننا، وهمّنا هو لغز الإنسان الذي يسكننا. وسوف تكون تجربتنا الأدبية والفلسفية والوجودية بثراءٍ يتوافق مع مدى عمق نزيف مثل هذه الأسئلة الوجودية فينا؛ هذه الأسئلة التي لم تكتمل ما لم تتوّج بسؤالين إثنين: سؤال الموت، وسؤال الإيمان بوجود الله!

هذه النزعة هي ما عبّرت عنه السيّدة زومرر صاحبة دار نشر «لينوس» عندما قرأت مخطوطة «المجوس» بعد ترجمتها إلى الألمانية منذ أربعة عشر عاماً لتتّصل بي قائلةً: «هذه ليست ملحمة الصحراء الكبرى. هذه ملحمة الإنسانية» في وقتٍ سبق احتفاء النقد الأوروبّي بهذا العمل الذي لم يجد ما يستحقّ في العربية بدعوى تلك التهمة التي تترجم الصعوبة المزعومة، برغم أن صدور هذا العمل بالعربية كان الحدث الذي لم يكن ليَعبُر عبثاً في واقعٍ لم يشهد بعد غياب سدَنَة معبد النقد العربي عام 1991 كما هو الحال اليوم فإذا بعميد النقد العربي شكري عيّاد يتناوله من هذا الجانب أيضاً في الدراسات الأربع التي نشرها عن «المجوس» على حلقات في مجلّة «الهلال» المصرية. قبل رحيله، وقبل أن تترجم إلى الألمانية ليتناولها المفكّر السويسري بدراسته التي نشرتها سبع صحف سويسرية بعدد الأحد الأسبوعي في وقتٍ واحد إحتفاءً بعمل أدبي استثنائي جدير بجائزة نوبل للآداب كما اختتم دراسته.

فالنظرة الشائعة للصحراء مجبولة باستهانة خفيّة سيّما في عقلية الإنسان الشرقي الغريب عن الثقافة البيئية. فالموقف من الطبيعة في

Twitter: @alqareah

أوطاننا سلبيّ، لأننا عن مفهوم مثل **وحدة الكائنات** في غياب. وهي قضية مطروحة في كل الروايات في وقتٍ لم تغدو فيه مشكلة البيئة قضية الساعة حتى في الغرب نفسه، أي إلى تاريخ نشر «نزيف الحجر» و«التبر» لأول مرّة منذ ربع قرن مضى. فالصحراء بالنسبة لأجيال الأزمنة الحديثة ليست مجالاً بيئياً مسكوناً بكائناتٍ طبيعية، ولكنه في مفهوم الجيل فراغ. وكونه فراغ يعني أنه مُباح. هذا برغم أنه في الواقع ليس عالماً مستوفٍ للشروط البيئية وحسب، ولكنه مجتمع: مجتمع مميّز أيضاً، لأنه المجتمع الوحيد الذي تتحقّق في ربوعه أعجوبة تماهي الإنسان بالطبيعة والتي نسمّيها وحدة الكائنات، كما لا تتحقّق في المجتمع العمراني المنغلق على نفسه. ففي الصحراء فقط تلتئم السماء بالأرض في طقس العشق الحميم واللامحدود. في الأرض تتجاور الكائنات كلها: الإنسان والحيوان، النبات والجماد. الرياح والأرواح. وكلّهم في فيوض الشمس يسبحون. ومَنْ يسمع أهل الصحراء وهم يتحدّثون عن أقرانهم من أهل الخفاء (على سبيل المثال) بروح اليقين، وبأريحية تسامحٍ عفويّ، سوف يدرك كم هو خُلُقٌ نبيل أن يتحلّى ابن آدم بذلك الضرب من الإيمان الذي يجعله يرى نفسه على الأرض دخيلاً، أو ضيفاً عابراً، بالمقارنة مع تلك الكائنات الخفيّة التي يسمّيها أهل العمران أشباحاً، حتى أنهم ينفون وجودها لتبقى في مخيالهم مجرّد خرافات!

هذه العقلية هي ناموسٌ صحراوي كان منذ الأزل مع العُرف العمراني في جدلٍ قديم، لأنه وليد الإنقسام الدرامي في جسد

Twitter: @alqareah

الجنس البشري يرجع بجذوره إلى الأرومة الأولى: انقسام القبيلة الإنسانية إلى أهل رحيلٍ يقابلهم في الجانب الآخر أهل استقرار. إنقسامٌ كان من نتيجته احتراف الملّة العمرانية لدين الحرف المترجَم في الحِرفة. هذه الحرفة التي لم يكن بوسع الملّة الراحلة أن تحترفها بسبب حياة الأسفار. ولمّا كان قدَر الإنسان أن يفعل بنفسه شيئاً في دنيا الملل، لذا كان من الطبيعي أن يبحث إنسان الرحيل عن دمية أخرى تسلّيه في رحلةٍ هي باطل الأباطيل يقيناً، ولكن امتيازها يكمن في كونها تجربة حرية بالمقارنة مع تجربة الملّة الأخرى. وهي تجربة حرية لأنها نتاج الطبيعة الأمّ. والحرّية المعادية للحرفة لن تنتج حرفةً، ولكنها تنتج نبوءةً. نبوءة تبدو بلا جدوى في محيط تلك الطبيعة التي تتنفّس حريةً، ولذا لا بدّ أن تنزل من عرشها إلى حضيض الإستقرار في سبيل تأكيد رسالتها كنبوءة. ولكن الحضيض الأرضي ليس مضيافاً في حقّ النبوآت، بل هو مُعادٍ بطبيعته لكلّ ما يرفض الإعتراف بالظاهرة دينيّاً فيبدأ نزاع ينتهي بتغريب الضيف الدخيل، فإن تصدّى فسوف يعرّض نفسه لصنوف ذلك الإضطهاد الذي لا ينعكس في العداوة التقليدية بين هاتين الملّتين، ولكننا نجده مترجماً في الشكوى الخالدة من استحالة تنفيذ الرؤيا السماوية في حضيض الواقع الأرضي.

أمّا في مسألة ما يتعلّق بالأوطان التي أثارها كونديرا فالمبدع كبيرٌ بحجم الأسئلة التي يطرحها في أدبه لا بالإنتماء إلى حجم بلده صغيراً كان أم كبيراً. وقيمة هذه الأسئلة هي التي تحدّد هويّته

Twitter: @alqareah

الحقيقيّة. هي جواز سفره الحقيقي، وليس جواز السفر المستعار من الهوية الوطنية. والدليل أن رائد الآداب في كل الأزمنة **هوميروس** لم ينتمِ إلى أثينا ولا إلى اسبارطة، ولكنّه بالهوية انتمى إلى أصغر قرية في اليونان القديمة مازالت في الحقيقة مجهولةً برغم تنازع كل مدن اليونان تالياً محاولةً إثبات شرف إنتمائه إليها. دليلٌ آخر مستعار من الأزمنة الحديثة. فأصغر أوطان العالم أنجب أكبر روائيّي القرن العشرين: الوطن هو ايسلندا، والمبدع هو **لاكسنيسّ!**

هوية المبدع، إذاً، أدبه، وليس هوية وطنه. بل العكس هو الصحيح: فكثيراً ما كان إسم الكاتب هو هوية الوطن. ألا تؤكّد وصية أسلافنا هذا عندما تقول: «فارس يحيي قبيلة، لكن قبيلة ما تحيي فارس!»؟

س 5 ـ درست في الإتّحاد السوفييتّي. ربطك البعض بالماركسية. ما حقيقة ذلك؟

ـ لا أنكر تعاطفي مع الماركسية في تجربتي الدنيوية في ذلك الزمن الذي كان فيه هذا الفكر فارس العصر لا في ارتباطه بالشيوعية كنظام سياسي، ولكن لأنه فكرٌ يساري. لقد كان منذ نصف قرن القشّة التي تعاطف معها كل مريد عدالة قبل أن نكتشف غياب العدالة في أيّ نظامٍ أرضيّ، فكيف بالنظام السياسي؟ والأنسب أن أقول أني كنت صاحب موقف نقدي لا من الفكر الماركسي وحسب، ولكن من الفكر اليساري إجمالاً. وقد تأمّلت في الجزء الأول من نزيف الذاكرة (عدوس السُّرَى) عبارة سيمون دي بوفوار القائلة بأن المبدع

Twitter: @alqareah

في عصرنا لا يمك إلاّ أن يكون يسارياً، ولا أنوي أن أكرّر هنا تأويلي ذاك. يكفي أن أقول أن الروح اليسارية استجابة لموقف مَنْ فضّل أن يتخلّى عن العالم ليتفرّج على المهزلة الدنيوية من وراء حجاب. وهو موقفٌ نقدي بالطبع برغم كونه موقف مشاهد. ألا يحثّنا إمام الحكمة أفلاطون على خيار مشاهدة المسرحية في مقابل موقف البهلوانات التي تلعب دوراً في المسرحية؟!

س 6 ـ أنت مواطن سويسري. ما الذي يشكّله هذا في عالمك السردي وكتاباتك الروائية؟ وهل يساهم وجودك في سويسرا في ترجمتك مثلاً؟

ـ لا أرى أي علاقة بين المواطنة والإبداع، لأن وطن المبدع الحقيقي هو إبداعه كما أسلفنا. وإبداعه هو شهادة حسن السيرة والسلوك التي لا يعترف العالم المتحضّر بسواها، برغم أنها في بلدٍ كليبيا ليست تهمةً وحسب، ولكنّها حجّة للنيل من المبدع: النيل من المبدع سياسياً وثقافياً وأخلاقياً وشعبياً. وهو عارٌ في جبين أمم التخلّف قبل أن يكون عار الأنظمة القائمة على أمرها. وإذا كنت قد درست في الإتحاد السوفييتّي، وعملتُ في بلدٍ كبولندا، ثم انتهى بي المطاف إلى سويسرا، فإني لا أملك إلاّ أن أعترف لكلّ بلدٍ من تلك البلدان بفضل: تعلّمت التقنية بمعهد غوركي بموسكو لأعبّر عن امتناني لذلك الشعب العظيم الذي ضحّى كثيراً كي يعلّم المعارف لأبناء عالمنا الثالث، وكذلك لإتّحاد الكتّاب السوفييت الذي جاد على شخصي بمنحة دراسية بخل عليّ بها النظام في بلدي، برغم أنه

Twitter: @alqareah

لم يبخل بها حتّى على الأغراب! كما لم أندم على عملي ببولونيا لأنها كانت بالنسبة لي الجحيم الذي على المرء أن يعبره كي يبعث في نفسه ميلاده الثاني. أمّا سويسرا فقد جئتها لمداواة جراح التجربة الدموية التي عشتها في بولندا التي ترجع دمويّتها لا لبولندا، ولكن لطبيعة العمل مع الإدارة الليبية سيّما إذا تولّى أمر هذه المؤسّسة إنسان انتمى إلى ملّة المثقّفين الفاشلين أمثال كامل المقهور أو المُخبر بشير الهاشمي: الأخير كان مسئولاً عن مصادرة كل كتبي التي أعقبت «نقد ندوة الفكر الثوري» (المصادَر منذ عام 70 م) إبّان تولّيه دائرة المطبوعات، والأول كان مسئولاً عن قفل أبواب أول مطبوعة ثقافية عربية قُمت بتأسيسها في قلب المعسكر الشيوعي ببولندا، فحرّرني من الوِزر وأحياني من حيث ظنّ أنه أماتني، لأني لم أغسل يديّ من العمل مع الليبيّين لأستعيد عافيتي الروحية والفكرية والجسدية إلاّ عندما خلوت إلى نفسي في مرتفعات فوروبيوفا بموسكو بين 1986 و1993 منقطعاً عن العالم وعن العائلة وعن كلّ مخلوقٍ إنسيّ مستأنساً بالطبيعة الأمّ وحدها. وعلّ أكبر دليل على حضور حقيقتي في نصّي لا في شخصي هو موقف النظام من كتبي التي لم يطمئنّ إليها منذ حرق كتاب «نقد ندوة الفكر الثوري» إلى آخر يوم من حياة النظام، لأنه يعي أن مبدأ الحرية الذي يتخلّل كل مؤلفاتي سواءً في بُعْده الوجودي أو السياسي أو الغيبي هو الخطر الأكبر على جيلٍ دأب النظام على قتل أحلامه. هذه الأحلام التي لم تكن في كل الأعراف سوى قتل صاحب الحلم نفسه، لأن إنساناً بلا

Twitter: @alqareah

حلم هو جسدٌ بلا روح! وهو الموضوع الذي كان محور هديّتي إلى شهداء فبراير: «فرسان الأحلام القتيلة».

أمّا الترجمة فقد كنتُ مترجَماً إلى اللغة الروسية منذ عام 1973، ومتوني القصصية مترجمة بلغات الإتحاد السوفييتّي وشرق أوروبّا مع منتصف السبعينيّات أيضاً، وفي بولندا منذ عام 81م، وبالإنجليزية والتركية منذ عام 82، وقد إعتمدتْ دور النشر في سويسرا خُطط نشر أعمالي باللغة الألمانية قبل وصولي إلى سويسرا.

س 7 ـ شاركتُ أنا في الندوة التي كانت حول أعمالك الروائية التي أقامتها جامعة سبها منذ سنوات، تحدّثتَ عن مصادرة كتبك من قِبَل النظام في تلك الندوة، هذه الكتب لم تكن تذكرها: ما علاقتك بماضيك الإبداعي والشخصي؟

ـ سياسة مصادرة كتبي في ليبيا فكانت ممنهجة ومطلقة. بدأت بـ«نقد ندوة الفكر الثوري» وانتهت «بالورم» كآخر كتاب صدر قبل زوال النظام وبلغ الخُبث بالسلطات أن تتظاهر بطبع أعمالي ضمن خطّة وزارة الثقافة، ولكنها تحجب الكتب المطبوعة في ظلمات المخازن. وأصحاب مكتبات الحاضرة شهودٌ على هذا الإحتيال لأن الوزارة كانت ترفض طلباتهم بشأن شراء الكتب في كلّ مرّة حاولوا فيها اقتناءها بقصد التوزيع. أليس مفارقةَ بعد كل هذا أن يأتي من يدّعي أنّي في هدنة مع النظام السياسي القائم؟ هل ياترى لأنهم لا يقرأون الكتب، أم لأنهم يقولون ما يقولون لأمرٍ في نفس يعقوب؟

س 8 ـ ليبيّتك يربطها البعض ببزوغك ككاتب وبعلاقتك بالنظام

Twitter: @alqareah

السياسي. هل لهذا أي أثر في كونك الروائي إبراهيم الكوني؟ وما حقيقة ذلك؟ ولماذا هذا اللغط حول هذه العلاقة، وما دوافع اللاغطين كما ترى؟

ـ لغط؟ هل هو لغطٌ أم هو هذيان؟ هو هذيانٌ لا يُثير إلاّ الغثيان، حتى أني أشعر لهؤلاء بأشدّ الخجل، لأنهم بهذيانهم إنما يترجمون ما بأنفسهم هم، فيحاولون أن يلصقوا ما بأنفسهم بالأغيار ظنّاً منهم أن هذا الزيف يمكن أن يعزّيهم في محنتهم الأخلاقية والمهنية: الأخلاقية هي ممارسة الكيد والكذب، والمهنية هي تبرير فشلهم في العمل، لأن «لون الماء من لون الإناء» كما يعلّمنا الجُنَيد. وها نحن نستحي لهم وهم لا يستحون. ويبدو أنّ ترفّعي عن النزول إلى أحاضيضهم طوال الأعوام الماضية هو ما شجّعهم فإذا بهم يتمادون إلى الحدّ الذي يعرّضهم للمساءلة القانونيّة إلى جانب المساءلة الأخلاقية. وها هم يتبارون في التعبير عن جهلهم بأنفسهم قبل أن يعبّروا بهذيانهم عن جهلهم بما كتبت وبما أكتب؛ ولو عرفوا أنفسهم كما يجب لأدركوا أن الحقيقة سوف تفضحهم، لأنها في حلفها مع التاريخ سوف تعرف طريقها إلى العَلَن عاجلاً أم آجلاً. ولكن التاريخ يأبى إلاّ أن يعيد نفسه في كلّ مرّة فيبرهنوا كما برهن رعاع الناصرة يوم تنازل المسيح لينزل ديارهم فسخروا منه ورجموه ليعلن نبوءته الدهرية: «لا كرامة لنبيٍّ في وطنه»، ولكنه لم يُضِف ما كان يجب أن يضيف فيقول: «ولا كرامة لنبيٍّ في زمنه أيضاً إلى جانب وطنه!». وهي السيرة القديمة الجديدة في معاداة كل ما له قيمة حقيقية. وهذا

Twitter: @alqareah

هو العزاء. فبليّة من يتوهّمون أنهم مثقّفون في بلادي هي **الإدّعاء**. إنهم يريدون أن يكونوا أدباء، ولكن دون مكوس. فأكثر من ثلاثة أرباعهم لا يقرأون. ونصف الربع الباقي لا يقرأ ما يجب أن يُقرأ. وثلاثة أرباع العشرة في المائة الباقية لا يقرأون بأيّة لغة أجنبية. وبرغم هذا يتشدّقون بالأدب وينتحلونه انتحالاً ظنّاً منهم أنه قناعٌ من شأنه أن يستنزل على الوجه سيماء الوجاهة. والوجاهة المزعومة في نظرهم نوعٌ من حصانة لذرّ الرماد في عيون البسطاء. فالأدب بالنسبة لهم هو لقبٌ يصلح للتباهي كأنه المنصب، وليس رسالة حقيقية كما يجب أن يكون. هذه النزعة هي التي جلبت على الثقافة الليبية اللعنة التي أسقطت الوطن من الخارطة الثقافية العربية، وألغت وجوده نهائياً من خارطة الثقافة العالمية. هؤلاء هم المسئولون عن جعل الهوية الليبية مرادفاً للجهل على المستوى العربي، وغرّبتها على المستوى الأممي. فإذا أضفنا إلى هذا الإغتراب المُهين رذائل النظام السابق في حقّ هذا الوطن الشقيّ مثل ممارسة الإرهاب، فإن الهوية لا تكتفي بأن تغترب، ولكنّها تستحيل تهمةً حقيقية تستوجب القصاص في كل العالم، وهو ما عانى منه كلّ من حمل في جيبه هذه الهوية خارج ليبيا طوال سنوات غيبوبتها تلك، حتى أنّي لم أفهم إلاّ اخيراً ماذا يعني أن يحقق المبدع إعترافاً، ويرتفع عن سفساف هذه الملّة الدعيّة قامةً أعلى من قاماتهم إلاّ عندما اشتكى لي صادق النيهوم بمرارة من أمرين: عداوة زملاء القلم من ناحية، وجناية الهوية من ناحية ثانية. يحصد الصادق عداوة الداخل، ويجني عداوة الرَّبْع العربي بسبب

Twitter: @alqareah

ليبيّته برغم أنه لم يفتح لنفسه نافذة خارج اللغة العربية بسبب غياب ترجمة أيّ عملٍ من أعماله إلى أي لغة أجنبية. فكيف إذا تجاسر مَنْ فتح هذه النافذة ليقدّم للعالم حقيقة هذا الوطن النبيل مبيّناً وجهه الآخر، المجهول، الذي لم يكتشفه أحد قبل اليوم إلى الحدّ الذي تحصد فيه هذه الأعمال أربعة عشر جائزة دولية من لجانٍ علميّة (وليست أهلية) تشرف عليها حكومات الدول ضماناً لنزاهتها كشهاداتٍ تبرهن على **سلطة النصّ**، وليس سلطة المزاج، أو المجاملة، أو الكذب؟

هذه هي جريمة هذا الإنسان الذي تتكالب عليه نفوس الشرّ لا في ليبيا وحدها، ولكن في العالم العربي أيضاً. هذا العالم الذي ظنّ أنه انتهى من بلدٍ إسمه ليبيا منذ عقود طويلة ثقافياً أيضاً كما انتهى من أمره سياسياً. فإذا بشبحٍ ليس من هذا العالم يخترق الحصار الأبدي الظالم (والحصار الدولي في عقد التسعينات أيضاً) المفروض على وطنٍ لا وجود له في العُرف السائد ليؤسس لتقاليدِ روائيةٍ في قارّةٍ كانت في مفهوم الأجيال رديفاً للعدم وهي الصحراء. كيف لا ترتفع الأصوات التي تستَخسِر هذا الشبح في وطن العدم هذا كما صرّحت عالمة الفلكلور الشهيرة د. نبيلة ابراهيم لإحدى وسائل الإعلام ليصير «الشبح» هدفاً لِحراب الحقد من منتحلي الأدب في العالم العربي لا لشيء إلاّ لأنه انتصر للحقيقة وردّ الإعتبار لوطنٍ عانَى من فنون التغريب لأجيالٍ وأجيال؟

ماذا أيضاً؟ يحدث هذا بدعمٍ من نظام؟ يالها من نكتة شرّيرة!

Twitter: @alqareah

كيف لنظامٍ أعجزه أن يُحسِّن صورته في العالم وهو الذي أنفق المليارات على ذلك، أن يُفلح في صنع مبدعٍ هو له عدوٌّ بالفطرة، وخصمٌ تاريخيّ أضطهده منذ عام 1969 وصادر له كل كتبه منذ ذلك التاريخ إلى أن قضى النظام نحبه؟ فكلّ من عاصرني من جيل الرعيل الأول يذكر معركتي مع زعيم النظام في المؤتمر الصحفي العالمي الأول في 69م. وهي معركة في سبيل الإعتراف بدور المثقّفين الذين ناصبهم النظام العداء منذ البدء، تماماً كما يفعل من ورثوا ترِكة هذا النظام اليوم من مُريدي السلطة ولا أقول الثورة. لقد كان رجلٌ مثل الخويلدي الحميدي شجاعاً بما يكفي عندما اعترف لي يوم عرفني عن قرب بأن ما فعله شخصي لليبيا أعظم شأناً من أسطورة إنجازات الثورة التي تغنّى بها النظام طويلاً، لأن هذه الإنجازات حقّقها المال في رأيه، ولكن ما حقّقتُه لليبيا على المستوى العربي والدولي لن يحققه المال. وهو اعترافٌ لم يؤكّده إبن أبي منيار حرفاً وإن ترجمَه عَمَلاً. لأن موقفه لم يتبدّل نحوي فيعترف بي كقيمة إلاّ بعد أن شهد لي العالم بهذه القيمة. وهو ليس بالغباوة، ولا بالجنون، الذي يدفعه للإستمرار في عداوة إنسانٍ غير معنيٍّ أصلاً لا بالمناصب، ولا بالسلطة، ولا بالسياسة كما اكتشف تالياً بعد أن عرض على شخصي حقائب وزاريّة رفضتها باستنكار. والشهود على ذلك مازالوا على قيد الحياة. وقد صرّحتُ في مقابلة مرجعيّة مع قناة الجزيرة الفضائية بهذه الحقيقة عَلَناً مستخدماً عن عمد تعبير «أرفض» لا كلمة «أعتذر» أمام سمعه وبصره دون أن يعترض. كما أعلنتُ في تلك المقابلة حرفيّاً

Twitter: @alqareah

إختلافي معه في الرأي في وقتٍ لم يكن ليوجد في ليبيا مخلوقٌ واحدٌ يجرؤ على التصريح بأمرٍ كهذا، مذكّراً أيضاً في هذه المقابلة **بأنه لم يحاول يوماً أن يجعلني أعتنق أفكاره أو يفرض عليّ آراءه.** ولم يحتجّ أيضاً. هذه وثائق في متناول الجميع، ولا أسوقها هنا إلاّ لأضع حدّاً لحملات أشباح الزور ولأدعياء البطولات الكاذبة الذين يحاولون أن يبنوا أمجاداً على حساب شُرَفاء لا حسابات لهم لا مع الأنظمة التي مضت ولا مع الأنظمة التي تلت ولا مع الأنظمة التي ستلي. لأن الشجاعة الحقيقية موقفٌ زُهدي ولا حسابات دنيوية لها، ويُحزنني أن أضطرّ للدفاع عن نفسي أمام هجمة أُناسٍ لم يقرأوا كتبي التي تترافع عنّي أمام محكمة الأبديّة: الحقد سيزول بزوال أصحابه. والمنافع ستبطُل ببطلان أهواء الأمّة الفانية. ولكن النصّ المبثوث في كتاب سوف يبقى. أضيف فأقول أن رأس النظام كان يلتقيني كما يلتقي كل رموز ليبيا بما في ذلك الأدباء برغم أنه لم يُعاملني يوماً إلاّ معاملة الندّ للندّ، وكان يستقبلني بالمراسم ذاتها التي يستقبل بها رؤساء الدول الأجنبية، ويسمع منّي ما لم يكن ليجرؤ مخلوق أن يُسمعه له، لأنه لم يحدث أن طلبت منه خدمة شخصية يوماً، ولكن كنت في كل المرّات المعدودة التي التقيته فيها على انفراد أحثّه على أن يفعل ما بالوسع لخير ليبيا والليبيّين بدايةً بالإنسان ونهايةً بالبيئة التي يقطنها هذا الإنسان. في 2009 أيضاً أصدرتُ رواية التحدّي التي إذا كانت قد أثارت ضجّة في الوسط الثقافي العربي إلاّ أنها أثارت ضجّة في الوسط السياسي لا في الوسط الثقافي وهي: «من أنت أيها

Twitter: @alqareah

الملاك؟» المكرّسة لمشكلة هوية الأقلّيات، الهوية الأمازيغية بالذّات. وكان أن صُودرَت الرواية كما صودرتْ كل أعمالي التي سبقت والتي لحقت، ولكنه لم يلُمني، ولم يتّخذ أي إجراء بشأني برغم التقارير الكثيفة التي تلقّاها من السياسيّين وحتى من أولئك المثقّفين الذين دأبوا على التنظير للهوية العروبية لأهل شمال افريقيا. وإذا كنتُ مديناً له بشيء، فهو أنه لم يُودِعني السجن، لأن السجن هو المكان المناسب الوحيد لكلّ إنسانٍ نزيهٍ في عالمنا كما أعلن ثورو، وكما ردّد من بعده تولستوي. فهل هذا كل شيء؟ كلاّ بالطبع. فلقد كتبت في عزّ طغيان القمع المقال الشهير بجريدة «أويا» عن حقيقة **الخلاف في الرأي الذي لم يكن يوماً معارضةً، كما أن المعارضة لم تكن يوماً عداوة**. وهو المقال الذي احتفت به مواقع المعارضة الألكترونية وتناقلته جميعاً. أمّا سليله سيف فقد عرض على شخصي بل وألحّ مراراً طالباً منّي تولّي رئاسة مجلس إدارة شركة الغد للإعلام خلفاً للصديق جاد الله عزوز الطلحي، ورفضت في كل مرّة، لأن المناصب لم تكن لتعنيني يوماً.

فأين الصفقة الدنيوية التي يتشدّقون بها إذاً؟ هل هي الوظيفة الإدارية التي شغلتها منذ عام 1965 عندما كنت محرّراً بجريدة «فزّان» التابعة لوزارة الثقافة الملكية بمعاشٍ يتقاضاه أي مواطن ليبي حسب مؤهّلاته العلمية وخبرته الزمنية؟ هذا المعاش الذي يتقاضاه الكلّ ثروة، أم أنه في كل الأعراف مجرّد قُوْت؟ اليقين أنه قوتٌ، ونفوس السوء وحدها تحاول أن تجعل منه ثروةً. أمّا ريع كتبي وقيمة جوائزي

Twitter: @alqareah

المحلية والعربية والدولية فهو حقٌّ لا يقلّ نزاهةً عن القُوت الذي أتقاضاه مقابل المعاش. فناموس الولاء لأي نظامٍ سياسيٍّ في العالم إنّما يُقاس بتولّي المناصب السياسية في هذا النظام. أمّا مَنْ ترفّع عن هذه المناصب (سيّما إذا كانت قد عُرضت عليه كما هو الحال في شأني ثمّ رفضها) فذلك الموقف هو **برهان النزاهة**. ولكن ما يحدث عندنا هو العكس: الإحتفاء برموز النظام السابق السياسية، ومُحاولة تشويه رموز الوطن التي تنزّهت عن هذه المناصب! أليست هذه مفارقة؟ فالإنتهازيون الذين كانوا بالأمس يتزلّفون للنظام تزلّف العبيد هم من يُحاول اليوم أن يوهمنا بالنزاهة ليُنصّبوا أنفسهم لا أبطالاً وحسب ولكن قُضاةً يريدون بمسلكهم أن يستبدلوا الشعب الليبي برمّته بشعبٍ آخر من الملائكة لا وجود له في الواقع. هذا يذكّرني بحملة كيدية على ماركيز ماأن سطع نجمه في سماء الأدب ليبخلوا عليه بشرب الشامبانيا وأكل الكافيار فأجابهم بأنه يشرب الشامبانيا ويأكل الكافيار بفضل قلمه. ماركيز نفسه الذي لم يثعيّره أحد بصداقته الحميمة بأعتى ديكتاتور في العصر الحديث (وهو كاسترو) بل إحتفى به العالم ولا يزال، لأن شرع العالم الإعتراف بالنصّ لا بمواقف الشخص!

أقول هذا لا لأنفي تهمةً لا أساس لها من صحّة، ولكن لأكشف للشرفاء حقيقة الزور الذي يروّج له الفاشلون. ولا يعلم هؤلاء أن النظام كان قد أوقف دفع حتى هذا المعاش لأمدٍ زاد على الأربع سنوات كاملة، ولم يستأنف صرف هذه إلاّ بعد تقديمي لإستقالتي

Twitter: @alqareah

التاريخية من الدولة عام 1989 وذلك تحسّباً منه للجوئي لفلول المعارضة السياسية في الغرب، برغم أني لم أفعل ما فعلت إلاّ للخلاص من بليّة العمل مع الإدارة الليبية ومؤسّساتها الجهنّمية كالخارجية. أمّا وجودي في سويسرا منذ 1993 فالكل يعلم أنه لأسبابٍ صحّية، ولم يكن ليتمّ أيضاً لولا كفاح صديقي النبيل أبو زيد عمر دوردة عندما تولّى رئاسة مجلس الوزراء يقيناً منه بأن على الدولة التي كانت سبباً في هذا المرض أن تُصلح ما أفسدتْ، والعلاج حقٌّ مكفولٌ للجميع، ولم أكن الوحيد الذي جرى تعيينه خارج البلاد لأسبابٍ صحّيّة. ولكن الذين عملوا في الخارج كانوا يوفدون لأسباب علاجيّة. وسويسرا بالذات لمواصلة علاج كان قد بدأ عام 88. وقد اخترت الإقامة في **الريف السويسري**، تحديداً، منطقة الألب المجاورة للعاصمة «بيرن» لسببٍ في غاية الأهمّية وهو: تجنّب الإحتكاك بمن كان سبب علّتي الصحّية من موظّفي الخارجية الليبية الذين لم يعاملوني يوماً إلاّ كعدوّ سواء في وارسو أو في موسكو أو في الداخل لأنّ كل منتدب من جهات أخرى هو في دخيلتهم دخيلٌ على محفلهم الخفيّ جهلاً منهم بأن كل موظّفي وزارات الخارجية في العالم عناصر منتدبة من المؤسّسة العسكرية أو الإقتصادية أو الأمنيّة أو الثقافية، هذا برغم أني أقْدَم منهم لا في الوظيفة العامّة وحسب، ولكن في الإنتماء إلى الخارجية أيضاً، سيّما وأن عملي كمستشار إعلامي لا يستدعي الحضور والإنصراف، أو بالأصحّ، ذلك التردّد العبثيّ على مقرّ عمل لا عمل فيه إلاّ لعناصر

Twitter: @alqareah

دبلوماسيّة أمّية لا يحسنون اللغة العربية الأمّ، فكيف باللغات الأجنبية؟ وهو أمرٌ كفيلٌ بالإعتماد في عمل السفارات (التي هي مكاتب خدمات في الواقع وليست بسفارات) على كفاءات العمالة المحلّية المخوّلة بإنجاز كل العمل ولا وظيفة للعنصر الوطني الموفد إلاّ تذييل المراسلات مع الجهات المختصّة (سواء أكانت إدارية أو مالية أو قنصلية) بالإمضاء فحسب. وبرغم ذلك يظلّ الحضور والإنصراف هو مقياس العمل وليس العمل نفسه، لأن ما يهمّ في عالم الأقنعة هذا ليس الجوهر، ولكن المظهر، والتضحية بالمضمون في سبيل إعلاء راية الشكل هو الناموس السائد. فكيف لا يرى أمثال هؤلاء في الإنسان المخالف شذوذاً عن القاعدة، بل عدوّاً برغم أنه هو بالذّات لا سواه من يشهد له الواقع الثقافي والإعلامي في البلد الأجنبي (سواء في روسيا أو بولونيا أو سويسرا) بالحضور الإستثنائي ليعلي شأن وطنٍ يجهل أهل ذلك البلد وجوده حتى على الخارطة الجغرافية. وبرغم ذلك ينتصر أهل البهتان لمن يتبطّلون في سفاراتنا بالخارج ويكتفون بالتظاهر بالعمل، في حين يستهدفون في حملاتهم الإستثناء ليشيعوا في الأوساط الغبيّة أن وظيفته شرَفية ووظائف حفنة الأمّيين الذين تضيق بهم سفارات الوطن في الخارج هي الحقيقية. فماذا يمكن أن تعني سياسة التضحية بالجوهر في سبيل المظهر إن لم تكن تضحية بالحقيقة في سبيل الأكذوبة؟

هل يحتاج بعد كل هذا أن يترافع عن نفسه من يتولّى الدفاع عنه محفل كتب مكوّن من رقم سحري هو السبعة والسبعين مؤلّفاً،

Twitter: @alqareah

مترجمةً لكل لغات الأمم، ترتاد حرم المناهج في جلّ جامعات العالم كما في السوربون أو جامعة طوكيو، أو جورج تاون وغيرها، وتُعتمد كمادّة مرجعيّة للدراسات البحثيّة لنيل الدرجات العلميّة ناهيك عن عديد الجوائز الدوليّة؟ كلاّ، بالطبع. هذه أعمالٌ أبت العناية الإلهية الأعدل من كلّ عناية ومن كل عدالة إلاّ أن تُشهدني مجدها الكامن في كلاسيكيّتها المترجمة في حرف **الإعتراف** بها لأكون شاهداً على الفاكهة التي أنتجها نزيفي متوّجةً بيقيني بصواب رسالتي قبل أن تظلمّ الشمس، أو تبطل الطواحن، وتغلق الأبواب في السوق، وقبل أن تبطل الشهوة، أو تنقصف البكرة عند البئر، إيذاناً بالذهاب إلى البيت الأبدي، فيرجع التراب إلى الأرض كما كان. سوف تبقى صحف إبراهيم حجّة الأجيال بعد غياب إبراهيم، وسيظلّ المتن هرم التحدّي في وجه أشرارٍ كانت غايتهم من حمَلات الزور **الإساءة**، ولم يكن همّهم الحقيقة يوماً!

س 9 ـ أنت مواطن سويسري وتُشيد بهذه المواطنة. لماذا سويسرا؟

ـ لا أستحي من أن أعترف منذ البدء أن أوطاننا إذا كانت حقّاً هي تلك الأوطان التي تغمرنا بدفء حبّها، وتحيطنا بصنوف الرعاية بأجناسها، ومن قبل مختلف طوائف أناسها، فإن وطني الأوّل لم يعد ليبيا، ولم يكُنه هذا الوطن في يومٍ من الأيام، ولكنه بلا منازع: **سويسرا!** دون أن يعني هذا بالطبع أنّي لم أعشق ليبيا، لأننا لا نعشق أوطاننا لأنها الأجمل، أو الأنبل، أو الأعظم شأناً، ولكن ببساطة

Twitter: @alqareah

لأنها أوطاننا المجبولين بأنفاسها، المعجونين من طينتها. ولو لم يكن الأمر كذلك لما سخّرتُ نزيفي الدموي طوال تجربة إغترابي عبر العالم لأصنع لها مجداً في كتبٍ نالت إعتراف هذا العالم. ولكن للإضطهاد طعم السمّ، عندما يستمرّ هذا الإضطهاد بعد بلوغ المُريد من العمر عتيّاً يغدو الوطن غصّةً في القلب. فنحن لا نختار أوطاننا، ولكن أوطاننا هي التي تختارنا، وسويسرا ككلّ وطنٍ نبيل هي التي اختارتني أخيراً لتكون لي وطناً، كما اختارتني ليبيا يوماً لتكون لي وطناً بشهادة ولادة. ونحن لا نملك إلاّ أن نحبّ أوطاناً اقتصَّت منّا فدفعتنا إلى اغترابٍ هو خصلة رُسل نبوّة كما تُنبيء الكتب المقدّسة، ولكنّنا لا نملك إلاّ أن نصلّي إمتناناً لتلك الأوطان التي أجارتنا في محنة إغترابنا. وسويسرا بالنسبة لي هي هذا الوطن الذي شهدتُ فيه ميلادي الثاني فصارت لي مسقط رأس لا في الهويّة الرسمية وحسب، ولكن في الهوية الروحية أيضاً. فإذا كان الميلاد الثاني بعثٌ للحرّية في صميم الروح، فإن الحضور في وطنٍ كسويسرا هو حضورٌ في الفردوس المستعاد. ويبدو أن هذا هو سبب كفاح البروفيسور الألماني المستميت في سبيل الحصول على الجنسية السويسرية منذ ستة وعشرين عاماً. وكان يفشل في كل مرّة، ولكنّه يصرّ على معاودة الكرّة كل عام. وقد شاهدته في إحدى الفاضائيات وهو يدلي بتصريحٍ أثار إعجابي عندما قال أنه لن يعود إلى ألمانيا مهما حدث، وسوف يبقى في سويسرا إلى يوم الممات سواء أنال الجنسية أم لم ينلها. كان يعبّر عن روح الألمان الذين رأوا في

Twitter: @alqareah

سويسرا دوماً معبودةً. وكان يروق صديقي هارتموت فيندريخ أن يردّد وصية جدّته القائلة بأن سويسرا هي وطن الربّ حتى أنه اختار الإقامة في سويسرا منذ عقود أيضاً برغم موقف ألمانيا الرسمي الذي يكاد يكون معادياً لسويسرا خلافاً لكلّ دول الجوار الذي يفسّره البعض بالغيرة من سويسرا كفردوس سماوي على الأرض. ولم أكن لأصدّق نزعةً كهذه لو لم تفاجئني كاتبة ألمانية منذ ثلاثة عشر عاماً بمقالٍ في صحيفة «فرايتاغ» البرلينية تتناول فيها أعمالي الروائية لتنتهي إلى القول بأن دور سويسرا يكمن في رعايتها للأدباء لكي ينتجوا لها أدباً تفتقده كما حدث مع تجربتي. كان رأياً غريباً في تأويل السخاء السويسري لن أوافق عليه بدون تحفّظ. فتهيئة مناخ لإبداع المبدع لا يكمن في توفير الحوافز المادّية بقدر ما يسكن الرعاية المعنوية المترجَمة في الأخلاق السويسرية وفي روح الأمّة السويسرية التي تبدو فريدةً في الإحتفاظ بأنفس ما في الطبيعة البشرية وهو: روح الطفل! ففي المرّة التي أدليتُ فيا بتصريحٍ في جريدة «ليبراسيون» الفرنسية منذ سنوات إحتفاءً بصدور «المجوس» بالفرنسية متحدّثاً عن طبيعة هذا الشعب جواباً على سؤال الصحفي الموفد خصّيصاً لإجراء المقابلة لأعبّر عن رأيي فوجئتُ بالسويسريّين يتناقلون الرأي في مختلف الأوساط كأنه حدثٌ حقيقي، لأن صحفاً تناقلته عن «ليبراسيون» من ضمنها «جون أفريك» على ما أذكر فردّدوه واحتفوا به بعفويّتهم التقليدية وتباهوا به برغم أني لم أقُل في حقّهم إلاّ أقلّ ما يجب أن يُقال. وهو أمرٌ تكرّر عندما صدر كتاب «لماذا سويسرا؟» الصادر عن الرئاسة السويسرية

Twitter: @alqareah

حيث كنت أحد أهم إثنى عشر شخصية دولية اختارت الإقامة في سويسرا أُجريَت معهم مقابلات مطوّلة عن حياتهم وانطباعاتهم عن طبيعة أهل البلاد.

وفي عام 1998 كانت سويسرا ضيف الشرف في معرض فرانكفورت الدولي للكتاب في عيده الخمسيني، أي اليوبيل الذهبي وهو معرضٌ كما يعلم الجميع يعدُّ أكبر تظاهرة ثقافية موسمية على مستوى العالم. وكان من المقرّر أن يتكوّن الوفد الرسمي من أربعة أدباء وطنيّين يمثّلون القوميّات الأربع الرئيسية في وفدٍ يترأسه رئيس الدولة. ولكن الأوساط الثقافية والشعبية والسياسية أبت في تلك المرّة إلاّ أن تختارني ركناً خامساً في الوفد لتمثيل اللغات الأجنبية الأخرى في سويسرا. هذا برغم حضورٍ كثيف لكبار أدباء العالم يعيشون في سويسرا كالروس والصينيّين والأتراك والإنجليز والفرنسيّين والإسبان والألمان ومن كلّ الأجناس. وهو ما لم يحدث من قبل برغم جنسيّتي الليبيّة التي كانت تخضع حتى ذلك الوقت لحظرٍ ثقافيٍّ صارم لا يعلم الكثيرون اليوم أنه كان أقوى في العالم من الحصارين السياسي والإقتصادي بسبب وباء الإرهاب (بدليل أن رواية كـ«نزيف الحجر» ظلّت حبيسة أدراج دور النشر مترجمةً في أمريكا طوال عشر سنوات ولم يُفرَج عنها لترى النور بالإنجليزية إلاّ في 2001 أي بعد ثبوت عدم تورّط ليبيا في أحداث سبتمبر). فما الشفيع في هذا الإستثناء يا ترى؟ إنه ببساطة: **النصّ**!. النصّ هو الشهادة التي لا يعترف العالم المتحضّر بسواها، لأنها تنفي هوية الشخص، بل وتنفي الشخص ذاته. أمّا عندنا فالشخص هو المعبود، والنصّ هو ما

Twitter: @alqareah

لا وجود له لأننا لا نريد أن نكلّف أنفسنا عناء أن نقرأ برغم أن أول حرف في أبجديّة ديننا هو: «إقرأ!».

لا أريد أن أُحصي أفضال سويسرا على شخصي سواءً على مستوى الحكومة أو الأحزاب أو المؤسّسات الثقافية أو الأساط الأكاديمية والصحفية والشعبية، لأن في سويسرا تقيم أمّةٌ **تقرأ**، وذات نزعة نقديّة تقدّر قيمة ما تقرأ. لقد لمستُ ذلك في الحشود التي تتزاحم في كل مرّة تنعقد فيها ندوة حول أحد مؤلّفاتي. ندوات إذا كانت تُعقد بانتظام في كل المدن الأوروبية، بيد أنها في سويسرا بلغت عشرات الندوات في كل المدن الكبرى وفي بعض القرى أيضاً. في هذه الندوات الحافلة بالجدل حول الشأن الإنساني والنقاش الثريّ حول أسئلة الوجود الكبرى فقط استطعت أن أستعيد ثقتي بنفسي وإيماني بحقيقة ما أكتب. لم تخدعني مراسم التكريم لأنها باطل أباطيل، ولم أنخدع بالإحتفاء، ولكن لابدّ أن أستسلم لمجد الإنسان الأخلاقي كخصلةٍ في مسلك الإنسان السويسري. إنهم أطيافٌ بطبيعتهم، وما يدهشني أن تعاملني هذه الأطياف كأنّي نبيّ.

بلى! المبدع في واقع هؤلاء يعامَل كنبيّ، وإن لم يكن نبيّاً فعلى الأقلّ قدّيس!

كانوا يحيّونني أينما حللت، ويهبّون لنجدتي عند أبسط إيماء، ويدلّلون لي كلّ أمرٍ دنيوي بنيّة إنسانٍ لا يتمنّى لأخية الإنسان إلاّ أن يكون له خادماً دون مقابل. إنهم حقّاً من فئة أولئك الملائكة الذين بعث بهم الربّ ليغسلوا قدمَي المسيح بعد أن رفض عرض إبليس في

Twitter: @alqareah

الجبل. لقد أشعرني السويسريون أنهم ملائكة ربّ السماوات والأرض بعث بهم ليمسحوا عنّي وعثاء سفري الوجوديّ الطويل في صحراء هذا العالم، ويداووا نزيفي السخي الناتج عن طعنات السنين. فكيف لا أُجاهر بالإمتنان لملّة الملائكة هذه مقابل موقف أولئك الذين يفترض المنطق أن يكونوا لي في غربتي أهلاً فيتجاهلونني إلى هذا الحدّ الذي لم يحدث فيه يوماً أن تنازلوا مرة فحضروا ندوة من الندوات الكثيرة التي عُقدت للإحتفاء بأسفارٍ مجبولةٍ بروح وطنهم، كما لم يتنازلوا ولا مرة أيضاً فتفضّلوا بحضور مراسم تسلمي لجوائز دولية هي جوائز ليست لشخصي، ولكنها في ناموس كل الأمم جوائز لجناب الوطن المتمثل في شخص سليل الوطن. لم يحدث هذا في سويسرا فقط في المرّات الثلاث، كما لم يحدث في باريس ثلاث مرات أيضاً، ومرة في إيطاليا، ومرة أخرى في أبي ظبي، وأخيراً في القاهرة. فهل موقفٌ كهذا عداوة لمؤلف يمثّل في مثل هذه المواقف وطناً من قبل أناسٍ يمثّلون نظاماً لا وطناً، أم عداوة في الواقع للوطن؟

فكيف يُراد منّي أن أتشبّث بوطنٍ ناصبني العداء منذ المهد في مقابل وطنٍ أجارني من الوطن، واستنزل على نفسي فيوض الأمان: أمانٌ مغسولٌ بأنفاس أنفس ما في الوجود: **الحرية**؟ والدليل؟ الدليل تترجمه لفتة تبدو رمزية، ولكنها عميقة الدلالة: ففي اليوم المقرّر لاستلام جائزة الدولة الكبرى للآداب خرجت مع زوجتي إلى الحقول في نزهة فجر كل يوم، وعندما عدنا بعد مطلع الشمس

Twitter: @alqareah

وجدنا باب البيت مغموراً بباقة زهورٍ طازجةٍ سدّت الممرّ كلّه من فرط سخاء حجمها حتّى أنّنا اضطررنا لتوزيعها على سبع مزهريات داخل البيت فهل هي من السفير الليبي بالعاصمة «بيرن»؟ كلاّ بالطبع. الباقة الأسطورية تركها ساعي البريد بالباب بسبب غيابنا. وهي مُرسلة من إحدى الشركات الدولية المخوّلة بمثل هذه المناسبات. والراسل ليس سفير ليبيا المعتمد في سويسرا، ولكنّه السفير السويسري المعتمد بليبيا. مع الباقة وجدتُ بطاقة كُتب عليها بخطٍّ قوطيّ أنيق بالألمانية عبارة تقول ترجمتها: «**نحن فخورون بك!**». السفير السويسري لا يعبّر هنا عن شخصه، ولكنه يعبّر عن إرادة الشعب السويسري الذي يمثّله في بلدٍ كليبيا، كما السفير الليبي لا يمثّل في سويسرا نفسه، ولكن العُرف قضى أن يمثّل النظام السياسي الذي أوفده إلى الخارج مبعوثاً. وها هو لا يكلّف نفسه عناء حضور مراسم التسليم، بل ولا عناء إرسال بطاقة تهنئة مشفوعةً بباقة زهور كما فعل السفير المقيم في ما وراء بحر الروم. ليس هذا وحسب، ولكن أهل وطني لم يُضاعفوا من حملاتهم الظالمة ضدّ من شرّفهم في المحافل الدولية إلاّ بعد تتويج نضالي المميت في سبيل إعلاء شأنهم وشأن وطنهم إن كانوا وطنيّين فعلاً. وها هو أحد الجبناء الذين يكتبون في المواقع الإلكترونية يشنّ على شخصي هجوماً مسعوراً محشوّاً بالأكاذيب تحت إسمٍ مستعار هو «المخضرم» الذي أكثر ما حزنني أن يُقال لي أنه الإنسان الذي احترمته يوماً وهو فاضل المسعودي. وليته ساق مبرّراً أخلاقياً واحداً لحملته الغريبة، ولكنّه بدأها بأكذوبة

Twitter: @alqareah

دراستي على حساب الدولة في روسيا السوفييتّية، ليُنهيها بأكاذيب أخرى لا علاقة لها في الواقع بشخصي. وهكذا وجدت نفسي مع الزمن ضحيّة لحملات حاقدة مسعورة، كاذبة، أصابتني بالغثيان لا لأنها يمكن أن تنال من نَصّي أو صيتي، ولكن لأنها أخجلتني أمام العالم الذي لم يفهم هذا السرّ الذي يجعل أهل بلدٍ من البلدان يعمدون لاختلاق شخصيّة موهومةٍ لإنسانٍ كلّ ذنبه أنه شرّفهم في أقسى مجال وأصعبه منالاً وهو الإبداع، في ساحة يهيمن عليها المستحيل لأنها العالم الخاضع لقوانين المنافسة الأكثر صرامة في المسكونة، لا لشيء إلاّ لأن التقنية الألكترونية أتاحت لهؤلاء فرصة الكذب لإحساسهم بعدم وجود قصاص بدعوى حرية التعبير التي لن تعني هنا سوى «**حرّية الكذب**». في وقتٍ يرى فيه العالم كيف تُعبَد رموز الأوطان الأدبية لتكون هويةً وطنيّةً رديفةً للهوية القومية: إنجلترا شكسبير، فرنسا بالزاك، أمريكا فوكنر، روسيا دوستويفسكي، الهند طاغور، كولومبيا ماركيز، تشيلي بابلو نيرودا، ألمانيا غوته، مصر نجيب محفوظ، سودان الطيب صالح، سوريا أدونيس.. إلخ. لقد خلقت هذه الروح الحقديّة منّي إنساناً لم أعرفه في نفسي، ولا وجود له في الواقع. والمأساة أن الناس يصدّقون ما يقرأون لأن الأكذوبة عندما تتكرّركما يُقال تصبح في حقيقة. إنها تلك المأساة التي عانَى من ويلاتها الروائي الصيني الحائز على جائزة نوبل للآداب «مويان» وكانت سبباً لدعوته التي أثارت ضجّة في العالم وهي وجوب إخضاع الإنترنت لرقابة أخلاقيّة صارمة حمايةً للحقيقة

Twitter: @alqareah

من عبث الأشرار. وهو ما لم يكن ليحدث في حال النشر الصحفي التقليدي الذي يُخضع الفاعل للقصاص بحرف القانون في حال غياب الأدلّة. وأجد نفسي كضحيّة مضطرّاً أن أوافقه على ضرورة استحداث مثل هذه الرقابة، لأن التقنية تغدو عملاً لا أخلاقياً في ظلّ غياب خليفة الله في الإنسان وهو: **الضمير!**

ولكن تأبَى الأقدار إلاّ أن تحرمني من حضوري في هذا الوطن السخيّ (سويسرا) أيضاً. فها هي الظروف الصحّية التي قادتني إلى سويسرا يوماً تأبى إلاّ أن تكون السبب في خروجي الجديد من هذا الوطن لأحطّ الرحال في وطن أسلافي القدماء (الملثّمين) بالأندلس، لأناجي بحري الليبيّ الحميم من رحاب شاطئه الآخر.

ولكن هيهات! فسويسرا هي الفردوس الذي لن يُكتب لي أن أتخلّى عنه لئلاّ يكون لي فردوساً مفقوداً، لا لأن أوراقه الثبوتيّة وثيقةٌ في جيبي، ولكن لأن روحه هويّةٌ في قلبي!

س 19 ـ ما بين الروائي والسياسة، والرواية والسياسة أين إبراهيم الكوني من السياسة؟ ولماذا دخلت المعترك السياسي عقب ما عُرف بالربيع العربي، خاصة عبر الإعلام. ما الدافع لتصريحاتكم المثيرة؟ لماذا نراك تقف في صفّ أدونيس وهيكل وعطوان من منتقدي هذا الربيع؟ ما الذي لم يُفهم من تصريحاتك؟

ـ اللّهم أجرني من مستنقعٍ كالسياسة! لا أعرف كيف استطاع البعض أن يختلقوا هذه الكذبة. وعداوتي لهذه الجنّية الجهنّمية قديمة وتسري في كل كتبي سواء الروائي منها أو النظري. هل تذكرون

Twitter: @alqareah

الأمثولة التي وضعتها استشهاداً لرواية «الدمية» عن الحكيم الصيني الذي تروي الطاويّة كيف عرض عليه إمبراطور ما تحت قبّة السماء (وهو إسم الصين في زمن ما قبل التاريخ) أن يتنازل له عن حُكم الإمبراطورية فاستمهله الحكيم ثمّ ذهب وربط على صدره لوح حجرٍ ثقيل ليرمي بنفسه في النهر مفضّلاً الموت على تولّي حكم إمبراطوريّة! هذا يعني أن الحكم لا يليق إلاّ بعبد، لأن من أعجزه أن يحكم نفسه وحده يذهب لُحاول أن يحكم العالم. ويبدو أن سوء الفهم المؤسف لموقفي من السياسة إنّما يكمن في الخطاب: فالأغلبية تجهل طبيعة هذا الخطاب بما في ذلك أمّة الصحفيّين الذين ينقلون عنّي هذه التصريحات بالأسلوب الخطأ. وهو خطأٌ ناجمٌ عن ثقافة الصحفيّين السطحيّة لا في العالم العربي وحده، ولكن في الغرب أيضاً. وهذا هو سرّ عزوفي عن محاورتهم الذي يعرفه صحفيّو الغرب أكثر من صحفيّي العرب. فخطابي إستعاريّ. واستعاري لأني روائي. ولغة الرواية هي الإستعارة. وأن تكون اللغة استعارية يعني أن تتضمّن بُعْدَين إثنين: فلسفي ووجودي. وهذا يعني منطقياً التضحية بالمسلّمات والقفز إلى الأعلى لملامسة الحدود القصوى التي تسكن فضاء الآفاق. هنا يحدث سوء الفهم. فأرذل ما فعلتْه السياسة هو تسييس الأدب على حساب الأسطورة التي كانت منذ الأزل روح الأدب، بل شرط الأدب منذ وصيّة أرسطو الذائعة الصيت. ولم تكتفِ السياسة بهذه الخطيئة، ولكنّها سيّست العالم بأسره. والتسييس بحدّ ذاته كان يُمكن أن يُغتفر لو لم يكن في حقيقته **تزييفاً**. وهو شرٌّ

Twitter: @alqareah

إستعارته السياسة من معبودتها الأيديولوجيا التي لا أُبالغ إذا وصفتها بأنها ورم العصر الحديث. ولكن السياسة في حلفها مع الأيديولوجيا تثنية لا تكتمل إن لم تنتهِ إلى الصفقة الشرّيرة مع ركنٍ ثالث في السيرة وهو **السلطة** ليستقيم العهد في معادلة تقول أن الأيديولوجيا تزوير الواقع الإنساني، والسياسة حرفة من أعجزه أن يحترف أي حرفة، والسلطة تتويجٌ لكليهما لأنها تلك الخطيئة المعادية للحرية بالسليقة والمغتصبة لصلاحيّات ربّ السماوات والأرض. وأعتقد أن من يقرأ أعمالي الأدبية والفلسفية سوف يكتشف أنه إلياذة موزّعة على عشرات الكتب على مدى سبعة وأربعين عاماً من الكتابة، وكلّها إدانة عميقة لهذا الثالوث الرهيب. فكيف أُتّهم باحتراف السياسة أو قبول منصبٍ في سلطة أو اعتناق أيديولوجيا يحاول الجهلة أن يلصقوها بي طوال عقودٍ وعقود؟ ألا أبدو غريباً في واقع بلادي التي يصرّ أهلها أن يلاحقوني بالتّهم الظالمة والأحكام المسبقة في ظلّ ثلاثة أنظمة مختلفة حتى الآن؟ ألستُ محقّاً في كتابة مذكّرات لاستجلاء هذه السيرة علّ نزيف الذاكرة يفلح في تذكير المؤمنين؟

ولكن ها هي الأسئلة العبثية تكشف عن جهلٍ مُطبق بمجلّدين من المذكّرات كأنّ أهلي في ليبيا مصرّون على كفرهم بالحقيقة وعدم الجدوى في كتابة المزامير؟ وهو أمرٌ يبرهن على تشبّث الناس بضلالهم كأنّه دينٌ منزّل، ومن العبث التشكيك في يقينهم هذا لا لأنهم لا يقدرون، ولكن لأنهم لا يريدون. واللاإرادة هو الموقف الأسهل لأنه يُجير من تغيير ما بالنفس الذي حثّ عليه الكتاب الكريم.

Twitter: @alqareah

أمّا نزولي إلى حضيض السياسة الذي يتّهمني به البعض فباطل أباطيل. وموقفي من الثورات العربية يختلف جذريّاً عن مواقف الروّاد الذين ذكرت. ومن يتابعون ما أكتب باللغة العربية أو باللغات الأجنبية طوال السنتين والنصف السالفتين سوف يدرك أن لا أحد مجّد البوعزيزي كرمز لهذه الإنتفاضات كما فعلت. حتى أني أطلقت عليه الإسم الذي صار عنواناً شائعاً في الصحافة الغربية وهو «مسيح هذا الزمان». كما لم يطُف كاتبٌ عربيّ قارّات العالم الأربع (أوروبا ـ أمريكا ـ إفريقيا ـ آسيا) مبشّراً وموضّحاً ومتأمّلاً إستجابةً لعشرات الدعوات الرسمية التي تلقّيتها من مختلف البلدان، كما فعلت، حاملاً أيضاً صليب ظروفي الصحّية المزمنة على ظهري، متحاملاً على نفسي، مُستنزفاً إلى درجة لو صرخ في أذني إنسان لسقطتُ ميّتاً مع الإعتذار لـ كيركيغور. أمّا المقابلات الصحفية على هامش هذه المناسبات الدولية فبالعشرات إن لم يكن بالمئات سيّما إذا أضفنا عمليات نقل المقابلة الواحدة من صحيفة إلى أخرى. هذا إلى جانب المداخلات الإذاعية المسموع منها والمرئي. وهي **حملة** مازالت تُعتبر في هذه القارّات مرجعيّةً. ناهيك عن المقالات المنشورة في كبريات الصحف الأوروبّية مثل الفرنسيّتين: «لوموند» و«ليبراسيون» أو السوسيريّتين: «لوتان» أو: «نويي زورخرزايتونغ»، أو الصحف الألمانية أو النمساوية أو البولندية إلخ. ولكن ليس ذنبي أن يجهل أهلي في ليبيا ما فعلت من أجلهم لا طمعاً في منصب أو طلباً لغنيمة، أو بحثاً عن أيّ حُطامِ دنيا، ولكن أداءً لواجب: أداءً لذلك

Twitter: @alqareah

الواجب الذي علّمني معلّمي «كانط» أننا لا نأتي إلى هذه الدنيا إلاّ لتأديته مضحّين في سبيل ذلك بالسعادة.

ويبدو أن سبب هذا الجهل المخجل هو انعدام وجود أي صلة بين الغرب والشرق، بل بين العالم والشرق، لا ليبيا وحدها. وهو ما اكتشفته أخيراً وأحزنني كثيراً، لأن حضوري كنصٍّ في الغرب أقوى من حضوري في بلدان العرب برغم أني أكتب باللغة العربية. وهي محنة أخرى تُضاف إلى سجلّ إغترابي الثخين والموجع. وهي قطيعة، كما اكتشفت، ليست إعلاميّة وحسب، ولكنّها ثقافية. ليست ثقافية فقط، ولكنها **حضارية** في وقتٍ نُمَنّي فيه أنفسنا بوجودنا في العالم ووجود العالم فينا، بل ووجودنا مع العالم في العصر. ولكن هيهات، لأن التجربة برهنت أننا خارج العالم برغم الفضائيّات ووسائل الإتصال وهيمنة معبودة العصر: التقنية. وهو واقعٌ يستثير حزمة أسئلة حول موقعنا الفعليّ من هذا العالم.

فكيف يُساء بي الظنّ إلى الحدّ الذي أُتَّهَم فيه بعداوة «الربيع العربي» بعد كلّ النزيف الذي دفعته من أجله؟ والسرّ إنّما يكمن في الخطاب الفلسفي الذي يتكلّم بلسان المفاهيم وليس بلغة الحرف الميّت والمميت. فالكلّ سُيفاجأ إذا قلت أن كل الجدل الدائر الآن مردّه إلى الجهل بحقيقة الثورة التي انتهت بإسقاط الأنظمة كما تُملي طبيعة الأشياء، والفوضى التي نشهدها منذ سقوط الأنظمة لا علاقة لها بالثورة التي أنهت مهمّتها وغابت من الساحة، ولكن ما نشهده هو شبح السلطة التي قُلت فيها منذ قليل ما لم يقله مالكٌ في الخمر.

Twitter: @alqareah

والأشباح التي نشاهدها على المسرح منذ سقوط الأنظمة ليسوا ثوّاراً، ولكنّهم مُريدو **سلطة**. وإرادة السلطة كما نعلم هي ظمأٌ يسكن النفس الإنسانية عميقاً مثله مثل الهَوَس بالتغيير الذي يتحقّق بالثورة. فرسالة الثورة هي إشباع الحاجة الغيبيّة إلى التغيير. والثورة تنتهي بحدوث هذا التغيير. أمّا ما يتلو هذا الإنجاز فهو ليس من شأن الثورة، ولكنه شأن السلطة. سلطة معادية بطبيعتها لروح الثورة، أي للحرية، لأن غايتها الأولى تنظيم جهاز الشرطة الذي تحدّث عنه كامو عندما قال: «كلّنا نبدأ بطلب العدالة، ولكننا ننتهي بتنظيم جهاز للشرطة». فرسالة السلطة كي تختلي بالغنيمة هي **القمع**. ولهذا يبدو حضور الثورة رومانسياً دوماً لأنه تجربة حرّية قبل أن تنتكس هذه الحرية بقيام السلطة. ولهذا فنحن لا نحيا الحرية إلاّ في **سيرورة** الثورة. أي الفسحة الفاصلة بين إندلاع الثورة لإسقاط نظامٍ مّا، وسقوط هذا النظام. إنه برزخٌ قصير العمر يروقني دائماً أن أشبّهه بالمسافة التي على سيزيف أن يقطعها من موقعه في الجبل وبين موقع الصخرة التي عليه أن يستعيدها في الحضيض. ولكن الإنسان يرفض الإعتراف بهذه الحقيقة لأنه لا يريد أن يفقد الإحساس بالحرّية المبثوث في **حرف الثورة** لا في نتيجة الثورة. وما يزيد الوضع تراجيديّةً هو قيام السلطة الجديدة باستغلال أسطورة الثورة أبشع استغلال عندما تنصّب الثورة بعبعاً لإرهاب كل من يخالفها الرأي مستجيرةً بثورةٍ لم يعُد لها وجود في الواقع. ولهذا فإن النقد الموجّه

Twitter: @alqareah

لممارسات السلطة الجديدة يُعتبر في عُرف واقعٍ كهذا كفراً، لأن التهمة دائماً جاهزة وهي **مُعاداة الثورة!**

والأسوأ من كل شيء هو النتيجة التي ستؤدّي إليها هذه السياسة وهو: **القمع!**

وجيلنا عاش هذه التجربة حرفيّاً في ظلّ النظام السابق. أي أنها سياسة سوف تنتهي إلى إقامة سلطة **إستبدادية** جديدة لن تختلف عن السلطة الإستبدادية السابقة سوى في الشكل. والعراق نموذجٌ يبرهن أنّنا أمّة ليست قادرة على قبول مبدأ الديمقراطية، لأن ما نُحسنه بامتياز هو التعصُّب بأجناسه. فمن تعصُّبٍ قوميٍّ عرقيّ إلى تعصّب دينيّ، أو تعصّب طائفي، أو حتى قَبَلي. وهي ثقافة تشكّل خطراً جسيماً على مستقبل أمم المنطقة.

ويشرّفني أن أقف من السلطة الجديدة، ومن أيّ سلطةٍ على الإطلاق، **موقفاً نقديّاً**، لأن السكوت على روح الغنيمة وعلى كل الخطايا في هذه المرحلة قبولٌ بقيام نظام إستبدادي بديل. وهو ما يعني أن موقفي استنكارٌ لما تفعله السياسة بمبدأٍ نبيلٍ هو تلك القيمة التي أبدعتها دماء شهداء هم فرسانٌ انتقموا لأحلامهم القتيلة لا في سبيل نفعٍ أو نيلٍ لغنيمة.

وأقول لكلّ الذين يحاولون تشويه هذا الموقف اليوم أنّي أزهد الناس في كلّ ما يبدو في نظر الأغيار ذي قيمة. وكما لم أنافس أحداً في السابق في شيء، فلهم أن يطمئنّوا لأني لا أنوي أن أنافسهم اليوم أيضاً في أي شيء.

Twitter: @alqareah

وعلّ ما سيُدهش الشرفاء هو موقف النظام الجديد المُعادي لشخصي متبنّياً موقف النظام السابق منّي حرفيّاً. فعند اندلاع شرر الثورة في يوم 17 فبراير توافق وجودي بعُمان تلبيةً لدعوة من معرض مسقط الدولي للكتاب. من هناك أصدرتُ بياني المؤيّد للثورة في يوم محاضرتي المؤرّخة في الثاني والعشرين من الشهر ذاته متوّجةً بوقفة على أرواح الشهداء. وعندما عدت إلى سويسرا بعد أيام قاتلتُ وحيداً في سبيل تحرير إنتماء السفارة إلى النظام فقاومني ضِعاف النفوس بشراسة. وهو ما كان متوقّعاً حتّى أنّي لم أُفلح في تحقيق الهدف إلاّ عند وصول زميلٍ لي من طرابلس كان شجاعاً بما يكفي كي يكون لي سنداً في هذه المهمّة. فماذا كان القصاص المستحقّ على هذا العمل؟ الجواب سيبدو مفارقة عبثيّة بكلّ المقاييس. فالملحق المالي الذي كان قد أوقف صرف معاشي منذ لحظة صدور البيان بوحيٍ من النظام، وهو نفسه الذي لعب دور البطولة في رفض الإعتراف بالثورة مع زميله الأمني، وهو نفسه الذي قاد الحرب ضدّ شخصي بعد نجاح الثورة ليوحي للسفير الجديد بإيقاف هذا القُوْت الذي كان لي علقماً مريراً على الدوام. والحُجّة؟ الحجّة مضحكة وهي أنّي لا أعمل بالسفارة لمجرّد أنّي لا أتردّد على السفارة لأحتسي القهوة أو أثرثر بالنمائم وأمارس الكيد حتى نهاية الدوام على طريقة هؤلاء! ولم يكلّف السفير الجديد نفسه عناء فهم الحقيقة التي يعرفها الجميع وهي أن السفير الحقيقي للوطن هو الإنسان الذي شرّف وطنه، لا الإنسان الذي مارسَ فنون الإساءة للوطن كما فعل

Twitter: @alqareah

جلّ أعضاء البعثات الدبلوماسيّة الليبيّة في الخارج طوال الأعوام الماضية. وأسوأ ما في الأمر أن يتّخذ رجل يدّعي احتراف القانون كسفير لليبيا الجديدة في سويسرا قراراً لا يملكه دون الرجوع إلى وزارة الخارجيّة بالداخل ولا لرئاسة مجلس الوزراء التي صدر عنها قرار تعييني في

السابق مستغلاًّ غياب الدولة مترجماً نزعة الإنتقام اللّامبرّر ومستثمراً روح الفوضى الشاملة التي خلطت الحابل بالنابل في البلاد فغابت فيها أبسط أبجديّات العدالة الإداريّة، فكيف بالعدالة السياسيّة؟ ولا يدري أمثال هؤلاء أن التاريخ يُعيد نفسه، وما فعلوه في حقّي كان قد جرّبه أمثالهم في ظلّ النظام السابق عندما لجأوا إلى الإجراء ذاته ليستمرّ الحرمان من القوت الشقيّ لأربعة أعوام كاملة كما حدث في الثمانينات. فهل متُّ جوعاً؟ لقد أرادوا لي الموت بالأمس كما فعلوا اليوم، ولا يدرون أن ما فعلوه بي كانت العناية الإلهية تقلبه لي خلاصاً في كل مرة. وليس هناك خلاص يمكن أن تجود به العناية الإلهية على مخلوقٍ أرضيّ أعظم من ..**الحرّية!**

فما أسعدني بحرمانٍ من معاشٍ يُعطَى كأنّه هِبة أو حسنات، وما أشقاهم جميعاً باغتنام ما هو أكبر حتّى من المعاش! لأن وصية علي ابن أبي طالب التي كانت لي تميمةً تقول: «لقد استعنّا على قضاء حوائجنا بالإستغناء عنها!».

س 11 ـ ما علاقة إبراهيم الكوني بليبيا ما بعد القذّافي وبثورة فبراير وبالدولة الليبيّة الحالية، وما ردّك على ما يُتقوَّل حول موقفك من ثورة شعبك؟

Twitter: @alqareah

ـ التصريحات التي أقامَت الدنيا ولم تُقعدها هي مزوّرة بحبر الصحفّيين الذين يجهلون لا طبيعة الخطاب وحسب، ولكن تاريخ الثورات أيضاً ناهيك عن رموز الثورات. فالعبارة القائلة: «لا يجني ثمار الثورات سوى أسفل السفَلة» كانت استشهاداً منسوباً لزعيم الثورة الفرنسية «روبسبيير» كثائر وكشاهد عيان على المنعطف الإرهابي الذي سارت فيه أعظم ثورات الأزمنة الحديثة. وهو حكمٌ لم يكن بحقّ من قام بالثورة، ولكن بحقّ تلك السلطة التي تستثمر دماء الشهداء لتستولي على الغنيمة بإسمهم؛ وليس أدَلّ على هذا من إستهانة السلطات التي تعقب الثورات بتضحيات الثوّار الذين امتشقوا السلاح من جانب، والإستخفاف أيضاً بسُجناء الرأي الذين دفعوا الثمن باهظاً إبّان هيمنة النظام كما حدث عندنا؛ لأن الثوّار الحقيقيين دوماً شرفاء إلى جانب حقيقتهم كشجعان. ويُحزنني أن تنقل وسائل الإعلام الأجنبية آرائي صحيحةً، في حين يخفق من أخاطبهم بلغتهم في نقلها صحيحةً في كلّ مرة أتنازل فيها عن يقيني المبدئي بالإبتعاد عن وسائل الإعلام حتّى آمنت بأن التحريف لعنة ميتافيزيائية تطاردني، ربّما قصاصاً جزاء تنازلي عن مبدأ إتّخذته تميمةً وهو الصمت. وقد إختلفت مع أدونيس في مؤتمر الأدب العالمي في كوبنهاجن في شأن تدخّل الناتو لدعم الثورة، وقلت أنني لست سعيداً أن تُقصف بلدي من أيّ قوّة أجنبيّة ولكن على الإنسان الذي أُصيبَ بورمٍ خبيثٍ أن يحتمل تدخّل جراحي خطير للتخلّص من الداء. وكرّرتُ ذلك في أكثر من مناسبة أخرى. وقد حاولت وسائل

Twitter: @alqareah

الإعلام العربية أن تشعل بيني وبين أدونيس فتنة عندما نقلت تصريحاً عن إختلافنا في وجهة نظر محرَّفاً لتُضيف أن ذلك حدث في مؤتمر آخر لم يحضره معي أدونيس أصلاً وهو مؤتمر الأدب العالمي في جنوب إفريقيا، دوربان، تحديداً.

وأعتقد أن الشراهة إلى السلطة التي لمسها الثوّار الشرفاء هي ما دفعهم للتشبّث بالسلاح لإجارة الثورة من هؤلاء. ولكن طبيعة الدفاع اللئيمة لابدّ أن تخذلهم، لأن المبالغة في الدفاع عن النفس هو في الواقع عدوان. والدفاع عن النفس في موقفهم هو دفاعٌ عن الثورة التي لا يدرون أنها لفظت أنفاس النزع الأخير بمجرّد سقوط النظام.

وما يحدث الآن هو صراعٌ قديمٌ قدم الثورات وهو **صراع الدولة والثورة الذي لم ينتهِ يوماً في صالح أيّ ثورة!**. والتراجيديا التي لا مجال لاجتنابها إنما تكمن هنا. وما الأصوات التي ترتفع في واقع الثورات مناديةً بـ«**الثورة المستمرّة**» سوى أكبر دليل على ذلك. فهل يعني التنبيه إلى مثل هذه الطبيعة الملتبَسة للثورة عداء للثورة؟

هل يمكن أن يُعادي الثورة الإنسان الذي كتب «فرسان الأحلام القتيلة» الذي أُعتُبِر في الغرب أقوى متن روائي عن «الربيع العربي»، كما اعتبر هذا الغرب قبلها رواية «الورم» أقوى نصّ روائي تنبّأ بهذا «الربيع العربي»؟ ألاَ يدلّ هذا على جهلنا بأنفسنا وإصرارنا على النيل من الحقيقة ظنّاً منّا بأنّنا إنّما ننالُ من الإنسان الذي كانت له هذه الحقيقة ديناً وما تزال؟

لقد برهن فارس هذا المتن الروائي الإنسان النبيل **سالم جحا**

Twitter: @alqareah

على الروح الأخلاقية التي تصلح أن يكون فيها هو النموذج المثالي المشرّف لكل ثورة حقيقية. لقد علّق البطل على صدر الوطن وساماً تاريخياً يبدو معه الوسام الذي حاولتُ أن أعلّقه على صدره بالرواية متواضعاً برغم قيمته الأدبية والتاريخية أيضاً. فمن يجرؤ أن يعادي ثورة كان لها مثل هذا الإنسان نموذجاً اختزل في شخصه ألوف النماذج، سواء مَنْ دفع الحياة ثمناً، أو من بقي على قيد الحياة؟ فالبطولة ليست في حمل السلاح وحده، ولكن في الزهد في الفاكهة التي تعقب انتصاراً يحقّقه السلاح. وها هو سالم جحا يُحيي أحلام الجيل القتيلة بمسلكه، بنبله، بعفافه، بزُهده في كلّ ماله صلة بحُطام الدنيا، بعد أن أوقف نزيف هذه الأحلام بسلاحه الذي تخلّى عنه ما أن حقّق الخلاص لأحلام أبناء الجيل. فتحيّة له على بطولاته، وتحية أخرى على روح التخلّي، وتحيّة أقوى على آرائه الجريئة في مفهوم العدالة بشقّيها الإنتقالي والإلهيّ، وفي المصالحة الوطنيّة، وفي مفهوم النزاهة، وفي العزل، وفي حبّه للعُزلة، ولأمنّا الكبرى الطبيعة، لأن هذه الخصال هي من سجيّة إنسانٍ إحتفظ (برغم كل البهتان، وكل الزلازل، وبرغم التحديق في الموت) بروح الشاعر، وبذلك الكنز النفيس الذي أسماه الحكماء: **روح الطفل!** لأن الشاعر بالفطرة ثائر، والثائر بالهويّة شاعر، لأنهما شريكان في التوق إلى معبودةٍ خالدةٍ واحدة هي: **الحرية!**

س 12 ـ أنت كنت دائماً تحبّ صادق النيهوم، وعلى علاقة به منذ بزغ كعلم ليبي، وقد رافقت جثمانه على مثواه الأخير والتقيتك في بنغازي، ثم كتبت ما كتبت عنه يوم كنتَ ضيف شرف في الندوة

Twitter: @alqareah

التي نظّمتها دار الكتب الوطنية زمن الشويهدي. ما علاقتك بالصادق النيهوم؟ هل تستطيع أن تستعيد بعضاً من وقائع هذه العلاقة على المستويين الشخصي والفكري؟

ـ صادق إنسانٌ ليس من هذا العالم. وكان أنقى خلق الله قلباً، وأنزههم مسلكاً، وأنبلهم خلقاً، وأصدقهم علاقةً. لقد كان أديباً بالمفهومين المبثوثين في هذه الكلمة العبقرية: أي الأدب بالمفهوم الأخلاقي إلى جانب الأدب كمفهوم إبداعي. وكان ذو روح مرحةٍ مجبولةٍ بسخريةٍ فلسفيّة عميقة تُحيل الجلسة في حضرته متعةً سامية لأنها مجدوحةٌ دوماً بمعرفةٍ. وهو في حياته الدنيوية، لهذا السبب، طفل. روح طفولة مجبولةٍ بالرومانسيّة والشعر تسعى بين الناس على قدمين. فلم يحدث أن رأيته يوماً غاضباً منذ عرفته في مؤتمر الأدباء الأول 1968 إبّان العهد الملكي إلى أن أودعتُه مثواه الأخير في بنغازي عام 1994م. ولا أذكر أن شعاع الكنز الذي يسكنه عميقاً والمترجَم في بسمته الأبدية قد انطفأ في أي يومٍ إلتقيته فيه. وهو المبدع الوحيد من بين كل مبدعيّ العالم شرقه وغربه الذين عرفتهم الذي لا يخون سجيّته بدليل أنه يكتب كما يتحدّث، ويتحدّث كما يكتب، ويحيا كما يكتب، ويكتب كما يحيا. أمّا الكتابة لديه فطقسٌ حقيقيّ مميّز: إنه يكتب كأنّه يرسم لوحة، أو ينحت تمثالاً. فكم مرة اجتمعنا خلال هذا التاريخ في طرابلس أو في بيروت، أو في جنيف، لينقش متونه في حضوري! كان يروقه أن يفيض على المكان بذخيرة مرحٍ مستعارٍ من السعادة الأبديّة التي تسكنه دون أن يُفلت زمام فلسفته في التأويل والتحليل والتشكيك في المسلّمات كما يليق

Twitter: @alqareah

بكلّ فيلسوف حقيقي. ولكن حضوره السخيّ في حضرة الخلّ لم يكُن ليحول دون تردّده بين اللحظة والأخرى على محراب المعبد ليسجّل جملة جديدة في القراطيس المنثورة على المائدة الموضوعة في الجوار. وهي مراسم يمكن أن تستمر إلى حين إنجاز النصّ في تلك الفسيفساء التي كانت شعرة شمشون في كلّ متونه. وممارسة الإبداع على هذا النحو إبتكارٌ نيهوميٌّ بحت لا يخلو من دلالة فلسفيّة أيضاً. إنه زواج المتعَتَين: متعة روحيّة نصّبها أفلاطون شرطاً للسعادة وهي متعة مجالسة الصديق، ومُتعة التأمّل التي نصّبها آنكساغور شرطاً لحضور الحقيقة في الوجود. وزواج القطبين كفيلٌ بتحقيق الحرّية في بُعْدِ حميميّةٍ وَجْدِيّة كانت دوماً حلم الأمّة الفانية في نيل حقيقة الوجود. فالحرّية من الطبيعي أن تكون معبودةً أولى في ناموس إنسانٍ بخصال صادق: إنسانٌ ذاق طعم اليُتْم مبكّراً ليتحوّل هذا اليُتْم في اللاوعي يُتْماً ببُعْدٍ وجودي. ثمّ اغترب مبكّراً أيضاً فدفع مقابل هذا الإغتراب ثمناً غالياً. ثمّ عاش تجربة اغترابٍ أشرّ يوم تأهّب ليقول للعالم كلمته، ولكن العالم تنكّر له لأن صوته تزامن مع بداية إغتراب الهوية الوطنيّة التي حملها كالحيّة في جيبه طوال تجواله الموجع. وعندما حاول أن يؤدّي واجباً نحو الوطن بالإسهام في إنقاذ ما يمكن إنقاذه صارت له هذه المحاولة أيضاً تهمةً وحجّةً لاغترابٍ جديدٍ لا في أوساط الأغراب وحسب هذه المرّة، ولكن في أوساط ذوي القربَى أيضاً. فيالها من ضحيّة هذه الضحيّة الملفّقة من كلّ هذه الإغترابات المركّبة!

Twitter: @alqareah

هذا الصليب المركّب كان لكلينا هويّةً أخرى مشتركة إلى جانب صليبٍ إغترابيٍّ آخر على الصعيد الشخصيّ تمثّل في «خطيئة الإرتباط بقرينةٍ من ثقافةٍ مختلفة» كما كان يسمّي هذه التجربة التي تبدو رومانسيّةً من ناحية جماليّة، ولكنّها تراجيديّة من ناحية عمليّة. وقد أسعدني أن أراه قد صحّح هذه الخطيئة مع بداية الثمانينات فتبدّى سعيداً برفقة تلك القرينة الفذّة التي عوّضته الحرمان من السعادة في كنف الدفء العائلي في أعوامه الأخيرة. إنها أوديت النيهوم التي اعترفت لي يوم فُجِعَتْ فيه كم كانت تتمنّى لو اقترف في حقّها أبسط خطأً لكي تتذكّره بعد غيابه فيهوّن عليها فجيعتها فيه بعد وفاته. وعلّ المرّة الوحيدة التي رأيته فيها منفعلاً يوم مررتُ عليه في جنيف قادماً من طرابلس في طريقي إلى موسكو عام 1990 ليوجّه لي السؤال التقليدي عن آخر أخبار الوضع في الوطن. وعندما أجبتُه بأن الزعيم يتحدّث عن مرحلة العشرين سنة القادمة في مقابل العشرين سنة السالفة هبّ واقفاً ليحتجّ بأعلى صوت: «هذا يعني أنّه يخطّط للإستحواذ على أعمار أبنائنا بعد أن استولى على أعمارنا!».

لقد كان غيابه عن واقعنا الثقافي العربي خسارةً جسيمة ما لبث أهل البهتان أن احتفوا بها كما حدث عند تزامن مصادرة كل كتبه في بلدٍ يتباهى بحرّية الرأي مثل لبنان مع إعلان نبأ وفاته! أمّا كتبه في بلاده فكانت ضحيّة هذا المصير منذ العهد الملكي مروراً بعهد إغتراب الوطن الكبير. لقد تناولتُ فصولاً سخيّة من ملحمة هذه الشخصيّة الفذّة في مداخلتي يوم إحتفاء المكتبة الوطنيّة ببنغازي

Twitter: @alqareah

المعنوَنَة بـ«أوليس الذي لم تنتظره بنيلوب» المنشورة بكتابي «وطني صحراءٌ كبرى»، وكذلك في الجزئين الصادرين حتى الآن من المذكّرات المعنونة بـ«عدوس السُّرَى»، وكذلك النيّة في الإستمرار بتناول سيرة الرجل بالجزء الثالث أيضاً. وهو ما يدلّ على ثراء صادق لا على المستويين الإبداعي والدنيوي وحسب، ولكن على المستويين الروحي والأخلاقي أيضاً. فإلى جانب العمق الروحي تحلّى النيهوم بخصلة نادرة في هذا الزمان وهي: **التسامح**. التسامح إزاء الآخر إجمالاً، آخر الهوية الثقافية تحديداً. ليس تسامحاً في العلاقة مع هذا الآخر وحسب، ولكنه **فضولٌ** لمعرفة الآخر. هذا الفضول الذي كان منذ الأزل سرّ تقبّل الآخر. ولا أنسى أن هذه النزعة كانت سبب تعارفنا عام 1968 أثناء إنعقاد مؤتمر الأدباء الأول الذي كان هو نجمه بامتياز. فبعد إلقائي لمحاضرة عن فلكلور الطوارق تقدّم مني ليُحيّيني كعبّراً عن رغبته في تعلّم لغة الطوارق. وفي عام 1971 حدّثني عن خطورة خطط الدولة في توطين القوم، وطلب منّي أن أحذّر أشياخ القبائل من هذا الشَّرَك الذي سيُفقدَهم أنبل ميزة كانت لأمم الرُّحّل رأس مال وهي الحرّية. أمّا إستنكاره لمحاولة النظام تعريب أمازيغ الشمال فيشهد بها آل العزّابي (بزوارة) الذين ربطتهم به علاقات إنسانية حميمة استمرّت إلى يوم رحيله. وهذا التعاطف المبدئي هو الذي غذّى موقفه الشجاع في تعيين عناصر من المعارضة الوطنية بالخارج مثل فاضل المسعودي بـ«دار المختار» للنشر بجنيف قبل أن يلوذ هؤلاء بالفرار عند قيام النظام

Twitter: @alqareah

بتصفيات عام 1979 الجنونيّة. وهو ما جرّ عليه سخط اللجان الثورية التي وضعته في قائمة المطلوبين للتصفية بدعوى إيوائه لأعداء الثورة. ولمّا كان النظام قد فقد السيطرة الفعلية على العناصر الظامئة لسفك الدمّ فقد أوعز لصديق الصادق السيّد يوسف الدبري لكي يستدرجه إلى الداخل قبل حدوث مالا تُحمد عقباه. وقد حدّثني الصادق كيف رفض دعوة صديقه يوسف إحتجاجاً على نزيف دم الأبرياء. ولكن الدبري عاد يلحّ في كل مرّة ولم يصارحه بحقيقة الدعوة إلاّ عندما أعلن له هاتفياً بأن تلك رغبة الزعيم حرصاً على حياته المهدّدة من قبل عناصر لم يعد قادراً على إيقافهم عند حدّهم. وكم آلمني أن ينبري أولئك الذين أحسن لهم في محنة إغترابهم بشنّ هجومٍ ظالمٍ على شخصه تشفّياً بمماته، كأنّ الموت ليس القصاص الذي ينتظرنا جميعاً جزاء ميلادنا في هذا الوجود!

الخلاصة أن بليّة إنسان كـ صادق النيهوم هو حضوره في الزمان الخطأ، ولا أقول المكان الخطأ كما يتندّر الكثيرون في ليبيا وفي العالم العربي. والزمان الخطأ هو ذلك الزمان الذي يبصمنا بأختام الضياع. بلى لقد عشت مع النيهوم زمناً ضائعاً بكلّ المقاييس، يبدو أشرس ضياعاً من ضياع جيل أدباء مطلع القرن الذي فجّرته غرترود ستاين في برزخ ما بين الحربين العالميّتين فصار علامةً ميّزت أدباء ذاك الزمان أمثال همنجواي، وريمارك، و وولف، وفوكنر، وباسوس، وميللر، وتوماس إسترنس إليوت ومعلّمه الأوّل أزرا باوند. وإذا كان ضياع جيل هذه القافلة الرائدة بسبب تخلخل القيَم

Twitter: @alqareah

الوجودية والإنسانيّة الناجم عن جنون الظمأ إلى الحرب والدمار النفسي والروحي الناتج عنها، فإن ضياع جيلنا كان بسبب صعود نجم إرادة السلطة التي لابدّ أن تنتهي بتشييد كيان الإستبداد وما يُصاحب هذه السيرورة من **إماتة الحلم**: هذا الحلم الذي هو هويّتنا حتى لو كان حلم يقظة.

وهيراقليط يعلّمنا بأنّنا إذا كنّا نملك عالماً واحداً بيقظتنا، فإنّ بالحلم كلٌّ منّا يملك عالمه. لقد سرقت الأشباح عالم كلٍّ منّا!

ـ هل تريد توجيه كلمة لأهلك في ليبيا ولقرّاء ميادين خصوصاً؟

ـ أوصي أهلي بوصيّة التاريخ البشري الذي برهن بعدم وجود إنسانٍ واحدٍ كان **سعيداً** بانتقامه، في حين برهنت تجربة الإنسانية بالمقابل على حضور هذه السعادة في ظلّ **التسامح**: هذا التسامح الذي سيستعير بُعْداً أثرى عندما نترجمه في كلمة أخرى هي **التعايش**. فنحن لا نستطيع أن نستبدل أمّتنا ما لم نستبدل وطننا، ولا نُفلح في استبدال وطننا ما لم نُضحِّ بهويّتها، ولا نملك أن نُضحّي بهويّتنا ما لم نتنكّر لطبيعتنا الإنسانية التي شرّفتها العناية الإلهية عندما نفختْ فيها من أنفاسها لتتميّز عن الحيوانات وبقية الكائنات. لقد عشتُ صنوف نزيفٍ تاريخيٍّ كان فيه الكُلّ يُقاتل الكُلّ عقب إنهيار أكبر إمبراطوريّات الأزمنة الحديثة وهي الإتحاد السوفييتي. وهو نزيفٌ مبرَّرٌ لأنه ردّة فعل منطقية لإستبدادٍ إستمرّ قروناً وقروناً لأنه موروثٌ عن امبراطورية أخرى هي روسيا القيصرية. ولكن العقل إنتصر أخيراً بعد أن سفح قرابين جمّة عندما أدرك الجميع أنّهم جميعاً في ظلّ

Twitter: @alqareah

الإستبداد كانوا **ضحايا**، وليس للضحية حقّ أن تقتل الضحية، لأن الكُفر الذي لا يُغتفَر هو قتل الضحية للضحية، فتوقّف النزيف وبدأت عشرات بل مئات القوميّات تتعايش بعد أن إكتشفت أيضاً أنها معجونة في الواقع من طينةٍ واحدة، وضحيّة لجلّادٍ واحد. فكيف نتوهّم نحن اليوم أننا نستطيع أن نبني لأنفسنا مجداً، أونحقّق لوطننا النبيل بين الأوطان شأناً، **بروح إنتقام** برغم أننا لم نكُن أُمَماً كما في الإمبراطورية السالفة الذكر، ولا حتى شعباً بالمفهوم التقليدي للشعب، ولكنّنا في الواقع **عائلة واحدة** مؤهّلة حتّى في حساب العدد أن تقطن حيّاً واحداً في مدينة مركّبة من عدّة مُدن كموسكو مثلاً؟ وهو ما لا يعني بالطبع أن نُجير مَنْ أجرم في حقّ أُناسٍ هم له عائلة من القصاص، لأن في القصاص لا تكمن حياة العائلة وحسب، ولكن بالقصاص يحيا المعني بالقصاص أيضاً. فالقصاص رسالة العدالة: عدالة تُحلّق بجناحين أحدهما ربوبيّ وهو: **الضمير**، وثانيهما أرضيّ وهو: **القضاء**. أمّا أن نُنصّب أنفسنا قُضاةً بدل قضاء الدنيا وقضاء الدِّين فذلك ليس عدلاً ولكنه ظمأٌ إلى الدمّ. وهيهات أن يرى السعادة إنسانٌ ظاميءٌ إلى الدمّ.

فتسامحوا أيُّها الليبيون رحمةً بأنفسكم لا رحمةً بأعدائكم، أو من ترون أنهم أعداء!

فهل بلّغتُ؟

الّلهمّ فاشهد!

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

ملحق 2
أُمُّ الوُجودِ

لأوّل وهلة يبدو الإسم بحرف المنطق: «**لالي**»، ولكنّه بجوهر السيرة «لآليء» جرّده التداول في ألسنة العوام من همزة المدّ في المستهلّ، وهمزة السطر في المنتهى تبسيطاً كان عرفاً عند العامّة.

كانت لؤلؤة الأجيال كما تقول السيرة، تيتّمت من الأبوَين مبكّراً جدّاً. ويبدو أن لهذا اليتم صلة بهوية مجازية نحتها الإسم استعارةً من اللؤلؤ، لأن مَنْ تيتّم وحده جديرٌ بماهية الملكوت، وبرسالة أمومة حفرت بصماتها آية في أسطورة الأجيال. لهذا السبب كانت الأمّ دوماً رديفاً لمفهوم قدسي هو: **الوطن**. ربّما استعارةً من هويّتها الغيبيّة المبثوثة في حرف أمّ العالم: **الطبيعة!**

ففي حضور الأمّ توجد الشهادة على الوجود. في حضور الأمّ يولد اليقين بوجود الوجود. الوجود بأبعاده الدنيا والقصوى. الوجود بصرخة الإستهلال المعبّرة عن إحساسنا بالوجود كألم، والوجود ببسمتها التي تبدّد الفزع من هول الوجود، وتعيد لنا السلام، كأنه البرهان الربوبي على الأمان. فهي هنا ليست الأرض التي تعيد لنا الثقة في أنفسنا، وفي قدرتنا على مغالبة الوجود وحسب، ولكنها

Twitter: @alqareah

السماء التي تعزّينا في محنتنا بوعد العودة إلى رحاب الفردوس المفقود.

الأمّ هنا لا تكتفي بأن تكون أمّاً من لحم ودمّ، أو أن تكون أرضاً نركن إليها، ونستطيع أن نعوّل عليها، ولكنّها تسمو لتغدو ربّةً نرنو إليها، ويقيناً نستعير منه لا الأمان وحسب، ولكن **الإيمان** أيضاً.

في هذا البرزخ يستعير الإسم هويّته الأصلية: **هويته الألوهيّة!**

ف«**لالي**» تحويرٌ طفيفٌ مستعارٌ من الملفوظة الليبية القديمة «**للاّ**» الدالّة على «**السيدة**». وهو في هوية المفهوم مستمدٌّ في الأصل من إسم الربوبية الكامن في حرف اللاّم مجرّداً، أي الـ«**إل**»؛ لأن لا سيّد يمكن أن يعلو الألوهة سيادةً.

ولهذا نجده بالدلالة ذاتها في كل لغات العالم القديم بدءاً من الليبية القديمة ونهايةً بالعربية مروراً بالمصرية القديمة والسومرية والعبرية واليونانية القديمة. ولمّا كانت تجربة نحت المفاهيم في لغة التكوين ذات الطبيعة الدينية تجربة كثيراً مّا كانت رهينة البُعْد الحسّي، فإن هذه اللاّم الجليلة هي رديف الـ«**إل**» الدّالّة على **الضوء** في جلّ اللغات المذكورة، لأن الضياء هو ما **يتلألأ**. وما يتلألأ **لؤلؤٌ** أيضاً. ولذا فإن العامّة لم يخطئوا عندما جرّدوا الـ«لالي» من الهمزتَين الشقيّتين. ولكن.. ولكن هل هذا هو كلّ شيء؟

كلاّ، بالطبع. فـ«**إل**» تُخفي في عبّها حمولة أخرى أعظم شأناً من اللؤلؤ ومن الضوء إذا استحقّت أن تكون كناية مناسبة لإسمٍ جليل كالربوبية. إنها هنا لام **الملكيّة**. ففي الليبية القديمة الموروثة عن أهل

Twitter: @alqareah

الصحراء الكبرى، وكذلك في المصرية القديمة، وفي العربية أيضاً تدل هذه اللاّم على «**المالك**». ولمّا كان لا مالك حقيقي تحت قبّة السماء غير **الإله**، فقد صار من الطبيعي أن نُطلق على الذات الإلهية. ولا خليفة لذات ألوهية على الأرض غير **الأمّ**، لأن حضورها في الواقع حضورٌ **ملموس**، وليست بُعْداً **غائباً** كما هو الحال مع الأب. فوجودها وحده البرهان على الوجود. أمّا الأب فحضوره في الصفقة حضورٌ روحي، أي رمزي. ولذلك هو **غيبي**. أي أنه بالمقارنة مع حضور الأمّ البعد المفقود في ميتافيزيقا الوجود.

ولهذا فإن فقدان الأمّ بليّة مراراً لا مرّة واحدة. فهو فقد لهويّة، وشهادة قاسية على اغتراب. إغترابٌ مركّب هذه المرّة لأنه إضاعة للحُجّة، وتيهٌ عن البرهان. إنه قيامة. قيامة في حجمها المصغّر إن لم يكن قيامةً في حجمها المكبّر.

عند فقد الأمّ فقط نتيتّم فعليّاً، لأن الأمّ وحدها لا تختفي خارجنا عندما تختفي من الوجود، ولكنّها تختفي فينا. وعندما تختفي الأمّ فينا فإن الطبيعة تموت فينا. عندما نفقد الأمّ فقط تتخلّى عنّا الطبيعة، وتميد الأرض تحت أقدامنا، فنتحوّل أرواحاً هائمة في الفراغ، لأن حبل السرّة الذي يربطنا بأرض الوجود قد انقطع.

بغياب الأمّ لا نفقد صلتنا بالطبيعة وحسب، ولكننا نفقد روح الطبيعة التي تحيا فينا. ليس هذا وحسب، ولكن غياب الأمّ من العالم يُفقدنا إيماننا بأنفسنا، بل وبإيماننا بالألوهة التي تسكننا.

فماذا يبقى منك أيُّها الإنسان الفاني إذا فقدتَ أمّا كانت لك أرضاً، وفقدتَ إيماناً هو لك ربّ؟

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

مُؤلَّفاتُ إبْراهِيم الكُوني

1 ـ الصلاة خارج نطاق الأوقات الخمسة (قصص) 1974م.

2 ـ جرعة من دم (قصص) 1983م.

3 ـ شجرة الرتم (قصص)1986م.

ـ رباعية الخسوف 1989م.

4 ـ البئر (رواية)..

5 ـ الواحة (رواية).

6 ـ أخبار الطوفان الثاني (رواية).

7 ـ نداء الوقواق (رواية).

8 ـ التبر (رواية) 1990م.

9 ـ نزيف الحجر (رواية) 1990م.

10 ـ القفص (قصص) 1990م.

11 ـ المجوس (رواية) الجزء الأول 1990م.

12 ـ المجوس (رواية) الجزء الثاني 1991م.

13 ـ ديوان النثر البري (قصص) 1991م.

14 ـ وطن الرؤى السماوية (قصص) 1991م.

15 ـ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس (قصص) 1992م.

16 ـ خريف الدرويش (رواية ـ قصص ـ أساطير) 1994م.

Twitter: @alqareah

17 ـ الفم (رواية) 1994م.

18 ـ السحرة (رواية) الجزء الأول 1994م.

19 ـ السحرة (رواية) الجزء الثاني 1995م.

20 ـ فتنة الزؤان (رواية) 1995م.

21 ـ برّ الخيتعور (رواية) 1997م.

22 ـ واو الصغرى (رواية) 1997م.

23 ـ عشب الليل (رواية) 1997م.

24 ـ الدمية (رواية) 1998م.

25 ـ صحرائي الكبرى (نصوص) 1998م.

26 ـ الفزاعة (رواية) 1998م.

27 ـ الناموس (الجزء الأول) 1998م.

28 ـ في طلب الناموس المفقود (الجزء الثاني من الناموس) 1999م.

29 ـ سأسِرُّ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الأول، الشرخ، 1999م.

30 ـ أمثال الزمان (الجزء الثالث من الناموس) 1999م.

31 ـ سأسرُّ بأمري لخلاني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثاني، البلبال، 1999م.

32 ـ سأسرُّ بأمري لخلاني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثالث، برق الخُلَّب، 1999م.

33 ـ وصايا الزمان 1999م.

34 ـ نصوص الخلق 1999م.

35 ـ ديوان البر والبحر (نصوص) 1999م.

36 ـ الدنيا أيام ثلاثة(رواية) 2000م.

Twitter: @alqareah

37 ـ نزيف الروح (نصوص) 2000م.

38 ـ أبيات (نصوص) 2000م.

39 ـ بيت في الدنيا وبيت في الحنين (رواية) 2000م.

40 ـ رسالة الروح.

41 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 1 أوطان الأرباب 2001م.

42 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 2 أوطان الأرباب 2001م.

43 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 3 أوطان الأرباب 2001م.

44 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 4 (المقدمة في ناموس العقل البدئي).

45 ـ بيان في لغة اللاهوت (ملحمة المفاهيم) جزء 5.

46 ـ منازل الحقيقة 2003م.

47 ـ أسطورة حب إلى سويسرا 2003م.

48 ـ لحون في مديح مولانا الماء 2002م.

49 ـ البحث عن المكان الضائع (رواية) 2003م.

50 ـ أنوبيس (رواية) 2002م.

51 ـ الصحف الأولى (أساطير ومتون) 2004م.

52 ـ مراثي أوليس (رواية) 2004م.

53 ـ صحف إبراهيم (متون) 2005م.

54 ـ المحدود واللامحدود (متون) 2002م.

55 ـ ملحمة المفاهيم (موسوعة البيان) ج6، 2005م.

56 ـ ملكوت طفلة الربّ (رواية) 2005م.

57 ـ لون اللعنة (رواية) 2005م.

58 ـ هكذا تأملت الكاهنة ميم (متون) 2006م.

Twitter: @alqareah

59 ـ ملحمة المفاهيم ج3، (موسوعة البيان) ج7، 2006م.

60 ـ نداء ما كان بعيداً (رواية) 2006م.

61 ـ في مكان نسكنه.. في زمانٍ يسكننا (رواية) 2006م.

62 ـ يعقوب وأبناؤه (رواية) 2007م.

63 ـ قابيل.. أين أخوك هابيل؟! (رواية) 2007م.

64 ـ الوَرَم (رواية) 2008م.

65 ـ يوسف بلا إخوته (رواية) 2008م.

66 ـ من أنت أيها الملاك؟ (رواية) 2009م.

67 ـ رسول السماوات السبع (رواية) 2009م.

68 ـ جنوب غرب طروادة جنوب شرق قرطاجة (رواية) 2011م.

69 ـ فرسان الأحلام القتيلة (رواية) 2012م.

مؤلفات إبراهيم الكوني النظرية

70 ـ نقد ندوة الفكر الثوري 1970م.

71 ـ ثورات الصحراء الكبرى 1970م.

72 ـ ملاحظات على جبين الغربة 1974م.

73 ـ وطني صحراءٌ كُبرى (متون) 2010م.

74 ـ ثوبٌ لم يُدنَّس بسَمِّ الخِياط (متون) 2012م.

75 ـ عَدُوسُ السُّرى (المذكّرات) جزء أوّل 2012م.

76 ـ عَدُوسُ السُّرى (المذكّرات) جزء ثاني 2013م.

77 ـ عَدُوسُ السُّرى (المذكّرات) جزء ثالث 2014م.

Twitter: @alqareah

الفهرس

Twitter: @alqareah

THE NIGHT'S WANDERER



عدوس السُرى

رُوحُ أمَمٍ في نَزيفِ ذاكِرَة







ISBN 978-614-419-417-1

